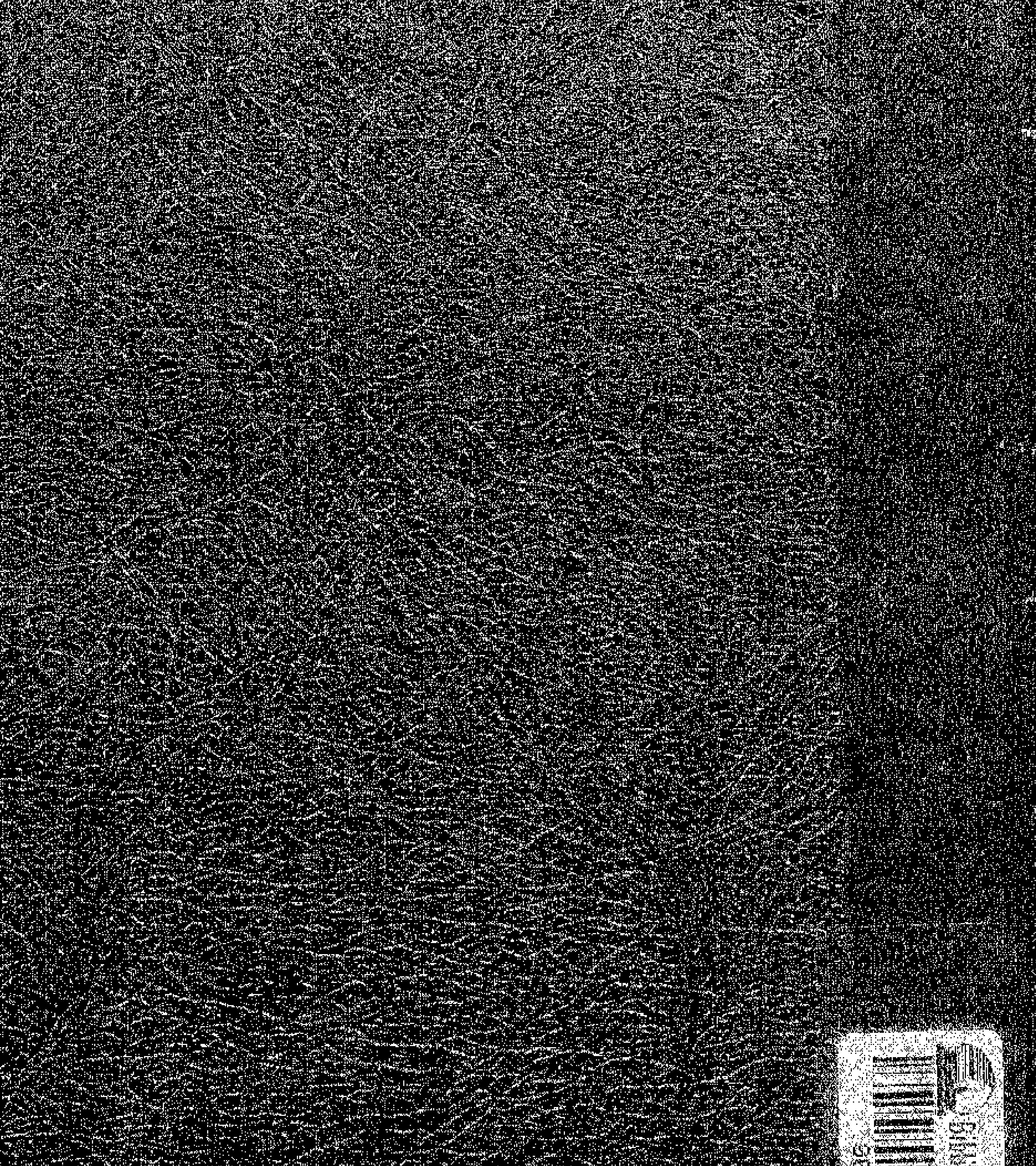


يوسف مراد والمذهب التكاملي

إعداد وتقديم

د. مراد وهبه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٤

تقديم

يوسف مراد كما عرفته

عرفته ، لأول مرة ، عندما قرأت له كتابا بعنوان « شفاء النفس » .

وهو فى هذا الكتاب ، على نمط غيره من كتبه ، دقيق اللفظ واضح المعنى .

ورأيته ، لأول مرة ، حين كنت طالبا فى السنة الثانية بقسم الفلسفة بجامعة القاهرة .

وهو فى محاضراته صاحب دعوة الى برهان الواقع والمنطق .

ودعانى الى منزله وأنا طالب فى السنة النهائية . وكان يوم جمعة حيث يعقد ندوة علمية تضم نخبة من تلاميذه .

وهو فى هذه الندوات صاحب عاطفة محبة وصاحب ذهن مفتوح .

ومن أجل ذلك لم يكن منهجه العلمى غريبا عن شخصيته ، فاسم المنهج « التكاملية » .

والحركة الدائرية اللولبية هى الفكرة المحورية لهذا المنهج .

وماذا تعنى هذه الحركة ؟

سلبا ، هى ليست حركة ميكانيكية .

لماذا ؟

لأن الحركة الميكانيكية هي حركة آلية تخلو من المتناقضات ، والخلو من المتناقضات يمنع الوجود من التطور الخلاق .

ثم هي ليست حركة دائرية .

لـــماذا ؟

لأن الحركة الدائرية تعود بالمتحرك الى نقطـــة البدء فتؤدى ، فى النهاية ، الى الجمود والثبات بينما الوجود تجديد وتطور .

ومعنى ذلك كله ، سلبا ، أن التطور لا يسير طبقا لخط مســتقيم مطرد ، كما أن الارتقاء ليس تقدما الى الأمام ثم نكوصا الى الوراء بحيث يعود الأمر الى نقطة البدء ، بل ان فى كل نمو نكوصا وتراجعا الى حد ما .

اذن ماذا تعنى الحركة الدائرية اللولبية ؟

ايجابا ، هى التقدم والترقى خلال فترات التراجع والنكوص ، أى هى الرجوع قليلا الى الوراء استعدادا لوثبة جديدة تحمل الكائن النامى الى أبعد مما وصل اليه فى وثبة سابقة . وهكذا تتعاقب الوثبات أو الطفرات من أجل تحقيق الغاية التى يريدها الكائن الحى .

ونســـأل :

ما الغاية التى يريد تحقيقها الكائن الحى ؟

جواب يوسف مراد أن الغاية هى تحقيق « التكامل » ليس الا .

يبقى أن المنهج المفروض اتباعه فى دراسة الكائنات الحية هو منهج تكاملى بالضرورة .

وقد استخلص يوسف مراد معالم هذا المنهج أثناء دراسته فى باريس للحصول على اجازة دكتوراه الدولة . وقد حصل عليها فى يناير ١٩٤٠ برسالتين احداهما رئيسية والأخرى تكميلية .

عنوان الرسالة الرئيسية « بزوغ الذكاء ــ دراسة فى علم النفس التكوينى والمقارن » .

وعنوان الرسالة التكميلية « علم الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازى » .

وقد أشرف على الرسالة الرئيسية العالم الفرنسى الكبير بول جيوم

الذى قال عنها « ان من مميزاتها أنها تقدم لعلماء النفس الفرنسيين حقائق ونتائج تجريبية هم للأسف يجهلونها » ٠

ولهذا نسأل :

ما الجديد فى هذه الرسالة ؟

الجديد هو المنهج ٠ فقد لاحظ يوسف مراد أن ثمة منهجين يعتمد عليهما علماء النفس لتفسير السلوك الانسانى ٠

منهج يعتمد على التفسير التكوينى ، وذلك بأن يربط بين الماضى والحاضر ، أى بين السلوك كما هو مشاهد الآن ، وبين ما اكتسبه الفرد فى تجاربه السابقة ٠

ويرى يوسف مراد أن العيب فى هذا المنهج هو التفسير بربط المعلولات بالعلل ٠ وهذا الربط يجرد الحياة النفسية من كل حرية ، ويخرج من دائرة علم النفس عاملا أساسيا من عوامل تكوين الخلق وهو الارادة ٠

ومنهج آخر يستند الى التفسير الشبكى ، بمعنى تناول مظاهر السلوك الانسانى كما يبدو فى اللحظة الراهنة ٠

وخطأ هذا المنهج ، فى رأى فيلسوفنا ، هو أنه يعزل الانسان عن ماضيه ، فى حين أن مضمون الشعور كما هو الآن ليس الا جزءا من الحياة النفسية كلها ٠

وكان لابد ليوسف مراد من التنقيب عن منهج جديد يخلو من هذه العيوب ٠ وكان هو المنهج التكاملى ٠

غير أن هذا المنهج الجديد ليس مجرد ضم للمنهج التكوينى والمنهج الشبكى ٠ ذلك أن هذين المنهجين لا يعطيان أهمية الا للماضى والحاضر ، فى حين أن المستقبل له أهمية كذلك ٠ وأهمية المستقبل كامنة فى أن لكل كائن غاية يريد أن يحققها ، وهو لن يحققها الا فى المستقبل ٠

وتحديد الغاية يتم بدراسة « المجال » الذى يتحرك فيه الكائن الحى ٠

والمجالات ثلاثة : المجال البيولوجى والمجال السيكلوجى والمجال الاجتماعى ولكل مجال من هذه المجالات عامل تكامل ٠

عامل التكامل البيولوجى هو الجهاز الدورى والجهاز العصبى والجهاز

السمبتاوى ، لأن هـــذه الأجهزة تحقق تكيف الكائن الحي مع الداخـل والخــارج .

وعامل التكامل السيكلوجى هو الذاكرة ، لأن الذاكرة هي القدرة على تركيز خبرات الشخص فى الذات الشاعرة ، والخبرات هي بمثــابة امتداد للماضى وتمهيد للمستقبل .

وعامل التكامل الاجتماعى هو اللغة ، لان عامل التكامل يشترط فيه الثبات ، واللغة عامل ثبات من حيث انها تنطوى على معان ثابتة الى حد بعيــــد .

وبفضل المجالين ، السيكلوجى والاجتماعى ، اتجه اهتمام يوسف مراد الى دراسة « الانسان » من زاوية التكامل ومن زاوية التفكك . ففى رأى فيلسوفنا أن التكامل ينطوى بالضرورة على التفكك . غير أن التفكك ينبغى أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه والا تحول الانسان الى شخصية مرضية .

وقد تأثر يوسف مراد بمدرســـة التحليل النفسى فى الكشف عن عوامل التكامل وعوامل التفكك . بيد أن هذا التأثر انما هو الى حد . فنفس الانسان ، فى نظر فرويد مؤسس التحليل النفسى ، تنطوى على صراع بين قوتين أو مجمـوعتين متضـــادتين من الدوافع هما غريزة الموت وغريزة الجنس . ويرى فرويد أن الغلبة ، فى نهاية المطاف ، لغريزة الموت ، أى للسيطرة والاعتداء وهلاك المجتمع . وقد نشر فرويد هذا الرأى فى كتابين أحدهما بعنوان « مستقبل خداع » The Future of an Illusion والثانى بعنـــــوان « المدنية وما تنطـــوى عليــه من عدم الرضى » Civilization and its Discontents

فى حين أن يوسف مراد يقرر ، على النقيض من فرويد ، أن الغلبة للحب ، أى أن الغلبة لعوامل التكامل وليس لعوامل التفكك ، والدليل على ذلك نمو الطفــل ذاته وتكامل شخصيته ، فالطفل لا تنمو شخصيته الا بالحب الذى تمنحه اياه أمه ، وحرمان الطفل من هذا الحب هو الذى يؤدى الى تفكك شخصيته ، اذن التفكك هو نتيجة لغياب الحب ، هو رد فعل وليس فعلا أصيلا .

ومن ثم يخلص يوسف مراد الى نتيجة مهمة هى أن العوامل النفسية تلعب دورا فعالا فى تحديد السلوك الاجتماعى ، الأمر الذى يدعمه

الى الاهتمام بتحديد العلاقة بين العوامل النفسية والعوامل الاقتصادية فى النشاط الاجتماعى . وقد انتقى مجال العمل فى المؤسسات العمالية ، وهو المجال الذى تتضح فيه معالم هذه العلاقة ، فاكتشف ، من التجارب التى أجريت فى هذا المجال ، أن رغبة العامل فى الترقى تأتى فى المرتبة الأولى لما تنطوى عليه من تقدير اجتماعى فى حين أن الرغبة فى الأجر المرتفع تأتى فى المرتبة السادسة أو السابعة .

والنتيجة المحتومة بعد ذلك غلبة المعنويات على الماديات . وهذه النتيجة متسقة مع نظرية يوسف مراد فى الانسان. فان مايميز الانسان من الحيوان ، فى رأيه ، هو قدرته على التجريد والتعميم ، فى حين أن قدرة الحيوان مقصورة على النشاط الحركى والحسى . ومن طبيعة الحواس أن تكون آلات انفعال لا آلات فعل ، أما التفكير فهو آلة فعل .

ويترتب على هذه التفرقة بين الحس والعقل وجود نوعين من الفهم : الفهم الحسى والفهم العقلى .

الفهم الحسى سطحى لأنه عبارة عن اقامة المقارنة بين أمرين جزئيين بدون محاولة ربطهما بحقيقة كلية . أما الفهم العقلى فهو عميق لأنه يقوم على المعنى الكلى ، المعنى المجرد . والمعنى المجرد هو القانون الذى يصلح تطبيقه على عدد لا نهاية له من الحالات الجزئية .

وقد حاول يوسف مراد بعد ذلك أن يبلور نظريته فى الانسان فى كتاب بعنوان « افهم نفسك » . بيد أن الكتاب ظل مجرد مشروع ، ولم يظهر منه الا أربع مقالات نشرها فى « المجلة » عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ وهى على التوالى . معرفة الآخر ـ اللغز الأكبر ـ الواجب الأكبر ـ عقبات فى الطريق .

وخلاصة القول فى هذه المقالات أن الانسان فى حاجة الى الآخر كى يكشف أسرار نفسه ، وأن هذا « الآخر » هو رمز على المجتمع . فاللغة التى يستعملها الفرد وسائر الحركات التعبيرية والايماءات ليست سوى أدوات للاتصال بالآخرين أو لمنع الاتصال بهم أو لتشويه هذا الاتصال . ومعنى ذلك أن استجابة الفرد للمجتمع حتمية ، غير أنها ليست دائما مطابقة لنداء المجتمع . فثمة امكانيات مادية لا تظهر بفضل المجتمع فحسب ، بل على الرغم منه . ومن هنا مولد الشعور بالذاتية . بيد أن هذا الشعور بالذاتية لا يفيد التناقض مع المجتمع وانما يفيد العلو عليه .

فمهما يكن الفرد مدينا للمجتمع فهو يعلو عليه · وهذا العلو هو الذى يتيح للأبطال الانسانية أن يطوروا المجتمع ·

والنتيجة المحتومة لهذا العلو أن يوسف مراد يقف على الضد من المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى تقرر أن الفرد صورة مكررة من المجتمع ، وأن العقل الجمعى هو الأول وهو الأخير ·

غير أنه يقف كذلك على الضد من الوجودية التى تمجد الفرد وتقلل من شأن المجتمع · فحقيقة الأمر أن الانسان يترجح خلال نموه النفسى والاجتماعى بين قطبين متطرفين متضادين كلاهما شر : أحدهما هو الانعزال عن المجتمع والانطواء على النفس ، والآخر هو التطابق الأعمى مع المجموعة الصماء وسيطرة روح القطيع . القطب الأول يؤدى الى عبادة الذات . أما القطب الآخر فيؤدى الى تلاشى الشخصية الحية والاستعاضة عنها بشخصية مزيفة مصطنعة مستعارة والى افناء الفرد داخل الجماعة بل الى عبادة الجماعة .

وليس من مخرج لهذا الترجح غير ظاهرة العلو · ونحن نعثر على هذه الظاهرة عند البطل على الاطلاق ، وعند الفنان على التخصيص .

ولماذا الفنان على التخصيص ؟

لأن مجال الفن هو المجال الذى انجذب اليه يوسف مراد قبل موته بعشر سنوات حين كان يعانى من احساس مرير بالاغتراب · فمارس فن التصوير ، وقرأ للفنانين وعن الفنانين · وكان يرى أن النشاط الفنى ينطوى على الابداع ، والابداع كفيل بالقضاء على الاحساس بالقلق والملل ·

هذا هو يوسف مراد ، وهذا هو مذهبه ، وفيه بصمات من مذاهب فلسفية ونظريات علمية ·

ينقل عن أرسطو فكرة الغائية من حيث ان الغاية تنطوى على وحدة نظامية تعين الأجزاء وتعين ائتلافها · غير أن العلية الغائية ، عند يوسف مراد ، ليست مرتبطة بالماهية كما هو الوضع عند أرسطو ، وانما هى مماثلة لفكرة الكليات كما هى عند المدرسة الجشطلتية ، بمعنى أن سلوك الكائن لا يتحدد على أساس سلوك عناصر هذا الكائن كل عنصر على حدة ، وانما يتحدد على أساس سلوك الكل أو البناء العام · والكل ، فى نظر يوسف مراد ، ينطوى على تناقض · ومن ثم يأخذ من هيجل المنهج الديالكتيكى · ولكنه يسترشد فى تطبيق هذا المنهج بالحركة الدائرية

اللولبية التى دعا اليها انجلز . ومن هنا فان التطور الذى ينطوى على هذه الحركة رغم ملامحه الداروينية عنـد يوسف مراد ، طفروى بمعنى أن كل مرتبة حيوانية تحتفظ بنوعيتها واستقلالها الذاتى .

ماذا تعنى هذه البصمات فى نهاية المطاف ؟

تعنى « توليفة » فلسفية يمتنع معها الانغلاق فى مذهب محدد . بيد أنى كنت أتســـاءل ، الفينة بعد الفينة ، كيف يمكن أن يكون الانسان صاحب مذهب من غير أن ينغلق على ذاته ؟ وقد حاولت الجواب عن هـذا السؤال فى كتابى « المذهب فى فلسفة برجسون » .

أما بعـــد .

فهذا الكتاب ليس الا جملة أبحاث ومقالات نشرها يوسف مراد متفرقة فى مجلات علمية ، وننشرها اليـوم مجتمعة تحية تقـــدير وتوقير ، وتحية اكبار واجلال لهذا العالم الفيلسوف .

القاهرة فى ٢٣ من سبتمبر ١٩٧٣

مراد وهبه

القسم العربي

حياة يوسف مراد العلمية

التاريخ العلمي

ولد في القاهرة في ٢٨ من ديسمبر ١٩٠٢

الدراسة الابتدائية والثانوية في مدارس « الفرير » .

حصل على البكالوريا قسم أدبي سنة ١٩٢١ وكان ترتيبه السابع وعلى البكالوريا قسم علمي سنة ١٩٢٥ وكان ترتيبه الحادى والأربعين .

كان موظفا في وزارة المالية ومصلحة الصحة العمومية من يونيو ١٩٢٠ حتى آخر سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

عمل مدرسا في القسم الابتدائي في مدرسة العائلة المقدسة في الفجالة من أكتوبر ١٩٢٣ حتى يونيو ١٩٢٦ .

التحق بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، في أكتوبر ١٩٢٦ .

تخرج في قسم الفلسفة في مايو ١٩٣٠ وكان ترتيبه الأول بدرجة « جيد جداً » .

أوفد في بعثة الى فرنسا في سبتمبر ١٩٣١ وحصل على :

شهادة الدراسات العليا في علم النفس بدرجة جيد مع تهنئة لجنة الامتحان في الاختبار الشفوى لعلم النفس في ٢٧ من يونيو ١٩٣٢ .

شهادة الدراسات العليا في الأخلاق والاجتماع في ٢٩ من يونيو ١٩٣٢ .

شهادة الدراسات العليا في تاريخ الفلسفة العام في ٥ من يونيو ١٩٣٣ .

شـــهادة الدراسات العليا فى الفلسفة والمنطق بدرجة مرضى فى ٨ من يوليو ١٩٣٣ ٠

دبلوم الدراسات العليـــا فى الفلسفة بدرجة جيد فى ١٢ من يونيو ١٩٣٤ ـ برسالة فى « سيكولوجية الجهد » (١٧٥ صفحة)(*) ٠

وعلى شهادة الدراسات الطبيعية (لدخول مسابقة الأجريجاسيون فى الفلسفة) فى يوليو ١٩٣٤ ٠

حضر دروس الأجريجاســيون فى الفلســفة فى العـــــام الدراسى ١٩٣٤ ــ ١٩٣٥ وتقـــدم للمسابقة ٠ والغرض من هـــذه المسابقة تعيين الأوائل لشغل الوظائف الشاغرة لتدريس الفلسفة فى المدارس الثانوية٠ وكان عدد الطلبة الذين دخلوا المسابقة ١٢٨ طالبا وعدد الوظائف الشاغرة فى هذه السنة سبع وظائف ٠ ولم يكن يوسف مراد من بين هؤلاء فاكتفى بما حصله من علم ومن تدريب على التدريس ، وسجل موضـــوع رسالتى الدكتوراه فى ديسمبر ١٩٣٥ ٠ وموضـــوع الرسالة الرئيسية : بزوغ الذكاء : دراسة فى علم النفس التكوينى والمقارن ٠ وموضوع الرسالة التكميلية : علم الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازى٠

٠ وفى أثناء اعداد الرسالتين قام برحلات دراسية للاطلاع على بعض المراجع وبخاصة على المخطوطات العربية المتعلقة بالرســالة التكميلية فى المدن الآتية : لندن ، اكسفورد ، كمبردج ، ليدن ، برلين وميونيخ ٠

وحصل على دكتوراه الدولة بمرتبة الشرف الأولى فى ٢٧ من يناير ١٩٤٠ ٠

وفى أثناء اقامته فى البعثة ألقى عدة محاضرات فى جمعية الدراسات السيكولوجية بالسربون منها اثنتان فى موضوع التحليل النفسى لفرويد٠ كما نشر بعض الأعمال فى المجلات العلمية ٠

عـاد يوســـف مراد الى مصر فى فبراير ١٩٤٠ وقـام بتـدريس علم النفس باللغـــة العربية لأول مـرة فى الكليـــة وحل محل الأستاذ الفرنسى ٠

(*) يكون الطالب قد حصل على ليسانس التعليم فى الفلسفة ودبلوم الدراســات فى الفلسفة فى أقل مدة ممكنة وهى ثلاث سنوات ٠

وجاء في المذكرة المرفوعة الى مجلس الكلية من عميد الكلية بشأن ترشيح الدكتور يوسف مراد مدرسا لعلم النفس بقسم الفلسفة مايلي:

« ويعتبر الدكتور يوسف مراد أول عضو بعثة في الجامعة المصرية يعود الى مصر بعد حصوله على دكتوراه الدولة من فرنسا » .

« والدكتور يوسف مراد فيلسوف تخصص في علم النفس وبالأخص ما هو متعلق منه بالأطفال والحيوانات ، وتعتقد الكلية أنه سيواصل في مصر عمله العلمي وأبحاثه لأنه يحب مهنته حقا وقد كانت نتيجة عمله في البعثة مشرفة له ولبلده وللجامعة التي تخرج فيها » .

وجاء في خطاب عميد الكلية بتاريخ ١٩٤٠/٣/١٩ لسكرتير عام الجامعة :

«...ولم تمد بعثته بسبب الرسوب في أى امتحان من امتحاناته» .

وفي خطاب آخر بتاريخ ١٩٤٠/٤/٢٤ :

« ... وحيث ان نتيجة عمل حضرته في البعثة كانت مشرفة له ولبلده وللجامعة التي تخرج فيها وأنه أول عضو بعثة حصل على دكتوراه الدولة من فرنسا بدرجة الشرف الأولى اذ أن زملاءه الذين سافروا الى فرنسا للحصول على تلك الدرجة عادوا بعد انتهاء مدة بعثتهم في سنة ١٩٣٨ ولم يحصلوا عليها وعينوا مساعدى مدرسين (*) » .. ظل الدكتور يوسف مراد في وظيفة مدرس منذ عودته من البعثة حتى ٢٩ مارس سنة ١٩٤٧ حيث رقى الى أستاذ مساعد ، ثم رقى الى وظيفة أستاذ لكرسى الفلسفة في ١٩ من أكتوبر ١٩٥٠ ونقل الى كرسى علم النفس في ١٩٥٦/١١/٢٨ وقام بأعمال رئاسة القسم من سنة ١٩٥٣ حتى سنة ١٩٥٧ ثم تخلى بارادته عن رئاسة القسم في ١٩٥٧/٢/٢٥ .

وفيما يلي بعض أوجه النشاط العلمي أثناء قيامه بالتدريس منذ سنة ١٩٤٠ حتى ١٩٦٢ .

١ ــ الاشراف على ١٦ رسالة للماجستير و ٤ رسائل للدكتوراه تمت

(*) سافرت الدفعة الاولى من الطلبة في بعثة الى فرنسا سنة ١٩٣٠ وعادوا جميعا دون الحصول على الدكتوراه . وسافرت الدفعة الثانية سنة ١٩٣١ ومن ضمنها يوسف مراد فكان الوحيد الذى حصل على دكتوراه الدولة فعاد جميع زملائه عام ١٩٣٩ ومكث في باريس حتى فبراير ١٩٤٠ لطبع الرسالتين ومناقشتهما .

مناقشتها وأعلنت نتيجتها من ١٩٤٢ الى ١٩٦١ موضحة فى كشف مرفق بهـذا ٠

٢ ـ محاضرات عامة باشراف الكلية ألقيت فى قاعة الجمعية الجغرافية فيما يلى بيانها باختصار :

عام ١٩٤١ ـ محاضرتان باللغة العربية فى « الشخصية » أربع محاضرات باللغة الفرنسية فى « علم النفس الحيوانى » ٠

عام ١٩٤٢ ـ أربع محاضرات باللغة العربية فى «الانفعالات» أربع محاضرات باللغـة الفرنسـية فى « سيكولوجية المراهقة »

عام ١٩٤٣ ـ محاضرتان فى صلة التربية بالعلم والفلسفة

٣ ـ تأسيس جماعة علم النفس التكاملى عام ١٩٤٥ وانشاء مجلة علم النفس فى يونيـو ١٩٤٥ ٠ واشـترك معه فى رئاسـة التحرير الدكتور مصطفى زيور ٠ كانت تصدر ثلاث مرات فى السـنة واستمرت حتى فبراير ١٩٥٣ ٠ ويبلغ عـدد صفحات المجلدات الثمانية ٣٦٢٢ صفحة ٠

نشر بحوثا للأسـاتذة ولطلبة الدراسات العليـا ، ومقـالات بالانجليزية والفرنسية كتبها خصيصا للمجلة كبار أسـاتذة علم النفس فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ٠

ونشرت أعدادا خاصة : علم نفس الطفل ، سيكولوجية الفن والابداع ، علم النفس والحرب ، علم النفس الصناعى ٠

٤ ـ الاشراف على اصدار الكتاب السـنوى فى علم النفس عام ١٩٥٤ (٥٢٨ صفحة) ٠

٥ ـ الاشراف على اصدار « منشورات جماعة علم النفس التكاملى » ٠ نشر فى هذه المجمـوعة ١٥ كتابا معظمها رسـائل الماجسـتير والدكتوراه التى أشرف عليها ٠

٦ ـ عضو لجنة مصطلحات علم النفس فى مجمع اللغة العربية فى عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٣ ٠

٧ ـ القاء سلسلة محاضرات فى كلية أركان الحرب ابتداء من ديسمبر ١٩٤٦ موضـــوعاتها : أهمية علم النفس من الوجهـة التطبيقية ـ تطبيق الاختبارات فى اختيـار ضباط الجيش ـ وسائل اختيار الطيارين فى الجيوش الحديثة ـ الادراك ووسائل التمويه الحربى ـ الدعاية وأهمية الروح المعنوية ـ علم النفس والقوانين الدولية ٠ وقد أبدى بعض كبار ضـــباط الجيش الذين استمعوا الى هـــذه المحاضرات رغبتهم فى ادخال نظام الاختبارات السيكولوجية فى الجيش وانشاء العيادات السيكولوجية بجانب العيادات الطبية ، وقد حققت هذه الرغبة بعد الثورة مباشرة فى أغسطس ١٩٥٢ ٠

٨ ـ الاشتراك فى « ادارة التـدريب الحربى » فى تنظيم قسم الخدمة السيكولوجية فى الجيش فى أغسطس ١٩٥٢ ، وتطبيق اختبارات الذكاء والشـــخصية على طلبة الـكلية الحربية فى ١٠ و ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ ٠

٩ ـ القـــاء محاضرتين فى كلية أركان الحرب فى الانفعالات والتمويه والاخفاء فى ٢٨ و ٣١ من يناير ١٩٥٣ ٠

١٠ ـ الاشتراك فى مؤتمر علم النفس التطبيقى بباريس فى صيف ١٩٥٣ والتدريب لمدة شهر على الاختبارات فى مركز الخدمة السيكولوجية للجيش الفرنسى فى مدينة فرساى ٠

١١ ـ الاشتراك فى المؤتمر الدولى السابع عشر لعلم الاجتماع فى بيروت فى ســـبتمبر ١٩٥٧ والقـــاء بحث فى دور الفن فى التـكامل الاجتمـاعى ٠

١٢ ـ بعد الاعتـداء الثلاثى على مصر وخروج الأساتذة الفرنســيين من الكلية كلفه العميد باعطاء المحاضرات الآتية باللغة الفرنسية لطلبة قسم اللغة الفرنسية بالاضافة الى محاضراته فى قسم الفلسفة ، وذلك ابتداء من الفصل الدراسى الثانى للعام الدراسى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ حتى نهاية السنة الدراسية ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ : مادة الحضارة الفرنسية ، تاريخ الفنـــون التشكيلية فى القرن ١٨ و ١٩ فى فرنسا ٠ ونظمت هذه الدراسة فى ضوء علم الجمال وسيكولوجية الفن والتحليل النفسى ٠

مادة النقد الأدبى : ابتداء من العام الدراسى ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ، مع مقدمة فى الأسس النفسية للنقد الأدبى ٠

ولطلبة الماجستير فى ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ : سيكولوجية الابداع الفنى فى الشعر كما يراها الشعراء أنفسهم ٠

١٣ ـ فى العــام الدراسى ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ألقى عشر محــاضرات فى سيكولوجية الفن لأعضــاء مرسم الفنــون الجميلة بكلية الفنــون الجميلة ٠

١٤ ـ محاضرات عامة فى علم النفس والأدب والفنون الجميلة ألقاها فى متحف الفن الحديث وندوة الكتاب ، وآتيلييه الاسكندرية والقاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية ، والأحاديث فى علم النفس وفى مدارس الفنون التشكيلية الحديثة فى الاذاعة ـ البرنامج الثانى ٠

١٥ ـ وأخيرا وقع اختيار وزارة الثقــافة عليه للاشراف على الدراسات العليا المسائية فى التذوق الفنى ٠

الرســـائل التى أشرف عليهـا يوسـف مراد وتمـت مناقشتها مع ذكر الوظيفة الحالية لأصحاب هذه الرسائل

١ ــ ١٩٤٢ : نظرية الجشطلت وأثرها فى تعلم اللغة ــ للدكتور مصطفى فهمى ، أستاذ كرسى الصحة النفسية فى كلية التربية بجامعة عين شمس ٠

٢ ــ ١٩٤٣ : علم النفس الفردى (*) ــ للدكتور اسحق رمزى ٠

٣ ــ ١٩٤٤ : الانتباه الارادى ــ للدكتور أبو مدين الشافعى ٠

٤ ــ ١٩٤٥ : مشكلة ثبات الادراك عند الجشطلت ــ للدكتور أحمد زكى صالح ، أستاذ كرسى علم النفس التربوى بكلية التربية بجامعة عين شمس ٠

٥ ــ ١٩٤٧ : الزعامة عند الطفل ــ للدكتور ماهر كامل ، أستاذ فى احدى الجامعات الأمريكية ٠

٦ ــ ١٩٥٠ ــ الأسس النفسية للابداع الفنى (*) ــ للدكتور مصطفى سويف ، أستاذ علم النفس بآداب القاهرة ٠

٧ ــ ١٩٥١ : تطور الشعور الدينى عند الفرد(*)ــ للدكتور عبد المنعم المليجى ، أستاذ فى احدى الجامعات الأمريكية ٠

٨ ــ ١٩٥٢ : الفرضية فى الســلوك الانســانى(*) ــ كمال الدين عبد الحميد نايل ٠

٩ ــ ١٩٥٤ : تكوين المعنى الكلى عند الطفل ــ للدكتور كمال دسوقى أستاذ علم النفس بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ٠

١٠ ــ ١٩٥٥ : القلق عند الأطفال ــ الآنسة فايزة على كامل ، اخصائية التحليل النفسى فى الصحة المدرسية ٠

١١ ــ ١٩٥٦ : اللغة عند الطفل (*) ــ للدكتور صالح الشماع ، أستاذ

---

* نشر ضمن « منشورات جماعة علم النفس التكاملى » التى يشرف على اصدارها يوسف مراد ٠ الناشر : دار المعارف بمصر ٠

علم النفس ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة بغـــداد ٠

١٢ ـ ١٩٥٨ : علم الطبـــاع الفرنسى المعـاصر (*) ـ للدكتور سامى الدروبى ،سفير سوريا فى أسبانيا ٠

رســائل الدكتوراه

١ ـ ١٩٤٧ : الفعل الارادى ـ للدكتور أبو مدين الشافعى ٠

٢ ـ ١٩٥٤ : الأسس النفســية للتكامل الاجتماعى (*) ـ للدكتور مصطفى سويف ، أستــاذ علم النفس بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ٠

٣ ـ ١٩٥٩ : علم النفس العقـابى (*) ـ للدكتور كمـال دسوقى ، مدرس علم النفس بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ٠

٤ ـ ١٩٦١ : العـلاقة بين علم النفس والأدب ـ للدكتــور ســامى الدروبى : سفير سوريا فى أسبانيا ٠

(*) نشر ضمن « منشورات جماعة علم النفس التكاملى » التى يشرف على اصدارها يوسف مراد ٠ الناشر : دار المعارف بمصر ٠

لماذا توقفت

مجلة علم النفس عن الصدور ؟

صوت آخر يسكت

بعد هذا العدد ، وهو العدد الثالث والأخير من السنة الثامنة ، تتوقف مجلة علم النفس عن الصدور · وسيأسف على احتجابها أصدقاؤها وخصومها ·

أما الأصدقاء فلتهدم أحد المنابر القليلة التى كانت قائمة فى مصر لتسمع من لم تصم آذانهم ثرثرة الثرثارين صوت الثقافة الحقة العميقة ·

وأما الخصوم فسيأسفون على ضياع هذه الفرصة التى كانت تتاح لهم للنيل من حين الى آخر من كرامة صاحب هذه المجلة · فقد حلا لفئة منهم أن تتهم صاحبها أمام لجنة التطهير الجامعية أنه يرغم طلبته على الاشتراك فى مجلة علم النفس ·

وللبيان والذكرى والتاريخ نسجل هنا أن عدد المشتركين فى مجلة علم النفس لهذا العام من طلاب صاحب المجلة هو سبعة طلاب فقط لا غير ، فى حين أن عدد طلبته يزيد على المائتين · ولعله من المفيد أن نذكر فى هذا المقام أن عدد جميع المشتركين أفرادا وهيئات فى مجلة علم النفس لا يتجاوز التسعين ····

كان صاحب هذه المجلة راضيا أن يبذل من وقته ومن ماله دون حسرة ولا ندم ، بل كان فرحا مغتبطا فى سبيل خدمة العلم وخدمة الثقافة الجامعية ، وكان مستعدا أن يواصل البذل على الرغم من الأزمة العنيفة التى تعانيها فى الوقت الحاضر كثير من المجلات العلمية والثقافية فى مصر ، غير أن للتضحية حدودا ···

فبراير ١٩٥٣

يوسف مراد

المذهب التكاملي

المنهج التكاملي *

ان المذاهب الفكرية أو الفلسفية لا يختلف بعضها عن بعض بمضمونها فقط ، بل أيضا ببنائها الشكلي وبالأساس المنهجي الذى قامت عليه • فهناك المذاهب المغلقة على نفسها ، والمذاهب المفتوحة التى تحوى فى طياتها عوامل تطورها وتجديدها ، وهناك كذلك المذاهب العقلية البحتة التى تستند الى مبادىء أولية يضعها العقل ، ثم يستنبط منها مجموعة مسلسلة ومتسقة من النتائج ، والمذاهب التى تتكون تدريجا بفضل التعاون بين الملاحظة والتجريب العلمى من جهة ، والنظر العقلى من جهة أخرى •

والمذهب التكاملى الذى يحاول التنسيق بين الحقائق الخاصة بطبيعة الانسان وسلوكه ، وهو بحكم تسميته وبحكم مجاله ومنهجه من المذاهب المفتوحة ، كما أنه من المذاهب التى تعتمد فى نشأتها وتطورها على نتائج التعاون بين الواقع والنظر العقلى •

وربما يكون من المفيد أن أبدأ حديثى بكلمة موجزة عن الخطوات الأولى التى أدت الى تبلور هذا المذهب فى ذهنى ، وعن العوامل الشخصية التى مهدت السبيل لانشاء هذا المذهب دون غيره ، أو على أقل تقدير ؛ لتقبل الايحاءات والأفكار التى دفعت تفكيرى فى هذا الاتجاه دون غيره • لا أعتقد أن أى مذهب من المذاهب يهبط على صاحبه من السماء وهو مكتمل المعالم ، فالعوامل المزاجية والاستعدادات العقلية وخبرات الحياة تقوم بدور هام فى تشكيل التفكير وتوجيهه • فقد طرقت أبوابا عدة من العلوم قبل

(*) «المجلة» ، مارس ١٩٦٠ •

أن ينتهى بى المطاف الى دراسة الفلسفة ومنها الى دراسة علم النفس .
فقد حاولت دراسة القانون ، ثم الهندسة الميكانيكية ، ثم الطب ، غير أن
العقبات كانت تحول دون اتمام أية رغبة من هذه الرغبات ، لكن كنت
أشعر بضرورة تحويل العقبة الى وسيلة للتقدم فى اتجاه جديد . ولا أدرى
ما اذا كانت هذه الخبرات المؤلمة هى التى جعلتنى أعتقد أن لب الحيـــاة
ليس الاستقرار والانسجام الهادىء ، بل هذا الكفاح المتواصل الذى يقوم
بين المتناقضات .

ولابد من أن يؤدى التناقض الى النظر فى أوجه الشبه القائمة بين
المتناقضين على الرغم مما بينهما من تنافر . وهذه الفكرة هى التى سيطرت
على تفكيرى عندما شرعت منـذ عام ١٩٣٤ فى اعـداد رسالتى فى بزوغ
الذكاء . ففى هذه الدراسة حاولت أن أقرب بين الحيوان والطفل الذى لم
تكتمل لديه بعد الأداة اللغوية ذاهبا الى أن القوانين التى تفسر سـلوك
الحيوان ، تفسر أيضا سلوك الطفل على الرغم من الفروق الشاسعة التى
ستظهربينهما عندما يحل الذكاء النظرى لدىالانسان محلالذكاء العملى.
والخطوة الأولى فى الكشف عن معنى التكامل بدأت عند المستوى البيولوجى
عنـــدما وقفت على عمليات التكامل العصـبى من جهة وعمليات التكامل
الكيميائى العضـوى التى تؤديها مجمـــوعة الغدد الصماء بالاشتراك مع
الدورة الدموية . ومن المعلوم أن الوظائف العصبية والوظائف الكيميائية
العضوية تتضمن التعاون والتضـــاد فى آن واحد ، وأن الانسجام الذى
يتحقق فى نهاية الأمر يتم بفضل هذا التضاد وعلى الرغم منه .

فالكائن الحى نظام متكامل ، هو وحدة متعـددة الجوانب ، كما انه
تعدد موحد ، هو وحدة أو نظام يعمل بصورةكلية بحيث يتحقق الانسجام
بين أعضائه ، فكل وظيفة تخضع فى عملها لنظام الكل وترمى الىالاحتفاظ
بتوازنه ، كما أن مجموعة الوظائف تعمل متعاونة لتحقيق هذا التوازن.

تلك هى الصورة الاولى لفكرة التكامل ، وحيث ان التفكير بالمماثلة
قد يؤدى الى نظرات جديدة فلماذا لانحاول أن نكتشف فى الحياة النفسية،

بل فى الحيـاة الاجتماعية مايمـاثل هذه الصورة فى خطوطها العامة ، مع مراعاة الفروق القائمة بين المجالات البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، هذه الفروق الراجعة الى تدخل العوامل النفسية والعقلية فى سلوك الانسان والى تفاعل هـذه العوامل فى سلوك الجماعات ؟ وعلينـا دون التخلى عن المنهج التجريبى فى البحث أن نطور هذاالمنهج بحيث يتلاءم مع ماتتصف به الظواهر النفسية والاجتماعية من تعقيد ، بل من صفات جديدة تميز الظاهرة الانسانية عن الظاهرة البيولوجية كما أن هنـاك صفات جديدة تميز الظاهرة البيولوجية عن الظاهرة الفيزيائية .

فالمشكلة تنحصر اذن فى الكشف عن وجوه الشبه ووجود الاختلاف، فى الكشف عن العوامل التى تحقق التكامل فى المجـالين السيكولوجى والاجتماعى ، كما سبق أن كشفنا عن عوامل التكامل فى المجال البيولوجى ويتضح من هذا ان المذهب التكاملى هو فى صميمه منهج قبل أن يـكون مذهبا ولهذا السبب قلنا عنه انه مذهب مفتوح ، لا مغلق على نفسه .

وقبل المضى فى ذكر عوامل التكامل النفسى والاجتماعى يجدر بنا أن نوضح المعانى الاساسية التى يقوم عليها المنهج التكاملى . ان هنـاك خاصية مشتركة بين الكائن الحى والنفس الانسانية والجماعات ، هى الناحية التكوينية التطورية . لابد اذن من اعتبار المراحل التى يمر بها النمو والترقى من نقطة البدء حتى الاكتمال ثم الزوال ، أو بعبارة أخرى يؤدى الزمن دورا هاما فى تفسيرنا لظواهر الكائنات الحيـة والظـواهر الانسانية . فالحاضر لايفهم تماما الا فى ضوء الماضى ، كما ان معـرفة الحاضر تعيننا على التنبؤ بالمستقبل الى حد كبير .

واذا اتخذنا الحياة بأوسع معانيها بحيث تشمل الحيـاة النفسـية والحياة الاجتماعية فانها تظهر لنا فى صورة حركة ، ولكنها حركة موجهة ترمى الى غاية ، وتقوم كل خطوة جديدة على الخطوات السابقة . غير أن كل خطـوة جديدة تبـدى مظاهر وخصائص جديدة على الرغم من قيامها على المـاضى .

وبما ان ميزة الحيـــاة هي الحركة التطور ، فلا بد أن يكون المنهج ديناميكيا تطوريا لكى تراعى الصلة القائمة بين الماضى والحاضر والمستقبل. ولكن ماهى طبيعة هذه الحركة ؟.. هل هى حركة مطردة تسير دائما الى الامام وفى خط مستقيم كالحركة الميكانيكية ؟.. ان حركة الحياة ليست هذه ولا تلك ، فالاولى عمياء فى حين ان حركة الحياة موجهة تقف عند نهاية ، والثانية عقيمة تؤدى فى نهاية الامر الى الجمود والثبات فى حين أن الحياة تجديد وتطور .

ولا يمكن كشف طبيعة هذه الحركة ، ومن ثم توضيح المنهج الملائم لدراستها ، وفهمها بطريقة شاملة الا بدراسة نظام من الانظمـة الحيـــة كالشخصية أو تكوين مجتمع مثـــلا من المجتمعات ، فالشخصية مثـــلا لايمكن أن نتصورها مجموعة عناصر أضيف بعضها الى بعض كما انها ليست تاليفا بين عناصر ، بل هى بمثابة نظام كلى يبدأ كنظام ، غير ان التمايز الذى يحدث داخل هذا النظام الكلى ، يتجه فى نموه من الغموض الى الوضوح ، من اللاتعين الى التعين . فالشكل الأصلى يزداد تفصيلا ، ولكن التفاصيل والأجزاء التى تزداد تمايزا بعضها على بعض تحدث وتنتظم طبقا لقانون الشكل الأصلى، والاتجاهات التى تشاهد داخل هذا النظام تكون مزدوجة ومتقابلة ، وفى الوقت نفسه متعاقبة : فغموض ثم وضوح ، ثم غموض من جديد يعقبه وضوح أكبر ، أو اتجاه نحو العالم النفسى الداخلى ، ثم اتجاه نحو العالم الواقعى الخارجى ، ثم عودة الى الداخل قبل مواجهـة الخارج من جـديد بأسلوب يزيد الأول ثراء وقوة وانسجاما ، أو حالة خضوع تعقبها حالة عصيان تمهد بدورها لحالة خضوع جديدة يكون فيها الشخص أكثر اقتناعا وأعمق تبصرا . وهذه العمليات المختلفة من تآزر وخضوع واندماج ومقاومة تؤدى عندما تسير سيرها الســوى الى حالة انسجام واتزان تعرف بحالة التكامل .

واذا أردنا أن نصف هذه الحركة التى تتقدم وترتقى خلال فترات من التراجع والكمون مع الازدياد فى التعقد والثراء ، فلنطلق عليها اسم الحركة الدائرية اللولبية التى تفيد فى الآن نفسه عمليتى التقدم والتراجع

النسبى الممهد لتقدم جديد • ونلمس هنا حقيقة هامة فيما يختص بجوهر الوجود بوجه عام • فالوجود المتزمن بزمان هو فى جوهره صراع وتوفيق فى آن واحد • وهـــذه الفكرة متمثلة بدرجات متفاوتة من الوضـــوح فى الأساطير والأديان والفلسفات المختلفة • فيمكن القول بأن الوجود لا يتم الا بفضل عامل من العوامل ، وعلى الرغم منه : فحياة بفضل الموت وعلى الرغم منه ، جديد بفضل القديم وعلى الرغم منه ، توحيد بفضل الكثرة وعلى الرغم منها ، ذاتية بفضل التغير وعلى الرغم منه ، سعادة بفضل الشقاء وعلى الرغم منه ، حرية بفضل العبودية وعلى الرغم منها • هذا هو لب الوجود وسر التقدم الحقيقى • فالمذهب التكاملى هو الذى يسترشد فى بحوثه بهذه الحركة الدائرية اللولبية ، فيحاول تتبع جميع التيارات التى تساهم فى تكوين ظاهرة من الظواهر الانسانية ، سواء كانت نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو فنية أو علمية ، مع كشف تنظيم هذه التيارات وصلتها بعضها ببعض • ففى دراسة الشخصية مثلا يرمى المذهب التكاملى الى الربط بين الماضى والحاضر مع مراعاة مصير الشخصية المحتمل • اذ أن الشخصية تخضع فى نموها وترقيها لقوانين ديناميكية توجيهية • وتنحصر عوامل الربط فى قدرة الانسان على تذكر الماضى وبعثه من جديد بعد اعادة تنظيمه فى ضوء الخبرات الراهنة مما يخلع على الماضى دلالة جديدة لم يكن يحويها من قبل ، ثم القدرة على تصور المستقبل واسقاط صورة الشخصية المثالية على ســتار المستقبل ، مما يؤدى الى تكوين الحاضر بلون جديد ، وتعبئة أكبر قدر ممكن من الامكانيات لتحقيق هذه الصورة المثالية •

ويرمى المذهب التكاملى الى اعادة تنظيم المنهجين الرئيسيين المستخدمين اليوم فى علم النفس لتفسير سلوك الانسان، ولكن على أساس أوســـع وأعمق ، وفى ضوء هذه الوظيفة الهامة التى أشرنا اليها باسم الوظيفـة الدائرية اللولبية • وهذان المنهجان يعتمدان : الأول على التفسير التاريخى أو التكوينى ، والثانى على ما يمكن تسميته بالتفسير الشبكى أو التفسير الفينومنولوجى أو الوجودى •

فالتفسير التاريخى أو التكوينى يحاول الربط بين الحاضر والماضى ،

أى بين السلوك كما هو مشاهد الآن ، وبين الدوافع والميول ، وكل ما اكتسبه الفرد فى تجاربه السابقة ، سواء ظلت هذه التجارب ماثلة فى الشعور ، أو أصبحت لا شعورية • أما التفسير الشبكى أو الوجودى فانه يتناول الحالة النفسية الراهنة أو المظهر السلوكى الراهن كتجربة نفسية من حيث هى خبرة شعورية يصفها الشخص ، ذاكرا بقدر الامكان كل الخصائص والصفات التى تجعل من هذه الخبرة أمرا فرديا وفريدا فى الوقت نفسه • فالتفسير الشبكى يقدم لنا صورة واقعية لحياة الشخص كما يحياها ويعانيها فى اللحظة التى يتأمل فيها •

ولا شك فى أن الاعتماد على تفسير دون آخر ، عاجز عن أن يجعلنا ندرك حقيقة الحالة التى ندرسها • فالتفسير التاريخى أو التكوينى يحاول التعليل بربط المعلولات بعللها ولكنه تفسير ناقص ، لأن العلم فى الواقع عاجز عن أن يقدم تعليلا وافيا لعدم التمكن من حصر جميع الحلقات التى تكون سلسلة العلل والمعلولات ، هذا فضلا على آن التفسير التكوينى يجرد الحياة النفسية من الحرية ومن القدرة على الاختيار ويفرض حتمية تسلسل العلل والمعلولات ، كما يظهره لنا التفسير العلمى •

والتفسير الشبكى بدوره ناقص لأن مضمون الشعور كما هو فى لحظة ما ، وكما أصفه تبعا لشعورى به ، هو فى الواقع جزء من حياتى النفسية • غير أن ميزة هذا التفسير انه يدخل فى اعتباره الحرية والارادة • والشعور بالحرية أمر واقعى من حيث هو مشعور به ، وهو عامل أساسى فى تكوين الخلق وتوجيه الشخصية •

فلابد اذن من التوفيق بين المذهبين ، وهذا ما يحاول أن يقوم به المنهج التكاملى • فالتفسير التكوينى ، كما قلنا ، يربط بين الحاضر والماضى فى حين يتناول التفسير الشبكى الماضى • أما التفسير التكاملى فانه يربط بين الحاضر والمستقبل بعد اعادة بناء الماضى فى اطار الحاضر ، والمقصود هنا بالمستقبل هو النموذج الذى يوجه التطور ، ويمكن القول بأن ما سيصير عليه الكائن الحى يعين بشكل من الأشكال المراحل التى سيمر

بها فى كل مرحلة ، ليست فقط أساسا للمرحلة التالية ، بل هى أيضا رمز لها .

واذا كان فهمنا لكل مرحلة جديدة لا يتم الا فى ضوء المرحلة السابقة ، فيمكن القول كذلك بأن اكتمال فهمنا للمرحلة السابقة لا يتم الا فى ضوء المرحلة الجديدة ، وهذا تطبيق جديد للحركة التى سميناها بالحركة الدائرية اللولبية . وما دمنا قد أدخلنا فى اعتبارنا فكرة الهدف والغاية والنموذج ، فانه يترتب على ذلك أن الحركة الدائرية اللولبية ليست مطردة ولا تقف عند حد .

هذا واضح فيما يختص بالنمو البيولوجي ولكن هذه القضية الهامة تنطبق أيضا على النمو النفسى والترقى الاجتماعى والثقافى . فهناك قانون آخر مغروز فى صلب طبيعة الحياة هو قانون الاعتدال أو قانون التوازن بين طرفين . وقد عبرنا عن هذا القانون بصورة ضمنية عندما تحدثنا عن الصورة أو النموذج أو الغاية . فكل تجاوز لحدود الصورة أو الغاية ينقلب فورا الى نقص . بل الى اضطراب واختلال ، الى مرض وموت . ولا يوجد فى الطبيعة سوى مظهر واحد لا يخضع لقانون النمو كما وصفنا ، هو الحركة الميكانيكية العمياء التى تسير دائما مماثلة لنفسها طالما يظل المحرك مماثلا لنفسه من حيث قوة الدفع ، وكذلك تشبه الحرية المطلقة التى تنادى بها بعض المذاهب الوجودية هذه الحركة الميكانيكية العمياء ، غير أن هذه الحرية المطلقة لابد أن تؤدى فى نهاية الأمر الى اليأس والفوضى .

وفى دراسة التطور الموجه الذى يسير نحو تحقيق الصورة المثلى لكل كائن حى أو لكل نظام شبيه بالكائن فردا كان أو جماعة ، لابد من مراعاة جميع المقومات ، كل فى مرتبته الخاصة وبالقياس الى سائر المقومات التى تتجه نحو التكامل والتوازن .

في المنهج التكاملي

المنهج التكامل (*)
وتصنيف الوقائع النفسية

(١) التعليل العلمي والتصنيف • (٢) التصنيف واللغة • (٣) التصنيف التقليدي للظواهر النفسية • (٤) التصنيف الثلاثي في كتب علم النفس العربية الحديثة واوجه الاعتراض عليه • (٥) المنهج التكامل • (٦) التصنيف التكامل للوقائع النفسية •

١ – التعليل العلمي والتصنيف

لا يهتم العلم بالوقائع من حيث هي وقائع فحسب ، بل من حيث هي وقائع منظمة تربطها علاقات معينة ثابتة • ولا يتم التفسير العلمي لمجموعة من الوقائع الا بادخالها في نظام من العلاقات أو من الشروط المتلازمة ، أو بعبارة أخرى في نظـــام من المراجع • وموقف العـــالم شبيه بموقف المستكشف الجغرافي الذي يعين على الخريطة موضع البحيرة التي اكتشفها مبينا أبعادها من مواقع أخرى معلومة ، وموضحا طبيعة البحيرة وخصائصها في ضوء معلوماته السابقة لخصائص المنطقة التي توجد فيها البحيرة

ولا يكون العالم أبدا بصدد واقعة واحدة منعزلة ، بل بصدد شبكة من الوقائع • وليس وجود الواقعة المنعزلة سوى وجود افتراضي مجرد • وكذلك يكون الانسان في حيـــاته العملية بصدد مجموعات من الظواهر والوقائع تختلف درجة تنظيمها باختلاف الأغراض التي يرمي اليها. فهناك تنظيم عملي يقتضيه التطبيق المباشر للمعلومات العملية التي يكتشفها المرء خلال تجاربه اليومية الاتفاقية. ويكون هذا التنظيم في أبسط صوره بمثابة تصنيف للأشياء التي يستخدمها والتي تدخل في نطاق ما يعالجه من أمور في نواحي نشاطه المختلفة ، ويكون مبدأ التصنيف في العـــادة التمييز بين النافع والضار ليكون العمل سريعا منتجا • وتتمثل مختلف

(*) نشر هذا المقال في مجلة « علم النفس » فبراير ١٩٤٦ •

التصانيف التى ينشئها المرء لتنظيم حياته العملية فى اللغة التى يستخدمها . فكل لغة تتضمن تصنيفا للموجودات والحوادث ، وكل تصنيف لفئة من الموجودات أو من الحوادث ينطوى على نوع من التفسير والتعليل . فالعلاقات التى تتضمنها الجمل ليست سوى تعبير عن العلاقات التى تبدو للمتكلم أنها موجودة فيما يلاحظه من وقائع أو فيما يتصوره من حوادث .

غير أن التصانيف التى تنطوى عليها التعبيرات اللغوية الجارية ، وبالتالى التفسيرات التى تتضمنها تلك التصانيف ينقصها الشمول الذى يمتاز به التصنيف العلمى القائم على مبادىء موضوعية ، بعيدة عن المقاييس الذاتية المرتبطة بوجهة النظر النفعية، كما تنقصها أيضا الدقة التى يرمى اليها التفسير العلمي المستند الى قوانين قابلة لأن تصاغ صيغة كمية رياضية . والحاجة الى التصنيف واضحة خاصة فى علوم الموجودات الحية كعلم النبات وعلم الحيوان ، لأن الكائنات الحية تمتاز بتعقد بنائها اذا قيس ببناء الأجسام الجامدة . ويكاد يكون التصنيف فى علم الكيمياء تاما شاملا ، وهذا دليل كاف على تقدم هذا العلم أو على امكان تقدمه بطريقة مطردة ثابتة . أما التصنيفات البيولوجية فهى ، وان كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من الدقة والنظام ، لا تزال قابلة للتعديل نظرا للتضارب القائم بين النظريات الكبرى التى تتناول مشكلة طبيعة الحياة وطبيعة الصلات التى تربط بين مختلف الأجناس والأنواع . ويرجع التفاوت الملاحظ بين تصنيف الأجسام الجامدة وتصنيف الأجسام الحية من حيث الدقة الى أن خصائص الجوامد أبسط من خصائص الأحياء وأكثر ثباتا . فالجامد لا ينمو فى حين أن الحى ينمو ، الجامد قابل للزيادة والنقصان عن طريق الجمع والطرح ، دون تقيد بقوانين بنائية ، فى حين أن الحى لا يزداد الا عن طريق التمثيل مع الاحتفاظ بشكله وبنائه وفى حدود خاصة تعينها القوانين البنائية والا اختل النظام الحى وظهر المرض (١) . وما يقال عن صعوبة التصنيف فى العلوم البيولوجية يقال بالأحرىعن تصنيف الوقائع النفسية . فالحياة النفسية هى أيضا نظام أى أنها خاضعةلقوانين بنائية توضح تركيب الذهن وبنائه ، وهى قبل كل شىء نشاط ، أى أنها خاضعة لقوانين وظيفية تعين مراحل النمو والتقدم ، مشيرة الى تآزر العمليات المختلفة التى تقوم الوحدة النفسية الجسمية التى تكون الانسان ، واضافة

---

(١) Youssef Mourad : Structure fondamentale de l'organisme vivant.
مجلة كلية الآداب ــ جامعة فؤاد الأول . المجلد السابع ، يوليو ١٩٤٤ .

الى ذلك تعين معرفة القوانين البنائية والقوانين الوظيفية على كشف المراحل التي يقطعها النشاط السيكولوجي مع تحديد صلة كل مرحلة بما يسبقها وما يتبعها من مراحل ٠

فالتصنيف في علم النفس خطوة أولى نحو التفسير العلمي الصحيح. ولكن التصنيف مرهون بمدى الحقائق التي وصل اليها العلم كما أن اطراد التقدم العلمي في الكشف عن الحقائق مرهون بدوره بقيمة التصنيف الذى يعين للباحث معالم المجال الذى يبحث فيه ٠ يجب ألا ننظر الى هذا الأمر نظر المنطقى الذى لا يتناول في تفكيره سوى المجردات ، فيقول ان مثل هذا الموقف ينطوى على دور عقيم لا يمكن الخروج منه ٠ الواقع أن هناك تعاونا متبادلا بين التصنيف وبين تقدم المعرفة ٠ فازدياد الحقائق يؤدى الى تحطيم الاطار القديم وبالتالى الى توسيع الآفاق واعادة بناء المعلومات القديمة في ضوء الحقائق الجديدة وسيتضح لنا هذا فيما يلى عند عرضنا للمنهج التكاملى في علم النفس تمهيدا لتوضيح التصنيف الجديد المقترح ٠

٢ ــ التصنيف واللغة

يوجد تضامن وثيق بين المعرفة والعمل ، فالمعرفة تتسع باطراد العمل وتقويمه كما أن العمل يزداد اتقانا ونفاذا باتساع المعرفة ٠ ويلخص الانسان تجاربه المختلفة وما يختبره في نفسه من حالات وما يشاهده في الآخرين من سلوك وتصرفات في اللغة التي يستخدمها ٠ واللغة على اختلاف طرق تعبيرها هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم ٠ ولابد من أن تتخذ اللغة نظاما يطابق الى حد كبير نظام العقل نفسه ، ومن المعلوم أن قواعد اللغة أو قواعد التعبير اللغوى تشبه كثيرا قواعد المنطق ، ووجه الفرق الأساسي يرجع الى أن قواعد اللغة أكثر مرونة من قواعد المنطق ، لأنها أكثر خضوعا لتأثيرات الحياة والنشاط العملى ، قابلة للتطور أكثر من قواعد المنطق التي تمثل نواحي العقل المجرد عن العوامل الانفعالية ، ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد الألفاظ التي تدل على العمليات العقلية العليا التي تمتاز بدرجة كبرى من التجريد والتعميم قليلة بالقياس الى الألفاظ التي تدل على الحالات الوجدانية المختلفة وعلى الفوارق الدقيقة الموجودة بين حالتين متقاربتين ، وهذه المعاني التي تدل على شتى الحالات الوجدانية والانفعالية مرتبطة عادة بالمعاني التي تدل على أشكال مختلفة من الحركات والأفعال ، كما أنها مرتبطة بالظروف الخارجية التي تحيط بالحالة

النفسية وما يصحبها من حركات وأفعال . ويتضح هذا في جلاء اذا تصفحنا بعض كتب اللغة التي تصنف الألفاظ حسب المعاني ، أو كتب الفروق اللغوية ككتاب أبي الهلال العسكري . ولنشر على سبيل المثال الى ما جاء في الباب الثالث والعشرين من هذا الكتاب في الفرق بين البشر والبشاشة وبين طلاقة الوجه ، ثم بين السرور والفرح والجذل والحبور ، ثم بين الهم والغم ، وبين الحزن والكرب والكآبة والبث ؛ وبين الغم والحسرة والأسف . ويبدو لنا أن اللغــة فيما يختص بوصف الحالات النفسية ودقائقها اللطيفــة قد ذهبت الى أبعــد ما يمكن أن يذهب اليه التحليل العلمي ، وهذا أمر يسهل تعليله لأن العلم يرمي الى أحكام كلية عامة فهو مضطر بحكم أساليب بحثه ومنهجه الى أن يعزل ويفصل حيث لا يوجد في الواقع عزل ولا فصل ، وأن يضم من جهة أخرى أمورا الى غيرها مراعيا فقط أوجه الشبه الجوهرية ، مهملا الفوارق الدقيقة التي سيكون من شأن الشاعر أو الأديب ابرازها ووصفها . ولهذا يبدو علم النفس العلمي بعيدا كل البعد عن التحليلات الأدبية للحالات النفسية ؛ فلغة العلم جافة غريبة لا يستسيغها الذوق ، لأنها مجردة من الشحنة الوجدانية التي تضفيها الحياة على أساليب الشاعر والأديب ، ولكن لغة العلم تمتاز بالدقة كما أنها تمتاز بالوضوح لمن تعلمها . غير أن معظم مصطلحات علم النفس لا تزال مستمدة من اللغة العامة ، ولكن العالم يحاول تحديد دلالة الألفاظ العادية بحيث يزول اللبس ، وبحيث يصبح اللفظ رمزا لمعنى معين أو لوظيفة معينة . ولنأخذ مثلا الألفاظ الثلاثة الآتية : شعر وأحس وأدرك فهي تعتبر في اللغة من المترادفات والدليل على ذلك ما تعرف به هــذه الألفاظ في قواميس اللغة : فنجد أن شعر به معناه علم أو أحس به ، وحس وأحس الشيء وبالشيء علمه وشعر به وأدركه ؛ وأدرك المسألة : علمها ، أدرك الشيء ببصره رآه . وتعرف المدارك بأنها الحواس والمشاعر بأنها الحواس أيضا .

أما اذا رجعنا الى كتب علم النفس فاننا نرى أن كل معنى من هذه المعاني الثلاثة يمثل مسألة من مسائل علم النفس الكبرى . فيعقد فصل في الشــعور consciousness ودرجاته ، ثم فصل آخر في الاحساس sensation ، وفصــل ثالث في الادراك perception ، وفي الكتب الحديثة يقصد بالادراك ادراك العالم الخارجي (١)

(١) راجع قاموس مصطلحات علم النفس في العدد الأول من مجلة علم النفس « شعور » ص ١٠٤ وفي العدد الثاني « احساس » و « ادراك » . ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

ولا شك فى أن كل ادراك يستلزم احساسا وأن كل احساس لا بد أن يكون مصحوبا بشعور ، ولهذا السبب جمعت اللغة بين المعانى الثلاثة. ومما لاشك فيه أيضا أن العلم لاينكر هذه الصلة القائمة بين هذه الوظائف الثلاث ، غير أنه ينظر الى كل منها من وجهة خاصة فالشعور شرط ضرورى لكى يكون هناك حالات نفسية - وان لم تكن جميع الوقائع النفسية شعورية يمكن الشخص أن يختبرها مباشرة - ؛ وترمى دراسة الاحساس الى معرفة الشروط الفسيولوجية والنفسية للتأثر شعوريا بالخصائص الحسية ، أما دراسة الادراك فانها مقصورة على دراسة الشروط اللازمة لادراك موضوعات العالم الخارجى فى المكان .

وهناك حقائق نفسية أعم مما ذكرنا كان من اليسير تمييز بعضها من بعض . فلدينا أولا التفرقة بين الظاهر والباطن ، ثم التمييز بين الباطن المادى ، والباطن اللامادى ، وتتمثل التفرقة بين الظاهر الملموس والباطن غير الملموس فى التميز بين الجسد والعقل أو بين الجسم والنفس . فيقال مثلا ضعف الجسد أو ضعفه ، ولكن يجب أن يقال فقط ضعف الرأى والعقل(١) . كأن هناك اشتراكا بين الجسد والعقل على الرغم من تمايز الواحد عن الآخر ، وميزت اللغة بين الحركة التى تنطلق بذاتها ولذاتها دون أن تكون موجهة والحركة التى تطلق موجهة وحاملة فى ثناياها دلالة خاصة، فقد ميز بين الصياح وهو رفع الصوت بما لا معنى له والنداء وهو رفع الصوت بما له معنى (٢) .

وميزت اللغة أيضا بين الحالة النفسية التى يختبرها الشخص وبين آثارها الحركية كالتغيير الذى يقوى ملامح الوجه فالفرق بين الحزن والكآبة مثلا أن الكآبة اثر الحزن البادى على الوجه (٣) . ومثل هذه الأمثلة كثيرة فى لغتنا ولعل اللغة العربية أكثر اللغات تحليلا لأوجه الحالات النفسية المختلفة وما يصاحبها من تعبيرات .

---

(١) أبو الهلال العسكرى ص ٦٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٢١ .

٣ ـ التصنيف التقليدى للظواهر النفسية

يرجع التصنيف التقليدى للوظائف النفسية الى تصنيف قوى النفس أو كما تقول اليوم ملكات النفس (Facultés de l'âme) وكان يربط عادة بين القوى ومركزها فى الجسم • فيقسم أفلاطون النفس الى ثلاثة أقسام : العقل (*nous*) ومركزه فى الدماغ ، القوة الغضبية (*thumos*) ومركزها فى الصدر وبالأخص فى القلب ، والقوة الشهوانية (*épithumia*) ومركزها فى البطن •

وقد ذكر الغزالى نفس هذا التقسيم ، ولكن بألفاظ أخرى فذكر القوة الربانية (العقل) والقوة السبعية (الغضب) والقوة البهيمية (الشهوة) •

غير أن أفلاطون لم يدرس النفس الانسانية دراسة منظمة مستقلة ، بل ضمن دراسته للكون بأجمعه ، وليست دراسة النفس سوى فرع من علم الطبيعة ، وبين عالم المحسوسات كما يتراءى لنا وعالم المثل الذى يكشفه التذكر توجد صلة هى النفس العالمية التى هى مبدأ كل نظام وكل حركة وكل حياة وكل معرفة • ومن هذه النفس الكونية تنسلخ النفوس الفردية •

فلا نجد فى فلسفة أفلاطون علما للنفس مميزا من غيره ، مقصورا على دراسة الظواهر الداخلية (١) •

أما مؤسس علم النفس فهو أرسطو ، غير أنه اعتبره جزءا من علم الحياة ويميل العلم الحديث الى ادخال علم النفس من جديد فى دائرة علم الحيـــاة •

ونجد عند أرسطو تصنيفا منظما لملكات النفس ووظائفها • ويقوم هذا التصنيف على التمييز بين وظائف المعرفة والعلم من جهة وبين وظائف الحركة والعقل من جهة أخرى •

وظائف المعرفة وهى قسمان : حسية وتشمل الاحســاس والتذكر والتخيل وتداعى المعانى • وعقلية وتشمل المعنى الكلى والحكم والاستدلال

---

(١) هناك بعض الدراسات الفرعية كالتمييز بين الجسم والنفس وتغلب الثانية على الأولى • التمييز بين قوى النفس الثلاث ، نظرية درجات المعرفة ، نظرية اللذة ، التقابل بين المعقول والمحسوس •

وظائف الفعل وهى أيضا قسمان : حسية وتشمل الميول والانفعالات والاهواء ، عقلية وهى الارادة الحرة ٠

ظل هـذا التصنيف متبعا فى القرون الوسـطى حتى جاء ديكارت فاستبدل به تقسيما آخر قائما على دراسة أحوال النفس أو ظواهرها ٠ فميز بين الأحوال المنفعلة (modes passifs) وهى العقل وبين الأحوال الفاعلة (modes actifs) وهى الارادة الحرة ٠

وينقسم العقل الى قسمين :

١ ــ المعانى وهى اما فطرية أو حسية أو خيالية ٠

٢ ــ الانفعالات وهى بمثابة معان غامضة ٠

أما الارادة الحرة فتنقسم الى قسمين أيضا :

١ ــ الحـــكم ٠

٢ ــ الأفعال ٠

يلاحظ فى هذا التقسيم الثنائى أن الحـالات الوجدانية والانفعالية لا تكون فئة مسـتقلة بل اعتبرت جنبا من العقل (entendement) .

ولم يظهر التقسيم الثلاثى الذى يميز بطريقة واضحة بين العمليات العقلية المؤدية الى المعرفة وبين الحالات الوجدانية والانفعالية ، ثم بينهما وبين وظائف الحركة والفعل الا فى القرن الثامن عشر تحت تأثير جان جاك روسو (Rousseau) فى الأدب وكنت (Kant) فى الفلسفة٠ولا يزال هذا التقسيم الثلاثى فى بعض الكتب المدرسية بمثابة الاطار العام لترتيب الموضوعات والفصول ٠ فتبعا لهذا التقسيم تشمل الحيـــاة النفسية أولا الحيـــــاة العقلية (vie intellectuelle) ثانيا الحيـــاة الوجدانية (١)

---

(١) يستعمل أحيانا لفظ sensibilité باللغة الفرنسية للاشارة الى حالات اللذة والألم ، أما دراسة الاحساسات sensations فانها تدخل فى دائرة الحياة العقلية ٠ راجع مثلا كتاب هانكان Hannequin مدخل الى علم النفس المنشور عام ١٨٩٠ Introduction à la psychologie فيقسم هانكان الوقائع النفسية الى ثلاث فئات : الوقائع الوجدانية أو «الحسية» faits affectifs ou sensibles الوقائع «المعرفية» أو العقلية faits cognitifs ou intellectuels والوقائع الارادية faits volitionnels ou volontaires

يلاحظ هنا عدم التمييز بين المعنى العام والمعنى العلمى للفظ sensibles حسى ، حساس ، كما يلاحظ أن الوقائع الارادية لا تستغرق جميع أنواع الأفعال الحركية ٠

(vie affective) وثالثا النشـــاط الحـــركى والفعـــل (١) (vie active) ويتمثل هذا التقسيم الثـــلاثى فى العنوان الذى أطلقه العـــالم الأمريكى ســـكريبتشر E.W. Scripture على كتاب فى علم النفس أصدره عام ١٨٩٥ : Thinking, feeling, doing أى التفكير والوجدان والفعل ·

٤ ـ التصنيف الثلاثى فى كتب علم النفس العربية الحديثة وأوجه الاعتراض عليه

لا شك فى أن لهذا التصنيف الثلاثى مزايا عملية لتبسيط دراسة الحياة النفسية ، غير أنه تبسيط مخل بالواقع ؛ لأن مثل هذا التصنيف جامد يغفل ديناميكية الحيـاة النفســية ويجردها من أخص مزاياها وهى تواصل مراحلها فى الزمان والترابط الوظيفى الذى يربط بين الوقائع الوجدانية والتصورية والعقلية · فلا توجد حالة نفسية تكون وجدانية أو تصورية أو فعلية فحسب · فلكل حالة نفسية ، مهما كانت مقصورة على النـاحية التصورية ، بطانة وجدانية تأثرية ، فضلا على أن كل فكرة تميل الى أن تتحقق فى الخارج فى صورة حركية ·

وقد عدل كثير من مؤلفى كتب علم النفس المدرسية عن ذكر هـذا التقسيم وعن اتخاذه اطارا لتنظيم الوقائع النفسية ، وهم يؤثرون المنهج التكوينى الذى يتتبع مراحل النمو منـذ الطفولة حتى اكتمال الحيـاة النفسية ، ثم دراسة تفككها وانحلالها بتأثير المرض والشيخوخة · وأحسن مثال لهذا التصنيف كتاب فلورنس جودينف(٢) ·

غير أن كتب علم النفس المدرسية المنشورة باللغة العربية لا تزال متمسكة بهذا التصنيف الثلاثى على الرغم من جموده ومن الاعتراضات

---

(١) يستعمل أحيانا فى تسمية الجانب الثالث من الحياة النفسية وهو جانب الحركة والفعل كلمة vie conative, conation غير ان لفظ conation الذى يفيد معنى الجهد (conatus- effort) أضيق دلالة من لفظ «فعل» action فهو يفيد الفعل الذى يواجه مقاومة ، فى حين أن الفعل قد يكون تلقائيا أو مصحوبا بجهد .

Conation semble désigner
l'action en tant qu'elle a à triompher d'une résistance ou réaction pour se poser elle-même progressivement et in fieri. M. Blondel in Vocabulaire de Philosophie de L. Lalande, t. I, p. 117.

(٢) F.L. Goodenough : Developmental Psychology, 2nd ed., 1945, D. Appleton-Century Co., New York.

التى وجهت اليه (١) . أضف الى ذلك أنه يبدو أن المعرب الأول الذى أخذ عنه الآخرون لم يوفق فى نقل المصطلحات الأجنبية الى اللغة العربية . فيقال لنا أن الظواهر النفسية تنقسم الى ادراك ووجدان ونزوع (٢) ويقصد بالادراك العمليات المؤدية الى التصور والمعرفة وبالنزوع الظواهر التى تمتاز بالنشاط والحركة .

ويمكن الاعتراض على هذا التصنيف بالوجه الآتى :

— من المعلوم أن الشرط الأساسى لكل تصنيف صحيح واف ان تكون عناصره مميزة بعضها عن بعض تمام التمييز · وهذا التمييز محقق بين الادراك والوجدان من جهة وبين الادراك والنزوع من جهة أخرى ولكنه معدوم الى حد كبير بين الوجدان والنزوع · وربما يرجع هذا اللبس الى غموض معنى الوجدان ومعنى النزوع · فللوجدان معنيان على الأقل ، الأول هو النفس وقواها الباطنة وبهذا المعنى تكون الوجدانيات ما يجده كل أحد فى نفسه من حالات شعورية أو ما يدركه مباشرة بالقوى الباطنة أو بالحواس الباطنة(données immédiates de la conscience) أما الثانى فهو الشعور بالألم واللذة والحزن والفرح والشوق الخ أى الشعور بالوجد ومعناه فى كتب اللغة الحزن أو الفرح أو الخوف أو الوله أو العشق أو الدلع وبهذا المعنى ينطبق الوجدان على ما يسمى بالفرنسية affectivité وبالأخص على الميول والانفعالات والأهواء . ويطابق هذا المعنى أيضا ما اصطلح عليه الصوفية وبالأخص ابن عربى اذ عرف الوجد: ما يصادف القلب من الأحوال المضنية له من شهوده ·

أما النزوع فمعناه فى اللغة الميل والرغبة والشوق وأيضا التشبه والمحاكاة · فاذا اعتبرنا هذا المعنى اللغوى المباشر يتضح لنا أن النزوع يدخل فى دائرة الحالات الوجدانية وكلنا نعلم مدى الصلة الموجودة بين اللذة والألم وبين الميول والنزعات ·

وللنزوع معنى فلسفى يمكن استخلاصه مما كتبه ابن سينا فى هذا

---

(١) راجع بهذا الصدد كتب علم النفس الفرنسية للابير Malapert وري Rey وكوفيلييه Cuvillier .

(٢) هذا التقسيم ينطبق على تحليل مراحل الفعل الغريزى كما وضحها مكدوجل McDougall ولكنه لاينطبق على جميع الظواهر فكلمة ادراك perception لاتفيد الا جانبا من عملية المعرفة cognition .

الصـــدد (١) . نلاحظ بادىء ذى بدء أن ابن سينا يجمع بين النـــزوع والشوق ولا يميز بينهما اذ يقول : القوة النزوعية والشوقية هى القوة المحركة على أنها باعثة • والقوة النزوعية والشوقية هى القوة التى اذا ارتسم فى التخيل صورة مطلوبة أو مهروب عنها حملت القوة التى نذكرها على التحريك ولها شعبتان ، شعبة تسمى قوة شهوانية وهى قوة تبعث على تحريك يقرب به من الأشياء المتخيلة ضرورية أو نافعة طلبا للذة • وشعبة تسمى قوة غضـبية وهى قوة تبعث على تحريك يدفع به الشىء المتخيل ضارا أو مفسدا طلبا للغلبة •

فيما ســبق يعتبر ابن ســينا القوة المحركة من حيث هى باعثة ، وهناك اعتبار آخر من حيث هى فاعلة • والقوة المحركة الفاعلة هى قوة تنبعث فى الأعصاب والعضــلات من شأنها أن تشنج العضــلات فتجذب الأوتار والرباطات الى جهة المبدأ أو ترخيها وتمـدها طولا فتصـير الأوتار والرباطات الى خلاف جهة المبدأ .

ويقول أيضا فى عيون الحكمة (ص ٢٩) : القوة المحركة هى مبدأ انتقال الأعضاء بتوسط العصب والعضل والارادة • والمقصود من القوة المحركة فى هذا النص الأخير القوة المحركة على أنها فاعلة •

يتضـح لنا ، فى ضوء النصـوص السابقة ، أن النزوع أقرب الى الوجدان منه الى الحركة من حيث هى فعل وتنفيذ ، واذا أردنا أن نقسم الظواهر النفسية الى وجوه ثلاثة ، بحيث يكون كل وجه جامع ومانع فى آن واحد كما يقول المناطقة ، فلتكن القسمة كالآتى : علم (لا ادراك فقط) ، وجدان بما فيه النزوع والشوق وأخيرا نشاط وفعل • ولكن على الرغم من ذلك فانه لا يزال ناقصا بعيدا عن الواقع ؛ فالعمليات العقلية المؤدية الى المعرفة والعلم هى نشاط كما أن لابد من بواعث سواء للتفكير أو العمل ، كما أنه أيضا لا يمكن أن توجد حالة وجدانية دون أن تكون مصاحبة بحكم عليها كأن نحكم ولو حكما ضمنيا أن هذا الألم شديد وذاك ضعيف الخ •• وكذلك يمكن القول أن النزوع ـ أى الباعث على حد تعبير ابن سينا ـ لا يكفى لاستكمال الحركة ، خاصة اذا راعينا الحياة النفسية فى الانسان وما يجب أن نفهم عليه الارادة الانسانية التى لا تتم الا بتوسط الفكر والعقـل • فالنزوع لا يعبر الا عن الارادة الحيوانية ، ارادة جذب

---

(١) راجع كتاب النجاة ص ٢٥٩

النافع طلبا للذة ودفع الضار والمؤذى طلبا للغلبة (١) ·

وفى امكاننا أن نعود الى نصوص ابن سينا لنلتمس تقسيما أوفى وأدق من التقسيم الشائع · فابن سينا يميز بين النفس الحيوانية المشتركة بين الحيوان والانسان وبين النفس الناطقة الخاصة بالانسان ، فيقول ان للنفس الحيوانية قوتين مدركة ومحركة وللنفس الناطقة أيضا قوتين عالمة وعاملة · والمدركة فى الحيوان تناسبها العالمة فى الانسان والمحركة فى الحيوان تناسبها العاملة فى الانسان فيكون لدينا قسمان رئيسيان : ادراك وعلم من جهة وحركة وعمل من جهة أخرى ، وينطوى القسم الثانى على الناحية الوجدانية اذ أن القوة المحركة من حيث هى باعثة تؤدى تبعا لابن سينا الى النزوع والشوق والشهوة والغضب ·

٥ - المنهج التكاملى

يرجع نقص التصنيف التقليدى الى نقص المنهج الذى اتبع فى الكشف عن الحالات النفسية وتحليل مظاهرها · وهذا المنهج هو الاستبطان الذى لا يدرك الا ما يبدو للشعور فى لحظة ما دون الوصول الى ما وراء الحالات الشعورية من عوامل وشروط ترجع الى تركيب الطبيعة الانسانية والى خبرات الماضى التى تمتد آثارها الى الحاضر ·

فنتائج الاستبطان محدودة للغاية ، صناعية وتجريدية ، تغلب عليها الصبغة الاستاتيكية الجامدة · فقد يذهب الاستبطان الى تجاوز الحدود التى تحتمها طبيعة الموضوع لعملية التحليل لكى لا تشوه هذا الموضوع برده الى عناصر مجردة افتراضية والى حالات بسيطة مفككة · فلابد اذن من البحث عن منهج يلائم طبيعة الحياة النفسية ويراعى تعقدها وتواصل مراحلها واتجاه تطورها ، مع الاشارة دائما الى هذه الحركة الحية التى تربط بين مختلف المراحل التى تؤدى بالفردية البيولوجية الى الشخصية الفاعلة المتكاملة · وهذا المنهج هو المنهج التكاملى الذى يتخذ من الشخصية المحور المركزى لجميع الدراسات السيكولوجية ·

---

(١) هذا الاتجاه واضح فى بعض الكتب العربية الحديثة المتداولة ، فلا يخرج القارىء لفصل الارادة الا بفكرة عن الارادة فى مظهرها الحيوانى فحسب ، على الرغم مما يذكر - بعد تعريف الارادة بمحض الشهوة أو الميل - من العمليات الفكرية المصاحبة للفعل الارادى · فالكلام عن الارادة مجرد ذكر أجزاء لا يربط بينها مبدأ واحد واضح ·

وليس معنى التكامل بالمعنى الجديد فى علوم الأحياء ، فانه يمكن تتبع فكرة التكامل منذ أرسطو حتى عصرنا فى مصنفات الفلاسفة والعلماء الذين نظروا الى الانسان كوحدة نفسية جسمية لا تتجزأ • وقد ساهم علماء الفسيولوجية وبخاصة علماء تكوين الأجنة فى توضيح عملية التكامل فى الكائن الحى ونخص منهم بالذكر شرنجتون وفون موناكوف ودريتش وكوجيل وسبيمان وجولدشتين (١) •

كما أنا نجد الروح التكاملية توجه بعض المدارس السيكولوجية التى تركز دراساتها حول الشخصية ، رافضة الأخذ بالتفسير الميكانيكى كما تصنع مثلا المدرسة السلوكية البحتة ، ومراعية ما تمتاز به الحياة النفسية من نشاط ذاتى وغائية • ونلمس هذه الروح التكاملية فى بحوث أدولف ماير A. Meyer وتلامذته وفى المدرسة السيكوسوماتية فى الطب (psychosomatic medicine •

وقد وصلنا الى استخلاص معالم المنهج التكاملى فى أثناء دراستنا المقارنة للسلوك الحيوانى وسلوك الطفل فى السنتين الأولى والثانية من عمره وقد نشرنا هذا البحث عام ١٩٣٩ بعنوان بزوغ الذكاء (٢) ثم عملنا على توضيح هذا المنهج فى أثناء تدريس علم النفس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول منذ عام ١٩٤٠ • وقد وصلنا نهائيا الى التصنيف الذى سنعرضه بايجاز فى الفقرة السادسة فى خلال عام ١٩٤٢ ولم تتح لنا فرصة نشره قبل اليوم (٣) •

وقبل ذكر التصنيف التكاملى للوظائف والوقائع النفسية ، يجدر

---

(١) C.S. Sherrington : The integrative action of the nervous system 1906, 6th ed., 1920.

C. v. Motakow et R. Mourgue : Introduction biologique à l'étude de la neurologie et de la psychopathologie, 1928.

Hans Driesch : The Science and Philosophy of the Organism, 1908.

G. E. Coghill : Anatomy and the Problem of Behavior, 1929.

Hans Spemann : Embryonic Development and Induction 1938.

K. Goldstein : Der Aufbau des Organismus 1934.

(٢) Y. Mourad : L'éveil de l'intelligence. Etude de psychologie génétique et comparée, p. XV, 406 Alcan, Paris, 1934.

(٣) اطلعنا بعد الانتهاء من وضع منهجنا ووضع كتاب علم النفس القائم عليه – وسيعد للطبع قريبا – على كتاب مارستون Marston « علم النفس التكاملى Integrative psychology » المنشور عام ١٩٣١ • ولا يختلف هذا الكتاب عن بقية الكتب فى طريقة تصنيف موضوعاته اذ لا ينتهج مبدأ واضحا للتصنيف والتحليل •

بنا أن نعرض بشيء من التفصيل لأهم قضايا المنهج التكاملى نفسه ، مبينين كيف أن طبيعة الحياة النفسية تتطلب ، لكى تفهم فهما شاملا، مثل هذا المنهج دون سواه .

* * *

تختلف العلوم باختلاف موضوعاتها ، فمنها البسيطة ومنها المعقدة تبعا لطبيعة الموضوع ، وبما أن كل علم هو معرفة منظمة لموضوع معين بواسطة مبادىء وقوانين تفسيرية ، فلابد فى كل علم خاص من انتهاج منهج خاص يلائم موضوع العلم ويؤدى تطبيقه الى كشف أكبر عدد ممكن من الحقائق وتنظيم هذه الحقائق فى صورة قوانين عامة شاملة . وكلما ازدادت القوانين شمولا وتفسيرا لعدد كبير من الحقائق قل عددها وازداد العلم تنظيما ووضوحا . فالعلوم الرياضية والفلكية مثلا أقل تعقدا من العلوم الطبيعية التجريبية ، فالمنهج فى العلوم الرياضية قياسى عقلى لايعتمد على التجربة الا عرضا ، فى حين أن التجربة والاستقراء يقومان بالدور الأول فى العلوم الطبيعية . غير أن المجرب لابد له من اصطناع القياس والاستنتاج الرياضى بجانب ما يقوم به من عمليات التجريب .

واذا انتقلنا الى علم الأحياء شعرنا بضرورة توسيع المنهج التجريبى لمراعاة الخصائص الجديدة التى تمتاز بها الكائنات الحية كظاهرة الوظيفة البيولوجية وماتتصف به العمليات الفسيولوجية من اتجاه معين وغائية(١) وبالانتقال الى علم النفس وعلم الاجتماع نشاهد ازدياد تعقد موضوعات هذين العلمين لتدخل العناصر النفسية والعقلية كما هى ممثلة فى الانسان ، وتفاعلها فى الجماعات . وفى مثل هذه العلوم الانسانية يصبح المنهج التجريبى كما هو مطبق فى العلوم الطبيعية ناقصا والقوانين الطبيعية عاجزة عن تفسير الظواهر الانسانية وبيان ما تمتاز به من صفات جديدة . فكما أنه من الخطأ تشبيه الجسم الحى بالآلة الخاضعة لقوانين ميكانيكية بحتة ، يكون كذلك من الخطأ تشبيه النفس الانسانية أو الجماعة بالجسم الحى دون مراعاة ما تمتازان به من فوارق جوهرية .

ولكن كما أن العلوم المعقدة تستند الى ما هو أبسط منها ، فلا شك أن هناك أوجه شبه بين نمو الكائن الحى ونمو النفس الانسانية أو الجماعة . فيجب الاستفادة بما وصلت اليه علوم الأحياء من حقائق وقوانين

---

(١) راجع كتاب « مدخل الى دراسة الطب التجريبى » تأليف كلود برنار وترجمة يوسف مراد وحمد الله سلطان . المطبعة الأميرية ١٩٤٤ .

للاستعانة بها على سبيل المماثلة لكشف القوانين الخاصة بالوقائع النفسية والاجتماعية . وهناك خاصية مشتركة بين الكائن الحى والنفس الانسانية والجماعات وهى الناحية التكوينية التطورية ، أى أنه لابد من اعتبار المراحل التى يمر بها النمو والترقى من نقطة البدء حتى الاكتمال ثم الزوال . أو بعبارة أخرى يؤدى الزمن دورا هاما فى تفسيرنا لظواهر الكائنات الحية والظواهر الانسانية . فالحاضر لا يفهم تماما الا فى ضوء الماضى كما أن معرفة الحاضر تعيننا على التنبؤ بالمستقبل الى حد كبير .

واذا اتخذنا الحياة بأوسع معانيها بحيث تشمل الحياة النفسية والحياة الاجتماعية قلنا ان الحياة حركة ولكنها موجهة ترمى الى غاية معينة ، تقوم كل خطوة جديدة على الخطوات السابقة ولكنها مبدية فى كل خطوة جديدة مظاهر وخصائص جديدة على الرغم من قيامها على الماضى .

وبما أن ميزة الحيـــاة هى الحـــركة والتطور فلابد أن يكون المنهج ديناميكيا تطوريا لكى يراعى الصلة القائمة بين الماضى والحاضر والمستقبل. ولكن ما هى طبيعة هذه الحركة ؟ هل هى حركة مطردة تسير دائما الى الأمام وفى خط مستقيم كالحركة الميكانيكية ؟ أم هى حركة دائرية تعود بالمتحرك الى نقطة البدء ؟ حركة الحياة ليست هذه ولا تلك ، فالأولى عمياء فى حين أن حركة الحياة موجهة تقف عند غاية ، والثانية تفيد فى نهاية الأمر الجمود والثبات فى حين أن الحياة تجديد وتطور .

ولا يمكن كشف طبيعة هذه الحركة ومن ثم توضيح المنهج الملائم لدراستها وفهمها بطريقة شاملة الا بدراســـة نظام من الأنظمة الحيـــة كالشخصية أو تكوين مجتمع مثلا . ولكن هناك اعتراضا لابد من الاشارة اليه والرد عليه قبل مواصلة الحديث فى طبيعة الحركة المميز للحيـــاة . كيف يمكن معرفة طبيعة هذه الحركة قبل تحديد المنهج الملائم لدراستها وكيف يمكن تحديد المنهج الملائم بدون معرفة سابقة لطبيعة الموضـــوع ؟ فهنا دور بدون شك لا يمكن الخروج منه . والواقع أن الدور لا يبـــدو الا للنظرة الســـطحية وقليل من التفكير فى طبيعـــة البحث العلمى كفيل بازالته .

لنأخذ مثلا دراسة الشخصية . فان علم النفس لم يصل الى مايعرفه اليوم عن نشوئها وترقيها كما يبنى الحائط بوضع صف من الحجر فوق الآخر ؛ لم يصـــل الى معرفة الشخصـــية بطريقة تدريجية ، بل بطـــريقة تقريبية . ففى العهد الأول من دراســـة الشخصية كان علماء النفس يصطنعون منهج العلوم الطبيعيـــة ، فكانوا يحللون الشـــخصية الى

عناصرها ، ثم يركبونها من جديد بضم العناصر بعضها الى بعض كما يصنع عامل الفسيفساء . فكان ينظر الى الشخصية كأنها مجموعة من السمات دون كشف تنظيم هذه السمات والاشارة الى عوامل التنظيم التى هى غير هذه السمات المنظمة .

ثم عندما أريد تطبيق هذه النظرة فى حالات فردية واقعية اتضح نقصها فاضطر العلماء الى اعادة النظر فى صلاحية المنهج المتبع ومحاولة تعديله في ضوء البحوث المختلفة التى كثيرا ما كانت متناقضة . فالمنهج فى الواقع هو كالآلة التى تكون فى بادىء الأمر غليظة غير دقيقة ، ثم يجد الصانع الذى يستعملها فرصا لتحسينها وصقلها كلما واصل عمله . فالآلة تؤدى الى نتيجة ما ، ثم تساعد هذه النتيجة على تحسين الآلة وهكذا حتى الوصول الى الكمال . فاذا كان لدينا مثلا ثلاث نظريات رئيسية فى الشخصية تعاقبت فى بحر نصف قرن ، فان كل نظرية ترمى الى تفسير مظاهر الشخصية بأكملها ، ولكن النظرية الثانية التى تحل محل الأولى ليست مجرد اضافة الى النظرية الأولى والثالثة الى الثانية وهكذا . بل كل نظرية جديدة تكون تعديلا للنظرية السابقة . هذا التعديل هو بمثابة اعادة نظام النظرية الأولى فى ضوء البحوث الجديدة مع الاحتفاظ بالحقائق الجزئية التى تتفق معها ونبذ ما هو مخالف . وهكذا تقرب كل نظرية جديدة من الحقيقة دون الادعاء أنها ألمت بها تماما .

فمن الخطأ اليوم أن نتصور الشخصية كمجموعة عناصر أضيفت بعضها الى بعض كما أنها ليست تأليفا بين عناصر ، بل هى بمثابة نظام كلى يبدأ كنظام ، غير أن التمايز الذى يحدث داخل هذا النظام الكلى يتجه فى نموه من الغموض الى الوضوح ، من اللاتعين الى التعين . فالشكل الأصلى يزداد تفصيلا ، ولكن التفاصيل والأجزاء التى تزداد تمايزا بعضها عن بعض تحدث وتنتظم طبقا لقانون الشكل الأصلى . والاتجاهات التى تشاهد داخل هذا النظام تكون مزدوجة ومتقابلة وفى نفس الوقت متعاقبة : فغموض ثم وضوح ، ثم غموض من جديد يعقبه وضوح أكبر ، أو اتجاه نحو العالم النفسى الداخلى ثم اتجاه نحو العالم الواقعى الخارجى ، ثم عودة الى الداخل قبل مواجهة الخارج من جديد بأسلوب يزيد الأول ثراء وقوة وانسجاما ، أو حالة خضوع تعقبها حالة عصيان ممهدة لحالة خضوع جديدة يكون فيها الشخص أكثر اقتناعا وأعمق تبصرا .

والتيارات المختلفة التى يكشفها التحليل داخل نظام الشخصية فى أثناء نموها وترقيها تظهر فى أوقات معينة فتنتظم بطرق شتى : تآزر من

جهة ومقاومة من جهة أخرى ، ثم خضوع البعض للبعض الآخر ، أو كما في حالات الانحراف والاختلال والأمراض النفسية انفصال أو توقف أو زوال أو تضخم أو نقص فى بعض التيارات دون غيرها . ومن بين هذه التيارات ما يرجع الى العوامل البيولوجية كالجهاز العصبي وافرازات الغدد الصـــماء ، أو الى العوامل النفســـية كالانفعالات والعواطف والعمليات الادراكية والعقلية المختلفة ، أو الى العوامل الاجتماعية من بيئة ، وما يصدر عنها من ايحاءات وآثار ، فتتفاعل هذه العوامل بعضها مع بعض بدرجات متفاوتة تبعا لطبيعة كل عامل وتغير ظروفه ، وهذه العمليات المختلفة من تآزر وخضوع واندماج ومقاومة تؤدى عندما تسير سيرها السوى الى حالة انسجام واتزان تعرف بحالة التكامل .

فاذا أردنا أن نصف هذه الحركة التى تتقدم وترتقى خلال فترات من التراجع والكمون مع الازدياد في التعقد والثراء وسمناها بالحركة الدائرية اللولبية التى تفيد فى نفس الآن عمليتى التقــدم والتراجع النسبى الممهد لتقدم جديد . ونلمس هنا حقيقة هامة فيما يختص بجوهر الوجود بوجه عام . فالوجود المتزمن بزمان هو فى جوهره صراع وتوفيق فى آن واحد ، وهذه الفكرة متمثلة بدرجات متفاوتة من الوضوح فى الأساطير والأديان والفلسفات المختلفة . فيمكن القول ان كل وجود لا يتم الا بفضل عامل من العوامل وعلى الرغم منه . فحياة بفضل الموت وعلى الرغم منه ، جديد بفضل القديم وعلى الرغم منه ، توحيد بفضل الكثرة وعلى الرغم منها ، ذاتية بفضل التغير وعلى الرغم منه ، سعادة بفضل الشقاء وعلى الرغم منه ، حرية بفضل العبودية وعلى الرغم منها . هذا هو لب الوجود وسر التقدم الحقيقى . فالمنهج التكاملى هو الذى يسترشد فى بحوثه بهــذه الحركة الدائرية اللولبية ، فيحاول جمع التيارات التى تساهم فى تكوين ظاهرة من الظواهر الانســانية سواء كانت نفسية أو تاريخية أو اجتمــاعية أو خلقية أو فلسفية ، مع كشف تنظيم هذه التيارات وصلتها بعضها ببعض . ففى دراسته للشخصية مثلا يرمى الى الربط بين الماضى والحاضر مع مراعاة مصــير الشخصية المحتمل اذ أن الشخصية تخضــع فى نموها وترقيها لقوانين ديناميكية توجيهية .

ويرمى المنهج التكاملى الى اعادة تنظيم المنهجين الرئيسيين المستخدمين اليوم فى علم النفس لتفسير سلوك الانسان ، ولكن على أساس أوسع وفى ضوء هذه الوظيفة الهامة التى أشرنا اليها باسم الوظيفة الدائرية اللولبية والتى هى بمثابة العمود الفقرى للمنهج . وهذان المنهجان يعتمدان الأول

على التفسير التاريخي أو التكويني والثاني على ما يمكن تسميته بالتفسير الشسبكي .

فالتفسير التاريخي أو التكويني يحاول الربط بين الحاضر والماضي ، أي بين السلوك كما هو مشاهد الآن وبين الدوافع والميول وكل ما اكتسبه الفرد في تجاربه السابقة ، سواء كانت هذه التجارب من رغبات وذكريات مشعورا بها أو لا ، ماثلة في الشعور أو منسية .

أما التفسير الشبكي فانه يتناول الحالة الراهنة أو المظهر السلوكي الراهن كتجربة نفسية من حيث هي تجربة شعورية يصفها الشخص ، ذاكرا بقدر الامكان كل الخصائص والصفات التي تجعل من هذه التجربة أمرا فرديا وفريدا في نفس الوقت ، هو صورة وافية لحيـــاة الشخص كما يعيشها ويعانيها في اللحظة التي يتأمل فيها .

لا شك في أن الاعتماد على تفسير دون الآخر عاجز عن أن يجعلنا ندرك حقيقة الحالة التي ندرسها . فالتفسير التاريخي يحاول التعليل بربط المعلولات بعللها ولكنه تفسير ناقص لأن العلم في الواقع عاجز عن أن يقدم تعليلا وافيا لعدم امكان حصر جميع الحلقات التي تكون سلسلة العلل والمعلولات .

ثم اذا اقتصرنا على هذا التفسير التاريخي الفينا أنفســنا أمام تفسير يجرد الحياة النفسية من كل حرية ويخرج من دائرة علم النفس عاملا أساسيا من عوامل تكوين الخلق وهو الارادة . فهو تفسير يفرض حتمية تسلسل العلل والمعلولات كما يظهره لنا التحليل العلمي .

والتفسير الشبكي بدوره ناقص لأن مضمون الشعور كما هو الآن وكما أصفه تبعا لشعوري به هو في الواقع جزء من حياتي النفسية وان كان لهذا الجزء أهمية كبرى لأنه يعبر عن الشخصية كما هي في صميمها من حيث اتجاهاتها وأساليبها . غير أن ميزة التفسير الشبكي هي أنه يعتبر من بين العوامل التي يكشفها تأمل الشخص لنفسه أو شعور الشخص لنفسه عامل الحرية والارادة ، سواء في صورة سلبية أو ايجابية كأن يشعر الشخص بأنه مسير ومجبور أو حر مسير لنفسه الى حد ما ، سواء كان هذا الشعور بالحرية وبالارادة الذاتية مجرد وهم كما يزعم مذهب حتمية الظواهر النفسية أو حقيقة . فهذا الشعور بالحرية هو أمر واقعي من حيث هو مشعور به وهو عامل من أهم العوامل التي تساهم في تكوين الخلق وتوجيه الشخصية .

فالتفسيران التاريخى والشبكى متممان بعضهما للآخر ولكن المشكلة فى التوفيق بينهما . هل يكون التوفيق عن طريق اضافة نتائج التفسير الأول الى الثانى دون الربط بينهما ربطا حيا، أى دون مزجهما أو بعبارة أصح تنظيمهما داخل تفسير أوسع وأعمق وأشمل ؟

يتحقق التوفيق بين المنهجين بفضل المنهج التكاملى الذى يضم الاثنين مع كونه أكثر من الاثنين مجتمعين · فانهما يتكاملان داخل المنهج التكاملى ولكن ما هو عامل التكامل ؟

للرد على هذا السؤال الهام نجمل ما قلناه عن التفسيرين التاريخى والشبكى : التاريخى يربط بين الحاضر والماضى ، والشبكى يتناول الحاضر؛ ولكنا نعلم أن لكل كائن حى نموذجا يتطور لكى ينتهى عند حالة معينة هى حالة البلوغ والاكتمال الجسمى فى الكائنات الحية عامة ، كأن ما سيصير عليه الكائن الحى يعين المراحل التى سيمر بهـــا لكى يصـــل الى غايته البيولوجية · وكذلك للشخصية مصير أو نموذج قابل للتحقيق فى المستقبل أو غاية ترمى اليها ، غير أن هذه الغاية أصعب تحديدا من الغاية البيولوجية التى سيحققها كل كائن حى فى دائرة فروعه · هناك اذن فكرة موجهة كما يقول كلودبرنار يعيننا كشفها على فهم طبيعة الحيـــاة ، وبالأولى طبيعة النفس التى هى أقرب الى عالم الفكر منه الى الحياة فى أعم مظاهرها من نمو وتكاثر · وتكون اذن معرفة المصير كما يوصلنا اليها العلم والفلسفة مما يعيننا على فهم طبيعة كل فرد من الأفراد وفهم مراحل نموه وترقيه المتعاقبة المتجهة نحو غاية أو هدف· فالمنهج التكاملى هو الذى يراعى فى محاولة تفسيـــره الســـلوك الانسانى ماضى الشخص وحاضره وكذلك ما يحتمل أن يئول اليه فى المستقبل · وهذا الاحتمال كبير جدا اذ أنه مستند الى دراسة سابقة للطبيعة الانسانية وكلما تقدمت هذه الدراســة زاد هذا الاحتمال قربا من اليقين ·

وفى دراسته للمراحل المتعاقبة ، لا يعتبر المنهج التكاملى كل مرحلة أساسا للمرحلة التالية فحسب ، بل رمزا لها ·

ومن الوظائف الأساسية التى يعتبرها المنهج التكاملى أكثر عمومية من غيرها وأشمل تفسيرا الوظيفة الدائرية اللولبية التى سبق ذكرها · والمقصود من هذه التسمية أن الرقى لا يسير طبقا لخط مستقيم مطرد · كما أن النمو ليس تقدما الى الأمام ثم نكوص الى الوراء بحيث يعود الأمر الى نقطة البدء · بل النمو أكثر تعقدا من التصوير البسيط الأول الذى يمثله بخط مستقيم كما أنه شىء آخر غير وجود عابر بين عدمين : العدم

السابق للوجود والعدم اللاحق له · الواقـع أن فى كل نمو نكوصا الى حد ما ، ولكنه ليس بالنكوص الكامل الذى يعود الى نقطة البدء ، هو بتعبير آخر رجوع قليل الى الوراء استعدادا للوثبة القادمة · النمو هو اضافة الجديد الى القديم ، لا اضافة عددية أو حسابية بل اعادة تنظيم القديم تحت تأثير الجديد وبتمثيل هـذا الجديد وطبعه بطابع النظام الكلى الذى يسعى لتحقيـــق غايته ونمـــوذجه السامى إلى الوراء قليـلا ثم وثبة الى الأمام تحمل الكائن النامى الى أبعد مما وصل اليه فى المرحلة السابقة ، وهكذا تتعاقب الطفرات حتى تحقق التكامل النموذجى · فالنمو حركة دائرية ولكنها لولبية اذ أن النمو تقدم وتجـديد وفيه ترق وصعود · فى ضوء هذه الحركة الدائرية اللولبية ندرك تماما معنى الانسجام الذى عبرنا عنه بأنه فى نفس الوقت تآزر وائتمار أى تعاون وخضوع ·

ويمكن القول بأن النمو ، بحكم كونه موجها ، لا يتم الا عن طريق التكوين المزدوج المتبادل ، أى أن المرحلة الجديدة تعين بشكل ما المرحلة القديمة ، كما أن المرحلة القديمة تعين بدورها ما يلحقها من مراحل ·

ومما هو جدير بالملاحظة هو عمومية هذه الوظيفة الدائرية اللولبية وشمول تفسيرها اذ توضح لنا دراساتنا فى ميدان علم الاحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وفى ضوئها يمكننا تحديد ما نسميه بالمدنية أو الحضارة ·

وهناك ملاحظة أخرى لابد من اثباتها هنا وهى أن الحركة الدائرية اللولبية التى نشاهدها فى نمو الأفراد والجماعات سواء كان هذا النمو ماديا اقتصاديا أم ثقافيا روحيا لا تكون مطردة ولا تقف عند حد · وهذا واضح فيما يختص بالنمو البيولوجى ولكن هذه القضية الهامة فى نظرنا تنطبق أيضا على النمو السيكلوجى والترقى الاجتماعى والثقافى · فهناك قانون آخر مغروز فى صلب الطبيعة الحية هو قانون الاعتدال أو قانون التوازن بين طرفين · وقد عبرنا عن هذا القانون ضمنا عندما تحدثنا عن الصورة أو النموذج أو الغاية · فكل تجاوز لحدود الصورة أو الغـاية ينقلب فورا الى نقص ، بل الى اضـطراب واختـلال ، الى مرض وموت · ولا يوجد فى الطبيعة سوى مظهر واحد لا يخضع لقانون النمو كما وصفنا وهو الحركة الميكانيكية العمياء التى تسير دائما مماثلة لنفسها طالما يظل المحرك مماثلا لنفسه من حيث قوة الدفع · وأقوى شاهد على ما نقول ، اذا نظرنا الى حضـارتنا الحاضرة ، هو وجود التعاسة والخـوف والمرض والدمار جنبا الى جنب مع تغلب النزعة الميكانيكية التى لا تعرف الهوادة ولا الراحة ·

وفي دراسة هذا التطور الموجه الذى يسير نحو تحقيق الصورة المثلى لكل كائن حى أو لكل نظام شبيه بالكائن الحى ، فردا كان أو جماعة ، لابد من مراعاة جميع المقومات ، كل فى مرتبته الخاصة وبالقياس الى سائر المقومات التى تتجه نحو التكامل والاتزان ٠

٦ ـ التصنيف التكاملى للوقائع النفسية

يتبين لنا مما سبق أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية لابد له من أن يسترشد بخصائص الحياة النفسية وأن يتبع فى سيره المراحل التى تجتازها هذه الحياة فى سعيها نحو تحقيق الغاية التى تنطوى عليها كل خطوة من خطواتها ، بحيث يصبح التصنيف صورة صادقة للمصنف ، يلخص فى حركته الصاعدة سير الحياة النفسية فى أثناء نموها وترقيها فى كنف الزمن الحى الذى يربط بين اللحظات المتعاقبة داخل نظام كلى موحد ٠

ويكون غرض علم النفس التكاملى أن يفسر لنا كيف يتم الترقى الذى يحول الفردية البيولوجية الى شخصية متكاملة وأن يعطينا صورة صادقة لمراحل التكوين والنمو مع بيان شتى العوامل والشروط البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ٠

يبدو لنا أن الطفل المولود حديثا لايختلف عن سائر الحيوانات ، وأنه لن يتجه نحو النموذج الانسانى الا بفضل تأثير المجتمع ٠ الواقع أنه ليس فى مقدور المجتمع أن يخلق شيئا ، فلابد من أن تكون جميع الامكانيات الانسانية موجودة فى هذا الكائن الذى يبدو لنا شبيها بسائر الحيوانات ٠ ولكن يجب القول أيضا أنه ليس فى مقدور هذه الامكانيات أن تظهر وتنمو بدون تأثير المجتمع ٠ فاذا كان المجتمع لا يخلق شيئا ، فلا شىء ينمو ويكتمل بدونه ٠ ولهذا السبب يجب أن يكون علم النفس علما نفسيا اجتماعيا فى آن واحد٠ كما أنه لابد من أن يكون أيضا بيولوجيا اذ لايدرس علم النفس نفسا مجردة بل نفسا لها جسم أى الانسان ٠

ويترتب على ذلك أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية ـ وهو تصنيف تفسيرى للحياة النفسية لأنه يتتبع مراحل التكوين والنشوء ـ سيشير بالضرورة الى العوامل البيولوجية والاجتماعية التى تشترك فى توليد المراحل بعضها من بعض واظهار الوظائف الجديدة وتنميتها وتفاعلها ٠

فلدينا من جهة العوامل النفسية والاجتماعية ، ومن جهة أخرى العوامل البيولوجية والنفسية . والقطبان الأولان يعينان من جهة طرفي الحركة التي ستظهر خلالها الوظائف النفسية الأساسية في أثناء تحول الفردية البيولوجية بما تحمل في طياتها من حوافز وميول الى شخصية اجتماعية موحدة متكاملة شاعرة بذاتها وبقدرتها على العمل الحر .

ويعين القطبان الثانيان الطرفين اللذين ستظهر حول كل منهما الابنية (structures) أو الأشكال التي ستتضح خلال عمل الوظائف في أثناء عملية بناء الحياة النفسية وهذان الطرفان هما المجال الحركي من جهة والمجال الذهني من جهة أخرى .

ولكل زوج من هذين الزوجين (فردية بيولوجية - شخصية اجتماعية أو ذات شاعرة حرة) و (مجال حركي - مجال ذهني) قانونان توجيهيان ، يعين كل منهما الاتجاه المؤدى الى رقي الحياة النفسية وتكامل جميع مقوماتها .

القانون الأول : يتجه الترقي في مجال الحوافز والميول من اللاشعور الى الشعور .

القانون الثاني : يتجه الترقي في مجال الشخصية من الأفعال الآلية الى الأفعال الارادية .

القانون الثالث : يتجه الترقي في مجال النشاط الحركي من استخدام الأشياء الى استخدام رموزها .

القانون الرابع : يتجه الترقي في مجال النشاط الذهني من الاحساس الى التصور الذهني (١) .

* * *

يمكن الكشف عن أهم المراحل التي تقطعها الحياة النفسية في أثناء نموها بدراسة سلوك الطفل الحركي النفسي منذ الولادة حتى اكتساب اللغة وظهور القدرة على التصور الذهني والتفكير .

---

(١) لا يتسع المقام لتوضيح هذه القوانين ، ويمكن الرجوع الى كتابنا «شفاء النفس» ص ١٢٥ - ١٢٨ دار المعارف للطباعة والنشر - ١٩٤٣ - آثرنا في نص القانون الثاني أن تستبدل بالأفعال المنعكسة ، كما جاء ذكرها في كتاب شفاء النفس ، الأفعال الآلية . والمقصود بالفعل الآلي ما لا يكون مسبوقا بروية وتفكير .

يكون السلوك في أول مظهره آليا ، أي أنه يتم بتأثير المنبه الخارجي مباشرة ، بشرط توافر الشروط الداخلية التي تهيىء جسم الطفل للقيام بالاستجابة التي يثيرها المؤثر الخارجي • وهو سلوك آلي أي غير مسبوق بروية وتفكير ، كما أنه سلوك فطري أي غير مكتسب ، ولكنه سلوك مكيف ، أي أنه يؤدي الى ارضاء الحافز الداخلي كالجوع مثلا • ونظرا لأنه مكيف وملائم لا يصح أن نعتبره ميكانيكيا ، اذ أن الميكانيكية لا تتضمن بذاتها السعي نحو تحقيق غاية ما •

والتكيف الذي يبديه الفعل الآلي صورة من صور الذكاء ولهذا السبب يعتبر سلوكا نفسيا ضمنيا • ولا تتضح صفة « النفسية » في السلوك الآلي الا عندما تكون الاستجابة للمنبه ، لا من حيث هو مؤثر فيزيقي فحسب ، بل من حيث هو دلالة أو اشارة أو رمز وستظهر القدرة على ادراك الدلالة بفضل ظاهرة جديدة هي الانفعال •

ولا نقصد بالانفعال مجرد التأثر الوجداني باللذة أو الألم ، بل تغير فجائي يعتري السلوك الهادىء المنظم المتواصل • والانفعال ينتج دائما عن عجز السلوك الآلي عن ارضاء الحافز ، أو بعبارة أعم عن التفاوت بين قدرة الآليات وصعوبة المشكلة أو بعبارة أخرى أن الانفعال ينطوي دائما على معنى الخيبة والفشل •

وللانفعال شكلان أو بعبارة أدق وظيفتان • وظيفة أولية فطرية ووظيفة ثانوية مكتسبة • فالانفعال في شكله الأولي البدائي لايزال سلوكا آليا غير أنه سلوك مضطرب غير مكيف ؛ هو سلوك محصور في جسم المولود الحديث ، هو ارتداد الاستجابة الى الجسم بعد انفصالها عن موضوعها الخارجي • فالانفعال في شكله الأول هو مجرد الأوضاع التي تتخذها أجزاء الجسم مع ما يصحبها من تغيرات فسيولوجية مختلفة ، أي أن الوظيفة الأولية للانفعال هي تشكيل جسم الطفل بشكل معين • ولهذا الشكل الخاص ـ انقباض العضلات ، تغيير ملامح الوجه ، احتقان الوجه بالدم ، الصراخ الخ ••• ـ تأثير في الآخرين يؤدي بهم الى القيام بسلوك معين نحو الطفل • غير أن هذا التأثير غير مقصود ، أي أن الحركات لاتزال مجرد حركات ثم لا تلبث هذه الحركات أن تتحول الى تعبيرات تحت تأثير البيئة الاجتماعية ومختلف أساليب التربية ، أي أن الطفل سيتعلم أن يستخدم هذه الحركات كأداة تعبيرية للتأثير فيمن يحيط به من أشخاص، أو بعبارة أخرى سيتعلم الطفل أن ينتظر أثر هذه الحركات وأن يتوقع الاستجابات التي سيقوم بها الآخرون لمعالجة الموقف بحيث يزول ما أثار

الانفعال . وتلك هى الوظيفة الثانوية للانفعال التى ترمى الى التأثير فى العالم الخارجى عن طريق التعبير الانفعالى .

تلك هى المرحلة الثانية فى نمو الحياة النفسية ، وسيؤدى التعبير الانفعالى الى المرحلة الثالثة أو الى الوظيفة الثالثة وهى التصور الذهنى والتفكير — وفى هذه المرحلة تظهر قدرة الطفل على استخدام الرموز بدلا من استخدام الأشياء نفسها ، وعلى استخدام المعانى لوضع خطة عمله فى المجال الذهنى قبل تنفيذها فى المجال الحركى .

سبق أن عرفنا السلوك الآلى بأنه غير مسبوق بروية وتفكير . فيوجد اذن نوع من التضاد بين الآلية والتفكير . ويوجد أيضا تضاد بين الآلية والانفعال اذ أن الانفعال هو اضطراب الآلية ، كما أنه يوجد تضاد بين الانفعال والتفكير اذ أن الاضطراب الانفعالى يعوق التفكير ، كما ان تصور الحالة الانفعالية والتفكير فيها يؤديان الى اخماد الانفعال .

ولكن يوجد ما يربط بين هذه المراحل الثلاث على الرغم مما يوجد بينها من تضاد . فقد ذكرنا أن الانفعال فى شكله الأولى ضرب من الآلية ، ولكنها آلية غير ناجحة . وبينا من جهة أخرى كيف أن الانفعال فى شكله الثانوى وبفضل وظيفته التعبيرية يمهد الطريق الى التصور الذهنى . ونلمس هنا كيف يمكن تطبيق الوظيفة الدائرية اللولبية على هذه الحركة التى تبدأ عند الآلية وتنتهى عند التصور الذهنى ، مع العلم بأن الآلية تظل الأساس الأولى الذى ستقام عليه الحياة النفسية كلها ، أى أن الفطرى هو الأساس الأول لكل ما هو مكتسب .

وبناء على ما سبق تكون الوظائف النفسية الأساسية هى تبعا لترتيب ظهورها فى الزمان : الآلية والانفعال والتصور الذهنى .

أما الذاكرة التى يعتبرها بعضهم (١) مستوى خاصا من مستويات

---

(١) فى كتاب حديث فى علم النفس لموريس برادين ظهر عام ١٩٤٣ (Maurice Pradines : Traité de Psychologie générale, T. I, Paris, 1943).

يرى المؤلف ان لنمو العقل ثلاثة مستويات : مستوى الآلية (automatisme) ومستوى الذاكرة (mémoire) ثم مستوى العقل أو الفكر (l'esprit ou la pensée) وهى مستويات متفاوتة من حيث قيمة المعرفة . وأوجه الاعتراض على هذا التقسيم هى الآتية : استعمال لفظ esprit بمعناه العام وهو الحياة النفسية عامة ، ثم استعماله بمعنى العقل الذى يجرد ويحكم ويستدل بناء على مبادىء عقلية كلية . لا يوجد فاصل مميز بين الآلية والذاكرة اذ أن الأفعال التعودية التى تتطلب الذاكرة هى نوع من الأفعال =

نمو الحياة النفسية ، فهى فى الواقع وظيفة عامة تعمل فى كل مظهر من مظاهر الحياة وهى فى نظر علم النفس التكاملى عامل التكامل النفسى من حيث هى تمثيل الزمن كخبرة حية ، وهى التى تربط بين جميع المراحل كما تربط بين لحظات الزمن ، هى عامل التكامل لأنها عامل ثبات ، كما أن الجهاز العصبى هو عامل التكامل البيولوجى واللغة عامل التكامل الاجتماعى ٠

والآن يمكننا أن نرى كيف ستترتب جميع الوقائع النفسية وفقا لهذا النظام الطبيعى الذى يتمثل فى المراحل الثلاث الأساسية ٠ وسنبين فيما يلى ترتيب هذه الوقائع وتسلسلها بادئين عند الفردية البيولوجية للوصول الى غاية الحركة التكاملية كما تتمثل فى الشخصية ٠

وكما تحمل الجرثومة الملقحة فى طيات دقائقها عوامل الوراثة البيولوجية الخفية ــ وراثة الأجيال السابقة بل وراثة الجنس بأسره ــ تلك العوامل التى ستشرف على نمو الكائن الحى فى اتجاه معين حتى يحقق فى فرده كمال جنسه ، كذلك يحمل الانسان فى ثنايا طبيعته عوامل الوراثة السيكلوجية التى لا تقل خفاء عن الأولى بل تفوقها غموضا ٠ فالانسان فى مبدئه وفى جبلته الأولى مجموعة من العوامل الديناميكية التى تنشأ بفضلها الحركة وتتوجه ، وتسمى هذه العوامل ، اصطلاحا فى علم النفس، بالغرائز والميول والنزعات ٠

ويظل دافع السلوك فى حالة كمون ان لم يثره منبه داخلى هو فى العادة فقدان التوازن العضوى الداخلى ، كما أنه يظل ناقص التنفيذ ان لم يغذ حركته ويوجهها منبه خارجى ٠

فاذا انتقل الفعل النفسانى من عالم الكمون الى عالم التنفيذ بفضل التنبيهات الداخلية والخارجية كانت الاستجابة لارضاء الدافع الداخلى والمطالب الخارجية استجابة مباشرة أو غير مباشرة ٠

= الآلية ، وفعلا يتحدث المؤلف عن العادة فى باب الآلية ٠ ثم ان لفظ فكر Pensée غير محدد فى دلالته ولا يوجد فاصل مميز بينه وبين الذاكرة لأن الذاكرة ليست مجرد اعادة الماضى كما هو بل تقتضى اختيارا ونشاطا فكريا ٠ واذا سلمنا بوجود تقابل بين الذاكرة وبين الفكر بأن الأول أساس المعرفة الحسية والثانى أساس المعرفة العقلية القائمة على مبادىء العقل (raison) فهذا التقابل معدوم بين الآلية والذاكرة ٠ واخيرا يلاحظ أن هذا التقسيم يغفل الناحية الوجدانية للحياة النفسية فضلا على كونه استاتيكيا جامدا لا يشير الى الحركة التى تشير بنمو الحياة النفسية من بدايتها الى غايتها وهذا على الرغم مما قرره المؤلف فى مقدمة كتابه عن اهمية المنهج التكوينى (génétique) ٠

والاستجابة المباشرة تكون في مظاهرها البسيطة اقدام أو احجام . ولسلوك الاقدام بطانة وجدانية هي الاحساس بالسار ، ولسلوك الاحجام بطانة وجدانية مضادة للأولى في مضمونها الكيفي هي الاحساس بالمكدر .

فاذا كان ما لدى الفرد من استعدادات ومعلومات كافيا لمواجهة الموقف بنجاح ، أي اذا كانت الآلية كاملة كانت الاستجابة مباشرة . وهي تتخذ أشكالا مختلفة حسب طبيعة المنبه اذا كان بسيطا أو مركبا ، موضعيا أو شاملا . وهذه الأشكال هي الأفعال المنعكسة والانتحاءات والأفعال الغريزية والأفعال التعودية (١) .

أما اذا كانت الآلية ناقصة غير صالحة لمواجهة الموقف لأسباب طارئة أو بتأثير التعب اضطرب السلوك وانفجر الانفعال .

غير أن الانفعال وان كان في بعض الظروف منشطا فانه استجابة فاشلة لا تلائم غرض النشاط ولا تحقق نهايته وهو استجابة استبدالية، مستواها دون مستوى الأفعال الناجحة التوافقية .

وفي هذه الحالة ترجأ الاستجابة حتى يستعد المرء من جديدلمواجهة الموقف وحتى يكتسب آليات جديدة عن طريق التعلم ، وهذه الآليات الجديدة عبارة عن اعادة تنظيم الآليات السابقة بعد انمائها . وعمليات الاكتساب والتعلم طويلة شاقة تمر بعدة مراحل . وأول مرحلة من المراحل هي سلوك الانتظار والتوقع والبحث ولهذا السلوك سداته الوجدانية الخاصة هي الاحساس بالطريف والمرغب . وهذا الاحساس بالرغم من بساطته أكثر تعقدا من الاحساس بالسار أو الاحساس بالمكدر وهو من قبيل ما يسمى بالعواطف .

وللعواطف على العموم وظيفة هامة تشبه وظيفة الدوافع الفطرية : هي تغذية السلوك وتعديله وتوجيهه ، هذا الى أن العواطف نفسها تقوى وتتشعب بتفاعلها مع السلوك .

أما عملية اكتساب المعلومات وتنظيمها واستخدامها في المجال الذهني والمجال الحركي أي في مجال الفكر ومجال العمل المسبوق بالروية ، فتستلزم نشاط بعض الوظائف السيكلوجية الهامة مثل الادراك والذاكرة والتعلم .

---

(١) انظر في باب التعريفات في هذا العدد تعريف الفعل المنعكس والانتحاء .

وللانتباه أو للنشاط الذهنى بوجه عام مستويات تختلف قوة وتوترا وتنظيما • وينجم عن هذه الاختلافات نوعان من الاستجابات : الاستجابات التى تنفذ فى عالم الوهم والخيال والاستجابات التى تنفذ فى عالم الواقع والعمل ، فالأولى استبدالية والثانية حقيقية • وتكون كل منهما اما ذهنية أو حركية • فمن الاستجابات الاستبدالية الذهنية أحلام اليقظة ، وأحلام النوم والأمراض النفسية (١) أما اللعب فهو ضرب من ضروب الاستجابات الاستبدالية الحركية • وقد يكون الفن لونا من ألوان اللعب •

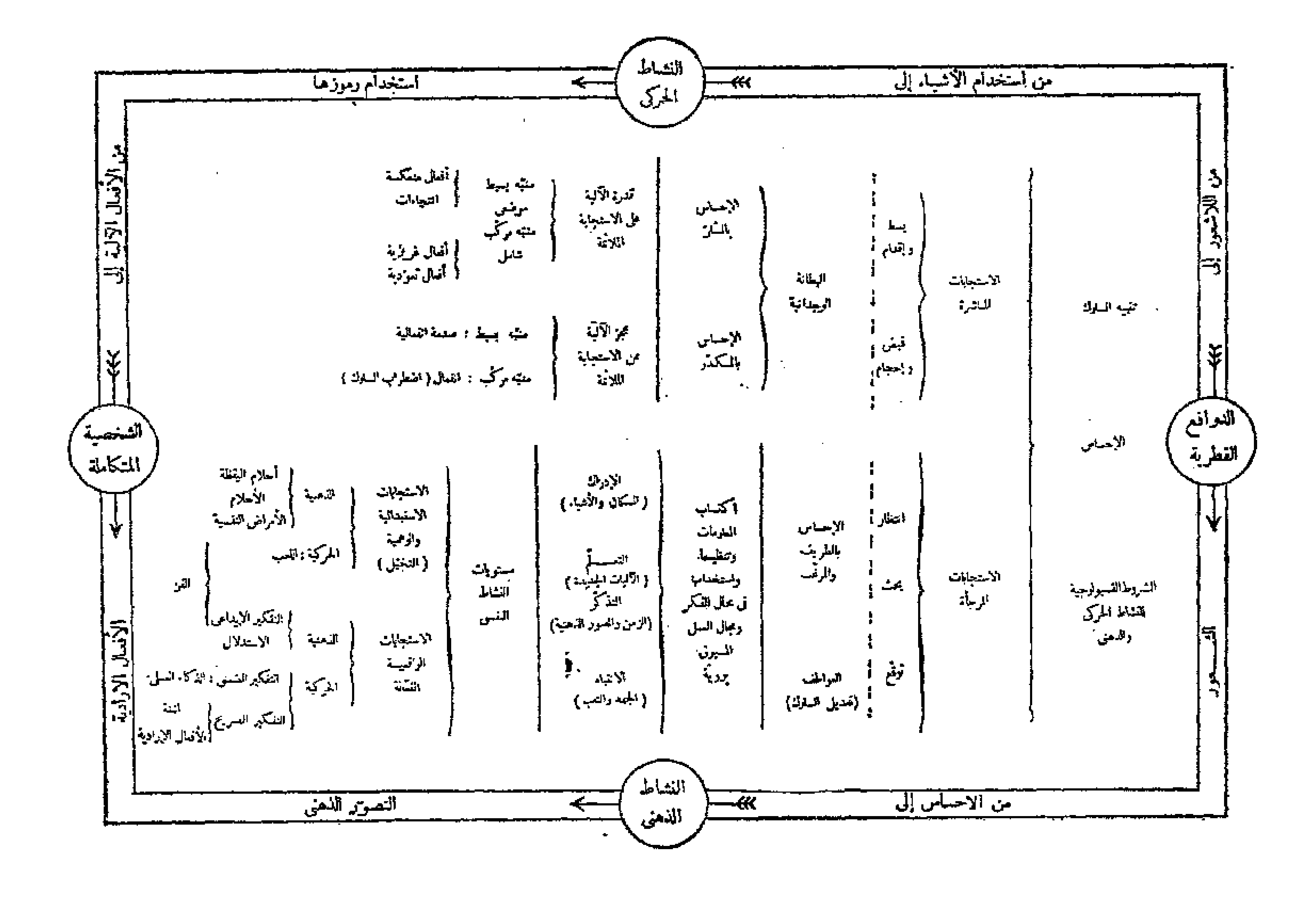
ومن الاستجابات الحقيقية الذهنية نذكر الاستدلال والتفكير الابداعي • أما الاستجابات الحقيقية الحركية ، فهى اما مصحوبة بتفكير ضمنى وهو الذكاء العملى أو مصحوبة بتفكير صريح مشعور به ، وهو التعبير اللغوى وأخيرا الأفعال الموجهة المقصودة أى الأفعال الارادية •

بهذا رأينا كيف تنوعت المسالك التى اتخذتها الدوافع للظهور والنشاط والتنفيذ فاستعرضنا مراحل الفعل النفسانى ، وأشرنا الى الوظائف الهامة التى تحقق نمو هذه المراحل وتصل بينها • على أنه قد بقى أن نشير الى المرحلة الأخيرة التى سوف تتحقق خلالها الوحدة التى اضطررنا الى تحليلها • وهذه الوحدة الجديدة التى تفوق فى ثرائها وغزارة موادها وتكامل تنظيمها الوحدة الفطرية الأولى هى الشخصية بشتى نواحيها الفردية والاجتماعية •

وقد أجملنا فى الجدول الآتى مراحل رقى الحياة النفسية مع الاشارة الى الاتجاهات العامة الأربعة •

---

(١) هذا التصنيف بفضل اعتماده على الحركة الطبيعية التى يتبعها الترقى فى مراتبه الثلاث (البيولوجية والنفسية والاجتماعية) وبفضل توضيحه القوانين التوجيهية التى يسير الترقى بمقتضاها يلقى ضوءا على تصنيف انحرافات السلوك والأمراض النفسية والعقلية وتفسير نشوئها وتطورها الشاذ • (أنظر فى هذا العدد مقال الدكتور صبرى جرجس باللغة الانجليزية عن الشخصية السيكوباتية) •



النشاط الحركي
من استخدام الأشياء إلى
استخدام رموزها
الدوافع الفطرية
من اللاشعور إلى
الشعور
النشاط الذهني
من الاحساس إلى
التصور الذهني
الشخصية المتكاملة
من الأفعال الآلية إلى
الأفعال الإرادية
تنبيه السلوك
الإحساس
الشروط الفسيولوجية للنشاط الحركي والذهني
الاستجابات المباشرة
الاستجابات المرجأة
بسط وإقدام
قبض وإحجام
انتظار
بحث
توقع
الطاقة الوجدانية
الإحساس بالتعريف والرغب
المواقف (تعديل السلوك)
الإحساس بالسّار
الإحساس بالمكدّر
اكتساب المعلومات وتنظيمها واستخدامها في عالم الفكر ومجال العمل المتبرق جدية
قدرة الآلية على الاستجابة اللائقة
عجز الآلية عن الاستجابة اللائقة
منبه بسيط
موضعي
منبه مركب
شامل
أفعال منعكسة
التحيات
أفعال غريزية
أفعال تعودية
منبه بسيط : صدمة انفعالية
منبه مركب : انفعال (اضطراب السلوك)
الإدراك (المكان والأشياء)
التعلم (الآليات الجديدة)
التذكر (الزمن والصور الذهنية)
الانتباه (الجهد والتعب)
مستويات النشاط النفسي
الاستجابات الاستبدالية والوهمية (التخيّل)
الاستجابات الراقية الثابتة
الذهنية
المركية : اللعب
الذهنية
المركية
أحلام اليقظة
الأحلام
الأمراض النفسية
الفن
التفكير الإبداعي
الاستدلال
التفكير النسقي : الذكاء العملي
التفكير الصريح
المهنة
الأفعال الإرادية

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى (*)

كل عصر من العصور يمتاز في تفكيره بطابع خاص ويتجه اتجاها بارزا تصطبغ بصبغته الاتجاهات الأخرى التى تكون فى مجموعها الثقافة السائدة في وقت من الأوقات • ولابد من أن ننظر الى عصرنا هذا نظرة شاملة واسعة لكي نكشف عما يتميز به من طابع قوى أصيل • فاذا استعرضنا مختلف نواحى النشاط الانسانى فان أول ظاهرة تسترعى انتباهنا هى بدون شك اضمحلال الفن الخالص وفقر الانتاج الأدبى كأن معين الوحى قد جفت مياهه أو ــ وهو الأصح ــ كأن قلب الفنان أو الأديب قد فقد القدرة على تلقى الوحى من ينبوعه قبل أن يشوه ويكتنفه الظلام • واذا كان الفن أو الأدب أمسى فى المرتبة الثانية هل معنى هذا أن الصدارة أصبحت للعلم ، وأقصد هنا بالعلم معناه الاصطلاحى أى العلوم الطبيعية خاصة ، تلك العلوم التى جندت فى سبيل تقدمها آلاف الباحثين فى معامل الفيزياء والكيمياء • يجب أن نتريث قليلا قبل الاجابة عن هذا السؤال • ان النتائج التى وصل اليها العلم باهرة حقا ، والانسانية فى مجموعها لا تزال كالطفل الذى يتوق الى كل ما يثير فى نفسه الدهشة والتعظيم • هل يجوز لأحد أن يشك فى سيطرة العلم على مدنيتنا الحاضرة وقد غمرتنا من كل صوب ثمار التفكير العلمى فقهرنا الزمن أو كدنا ، وسخرنا المكان وحطمنا حدوده ، ثم نفذنا الى مكمن الطاقة فحررناها من قيودها وأطلقناها من حصنها المنيع بتحطيم الذرة وتغيير بنائها ؟ كل هـذا صحيح ولكن يبدو أن صيحة الفرح التى استقبلت انتصار العلم على الطبيعة المادية قد ازدادت عنفا وقوة حتى تحولت الى تشنجات أشبه ما تكون بصرخة الرعب والفزع • وعلى هذه الصرخة التى غمرت أصداؤها أنحاء الأرض وأرجاء السماء أفاق العلماء من عزلتهم ولأول مرة فى تاريخ الفكر تساءلوا عن قيمة اكتشافاتهم من الوجهة الانسانية وحاولوا أن يزنوها بغير ميزان المعرفة البحتة • انه لأمر عجيب حقا أن نسمع عن عالم يتردد قبل نشر بحوثه متسائلا عما عساه أن تؤدى اليه هذه البحوث من سعادة أو تعاسة لاخوانه من بنى البشر • ان فى هذا الأمر الأخير الدليل القاطع على أن

(*) محاضرة ألقيت فى دار السلام بالقاهرة يوم الثلاثاء ١٧ من ديسمبر ١٩٤٦ •

العلم البحت لم تعد له الصدارة فى تقدير الناس له • وكذلك أخذ الناس يشكون في قيمة التطبيقات القائمة على العلم البحت عندما ينظرون الى البون الشاسع الذى يفصل بين ما كان يرجى من هذه التطبيقات وبين ما حققته فعلا من طمأنينة وراحة وسعادة ، كأن تطبيقات العلم تجاوزت أغراضها فأصبحت حملا ثقيلا فاستعبدت الانسان بدلا من أن تمنحه الحرية التى كانت تعده بها •

أعتقد أننى لا أقول بدعة اذا قررت أن العلم أيضا فى وقتنا هذا فقد مركز الصدارة ليفسح المجال لاهتمام آخر أخذ يزداد ويبرز بشىء من العنف والاصرار • وهذا الاهتمام المسيطر الآن على العقول ينحصر فى نقطة مركزية واحدة هى المشكلة الاجتماعية • ومن المعلوم أن الشعور بخطورة مشكلة من المشاكل لا يزداد الا بقدر ازدياد تعقد هذه المشكلة واضطراب نواحيها • وفى الوقت الحاضر ، فى الأقطار التى عانت ولا تزال تعانى من آثار الحرب الأخيرة ، لا شك فى أن المشكلات الاجتماعية وصلت الى أقصى درجة من العنف والاضطراب كأن الانسانية أصبحت فى مأزق يتعذر الخروج منه • وليست الحرب فى مختلف مظاهرها — حرب الأسلحة أو حرب الأعصاب أو حرب الكلام — ليست الحرب سوى عرض من أعراض الأمراض الاجتماعية التى تشكو منها الانسانية • وفى ضوء هذا الاهتمام الوحيد أخذ الفنان والأديب كما أخذ العالم يعيد كل منهم النظر فى طبيعة رسالته وأغراض مجهوده متسائلا عن وظيفة الفن أو الأدب أو العلم لا من الناحية البحتة المستقلة ، بل من الناحية الاجتماعية ومن حيث ارتباط آثار الفن والأدب والعلم بالحياة الاجتماعية كنظام موحد لا يتجزأ • ذلك لأن الانسان الذى يتوق الى تحقيق انسانيته كاملة لايمكن أن يحيا حياة اجتماعية منسجمة متكاملة الا من حيث هو نظام موحد لا يتجزأ •

❋ ❋ ❋

تلك هى الاعتبارات التى كانت تجول فى خاطرى عندما طلب منى أن أعين موضوعا لمحاضرة هذا المساء • وقد دهشت فى بادىء الأمر عندما اتجه ذهنى نحو الموضوعات الاجتماعية وها هى موضوعات علم النفس على اختلاف أنواعها تقدم لى مادة غزيرة للعرض والتحدث • ولكن هذه الدهشة لم تدم طويلا اذ من السهل أن يتبين المرء أنه قلما يوجد موضوع فى علم النفس لا ينتهى فيه الباحث الى اعتبارات اجتماعية ، بل يقف فيه الباحث على الدور الكبير الذى تقوم به العوامل الاجتماعية فى أثناء تكوين الوظائف

السيكولوجية ونموها ، كما أنه قلما يوجد موضوع في العلوم الاجتماعية لا يؤدى بالباحث الى كشف جذوره السيكولوجية . وليس مما يدعو الآن الى ذكر عشرات المؤلفات الحديثة التي تعرض للصلات الوثيقة التي تربط بين علم النفس وسائر العلوم الاجتماعية ؛ وحسبي أن أذكر هنا أن المنهج التكاملي الذي أخذ به أعضاء جماعة علم النفس التكاملي في مصر يضع كأساس أولى لدراسة طبيعة الانسان عدم الفصل بين النواحي البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . وبما أنه توجد أوجه شبه عديدة بين الكائن الحي والمجتمع فلابد أن يوجد هناك مجال لتطبيق معنى التكامل في الحياة الاجتماعية كما هو مطبق في المجالين البيولوجي والسيكولوجي ولكن مع مراعاة الخصائص التي يمتاز بها النظام الاجتماعي دون غيره من الأنظمة الحية والنفسية . فالتكامل الاجتماعي اذن هو موضوع هذا الحديث ولكن أريد أن أصرح في بادىء الأمر أنني سأقتصر على تعريف التكامل الاجتماعي وبيان بعض شروط تحقيقه بصورة تخطيطية عامة ، مقتصرا على أهم الشروط السيكولوجية . فان في مثل هذا الموضوع المعقد يجب أن نضمن أولا متانة الأساس الذي ستقام عليه نظرية النظام الاجتماعي وبما أن الحياة النفسية لا يمكن أن تدرك في حقيقتها الا بالاستناد الى معرفة الطبيعة الانسانية من الوجهة البيولوجية، فكذلك لايمكن فهم الحياة الاجتماعية الا في ضوء معرفة العوامل النفسية التي تعين مظاهرها الأساسية .

يجدر بنا في بادىء الأمر أن نحدد بقدر الامكان مفهوم الألفاظ التي سيدور عليها البحث وأن نعرف (١) التكامل (٢) الاجتماعي (٣) السيكولوجي .

١ ــ **التكامل :** لا يمكن التحدث عن التكامل الا في مجال الكائن الحي أو ما هو شبيه بالكائن الحي ، أي بصدد نظام يقوم على تنسيق مقومات جزئية أو على تآزر أعضاء لتأدية مجموعة من الأفعال ترمي الى حفظ هذا النظام وتنميته وفقا لنموذج معين . فمعنى التكامل يتضمن معان مختلفة منها الأجزاء ثم الصلة بين الأجزاء ثم الصلة المنظمة بين الأجزاء ثم التنظيم الديناميكي وأخيرا تأدية وظائف وفقا لنموذج معين . وأعتقد أن النقطة الأخيرة (وهي تأدية وظائف وتحقيق غرض) هي النقطة الأساسية التي تميز التكامل عن سواه من أنواع التنظيم . وستختلف أنواع التكامل باختلاف المقومات التي تتكامل داخل النظام الكلي فيكون لدينا التكامل البيولوجي والتكامل السيكولوجي والتكامل الاجتماعي .

يمكننا أن نشير هنا الى أن أوجه الاختلاف بين عمليات التكامل في هذه

المجالات الثلاثة سننحصر خاصة فى طبيعة العوامل التى تحقق التكامل كما أن محاولة تحديد الغاية التى تؤدى اليها هذه العمليات ستزداد صعوبة كلما ابتعدنا عن القطب البيولوجي واقتربنا من القطب الاجتماعي ٠

٢ ـ ما هو المقصود **بالاجتماعي** ؟ للاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر أولا أن طبيعة الصلة التى نربط بين أفراد جماعه هى التى نعين طبيعة الجماعة نفسها ٠ فقد تتفاوت الصلات فى قوتها كما تتفاوت فى بقائها واستمرارها ٠ فهناك جماعات مؤقتة عابرة ، ضعيفة التنظيم لاتترك استجابات أفرادها بعضهم لبعض آثارا عميقة ، جماعات تتكون بسرعة وتنحل بسرعة وذلك لاضمحلال الغرض الذى ترمي اليه وتلاشيه بعد فترة من الوقت ٠ وعلى العكس من ذلك توجد جماعات قوية التنظيم تقاوم عوامل التشتيت والانحلال وذلك لتعدد الصلات التى تربط بين أفرادها وتنظيمها حول غرض واضح أصيل ينبعث من جوانب الجماعة ذاتها ، غير مفروض عليها من الخارج ٠ وفى مختلف هذه الجماعات ، مهما اختلفت درجة تماسكها وبقائها ، فان العامل المشترك بينها هو اتصال أشخاص بعضهم ببعض وتبادل التأثير بينهم ٠ وعلى ذلك يمكن تعريف علم الاجتماع دراسة العمليات والوسائل التى بواسطتها تتصل الأشخاص والجماعات بعضها ببعض ٠ ولا يهتم علم الاجتماع بالأشخاص من حيث هم أفراد أو كائنات حية بل من حيث هم كائنات بشرية تشترك فى تجارب وخبرات واحدة وتكتسب عادات الجماعة أو الجماعات المختلفة التى قد تنتمي اليها اما بصورة مستديمة أو بصورة متقطعة ٠ وبقدر اندماج الشخص فى جماعة ما وتعاونه مع الآخرين فى تحقيق غرض الجماعة تتعين درجة التكامل الذى يحققه هذا الشخص مع سائر شركائه وسوف نرى أن هناك صورا منوعة للتكامل الاجتماعي ، ترجع الى أن فى اختيار الشخص الى حد بعيد الاندماج فى مجتمع أو الانفصال عنه ٠ ولكن مع تعدد هذه الصور يوجد لها أساس واحد مشترك يرجع الى قدرة الشخص على التكامل اطلاقا وهذا الأساس هو فى صميمه أساس نفسى يتوقف فى نهاية الأمر على مدى تكامل شخصية كل شخص من الوجهة السيكولوجية ٠

٣ ـ ما هو المقصود **بالسيكولوجي** ؟ ـ يلاحظ أننا تدرجنا من الاجتماعي الى السيكولوجي وعندما نتجه هذا الاتجاه نرى ان تعريف السيكولوجي أو تحديده أكثر صعوبة من لو أننا صعدنا من البيولوجي الى السيكولوجي ، ففى هذه الحالة الأخيرة يكون التمييز سهلا بين الوظيفة الحية والوظيفة النفسية ٠ فالاستجابة الحية هى دائما استجابة لمنبه من

حيث هو عامل فيزيائى أو كيميائى ، فى حين تكون الاستجابة النفسية لمنبه ما من حيث هو رمز أو دلالة أو بعبارة أخرى عندما تشمل الاستجابة عنصر التعلم والاكتساب • ولهذه النظرة نتائج هامة منها أنها تضع مشكلة الصلة بين الفطرى والمكتسب وضعا جديدا • فالسيكولوجى يبدأ عندما نتدخل عوامل التعلم وهذا ينطبق بوضوح على العمليات العقلية التى نسميها عادة بالعليا ــ مع العلم بان القدرة على التعلم أمر فطرى غير مكتسب ــ كما أنه ينطبق على أشد الوظائف صلة بالتركيب الفسيولوجى وأقصد بالذات الانفعال • فالانفعال من حيث هو عملية نفسية أمر مكتسب ، أى من حيث هو أداة تعبير وتأثير فى البيئة الخارجية • ولهذه النقطة أهمية كبرى لفهم الأثر البليغ الذى تقوم به العوامل الانفعالية فى تكامل الشخصية •

فالاستجابة للرمز أو الدلالة هى اذن ما يميز السيكولوجى عن البيولوجى • أما اذا أردنا اقامة التمييز بين السيكولوجى والاجتماعى فالأمر عسير جدا لان كل استجابة اجتماعية هى استجابة موجهة نحو شخص أو نحو مجموعة من الأشخاص ، فهى فى صميمها استجابة سيكولوجية • ومن جهة أخرى فان عوامل التعلم التى تؤدى الدور الرئيسى فى النمو السيكولوجى قلما تكون منفصلة أو مستقلة عن العامل الاجتماعى • فالنمو النفسى لا يمكن أن يتم الا فى كنف المجتمع ولا يمكن أن يتم تنظيم الدوافع الفطرية وتعديلها وتهذيبها الا بتأثير العوامل الاجتماعية • فالنمو النفسى اذا نظرنا اليه من الخارج هو عملية تكوين الذات الاجتماعية فى الطفل والمراهق ، وبالتالى نمو قدرته على التوافق الاجتماعى وهذا هو موضوع علم النفس الاجتماعى • أما فى نظر علم النفس العام فدراسة النمو النفسى قاصرة على معرفة كيفية تنشيط الوظائف النفسية وكيفية عملها سواء كانت المنبهات عوامل اجتماعية كالأشخاص والجماعات أو مجرد أشياء غير مشخصة • فعلم النفس العام أكثر تجريدا من علم النفس الاجتماعى ولكنه يستند فى محاولته سن قوانين عامة الى الدراسات التى يقدمها لنا علم النفس الاجتماعى • والواقع اذا تصفحنا كتابا فى علم النفس العام فاننا نجد أن الدراسات التى تتناول موضوعات الانفعال والعاطفة والتعلم واكتساب اللغة والتفكير والارادة والشخصية هى فى صميمها دراسات نفسية اجتماعية • أما الموضوعات الأخرى كالاحساسات والادراك فانها أقرب الى علم النفس الفسيولوجى منها الى علم النفس العام : فان السيكولوجى البحت ينحصر فى دراسة القدرات النفسية التى تعين الطبيعة البشرية فى جوهرها • أما عندما

تأخذ هذه القدرات بالتنشيط فاننا نرى العوامل الفسيولوجية من جهة والعوامل الاجتماعية من جهة أخرى تقتحم الميدان لتسمح لهذه القدرات بأن تعمل وبأن تعبر عن نفسها ٠

نخلص من كل ما سبق الى أن الأسس السيكولوجية للتكامل الاجتماعي لابد أن تبحث أولا فى دائرة القدرات الطبيعية أو الميول أو النزعات الفطرية وهذا ما ستبينه بعد أن نزيد موضوع التكامل توضيحا وتفصيلا ٠

لا شك فى أن الكائن الحى يكون نظاما متكاملا أى أنه وحدة أو نظام يعمل بكليته بحيث يتحقق الانسجام بين جميع أعضائه ٠ فكل وظيفة خاضعة فى عملها لنظام الكل ترمى الى الاحتفاظ بتوازنه ، كما أن مجموعة الوظائف تعمل متعاونة لتحقيق هذا التوازن ٠

وبما أن الكائن الحى هو عبارة عن بيئة داخلية متصلة عن طريق أعضاء الحس ببيئة خارجية ، فسيكون لترابط الوظائف وتماسكها ، أو بعبارة أخرى لتكاملها ، وجهان : وجه داخلى خاص بالبيئة الداخلية الكيميائية ووجه خارجى خاص بتكيف الكائن الحى مع البيئة الخارجية ٠ ولتكامل الكائن الحى عاملان أولهما الجهاز الدورى المتشعب فى جميع أنحاء الجسم وما ينصب فى الدورة الدموية من افرازات الغدد الصماء ٠ أما العامل الثانى وهو الذى يحقق تكيف الكائن الحى مع الخارج فهو الجهاز العصبى الدماغى الشوكى الذى يصل بين التنبيهات الحسية والاستجابات الحركية التى تقوم بها العضلات المخططة ٠ وهناك عامل ثالث يصل بين الجهاز الدورى والجهاز العصبى الحسى الحركى هو الجهاز السمبتاوى الذى يشرف على النمو وعلى الحساسية الحشوية ٠

فعندما تعمل هذه العوامل بنظام وانسجام محققة من جهة ثبات البيئة الداخلية ومن جهة أخرى التكيف الخارجى بتثبيت المنبهات الخارجية بقدر الامكان وما تثيره من استجابات يقال عن الكائن الحى انه فى حالة تكامل وان نشاطه متكامل ٠ أما عدم التكامل ، أو بعبارة أخرى التفكك ، فانه يحدث عندما تتحرر وظيفة من الوظائف من النظام الكلى وتعمل منحرفة أو بأن يقل نشاطها أو يزيد أو بأن تعمل مستقلة مسيطرة كما فى حالة تكاثر الخلايا السرطانية ٠ أما التكامل السيكولوجى فيمكن تعريفه بأنه تنظيم الدوافع والعادات والأفكار والسمات الخلقية وسائر مقومات الشخصية بحيث يكون وحدة ديناميكية متماسكة الجوانب مركزة بقدر الامكان حول الذات الشاعرة ٠ والمقصود هنا بالديناميكى أن هذا النظام

الموحد لا يمكن الوقوف عليه وتحديده الا عن طريق أساليب الاستجابات الصادرة عنه. واذا أردنا أن نبحث عن العامل الرئيسى للتكامل السيكولوجى فلابد أن يكون عامل ثبات وترابط كما هو شأن عوامل التكامل البيولوجى التى تحقق ثبات البيئة الداخلية وثبات الاستجابات الخارجية فى دائرة لا يمكن تجاوزها والا أدى التفاوت الكبير بين تغيير البيئة الخارجية وقدرات الكائن الحى البيولوجية الى الهلاك .

وعامل الثبات والترابط الذى يحقق توحيد جميع مقومات الشخصية هو بلا نزاع الذاكرة أو القدرة على تركيز خبرات الشخص فى الذات الشاعرة وربط هذه الخبرات فى الزمان .

وبما أن الانسان لا يعيش فى لحظته الحاضرة بل تكون كل خبرة راهنة بمثابة امتداد للماضى واعداد للمستقبل فالشخصية المتكاملة أو بعبارة أصح الساعية نحو التكامل ـ اذ أن التكامل توازن يجب أن يتحقق فى كل لحظة ـ هى التى ينتظم فيها ما هو عليه الانسان فى لحظة ما وما سيكون عليه فى المستقبل القريب أو البعيد .

وأريد أن ألح على أن الشخصية المتكاملة أمر مثالى وأن ما نشاهده هو السعى نحو تحقيق التكامل، أى السعى نحو تحقيق هذا التوازن غير الثابت الذى لا يثبت الا بقدر ما يقاوم كل ما يهدده من عوامل الانحراف والتفكك والانحلال . هذا ما يشير اليه المنهج التكاملى عندما يقرر أن كل نمو أو كل تقدم لا يتم الا بفضل كذا .. وعلى الرغم منه كأن نقول مثلا ان الجديد لا يتم الا بفضل القديم وعلى الرغم منه أو أن الصحة لا تتم الا بفضل المرض وعلى الرغم منه .

ربما يكون هذا الأمر أوضح فى المجال البيولوجى عنه فى المجال السيكولوجى ، ولكن مما لا شك فيه أن معنى الصراع أو معنى اشتراك المتقابلين فى سلوك ما من المعانى الأساسية التى تسمح لنا بكشف اللثام عن أسرار الحياة فى مظهريها البيولوجى والسيكولوجى .

وقبل أن نبحث عن عامل التكامل الاجتماعى أريد أن أشير هنا الى الخصائص العامة التى يتصف بها السلوك المتكامل كما سبق أن وضحنا. فالخاصة الأولى هى أن كل سلوك فى جميع الكائنات الحية هو سلوك وظيفى أى أنه يرمى الى ازالة التنبيه أو الى خفض التوتر الذى أثار السلوك . والخاصية الثانية هى أن كل سلوك يتضمن صراعا أو اشتراك النقيضين وبحوث مدرسة التحليل النفسى قد ألقت ضوءا جديدا على الدوافع اللاشعورية أو المكبوتة ليس الآن مجال توضيحها .

أما الخاصية الثالثة فهى أن السلوك لا يمكن فهمه على حقيقته الا اذا ربطنا بينه وبين المجال الذى يحدث فيه • وغنى عن القول ان مدرسة الجشطلت أبرزت بوضوح أهمية المجال أو الاطار لفهم أى مظهر من مظاهر السلوك • ومعنى المجال شبيه بمعنى البيئة غير أنه يشير خاصة الى كيفية تنظيم هذه البيئة وأثر هذا التنظم فى السلوك •

أما الخاصية الرابعة فهى نتيجة الخصائص الثلاث التى ذكرناها وهى أن الكائن الحى ينزع على الدوام الى المحافظة على أقصى درجة من التماسك الداخلى أو من التكامل وهذا يذكرنا بقول الفيلسوف سبينوزا عندما يقرر أن كل كائن ينزع الى الاستمرار فى كينونته أو الى المحافظة على كيانه •

جميع هذه الخصائص تزداد وضوحا اذا انتقلنا الى النظر فى التكامل الاجتماعى • فالشخص فى المجتمع يؤدى مجموعة من الوظائف وهو لاينفك يواجه ألوانا من الصراع بين نزعاته الشخصية وما يفرضه المجتمع من أوضاع ومعايير • ثم ان السلوك الاجتماعى يحدث بحكم الواقع فى مجال اجتماعى بل ينتقل من مجال الى مجال ، وقد تضيق المجالات أو تتسع أو تتغير خصائصها بحيث يضطر الشخص على الدوام الى بذل المجهود لتحقيق التوافق الذى سيصون كيانه الفردى والاجتماعى • وأخيرا كل شخص فى مجتمع ينزع بطبعه - ان لم يكن منحرفا - الى توثيق العرى بينه وبين الأشخاص الآخرين على أساس من التفاهم والانسجام •

وما ذكرنا الآن عن التفاهم والانسجام يمهد لنا السبيل الى كشف عامل الثبات الذى يحقق التكامل الاجتماعى • وهذا العامل هو بدون شك اللغة ، اللغة ذات المفاهيم الثابتة الى حد كبير والتى تقوم بين المتكلمين بها بالدور عينه الذى تقوم به العملة فى المعاملات التجارية •

ولكن لا تؤدى العملة وظيفتها الا اذا كانت سليمة غير مزيفة • ولكن شتان ما بين عملة الورق والفضة وعملة الكلام ، وما أكثر التزييف الذى يصيب ألفاظ اللغة فى حديثنا اليومى • ربما تذكرون الآن حديث لقمان الحكيم عندما قرر أن اللسان هو أحسن شىء وأسوأ شىء قد يساهم فى الخير أو ينشر الفساد • الواقع أن التكامل الاجتماعى أمر أصعب تحقيقا من التكاملين البيولوجى والسيكولوجى ، وان كانت القدرة على التعبير بوجه عام من خصائص الانسان - فان التعبير اللغوى وظيفة مكتسبة فهى خاضعة فى تكوينها لظروف اكتسابها ثم ككل أمر مكتسب هى قابلة لكى تصبح آلية فضلا على كونها أداة للتصنع والادعاء والكذب • ولكن لا تزال اللغة فى الظاهر العامل الاجتماعى للتكامل الاجتماعى ولابد أن يتم هذا التكامل

بفضل اللغة وعلى الرغم منها · ولكنه عامل ناقص ولهذا السبب أشرت فى بدء هـــذه المحاضرة الى أنى سأتحـدث عن الأسس النفســية للتكامل الاجتماعى · يجب اذن أن نبحث فى ما وراء الألفاظ وأن ننفذ الى الدوافع الدفينة التى تحرك سلوك الشخص لكى نقف على الشروط التى يجب أن تخضع لها اللغة لكى تصبح الوسيلة الناجحة لتحقيق التكامل الاجتماعى· فدراسة هذا الموضـــوع تعود بنا الى تحليل الدافع الفطرى الرئيسى أو الدوافع الفطرية التى تقوم على أساسها الحياة الاجتماعية ودراسة الظروف التى تؤثر شتى التأثيرات فى تنشيط هذه الدوافع وتوجيهها وتعديلها ·

لسنا فى حاجة الى عناء كثير لكى نتبين المشقة التى يعانيها الباحث عندما يريد تحديد ما يجب أن يكون عليه التكامل فى المجالات الاجتماعية المختلفة التى ينتمى اليها الشخص كمجال الأسرة ومجال المدرسة ومجال المهنة ومجال الحب الجنسى الخ ·· فقد يحقق الشخص شيئا من التكامل فى أحد المجالات دون غيره أو على حساب مجال آخر · فقد يكون التكامل سطحيا لا يتطلب مجهودا كبيرا كما فى حالة وجود الشخص فى جماعة غير مستديمة وقد يكون عميقا يقتضى مساهمة ايجابية متواصلة فى تحقيق أغراض الجماعة وتذليل العقبات التى تحول دون التفاهم والانسجام وهذا النوع هو الذى ينطبق عليه معنى التكامل الجدير بهذه التسمية ·

وقد درس بعض علماء النفس استجابات الأطفال بعضهم لبعض فى مواقف اجتماعية مختلفة كالدراسة أو اللعب أو القيام بمشروع مشترك فوصلوا الى التمييز بين ضربين متقابلين من السلوك أحدهما هو السلوك المتكامل والثانى السلوك المسيطر · وقد عرف أندرسن هذين النوعين من السلوك بما يأتى :

ان الســلوك المتكامل هو ظاهرة من ظواهر النمو يستجيب الفرد بمقتضاه الى الفوارق والاختلافات القائمة بين الأشخاص الآخرين· الشخص المتكامل هو الذى يلين للآخر ويكشف غرضا مشتركا خلال الاختــلافات القائمة · باذلا مجهوده بالاتفاق مع غيره ، أى أن ما يقوم بينه وبين الآخرين من اختلاف يؤدى به التعاون مع الآخرين الى تعديل الوسائل والأغراض· فالسلوك المتكامل يمتاز بالتلقائية والمرونة والديناميكية والتغير ·

أما السلوك المسيطر فهو طريقة فى الاستجابة للآخرين بمقــاومة الاختلافات والتغير والنمو فالشخص المسيطر شخص صارم متشبث لايلين، فلا يحاول خفض التوتر الناشىء عن الاختلافات بالبحث عن غرض مشترك خلال هذه الاختلافات ، بل على العكس من ذلك يزيد الصراع عنفا والتوتر

شدة بينه وبين معارضيه . فهو يبذل مجهوده ضد الآخرين ، سالكا مسلك المقاومة على الدوام غير عابيء برغبات الآخرين فهو يلجأ الى الأمر والنهى تارة أو الى التهديد تارة أخرى ليصل الى أغراضه التى لا تقبل فى نظره أى تعديل أو تغيير . فهو يهاجم موقف الآخرين وأوضاعهم ، مهددا اياهم فى سلامتهم وطمأنينتهم .

والسيطرة لا تمتاز بالتلقائية والحرية الحقة ، وهى لا تقبل أن تلين كما أنها تحول دون النمو والتقدم ، وغرضها الرئيسى صيانة ذات المسيطر فهى تعبير عن الخوف الذى يسود المسيطر مما يهدده من تغيير فجائى يتوقع حدوثه اللحظة بعد الأخرى أو بعبارة وجيزة سلوك المسيطر هو سلوك شخص فقد الشعور بالأمان والطمأنينة .

يمكن أن نستنتج من هذه الفقرة الأخيرة التى تشير الى أثر الخوف وعدم الأمان أن السلوك المسيطر قريب من السلوك العصابى كما فى حالات الحصر النفسى والمخاوف المرضية والأفكار المتسلطة والحصار والاندفاعات القهرية . والواقع أنه لا يوجد عصاب يخلو من عنصر الخوف على مختلف أشكاله : الخوف من فقدان حب الآخرين وتقديرهم ، الخوف من الاحتقار والعجز ، الخوف من العقاب المصاحب للشعور بالاثم والادانة . ومن المعلوم أن سلوك العصابيين يمتاز بالأنانية الفائقة وبالاندفاع الى الاعتداء أو على الأقل الشعور المرضى بهذا الاندفاع الى ايذاء الآخرين أو ايذاء النفس لمعاقبتها على ما اقترفته من ذنوب ، سواء كانت هذه الذنوب واقعية أو من نسيج خيال المريض أو مما كان يتوهمه أثناء الطفولة . لا شك فى أن هناك درجات متفاوتة من السلوك المسيطر أو السلوك الاعتدائى . ولكن لا يقتصر عدم التكامل على صورة الاعتداء على الآخرين . فقد يتخذ أحيانا — فى الظاهر على الأقل — صورة النكوص والتقهقر والانطواء على النفس مما يؤدى الى حالات شبيهة بالحالات الفصامية أو الحالات السوداوية الاكتئابية . ففى مثل هذه الحالات يرفض الشخص الاشتراك مع الآخرين فينفصل عن الجماعة ويرتمى فى أحضان التأملات الذاتية والاجترارات الذهنية مستسلما لأخيلة مرعبة مهولة . ولكن حتى فى هذه الحالات التى تبدو سلبية لا ينعدم فيها عنصر الاعتداء اذ أنه يكون موجها نحو الشخص ذاته . وقد يتخذ هذا الاعتداء ألوانا مختلفة كايذاء الشخص نفسه أو الامتناع عن الأكل أو الانتحار . وفى هذه الحالات يصل التفكك أو عدم التكامل الى أقصى درجاته .

اذا كانت السيطرة التى وصفناها بعدم التكامل تنطوى دائما على

الاعتداء كرد فعل لحالة الخوف والقلق التى يكون عليها المسيطر فلابد أن يكون السلوك الذى يقابل السـيطرة وهو السلوك المتكامل القائم على التعاون والتفاهم والايثار منطويا على ما يقابل العدوان أى على الحب والتعاطف والمشاركة الوجدانية .

قد وصلنا الآن الى حصر مشكلة التكامل الاجتماعى فى دائرتها السيكولوجية البحتة وذلك بتعيين الدوافع النفسية العميقة التى تحرك السلوك فى مختلف المواقف الاجتماعية من تكامل وسيطرة ونكوص أو كنشوب الحروب اذا نظرنا الى مسلك الشعوب ازاء بعضها بعضا . وبصدد هذه الدوافع النفسية العميقة تثار من حين الى آخر مشكلة قديمة ما زالت تتجدد وتقفز الى المرتبة الأولى فى تأملات علماء النفس والاجتماع كلما ظهرت نظرية جديدة تحاول تحديد الدوافع الفطرية التى تحرك السلوك والتى تقام عليها الأساليب السلوكية المكتسبة . وهذه المشكلة هى فطرية بعض الدوافع دون غيرها أو بعبارة أقرب الى فهم غير المتخصصين ، هى مشكلة الغرائز . وأول نظرية حديثة يتجه اليها الفكر من النظريات التى لا تزال حية نظرية فرويد فى التحليل النفسى ، وما أدت اليه من محاولات فى تحديد طبيعة المجتمع وبيان الأساس النفسى الذى يقوم عليه . عالج فرويد هـذا الموضوع فى كتابين حديثين ظهرا فى الطبعة الانجليزية سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ وعنوان الأول : مستقبل خداع وعنوان الثاني «المدنية وماتنطوى عليه عدم الرضى The Future of an Illusion Civilization and its Discontents وقبل أن نعرض لرأى فرويد فى طبيعة المجتمع يجب أن نذكر أن التحليل النفسى بدأ كوسيلة لعلاج الأمراض النفسية وأن النظرية الفرويدية فى اللاشعور والعقد أقيمت على تحليل المرضى . ثم عمم فرويد اكتشافاته وتأويلاته للصراعات التى كان يعانيها مرضاه وطبقها على الأسوياء وعلى الانسانية كلها . وعند هذا أثيرت الاعتراضات وكانت عنيفة جدا من قبل علماء النفس الأكاديميين ، ولكن ، مما هو جدير بالذكر ، صدرت مثل هذه الاعتراضات من محللين نفسيين كانوا ينتمون الى مدرسة المحللين نذكر سوتى Suttie وكارين هورنى K. Horney ورنيرد وست Raynard West . وسوتى فى كتابه « أصل الحب والبغض » (١٩٣٥) . وكارين هورنى فى كتابها « طرق جديدة فى التحليل النفسى» (١٩٣٩) ووست فى كتابيه : «الضمير والمجتمع» ١٩٤٢ و « علم النفس ونظام العالم» ١٩٤٥ . وسأحاول فى الجزء الأخير من هذه المحاضرة

تلخيص آراء فرويد وآراء معارضيه بعد بيان صلة هذه الآراء بموضوع التكامل الاجتماعي .

ان خلاصة ماينتهي اليه فرويد في نظرته الى طبيعة المجتمع أن التكامل الاجتماعي أمر محال لا يمكن تحقيقه وأن الغلبة في نهاية الأمر للسيطرة والاعتداء وهلاك المجتمع بأيدي أفراده . وما يحققه الفرد من توافق ناقص مع الآخرين لا يتم الا بكبت الميل الى الاعتداء وبالاستسلام الى الخوف والقلق . واذا تأملنا في النجاح العظيم الذي أصابته نظرية فرويد في الأوساط العلمية وغير العلمية تحتم علينا أن نمعن النظر فيما ذهب اليه فرويد في ترجيح كفة السيطرة والاعتداء على كفة التكامل والتعاون .

يرى فرويد أن الطبيعة الانسانية مفطورة على العداوة والبغض وأن دافع الاعتداء أو غريزة الاعتداء أقوى من الغريزة الجنسية وأعمق تأصلا في طبيعة الانسان . وقد سمى فرويد هذا الدافع بغريزة الموت والتدمير في مقابل الغريزة الجنسية . ويجب أن نشير هنا الى أن الغريزة الجنسية بعيدة كل البعد في نظر فرويد عما يمكن تسميته بالغريزة الاجتماعية . ثم ان غريزة الموت أقوى من الغريزة الجنسية والغلبة في نهاية الأمر مكتوبة للأولى .

ان رغبات المرء الصادرة من أعماق نفسه موجهة ضد المجتمع وضد شركائه في المجتمع . كل فرد ، يقول فرويد ، هو في الواقع عدو الثقافة والمدنية وليس الغرض من منشآت المدنية ومؤسساتها وما تسنه من قوانين الا لحماية المدنية ضد الفرد . ويبدو أن المدنية لا يمكن أن تقام الا على أساس من الضغط والردع وحرمان الغرائز مما قد يرضيها . والمجتمع المتمدن لم يتم الا عن طريق قيام أقلية تحكم استخدام أساليب القمع لمقاومة الأغلبية ولكي تفرض عليها نظامها . ثم يرى أن الجماهير تتصف بالكسل والبلاهة وأن أساليب الرفق والمحبة لا تجدي معها بل يجب اللجوء دائما الى القوة . ولكن هذه الأقلية المنتخبة بدورها تنوء تحت حمل ثقيل ناتج عن كبت النزعة الى الاعتداء فيما بين أفراد هذه الأقلية المنتخبة . ولا يمكنها أن تصل الى السعادة لما تعانيه من الشعور بالاثم والخطيئة . وبانتشار المدنية في جميع أنحاء العالم يعم الشعور بالاثم جميع الأفراد وسيأتي يوم تنهار فيه جميع العقبات التي تحول دون انفجار غريزة الموت الى أقصى درجات العنف فيئول مصير المجتمع كله الى الهلاك والفناء . والضمير الخلقي الذي قد يكون رادعا للشهوة

الجنسية أو للميل الى الاعتداء هو بدوره نتيجة الخوف ويشوبه دائما شعور بالاثم والادانة . وما دامت عوامل تماسك المجتمع تنحصر فيما يفرضه المجتمع من الخارج في الضمير القلق ، وما دام الانسان مجردا عن أي دافع اجتماعي فطري فلابد من أن ينتهي الصراع المحتدم بين المجتمع وافراده بتغلب الدافع الفطري الأصيل وهو الدافع الى الاعتداء والتدمير أي بتغلب غريزة الموت .

تلك هي النظرة المتشائمة التي ينظر بها فرويد الى المجتمع والمدنية . فهو لا يؤمن بالحب اللاجنسي وليس الاعلاء في نظره الا وسيلة لخفض التوتر الناشيء عن اعاقة الغريزة الجنسية أو غريزة الاعتداء . الواقع ، يقول فرويد ، ان الانسان ليس مخلوقا عطوفا ودودا نازعا الى الحب ، يحاول فقط أن يدافع عن نفسه اذا اعتدى عليه ، بل ان في تركيبه الغريزي تتأجج رغبات جامحة من العدوان والبغض . ليس الجار في نظره شخصا قد يكون معاونا له أو موضوعا جنسيا بل الفرصة السانحة لكي يرضى عدوانه ، لكي يستغله ولكي يعبث به جنسيا بدون رضاه ، لكي يسلب قهرا ما يمتلكه ، لكي يهينه ويعذبه ويقضي عليه في آخر الأمر .

ربما يجوز لنا أن نلتمس فيما قاساه فرويد من اضطهاد ما يفسر لنا هذا الموقف الذي ينطوي على اليأس والتشاؤم فيما ينتظر الانسانية . الواقع أن موقف فرويد من المجتمع هو موقف فلسفي أكثر منه علمي . انه بحث واكتشف وأضاء لنا نواح عدة من الطبيعة الانسانية كانت لا تزال في الظلام ، ولكنه ككل صاحب مذهب تجاوز حدود الواقع في تأويلاته ، كما أنه عمم بدون حذر كاف مطبقا بطريقة مطلقة ما كشفه في مرضاه على الانسانية أجمع .

وهذا الاعتراض الأخير على موقف فرويد له ما يسوغه في آراء المحللين الذين عالجوا حالات مرضية نفسية في ضوء نظرية فرويد نفسه ، غير أنهم وصلوا الى نتائج مخالفة لمؤسس التحليل النفسي فيما يختص بطبيعة الانسان القصوى . فاننا نرى سوتي مثلا وهو طبيب محلل نفسي بدأ دراساته في السلوك الاجتماعي منذ أكثر من ثلاثين سنة وعالج مئات من الحالات في ضوء مبادىء التحليل النفسي نراه يصل الى آراء تعارض آراء فرويد فيما يختص بالنظرية الجنسية وبنشأة المدنية . يرى سوتي على عكس ما يراه فرويد وما ذهب اليه من قبل الفيلسوف هوبس أن الانسان اجتماعي بطبعه وأنه مقصور على البحث على من

يشاركه الحيـــاة والتعلق به • وأنه لا توجد حالة طبيعية يكون فيها الانسان لا اجتماعيا كما أن كل ما حققته الحياة الاجتماعية من منشآت ونظم لم يكتسب كله بمقاومة هذه الحالة الطبيعية السابقة على الحيـــاة الاجتماعية • وأول مظهر من مظاهر الدافع الاجتماعى ـ وهو يقوم على أسس بيولوجية ـ هو تعلق الطفل بالأم التى ترضعه • والدافع القوى الذى يحرك الانســان منذ الطفولة هو التعلق بالأم والمحافظة عليهـا • فلا وجود مطلقا لغريزة أولية تدفع بالمرء الى الاعتداء والتدمير • فالغضب لدى الطفل ليس تعبيرا عن العدوان ولا يرمى الى التدمير بل هو طلب النجدة ، هو احتجاج على ما قد يلاقيه الطفل من الاهمال • واهمال الطفل عندما ينتابه الخوف ويطلب النجدة يحدث فى نفسه صدمة عميقة •

المحرك الاول لسلوك الطفل هو الحب بأوسع معانيه وأعمقها ـ الحب المميز عن الشهوة ، الحب الذى هو عطاء وهبة قبل أن يطلب التبادل ـ وعندما يخشى الطفل الانفصال عن أمه فان القلق الذى يثيره التهـديد بالانفصال ناشيء عن رفض الام ما يقـدمه الطفل بقدر ما هو ناتج عن امتناع الأم عن أن تهب طفلها ما ينتظره هو منها • واحتقار الأم لهبات طفلها يولد فى نفسه الاحساس بانه رديء ، غير جدير بالحب وقد يصل هذا الشعور الى أقصى درجاته فى حالات المرض السوداوى • فحرمان الطفل من تبـــادل الحب يؤدى الى القلق والبغض والعـدوان • وليس العدوان غريزة أولية كما يعتقد فرويد بل رد فعل للحرمان • كما أن الحاجة الى السلطة والاستعلاء التى يعتبرها أدلر من المقومات الأساسية للطبيعة البشرية ليست سوى رد فعل أيضا للحرمان • وقد يعترض على سوتى أن الفرق بينه وبين فرويد أو أدلر ليس بذى أهمية ، ما دام العـدوان والبغض والرغبة فى التدمير من مظاهر السلوك الانســانى • ولكن سوتى يرد على هذا الاعتراض قائلا ان الفرق وان كان نظريا فانه يؤدى الى نتائج عملية هامة تظهر فى نوع التربية التى يجب أن نختارها لتنشئة الطفل التنشئة الصالحة • هذا فضـلا على النتيجة التى وصـل اليها فرويد بأن البغض والعنف أمران لا يمكن تفاديهما ، وفضلا عما ذهب اليه أدلر فى أن الطفل يجب أن يرغم على الخضوع للنظام الاجتماعى ، لأن الطفل بطبعه شرير وأن تقويمه وتحويله الى جانب الخير لا يمكن أن يتم الا بتأثير الضغط الخارجى •

فالأم فى نظر سوتى تقوم بالدور الأول فى تنظيم المجتمع منـذ نشأته • والمجتمع الأول هو مجموعة الاخوة والأخوات ملتفة حول الأم • لا تضافر الأبناء ضد الأب ومناهضته والقضاء عليه للاستئثار بالأم من

الوجهة الجنسية كما يقول فرويد • ويقول سوتى ان جميع مظاهر النشاط الاجتماعي من فن وعلم ودين ترمي الى استعادة حب الأم الذى فقد بعد الطفولة أو للتعويض عنه • فالحب هو المحرك الأول للحياة الانسانية وجميع الانفعالات الأخرى تنشأ كرد فعل لما يصيب هذا الحب من تغيير أو فقدان • فالقلق ناشىء عن تهديد الحب ، والبغض عن انكار الحب والغيرة هى الحب المعترض عليه ، واليأس هو الحب المرفوض ، والشعور بعدم استحقاق الحب يؤدى الى الشعور بالاثم والخطيئة ، والحسرة ناشئة عن فقدان المحبوب والشفقة عن مشاهدة المحبوب وهو يتألم ، كأن الحب هو المعين الوحيد الذى تخرج منه جميع الانفعالات والعواطف ، حتى البغض الذى يقابل الحب تمام التقابل •

وما يهمنا فى موقف سوتى من الطبيعة البشرية أنه يعتقد أنه وصل بالاعتماد على تحليل عدد كبير من المرضى بالأمراض النفسية الى أن الدافع الدفين الذى يحرك حياة المرء منذ ولادته هو الحب وحب الأم أولا وأن الدافع الاجتماعى مفطور فى الانسان وأنه دافع الى المصاحبة والتعاون والتعاطف ، أى أنه لا يوجد شىء فى طبيعة الانسان الفطرية يتعارض مع تحقيق التفاهم والوئام بين أفراد المجتمع ويقوم حائلا دون الوصول الى التكامل والقضاء على أساليب السيطرة والعدوان والتدمير •

يبدو لأول وهلة أن مذهب سوتى يتفق مع رأى روسو فى جودة الطبيعة البشرية الأصيلة ، غير أنه يختلف عنه فى الواقع من جهات شتى : فانه لا يدعو الى العودة الى حالة الطبيعة الأولى اذ أن هذه الحالة فى نظر سوتى ليست سوى خيال ووهم ، ثم لا يقول بأن مجرد التجمع تنشأ عنه أسباب افساد الانسان وشقائه ، ولكنه يؤمن بضرورة الحياة الاجتماعية ــ لا كضرورة خارجية مفروضة على الرغم من الطبيعة البشرية ــ بل كضرورة ملازمة للطبيعة البشرية وكصفة ذاتية لها •

واذا كان يبدو أن المجتمع الحالى بقوانينه ونظمه يرمى فقط الى صيانة نفسه ومقاومة كل محاولة اعتدائية يقوم بها الفرد ، فهذا لا يعنى أن هذا الوضع هو الوحيد وأنه لا يمكن اصلاح المجتمع بحيث يزيل دواعى العدوان ــ ما دام العدوان رد فعل للحرمان ــ ويكفل لجميع أفراده الأمن والسلام وجميع أسباب التوافق والتكامل •

وهذا الأمر الأخير هو ما بحثه رينرد وست Raynard West فى الكتابين اللذين ذكرنا • وهما الضمير والمجتمع ــ وعلم النفس ونظام العالم • يرى وست أن التكامل الاجتماعى ممكن ــ سواء بين أفراد

الجمـاعة أو بين الجماعات فيما بينها ، أى فى المجـال القومى والمجـال الدولى .

ويتفق وست مع سوتى فى مهاجمة نظرية فرويد فى حتمية تغلب غريزة الموت على غريزة الحياة ولكنه يأخـذ عليه تمذهب كل ما يتعلق بالطبيعة الانسانية حول دافع واحد هو الحب . فانه يرى أن الطبيعة البشرية مزودة بغريزتين أوليتين : الغريزة الاجتماعية وغريزة اثبـات الذات أو كما يسميها أيضا غريزة الاعتداء وان كانت هذه التسمية تعود بنا الى ما يشبه غريزة الموت عند فرويد خاصة وأن وست يعتبر غريزة الاعتداء أولية . ولكنه يقرر فوق اثباته للغريزة الاجتماعية أن الصراع الذى يقـوم بين الغريزتين ينتهى فى أغلب الأحيان بانتصـار الغريزة الاجتماعية على غريزة الاعتداء ، وذلك لا فى الأشخاص الأسوياء فحسب، بل أيضا فى المصابين بأمراض نفسية .

يرى وست أن المجتمع فى وصـفه الحالى قد نجح الى حـد ما فى التغلب على أساليب الاعتداء بين الأفراد باستخدام القانون تارة أو القوة تارة أخرى . ولكنه لم ينجح بعد فى التغلب على أساليب الاعتـداء بين الجماعات . ولكن لكى يزداد نجاح المجتمع فى القضاء على الاعتداء الفردى لابد من مواصلة البحث فى تفهم العلاقات الانفعالية بين غريزة الاعتداء والغريزة الاجتماعية فى كل انسان ، وكذلك تحليل الاستجابات التى يثيرها فى نفســه هذا الصراع القديم ، كما أنه يجب أن نزداد فهما لعوامل العـدوان فى الفرد وشروط ضـبطه ومراقبته لكى نقضى على العدوان الجمعى .

يجب اذن أن نعيد النظر فى الأسس التى نبنى عليها القوانين سواء القوانين القومية أو القوانين الدولية وذلك فى ضوء معرفة أعمق للطبيعة الانسانية ولا شك فى أن مثل هذه الدراسات ستؤدى الى نتيجـة هامة وهى أن أوجه التقارب والتوحيد أكثر من أوجه الاختلاف والتفريق .

ويجب أن نذكر أن العلاج الوحيد لماتعانيه الانسانية المريضة هو كما تقول هورنى مساعدتها على التخلص مما يبعث فيها القلق والخوف لا مساعدتها على تحرير النزعات الاعتدائية . ويمكننا أن نقول فى ضوء المنهج التكاملى ان التكامل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات يجب أن يتم لا على الرغم من الآخرين فحسب ، بل بفضل الآخرين .

بعض نواحي علم النفس الجنائي
من الوجهة التكاملية (*)

لم يشرع العلماء فى تطبيق الحقائق السيكولوجية بطريقة منظمة الا خلال الحرب العالمية الأولى ، أى حوالى أربعين سنة بعد أن أنشأ فونت Wundt أول معمل لعلم النفس فى ليبزج • ثم اطرد هذا التقدم بفضل المجهودات التى بذلت فى ميدان الاختبارات وتحليل قدرات الانسان العقلية والعملية • ومن أبرز العوامل التى وجهت علماء النفس الى تطبيق معلوماتهم فى مختلف ميادين النشاط الانسانى :

١ ــ الاهتمام بدراسة الطفولة والمراهقة وتطبيق المنهج التكاملى فى دراسة مراحل تكوين الشخصية •

٢ ــ الاهتمام بدراسة دوافع السلوك وبخاصة العوامل النزوعية اللاشعورية وذلك بتأثير الدراسات التى قام بها فرويد وعلماء مدرسة التحليل النفسى •

٣ ــ الاهتمام بتحليل قدرات الانسان العقلية والميكانيكية ووضع شتى الاختبارات لقياسها ولتقدير سمات الشخصية والاتجاهات الاجتماعية •

وقد أدت هذه التيارات الحديثة فى علم النفس الى انشاء ثلاثة فروع هامة فى علم النفس التطبيقى هى علم النفس التربوى وعلم النفس الطبى وعلم النفس الصناعى ، بيد أن هذه الفروع الثلاثة أفادت جميعا من التيارات الحديثة التى سبق ذكرها ، فدراسة الطفولة والمراهقة هى الحافز الأول الذى حمل علماء النفس على العناية بدراسة السلوك الانسانى فى جميع مظاهره السوية والمرضية وعلى توطيد أسباب التعاون بين الطبيب والسيكولوجى وعالم الاجتماع • وفى هذه الفروع الثلاثة أيضا تستخدم الاختبارات على نطاق واسع بصورة علمية منظمة مدعمة بالحقائق

(*) نشر هذا المقال فى مجلة « علم النفس » ، أكتوبر ١٩٤٨ •

الاحصائية • ويلاحظ أخيرا أن الدراسات التى تتناول وصف السلوك الانسانى وتفسيره تمتاز بالاتجاه الديناميكى الذى ينظر الى الشخصية كميدان لصراع الدوافع والميول والرغبات • وعندما نستعرض معظم البحوث التى تنشر فى مجالات علم النفس بمختلف فروعه يحق لنا أن نقرر أن علم النفس أصبح فى الواقع علم الانسان الذى يعنى خاصة بدراسة العوامل المؤدية الى تكامل الشخصية الانسانية أو الى منع هذا التكامل أو اختلاله أو تفككه •

والاتجاه التكاملى فى الدراسات السيكولوجية حديث جدا ولم يسيطر على تفكير العلماء الا ببطء وبعد تكرار المحاولات الخائبة التى كانت تقتصر فى تفسيرها على عامل واحد اما العامل الفسيولوجى أو العامل النفسى أو العامل الاجتماعى • ومن جراء هذا الاقتصار باءت جميع المحاولات الاصلاحية بالفشل مما يقيم الدليل على خطأ التفسير بالعامل الواحد وضرورة دراسة مختلف العوامل التى بتداخلها وتفاعلها تعين المظاهر السلوكية فى تعقدها وتشعب نواحيها • وفشل المحاولات الاصلاحية قبل الأخذ بوجهة النظر التكاملية واضح جدا فى ميدان معاملة القصر الخارجين على القانون ومعاملة المجرمين بوجه عام كما سنبينه بايجاز فيما بعد •

السلوك الاجرامى ظاهرة عادية فى المجتمعات الانسانية ، خاصة فى المجتمعات المتحضرة التى تتميز بازدحام السكان فى مدن كبيرة • ومعاملة المجرمين سواء من وجهة العقاب أو وجهة الاصلاح والوقاية أثارت مشاكل عدة • ومما استرعى النظر الى هذه المشاكل وأبرز خطورتها ثلاثة عوامل رئيسية : طبع الدراسات السيكولوجية بالطابع الاجتماعى ؛ ادراك المصلح الاجتماعى أن الوقاية فى ميدان الاجرام خير من العلاج ؛ تطور فلسفة العقاب •

وان كان الاجرام ظاهرة عادية فليس معنى هذا أنها ظاهرة سوية لا يمكن مبدئيا أن يقوم مجتمع بدونها • فعلماء النفس الاجتماعيون يعدون السلوك الاجرامى فى معظم مظاهرة الخفيفة أو الخطرة مظهرا سلوكيا شاذا وأحد أعراض عدم توافق الشخصية ولم يلبثوا طويلا حتى ادركوا أن ما ينطبق على تفسير السلوك بوجه عام ينطبق أيضا على تفسير السلوك الاجرامى • حتى أن الأستاذ كمبل يونج يقرر فى أحد كتبه (١)

(١) Kimball Young : Personality and Problems of Adjustment, London, 1947.

(ص ٦٢٦) أنه لا يوجـــد علم نفس خاص بالجانحـين والمجـرمين :
There is no special psychology of delinquents and criminals

ويقول بول شلدر (١) : « ليست مشكلة علم الاجرام أن يفسر لنا لماذا يصبح بعض الناس مجرمين بقدر ما يجب عليه أن يبين لنا الأسباب التي من أجلها تحجم الأغلبية عن ارتكاب الجريمة» ، ويقصد بهذا القول أن كل انسان يعانى النزعات الاجرامية والنزعات العدوانية والجنسية المضادة للأخلاق والقانون • وعلى ذلك تصبح دراسة الشخصية فى تكوينها وتكاملها ، أى بحث العوامل التى تحول الحيوان البشرى الى شخص اجتماعى ، هى الوسـيلة المثلى لابراز العوامل المؤدية الى عـدم التوافق والى اضطراب السلوك الاجتماعى وانحرافه • فالسلوك الاجرامى المضاد للمجتمع وان كان شاذا من الوجهة الاجتماعية لا يزال يخضع للتفسير السيكولوجى العام (٢) ؛ غير أنه يمكن حصر البحوث الخاصة التى تتناول السلوك الاجرامى فى علم واحد هو علم النفس الجنائى الذى يعد فرعا من علم النفس الاجتماعى الذى يستند بدوره الى علم النفس العام •

❊ ❊ ❊

يميز علم النفس الجنائى بين درجتين من السلوك المخالف للقانون: سلوك الأحـداث القصر وسـلوك الكبار الراشـدين ويطلق على الأول لفظ (٣) delinquency وعلى الثانى criminality • ويمكن من الوجهة القانونية البحتة ترجمة اللفظين بكلمة اجرام ، غير أننا نؤثر أن نفرق بينهما لفظا للاشارة الى التفرقة القائمة الآن فى معاملة كلا الفريقين فنترجم delinquency بجناح ونقصر لفظ اجرام على criminality ، ولفظ جناح (بالضم) يفيد معنى الاثم كما ورد فى قواميس اللغة (ص ١٧٤ من كتاب المصـــباح المنير) ، وعلى ذلك يكون مرتكب الاثم delinquent هو الجانح فى مقابل المجرم criminal •

❊ ❊ ❊

---

(١) Paul Schilder : Problems of Crime in Psychonalysis Today, p. 350 ; International Universities Press, New York, 1944.

(٢) ليس التفسير السيكولوجى هو التفسير النفسى بل التفسير بالعوامل الثلاثة الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية متكاملة •

(٣) يقال أحيانا زيادة للتوضيح juvenile delinquency غير أن لفظ delinquency اصبح مقصورا على ما يقوم به الأحداث من خرق للقانون • انظر
Hinsie and Shatzky : Psychiatric Dictionary, p. 142.

يقسم السلوك الجانح والاجرامى من حيث أوجه دراسته السيكولوجية الى المراحل الآتية :

١ ـ الدوافع الى ارتكاب الفعل المخالف للأخلاق والقانون وتفاعل هذه الدوافع مع البواعث الاجتماعية ٠

٢ ـ اثبات ادانة المتهم ويتناول هذا الموضوع نقد الشهادة وأثر تطور الذكريات والنسيان وعوامل خداع الحواس وتشويه الادراك ثم استخدام بعض الوسائل العلمية فى التحقيق الجنائى (١) ٠

٣ ـ تقدير المسئولية الجنائية وبالتالى تحديد نوع العقاب ودرجة شدته أو بعبارة أعم تحديد نوع المعاملة سواء قصد منها العقاب أو الوقاية أو الاصلاح ٠ وسنكتفى فيما يلى بالاشارة الى أهمية المنهج التكاملى فى دراسة أسباب الجريمة ووسائل المعاملة ٠

أسباب الجريمة ـ الرأى الأخير الذى انتهى اليه العلم فى تعليل الاجرام هو أنه لا يمكن تفسير السلوك الاجتماعى الاجرامى بارجاعه الى عامل واحد أساسى بل انه يجب اعتبار عدة عوامل متفاعلة تفاعلا ديناميكيا ، شأنه فى ذلك شأن أى ضرب من ضروب السلوك ؛ ثم انه لا يوجد نموذج واحد ثابت للمجرم وأنه يتعذر ان لم يكن من المحال وصف شخصية المجرم بطريقة مطلقة ، بل ما يجب عمله هو التمييز بين أنواع الجرائم المختلفة وربط هذه الأنواع بملابساتها الاجتماعية والثقافية وعلى مثل هذا الأساس قد يوفق العالم فى التفرقة بين نماذج متعددة من المجرمين ٠ غير أن المحاولات لتصنيف الجرائم والمجرمين لا تزال فى طورها الأول ولم تسفر بعد الدراسات التصنيفية عن نتائج حاسمة ٠

وبالاطلاع على تطور النظريات فى علم الاجرام يتبين لنا أن العلماء لم يكتشفوا قيمة المنهج التكاملى فى الدراسات الاجتماعية الا بعد محاولات عدة بدأت منذ قرن ونصف ٠ وتتخلل هذه المرحلة الطويلة فترات من التقدم والتقهقر حتى ان كثيرا من الحقائق الجزئية الثابتة اليوم قد سبق الكشف عنها ثم أهملت ثم أعيد كشفها ولم تستقر علميا الا بعد ادماجها فى نظرية شاملة تراعى مختلف جوانب الشخصية الانسانية فى مختلف الأوساط التى أحاطت بها أثناء تكوينها وتطورها ٠

---

(١) راجع بهذا الصدد ما جاء فى كتابنا : (مبادىء علم النفس العام) عن التحقيق الجنائى (ص ١١٦ ـ ١١٧) وعن تطور الذكريات ص ٢١٨ ٠

بدأت المحاولات العلمية الأولى لانشاء علم الاجرام فى أوائل القرن التاسع عشر • وكان العلماء ينظرون الى الجريمة كأنها نتيجة ضرورية للظروف الاجتماعية • واتجه الاهتمام فى بادىء الأمر الى دراسة توزيع الجرائم حسب المناطق والبيئات وأدت هذه البحوث الى تكوين المدرسة المعروفة بالمدرسة الجغرافية • ولم يقتصر أصحاب هذا المنهج على دراسة توزيع الجرائم وتغير نسبها بل قاموا أيضا بتحليل جناح الأحداث واجرام محترفى الجريمة • وقامت مدرسة ثانية تؤمن بالحتمية الاقتصادية قصرت اهتمامها على دراسة الصلة بين الجريمة والظروف الاقتصادية • وكان اتجاه المدرستين الجغرافية والاقتصادية اتجاها علميا سليما وان كان جزئيا وقد أسفرت بحوثهما عن حقائق جزئية كان فى استطاعة علم الاجرام الناشىء الاستناد اليها لمواصلة تقدمه ، غير أنه حدث فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن تحولت النظرة الاجتماعية الى الجريمة الى نظرة فردية بيولوجية وذلك عندما نشر لمبروزو **Lombroso** عام ١٨٧٦ كتابه الشهير عن الانسان المجرم • يعد لمبروزو الجريمة ظاهرة فردية وعلى ذلك يعنى بدراسة المجرم وقياس سماته الجسمية للكشف عن الصلة بين هذه السمات والجريمة • ويتلخص رأى لمبروزو فى الجريمة فى أن المجرم مجرم بفطرته أو بحكم وراثته وأنه يتميز جسميا بما يعرف بوصمات الانحلال والفساد **stigmata of degeneracy** مثل عدم تماثل شطرى الجمجمة ، ضخامة الفك الأسفل ، فطس الأنف وانفراج فتحتيه، قلة شعر الذقن ، قلة الحساسية للألم ، تشويه شكل الأذن ، غلظ حاجب العين الخ ••• واذا توافرت فى شخص واحد خمس أو أكثر من هذه الوصمات فمن المحقق أن يكون من الطراز الاجرامى ، ومن ثلاث الى خمس يكون من الطراز الاجرامى الناقص ؛ أما وجود أقل من ثلاث وصمات فى شخص ما فيخرجه من دائرة المجرمين •

وليست هذه الوصمات سبب النزعة الاجرامية بل هى مجرد دليل اما على ارتداد صاحبها الى طور الهمجية أو على فساده وانحلاله وعلى أنه من الطراز الشبيه بالصرعى **epileptoid** • ويعجز المجرم بحكم طبيعته الفاسدة عن قمع نزعته الاجرامية ، الا اذا كانت ظروف حياته جيدة بصفة استثنائية بحيث تحول دون نمو النزعة الاجرامية وتنشيطها • وان كان لمبروزو يعتبر الانحلال الوراثى والارتداد الى طور الهمجية من العوامل الأساسية للاجرام ، غير أنه يجب أن نثبت انصافا له أنه عاد فى بحوثه المتأخرة الى القول بأن تأثير الوراثة قد يكون يسيرا لدى بعض المجرمين ، فى حين يكون للعوامل الاجتماعية والاقتصادية الأثر الأكبر فى تعيين

الاجرام • كما أن لمبروزو لم يقتصر على الناحية الجسمية فى دراسته للمجرم، بل أشار فى الجزء الثالث من كتابه الى نفسية المجرم ، غير أن علاجه لهذا الموضوع كان سريعا عابرا لا يخلو من كثير من الخلط والتناقض : فيقرر مرة أن المجرم شجاع مقدام ومرة أخرى أنه جبان هياب ؛ ويصف المجرم بوجه عام بأنه عديم الشعور ، متقلب الأطوار ، مغرور بنفسه ، قاسى القلب ، منحل الأخلاق ، مقـــدم باسراف على شرب الخمر ولعب القمار وارتكاب الفواحش •

ان النقص الجوهرى الذى يشـوه آراء لمبروزو ويقضى على قيمتها العلمية أنه لم يقم بدراسة مقارنة بين المجرمين وغير المجرمين فى تحـديد السمات الجسـمية المميزة للمجرم • وقبل ذكر البحوث التجزيبية التى قوضت أسس النظرية اللمبروزية يجدر بنا أن نشير الى المحاولة التى قام بها الطبيب الفرنسى بروسبير دسبين Prosper Despine فى وضع أساس علم النفس الجنائى فى الجزءين : الثانى والثالث من كتابه «علم النفس الطبيعى» سنة ١٨٦٨ وفى دراسته الخاصة لعقلية المجرمين سنة ١٨٧٢ • وينتهى دسبين الى أن المجرم ليس مريضــا جسميا أو عقليا مع اســتثناء حالات قليلة • حقا ان المجرم يبدو عليه شىء من الشذوذ النفسى غير أن هـذا الشذوذ لا يصيب الناحية العقلية والفكرية بل الناحية النزوعية والوجدانية وخاصة الميول الأخلاقية ؛ بيد أن هذه الانحرافات لا تكون فى نظر دسبين شذوذا عقليا بالذات اذ أنها تصادف أيضا لدى أشخاص حسنى السير والسلوك ، غير أن هؤلاء الأشــخاص يتمتعون بالقدرة على ضبط النفس وقمعها •

أما الناحية الشاذة الحقيقية التى تميز المجرم فهى فى تكوينه الخلقى، فهو عاجز عن ادراك مصلحته الحقة ، عاجز عن التعاطف مع الآخرين وعن ادراك معنى الواجب والمسئولية ؛ هو عديم التبصر ، فاقد الشعور بالندم وعاجز عن الافادة بتجاربه السابقة • يذكرنا هذا الوصف بما جاء فى مقال الدكتور صبرى جرجس عن الجريمة السيكوباتية المنشور (١) ، غير أن دسبين يذهب الى ضرورة اصلاح المجرم وتقويمه واعادة تربيته ، أما اذا لم تجد التربية فلابد من عزله اتقاء لشره دون معاقبته اذ أن أثر العقاب ضئيل جدا من الوجهة الاصلاحية •

لم يقدم دسبين هذه النتائج بصورة قاطعة ، فهو يشعر بنقص بحوثه داعيا غيره الى مواصلة البحث فى الاتجاه الذى رسمه ، ولكن للأسف لم

(١) «مجلة علم النفس» ، أكتوبر ١٩٤٨ •

يحاول أحد ، حتى بدء هذا القرن ، الأخذ بآرائه واعادة النظر فيها ، فقد رأينا كيف تحول الاهتمام مع لمبروزو وتلاميذه الى دراسة الناحية الجسمية خاصة واعتبار المجرم شخصا فاسدا ومنحلا بطبعه ٠

ولكن آراء لمبروزو لم تصمد طويلا في وجه النتائج التي أسفرت عنها الملاحظات الاحصائية التي قام بها الدكتور جورنج على ثلاثة آلاف من نزلاء السجون في انجلترا (١) ويقرر جورنج أنه لا يوجد مطلقا ما يمكن عده نموذجا جسميا للمجرم وأن النتائج الاحصائية للأقيسة التي أجريت على المجرمين لا تختلف عنها في غير المجرمين وأن الفرق في الأقيسة الجمجمية بين طلبة كمبردج وطلبة أكسفورد لا يختلف عن الفرق الموجود بين المجرمين وغير المجرمين ٠

وهناك محاولات أخرى لارجاع الاجرام الى عامل أساسي واحد ٠ فبعضهم يؤكد أهمية ما يعترى جهاز الغدد الصماء أي الجهاز الهرموني من اختلال ، وأصحاب هذا الرأي هم الذين يقررون أن نظام الهرمونات في الجسم هو الذي يعين سمات الشخصية وما سيتخذه المرء فيما بعد من اتجاهات في المواقف الاجتماعية المختلفة ٠ ويعد غيرهم الضعف العقلي السبب الرئيسي في الاجرام (٢) وأن القدرة على تقدير عواقب الأفعال كفيلة وحدها بقمع النزعة الاجرامية ٠ ويجهل أنصار هذا الرأي ما للعوامل النفسية الانفعالية من أثر في توجيه التفكير وفي تشويهه كما وضحت ذلك مدرسة التحليل النفسي ٠ ومن جهة أخرى نرى بعض العلماء يهملون العوامل الوراثية والعوامل الجبلية اهمالا يكاد يكون تاما ويلقون تبعة الاجرام على اضطراب الصلات العائلية أو تأثير الجيرة والمخالطة وما يقوم عليه هذا التأثير من محاكاة وتعاطف ، أو تأثير العوامل الاقتصادية وخاصة الفقر ، أو الى ضعف العقيدة الدينية الخ ٠٠٠

وقد قام ميكايل وأدلر في كتابهما عن الجريمة والقانون وعلم الاجتماع (٣) في الفصل الخامس الخاص بأسباب الجريمة (ص ٨٨ ـ ١٦٩) باستعراض ما يزيد على مائة بحث قام بها علماء منفردون أو مشتركون في لجان ومؤسسات علمية اجتماعية للوقوف على العوامل المؤدية الى الاجرام ٠

---

(١) Charles Goring : The English Convict. London, 1913.

(٢) بالاعتماد على بعض الاحصاءات يبدو أن ضعاف العقول يخالفون عادة دستور الاخلاق الجنسية ٠ راجع في هذا العدد مقال وليم الخولي عن المرض العقلي والجريمة ص ٢٢٥ ٠

(٣) Jerome Michael and Mortimer J. Adler : Crime, Law and Social Science, London, 1933.

وقد انتهينا الى أن هذه البحوث لاتسمح بالاجابة الصريحة الواضحة الواقية عن أى سؤال من الأسئلة الآتية :

هل يمكن تمييز المجرمين عن غير المجرمين بواسطة مجموعة ما من العوامل وفى حالة الايجاب ما هى هذه العوامل ؟ هل يمكن التمييز بين طرازين مختلفين من المجرمين وما هى عوامل التمييز ؟ هل يمكن عزل طراز من المجرمين يختلف عن غير المجرمين ؟ ..

ويذهب المؤلفان الى أبعد من ذلك ويقرران أن هذه البحوث ، فضلا على عجزها عن تحديد أسباب الجريمة تحديدا شاملا دقيقا ، فشلت أيضا فى أن تقدم لنا نتائج علمية صحيحة فى الدائرة الخاصة التى يتناولها كل بحث على حدة ، وذلك للأخطاء المنهجية والاحصائية التى لم ينتبه اليهـا معظم هؤلاء العـلماء ، اذ أن دقة العمليات الاحصائية لا تغنى عن قيمة المنهج الذى يجب اتباعه فى الملاحظة والتجريب كما أنها لا تغنى عن صحة البيانات التى يراد معالجتها بالطرق الرياضية الاحصائية .

والواقع أنه لا توجد حتى الآن نظرية واحدة شاملة لتفسير الاجرام وأنه لابد من أن يلتزم الباحث منهجا ملائما لتعقد ظاهرة الاجرام وهى لا تقل فى تعقدها عن أى ظاهرة أخرى من ظواهر السلوك السـوى أو الشاذ . ومما هو جدير بالملاحظة أن العلماء الذين يحاولون تفسـير الاجرام بتفاعل عدة عوامل يرون أنفسهم مضطرين الى انتهـاج المنهج التـكاملى الذى يعتبر كل مظهر سلوكى نتيجـة حتمية لتفاعل العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية بطريقة ديناميكية مطردة (١) .

فهؤلاء العلماء ينظرون الى الشخصية كميدان لصراع عدة عوامل داخلية من ميول ورغبات وانفعالات وأن هذا الميدان مرتبط ارتباطا وثيقا بميدان البيئة الاجتماعة والثقافية الذى هو بدوره ميـدان لصراع عدة قوى متباينة فى مضمونها وفى اتجاهها . وكل عامل من هـذه العوامل الفردية والاجتماعية يشترك فى تحديد السلوك فى هذه اللحظة أو تلك ، فى هذا الموقف أو فى غيره من المواقف . ولـكل عامل أثر ترجيحى

---

(١) راجع بهذا الصدد كتاب كمبل يونج وكتاب ميكايل وآدلر اللذين سبق ذكرهما ونظرية كورت ليفين فى مقال ماهر كامل المنشور فى عدد يونيو ١٩٤٨ فى مجلة علم النفس وأيضا الكتب الآتية :

Edwin H. Sutherland : Principles of Criminology, New York, 1939.
F. Tannenbaum : Crime and the Community, Cincinnati, 1938.
Cyril Burt : TheYoung Delinquent, London, 1925.
P. Rey-Herme : La Réducation de la Jeunesse Délinquente, Paris, 1945.
Françoise Liévois : La Délinquente Juvénile, Cure et Prophylaxie, Paris, 1946.

أو احتمالى فى تعيين السلوك سواء كان سلوكا متفقا مع المثل الأخلاقية والاجتماعية أو سلوكا مخالفا لهذه المثل • فوفقا لكل موقف خاص وتبعا لتاريخ كل شخص وملابسات تكوينه وتربيته (١) يزداد الأثر الترجيحى لهذا العامل دون غيره ، أو لمجموعة بعض العوامل دون غيرها ، مع العلم بأن النتيجة المحصلة من ترجيح مجموعة ما من العوامل على غيرها فى تعيين المظهر السلوكى مرتبطة ارتباطا وظيفيا وديناميكيا بما أصاب العوامل الأخرى من ضعف فى تأثيرها الترجيحى فى تعيين هذا المظهر السلوكى بالذات • وبناء على هذا الاتجاه التكاملى فى البحث ـ وهو الاتجاه الوحيد الذى يراعى تعقد الظاهرة السلوكية الانسانية ـ يتضح لنا ما سبق أن بررنا أن تفسير السلوك الاجرامى لا يختلف فى منهجه ولا فى تحديد عوامله عن تفسير أى ظاهرة سلوكية ، سواء حكمنا عليها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية بالخير أو بالشر •

نعم ، ان تطبيق المنهج التكاملى يقتضى أن يسبقه الوصف والتحليل والتصنيف للوقوف على جميع العوامل التى يجب ادخالها فى تفسيرنا الشامل ، ولكن يجب أن تكون الروح التكاملية هى المسيطرة بحيث لايقف البحث عند مرحلة الوصف والتحليل والتصنيف ، بل يتجاوزها الى اعادة بناء الظاهرة التى هى موضوع البحث بناء علميا تفسيريا • فبينما كانت البحوث القديمة تعنى بالاجرام على الاطلاق أصبحت تنظر الى المجرمين والجانحين كحقائق واقعية تعيش فى بيئة واقعية لها صفاتها الخاصة • وقد أدى هذا الاتجاه الجديد الى محاولة تصنيف المجرمين لا تصنيف الجرائم ، لأن الجريمة لا تكتسب كل دلالتها السيكولوجية والاجتماعية الا اذا ارتبطت ارتباطا وظيفيا بنفسية المجرم • والتصنيف الشامل للمجرمين يمهد لنا السبيل الى التعليل العلمى ، وذلك لأن التصنيف هو فى آن واحد نتيجة محاولات تفسيرية سابقة وموجهة لتفسيرات لاحقة أكثر شمولا وعمقا من التفسيرات الأولى •

العقوبة والاصلاح ـ واذا كان الأمر فى تفسير الجريمة كما رأينا فيترتب عليه أن وسائل العلاج الفرعية أو الجزئية غير مجدية وأنه لابد من وضع برنامج اصلاحى شامل متكامل النواحى • وفى ميدان العلاج أيضا لم تدرك أهمية المنهج التكاملى الا بعد محاولات عدة بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر • غير أن النظرة التكاملية فى الوقاية والعلاج لم تظفر

(١) يجب أن نشير هنا الى أهمية الدراسات التى قامت بها مدرسة التحليل النفسى لربط السلوك الراهن بمراحل تكوين الشخصية فى سنى الطفولة والمراهقة • راجع فى هذا الصدد مقال محمد فتحى المنشور فى هذا العدد ص ٢٥٩ •

بعد بما ظفرت به دراسة أسباب الجريمة من تأييد وتعضيد • فيذهب بعض علماء الاقتصاد الى أن نفقات الاصـلاح ـ اذا أريد فعلا تحقيق اصـلاح شامل ـ ستفوق بكثير ما تتحمله الدولة من نفقات فى قمع الجريمة ووقاية المجتمع وما يصيب المجتمع من خسارة وتبديد للثروات المادية والمعنـوية من جراء الاعتـداءات الاجراميـة ، كأن شر الجريمة أخف وطأة من شر الاصـلاح فى نظر علماء الاقتصاد ! اننـا لا نذهب الى أن الجريمة يمكن استئصالها من جذورها ، فالجريمة دليل على نقص المجتمع البشرى كمـا أنها دليل على نقص الانسان من حيث هو عامل اجتماعى ، اذ أنه لا يمكن تحقيق التوفيق التام بين مجموعة الدوافع الانسانية وما يقتضيه النظام الاجتماعى الأمثل • فليس الكمال من نصيب الانسـان كما أنه لا يمكن تحقيق الكمال فى المجتمع الانسانى ولكن الحكمة تقضى بأن ننشـد الكمال ما استطعنا اليه سبيلا وأن نعترف فى الآن ذاته بحدود القوى البشرية(١) •

كل فعل مخالف للقانون أو مضر بصالح الجماعة يستتبع رد فعل من السلطة أو من الجماعة • ورد الفعل الأول هو الدفاع عن قدسية القانون وعن مصلحة الجماعة بتعجيز الآثم عن العودة الى اثمه • ولكن لا يقتصر موقف المجنى عليه على مثل هذا الموقف السلبى ، أى موقف الدفاع ، بل يتعداه الى موقف ايجابى هو ارضاء الرغبة فى الانتقام والتشفى ، ولهذا السبب تنطوى دائما فكرة العقوبة فى ذهن المجنى عليه على عنصر تعذيب الجانى وايذائه ، لا مجرد اتقاء شره بحبسه وعزله عن المجتمع • ثم ان العقوبة المذلة المؤلمة لا يقصد منها فقط عقاب الجانى بل ردع الآخرين ، والأوضاع القانونية الحالية تؤيد هذا الاتجاه فى التفكير الى حد كبير ، كما أنها تؤيد الرأى القائل بأن الوسيلة المثلى لخفض نسبة الجرائم هى التشديد فى العقوبة والاسراع فى تنفيذها والعمل على ألا يفلت مجرم من يد العدالة •

ويذهب أنصار العقوبة الى أن للعقوبة المؤلمة الرادعة قيمة اصلاحية

(١) راجع مقالنا عن الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى ـ عدد فبراير ١٩٤٧ من مجلة علم النفس وبخاصة ص ٤٣١ و ٤٤٠ • حقا أن التقدم الروحى فى الانسانية لم يتم الا ببطء وبفضل ما بذله آلاف من الأبطال المجهولين من جهد وتضحية ، غير أنه لا يزال سطحيا ينمره من كل جانب التقدم الميكانيكى المادى الأعمى • والتقدم الروحى لم يتجاوز بعد حدود المعاملات الفردية أو المعاملات الجماعية المحدودة ، أما فى الميدان الدولى لاتزال النزعات العدوانية التعسفية هى المسيطرة حتى أنه ليخيل أحيانا للمرء أن نظام الاسترقاق الذى كان معروفا لدى الأقدمين من اليونان والرومان أخف وطأة ـ على الرغم من شناعته ـ من الاسترقاق المقنع الذى يعانيه الأفراد والشعوب فى الوقت الحاضر •

والى أن المجرم بعد قضاء مدة العقوبة الأولى سيحجم عن معاودة الاجرام خوفا من العقوبة وفرارا من ألمها ، والى أن الاقامة فى الحبس تتيح له الفرصة للاقلاع عن عاداته السيئة كما أنها تجعله يدرك عدم جدوى الجريمة فى نهاية الأمر • ويقال أخيرا فى الدفاع عن قيمة العقوبة من الوجهة الاجتماعية أنها ترضى الرأى العام وتعيد الطمأنينة الى النفوس وتقوى التضامن الجمعى وتنمى الشعور باحترام الأخلاق والقوانين (١) •

غير أن التجربة والاحصاءات وتتبع سلوك المجرمين بعد خروجهم من السجن لم تلبث طويلا أن أبرزت نقائص نظام العقوبة ، بل ضرره فى أغلبية الحالات • ويمكن القول أولا أن الأساس السيكولوجى الذى يقوم عليه نظام العقوبة المؤلمة المذلة أساس ناقص ، لأن سلوك الانسان لايخضع دائما وبطريقة مباشرة لمبدأ اللذة والألم كما يخضع له سلوك الحيوان أو الطفل الصغير • وليست نتيجة الألم دائما الخوف منه ولا يؤدى دائما الخوف من الألم الى تجنب الشر وعمل الخير • فقد تم الاتفاق نهائيا على أن القيمة الاصلاحية للخوف ضئيلة جدا وعلى أنها قيمة سلبية ، فى حين أن الاصلاح يجب أن يقوم على أسس ايجابية • فالخوف من الألم قد يزيد المجرم امعانا فى اجرامه ويدفعه الى الاحتيال للفرار بشتى الوسائل من وجه العدالة • ومن المعروف أن محترفى الاجرام وبخاصة فى ميادين الاعمال التجارية والسياسية — وهم من أكثر المجرمين خطرا على النظام الاجتماعى — يتقنون وسائل التلاعب والخداع لتجنب الادانة وأن نسبة من يقبض عليهم من هؤلاء المحترفين أقل بكثير من نسبة المقبوض عليهم ممن يسلكون سبيل الاجرام لأول مرة تحت تأثير عوامل انفعالية عنيفة •

هذا فضلا على تأثير العقوبة فى نفسية المجرم وبخاصة المجرم العرضى فالعقوبة تعزل الجانى وتجعل منه عدوا للمجتمع وتثبت فيه هذه الصفة التى لا تلبث أن تصبح وصمة اجتماعية تلاحقه طول حياته وتقول أحيانا عقبة فى سبيل اكتساب تقدير الآخرين حتى ولو بذل أقصى جهده فى اصلاح نفسه وتقويم سلوكه •

وأخيرا يجب الاشارة الى أن توقيع العقوبة الذى يبدو أنه ينهى المشكلة لا ينهيها فى الواقع لأنه عمل سلبى يحول دون التفكير فى وسائل الاصلاح والوقاية ، والاصلاح لا يمكن أن يتم الا بعمل ايجابى يقتضى البحث

---

(١) يكشف التحليل النفسى فى المجرمين العصابيين عن حاجتهم الى العقاب تخفيفا لما يعانوه من شعور بالاثم ، ويقول علماء التحليل النفسى ان العقوبة ليست فقط من حق المجتمع بل أيضا من حق المجرم نفسه •

العلمي عن العوامل التى أدت الى انتشار الاجرام ، مما يمهد السبيل الى ايجاد وسائل الوقاية عن طريق ضبط الظروف الاجتماعية وتوجيهها ٠

ومهما يكن من أمر المناقشة التى تدور بين أنصار العقوبة المؤلمة وبين أعدائها فانه قد حدث فعلا من الوجهة العملية تغير محسوس فى موقف القضاة ازاء المجرم ، بحيث ان فكرة العلاج والاصلاح كثيرا ما تلطف من شدة العقوبة وهذا التحول واضح جدا فى محاكم الأحداث ٠ فبينما كان القضاء فى الماضى يقدر العقوبة تبعا لخطورة الاثم أصبح اليوم يراعى أحوال الجانح ويستعين بخدمات الطبيب العقلى والسيكولوجى والزائر الاجتماعى فى توضيح ظروف الجانح النفسية والاجتماعية وتتبع حياته منذ الطفولة ، وذلك للكشف عن أحسن الوسائل لانقاذ الجانح وتحويله الى مواطن مفيد ٠ وقد أدت هذه الطريقة العلمية والانسانية معا فى معاملة الجانحين الى نتائج مشجعة حقا كما هو الأمر مثلا فى معاهد بورستل فى انجلترا (١) ٠

ومع تقدم البحوث الاجتماعية وباقناع الرأى العام بضرورة الاعتماد فى ميدان مكافحة الجريمة على البحوث العلمية ، لا على الاجراءات التى توحى بها الانفعالات ، سيشمل النظام المتبع فى معاملة الأحداث الجانحين معاملة المجرمين الراشدين أنفسهم ٠ أما الخطوة الأخيرة التى يجب تحقيقها فهى أن يتجاوز العلاج المجرمين كأفراد لكى يشمل فى دائرته المواقف الثقافية والاجتماعية التى تحيط بالمجرمين ٠ وعندئذ سيصبح مشروع مكافحة الجريمة بطريقة ايجابية جزءا لا يتجزأ من مشروع الاصلاح الاجتماعى المتكامل ٠

---

(١) راجع فى هذا العدد ص ١٧٩ مقال الدكتور حسن الساعاتى عن نظام هذه المعاهد ومدى نجاحها فى اصلاح الشباب الخارج على القانون ٠

الجنسية من الوجهة البيولوجية
فى ضوء المنهج التكاملى (*)

١ ــ أهمية وظيفة التناسل :

يقسم علماء الفسيولوجيا الوظائف العضوية الى ثلاث طوائف : وظائف التغذية ، وظائف الحس والحركة ثم وظائف التناسل . وتشمل الأولى عمليات الهضم والدورة الدموية والتنفس واخراج الفضلات . وهذه العمليات مجتمعة تؤدى الى نمو الأنسجة وتوليد الطاقة والحرارة التى يستهلكها الحيوان فى أثناء الحركة .

أما وظائف الحس والحركة فهى التى تحقق صلة الحيوان ببيئته الخارجية وتكون هذه الصلة مقصورة فى أبسط مظاهرها على جلب النافع وتجنب الضار. وبتعاون وظائف التغذية والحس والحركة يتحقق بناء الفرد. وتختلف مدة البقاء باختلاف الأنواع الحيوانية بعد أن يمر الفرد بمراحل التكوين الجنينى والطفولة والشباب والكهولة ثم الشيخوخة . ولكن هنالك وظيفة أخرى تظهر بوادرها بعد انتهاء مرحلة الطفولة أى فى مرحلة المراهقة هى وظيفة التناسل وغرضها تكاثر النوع ومنعه من الاندثار والموت . وتنتهى مرحلة المراهقة عند اكتمال الوظيفة التناسلية بالبلوغ الجنسى . وينطوى هذا التوزيع فى الوظائف على حكمة كبيرة يجدر بنا الاشارة اليها وهى أن وجود النوع هو الغاية التى ترمى اليها الطبيعة فى حين أن وجود الفرد ليس الا وسيلة لتحقيق وجود النوع ويمكن أن نكشف عن أهمية الوظيفة التناسلية اذا نظرنا فى مراحل تكوين الجنين . فعلى الرغم من تأخر ظهور الوظيفة التناسلية فى الفرد فان الجهاز التناسلى يبدأ يتكون ويتميز عن بقية الأجهزة فى أثناء الشهر الأول من الحياة الجنينية فى الانسان عندما يكون طول الجنين لا يتجاوز ثلاثة سنتيمترات . بل يلاحظ ابطاء الجهاز العضلى والعصبى فى تكوينه وتقدم الجهاز التناسلى كأن الطبيعة تريد أن تشير الى أهمية الوظيفة التناسلية . ولا يخرجنا هذا

---

* نشر هذا البحث فى « الكتاب السنوى فى علم النفس » ، ١٩٥٤

التأويل عن نطاق العلم التجريبى ، فان الكائنات الحية تمتاز بصفات خاصة منها أنها مقيدة فى تكوينها ونموها بمراحل زمنية معينة ودراسة الصلة بين هذه المراحل تعين فى فهم العلاقات القائمة بين مختلف الوظائف العضوية وتحديد أهمية كل وظيفة بالقياس الى الاخرى . فالكائنات الحية خاضعة فى نموها لقانون جديد لا ينطبق على الجوامد وهو قانون تحديد الدلالة الزمانية (١) . وهذا ما قصدنا اليه فيما كتبناه عن المنهج التكاملى عندما قررنا أن كل مرحلة من مراحل النمو لا تعتبر فقط أساسا للمرحلة التالية بل رمزا لها (٢) . ففى حالة تبكير الجهاز التناسلى فى تكوينه الجنينى وتقدمه نسبيا على تكوين الجهاز العصبى العضلى رمز الى أهمية الوظيفة التناسلية .

٢ ـ تعريف الجنس والجنسية :

قلنا الوظيفة التناسلية ولم نقل الوظيفة الجنسية لان الوظيفتين ليستا متلازمتين فى جميع الأنواع الحيوانية . فالتناسل هو تكاثر أفراد النوع ولكن ليس كل تناسل جنسيا ، فهناك طرق مختلفة من التكاثر تتم بدون وجود جنسين مختلفين . وقبل ذكر الأمثلة على التكاثر اللاجنسى يجب تحديد ما هو مقصود بلفظى جنس وجنسية .

للجنس معنيان أحدهما عام والآخر خاص . فبمعناه العام يقصد بالجنس الهيئة الجسمية التى تعين الدور الذى يؤديه الكائن الحى فى عملية التناسل . أما المعنى الخاص فهو مجموعة الخصائص الجسمية والنفسية التى تميز الذكر عن الأنثى ، وفى الجنس البشرى الرجل عن المرأة . وهذا المعنى ينطبق على الحيوانات العليا والانسان . والعنصر المشترك بين هذين المعنيين هو وجود التمايز بين فردين يعرف الواحد بالذكر والثانى بالأنثى ، والتمايز الأصلى هو التمايز العضوى وكلما ارتقينا سلم الحيوانات العليا حتى الانسان ظهرت اختلافات نفسية تؤدى الى تعقد السلوك الجنسى .

---

(١) Monakov et R. Mourgue : Introduction biologique à l'étude de la neurologie et de la psychopathologie. Intégration et désintégration de la fonction, Paris, 1928, pp. XI-416.

(٢) يوسف مراد ـ المنهج التكاملى وتصنيف الوقائع النفسية ـ العدد الثالث من المجلد الأول من مجلة علم النفس ، فبراير ١٩٤٦ ، ص ٢٧٣ ـ ٣٠٤ ؛ دار المعارف بمصر .

يوسف مراد ـ مبادىء علم النفس العام ـ الطبعة الثانية ، ١٩٥٤ ، ٤٢٨ صفحة من منشورات جماعة علم النفس التكاملى ـ دار المعارف بمصر .

أما الجنسية فهى أعم من الجنس ويمكن تعريفها بأنها مجموعة الظواهر البيولوجية والتشريحية والفسيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية المتعلقة بعملية التناسل وبالعمليات الممهدة لها وبما ينتج عنها من نتائج تتجاوز حدود الفرد الى النوع ، مع مراعاة ما يصاحب مختلف هذه الظواهر من حالات نفسية وما تتركه من آثار فى نفسية الفرد وشخصيته ٠

أو بعبارة أخرى تشمل الجنسية الوظيفية التناسلية وما يسبقها ويصحبها ويتبعها من ظواهر تمهيدية واضافية ولاحقة من الوجهتين السيكولوجية والاجتماعية ٠

ويؤثر العلم الحديث استخدام لفظ الجنسية على لفظ الغريزة الجنسية ، وبخاصة عند الكلام عن السلوك الجنسى لدى الانسان ٠ ونظرا لشيوع لفظ الغريزة يجدر بنا تحديد معناه وبيان الحدود التى يمكن استخدامه فيها ٠

لفظ الغريزة من الألفاظ الشعبية التى يضطر العالم أحيانا الى استخدامها عندما يرمى الى التبسيط للاشارة الى مظاهر السلوك الفطرى الناشئة عن دافع داخلى مبهم أو عن قوة حيوية تسير الفرد بطريقة تبدو فى معظم الأحيان كأنها قهرية عمياء ٠ ويشمل لفظ الغريزة معنى الميل والاستعداد والدافع كما أنه يشمل معنى آثار الميل والاستعداد والدافع كما تظهر فى السلوك الحركى وما يصحبه من عمليات ادراكية ورغبات وبطانة وجدانية من لذة أو ألم ٠

وينطوى معنى الميل على معنى التوجه نحو غاية أو نهاية تبدو كأنها الغرض الذى يرمى اليه السلوك الغريزى ٠ وهذا الغرض هو تحقيق عمل من الأعمال يرضى الميل والرغبة الناشئة عنه ٠

ويمكن تلخيص ما سبق فى الحلقات الآتية : وجود الميل أو الدافع ، تنشيطه ، حالة توتر ناشئة عن هذا التنشيط ثم زوال التوتر بارضاء الميل ٠ ويتوقف تنشيط الميل على عوامل داخلية ، بعضها عضوى كالتركيب الكيميائى لبعض السوائل العضوية ودرجة كثافتها وتركيزها وبعضها ذهنى كالذكريات والأخيلة ، وعلى عوامل خارجية كادراك الفرد بعض المنبهات ؛ وتؤدى المنبهات الخارجية التى قد تكون نافعة أو ضارة أو مهملة دورا هاما فى توجيه النشاط الحركى وايجاد الظروف الملائمة لارضاء الميل وزوال التوتر ٠ ويحدث زوال التوتر احساسا خاصا هو اللذة ٠

وقد اختلف العلماء فى تعريف الغريزة كما اختلفوا فى تحديد عدد

الغرائز بعد أن بذل بعضهم جهودا عقيمة في هذا الميدان مؤثرين الجـــدل اللفظي على البحث التحليلي التجريبي وقد ازدادوا اختلافا عنـدما شرعوا في تطبيق تعاريفهم على ما يسموه السلوك الغريزي في الانسان • ولا غرو في أن يصل الاختلاف بينهم الى حد كبير من الغموض والفوضى والتعليلات اللفظية الجوفاء اذ أن المقصود من الغريزي هو الفطري ولا يمكن أن يظهر الفطري مجردا عن آثار البيئة والتمرين ولذلك لا يمكن دراسته كفطري• فمن الأخطاء الشائعة في بعض كتب علم النفس التمييز بين السلوك الغريزي والسلوك المكتسب ومحاولة دراسة كل منهما على حدة •

واذا أمكن استخدام لفظ الغريزة في دراســـة لسلوك الحيـوانات الدنيا ، خاصة عندما يقصد بالغريزة نوع من الصناعة الثابتة كنسـيج العنكبوت لعشه فهذا محال عند التحدث عن سلوك الانسان • ولهـذا يستحسن استخدام لفظ الميل الجنسي في الانسان بدلا من الغريزة لبيان ما يمتاز به سلوك الانسان من مرونة ومن قابلية للتغير والتكيف وخاصة من قدرة على المنع أو الكف • وحتى فيما يختص بغريزة البحث عن الطعام التي لا يمكن كفها مدة طويلة والا أدى هذا الى الموت نلاحظ أثر الأوضاع الاجتماعية في تكيف مظاهر هذه الغريزة وتهذيبها • فبالأولى يجب الفصل بين معنى الغريزة والميل الجنسي حيث لا يؤدي الامتناع الى موت الفرد وحين تكون آثار البيئـــة الاجتماعية في تهذيب الســلوك الجنسي وتقييده أبلغ وأقوى من آثارها في تهذيب غريزة البحث عن الطعام • ولهذه الأسباب عينها يكون من التضليل علميا وبالأحرى خلقيا تشبيه الرغبة الجنسية بالجوع العضوي والاشارة اليها بالجوع الجنسي كأن عدم ارضائها يؤدي الى موت الفرد أو فقدانه الصحة العقلية كمـا أن عدم ارضاء الجوع العضوي يؤدي حتما الى المرض والهزال والموت •

ومن الحقـائق الثابتة أن الميــل الجنسي قابل للاعلاء sublimation والتأنس socialization وللمساهمة في الرقي الروحي للأفراد والجماعات أكثر من الميل الى العدوان وان المشكلة الكبرى التي تواجه علماء العلاقات الانسانية هي توافر الوسائل التي من شأنها تهذيب العدوانية واعلائها •

٣ ـ التناسل والجنسية :

التناسل هو تكاثر أفراد النوع الواحد وهو على نوعين : التناسل اللاجنسي والتناسل الجنسي • ويحدث التناسل اللاجنسي بوجه عام عن طريق انقســام الحيـــوان دون أن يقترن مع غيره • ويشاهد التناسل

الانقسامى عادة فى الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة كالأميبا مثلا ٠

ولا يكون التناسل جنسيا الا اذا تم بعد تزاوج فردين مختلفين يؤدى الى اجتماع النطفتين لتكوين فرد جديد يحمل عن طريق الوراثة خصائص الوالدين ٠ وقد تكون النطفتان صادرتين عن فرد واحد كما فى بعض الحيوانات الأولية والحيوانات المخنثة وفى هذه الحالة أيضا يكون التناسل جنسيا ٠

وقد يشاهد فى بعض الحيوانات الدنيا اجتماع التناسل اللاجنسى والتناسل الجنسى فى نفس النوع تبعا لظروف البيئة الخارجية ٠ ولكن يعد التناسل الجنسى أرقى وأكثر تعقدا من اللاجنسى لأنه عامل هام من عوامل تنوع الكائنات الحية ٠

يبدو مما سبق أن العلاقة بين التناسل والجنسية جد معقدة ٠ فاذا أمكن القول بأن التناسل قد يستقل عن الجنسية كما هو الحال فى التناسل اللاجنسى أو اللانطفى هل يمكن القول كذلك بأن الجنسية قد تستقل عن التناسل وأن هناك حالات فى الطبيعة يتم فيها الوصل بين حيوانين دون أن يكون الغرض منه تكاثر النوع ؟ ليست هذه المسألة نظرية بحتة بل سيكون لحلها أثر كبير فى فهم طبيعة الجنسية فى الانسان وتعيين السلوك الجنسى السوى ٠

فمدرسة التحليل النفسى مثلا تعتبر أن الجنسية بدورها تستقل عن التناسل ويعتمد أنصار هذه المدرسة على ظاهرة الاقتران كما هى تشاهد فى البرامسيوم أحد الحيوانات الأولية من فصيلة النقاعيات ذات الأهداب، وطول هذا الحيوان لا يتجاوز ربع ملليمتر ٠

يتكاثر البرامسيوم عن طريق الانقسام ٠ فنفس الفرد ينقسم الى اثنين ويكون فردين كاملين لكل منهما غشاء وبروتوبلازما أو جسم خلوى ونواة داخل الغشاء النووى ٠ وكل فرد جديد بدوره ينقسم الى اثنين ويستمر الانقسام على هذه الصورة مدى مئات من الأجيال ٠ غير أنه يشاهد بعد حين ابطاء فى عملية الانقسام وصمود الأفراد وقد تؤدى هذه الحالة فى بعض الظروف الى اندثار الجماعة وموتها ان لم يلجأ أفرادها الى عملية جديدة يسترجع بها الحيوان نشاطه فيعود الى الانقسام ٠ وهذه العملية نوع من الوصل بين فردين يعرف بالاقتران أو التزاوج conjugation فيلتصق الحيوان بالآخر وحينئذ يحدث بينهما تبادل بعض أجزاء الجسم فيعود كل منهما الى حالة جديدة من الشباب والحيوية ٠

وفي بعض الظروف الخاصة يسترجع الحيوان نشاط الانقسام بطريقة أخرى • فبعد أن يستمر الانقسام لمدة آلاف من الأجيال تأخذ عملية الانقسام في الابطاء فيجتاز الحيوان مرحلة التعب والانحطاط ثم يسترجع نشاطه بأن يتخلى عن جزء من مادته النووية بدون الاقتران مع فرد آخر •

والمقصود بهذه الظروف الخاصة تلك الظروف التي يوجدها المجرب بأن يغير تركيب السائل الذي يتكون منه المزدرع • فاذا نقلنا جماعة من ذات الأهداب من بيئتها القديمة الى أخرى جديدة فان قدرة الحيوانات على الانقسام لا تضعف بل على العكس تزداد • وقد تمكن العلماء بابقاء جماعة من ذات الأهداب حية بضعة سنوات مع استمرار الانقسام • وقد أثبت بعضهم أن عملية الاقتران يتوقف وقوعها على عوامل خارجية أهمها :

١ ـ المجاعة وهي تساعد على الاقتران (١) •

٢ ـ تغير نسبة المواد القلوية الى الحمضية في وسائل المزدرع •

٣ ـ وجود عوامل استقرانية zygogenous وهي مواد كيميائية معينة تفرزها بعض البكتيريا وهي نباتات ذات خلية واحدة تكون موجودة عادة في البيئة التي توجد فيها ذات الأهداب • وقد تؤثر هذه المواد المفرزة في حدوث عملية الاقتران أو عدمه • فقد وجد بالتجربة ان اضافة بعض المواد الى سائل المزدرع ككلورو الحديد أو كلورو الكالسيوم تثير الاقتران • وقد وجد أيضا ان درجة تركيز السائل بملح الطعام يؤثر في عملية الاقتران فيكون للتركيز الضعيف أثر استقرانى في حين يكون أثر التركيز القوى غير استقرانى azygogenous

أما في الظروف الطبيعية يكون التناسل في ذات الأهداب مزدوجا ، أى مراحل من الانقسام يتخللها اقتران بين فردين • وفي حالة الاقتران يكون التناسل جنسيا نظرا لاجتماع فردين ولما يحدث بينهما من تبادل لبعض أجزاء الجسم • غير أن مدرسة التحليل النفسى أبت أن تعتبر عملية الاقتران عملية تناسلية وقصرت وظيفتها على تجديد النشاط واعادة الشباب وان كان هذا التجديد شرطا لاستئناف الانقسام • ومؤدى هذا الرأى أن الجنسية أو مظاهر الاقتران بين فردين قد تكون مستقلة عن التناسل •

---

(١) لوحظ أيضا ازدياد النشاط الجنسي لدى جماعة من الفيران حرمت من جزء من طعامها العادى كما أنه من الملاحظ أن النشاط الجنسى يزداد نسبيا فى الجماعات البشرية ذات مستوى اقتصادى منخفض كأن اللذة الجنسية نوع من التعويض عن الجوع • والعكس أيضا صحيح فالشخص الذى يعانى الحرمان من الحب والعطف يقبل على الطعام بشراهة واضحة •

واذا صح هذا الرأى فستكون نتائجه خطيرة جدا خاصة اذا أريد تطبيقه فى الجنسية البشرية • وقد ذهبت مدرسة التحليل النفسى الى القول بأن الجنسية ليست مرتبطة حتما بالتناسل ومن ثم ــ وهذه نتيجة لها أهميتها وخطرها من الوجهة الخلقية ــ الى القول بأن اللذة الناتجة عن عمل الوظيفة الجنسية هى جوهريا غاية فى ذاتها وأنها ليست مجرد وسيلة لتحقيق التناسل حفظا للنوع •

ويرد على هذا الرأى بأن ما يحدث فى أثناء عملية الاقتران هو عين ما يحدث فى أثناء عملية الاخصاب بين النطفتين كما بينه العالم موباس Maupas • فالاقتران عملية اخصاب متبادل تؤدى الى تجديد الجهاز النووى فى كل من الفريقين الذى يكون فى هذه الحالة بمثابة الحيوانات المخنثة • ويمكن أن نضيف بأن ذات الأهداب مكونة من خلية واحدة وأنه لابد من اعتبار هذه الخلية نطفة وفردا فى آن واحد وأنه لا يجوز فصل عملية تجديد الشباب عن عملية التناسل •

وبناء على ذلك فان الرأى القائل باستقلال الجنسية عن التناسل لا تؤيده الحقائق التجريبية • فالجنسية خاضعة للتناسل ولا يمكن تبرير وجودها الا اذا اعتبرناها وسيلة لغاية تفوقها وتتجاوز حدود الفرد ، وهذه الغاية هى حفظ النوع • أما الحالات التى يشاهدها الطبيب النفسانى والتى تكون فيها الجنسية عاجزة عن تحقيق التناسل فهى حالات مرضية بدون شك •

وخضوع الجنسية للتناسل يزداد ويتضح كلما صعدنا سلم الحيوانات من أدناها الى أعلاها حتى نصل الى الانسان • وفى الانسان تزداد صلة الجنسية بالتناسل تعقدا وتشعبا • فالجنسية بالنسبة الى التناسل هى بمثابة الاستعداد بالنسبة الى التحقيق الفعلى وذلك على الرغم من العقبات التى قد تحول دون انتقال الاستعداد من القوة الى الفعل • فمعنى «الجنسى» يشمل معنى « التناسلى » كما أنه يشمل كل ما له علاقة بالتناسلى سواء كانت هذه العلاقة علاقة الصلة بالمعلول أو المعلول بالعلة أو علاقة الرمز بما يرمز اليه •

فيكون الجنسى علة والتناسلى معلولا فى حالة ظهور الجهاز التناسلى الذى يكون الخصائص الأولية • فان الجنس سابق على ظهور أعضاء التناسل فان تعينه يبدأ عند مرحلة الاخصاب أى اجتماع النطفتين ثم يعين بدوره ظهور الجهاز التناسلى تبعا له اذا كان ذكرا أو أنثى •

ويكون الجنسى معلولا والتناسلى علة فى حالة ظهور الخصائص الجنسية الثانوية فى بدء مرحلة المراهقة • فان ظهور الشعر فى بعض مناطق الجسم وتغير الصوت ونمو الغدد الثديية من أثر الافرازات التى تكونها غدد الجهاز التناسلى كالخصية والمبيض •

أما علاقة الرمز بما يرمز اليه فهى ليست علاقة أساسية ثابتة بل عرضية قابلة للزوال كأن يكتسب شيء خارجى غير جنسى خاصية جنسية لارتباطه عرضا بحالة جنسية • وهذه الحالات تدخل فى دائرة الأفعال المنعكسة الشرطية أو الاستجابات المكتسبة الشرطية •

وعلى ذلك يمكن استخدام لفظ « الجنسى » بثلاثة معان :

١ ـ معنى ضيق وهو أن الجنسى هو التناسلى •

٢ ـ معنى أوسع من الاول ، الجنسى هو مجموعة العوامل التى تمهد السبيل للتناسلى وكذلك الآثار النفسية التى يحدثها التناسلى •

٣ ـ معنى أكثر اتساعا من الثانى وهو كل ما له صلة عرضية بالتناسلى •

ويمكن حصر المشكلة فى تحديد الصلة بين الجنسى والتناسلى تبعا للمعنى الثانى : متى تبدأ المظاهر السلوكية التى يمكن اعتبارها بحق مظاهر جنسية سترتبط يوما ما ـ أى فى سن المراهقة ـ بالمظاهر التناسلية أو بالمظاهر الجنسية التى تمهد السبيل مباشرة للمظاهر التناسلية ؟ وتتمثل هذه المشكلة فى النزاع القائم بين أنصار فرويد وخصومه • هل للجنسية مراحل نفسية أولية تظهر فى المولود الحديث منذ الأسبوع الأول بحيث تكون اللذة مهما كان مصدرها وموضعها لذة شبقية أم هى مجرد تلذذ ناتج عن تنشيط وظائف ليست لها صبغة جنسية جوهرية كالامتصاص والتبرز ؟ (١) •

٤ ـ بعض مظاهر الجنسية فى الحيوانات :

ليس التناسل اللاجنسى مقصورا على بعض الحيوانات ذات الخلية الواحدة ، بل يوجد أيضا فى بعض الحيوانات المتعددة الخلايا كالاسفنجيات

---

(١) عالجنا هذا الموضوع فى مقالتنا : « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة علم النفس ، يونيو سنة ١٩٤٦ ، ص ٦ ـ ٢٤ ـ دار المعارف بمصر •

والجوفمعوية والديدان • غير أن التناسل فى هذه الأنواع لا يكون مقصورا على اللاجنسى بل لابد أن يعود الحيــوان من حين الى آخر الى التنــاسل الجنسى • ويتخذ التناسل اللاجنسى فى هذه الأنواع التى ذكرناها اما شكل الانقسام أو التبرعم • فيشاهد فى بعض الديدان ذات الحلقات ان احدى هذه الحلقات أو بعضها تتخذ شكل الرأس ثم يحدث الانقسام عند كل رأس جديد وتتكون عدة أفراد من فرد واحد • ويشاهد التبرعم فى الهيدرا التى تعيش فى الماء الحلو وفى الاسفنجيات وبعض الديدان ذات الحلقات • فتتكون براعم على جسم الحيوان ثم تنمو مكونة حيوانا جديدا ينفصل بعد حين عن الأصل الذى كان يحمله •

ويمكن أن نستنتج من اجتماع التناسل اللاجنسى والتناسل الجنسى فى نفس الحيوان ما يلى :

١ ـ أن ظاهرة التكاثر بدون تخصص جنسى أعم من ظاهرة التناسل الجنسى •

٢ ـ يعتبر التناسل الجنسى بالقيــاس الى التناسل اللاجنسى من مظاهر التقدم والرقى لظهور التعقد صورة التمايز المرفولوجى (بشـكل الجسم) والتخصص الوظيفى • وهذا يطابق ما سبق أن قلنا بأن الجنسية خاضعة للتناسل اذ أن التخصص يفيــد معنى التفرع والفرع لابد أن يكون خاضعا للأصل •

٣ ـ غير أن فى الحيوانات المتعددة الخلايا يوجد فرق جوهرى بين التناسل اللاجنسى والجنسى هو أن فى الحالة الأولى تكون دائما بصدد الكائن الحى عينه على الرغم من انقسامه وتجزئته ، فى حين أن التناسل الجنسى يعتبر بحق عملية توليد لكائن حى جديد ناتج عن اقتران نطفتين صادرتين عن فردين مختلفين • فالتناسل الجنسى مظهر من مظاهر النشاط الحيوى ارقى من مظاهر التناسل اللاجنسى • هو طفرة جديدة من طفرات الحياة فى أثناء صعودها نحو الكمال ، وهو أرقى من حيث دلالته الفلسفية اذ أنه يشير الى معنى التعاون بين فردين وتكاملهما فى سبيل مصلحة النوع • ويتضح لنا منذ الآن أن الجنسية تشمل بالاضافة الى معنى الوصل الذى سبقت الاشارة اليه معنى الوصل التعاونى • ومن مظاهر هذا الوصــل التعاونى الجاذبية التى تحدث بين الجنسين • والسعادة الزوجية ، حتى اذا

حصرناها فى نطاقها الجنسي ، لا يمكن أن تتم الا عن طريق التعاون الجسمى والروحى بين الزوجين (١) ٠

والكائن الجديد الذى ينشأ نتيجة لهذا الوصل أو لهذا الاقتران هو البويضة المخصبة ٠ فالاخصاب الذى يتم باندماج نطفتى الذكر والأنثى معا هو الظاهرة الاساسية فى كل تناسل جنسى ٠ ويسبق الاخصاب والتلقيح وهو توصيل السائل المنوى الى البويضة ٠ وتختلف طريقة التلقيح باختلاف الأنواع الحيوانية ٠ فقد يكون التلقيح داخليا أو خارجيا ٠ فهو داخلى عندما يتم داخل جسم الأنثى كما فى الطيور والثدييات وخارجى كما فى الأسماك فتضع الأنثى بيضها فى الماء ثم يمر عليها الذكر ساكبا عليها سائله المنوى ٠

وهناك ظاهرة جديرة تسترعى النظر فيما يختص بالتلقيح الداخلى ٠ فلا يكون التلقيح الداخلى دائما عن طريق اجتماع الفردين ، ففى بعض الحيوانات البرمائية كالسمندر يخرج الذكر الحيوانات المنوية مجتمعة فى كيس فتأخذه الأنثى وتضعه بنفسها فى مبرزها cloaca وهو مجمع ينتهى فيه المعى الغليظ والقنوات البولية التناسلية فى الطيور البرمائية ٠

وفى نوع آخر من البرمائية كالضفادع يكون التلقيح خارجيا ولكنه يتم بعد اجتماع الفردين ، فيعلو الذكر الأنثى ضاغطا على جسمها بأطرافه ٠ وعند خروج البويضات من مبرز الأنثى يلقحها الذكر ٠ وتكون البويضات فى شكل عناقيد تسبح فى الماء أو تلتصق فى الأعشاب المائية ٠

ويتضح من هذه الأمثلة ان الفرد يكون خاضعا تمام الخضوع لمصلحة النوع وغائيته ٠ ويمكن اثبات ذلك بأمثلة أخرى مستمدة من سلوك الحشرات ٠ فكثيرا ما يشاهد موت الذكر مباشرة بعد التلقيح وقد يصبح الذكر فى بعض أنواع العناكب فريسة للأنثى بعد تخصيبها ٠ وفى الحشرة المعروفة بالتكهنة religieusemante تمضغ الأنثى رأس قرينها فى أثناء عملية التلقيح ٠ وينتج عن ذلك المضغ تعطيل المراكز العصبية العليا فتحرر المراكز العصبية الموجودة فى العقد البطنية مما قد تحدثه مراكز العقدة المخية من كف وبذلك تتم العملية الجنسية بطريقة منعكسة بحتة ٠

وكلما تأملنا فى سلوك الحيوانات حتى العالية منها كالثدييات اتضح

---

(١) يوسف مراد : سيكولوجية الجنس ومشكلات الزواج — دار المعارف بمصر ٠

لنا أن نظام الوظائف الفسيولوجية التناسلية وما يحيط بها من ظروف خارجية طبيعية يجعل الفرد مجرد وسيلة لحفظ النوع ويحول دون حدوث الانحرافات فيكون السلوك الجنسي في مختلف أطواره خاضعا لايقاع معين. فلا تتحرك الشهوة عند الحيوان الا بعد أن تكون الطبيعة قد هيأت من الاسباب ما يضمن تحقيق الاخصاب وتكوين النسل • وتكون الظروف الفسيولوجية من تنشيط الغدة النخامية وهي موجودة في المخ والغدد التناسلية وتكوين البويضات ونضجها العامل الأساسي في اثارة السلوك الجنسي • ومما يساعد على توجيه هذا السلوك ومواصلته المنبهات الخارجية من شكل وحركة ولمس وشم وأهمها المنبهات الشمية •

أما السلوك الجنسي في الانســـــان فانه جد متعقد لتدخل العوامل النفسية وبخاصة ما يؤثر في الشعور من اتصـــالات وعواطف وذكريات وخيـــالات • بل ان العوامل الفســـــيولوجية قد تضطرب وتختل بتأثير العوامل النفسية • أما فيما يختص باثارة الشهوة أو اخمادها أو بضبط الميول وتوجيهه فيبلغ أثر العوامل النفسية أقصاه • والاشكال في المسائل الجنسية لدى الانســـان يرجع في الواقع الى تنظيم علاقة النفس بالجسم وبيان مدى تأثير الارادة في تهذيب الميل الجنسي وتوجيهه الاتجاه السليم السـوى •

٥ ـ الاخصاب في الانسان ودلالته السيكولوجية

رأينا أن التناسل الجنسي الذي يتم باندماج نطفتين بعضهما في بعض أكثر تعقدا من التناسل اللاجنسي الذي يتم بالانقسام وأبعد دلالة من حيث تطور الكائنات الحية وتنوعها • والتناسل الجنسي يؤدي الى تكوين كائن حي جديد يبدأ حياته في صورة خلية واحدة تنمو وتنقسم وتتمايز أجزاؤها حتى تكون مختلف الاعضاء والأجهزة • أما التناسل اللاجنسي فانه يؤدى الى مجرد تكاثر النوع بدون تكوين كائن حي جديد اذ أن الحيوان المكون من خلية واحدة كالاميبا ينقسم الى اثنين متماثلين يواصلان حياة الخلية الاصلية فلا يكون تجديد بمعنى الكلمة ولا بدء لحياة جديدة • فالخلف يحل محل السلف ويستأنف عملية النمو والتمثيل حيث تركها الخلف • ففي الجيل الرابع والعشرين مثلا يصل عدد الخلايا التي حلت محل الخلية الأولى الى ١٦ مليونا • وعملية الانقسام في الخلية مرتبطة بعملية النمو والتمثيل• فعندما تصل الخلية عند حجم معين يصبح الغشاء الخارجي الذي تحدث عند سطحه عملية التبادل الغذائي بين جسم الخلية والبيئة الخارجية عاجزا عن

سد حاجة الجسم الى الغذاء اذ ان نسبة زيادة الحجم أكبر من نسبة ازدياد سطح الغشاء . فعندما يختل التوازن بين مقدرة الغشاء على التبادل الغذائى وحاجة الجسم تنحصر الخلية ونواتها وتنقسم الى قسمين يحتوى كل قسم على نصف النواة . وبما ان النواة هى التى تحمل عوامل الوراثة تكون كل خلية جديدةشبيهة بالأم تمام الشبه (١) . فتبدو الوراثة فى هذه الحالة فى أبسط مظاهرها ولا تأخذ فى التعقد الا عندما يكون الكائن الجديد نتيجة اجتماع نطفتى الأب والأم فتكون وراثة النسل مزيج من خصائص الأب والأم . ويخضع انتقال هذه الخصائص لقوانين معقدة كشفها الراهب النمساوى مندل Mendel وعوامل الوراثة موجودة فى بعض أجزاء من النواة تعرف بالشبكة الكروماتينية . والخيوط الكروماتينية مكونة من الكروموزمات أو الصبغيات وسميت كذلك لانها قابلة أكثر من أجزاء الخلية الأخرى بأن تصبغ وتحتوى الصبغيات على عوامل الوراثة أو المورثات genes وكل مورثة تمثل صفة من الصفات كلون الشعر أو العين ، طول القامة أو قصرها الخ .

فى كل نوع من الأنواع يكون عدد الصبغيات فى كل خلية ثابتا . فعددها فى دودة الاسكاريس ٤ وفى ذبابة الخل « الدروسوفيلا » ٨ وفى الجراد ٣٠ وفى النمل ٣٢ ، وفى الضفدع ٢٦ وفى الدجاجة ٣٢ وفى الانسان ٤٨ .

وفى كل حيوان نوعان من الخلايا : الخلايا الجرثومية germen التى تكون الغدد الجنسية التى تفرز البويضات والحيوانات المنوية وهى التى تنقل خصائص الأب والأم الى الأولاد والخلايا الجسدية soma وهى التى تتمايز فى شكلها وتركيبها مكونة أعضاء الجسم وأجهزته . ووظيفتها الأساسية تمثيل الأغذية ونمو الفرد وبقائه وهى تموت بموت الفرد ، فى حين ان الخلايا الجرثومية تمثل عنصر البقاء والدوام . فالبويضة المخصبة تنفصل عن الأصل الذى يحملها ناقلة خصائص الجنس خلال موت الأفراد . وانتقال هذه الخصائص فى سلالة الخلايا الجرثومية هو بعينه

---

(١) بشرط ان يكون توزيع عوامل الوراثة متعادلا فى كل من القسمين ويعرف الانقسام فى هذه الحالة بالتخيطى Mitosis اما اذا انقسمت النواة مباشرة بدون تعادل تام يعرف بالمباشر أو لا تخيطى Amitosis والانقسام التخيطى هو القاعدة ولايحدث الأنقسام المباشر الا فى حالة ضعف الخلية وافتقار جسمها الى بعض الجسيمات المعروفة بالحبوب الخيطية Mitochondria وهذه الحبوب تؤدى دورا هاما فى نمو الخلية وفى حمل النواة على الانقسام .

الوراثة · واذا كانت الوراثة أحيانا من عوامل تكوين أصناف حية جديدة فهى فى صميمها عامل ثبات وامتداد القديم فى الجديد أى أحياء القديم ·

قلنا ان الخلية الجرثومية فى الانسان تحوى ٤٨ صبغيا · فعند اجتماع نطفة الذكر بالأنثى سيصبح هذا العدد ٩٦ فى البويضة المخصبة التى سيتكون منها الفرد الجديد · وهذا محال اذ لابد أن يكون عدد الصبغيات ثابتا ليكون الولد شبيها بوالديه · ولهذا السبب يمر كل من البويضة والحيوان المنوى بمرحلة نضج يتخلى فيها عن نصف صبغياته بحيث تصبح ٢٤ · فعندما يجتمع الحيوان المنوى والبويضة بعد نضجهما ، أى بعد خفض عدد الصبغيات الى النصف تندمج نواة الأول بالثانية ويصبح عدد الصبغيات من جديد ٤٨ ·

ولنتأمل قليلا فى عملية تخصيب البويضة وظروفها فانها تنطوى على حكمة عظيمة تساعدنا على فهم الفوارق الخلقية الموجودة بين الرجل والمرأة وعلى توضيح رسالة كل منهما ازاء الآخر وازاء المجتمع الانسانى ·

بويضة المرأة جسم كروى الشكل يمكن رؤيته بالعين المجردة على الرغم من صغره اذ لا يزيد حجمه على ١/١٠ من المليمتر فى حين أن الحيوان المنوى من الأجسام الميكروسكوبية لا يزيد حجم جسمه على ١/٣٠٠ من المليمتر · وينتهى الجسم بذيل طوله حوالى أربع مرات طول الجسم · والحيوان المنوى يسعى نحو البويضة بسرعة منتقلا فى السوائل التى تحمله بفضل حركة الذيل التى تشبه الحركة الدودية · بينما البويضة بعد خروجها من المبيض تنتقل ببطء متجهة نحو الرحم · ويحدث الاخصاب عادة قبل وصول البويضة الى الرحم ، أى فى أثناء اجتيازها أنبوبة فالوب التى تصل بين المبيض والرحم ·

ويحوى مبيض المرأة من عشرة آلاف الى مائة ألف بويضة تكون جرثوماتها كلها موجودة منذ الولادة ، ولكن عدد البويضات التى تترك المبيض فى المدة التى تكون فيها المرأة خصبة — أى بين ظهور الحيض فى سن المراهقة حتى اختفائه فى سن اليأس — يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ تبعا لطول المدة وعدد مرات الحمل · اذ المعلوم أن بويضة واحدة تخرج من المبيض مرة واحدة كل شهر · ماعدا الحالات الاستثنائية التى تحمل فيها المرأة التوائم الأخوية أو غير المتماثلة » (١) ·

---

(١) التوائم الأخوية أو غير المتماثلة Fraternal twins يتكون كل واحد منها من بويضة خاصة ويكون كل جنين فى مشيمة واحدة على حدة · وقد تكون هذه التوائم من جنسين مختلفين · أما التوائم المتماثلة Identical twins فهى من بويضة واحدة وداخل مشيمة واحدة ومن جنس واحد ، ذكرا وأنثى · وهى متشابهة تمام التشابه ·

أما عدد الحيونات المنوية التى تتكون فى الخصيتين فعددها لا حصر له وقد يحتوى السائل المنوى الذى ينسكب فى أثناء العمل الجنسى على أكثر من ثلثمائة مليون كل مرة ٠ غير ان هذا العدد قد ينقص فى بعض الحالات نتيجة الاسراف الجنسى ٠ ومن بين هذا العدد الهائل من الحيوانات المنوية لا يسمح الا لحيوان واحد باختراق غشاء البويضة ٠ وبعد دخول جسم النطفة ينفصل الذيل ويموت وتغطى البويضة بطبقة هلامية خاصة تحول دون دخول حيوان آخر ٠ وفى هـذا العدد الكبير من الحيـوانات المنوية التى تسعى نحو البويضة ضمان أكبر لحدوث الاخصاب ٠

ولا تكـون المرأة قابلـة للحمـل الا فى أثنـاء مرحلـة التبويض وهى حوالى خمســة أيام تسبقهـا ثلاثة أو أربعة أيام وهى المدة التى يظل فيها الحيوان المنوى حيا وبعد انتهاء مرحلة التبويض تضمر البويضة وتموت فى حالة عدم تخصيبها ٠ تقع هذه المرحلة المكونة من ثمانية الى تسعة أيام احدى عشر يوما قبل ميعـاد بدء الحيض الجديد ٠ فكل حيض يكون مرتبطا وظيفيا بمرحلة التبويض السابقة ٠ أما المدة بين بدء الحيض وبدء التبويض فتختلف باختلاف مدة الدورة الشهرية التى تتراوح تبعا للأفراد من ٢٣ الى ٤٠ يوما ٠ أما المدة العادية فهى ٢٨ يوما أو شهر قمرى٠ وتبدو المرأة كأنها مرتبطة ارتباطا وثيقـا باحدى الأنظمة الطبيعية وهى دورة فلك القمر وسـوف نرى كيف أن المرأة أقرب من الرجل الى أمنا الطبيعية مستودع الخيرات ومصدرها ٠

وبصدد تحديد المدة التى تكون فيها المرأة قابلة للحمل يجب القول بأن بعض علماء الفسيولوجيا لا يعدون هذه القاعدة ثابتة مطلقة ٠ فهناك استثناءات تظل فيها البويضة حية أكثر من خمسة أيام ٠ هـذا فضلا عما قد يعترى الدورة الشهرية من تقدم أو تأخر ٠

تبين لنا حتى الآن ان الاخصاب هو امتزاج نواة كل نطفة بالأخرى بعد خفض عدد الصبغيات الى النصف ٠ ولكن بجانب هذه العملية النووية توجد عملية أخرى لم يهتد العـلم اليها الا أخيرا وهى عملية تنشـيط البويضة قبل امتزاج النواتين تحت تأثير الحبوب الخيطية **mitochondria** الموجودة بكثرة فى جسم الحيوان المنوى ٠ وسنفصل القول فى هذه العملية نظرا لأهميتها وخاصة نظرا لدلالتها السيكولوجية والاجتماعية طبقا لمنهجنا التكاملى ٠

نعلم أن الوحدة الأساسية فى تركيب كل كائن حى هى الخلية ، أى

ان مظاهر الحياة المنظمة لا يمكن مشاهدتها الا في الخلية • ففي أبسط الحيوانات المكونة من خلية واحدة تحدث جميع العمليات الحيوية من تغذية ونمو وافراز واخراج وحس وحركة وتكاثر • وعلى الرغم من بساطة تركيب هذه الحيوانات الأولية اذا قارناها بالحيوانات المتعددة الخلايا يوجد تمايز بين مختلف الأجزاء من حيث الشكل والتركيب الكيميائي ومن ثم تقسيم للعمل • فقد أشرنا مثلا الى الدور الذي تقوم به النواة أثناء عملية الانقسام في نقل العوامل الوراثية من الأصل الى الذرية •

اذا فحصنا الخلية تحت المجهر وجدنا في جسم الخلية الذي يحيط بالنواة جسيمات صغيرة كاسرة للضوء تعرف بالحبوب الخيطية mitochondria وهي تتخذ أشكالا مختلفة تبعا لحالة الخلية العامة • ففي أبسط أشكالها تكون بمشابة حبيبات صغيرة جدا لا يزيد حجمها على نصف ميكرون والميكرون هو جزء من ألف من المليمتر • وقد تتخذ شكل السبحة أو شكل العصا • وقد تكون موزعة في جميع أنحاء جسم الخلية أو متجمعة حول النواة أو عند منطقتين متقابلتين في الخلية •

ولا تصدر الحبوب الخيطية عن النواة ، كما أنها لا تتكون تلقائيا • فكل حبة جديدة تتولد بالانقسام عن حبة قديمة • يشاهد انقسام الحبوب انقساما عرضيا كلما أبطأت عملية النمو في حالة التعب أو الاعياء الشديد ويحدث نتيجة لانقسام الحبوب ازدياد النشاط الحيوي واستئناف النمو • ونظرا لأن كل حبة جديدة لا تتولد الا من حبة أخرى فقد تساءل العلماء ما اذا كانت الوحدة الأساسية للتركيب الحيوي هي الحبة الخيطية أم الخلية• والحبوب الخيطية تمثل في الخلية طبقة العمال التي تقوم بالعمليات الحيوية تحت اشراف النواة التي تعتبر بحق حارسة وحدة الخلية ونوعيتها • فالحبوب الخيطية هي في نفس الآن من عوامل التحليل لتعبئة الطاقة الحلوية ومن عوامل التركيب لاختزان الطاقة وحفظها •

والآن وقد فهمنا طبيعة الحبوب الخيطية نعود الى عملية الاخصاب • نعلم أن البويضة بعد تخصيبها تنقسم الى عدد كبير من الخلايا لتكوين الجنين • فلابد من أن تحتوي على كمية كبيرة من المواد الغذائية • وتكون هذه المواد المختزنة فيما يعرف بالمح أو صفار البيض • وكلما ازداد حجم المح نقصت كمية المادة الحية المسماة بالبروتوبلاسما • تكون البويضة اذن في حالة شيخوخة وانحطاط ومن ثم عاجزة عن الانقسام • فلابد من تجديد نشاطها واعادة الشباب اليها • وهذا هو الدور الذي ستؤديه نطفة الذكر عند امتزاجها بنطفة الأنثى • فاذا فحصنا الحيوان المنوي تحت المجهر

وجدنا انه يتركب خاصة من نواة ومن كتلة من الحبوب الخيطية تمتاز بشدة نشاطها • فعندما يتم الاخصاب تشاهد هذه الحبوب الخيطية تتجه نحو البروتوبلاسما وتنتشر فيه وفي هذه المحطة تنتقل البويضة من حالة الخمول التى كانت فيها الى حالة جديدة من النشاط والحيوية •

وسر هذا النشاط الجديد هو ان الحبوب الخيطية الآتية من نطفة الذكر امتزجت بالحبوب الخيطية التى أخذت تهزل وتشيخ فى جسم البويضة فتعيد اليها النشاط والشباب • فعملية الاخصاب هى فى الواقع عملية تغذية وعملية تناسل فى الوقت نفسه • وتظهر هاتان الناحيتان بجلاء فى تخصيب النبات حيث تحتوى حبوب اللقاح على نواتين احداهما وهى كبيرة الحجم لتغذية البويضة والأخرى صغيرة للتخصيب •

ومما هو جدير بالملاحظة أن من بين السلالتين الجرثوميتين ، سلالة الذكر وسلالة الأنثى ، لاتصاب الحبوب الخيطية بالانحطاط والشيخوخة الا فى سلالة الأنثى ، فى حين تظل الحبوب الخيطية فى سلالة الرجل فى حالة دائمة من الشباب • خلاصة القول ان الحياة لا تتجدد ولا تستمر فى حركتها الابداعية الخالقة الا بفضل نطفة الذكر وما تحمله من عوامل البقاء والخلود •

وقبل أن نستخلص من هذه التفرقة الوظيفية التى تميز الذكر عن الأنثى من الوجهة البيولوجية ما تنطوى عليها من دلالة سيكولوجية نعيد التأمل قليلا فى تركيب كل من نطفتى الذكر والأنثى • فالحيوان المنوى ضامر الجسم مفتول الشكل تكاد تكون المواد الغذائية المختزنة فيه معدومة • ثم انه سريع الحركة والتنقل بفضل ذيله الطويل الذى يشبه شكل السوط **flagellum** فى حين أن البويضة كبيرة الجسم كروية الشكل كثيرة المواد الغذائية المختزنة فيها ، بطيئة الحركة • لا شك ان فى هاتين الصورتين اشارة واضحة الى الصفات الخلقية والخلقية التى تميز بين الرجل والمرأة • ولا نزاع فيما يختص بالصفات الخلقية فيمكن الوقوف عليها عندما نقارن بين رجل كامل الرجولة وامرأة كاملة الأنوثة • أما فيما يختص بالصفات الخلقية والعقلية فالأمر أكثر عسرا ودقة • ولكن أليس الوضع الحالى لنظام الأسرة مطابقا لطبيعة كل من الرجل والمرأة • فعلى الرجل أن يسعى فى الخارج لتحصيل الرزق والقوت ، وعلى المرأة أن تدبر استهلاك بعض الرزق وحفظ بعضه الآخر لوقت الحاجة • والرجل يمثل جانب البحث والتحليل والابداع ، فى حين أن المرأة تمثل جانب المحافظة والتركيب والتأليف • عالجنا هذا الموضوع فى كتابنا « سيكولوجية

الجنس ومشكلات الزواج » ولكن يمكننا أن نقرر هنا أن كل محاولة ترمى الى تحرير المرأة على حساب طبيعتها الجوهرية وبدون مراعاة ما فطرت عليه من استعدادات وأخلاق لابد أن تؤدى الى تعاستها ، بل الى تعاسة الانسانية جمعاء . وسوف نرى أن رسالة المرأة جليلة كل الجلال على الرغم مما تبدو عليه من التواضع فى نظر العقول السطحية فانها ليست فقط حارسة البيت والأسرة ، بل هى قبل كل شىء حارسة الانسانية ومن أهم عوامل تحريرها من الذعر الهائل الذى يهيمن كالسحابة السوداء على قلب الانسان العصرى .

٦ - تعيين الجنس ودلالته الاجتماعية

اهتم العلماء اهتماما خاصا ببحث العوامل التى تعين جنس الجنين . هل يتحدد جنس الجنين ، ذكرا أو أنثى قبل الاخصاب أو عنده أو بعده ؟ هل يمكن تغيير الجنس وتحويله الى ضده فى أثناء النمو الجنينى ؟ هل تكون عوامل التعيين مقصورة على الظروف الداخلية والتركيب الكروموسومى لكل من النطفتين أم هناك عوامل خارجية كالحرارة ونظام التغذية ومايدخل فيه من فيتامينات خاصة تؤثر فى العوامل الداخلية فتساعدها حينا أو تعوق آثارها حينا آخر ؟ هل يمكن التحكم فى تعيين الجنس بحيث تضع المرأة ذكرا أو أنثى حسب رغبة الوالدين ؟ تلك هى بعض الأسئلة التى تثار حول موضوع تعيين الجنس وسنحاول الاجابة عن بعضها بايجاز مع الاشارة الى مايمكن اعتباره حقيقة علمية ثابتة ولايزال فرضا من الفروض لايزال العلم يواصل بحثه لتدعيمه أو رفضه تبعا لما ستسفر عنه التجارب من نتائج ثابتة . كما أننا ، تطبيقا للمنهج التكاملى ، سنحاول أن نستخلص ما تنطوى عليه الحقائق البيولوجية من دلالة سيكولوجية واجتماعية .

تنقسم النظريات التى حاولت تفسير تعيين الجنس الى ثلاث : تذهب الأولى الى أن التعيين يكون قبل الاخصاب progamic والثانية بعد الاخصاب epigamic والثالثة فى أثناء الاخصاب syngamic .

تعتمد الأولى على ما نشاهده فى حالات التولد البكرى أو العذرى parthenogenesis وهو انقسام البويضة غير المخصبة ونموها فى بعض الحيوانات اللافقرية كالحشرات . فيلاحظ ان الحشرة تضع حينا بيضا يكون ذكورا فقط وحينا آخر يكون اناثا فقط . ويعتقد ان تعيين الجنس يرجع الى درجة النضج التى تكون عليها البويضة ومركز هذه النظرية ضعيف جدا خاصة وان عوامل التولد البكرى لا يزال يحيط بها كثير من الغموض .

والنظرية الثانية كذلك مرفوضة وهى التى تقول بتعين الجنس أثناء نمو الجنين تحت تأثير الأغذية التى تتعاطاها الأم وهى حامل أو تحت تأثير البيئة الغذائية التى تعيش فيها الآجنة فى بعض أنواع الحيـوانات التى لا تحمل نتاجها · وقد لوحظ أن بيض الضفادع يتحول معظمه الى اناث عند انخفاض درجة الحرارة ، والى ذكور عند ارتفاعها ·

أما النظـرية الثالثة وهى تعتبر تعـين الجنس مرتبطا بالاخصـاب ومعاصرا له فهى التى تؤيدها الحقائق التجريبية ، خاصة وانها تربط بين تعين الجنس وعوامل داخلية ثابتة هى العوامل الوراثية فى كلتا النطفتين · وهى تنقسم الى نظريتين متممتين احداهما للأخرى على الرغم مما يبدو بينهما من تعـارض ، وهما النظرية الكروموسـومية أو الصـبغية والنظرية الفيتامينية ·

النظرية الكروموسومية : سبق أن ذكرنا ان فى كل نواة عددا خاصا من الصبغيات chromosomes يختلف باختـلاف الأنواع · فعددها فى الانسان مثـلا ٤٨ أى ٢٤ زوجا غير انه يوجد فى نواة الخلايا الجرثومية كروموسومات اضافية يختلف عددها أو شكلها باختلاف جنس النطفة · ففى الانسان يكون التركيب الصبغى كالآتى :

فى الأنثى ٤٦ كروموسوما أساسيا وكروموسومان اضـافيان متشابهان نرمز اليهما ب ص ص · وفى الذكر ٤٦ وأثنان اضافيان أحدهما أقوى من الثانى نرمز الى الأول ب ص والى الثانى ب س أو الأنثى ٤٦ + ص ص والذكر ٤٦ + ص س ·

وقد ذكرنا أيضـا ان الاخصـاب يكون مسبوقا بمرحلة تتضح فى أثنائها النطفة تعرف بعملية خفض الكروموسومات الى النصف · فيكون لدينا فى نطفة الأنثى نوع واحد من التركيب الصبغى هو ٢٣ + ص وفى نطفة الذكر نوعان ٢٣ + ص أو ٢٣ + س ·

فاذا اجتمع النوع الأول بالبويضة أصبح تركيب البويضة المخصبة (٢٣ + ص) + (٢٣ + ص) أى ٢٦ + ص ص أى أن الجنين سيكون أنثى ·

وفى الحالة الثانية : (٢٣ + ص) + (٢٣ + س) أى ٤٦ + ص س أى أن الجنين سيكون ذكرا ·· ولكن اذا كانت هذه النظرية صحيحة كيف تعلل ظهور الجنسين فى نفس الشخص أو تحول الجنس الى ضده فى أثناء النمو الجنينى ؟ لا شك أن النظرية الكروموسومية تعلل لنا بوضوح الحالات العادية وتفسر لنا كيف يكون عدد الذكور مساويا لعدد الاناث أو يكاد اذا

أخذنا مجموعة كبيرة من السكان • غير أنه لا شك أيضا أن هناك عوامل أخرى تتدخل فى عملية تعين الجنس من شأنها أحيانا أن تحدث اضطرابات فى نظام توزيع الصبغيات وفى آثارها والنظرية الفيتامينية تحاول توضيح هذه الناحية الغامضة وتفسير الحالات الشاذة •

النظرية الفيتامينية: وتسمى أيضا نظريةطاقة الخلية cyto - energetic تعتمد هذه النظرية على الملاحظة الآتية : شدة الطاقة فى الحياة الخلوية تكون أقوى لدى الذكر منها لدى الأنثى ، أى أن عمليات التأكسد أو استهلاك الطاقة تكون أقوى وأسرع فى الذكور منها فى الاناث وقد لاحظ القدماء هذه الحقيقة فيقول الامام فخر الدين الرازى فى كتاب الفراسة (١) مايلى : « واعلم أن الذكور من كل نوع من أنواع الحيوان آكمل حالا وأقوى مزاجا من الأنثى والسبب فيه أن المزاج الذكورى انما يحصل بسبب استيلاء الحرارة واليبوسة والمزاج الأنوثى انما يحصل بسبب استيلاء البرد والرطوبة وهذا المعنى يقتضى أحوالا فى البدن وأحوالا فى النفس » • ولا يرجع شدة التأكسد أو ضعفه الى الغدد الجنسية اذ أن الشدة أو الضعف يظهر منذ بدء الحياة الجنينية وقبل تكوين الغدد التناسلية •

ويتوقف على ذلك أن كل عامل من شأنه أن يضعف التأكسد فى نطفة الذكر سيؤدى الى أن يكون الجنين أنثى وكذلك كل عامل من شأنه أن يزيد التأكسد فى نطفة الأنثى سيؤدى الى أن يكون الجنين ذكرا •

ومن أهم العوامل التى تؤثر فى شدة التأكسد الفيتامين ب وخاصة ب ٢ ، ب ٣ • فاذا أصيب الذكر بنقص هذه الفيتامينات تكون ذريته من الاناث ضعف ذريته من الذكور •

وهذه النظرية تفسر لنا ازدياد عدد المواليد الذكور فى زمن الحرب : فحياة الجندى فى الميدان شاقة محفوفة بالأخطار وتنمى فيه خصائص الرجولة الى أقصى حد من الشجاعة والجلد وتحمل المشقات • وكذلك تكون حياة الزوجة شاقة تتطلب منها بذل مجهود مضن فى الحقل أو المصنع • فتكون عمليات التأكسد واستهلاك الطاقات قوية وشديدة • ولهذا ترجح كفة الذكر على الأنثى كأن الطبيعة تريد أن تعوض ما تفقده الانسانية من رجال فى ميادين القتال •

---

(١) ص ٢٤ طبعة باريس سنة ١٩٣٩ • النص العربى مصحوبا بترجمة فرنسية وتعليقات ومقدمة فى تاريخ علم الفراسة عند اليونان والعرب :
Youssef Mourad : La physiognomonie arabe et le Kitab al-Firâsa de Fakhr al-Din al-Razi. Librairie orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1939.

ولكن يجب أن يلاحظ أن ازدياد شدة التأكسد لا يؤثر في ترجيح تكوين الذكر على الأنثى الا اذا كان محققا أثناء الاخصاب · أما اذا كان كل من الزوجين في حالة سوية أى أن يمتاز الرجل بخصائص الرجولة من حركة ونشاط وجلد واقدام على الأهوال ومن تغلب عملية الهدم على عملية البناء في التغذية والمرأة بخصائص الانوثة من لين وهدوء وحنان وانقياد ومن تغلب عملية البناء على عملية الهدم في التغذية تتوزع الذرية بالتساوى بين الجنسين وفى هذه الحالة يكون العامل الأساسى في تعيين الجنس العوامل الكروموسومية ·

ولكن يندر أن تتحقق الرجولة الكاملة أو الأنوثة الكاملة ، فكثيرا ما تكون بعض خصائص الجنسين موجودة في شخص واحد مع تغلب خصائص جنسه على خصائص الجنس الآخر · فلدينا درجات كثيرة بين الرجولة أو الانوثة الكاملة وحالة الخنوثة سواء كانت جسمية أو نفسية · ولكن في حالات الانحراف البسيطة التى لا تكون من نوع الجنسية المثلية الواضحة homosexuality تقوم الجاذبية الجنسية بدور هام في اعادة التوازن المختل بحيث تعود الذرية الى حالة السواء والاعتدال من حيث توزيع عدد الجنسين بنسبة متساوية · وقد نص العالم وينجر Weininger على قانون الجاذبية الجنسية كالآتى : يختار الزوجان أحدهما الآخر بحيث يكونان بامتزاج عناصرهما الذكورية والأنثوية رجلا كاملا وامرأة كاملة · لنفرض رجلا تكون نسبة الرجولة فيه ٦٠٪ والانوثة ٤٠٪ فانه يميل بالفطرة الى امرأة نسبة الرجولة فيها ٤٠٪ والانوثة ٦٠٪ بحيث يكون اجتماعهما ١٠٠٪ من الذكورة و ١٠٠٪ من الانوثة ·

وخلاصة القول أن كل شخص ينحرف عن سبيل جنسه ويأبى القيام بالمهمات التى يفرضها عليه جنسه يفقد أولا القدرة على انسال ذرية من جنسه وأخيرا القدرة على الانسان عامة ·

فى التحليل النفسى

من الاستبطان الى التحليل النفسي (*)

لا تتضح معالم الكائن الحي ولا تتمايز أبنيته ووظائفه ولا يتكامل نشاطه داخل المواقف التي تضمه الا خلال عملية النمو ٠

ويمكننا أن نشبه العلوم بالكائنات الحية من حيث ان مميزاتها لا تتضح الا خلال عملية النمو ، مع مراعاة ما تتضمنه هذه العملية من اعادة تنظيم القديم داخل النماذج الجديدة التي تتمخض عنها عملية النمو ، خاصة في المراحل التي تتخذ شكل الأزمات ٠

ويبدو لنا أن ما سبق أن قلناه (١) عن خصائص النمو في ضوء عملية التكامل وعن الحركة الدائرية اللولبية « التي تفيد في نفس الآن عمليتي التقدم والتراجع النسبي الممهد لتقدم جديد » يمكن تطبيقه على دراسة تطور العلوم ونموها ٠ وسنحاول في هذه المقالة تفسير تطور علم النفس المعاصر في ضوء عملية التكامل ، وذلك بتتبع ما طرأ من تطور على مناهج البحث فيه ٠

* * *

اذا ألقينا نظرة سريعة الى تطور علم النفس في المائة سنة الماضية فاننا نلاحظ أن تطور المناهج كان ملازما لتطور نظرة الفلاسفة والسيكولوجيين الى موضوع علم النفس والى صلة هذا الموضوع بالمشاكل الفلسفية وبخاصة مشكلة الوصول الى المعرفة اليقينية ٠ ويميز المناطقة بين منهجين في التفكير مؤديين الى اليقين ، الأول الاستنباط أو القياس كما هو مطبق في العلوم الرياضية والثاني الحدس وهو ضرب من المعرفة المباشرة ، سواء تناولت هذه المعرفة المحسوسات أو المعقولات ٠ وتمتاز

(*) مجلة « علم النفس » ، فبراير ١٩٥٢ ٠

(١) راجع مجلة علم النفس ، عدد فبراير ١٩٤٦ : المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية من ص ٢٨٦ الى ٢٩٤ ٠

معرفة الشخص لذاته عن طريق الشعور بكونها حدسية مباشرة • فان احساسي بالألم هو معرفتي بأنني أتألم وعلى ذلك يعرف بعضهم الشعور بأنه حدس الشخص لحالاته الذاتية أو حدس الذات لذاتها • ولكن هناك فرقا بين التعريف الأول والتعريف الثاني • فعندما أقول ان الشعور هو حدس الشخص لحالاته الذاتية فان ادراكي الداخلي لا ينصب الا على مضمون تيار الشعور وليس في امكان الشعور أن يدرك ذاته مجردا عما يتضمنه من حالات ونشاط وعلى ذلك يعرف علم النفس بأنه علم الحالات الشعورية • أما عندما أقول ان الذات تدرك ذاتها فانني أقصد بالذات الجوهر الروحي وعندئذ يكون علم النفس أو السيكولوجيا فرعا من الميتافيزيقا التي تبحث في ماهية النفس الانسانية ولكن معرفتي للنفس في هذه الحالة لا تكون عن طريق الاستدلال ، بل عن طريق الحدس الميتافيزيقي الذي يدعي النفوذ مباشرة الى الجواهر •

ويطلق لفظ الاستبطان على هذا الضرب من المعرفة الحدسية المباشرة، ولكن بينما كان بعض الفلاسفة أمثال فيكتور كوزان وجوفروا يعدون الاستبطان الوسيلة الوحيدة لادراك النفس مباشرة ادراكا يقينيا ، كان غيرهم ينكرون على الاستبطان هذه القدرة ويحصرونه في دائرة الحالات النفسية والظواهر الذهنية وهي تتعاقب في الشعور • ومن المعلوم أن الاستبطان قد استهدف لنقد الفيلسوف أوجست كومت ، صاحب المذهب الوضعي ؛ وكان كومت محقا في نقده لأن نقده كان موجها الى الاستبطان من حيث هو وسيلة الكشف عن طبيعة النفس مباشرة ، أي من حيث هو ضرب من الحدس الميتافيزيقي • فهو يقول في « دروسه في الفلسفة الوضعية » : « ان هذه السيكولوجيا الوهمية ••• تدعي الوصول الى الكشف عن قوانين العقل الانساني الأساسية ، بمشاهدته في ذاته ، أي بغض النظر عن العلل والمعلولات » (١) •

ولكن نقد أوجست كومت يتجاوز حدود علم النفس الميتافيزيقي وينصب أيضا على محاولة دراسة الظواهر النفسية • غير أنه يجب أن نشير الى التمييز الذي أقامه كومت بين الظواهر العقلية كالاستدلال مثلا وبين الظواهر الوجدانية (٢) • وهو يبني هذا التمييز على أسس

---

(١) A . Comte : Cours de Philosophie Positive, Tome I, 1ère Leçon, Ed. Garnier.

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٦٥ و ٦٦ •

فسيولوجية ، مخصصا مقدم الدماغ للعمليات العقلية والجزء الاوسط للعواطف والجزء المؤخر للنزعات والميول ، كما أنه يقسم مقدم الدماغ الى قسمين ، قسم يضم مراكز قوى الادراك والملاحظة وقسم موجود فى أعلى مقدم الفص الجبهى لقوى التفكير والتأمل وهو متأثر فى ذلك بآراء جال واضع العلم المزعوم المعروف بالفرينولوجيا أو علم المراكز الدماغية لقوى النفس التى يبلغ عددها ، حسب هذا المذهب ، سبعا وثلاثين قوة موزعة كالآتى : النزعات ١١ ؛ العواطف ١٢ ؛ الادراك ١٢ ؛ التفكير ٢ (١) ٠

وبما أن مقدم الدماغ هو الذى يقوم بالملاحظة والمقارنة ، ففى وسعه أن يلاحظ ما يحدث فى وسط الدماغ ومؤخره ، أى أن يلاحظ الظواهر الوجدانية والنزوعية ، ولكنه من المحال عليه أن يلاحظ ما يحدث فى مقدم الدماغ من الظواهر العقلية ، أى أن يلاحظ نفسه ، كما أنه من المحال على العين أن ترى نفسها ٠ فان مثل هذه الملاحظة تقتضى ازدواج الدماغ بحيث يكون فى آن واحد الملاحظ والملاحظ ٠ يقول كومت : « ليس فى وسع الفرد المفكر أن ينقسم الى قسمين ، قسم يفكر بينما يقوم القسم الثانى بمشاهدة التفكير ٠ كيف يمكن أن تتم الملاحظة اذ أن العضو الذى يلاحظ والعضو الملاحظ شىء واحد » ٠

من الواضح أن حجة كومت فى استعماله استبطان العمليات الفكرية مع التسليم بامكان استبطان الحالات الوجدانية والنزوعية ، تستند الى أسس تشريحية وفسيولوجية ، ويكفى اقامة البرهان على بطلان هذه الأسس لكى تنهار الحجة ٠ والواقع أن آراء جال التى أخذ بها أوجست كومت لا أساس لها من الصحة مطلقا ٠ أما فيما يختص بملاحظة الحالات الوجدانية ، يقول كومت ان هذه الملاحظة على الرغم من أنها ممكنة فانها لا تؤدى الى نتائج علمية لأن نتائج الملاحظة الداخلية تختلف باختلاف الأفراد ٠

لا شك فى أن كومت نبه علماء النفس الى نقص المنهج الاستبطانى وعجزه عن انشاء علم النفس على أسس علمية سليمة وله الفضل فى الدعوة الى استخدام المنهج الموضوعى ، أى منهج الملاحظة الخارجية ، لدراسة العقل وذلك بدراسة النشاط العقلى ممثلا فى آثاره فى متحف العلوم وآثاره فى تنظيم المجتمع ٠ ومن المعلوم أن كومت فى آخر حياته

---

(١) E.G. Boring : A History of Experimental Psychology, 2nd ed., p. 55, New York, 1950.

فى كتابه « مذهب السياسة الوضعية » نبذ آراء جال ونادى بانشاء علم النفس فى ضوء دراستنا للعوامل الاجتماعية . فان علم النفس لا يمكن أن يكون الا علما نفسيا اجتماعيا فى آن واحد ، بل قد ذهب الى أبعد من ذلك فيما يختص بمعرفتنا لوظائف الدماغ ، قائلا ان معرفتنا لوظائف الدماغ ليست هى التى تؤدى الى معرفة الوظائف العقلية ، بل العكس هو الصحيح ، أى أنه لا يمكن الوصـــــول الى معرفة الوظائف الدماغية حق المعرفة الا بعد أن ندرس الوظائف العقلية ونقف على طبيعتها (١) .

****

ظل منهج الاستبطان عرضة للنقد بعد وفاة أوجست كومت عـام ١٨٥٧ ، وبخاصة لدى أعضاء المذهب الوضعى أمثال ريبو وبعد أن تشعبت الأبحـاث السيكولوجية وتناولت دراسة الحيوانات والأطفال والمصـــابين بالأمراض العقلية ، وبعد أن أخذ علماء النفس يسلمون بوجود العوامل اللاشعورية . غير أن ريبو نفسه كان يصرح بأن الاستبطان وان كان منهجا ناقصا ونتائجه غير يقينية وغير صالحة للتعميم فلا غنى عنه لكى تبـدأ الدراسة السيكولوجية وان كانت هذه الدراسة لن تتم بالاستبطان وحده .

وقبل أن ننتقل الى الكلام عن المنهج الموضوعى ، أى منهج الملاحظة الخارجية ، يجب أن نشير الى الخلط الذى وقع فيه بعض الكتاب فى فهمهم للاستبطان . فقد يستعمل لفظ الاستبطان اما لوصف الحالات الشعورية أو لتعليل هــذه الحالات ، فى الحالة الأولى ، يدرك الشـــخص أنه ضجر مثلا ويحاول وصف الضجر بقدر ما تسمح له اللغة بهذا الوصف ، وكثـيرا ما تعجز اللغة عن تأدية المطلوب منها لأنها لم تنشأ فى أول الأمر لوصف الحالات الشعورية بل لمعالجة الأشياء المادية المحسوسة . أما فى الحالة الثانية ، فعلى الشخص أن يعلل حالة الضجر هذه . بارجاعها الى عللها وكثيرا ما يكون البحث عن العلل وسيلة لاشعورية لاخفاء العلل الصحيحة وانتحال علل وهمية .

ففى الحالتين ، ســـواء كان الغرض من الاســـتبطان الوصف أو التعليل ، فان نتائجه لا تصلح لكى نقيم عليها علما ، بل هى بمثابة مادة

---

(١) ليس فى تغيير كومت لموقفه هذا التغيير الكلى ما يثير الدهشة اذا رجعنا الى ظروف حياته وتطور شخصيته خاصة من الوجهة الوجدانية . فمما لاشك فيه أن كل مذهب فلسفى وما يعتريه من تطور يعبر الى حد ما عن شخصية الفيلسوف وان لم يصل هذا التعبير الى الحد الذى يصل اليه لدى الفنان أو الاديب .

خام يجب نقدها وتمحيصها ثم محاولة تعليلها فى ضوء النتائج التى تسفر عنها المناهج الأخرى المستخدمة فى علم النفس ٠

* * *

يشار اليوم الى السيكولوجيا الاستبطانية بأنها سيكولوجيا فى صيغة المتكلم Psychologie en première personne أى أنها محصورة فى الذات ولا يمكنها أن تتجاوز حدود الشعور الفردى للوصول الى معرفة الآخرين وبالتالى الى معرفة « النحن » كما يقول أوجست كومت ٠ ويجدر بنا أن نذكر هنا نصا هاما لصاحب المذهب الوضعى فى مقاله عن الروح الوضعية وهو يتحدث عن الروح الميتافيزيقية ذات الطبيعة الذاتية « التى حصرت نفسها فى دائرة الفرد فعجزت عن أن تدرس النوع دراسة شاملة حقة وذلك بسبب ما يؤدى اليه حتما مبدؤها المنطقى الباطل الذى يقوم فى جوهره على الحدس الذى لا يمكن أن يؤدى الى أى تطبيق جماعى ٠ فان قضايا هذه الفلسفة لا تلبث طويلا حتى تعبر بكل سذاجة عن روحها الأساسية : ان لدى أنصار هذه الفلسفة الفكرة السائدة على الدوام وهى فكرة **الأنا** ، فى حين أن جميع الموجودات الأخرى وحتى البشرية منها يضمها بدون تمييز تصور سلبى واحد ؛ وهذا المجموع الغامض المكون من سائر الموجودات يكون ما يعرف **باللاأنا** ؛ أما فكرة **النحن** فليس لها فى هذه الفلسفة أى موضع مباشر مميز » (١) ٠

ان نقص المنهج الاستبطانى كمنهج علمى مستقل أدى الى البحث عن منهج آخر يسمح لنا بالخروج من حصن الذات ويمهد لنا السبيل الى معرفة الآخرين ٠ وعند البحث عن هذا المنهج الجديد كان من الطبيعى أن يلقى السيكولوجى نظرة الى العلوم الطبيعية التى خطت فى طريق التقدم خطوات واسعة وأن يسأل عن سر تقدمها ٠ ويرجع هذا السر الى أمرين : ان العلوم الطبيعية تدرس أشياء ، ثم انها تستخدم فى دراستها منهج الملاحظة الخارجية والتجربة ٠ فاذا أراد علم النفس أن يتقدم فما عليه الا أن يحول موضوعه الى شىء كسائر الأشياء الطبيعية وأن يستخدم المنهج التجريبى للكشف عن قوانين تصاغ فى صيغ رياضية كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ٠ أما هذا الشىء الذى سيصبح موضوع علم النفس التجريبى فهو السلوك ، أى مجموعة الحركات الصادرة عن الكائن الحى والتى يمكن

---

(١) Comte : Discours sur l'Esprit Positif. Ed. Garnier, pp. 187-188.

مشاهدتها من الخارج ، كما يمكن مقارنتها بغيرها وفي نهاية الأمر قياسها وتعليلها بقوانين رياضية .

ذلك هو موقف علم النفس المعروف بعلم النفس الموضوعي والذى يشار اليه الآن بأنه السيكولوجيا فى صيغة الغائب Psychologie en troisième personne ومن أهم المذاهب السيكولوجية التى تصاغ عباراتها فى صيغة الغائب المدرسة السلوكية ومدرسة الجشطلت .

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس أدت لعلم النفس أجل الخدمات وسمحت له بأن يخطو خطوات واسعة نحو الموضوعية التى تنشدها العلوم الطبيعية ، وحسبنا أن نذكر هنا ما وصلت اليها من نتائج هامة فى دراسة سلوك الحيوان والطفل والبالغ بفضل تطبيق التجريب المعملى والاختبارات على مختلف أنواعها سواء فى الحالات السوية أو الحالات المرضية .

ولكن اذا كانت المناهج الموضوعية تسمح لنا بتعليل السلوك ، كما تعلل الظواهر المادية ، وذلك برده الى علله ، أو بعبارة أدق الى الشروط التى تعينه فى الماضى والحاضر ، غير أنها عجزت عن أن تجعلنا نفهم السلوك من حيث هو نشاط انسانى لأنها مصرة على أن تنظر الى النشاط الانسانى كأنه شيء بين الأشياء الأخرى التى تحيط بنا .

* * *

ولتلخيص ما سبق نقول ان منهج الاستبطان لا يسمح لنا بالتعميم فضلا على أن نتائجه محصورة فى دائرة الشخص البالغ المتمدن ولا يمكن تطبيقها على الحيوان أو الطفل أو الانسان البدائى .

أما المنهج الموضوعى فانه يحقق لنا أولا الشرط الأساسى لقيام المنهج التجريبى وهو التمييز بين شخص الملاحظ وموضوع الملاحظة ، ثم يسمح بالتعميم بالاعتماد على المقارنة والدراسة الاحصائية لعدد كبير من الحالات . ولكن مناهضيه يأخذون عليه نظرته الى سلوك الانسان كأنه شيء بين الأشياء المادية الأخرى ، وانه يجرد الانسان من الحرية ومن قوة الخلق والقدرة على المبادأة المطلقة ؛ وأخيرا ان تعليله لسلوك الانسان لا يسمح لنا أن نفهمه كما نفهم أنفسنا وأن الموضوعية فى تفسير السلوك الانسانى لا يمكن أن تكون تامة ، بل تمتزج فيها الذاتية من حيث لا نشعر اذ أن

فى نهاية الأمر شعورنا بفاعليته هو النموذج الأول الذى على صورته نفسر كل شيء فى الطبيعة ٠

وهنا تقع الأزمة فى نمو علم النفس ، فتراجع من جهة وتقدم من جهة أخرى ؛ اسراف فى الذاتية ثم رد فعل عنيف يؤدى الى اسراف فى الموضوعية ٠ واذا كان رأينا فى عملية التكامل ينطبق أيضا على نمو العلوم يجب علينا أن نبحث عما اذا كان علم النفس قد وصل الى التغلب على هذا التناقض الذى يعانيه ونجح فى أن يخطو خطوة جديدة الى الأمام تؤلف بين القديم والجديد فى صورة متكاملة أكثر ثراء وشمولا من الصورة السابقة ٠

نعتقد أن علم النفس فى سبيله الى الدخول فى دور التكامل بطريقة عملية مجدية بعد أن استشعر هذا الاتجاه الجديد منذ عشر سنوات ٠

وهناك عامل هام ساعد على حل الأزمة التى كان يعانيها علم النفس عندما كانت عشرات المدارس تتنازعه وهذا العامل هو تغيير الجو المعنوى الذى يحيط بالانسانية منذ حوالى ربع قرن وهو جو من القلق والخوف وعدم الطمأنينة وفقد الثقة فى مصير الانسانية وفى صحة عزمها على التغلب على عوامل الانتحار والتدمير الذاتى التى تفتعل فى جوانبها ؛ وبعبارة وجيزة هو شعور الانسان العصرى بأن الحياة مأساة وبأن هذه المأساة تتجدد فى كل لحظة وبأن الحاضر لا يمكن تفسيره كله فى ضوء الماضى وبأن فهمنا للحاضر لا يلبث أن ينبثق حتى تغمره من جديد سحابة من الغموض والقلق ٠

ومن الغريب أن الفيزياء الحديثة التى تحاول اماطة اللثام عن أسرار الذرة تعانى الأزمة نفسها التى يعانيها علم النفس كأن ظل الباحث يغير باستمرار الوقائع التى يشاهدها وكأن الباحث أسير ذاتيته الى حد ما مهما بذل من جهد للوصول الى الموضوعية المطلقة ٠

ومما لا شك فيه أن ما قلناه عن علم النفس ينطبق أيضا على علم التاريخ وعلم الاجتماع ؛ فهما أيضا أخذا يتساءلان : هل يمكن عد الحوادث التاريخية والظواهر الاجتماعية مجرد أشياء أم هى تنبض بالحرية والخلق ولابد من ضم القلب الى العقل ، أى من ضم الوجدان الى الفكر لكى يتسنى لنا الفهم العميق والمشاركة الصادقة !

يستخدم الاستبطان صيغة المتكلم ويستخدم المنهج الموضوعي صيغة الغائب وهما موقفان متعارضان ولكن لابد بحكم عملية النمو والتقدم أن يتمخض هذا التعارض عن منهج جديد يسمح بالخروج من حصن **الأنا** للالتقاء **بالأنت** لتكوين نواة **النحن** · وهذا **الأنت** فى امكانى أن أخاطبه وأن أتلقى منه الرد وأن أرى فيه صورتى قبل أن أسقط عليه ما أعرفه عن نفسى عن طريق الاستبطان حتى أنه يمكن القول بأن أحسن وسيلة لكى يعرف الانسان نفسه أن يحاول أولا معرفة الآخر · ولكن ليس الآخر شيئا بل هو شعور وفكر وحرية ·

ويبدو لى شعور الآخر كموضوع خارجى حال فى العالم الخارجى بواسطة الجسم ومجسم فى ظروف نشاطه المختلفة ، السوية منها والشاذة وعندما أشاهد مظاهر النشاط الخارجى فانى لا أقف عند الحركات الخارجية، بل أقصد من ورائها شعور الآخر وفكره وحريته ، أى شخصيته فى مميزاتها الخاصة التى تجعل من الشخصية حدثا لا مثيل له ·

وعلى ذلك فانى أسلم بادىء ذى بدء بوجود ضرب أصيل من الادراك ينصب مباشرة على الآخر من حيث هو شخص يمتاز بالفكر والحرية (١) ذلك هو المبدأ الذى يقوم عليه هذا النوع الجديد من الدراسات السيكولوجية المعروفة بعلم النفس فى صيغة المخاطب ·
. Psychologie en deuxième personne

هذا الموقف الجديد يعود بعلم النفس الى الفلسفة ولكنها فلسفة تختلف كل الاختلاف عن الفلسفة التى كانت تحتضن المنهج الاستبطانى · فهى ليست فلسفة مجردة غارقة فى معرفة كنه الماهيات ، بل فلسفة واقعية شاعرة بقيود الزمان والمكان ، تحاول فهم النشاط كما يحياه الشخص فى بيئته وفى كل لحظة راهنة · وتعرف هذه الفلسفة الجديدة بالفينومينولوجيا Phénoménolgie أى علم الظواهر ولكن لا وجود مطلقا لحقائق أخرى خلف هذه الظواهر بل الحقائق الوحيدة هى الظواهر عينها كما أدركها ·

ولكن ليست الفينومينولوجيا مذهبا موحدا بل هناك تيارات مختلفة

---

(١) ليس المقصود هنا المنهج الاسقاطى الذى به أحكم على طبيعة الحالة الشعورية التى يعانيها الآخر بالاستناد الى خبرتى الذاتية وذلك عن طريق المماثلة أو المشاركة الوجدانية ·

متعارضة أهمها الفينومينولوجيا التي تبحث في الماهيات وهي ضرب من علم النفس يتخـذ صيغة المتـكلم ، الفينومينولوجيا تبحث في الوجود ومنها تفرع علم النفس الوجودي الذي يستخدم صيغة المخاطب ، ويعتمد علم النفس الوجودي على الوصف دون التعليل للوصول الى فهم الآخرين وأول ممثل لهذه المدرسة الجـديدة هو الطبيب الفيلسوف الألماني كارل ياسبرس Karl Jaspers الذي عرض نظريته في كتابه : « علم النفس المرضي العام » Psychopathologie Générale (١) .

هل يمكن القول بأن علم النفس الوجودي يحل الاشكال الناتج عن تعارض المنهج الذاتي والمنهج الموضوعي وأنه يحقق التأليف بين المنهجين في صورة جديدة بأنه يعيد الى الأنا فاعليته في فهم الآخر ويحول الآخر الى نموذج تنبعث من خلاله صورة الأنا حتى يزداد الأنا فهما لنفسه بعد أن فهم غيره ؟

قد يكون الأمر كذلك ولكن علم النفس الوجودي يقف عنـد حد الوصف دون التعليل خوفا من أن يحول التعليل الانسان الى شيء جامد .. غير أن العلم — وفي ذلك فهو مدفوع بطبيعة العقل — يرمي دائما الى كشف القوانين والربط بين الوظائف حتى يكمل التفسير الذي بدونه لا يمكن الانتقال من النظرية الى التطبيق .

يبدو اذن أن الأشكال ، على الرغم من الدراسات الخصبة المبتكرة التي تقدمها لنا المدرسة الوجودية ، لا يزال قائما وعلينا أن نبحث عن حل أعمق وأشمل .

اننا لم نذكر بعد التحليل النفسي ولنا أن نتساءل ما هو موقفه من هـذه السيكولوجيات الثلاث ؟ هل تصـاغ نتائجه في صيغة المتكلم أم

---

(١) نشرت الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب سنة ١٩٣٣ عند (Alcan) في باريس عن الطبعة الألمانية الثانية الصـادرة في عام ١٩١٩ . وللوقوف على صـلة علم النفس بالفينومينولوجيا راجع الكتب الآتية :

P. Foulquié et G. G. Deledalle : La Psychologie Contemporaine, P.U.F., Paris, 1951.

من ص ٢٥١ الى ٣١١ .

S. Daval et B. Guillemain : Psychologie, Tome I, P.U.F., Pàris, 1951.

من ص ٢٩ الى ٥١

S. Daval et B. Guillemain : Philosophie des Sciences, P.U.F., Paris, 1950.

من ص ٤٧٥ الى ٤٨١

الغائب أم المخاطب ؟ ليس من السهل الاجابة مباشرة على هذا السؤال اذ أن التحليل النفسي بدأ منذ أن نشر فرويد وبروير دراستهما في الهستيريا عام ١٨٩٥ ، ثم نما وتطور وتشعب خلال نصف قرن وكأنه لا يزال بعد في طور التكوين يزداد حيوية وتدعيما مع تقدم البحوث في جميع ميادين علم النفس من ذاتية وموضوعية ووجودية ٠

لا شك في أن التحليل النفسي لا يدخل في نطاق سيكولوجية المتكلم لأن الموقف التحليلي يضم دائما اثنين : المريض والمحلل ٠ ولكن ألا يقوم الاستبطان بدور هام في أثناء التحليل ؟

هل هو سيكولوجيا في صيغة المخاطب ؟ يبدو لأول وهلة لأن على المحلل أن يفهم المريض بطرق كثيرا ما تكون خفية كأن يكون هناك تخاطب وهمس بين لا شعور المحلل ولا شعور المريض ٠ ثم يجب أن نذكر اهتمام المحللين بظاهرة القلق والحصر ودراستهم العميقة لظاهرة الصراع النفسي ٠ ولكن التحليل النفسي لا يقف كالمدرسة الوجودية عند حد الوصف بل يحاول التحليل العميق ويطـالب باسم العلم بتطبيق مبـدأ الحتمية على الظواهر النفسية ٠

هل هو اذن سيكولوجيا في صيغة الغائب ؟ هذا ما يؤكده المحلل النفسي الفرنسي لاجاش Lagache ، أستاذ علم النفس بجامعة باريس ، فهو يقول ان المحلل النفسي في نهاية الأمر يتخذ موقف الملاحظ الخارجي الذي يشاهد سلوك المريض مشاهدة موضوعية معتمدا على دلائل السلوك الخارجية من لغة وصمت وانفعال وتحويل وسائر الاستجابات التي تصدر عن المريض في مختلف المواقف التي يقفها من نفسه ومن الآخرين (١) ٠

سنجيب عن هذه الأسئلة في المقال القادم وسنحاول أن نبين الى أى حد يمكن عد منهج التحليل النفسي منهجا تكامليا ٠

---

(١) Daniel Lagache : De la Psychoanalyse à l'Analyse de la Conduite, Revue Française de Psychanalyse, Janvier-Mars 1949, pp. 97-118.

منهج التحليل النفسى وطبيعته التكاملية (*)

قصدنا فى المقال السابق (١) الى تحديد موقف التحليل النفسى من المناهج الثلاثة التى تتقاسم دراسة عقل الانسان وسلوكه : المنهج الذاتى، المنهج التمثيلى ، المنهج الموضوعى ، نريد أن نعلم :

أولا ــ الدور الذى يؤديه الاستبطان فى أثناء التحليل وحدود هـذا الدور .

ثانيا ــ الى أى حد يجوز للمحلل أن يطبق ما يعرفه عن نفسه على المريض الذى يعالجه ، أو بعبارة أخرى مدى التمثيل بين المحلل والمريض .

ثالثا ــ هل يمكن أن يتحول المريض الى شيء خارجى يلاحظه المحلل ويفسره كما يلاحظ ويفسر أية ظاهرة طبيعية أخرى بغض النظر عن أوجه التشابه القائمة بينهما ؟

للرد على هذه الأسئلة ، يجب :

أولا ــ أن نقدم تعريفا وافيا للتحليل النفسى مع مراعاة ما أصاب هذا العلم من تطور بحيث لا نهمل أى جانب مهم من جوانبه المتعددة .

ثانيا ــ أن نبين الى أى مدى وفق التحليل النفسى فى تحقيق التكامل بين المناهج السيكولوجية الثلاثة التى سبق وصفها وبالتالى أن نبين أثر التحليل النفسى فى توحيد علم النفس .

هذا مع العلم بأننا سنحرص على أن نشير كلما اقتضاه المقام الى أثر معنى التكامل فى منهج التحليل النفسى ونظرياته أو بعبارة أدق الى الدور الذى تقوم به الوظيفة التكاملية فى تصور المحللين للحياة النفسية والسلوك الانســـانى .

(*) مجلة « علم النفس » . يونيو ١٩٥٢ .

(١) انظر مجلة علم النفس . عدد فبراير ــ مايو ١٩٥٢ ــ ص ٣٠١ ــ ٣١٠ .

تعريف التحليل النفسي و تطوره :

يعد فرويد فى نظر بعضهم المؤسس الحقيقى للسيكولوجيا العلمية وأن أثره فى تنظيم علم النفس لا يقل عن أثر نيوتن Newton فى تنظيم علم الطبيعة . ثم ان الانقلاب الذى أحدثه فى تعليل الطبيعة البشرية يشبه تماما ما أدت اليه نظرية كوبرنك Copernic فيما يختص بمركز الأرض فى الكون . فكما أن كوبرنك جرد الكرة الأرضية من صفة المركزية وجعلها بمثابة ذرة فى مقابل سائر الأنظمة الفلكية ، كذلك أدت آراء فرويد الى تجريد الشعور من مركزيته والنظر اليه كأحد الأنظمة التى تكون العقل البشرى فى صلته مع العالم الخارجى . فهنـاك عالم من القوى اللاعقلية يحيط بالعقل من كل جانب وأصبح ما هو عقلى بحت فى شعور الشخص عاجزا عن تفسير التفكير والسلوك .

واذا اعتبرنا فرويد مؤسس السيكولوجيا العلمية حقا فلابد أن يتفق التحليل النفسى وعلم النفس فى تعريف واحـــد . واذا سلمنا بانه تم الاتفـاق على تعريف علم النفس بأنه علم الانســان من حيث اندماجه فى محيطه الخارجى ، أى أنه علم سلوك الانسان ازاء مجموعة الدلالات التى تحيط به فيصبح هذا التعريف بعينه هو تعريف التحليل النفسى .

ولكن يبدو أن الواقع لا يؤيد استدلالنا هذا . فهنالك تيارات متعددة لا تزال تتنازع مدارس علم النفس المختلفة ، وان كان هذا النزاع قد خفت حدته منذ حوالى ربع قرن . فان البحوث التى تصدر عن معامل علم النفس لا تقل أهمية عن البحوث التى ينشرها أصحاب التحليل النفسى مستمدين معلوماتهم من جلسات التحليل ، لا من معامل تجرى فيها الأبحاث وفقـا لمنهج تجريبى معين . غير أنه من واجبنا أن نبـادر الى القول بأن بعض حقـائق التحليل النفسى أخـــذت تصـــبغ الدراسات التجريبية بصبغتها الخاصة ، كما أن بعض أنصار علم النفس التجريبى أخذوا يتحققون من قيمة بعض التفســيرات التحليلية بالوسائل التجريبية التى يقــدمها المعمل (١) . ثم ان هناك المحاولات التى يقوم بها المحللون فى سويسرا

---

(١) راجع فى الكتاب الذى نشر باشراف J. Mc V. Hunt وعنوانه :
Personality and the Behavior Disorders.
الفصل التاسع Robert R. Sears : Experimental Analysis of Psychoanalytic Phenomena.
والفصل الرابع عشر : Neal E. Miller : Experimental Studies of Conflict.

لاستخدام آراء بياجيه Piaget فى سيكولوجية الطفل وتقريبها من نظريات التحليل النفسى (١) ·

نعتقد أنه من العبث أن نحاول الوصول الى حسم هذا النزاع ان لم ننظر اليه فى اطاره التاريخى · فالعلم بمثابة كائن حى يتطور متأثرا بما يحيط به من عوامل اجتماعية وحضارية وثقافية · فلابد اذن من أن نعالج موضوع التحليل النفسى وبالتالى تعريفه من الوجهة التاريخية · وهذا المنهج التطورى فى البحث يقتضى أولا وصف الجو العلمى والاجتماعى الذى نشأ فيه التحليل النفسى ، ثم تتبع تطوره داخل اطار التطور العام الذى تناول الحيـــاة الفكرية والاجتماعية منذ أواخر القرن التاسع عشر اذ أن تباشير النظريات التحليلية تعود فى ظاهرها الى عام ١٨٨٠ عندما كان بروير Breuer يطلع فرويد على سير العـــلاج لحالة هستيريا بوساطة التنويم · نقول فى ظاهرها لأننا نعتقد أن هناك عاملا هاما أهمله مؤرخو التحليل النفسى ولابد من ادخاله فى شبكة التفسيرات التى تتناول نشأة التحليل النفسى وتطوره ، وهذا العامل هو طفولة فرويد نفسه والتجارب التى عاناها فى محيطه العائلى والاجتمـاعى · ولكننا سنهمل الآن هـذا العامل الهام مكتفين بضـمه الى سائر العوامل التى كونت عبقرية منشىء التحليل النفسى · وحتى نعود الى معالجة هذا الموضوع فى مقال آخر حسبنا أن نذكر أن التحليل النفسى فى تفسيره الظواهر الانسانية يقيم وزنا كبيرا لتجارب الماضى وبصـفة عامة للعوامل اللاشـعورية · فالنظريات العلمية نفسها لا تخرج عن دائرة الظواهر الانسانية وتخضع بدورها لهذا المنهج فى التفسير · فكما أن الضروب السلوكية المختلفة التى نشاهدها فى حياة الأفراد تكون دائما متأثرة بعمليات الرمز والتبرير والتنظيم العقلى ، كذلك تكون النظرية العلمية ، وخاصة النظرية التى تنصب على سلوك الأفراد والجماعات ضربا من التعبير الرمزى أو محاولة للتبرير والتنظيم العقلى · ولكن ليس القصد من هذا القول أن النظريات التحليلية لا تصلح الا لتفسير شخصية فرويد ولا تنطبق الا عليها ، بل ان شخصية فرويد وما كانت

---

(١) راجع بهذا الصدد :

Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée Magique. Delachaux et Niestlé ; Neuchâtel, 1942.

———— : Les Deux Sources Consciente et Inconsciente de la Vie Morale, Editions de la Baconière, Neuchâtel, 1943.

Raymond de Saussure : Tendances Actuelles de la Psychanalyse. Travaux du Congrès International de Psychiatrie, Paris, 1950, Vol. V, pp. 138-160. Hermann et Cie., Editeurs, Paris, 1950.

تنطوى عليه من مواقف واتجاهات صبغت بالضرورة اتجاهه العلمى وموقفه من تفسير السلوك ٠

ان ما نذهب اليه هنا يقصر قيمة التفسيرات التحليلية على الأفراد الذين نشئوا فى اطارات اجتماعية مماثلة فى شكلها العام للاطارات الاجتماعية التى أحاطت بفرويد هذا فضلا على أوجه التشابه الأساسية التى توحد بين جميع أفراد الجنس البشرى٠وعلى ذلك يتوقف مدى الاختلاف فى التفسير على مدى الاختلاف فى البيئة ٠ ولكن حتى فى هذه الحالة يجب أن نذكر أن الاختلاف فى البيئة وما يترتب عليه من اختلاف فى السلوك يمكن استخدامه كتجربة عكسية (contre-épreuve) للتحقق من صحة نظريات التحليل النفسى (١) ٠

* * *

ولد فرويد فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٨٥٦ فى مدينة فريبرج وهى مدينة صغيرة فى مورافيا احدى المقاطعات النمساوية وقتئذ ٠ والتحق بكلية الطب فى فينا سنة ١٨٧٣ وحصل على شهادة الدكتوراه فى الطب سنة ١٨٨١ اى أنه قضى ثمانى سنوات يتنقل بين مختلف أقسام الكلية باحثا عما يرضى ميوله من ألوان الدراسة المختلفة ٠ وقد وجد ضالته فى معمل الفسيولوجيا حيث واصل دراسته التجريبية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢ مهتما خاصة بنشأة الجهاز العصبى وتطوره ٠

وكان الجو العلمى السائد فى أواخر القرن التاسع عشر جوا مادى النزعة متأثرا بالفلسفة الوضعية التى لا تسلم الا بالتفسير الكمى ٠ فموضوع العلم هو المادة الخاضعة للملاحظة الحسية والقياس الرياضى ، أما طبيعة العقل فهى من اختصاص قوم يسمون أنفسهم بالفلاسفة ، قوم غارقين فى التخيلات الزائفة والتفسيرات اللفظية الجوفاء ٠ واذا تناول العلم دراسة الظواهر التى يقال عنها انها نفسية فانه لا ينظر اليها الا من حيث هى أثر من آثار الجهاز العصبى والأجهزة العضوية الأخرى ، ففى رأى علماء هذا الجيل يفرز الدماغ الفكر كما تفرز الكبد السكر ٠ وعلى ذلك ترجع كل اضطرابات التفكير والسلوك وكل الأمراض النفسية والعقلية

(١) يجدر بنا بهذا الصدد أن نشير الى بحوث الأنثروبولوجيين الذين تناولوا دراسة الشعوب البدائية أمثال مرجرت ميد ومالينفسكى وجيزا روهيم واركسون الخ ٠٠ انظر خاصة الكتاب الآتى الذى يضم مجموعة كبيرة من البحوث لعدة مؤلفين باشراف كلوكهورن وموری :

C. Kluckhorn and H.A. Murray : Personality, in nature, society and culture. Alfred Knopf. New York, 1949, p. 561.

الى اضطراب فى الوظائف العضوية ، فالنورستانيا مثلا نتيجة ورم فى الدماغ والهستيريا مرض ناشيء عن اصابة عضوية فى الجهاز العصبى وما الى ذلك من التفسيرات العضوية البحتة . وكانت الوراثة المرضية الحل اليسير لتفسير ما كان يعجز التشريح أو الفسيولوجيا عن تفسيره .

نشأ فرويد فى مثل هذا الجو واكتسب الاتجـاه السائد فى عصره ومما قوى هذا الاتجاه ودعمه تدربه لسنوات طويلة فى معامل الفسيولوجيا والتشريح . ولما بدأ يباشر مهنته كطبيب للأمراض العصبية كان سلاحه الوحيد العلاج بالتيار الكهربائى ! ولم يلبث طويلا حتى صدم بعقم هذا الضرب من العلاج وجدبه حتى أنه صرح فيما بعـد أنه عندما كان طبيبا للأمراض العصبية لم يكن يفقه شيئا فى الأمراض النفسية .

غير أن اعتقاده فى المنشأ الفسيولوجى للأمراض النفسية ظل راسخا فيه طوال حياته فقد صرح فى مطلع حياته العلمية أن علة الأمراض النفسية كامنة فى الأمور البيولوجية وأن العلم سيصـل فى المستقبل الى الكشف عن الوسـائل الكيميائية للتحكم فى عوامل الأمراض النفسية (١) . وقد مرت السنوات جالبة معها الكشوفات الهامة فى دراسة افرازات الغدد الصماء وأشار فرويد فى محاضراته الجديدة فى التحليل النفسى (٢) التى نشرت عـام ١٩٣٢ الى الأمل فى اسـتخدام الهرمونات فى تغيير العوامل الكمية للمرض ، ولكنه يسرع فيقرر أن هذا اليوم لم يأت بعد (٣) . ويعود فيكرر هذا القول فى آخر كتاب له هو « ملخص التحليل النفسى » الذى بدأه عام ١٩٣٨ غير أن الموت لم يمهله فتركه ناقصـا (٤) .

---

(١) لا يوجد تعارض جوهرى بين هذا الرأى وبين الموقف السيكولوجى البحت الذى وقفه فرويد فيما بعد ، اذ أن العوامل النفسية والجسمية فى الانسان معلولة لبعضهـا بعضا أى أنها خاضعة للتفسير بالعلية المتبادلة causalité réciproque وسواء بدأنا من الفسيولوجيا أو من السيكولوجيا فلابد من الوصول الى الانسان كوحدة متكاملة .

(٢) ص ١٩٨ و ١٩٩ من S. Freud : New Introductory Lectures on Psycho-analysis. Hogarth Press-London, 3rd ed., 1946.

(٣) يبدو أن البحوث الخاصة بهرمون الكورتزون ، وهو أحد الهرمونات التى تفرزها قشرة الغدة الموجودة فوق الكلية ، والتى قام بها العالم الكندى سلى Selye ستسمح فى المستقبل القريب بالتحكم فى عوامل الأمراض النفسية والأمراض السيكوسوماتية التى يعدها سلى من امراض التكيف . راجع :
A.-J. Monsallut : Maladies de l'adaptation et médecine psycho-somatique. Revue Française de Psychanalyse, Avril-Juin 1951, pp. 261-271.

(٤) ص ٥١ من كتاب : S .Freud : Abrégé de Psychanalyse. Presses Universitaires de France. Paris, 1948, p. 85.

في مثل هذا الجو المشبع بالتحيز البيولوجي أخذ فرويد يشق طريقه للوصول الى فهم المرض النفسي . ترى هل سيرتمي في أحضان الفلسفة أم يوجه نظره نحو الواقع الحي الذي كان يستثير انتباهه في محادثاته مع بروير أو في أثناء الدروس الاكلينيكية التي كان يتلقاها في مستشفى السلبترير عام ١٨٨٥ في باريس مصغيا الى شاركو Charcot وهو يصف أعراض الهستيريا ، أو في أثناء اقامته القصيرة عام ١٨٨٩ في مدينة نانسي في فرنسا حيث كان برنهايم Bernheim يشرح تجريبيا مظاهر التنويم وما تنطوي عليه من دلالات سيكولوجية ؟

الواقع أن فرويد لم يقرأ كثيرا من مؤلفات الفلسفة ، بل كان يعيش في حالة وصفها بعضهم بأنها حالة « همجية فلسفية » (١) بل أخذ ينصت الى الطبيعة ويتأمل فيما يقع تحت ملاحظته من حالات مرضية مختلفة . ووجد نفسه في آخر الأمر منساقا رغم أنفه الى أن يسكت تحيزه البيولوجي وأن يقاوم ما أكسبه تدربه في التشريح والتجارب الفسيولوجية من نزعة الى التفسير المادي الكمي وأن يسلم بنوعية الظاهرة النفسية كفرض علمي تأكد أنه أصلح الفروض لفهم ظواهر المرض النفسي . وعندما أخذ يعرض النتائج التي استمدها من ملاحظة الواقع لم يصطنع لنفسه لغة جديدة بل استعمل المصطلحات الشائعة في علم النفس ، متيقنا أنه لابد من تفسير الظواهر النفسية بوساطة مفاهيم وأساليب سيكولوجية محضة .

فلنستمع اليه وهو يتحدث الى جمع من الأطباء أثناء المحاضرات التي

---

(١) في كتابه عن قصة حياته وقصة التحليل النفسي يشير فرويد الى موقفه من الفلسفة عند تحدثه عن الكتب التي نشرها بعد عام ١٩٢٠ والتي طبق فيها نظريته الجديدة في تقابل غريزتي الحياة والموت على دراسة الدين والحضارة . فهو يقول : « لا أريد أن أوحي الى القارىء أنني في هذه المرحلة الأخيرة من عملي تركت سبيل الملاحظة المتانية الدءوبة واستسلمت كلية للنظر . بل على العكس من ذلك لم أقطع ابدا صلتي بالحقائق التحليلية ولم أنفك أبحث في تفاصيل ذات أهمية اكلينيكية ومنهجية . وحتى عندما ابتعدت عن الملاحظة فانني تجنبت بكل حرص أي اتصال بالفلسفة ذاتها . ومما يسر لي كثيرا هذا التجنب قصوري الطبيعي الفطري .. » ثم يصرح بانه لا يدين لشوبنهور ولنيتشه بأية فكرة على الرغم من وجود بعض التشابه بين تعاليمهما وتعاليم التحليل النفسي . ص ١٠٩ ، ١١٠ من
An Autobiographical Study. The Hogarth Press, London, 1935.
ولكن لاشك في أن فرويد في كتبه الأخيرة يسلك سبيل الفلسفة غير أنه يؤثر نسبتها الى ما يسميه بالميتاسيكولوجيا Métapsychologie :

ألقاها في شتاء ١٩١٥ والمنشورة في كتابه «مدخل الى التحليل النفسي» .
« يريد التحليل النفسي أن يقدم للطب العقلي الأساس السيكولوجي الذي يعوزه ، فهو يأمل الكشف عن المجال المشترك الذي يمكننا من أن نفهم صلة الاضطراب الجسمي بالاضطراب النفسي . وللوصول الى هذا الهدف يلزم التحليل النفسي أن ينحي كل فرض تشريحي أو كيميائي أو فسيولوجي وألا يعمل الا باعتماد على معان سيكولوجية بحتة » (١) .

غير أن فرويد لم يفقد شيئا من الصفات التي كانت تميزه كعالم في التشريح أو في فسيولوجية الجهاز العصبي ، فقد ظل محتفظا بروحه العلمية ، روح الموضوعية والخضوع للواقع ، روح النقد وعدم التسرع في الحكم وفي صياغة النظريات ، روح الجلد والمثابرة وخاصة روح التواضع . فان المسائل التي يثيرها فرويد في كتاباته العديدة ويعترف بجهله بحلها لا تقل عددا عن المسائل التي يقرر فيها رأيه الايجابي . فقد ظل طول حياته أقل الفرويديين فرويدية ، وكان أول من أشار الى نقص العلاج بالتحليل النفسي وحدوده في بعض الحالات وعجز نظرياته عن تفسير الحياة النفسية في جميع مظاهرها (٢) . فقد جاهد طوال حياته ليحول دون اغلاق التحليل النفسي وتمذهبه . فيقول مثلا في حديثه عن نظرية أدلر : « ان نظرية أدلر كانت منذ البداية **مذهبا** وهذا ما كان التحليل النفسي حريصا على ألا يصبحه » (٣) .

هذا للرد على من يتهم فرويد بأنه صاغ نظريته من نسج الخيال ، ثم طبقها على الواقع مرغما الواقع على أن يدخل عنوة في اطار النظرية . التحليل النفسي هو وليد التجربة وبدأ كطريقة للعلاج قبل أن يكون نظرية لتفسير الظواهر النفسية والسلوك الانساني ، وهذا ما يلح عليه فرويد في عدة مواضع من مؤلفاته فيقول ان التحليل النفسي هو في جوهره طريقة لعلاج الأمراض النفسية ، وما دمنا لا نملك بعد وسيلة علاجية

---

(١) ص ٣٢ ، ٣٣ من كتاب :
S. Freud : Introduction à la Psychanalyse, Payot, Paris, 1932.

(٢) انظر ص ١٢١ و ١٩٦ و ١٩٧ من كتاب :
S. Freud : New Introductory Lectures on Psycho-analysis.
وص ٢٧ والفصل السادس من كتاب : S. Freud : Abrégé de Psy chanalyse.

(٣) ص ٣٤٠ من كتاب
S. Freud : On the History of the Psycho-analytic Movement (1914) in Collected Papers, Vol. I.

أخرى فعلينا أن نعمل على تقدم هذه الطريقة . وفي المقدمة التي كتبها لكتاب صديقه تيوردور ريك Th. Reik الطقوس يحدثنا فرويد عن نشأة التحليل النفسي فيقول : « ان التحليل النفسي وليد الضرورة الطبية ، فهو يرجع الى الحاجة الى اسعاف ضحايا الأمراض العصبية الذين لا يمكن أن يسعفهم العلاج بالراحة أو الحمامات أو الكهرباء » (١) .

غير أن فرويد لا يعني أن التحليل النفسي نشأ في كنف الطب أو كفرع من الطب ، وحسبنا أن نذكر المقاومات العنيفة التي عاناها التحليل النفسي الناشيء في الأوساط الطبية . أما اذا كان هناك علم يحق للتحليل النفسي أن ينتمي اليه فهو بلا أدنى شك علم النفس . وفي المناقشات التي دارت حول موضوع « هل يحق لغير الطبيب أن يكون محللا نفسيا » أبرز فرويد العقبات التي تحول دون الطبيب ودون فهمه للظواهر العقلية على حقيقتها . فهو يقرر في عام ١٩٢٧ : « ليس التحليل النفسي فرعا من فروع التخصص في الطب ، ولا أدري كيف يمكن الاعتراض على ذلك . ان التحليل النفسي يدخل في دائرة علم النفس ، لا علم النفس الطبي بمعناه القديم أو علم النفس الذي يتناول العمليات المرضية ، بل مجرد علم النفس . ويجب ألا يضللنا امكان تطبيق التحليل النفسي لأغراض طبية ، فلعلم الكهرباء وعلم الأشعة تطبيقات طبية أيضا غير أن العلم الذي ينتميان اليه ليس سوى علم الطبيعة »(٢) .

فالتحليل النفسي باعتراف منشئه من صميم علم النفس . واذا كان الأمر كذلك فكيف حق لنا أن نقرر أن التحليل النفسي بدأ كطريقة للعلاج قبل أن يكون نظرية لتفسير الظواهر النفسية والسلوك الانساني . لم نقصد من كلامنا هذا سوى أن الواقع ـ لا مجرد النظر ـ هو الذي أنبت التحليل النفسي وأنماه ، ثم كان لابد من أن يتناول عقل الباحث هذه الوقائع الصماء لتفسيرها وتنظيمها بوساطة قوانين علمية . ولم يكن موقف

---

(١) ص ٩٢ من كتاب
S. Freud : Psycho-analtsis and religious origins. Collected Papers, Vol. V.
أنظر أيضا ص ١١ من كتاب :
Th. Reik : The inner experience of a psycho-analyst, p. 514, Allen and Unwin Ltd.
ونشر هذا الكتاب بالولايات المتحدة بعنوان :
Listening with the third ear. London 1949.

(٢) ص ٢٠٧ من كتاب
S. Freud : Postscript to a discussion on Lay Analysis. Collected Papers, Vol. V.

فرويد منذ اللحظة الأولى سوى موقف العالم الذى يؤمن بأن جميع الظواهر الطبيعية خاضعة للتفسير العقلى ، فأعراض الأمراض النفسية والعقلية لا تخرج عن دائرة الظواهر الطبيعية ، فلها عللها وأسبابها فى طبيعة الانسان وكيفية توزيع قواه ودوافعه وفيما يحيط به من ظروف وعوامل . هى ليست مجرد أوهام أو تخيلات عديمة الدلالة ، بل هى تعبير عن صميم شخصية المريض وان كان هذا التعبير فى معظم الأحيان تعبيرا رمزيا يتطلب جهدا كبيرا لتفسيره .

غير أن مضمون الشعور وحده لا يكفى لتفسير العرض المرضى . وكذلك الموقف الخارجى . فهناك اذن عامل آخر غير الموقف الخارجى ، عامل آخر غير ما يقدمه الشعور مهما أسرفنا فى تحليل مضمونه كما يبدو للشخص الشاعر . هو اذن عامل وغير مشعور به وان كانت آثاره مشعورا بها دون تشخيصها كآثار لأمر مجهول . ولكن ما طبيعة هذا الأمر المجهول، هل هو فسيولوجى ؟ قد يكون كذلك على سبيل الفرض العلمى ولكن ما فائدة الفرض اذا عدم العالم وسائل تحقيقه . والواقع أن العالم لايزال عاجزا عن التحقق من صحة هذا الفرض الفسيولوجى (١) . ولماذا لا يكون هذا الأمر المجهول من طبيعة نفسية على الرغم من كونه لا شعوريا ، وفى هذا الفرض الثانى يتوفر شرط امكان التحقق من صحته ، ما دامت الظواهر التى نريد بحثها تصطبغ بالضرورة بصبغة شعورية .

ثم كيف نعلل هذه الظاهرة العجيبة ، ظاهرة النسيان والتذكر ، وهنا يستعيد فرويد ذكرى ما شاهده من تجارب برنهايم فى التنويم وما قصه عليه بروير من أطوار علاج مريضته الأولى وما يحدثه تذكر بعض التجارب المؤلمة المنسية من أثر فى أزالة الأعراض ومن تطهير للنفس Catharsis

ثم هناك ظاهرة عجيبة أخرى أثارت دهشة الانسان منذ القدم وهى ظاهرة الحلم وما أشد أوجه الشبه بين المرض النفسى وبين الأحلام . غير أنه كان ينظر الى الأحلام كأنها وأعراض المرض النفسى مجرد أوهام مفككة

---

(١) ان فى كيفية طرح هذا السؤال شيئا من الافتعال ، غير أننا نتحدث هنا بأسلوب أواخر القرن التاسع عشر . ولا يزال بعضهم يصطنع هذا الأسلوب . أما فى المنهج التكاملى الذى ندعو اليه منذ أكثر من عشر سنوات فاننا ننظر الى الواقع الانسانى كوحدة متكاملة من العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية واذا ذكرنا هذه العوامل على حدة فانه على سبيل التمييز لا الفصل .

عديمة الدلالة . وهذا ما رفض فرويد التسليم به . حقا ان صور الأحلام أقرب الى الشذوذ منها الى السواء ، غير أن الحلم نشاط شاذ لشخص سوى (١) . ومنذ هذه اللحظة وضع فرويد الأساس السيكولوجي لتفسير سلوك الانسان في مختلف مظاهره السوية والشاذة . فقد سد الفراغ الذى كان قائما بين الطب العقلى وعلم النفس ووحد بين السوى والشاذ معتبرا الاختلاف بينهما اختلافا فى الدرجة لا فى طبيعة كل منهما . فالقانون الذى يفسر المظهر السوى هو بعينه القانون الذى يفسر المظهر الشاذ والتفسير فى الحالتين تفسير سيكولوجى بحت (٢) .

غير أن اقامة علم النفس كعلم مستقل لا تعنى فصله عن سائر العلوم التى تتناول نشاط الأفراد والجماعات . والدليل على ذلك ما أشار اليه فرويد من العلوم التى يجب على المحلل النفسى دراستها لكى يصبح حاذقا فى فهم السلوك الانسانى . فهو يقول ان برنامج تدريب المحلل « يجب أن يتضمن عناصر من العلوم العقلية ، من علم النفس ، من تاريخ الحضارة من الاجتماع وكذلك عناصر من علم التشريح والبيولوجيا ودراسة التطور (٣) .

يستخلص مما سبق أن موضوع التحليل النفسى فى طوره الأول كان الكشف عن اللاشعور ، عن هذه القارة المجهولة التى تحوى الجذور العميقة للسلوك الانسانى ولكن مجرد معرفة أن العرض المرضى يرجع الى تجارب مؤلمة منسية أو الى انفعالات مكبوتة لا يكفى لتفسير نشأة المرض . فلابد أن تكون له علة ترجع الى ظروف النشأة الأولى والى تفاعل القوى النفسية بالمواقف الخارجية والمثيرات الصادرة عن الأفراد الذين يحيطون بالطفل ويتناولون تنشئته وكثيرا ما يتخذ هذا التفاعل صورة الصراع (٤) .

---

(١) ص ٩٣ من كتاب : S. Freud : Collected Papers, Vol. V.

(٢) يضاف الى دراسة التنويم والأعراض الهستيرية والأحلام دراسة فلتات اللسان وفقدان الأشياء ونسيان بعض الأسماء وسائر الأفعال الطائشة التى تبدو عديمة الدلالة فى حين أنها تنطوى على دلالات لاشعورية كما فى الأحلام تماما .

(٣) ص ٢٠٦ من كتاب : S. Freud : Collected Papers, Vol. V.

(٤) يعيب بعضهم على فرويد أنه أغفل أثر الجبلة constitution والعوامل الفطرية فى تفسير نشأة المرض النفسى فى حين أنه اكتفى بابراز أهمية تجارب الطفولة . الواقع أن هذا النقد لا يصيب موقف فرويد وقد رد عليه ردا حاسما فى مقال نشره عام ١٩١٢ عن ديناميكيات التحويل ،
The dynamics of the transference, Collected Papers, Vol. II. p. 312.
واضعا مشكلة « الوراثة والبيئة » فى وضعها الصحيح ولا يتسع المقام لنقل هذا النص الهام الذى ورد فى هامش ص ٣١٢ و ٣١٣ .

وعلى ذلك نظر فرويد الى اللاشعور وما يحتويه من دوافع نظرة ديناميكية ، فليس المرض نتيجة هبوط في مستوى الطاقة كما عند بيير جانيه Pierre Janet ، بل نتيجة صراع بين قوتين أى مجموعتين متضادتين من الدوافع ويؤدى هذا الصراع الى تعطيل النشاط المنتج والاحالة دون مواصلة النمو الوجداني ونمو وسائل التكيف نحو النضج والتوازن ، كأن القوى الفعالة تتشتت وتتبدد في أنماط نكوصية من السلوك .

وبعد الكشف عن اللاشعور الديناميكي كانت الخطوة التالية تنمية الوسائل الصالحة لدارسي العمليات اللاشعورية وكان اعتماد فرويد في هذه المرحلة ـ بعد أن استبعد التنويم واصطنع طريقة تداعي التصورات الذهنية غير المقيد أى طريقة التداعي الحر ـ على تفسير الأحلام التي يعدها الطريق الرئيسي المؤدي الى اللاشعور ولم يلبث فرويدطويلا حتى أدرك أن لغة الأحلام هي غير لغة الواقع والفكر المنطقي بل هي لغة الفكر السحري الذي يلبس قناع الرموز . وقد أدى تحليل الأحلام الى الكشف عن أهم العمليات اللاشعورية نذكر منها الكبت والابدال والاسقاط والتقمص والتبرير والاعلاء والايذاء الذاتي .

ولنبحث الآن في طبيعة القوى اللاشعورية المؤدية الى هذه العمليات. في بادىء الأمر افترض فرويد وجود غريزتين ، غريزة حفظ البقاء الذاتي والغريزة الجنسية . ثم أدى هذا التمييز بين غرائز الأنا وبين الطاقة الجنسية Libido الى عدة تناقضات في تفسير بعض مظاهر السلوك (١) . فاضطر فرويد تحت ضغط الحقائق الاكلينيكية وظروف الحرب العالمية الأولى (٢) الى تعديل نظريته عام ١٩٢٠ ، فاستبدل بالتقابل بين غريزتي الأنا والجنس تقابلا جديدا بين غريزتي الحياة والموت . وفي هذه المرحلة الجديدة تحول اهتمام التحليل النفسي من دراسة مظاهر الدافع الجنسي الى مظاهر الدافع العدواني ، ومن دراسة المضمون النفسي المكبوت الى دراسة

---

(١) تفصيلا لذلك يمكن الرجوع الى كتاب فرانز الكسندر : « أسس التحليل النفسي » ص ٦١ ومابعدها .

Franz Alexander: Fundamentals of Psycho-analysis. Allen & Unwin, London, 1949. Pp. 312.

وكذلك المحاضرة التي القاها في المؤتمر الدولي للطب العقلي في باريس ١٩٥٠ . الجزء الخامس من أعمال المؤتمر ، ص ٨ .

(٢) وربما أيضا تحت تأثير اقتراب الشيخوخة والصدمة التي أصابته بوفاة ابنته صوفي . انظر ص ٢١٧ من كتاب :

H.W. Puner: Freud, his life and his mind. The Grey Walls Press. London, 1949. Pp. 264.

الأنا الشعورى وموقفه من عالم الغرائز اللاشخصية من جهة ، ومن الأنا الأعلى من جهة أخرى (١) •

وقد ساهمت أنا فرويد Anna Freud في توضيح آراء والدها في وظائف الأنا في كتابها « الأنا وعمليات الدفاع » وسنقتبس من أنا فرويد التعريف الذى ينطبق على هذه المرحلة الثالثة من تطور التحليل النفسى • ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا التعريف الجديد توحى به الخبرة العلاجية نفسها ، فاذا كان التحليل النفسى يبدو من الوجهة النظرية كأنه دراسة لمجاهل اللاشعور وأعماقه فهو لا يغفل أبدا في محاولاته العلاجية أهمية الأنا • فموضوع العلاج هو الأنا وغرضه ابراء الأنا من اضطراباته واعادة التكامل اليه •

تقول أنا فرويد : « ان مهمة التحليل في الوقت الحاضر منصب على ما يلى : الوصول الى أعمق معرفة ممكنة للمنظمات الثلاث التى اعتقد أنها تكون في مجموعها الشخصية السيكولوجية ودراسة العلاقات المتبادلة بين بعضها بعضا وبينها وبين العالم الخارجى ؛ أى فيما يختص بالأنا Ego الكشف عن محتوياته وحدوده ووظائفه ، ثم وصف التأثيرات الصادرة من العالم الخارجى ومن الهو Id ومن الأنا الأعلى Super Ego والتى أدت الى تكوينه • أما فيما يختص بالهو Id فعلينا أن نقف على ما يتضمنه من غرائز وأن نتتبع كل التغيرات التى تعترى هذه الغرائز (٢) » •

وقد طبقت أنا فرويد بنجاح كبير هذه النظرة التكاملية الى مختلف العوامل التى تتفاعل فى أثناء تكوين الشخصية فى دراساتها للأطفال فى وضع أسس تحليل الأطفال ، وفى المؤتمر الدولى للطب العقلى المنعقد بباريس سنة ١٩٥٠ أبرزت أنا فرويد فى محاضرتها أهمية تطور علم النفس التحليلى للأطفال (٣) •

---

(١) من كتب فرويد التى تعين على فهم التطور الجديد نذكر :
Group Psychology and the analysis of the Ego — Beyond the pleasure principle— The Ego and the Id.

(٢) ص ٤ من كتاب
Anna Freud: Le moi et les mécanismes de défense. Presses Universitaires de France. Paris, 1949, Pp. 169.

(٣)
Anna Freud: The significance of the evolution of psycho-analytic child psychology. Congrès Int. Psychiatric, Paris 1950. Vol. 5, p. 28. Herman and Cie, Paris, 1950.

ولنعد الآن الى تعريف علم النفس كما وضعناه في مطلع هذه المقالة . فقد قلنا ان علم النفس هو علم الانسان من حيث اندماجه في محيطه الخارجي أو أنه علم سلوك الانسان ازاء مجموعة الدلالات التي تحيط به . ولا يوجد فرق كبير بين تعريفنا هذا وبين الصورة التي اتخذها التحليل النفسي في طوره الأخير . وسيزداد هذا وضوحا اذا تأملنا في الحركة العلمية الاخيرة التي نشأت في أمريكا باسم الطب السيكوسوماتي (١) والتي حطمت الاطار الضيق الذي كان يعيش فيه الطب . ويتلخص هذا الاتجاه الجديد في أن هنـــاك بعض الأمراض العضوية مثل الربو وقرحة المعدة وقرحة الأمعاء الدقيقة وبعض حالات ضغط الدم المرتفع والأمراض الجلدية ترجع في نشأتها الى عوامل نفسية مكبوتة (٢) ، وبالتالي تخضع في علاجها لأساليب التحليل النفسي .

وقد اتضح من تحليل الحالات السيكوسوماتية أن عوامل الاعتماد على الآخرين والتابعية لهم والتعطش الى عطفهم تؤدي دورا هاما في نشأة هذه الحالات .

ونتيجة لهذا الكشف الجديد ركز المحللون انتباههم في هذه العوامل وأثرها في اطالة مدة العلاج بالتحليل وفي ضرورة البحث عن سائل فعالة لانهاء العلاج بخروج المحلل عن موقفه المحايد وتوجيه الارشادات الى العليل لكي يتعلم من جديد أساليب التكيف الناجح والاعتماد على النفس ، وهذا الاتجاه الجديد في العلاج تمثله مدرسة شيكاغو باشراف فرانز ألكسندر

غير أن ما يهمنا الآن من حركة الطب السيكوسوماتي أنها تتناول الانسان في بيئته الاجتماعية كوحدة متضامنة الأجزاء تسعى الى تحقيق التكيف والتوازن . وقد اعترض الدكتور دانييل لاجاش D. Lagache على لفظ سيكوسوماتي أي نفسي جسمي ، اذ أنه يبدو أن هذه التسمية لا تزال تدل على التقابل بين النفس والجسم في حين أن الروح السائدة الآن في التحليل النفسي هي روح تكاملية (تنظر منـذ البداية الى التفاعلات المتبـادلة بين الكائن الحي وبيئته ، الى عمليـــات التـكامل بين العـوامل الفسـيولوجية والسلوك » (٣) .

---

(١) راجع مقالات مصطفى زيور في مجـلة علم النفس : يونيو ١٩٤٥ ـ أكتوبر ١٩٤٥ . يونيو ١٩٤٧ .

(٢) يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ـ ص ١٣٠ ـ ١٣٤ .

(٣) ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ من :

وأخيرا بالرجوع الى المراحل التى مر بها التحليل النفسى يتضح لنا أن موضوع التحليل النفسى كنظرية سيكولوجية هو دراسة تكوين الشخصية ونموها والكشف عن عوامل السلوك الديناميكية ، وأن هذه النظرية تحاول أن تكون شاملة فى نظرتها الى الانسان وهو يكافح مع نفسه ومع محيطه لتحقيق التكيف والوئام مع نفسه ومع الآخرين • وعلى الرغم من وجود ثلاثة تيارات يجذب كل منها التحليل النفسى نحوه وهى التيارات البيولوجية والسيكولوجية والحضارية ، فالمشاهد الآن هو محاولة اندماج هذه التيارات الثلاثة بعضها ببعض فى نظام تكاملى يعلو بروحه العامة فوق كل اتجاه جزئى على حدة •

تكامل المناهج السيكولوجية :

والآن بعد أن حاولنا استخلاص تعريف التحليل النفسى من خلال مراحل تطوره ، ننتقل الى السؤال الثانى الذى طرحناه فى بدء هذا المقال وهو : الى أى مدى وفق التحليل النفسى فى تحقيق التكامل بين المناهج السيكولوجية الثلاثة التى سبق وصفها وبالتالى أن نبين أثر التحليل النفسى فى توحيد علم النفس •

نتناول أولا المنهج الذاتى أو الاستبطان لتحديد دوره أثناء التحليل النفسى ، لا شك فى أن المعرفة السيكولوجية لابد من أن تبدأ من الخبرة الذاتية ، من شعور الشخص بنفسه واستخدامه اللغة للتعبير عما يشعر به ، ومن ضمن خبراته الذاتية ذكريات الماضى ، فبالرجوع الى هذه الذكريات يمكنه التحدث عن ماضيه كما يمكنه تصور نفسه فى المواقف التى وقفها من قبل واستدعاء ما عاناه من حالات شعورية ووصف هذه الحالات •

غير أن معرفة الشخص لنفسه لاتتم بمجرد معرفة ماعاناه من حالات ووصف هذه الحالات ، بل يجب أن تتجاوز حدود الوصف الى التعليل والتفسير . ولسنا فى حاجة الى اطالة القول لبيان عيوب مثل هذه المعرفة . فهى أولا سطحية لاتتناول سوى مايبدو لشعور الشخص ، ثم هى ناقصة مشوهة نظرا لعجز اللغة عن التعبير الدقيق لحالات شعورية معقدة متداخلة متغيرة ، اذ أن اللغة لم تصطنع فى بادىء الأمر الا للتعبير عن الأمور المادية الخارجية • يضاف الى ماسبق أن معرفة الشخص لنفسه هى معرفة تصوره لنفسه وهذا التصور الذاتى متأثر بعدة عوامل اهمها رأى الآخرين فى الشخص ، الخلط بين ماهو عليه

الشخص فى الواقع ومايريد أن يكونه ثم تدخل العوامل اللاشعورية من كبت ومقاومة وتبرير ، وهنا يتضح أثر التحليل النفسي فى نقد الملاحظة الذاتية وتوسيع دائرة العوامل النفسية بادخال العوامل اللاشعورية .

ولكن ألا يمكن بعد الوقوف على عيوب الاستبطان تدارك هـذه العيوب بحيث يصبح التحليل الذاتي ممكنا ؟ قد يكون ذلك من الوجهة النظرية ولكن من الوجهة العملية لاتزال العقبات قائمة فى وجه المشاهدة الذاتية . نعم ان فرويد استعان فى عمله العلمى بمشاهدة ذاته وبتأويل أحـــلامه (١) ، بل بتحليل نفســـه من حالة اجورافبيا Agoraphobie (الخوف المرضى من الأمكنة المفتوحة) كان يشكون منها فى شبابه (٢) .

غـير أن ماكان متيسرا لمنشىء التحليل النفسي لايمكن تعميمه ، ولاندرى الى أى مدى وفق فرويد فى تحليل نفسه وتصفية مكبوتاته واننا لا نبالغ اذا قلنا ان من العوامل التى دفعت فرويد الى الاهتمـام بالأمراض النفسية والى صياغة نظرياته السيكولوجية تلك النـواحى اللاشعورية من شخصيته التى لم يصل الى تحليلها التحليل التام (٣) .

ثم أن هناك سببا جوهريا آخر يحد من قيمة الاستبطان أثنـاء التحليل ، بل يحول الاستبطان الى عقبة كأداء فى سبيل التحليل هـو الموقف التحليلى ذاته . فالمطلوب من الشخص فى أثناء جلسات العلاج أن يخفف من توتره ومن الرقابة الارادية على تصـــوراته الذهنيـة

---

(١) ص ٢١٩ – ٢٢٣ و ٢٥٦ – ٢٦١ من كتاب تأويل الأحلام
S. Freud : The Interpretation of Dreams, Ed. A.A. Brill.

(٢) راجع ما يقصه ريك عن تصريح فرويد له بشأن هذا العرض المرضى : ص ١٥ ، ١٦ من كتاب
Th. Reik : The inner experience of a psycho-analyst. Allen and Unwin, London, 1949.

راجع أيضا :
Siegfried Bernfeld : An unknown autobiographical fragment by Freud. The American Imago. (August 1946), IV, No. 1.

(٣) سنناقش هذه النقطة الهامة فى مقالنا القادم مكتفين هنا بذكر النص الآتى المقتبس من البحث الذى نشره فرويد عام ١٩٣٧ فى هل للتحليل نهاية : « من واجب كل محلل أن يخضع للتحليل كل مدة ولتكن الفترة بين كل تحليل والآخر خمس سنوات وذلك بدون أن يشعر بأى خجل بعمله هذا . وعلى ذلك فليس تحليل المريض فقط الذى لم يعد مهمة قابلة للانتهاء لكى يصبح مهمة لا يمكن أن تنتهى ، بل تحليل المحلل أيضا . ص ٣٥٣ من كتاب :
S. Freud : Analysis terminable and interminable. Collected Papers, Vol. V, pp. 316-357.

وذكرياته والتى يجب أن تأتيه عفـوا وأن يسترسـل قدر المستطاع فى سردها دون نقد ولا انتقاء ولاتنظيم ، فى حين أن الاستبطان كما هـو مصطلح عليه يقتضى تركيز الانتباه وانعكاس التفكير على نفسه ويحول دون معاناة الخبرات الانفعالية السابقة بطريقة واقعية تعبيرية . واذا لزم المريض موقف المستبطن فستثار مقاومات جديدة تستر الى حد ما المقاومات الأساسية التى يبحث عنها المحلل وان كانت هذه المقاومات الجديدة ضربا من التعبير عن المقاومات الأساسية . فعلى المحلل اذن أن يحول دون احتماء المريض خلف الاستبطان التبريرى والا يسايره فى نزعته الى الجدل والمناقشة (١) .

أما المنهج التمثيلى فيبدو أنه أقرب الى منهج التحليل النفسى من غيره من المناهج فقد نسبنا هذا المنهج الى السـيكولوجيا فى صـيغة المخاطب ، أى أنه يقتضى وجود شخصين كما هـو الحـال فى الموقف العلاجى أثناء التحليل . وبصـدد المقارنة بين المنهج التمثيلى والتحليل النفسى طرحنا السـؤال الآتى : الى أى حد يجـوز للمحلل أن يطبق مايعرفه عن نفسه على المريض الذى يعالجه ، أو بعبارة أخرى مـدى التمثيل بين المحلل والمريض .

اذا قارنا بين علم النفس وبقية العلوم فالفارق الهام الذى يفرض نفسه علينا فورا هو أن فى علم النفس دون العلوم الأخرى توجد أوجه شبه كبيرة بين الملاحظ والملاحظ وهذا التشابه هـو الذى يسـمح بالتمثيل بينهما . ويرى فرنز الكسندر أنه من المحال على علم النفس أن يصبح علم الشخصية الانسانية مالم يعتمد على قدرة الانسـان على فهم الآخرين بالاستناد الى معرفته لنفسه والحكم على الآخرين فى ضوء هذه المعرفة . فالمنهج السلوكى أو التجريبى البحت عاجز فى نظـر الكسندر عن اقامة علم الشخصية . وهو يدهش « كيف أن المدرسـة السلوكية حرمت نفسها من وسيلة هامة من وسائل المعرفة وقصرت نظرتها على ملاحظة مايسمى بالسـلوك الخارجى . أليست الألفـاظ

---

(١) لاحظنا خلال خبرتنا مع المرضى ان أهم عقبة تعترض العلاج فى بدايته هى صعوبة حمل المريض على الانتقال من مرحلة سرد الحوادث كما يسردها الشاهد الى مرحلة معاناة هـذه الحوادث من جديـد بطريقة تلقائية انفعالية ــ فلابد لكى يتقدم العلاج من الانتقال من مجال الخبرات المتصورة فى الذهن الى مجال الخبرات المحياة من جديـد داخل الموقف العلاجى الذى يؤدى دور البديل بالقياس الى المواقف التى اختبرها المريض من قبل فى طفولته .

حقائق موضوعية أيضا ، وعندما تطرق الألفاظ سمعنا كيف يمكننا أن نمنعهـا من أن تنقـل الينا معـرفة العمليات النفسـية التى يختبرها الآخرون» (١) .

غير أن التمثيل لايمكن أن يصبح توحيدا بين المحلل والمريض والا أصبح الموقف مرضيا . ففى أثناء الحوار الذى يدور بينهما ـ والموقف التحليلى يتضمن دائما حوارا حتى لو لزم المحلل الصمت فترة طويلة أثناء الجلسة ـ لايمكن أن يقول كل واحد للآخر : أنا أنت وأنت أنا !. لايمكن أن يحل الواحد محل الآخر والا فقد الموقف قيمته العلاجية .

وهنا يجب علينا أن نشير الى محور العلاج بالتحليل النفسى أو الى العملية التى بدونها لايمكن أن يتم الشفاء . نقصد هنا عملية التحويل Transference التى تعد من أشـق المقاومات التى تعترض سير العلاج .

ان تحليل التحويل هو الخطـوة التى ستسمح لنا بأن ننتقل من المنهج التمثيلى الى المنهج الموضـوعى ولكن دون انكار الدور الذى يؤديه المنهجان السابقان أثناء التحليل .

يحدث فى أثنـاء التحليل ، عندما يتم الانتقال من مجال الخبرات المتصورة الى مجال الخبرات المستحضرة فى جوها الانفعالى الحى ، أن يحـول المريض قسطا من طاقته العاطفية ، سـواء من حب أو كراهية ، على المحلل . فاذا كان موقف التحليل موقف تمثيلى بحت فالمنتظر أن يتم التجاوب بين المحلل والمريض وأن يستجيب الأول كأنه هـو للذاته موضوع الحب أو الكراهية . فيخرج من موقف الحياد الى موقف من يبدى عطفه أو استياءه ، ولكن هذا يعنى فشل العلاج بل زيادة شدة المرض وتحوله الى عقدة مرضية جديدة تشمل المحلل والمريض (٢) .

وهنا يتضح لنا نقص المنهج التمثيلى اذ على المحلل أن يتذكر دائما أن المريض يخدع نفسه ويخدع محلله من حيث لايدرى ، حتى لو حاول جاهدا التزام الاخلاص والصراحة فى أقواله وسلوكه . ثم على الرغم من أوجه التشابه بين المحلل والمريض هناك اختلافات عدة بينهما سواء من

---

(١) ص ٢٤ من كتاب : Franz Alexander : Fundamentals of Psychoanalysis.

(٢) راجع من بحوث فرويد فى طريقة العلاج بالتحليل البحثين الآتيين :
The Dynamics of transference (1912). Observations on transference-love (1915). Collected Papers, Vol. II.

حيث خلق كل منهما واتجاهاته الفكرية والعاطفية أو — وهذا هو الاختلاف الجوهرى — من حيث الدور الذى يؤديه كل منهما . فبينما يمثل المريض من جديد مواقفه الطفلية ازاء والديه ، مغمورا فى تيارات من التفكير السحرى ، فعلى المحلل أن يقوم :

أولا : بدور العالم الذى يجرى بحثا علميا ، سالكا مسلك العالم فى التنقيب وجمع البيانات واقتراحه الفروض لتفسير الحقائق المجموعة ثم مواصلة بحثه للتحقق من صحة الفروض التى لايفتأ يصيغها أثناء التحليل .

ثانيا : بدور الستار الذى سيسقط عليه المريض عقده ومشكلاته.

ثالثا : بدور المربى (١) الذى يمثل مبدأ الواقع فى مقابل مبدأ اللذة ، مسببا للمريض ألوانا جديدة من الصد والحرمان ، غير أن المريض فى هذه المرحلة يكون قد قويت ذاته واستئنست غرائزه فيصبح قادرا على هضم هذه التجارب المؤلمة الجديدة وتمثيلها عقليا وبطريقة تدل على تقدم نضجه الانفعالى واحكامه الأساليب التكيف والتوافق الناجحة . وعندئذ يكون المحلل قد رد الى المريض هذا القسط من الطاقة العاطفية التى كانت مركزة الى حين فى نفسه ولكن بعد تحريرها من القيود التى كانت تعطلها أو تشتتها فى ضروب طفلية من السلوك . وبهذه الكيفية يتحقق تكامل الشخصية بتنظيم القوى النفسية حول الأنا . ويفيد التكامل هنا أن الشخص تحرر من الأساليب التكرارية النكوصية واتجه نحو التجديد والنشاط الخالق .

يتضح لنا مما سبق أن المحلل يلزم فى نهاية الأمر موقف العالم الموضوعى الذى يتناول مريضه على أنه كتلة من العلل والمعلولات المتبادلة التأثير تضم فى شبكة علاقاتها الموقف الكلى الذى يحوى المريض وبيئته ومحلله فى آن واحد .

---

(١) فى مقال نشره عام ١٩٣٧ اى سنتين قبل وفاته فى موضوع « هل للتحليل نهاية » يقول فرويد انه يجب على المحلل ان يكون متمتعا بدرجة عليا من السواء النفسى ومن القدرة على التكيف » اذا طالبناه بأن يؤدى دور النموذج فى بعض المواقف التحليلية، وفى بعضها الآخر بأن يقوم بعمل المعلم » ص ٣٥١ من
S. Freud : Analysis terminable and interminable. Collected Papers. Vol. V, pp. 316-357.

عقدة أوديب (*)

اذا قارنا بين النظريات المختلفة التي جاءت بها شتى مدارس علم النفس لتفسير السلوك الانسانى ، فاننا نلاحظ أن بعضها ظل محصورا داخل الدوائر العلمية ، فى حين أن البعض الآخر تجاوز هذه الدوائر الى الجمهور المثقف وقراء الجرائد والمجلات .

ومن هذه الفئة الاخيرة نظرية التحليل النفسى للعالم النمساوى سيجموند فرويد Freud (١٨٥٦ ــ ١٩٣٩) وما تفرع عنها ، مثل نظرية ادلر Adler فى علم النفس الفردى ، ونظرية ينج Jung فى علم النفس التحليلى .

ومن أكثر مصطلحات التحليل النفسى شيوعا لفظ «العقدة» مثل «عقدة أوديب» ، «وعقدة الخصاء» «وعقدة النقص» ، والفاظ أخرى مثل الكبت والاسقاط والتعويض والتبرير والاعلاء . وقد أصبحت هذه العبارات والالفاظ تتردد على ألسنة الناس لتفسير اضطرابات السلوك وانحرافاته دون ادراك واف لما لهذه الالفاظ من دلالة علمية . فمثلا يستخدم لفظ «العقدة» كما لو كانت شعورية ، فى حين أنها لاشعورية، ومايصدق على العقدة يصدق أيضا على الكبت ، فلايفرق بين الكبت اللاشعورى والقمع الشعورى ، هناك أمثلة كثيرة لسوء استعمال بعض المصطلحات وتشويه مفهومها العلمى .

واذا كانت بعض آراء فرويد لاتزال تقابل بالاستنكار والرفض فمن المؤكد أن السبب الاساسى لهذا الاستنكار هو الجهل أو الاكتفاء بالمعلومات السطحية المقتضبة . وليس خطر التشويه أو التبسيط المخل محصورا فى دائرة المناقشات النظرية ، بل يمتد هذا الخطر الى مجال التطبيق ، لأن كل انسان يعتقد ، أن كثيرا أو قليلا أن لديه دراية بشئون النفس ، وبأساليب التربية . وبما أن علم النفس هو من بين العلوم الانسانية أكثرها ارتباطا بالحياة اليومية وبالتطبيقات العملية فانه من الضرورى تفادى الأذى البليغ الذى قد ينجم عن سوء الفهم والتشويه ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال الاعتقاد الخاطىء بأن فرويد يرجع جميع أشكال السلوك الى الغريزة الجنسية ، وأن السبب

---

* مجلة « العربى » . اغسطس ١٩٦٢ .

الرئيسى للامراض النفسية هو كبت الغريزة الجنسية وانه بالتالى يدعو الى تحرير الغريزة من القيود المفروضه عليها .

ونود فى هذا المقال توضيح مايقصده فرويد بعقدة أوديب ، وبيان الدور الهام الذى تؤديه هذه العقدة فى نمو شخصية الطفل ، وتعيين الاسلوب الذى سينتهجه فى المستقبل فى علاقاته مع الآخرين ، وخاصة مع أفراد الجنس الآخر . والواقع أن عقدة أوديب ، ومايدور حولها من آراء فى تطور الميل الجنسى لدى الفرد ، اثارت منذ البداية مقاومة عنيفة ، لا من عامة الناس فحسب ، بل أيضا من علماء النفس وأطباء الامراض العقلية . ومع أن فرويد ، خلال حياته العلمية الطويلة (مدة نصف قرن) قد عدل بعض نظرياته فى ضوء الخبرة التى اكتسبها أثناء علاجه لآلاف المرضى فانه ظل متمسكا برأيه الاول فى حقيقة هذه العقدة والدور الأساسى الذى تؤديه فى عملية النمو النفسى والتكيف الاجتماعى .

وقبل أن نعرض لمضمون عقدة أوديب يجب :

أولا : أن نعرف العقدة .

ثانيا : أن نشير بايجاز الى ما تتسم به عقلية الطفل حتى سن الخامسة من قدرة على الفهم والتعبير ، وكيفية تصور الطفل لما يحيط به من أشياء وأشخاص ، وكيفية ادراكه للعلاقات القائمة بينه وبين الآخرين .

ثالثا : أن نذكر بايجاز المراحل الاولى التى تمر بها شخصية الطفل فى السنوات الثلاث الأولى .

ثم رابعا وأخيرا : نشأة عقدة اوديب وتوضيح المقصود بها ومايترتب على مصيرها من آثار فى سلوك الفرد فى سنى المراهقة والرشد .

أولا : ماهو المقصود بالعقدة ؟

ان لفظ «عقدة» ترجمة كلمة Complex واللفظ الاجنبى يفيد معنى المركب ، غير أن ترجمته بالعقدة ترجمة موفقة للغاية لأنها تتضمن معنى التركيب بالاضافة الى معنى الشد والصراع . وقبل أن نقدم تعريفا للعقدة يجب أن نذكر أن العقدة النفسية هى بطبيعتها لاشعورية،

وحيث أن اللغة التى نستخدمها للتعبير عن أفكارنا وتصوراتنا نشأت وتكونت خلال خبراتنا الحسية الشعورية ، وبالتالى هى لا تصدق تماما على المضمونات اللاشعورية ، فانه من المتعذر تعريف العقدة بحيث يخلو التعريف من الغموض والتناقض .

ان من المشكلات المنهجية فى علم النفس أنه ، وهو فى سبيله الى تحقيق صورته العلمية ، لايزال يستخدم لغة الأدب ولغة المعاملات اليومية ، فى حين أن علم الفيزياء الحديث قد صاغ لنفسه لغة رياضية بحتة مكونة من رموز موضوعة وضعا ومقطوعة الصلة تماما بلغة التخاطب اليومى . كما أن المعادلات الرياضية التى يستخدمها عندما ينزل الى مستوى الابعاد النووية داخل الذرة ، أو عندما يرتفع الى الأبعاد الفلكية ، أصبح من المحال تجسيمها بوساطة نماذج ميكانيكية كما كان الحال فى ميكانيكا نيوتن .

فان قلنا مثلا ان العقدة هى مجموعة من الافكار أو من التصورات أو من العواطف فان كل هذه الالفاظ تحيلنا الى الخبرة الشعورية . وللتخلص من هذه الصعوبة يمكن القول بأن العقدة هى مجموعة من الأفكار أو التصورات اللاشعورية ، والمشحونة بشحنة وجدانية قوية ، والمتعارضة فى مضمونها بحيث تشمل فى آن واحد الحب والكراهية نحو الموضوع الواحد .

او يكون من الافضل القول بأن العقدة هى مجموعة من الاتجاهات الوجدانية المتعارضة ، وهى لاشعورية ، أى أنها ثبتت قبل أن تصل الى مستوى الشعور . تتكون هذه الاتجاهات عادة أثناء الطفولة نتيجة لتبلور العلاقات القائمة بين الطفل وأفراد بيئته العائلية بحيث يصبح شديد الحساسية لنوع الموقف الذى نشأ فيه . فمن شأن العقدة اذن أن تدفع الشخص الى أن يكرر ، فى المواقف الشبيهة بالموقف الاصلى الذى أدى الى تكوين العقدة وتثبيتها ، السلوك نفسه الذى كان يسلكه اثناء الطفولة .

ثانيا : ماهى عقلية الطفل ومدى اختلافها عن عقلية الراشد ؟

لاشك ان القارىء كان ينتظر بعد تعريف العقدة أن نعرف له عقدة اوديب وأن نقول له ان هذه العقدة تطلق على رغبة الابن اللاشعورية ، وهو فى حوالى سن الرابعة ، فى قتل أبيه والتزوج من أمه ، كما جاء فى الاسطورة اليونانية التى خلدت مسرحية سوفوكليس المسماة «أوديب

ملكا» . فلو اتبعنا هذا الترتيب فى العرض لحق للقارىء أن يشمئز وأن يثور على مثل هذه النظرية التى تصور لنا الطفل الصغير فى أبشع صورة من صور الفساد والاجرام • علينا اذن أن نتريث وان نمهد لفهم عقدة أوديب بوضعها فى جو عقلية الطفل الصغير ، ثم فى اطار نمو الغريزة الجنسية بمختلف مراحلها .

ان الخطأ الشائع الذى يقع فيه الكبار ، عندما يصدرون أحكامهم على سلوك الأطفال اعتبار الطفل صورة مصغرة للرجل الراشد دون ادراك الفوارق الكيفية بينهما • فالاختلاف بين الطفل والراشد ليس اختلافا كميا بالزيادة أو النقصان ، بل هو اختلاف كيفى • ان الطفل لا يفكر تفكير الكبار مستخدما المعانى المجردة ، مراعيا مبدأ عدم التناقض ، ومبدأ العلية المنطقية العقلية ، وان كان كثيرا ما يرتد الكبار بتأثير الانفعالات القوية الى الأطوار الأولية لتفكير الطفل اللامنطقى • ان الطفل على الرغم من استخدامه الكلمات ذاتها التى يستخدمها الكبار ، والتى تعلمها منهم ، لايحمل هذه الكلمات نفس المعنى ولا يستخدمها فى سياقها المألوف • وليس من السهل أن نكتشف كيف يفرق الطفل بين الأشياء التى تجذبه والأشياء التى تصده ، بين المواقف التى تبعث فى نفسه الرضى والطمأنينة وتلك التى تثير الخوف والقلق •

يعيش الطفل فى عالم من الصور والتخيلات ، المشحونة بطاقة انفعالية قوية ، فى عالم تزدحم فيه الأشباح والأوهام ، وتختلط فيه حدود الواقع بحدود الخيال ، وصور التمنى بصور التحقيق ، بحيث يمكن القول بأن قيام الضدين معا فى وقت واحد هو المبدأ المسيطر على وجدان الطفل وما يتخلل هذا الوجدان من تصورات عابرة متغيرة • وقد وصف تفكير الطفل بحق بانه تفكير سحرى يتعارض مع مبادىء التفكير المنطقى العقلى ، وبأنه شبيه بتفكير بعض القبائل البدائية عندما يؤدون طقوسهم الدينية • وعلى ذلك يكون أقرب المناهج صدقا للكشف عن سمات عقلية الطفل هو الحدس لا الاستدلال المنطقى الصارم ، هذا الحدس الذى ألهم مبتكرى الأساطير فى الحضارات الشرقية القديمة ، تلك الأساطير التى تنطوى رموزها على حقائق عميقة لا تزال تغذى التفكير الحديث عندما يتساءل عن سر الانسان ، ومصيره ، وعلاقته بالقوى الكونية الكبرى •

والآن على ضوء ما قلناه عن عقلية الطفل الصغير ننتقل الى التحدث عن تطور الغريزة الجنسية لدى الطفل حتى الوصول الى المرحلة التى تظهر فيها عقدة أوديب •

ان نظرية فرويد في الجنس هي التي تطبع مذهبه بطـابع نوعي خاص ، وتميزه عن غيره ممن تعرضوا لهذا الموضوع الحساس ، وهي التي أثارت أعنف الاعتراضات ، لا من خصومه فحسب ، بل من بعض أعضاء مدرسته الأول أمثال ينج وأدلر ٠

فقد وصفت نظرية التحليل النفسي بأنها نظرية جنسية شاملة ، أي أنها تفسر كل مظاهر السلوك والثقافة بارجاعها الى الغريزة الجنسية ٠ هذا اتهام جزافي لا يصدق حتى على الصورة الأولى لنظرية فرويد عندما ميز بين غرائز الـ « أنا » والغريزة الجنسية ، وهو لا يصدق بطبيعة الحال على الصـــورة الثانيــة لنظريتــه عندما قابــل بين غريزة أيرس Eros (اله الحب) وغريزة ثاناتوس Thanatos (الموت) أي غريزة العدوان والتدمير ٠

وعندما كان يسأل فرويد عن طبيعة الميول المكبوتة في اللاشعور كان يقول انهـا تكاد تكون دائما من طبيعة جنســية ، ولم يقل انهـا دائما جنســيـة ٠

والسبب في أن معظم المكبوت جنسي ، يرجع الى ضغوط المجتمع الذي يحرم التعبير الصريح عن كل ما يتصل بالجنس ٠ وكذلك نرى فرويد في تفسيره للأحلام لا يعمم القول بأن جميع الأحلام تعبر بطريقة رمزية عن تحقيق رغبات جنسية مكبوتة ، بل هناك من الأحلام ما يعبر عن رغبات جنسية وقد يكون التعبير صريحا غير رمزي ٠

وهناك توضيح آخر بصدد لفظ « الجنس » يجب اثباته قبل استئناف الحديث عن تطور الجنسية لدى الطفل ٠ ان الكبار عنـدما يتحدثون عن الجنس يتجه تفكيرهم الى العملية التناسلية ، ولهـــذا السبب يرفضون التسليم بأي نشاط جنسي لدى الطفل ٠ والواقع بأن التناسل جزء من الجنس ، وهذه القضية تصدق على الانسان ، ولكنها لا تصدق على جميع الأجناس الحيوانية ، فالتناسل ، فيما يختص بالجنس البشري ، جزء من دائرة الجنس ، وهو متضمن في الجنس باعتبار ما سيكون ، لا باعتبار ما هو كائن بالفعل أثناء الطفولة ٠

وعندما يتحدث فرويد عن الجنسية لدى الطفل فانه يستعمل هذا اللفظ بمعناه الواسع ٠ غير انه يجب ألا نفهم من هذا ان اللذة التي يشعر بها الطفل أثناء الرضاعة ، أو على أثر تنبيه بعض مناطق الجسم ، هي لذة غير جنسية ٠٠ ان فرويد يتمسك بنعت هـذه الألوان من اللذات بأنهـا

جنسية . وان كانت غير مرتبطة بعد باللذة التناسلية ، ويشعر بها الطفل قبل أن يصل الى التمييز بين الجنسين ، وهذا باعتبار أن هذه اللذات ستندمج فيما بعد في اللذة التناسلية عندما تتجه الغريزة الجنسية نحو موضعها الطبيعي بعد المراهقة ، أي نحو شخص من الجنس الآخر ، وذلك بعد أن تكون قد تركزت طاقتها في بادىء الأمر في بعض مناطق الجسم .

تأثر فرويد بالعلوم البيولوجية :

ان موقف فرويد من قضية الجنس متأثر بمنهج التفكير في العلوم البيولوجية . انالكائن الحي يمر بمراحل نمو وتطور ، الحركة الحيوية تتجه من المتجانس الى اللامتجانس ، من صورة اجمالية غير متميزة الأجزاء الى صورة مفصلة تتمايز فيها الأجزاء وتتفاضل . وفي أثناء هذه الحركة التطورية تظهر عناصر متفرقة كأنها جزر تطفو على سطح من المياه المتجانسة ، ثم بفضل عمليات النمو والنضج تندمج هذه الجزر بعضها في بعض وتقوم بينها علاقات وظيفية تزداد تحديدا كلما تقدمت عملية التكامل . ولكي نفهم تطور الدافع الجنسي لدى الطفل علينا أن نطبق عليه هذا النموذج من التفكير .

يسمي فرويد الدافع الجنسي أو الطاقة الجنسية باللفظ اللاتيني ليبيدو Libido ، ومعناه الأصلي الشهوة . والليبيدو مظهر من مظاهر الطاقة الحيوية التي تهيمن على تسلسل أفراد الجنس وتتابعها من جيل الى جيل . ومما هو جدير بالملاحظة أن اللغة العربية تستخدم لفظا واحدا للجنس ، من حيث هو دافع ، وللجنس من حيث هو سلسلة الأجيال المشتقة بعضها من بعض ، تأكيدا بأن الدافع الجنسي في خدمة الجنس عن طريق أفراده من ذكور واناث . فالدافع الجنسي وان كان لابد له من أن يتركز في شعور الفرد ، فان هدفه يتجاوز الفرد الى تحقيق بقاء الجنس . وبهذه النظرة البيولوجية يتسع بالضرورة أفق الباحث في شئون الحياة والنفس ويمتد من نطاق الفرد الى نطاق الأسرة والجماعة .

وقد لا يختلف معارضو فرويد معه في وجهة النظر هذه ، انما وجه الاختلاف يكمن في انكارهم وجود جنسية الطفل ما دام الشعور بها لايظهر الا عند مطلع المراهقة . غير ان من قضايا التحليل النفسي الكبرى ان الحياة النفسية ليست مقصورة على الشعور ، بل ان الشعور ليس الا جزءا صغيرا في مقابل اللاشعور ، أو بعبارة أصح ان العوامل اللاشعورية أكثر

وأعمق من العوامل الشــعورية ، اذ أن فرويد يرفض اعتبـار الشعور واللاشعور أشياء أو كائنات قائمة بذاتها ، ويقصد دائما صفة الشعورية واللاشعورية التى تنعت بهـا العوامل والحالات النفسية ، أما الطبيعـة القصوى لهذه العوامل والحالات فيترك كشفها للأجيال القادمة معتبرا اياها من مظاهر الحيـاة فحسب ، دون أن يقطـع برأى حاسـم فى ماديتها أو روحانيتها .

فالطفل اذن منذ الولادة مجال للمظاهر الجنسية والتعبيرات الجنسية الرمزية وذلك قبل أن تصــبح هذه المظـاهر شعورية . ومن الطبيعى أن تصاحب هذه المظاهر صور النشــاط الأولى للطفل الرضـيع . فعملية الرضاعة عندما تتم بوجهها الأكمل تكاد تسـتغرق كل نشـاط الطفـل وتحدث لديه لذة كلية عارمة ، هى اللذة المصـاحبة حتما لتنشـيط أى وظيفة حيوية . فأثنـاء الرضـاعة يكاد يكون الطفل فما فحسب ، وفم الرضـيع هو مركز أشعاع اللذة فى كيانه كله وهـذه اللذة الحيوية لذة مطلقة تتضمن الجانب الجنسى الذى لم يتميز بعد شعوريا عن سائر جوانب النشـاط الحيـوى . فالفم هو المنطقة الأولى المولدة للذة والتى تزداد شحنتها بالليبيدو أى بالطاقة الجنسية .

ويميز فرويد أصل المرحلة الفمية بين طورين : الطور الفمى البدائى من الولادة حتى منتصف السنة الأولى ، وطريقة الطفل فى الاستيلاء على العالم الخارجى هى عملية الامتصـاص . وفى حالات الاحباط والحرمان والانتظار يتعلم الرضيع ، خفضا للتوتر ، مص جزء من جسـمه هو فى العادة أصابعه ، محققا بهذه الكيفية لذة شبقية ذاتية . اما الطور الفمى الثانى فيبدأ بعد الشهر السادس عند ظهور الاسنان ، فيجد الطفل لذة فى العض أثناء الرضاعة . فتقوم الأم بتهذيب هذه الخبرات المؤلمة وما سوف يتبعها من ألم الفطام ، تهدد الوحدة القـائمة بين الأم وطفلها ، وتجعله يعانى الصراع بين الحب والكراهية .

ثم يحدث تركيز جديد للطاقة الجنسية فى الطرف الآخر من الجهـاز الهضمى وذلك فى المرحلة المعروفة بالشرجية ، وهى تشـمل السنتين الثانية والثالثة . وتتميز هذه المرحلة بازدياد النزعة العدوانية التدميرية عنفا . ويتخذ الطفل من عملية التخلص من الفضـلات وسيلة للتعبير عن رضاه أو عدم رضاه ازاء الأم ، للتعبير عن المقاومة فى وجه الأساليب التى تتبعها الأم لتعليم الطفل النظافة .

وفى المرحلة الثالثة التى تمتد فيما بين الثالثة والخامسة تتركز الليبيدو فى المنطقة التناسلية حيث يبدأ يعبث بها استثارة للذة ، وبينما لم يكن الطفل فى المرحلة السابقة قادرا على التمييز بين الجنسين يبدأ فى هذه المرحلة يدرك الفرق بين الذكر والانثى • وبعد ان كانت الليبيدو مركزة فى جسم الطفل ، فانها ستحاول الآن أن تبحث عن موضوع لها خارج الجسم تمهيدا لتحقيق النمو الجنسى السوى لدى الفرد ، وان كانت شبقية الطفل فى هذه المرحلة لاتزال مطبوعة بالطابع الذاتى • وليس من الغريب ان تتجه الليبيدو نحو شخص يعيش فى دائرة الاسرة وهذا الشخص هو بطبيعة الحال الأم بالنسبة الى الابن ، والأب بالنسبة الى البنت •

تلك هى الخطوة الأولى لتكوين عقدة أوديب • وهذه الخطوة لابد منها لكى يستمر النمو الوجدانى حتى يصل الى النضج • فاذا افترضنا توقف النمو قبل هذه الخطوة الأولى ، اذن لاصبح الطفل معرضا لانحرافات جنسية وأمراض نفسية مثل العصاب القهرى •

فهذه الخطوة الأولى من عقدة أوديب هى بمثابة تحرير الطفل جزئيا من سجن جسمه واعداده للحياة الاجتماعية ، حياة الاخذ والعطاء معا ، هذه الحياة التى لايمكن إن تقوم الا بفضل حياة جنسية سليمة تربط بين الجنسين بروابط الحب بجميع مقوماته الجسمية والعاطفية •

ثم تأتى خطوات أخرى تكتمل بها عقدة أوديب • ان تعلق الابن بأمه تعلقا شبقيا لاشعوريا يستتبع بالضرورة العداوة والغيرة ازاء الأب ، والعكس فيما يختص بالبنت • ولكى نفهم موقف الطفل على حقيقته يجب أن نترجم هذه المعانى « العداوة والكراهية والبغض والغيرة وتمنى موت الأب أو الأم ••• الخ » كما يدركها الراشد الى لغة الطفل التى سبق ان أوضحنا أساليبها من تصورات غامضة وتخيلات ، من لغة « كلام » الى لغة « حال » •

ثم ان ما يميز عقلية الطفل الصغير قيام المتعارضين معا فان الابن يشعر أيضا ازاء الأب بعواطف الحب والتقدير والاعجاب ، اذ أنه يحاول تقمص شخصية الأب والتوحد به • فيقوم الصراع فى لا شعور الطفل بين الحب والبغض وينشأ عن هذا الصراع ما يسمى بالشعور بالاثم أو بعبارة أدق ـ ما دمنا عند مستوى العمليات اللاشعورية ـ عقدة الاثم أو الادانة الذاتية • وتولد هذه لدى الطفل القلق والخوف من انتقام الأب الذى سوف يعاقب الطفل بحرمانه من ذكورته وهذا ما يعرف بعقدة الخصاء •

بهذه الخطوة الاخيرة تكون عقدة أوديب قد اكتملت • كما انها قد تكون مهيأة للتلاشى • فبفضل عملية تقمص الطفل لشخصية أبيه ، وحرصه على المحافظة على حب الأب له ، وبفضل تأثير الخوف من الخصاء يتنازل الابن عن امتلاك الأم امتلاكا كليا ، ويكون الطفل بهذا الانتصار على نزعاته الاستيلائية المطلقة قد اجتاز هذه المرحلة المتأزمة من مراحل نموه النفسى والاجتماعى ، وخطا خطوة جديدة نحو النضج العاطفى وتكوين ضميره الخلقى وتكامل شخصيته •

تلك هى الملامح الرئيسية لعقدة أوديب وهى فى الواقع تصوير لمرحلة هامة من مراحل النمو العاطفى والتنشئة الاجتماعية للطفل فى ضوء العلاقات التى لا بد أن تقوم داخل أسرة مكونة من أم وأب وطفل • أما اذا تغير تشكيل الأسرة كأن يحرم الطفل من رعاية الأم ـ أو ممن يقوم مقامها بشرط أن تلازم الطفل حتى سن السادسة ـ أو يكون الأب غير موجود دون أن يكون فى الأسرة شخص كبير يقوم مقام الأب لكى يتقمص الابن شخصيته وما تتصف به من سمات الرجولة والقوة ، فلا شك أن التطور الذى وصفناه داخل الموقف الأوديبى لا يمكن أن يحدث وبالتالى تتعثر عملية النضج العاطفى وتصاب شخصية الطفل بالتصدع وعدم التكامل •

وكذلك تزداد عقدة أوديب تأزما دون أن تحل اذا كان جو الأسرة مشحونا بالبغضاء بين الأب والأم ، وبالمشاجرات والاحداث المرعبة والتصرفات المؤذية الظالمة فعندئذ يصبح الطفل ضحية هذا الموقف المضطرب • فاذا كان الأب سيىء الأخلاق قاسيا فى معاملته للأم والابن معا فقد يزداد تعلق الابن بأمه كما قد تحتمى الأم بابنها مما يزيد من قوة الروابط الشبقية بينهما وعندئذ تتحجر عقدة أوديب ويصبح الطفل خاضعا كلية لصورة الأم غير قادر على تنمية صفات جنسه ، معانيا شتى ألوان الخجل والخوف والشك والتردد فيتقمص بالعكس شخصية أمه أى صفات الأنوثة ، مما يعرضه فى المستقبل لبعض الانحرافات الجنسية كالتعلق الشبقى بأشخاص من نفس جنسه ، ونفوره من الجنس الآخر واحجامه عن الزواج • وفى حالة ما يقدم على الزواج يظل يبحث فى زوجته عن صورة أمه لأن نموه الجنسى والعاطفى لم يصل الى النضج بل ظل متوقفا عند مرحلة طفلية •

يتبين مما سبق الدور الخطير الذى تؤديه عقدة أوديب فى تكوين شخصية الفرد وتشكيلها بمختلف السمات تبعا لمصيرها من توقف

وتثبيت ، أو من تلاش وحل واعلاء ، أى تبعا لنجاح عمليات التقمص أو فشلها . ان نظرية فرويد لاتذهب الى القول بحتمية تطور الغريزة بصورة متحجرة جامدة ، بل تؤكد تأثير العوامل الحضارية والتربوية كمـــا هى ممثلة داخل الأسرة وتبعا لنوع العلاقات القائمة بين أفرادها .

فعملية التنشئة الاجتماعية للطفل هى المسئولة فى نهاية الأمر عن مدى تكامل شخصيته أو تفككها ، عن قدرة الطفل على التكيف مع البيئة ومواجهة مشقات الحياة بطريقة ايجابية مجدية ، وعلى تحقيق أكبر قــدر ممكن من امكانياته ومن مثله العليا .

في علم النفس المرضي

الاتجاهات الحديثة فى مجال الأمراض النفسية (*)

تنحصر أهم المشكلات التى تثيرها الأمراض النفسية فى مشكلتين رئيسيتين ، هما مشكلة التشخيص ومشكلة العلاج . وقد مرت وسائل التشخيص والعلاج بمراحل عدة منذ أكثر من نصف قرن عندما أخذ العالم النمساوى سيجموند فرويد يبنى نظريته فى التحليل النفسى .

كان الأطباء فى أواخر القرن التاسع عشر يرجعون الأعراض النفسية من قلق ومخاوف مرضية وأفكار متسلطة واندفاعات قهرية ومايصاحب هذه الأعراض أحيانا من اضطرابات فى الوظائف الحسية والحركية ، يرجعونها الى اختلال الجهاز العصبى أو الى اضطرابات فى بعض الوظائف العضوية الأخرى ، وكان فرويد نفسه فى بادىء الأمر يعالج الحالات المرضية النفسية بواسطة بعض العقاقير الطبية وغيرها من الوسائل المادية كالتيار الكهربائى . غير انه لم يلبث طويلا حتى أدرك عدم جدوى هذه الوسائل وقرر أن يترك جانبا ، ولو الى حين ، التفسير العضوى ، للبحث عن تفسير سيكلولوجى لا للأعراض النفسية فقط بل أيضا لبعض الأعراض العضوية كتلك التى تشاهد فى الهستيريا التحولية كفقدان الحساسية أو الشلل الجزئى . وأخذ فرويد ابتداء من عام ١٨٩٠ تقريبا يضع الأسس لنظريته فى اللاشعور وفى صراع الغرائز والدوافع وفى الكبت والاعلاء وفى الدور الكبير الذى تؤديه الرموز فى حياة الانسان سواء كان سويا أو مضطربا نفسيا . ومن هذه الدراسات الأولى فى بناء الجهاز النفسى وتطوره خرج التحليل النفسى كوسيلة جديدة للتشخيص والعلاج . وظل فرويد يعيد النظر فى آرائه فى ضوء خبرته كمعالج حتى وفاته عام ١٩٣٩ ، أى أن التحليل النفسى تطور على أيدى منشئه ذاته وبمعاونة تلاميذه ، مما يقيم الدليل على حيوية هذا المنهج الجديد فى فهم الانسان وعلاج ماقد يصيبه من أمراض نفسية ومن اضطرابات سلوكية .

(*) مجلة « الصحة النفسية » عدد سبتمبر ١٦٥٨ .

وتنحصر اهم التطورات التى ادخلت على التحليل النفسى فيمايلى :

١ ـ الانتقال الجزئى من دائرة الغرائز الى دائرة العوامل الاجتماعية التى تؤثر فى تكوين الشخصية . أى الانتقال من دائرة الفطرى الى دائرة المكتسب أو بعبارة أدق : دراسة كيفية تطور العوامل الفطرية تحت تأثير التعلم والاكتساب .

٢ ـ عدم حصر دوافع السلوك فى دائرة الجنس ومراعاة أثر الدافع العدوانى فى نشأة المرض النفسى .

٣ ـ تحويل مركز الاهتمام من دائرة اللاشعور نحو الذات الشاعرة ودراسة مختلف الوسائل الدفاعية التى تصطنعها الذات للتخفيف من القلق والتوتر الداخلى ومواجهة الموقف المشكل بأساليب تكيفية جديدة .

٤ ـ تأكيد أهمية بعض العمليات النفسية التى تنشأ أثناء العلاج مثل عملية التقمص وعملية خلع عواطف المريض على المعالج سواء كانت هذه العواطف عواطف حب أو كراهية ، والأخطار التى تحيط بالموقف العلاجى من جراء هذا الخلع العاطفى . وهذا يؤكد من جديد أهمية العوامل الرمزية التى تتخلل الموقف العلاجى وتوجهه .

٥ ـ وهناك عقبة أخرى قد تحول دون اتمام العلاج أو تجعله يمتد الى أمد طويل دون جدوى . فبعد أن يكون المعالج قد تناول بالتحليل والتأويل الدوافع الجنسية والعدوانية التى تتفاعل آثارها فى العقد النفسية التى يعانيها المريض يرى أن العلاج لايسير نحو الشفاء ويلاحظ أن المريض يتمسك بالموقف العلاجى ويبدى أعراضا جديدة تستلزم مواصلة العلاج . فالعامل الجديد الذى يعرقل سير العلاج هو رغبة المريض فى أن يظل تابعا للمعالج وأن يحظى برعايته أكبر مدة ممكنة حتى لايضطر الى مواجهة مشكلاته الراهنة فى حياته الواقعية . وقد يساهم المعالج ، ان لم يكن ذا دراية كافية بحيل المريض ، فى تدعيم هذا الموقف ، موقف تبعية المريض ازاءه . ولهذا السبب أخذ المحللون النفسيون فى السنوات الأخيرة يوجهون عنايتهم نحو هذه العقبة لتذليلها بشتى الطرق وأخذوا يقررون أن الغرض من العلاج بالتحليل النفسى ليس هو الشفاء التام بل تحسين حالة المريض وتقوية ذاته بحيث يواصل هو نفسه عملية علاجه بمواجهة مشكلاته الواقعية ، وذلك بعد تزويده بالقدر الكافى من الاستبصار وتحريره من بعض القيود والموانع التى كانت تعطل نشاطه وتضعف قدرته على التكيف الناجح .

هذه النقطة الأخيرة تؤدى بنا الى التحدث عن تطور جديد طرأ على سير العلاج . فمن المعلوم أن العلاج بالتحليل النفسى الفرويدى يستغرق زمنا طويلا قد يصل الى ثلاث أو أربع سنوات ، هذا فضلا عن التكاليف الباهظة التى يتطلبها مثل هـذا العلاج الطويل . فأخـذ بعض المحللين وخاصة محللو مدرسة شيكاجو يبحثون عن الوسائل الكفيلة بتقصير مدة العلاج دون المساس بفاعليته . فقد وجدوا أنه ليس من الضرورى فى جميع الحـالات التوغل عميقا فى المكبوتات اللاشـعورية وأنه يمكن الوصول الى نتائج علاجية طيبة بتركيز الاهتمام فى المواقف الواقعية التى يواجهها المريض وبالعناية بالعوامل الاجتماعية والحضارية التى تحيط به فى الواقع . وهذا الاتجاه الجديد يرجح أهمية العوامل البيئية على أهمية العوامل الغريزية والفطرية . ويجدر بنا أن نشير هنا الى مساهمة الدراسات الانثروبولوجية فى تطوير التحليل النفسى .

هذا التطور الاخير فى منهج العلاج يكاد يبدو فى صورة اعتراض على التحليل النفسى التقليدى كما وضع أسسه فرويد وتلاميذه الاولون . هو اعتراض ثانوى لايمس جوهر العلاج بالتحليل النفسى . فالعلاج القصـير المدى لايزال يعتمد فى جوهره على الاسس النظرية التى وضعها فرويد . ولكن هناك اعتراضات قوية وجهها انصـار علم النفس التجريبى الى التحليل النفسى . فهم يقررون أن البناء النظرى الذى شيده فرويد واتباعه لتفسير الحياة النفسية ، فى نواحيها المرضية خاصة ، لايخضع للضبط العلمى كما هو مطبق فى العلوم التجريبية . فان عملية العلاج تظل محصورة بين المعالج والمريض دون ضبط خارجى ، وهى تتصف بصفة الفردية الى حد كبير لا يسمح بتطبيق وسـائل المنهج التجريبى وبالتالى لايسمح بالتعميم وبسن القوانين . ومادام الاسـاس النظرى للتحليل النفسى ناقصا فينسحب هذا النقص على عملية التشـخيص وبالتالى على عملية العلاج نفسها .

وأخذ انصـار المدرسـة التجريبية يجـرون التجارب فى معاملهم للكشف عن القوانين التى تفسر السلوك ولتحديد الظروف التى تؤدى الى نشـأة حالات شـبيهة بحـالات الأمراض النفسية . ورواد هـذه المدرسة التجريبية التى تعنى خاصة بدراسة عمليات التعليم والاكتساب هو العالم الروسى بافلوف صاحب نظرية الفعل المنعكس الشرطى .

وقد أدت هذه الابحاث الى تحديد الشروط المؤدية الى مايسمى بالعصـاب التجريبى ، والى معرفة العـوامل التى تؤدى الى تقويـة أو

اضعاف أثر المنبه أو أثر الموقف المولد للصراع أو للقلق والمؤدى الى سلوك الهرب أو سلوك المقاتلة . وقد صاغت هذه المدرسة مصطلحات جديدة أطلقتها على الحقائق التى كشف عنها ، وهى تختلف عن المصطلحات التى وضعتها مدرسة التحليل النفسى للدلالة على الاساليب السلوكية والعمليات السيكولوجية المصاحبة لها .

وقد بدا الخلاف كبيرا جدا بين التجريبيين ، أنصار المعمل العلمى، والمحللين النفسيين الذين يشبهون فى نظر رجال المعمل الكهنة والسحرة الذين يقومون بطقوسهم الغريبة فى القبائل البدائية . وقد تكونت مدرسة للعلاج النفسى على أسس الحقائق التجريبية ، ولم يقل نجاحها فى علاج المرضى العصابيين عن نجاح أنصار التحليل النفسى . فما يثير الدهشة فى مجال علاج الأمراض النفسية أن تأتى نسب النجاح متشابهة جدا من الناحية العملية فى حين يبدو الخلاف كبيرا من الناحية النظرية . هذا الوضع الغريب دفع بعض علماء النفس الى اعادة النظر فى صيغة النظرية العلمية ، ثم الى محاولة التقريب بين مفاهيم التحليل النفسى ومفاهيم علم النفس التجريبى . فاتضح من تأملاتهم وأبحاثهم أن النظرية العلمية ليست سوى نظام محكم من المصطلحات أو من الرموز ، وأنه يمكن ترجمة الواقعة الواحدة بعدة لغات مختلفة . وتمتاز لغة ما عن الأخرى بأنها تسمح بالتبادل والتفاهم أكثر من غيرها ، كما أنها تتيح أكثر من غيرها مجالات جديدة للبحث والاكتشاف . وقد وفق بعض العلماء الى ترجمة لغة فرويد بلغة بافلوف ، أى أن التجارب المعملية أيدت بطريقة قاطعة عددا لابأس به من حقائق التحليل النفسى ، وتكون بذلك ادخلت التحليل النفسى فى دائرة العلوم التجريبية .

ولهذه النتيجة دلالة كبيرة فيما يختص بمشكلة «من يقوم بعلاج الأمراض النفسية ؟» . هل هو فقط المحلل النفسى الذى درب تبعا للمنهج الذى وضعه فرويد ، أم المعالج الذى تدرب على العلاج فى ضوء نظرية التعلم كما وضعها علماء النفس التجريبيون ؟ الواقع أن لكلا الفريقين الحق فى مزاولة عملية العلاج النفسى مادامت النتيجة واحدة وان اختلفت الوسائل اللغوية التى يستخدمها كل فريق .

غير أن الفريقين بدورهما تعرضا لنقد جديد جاء هذه المرة لا من الدوائر العلمية بل من الدوائر الفلسفية . نحن نعلم أن المحلل النفسى الفرويدى والسيكولوجى التجريبى يؤمنان ايمانا قاطعا بمبدأ الحتمية أو بعبارة أخرى بمبدأ العلية كما تأخذ به العلوم الطبيعية . فالانسان

فى نظر الفريقين ليس سوى مجموعة من الميكانيزمات التى تتكون منها الآلة . غير أن الانسان آلة معقدة للغاية ، بل هى أكثر تعقيدا من الانسان الآلى الالكترونى ، ولكنه على الرغم من تعقده فهو لايخرج عن كونه آلة تخضع فى حركاتها لقوانين ميكانيكية ، ويمكن تمثيلها بواسطة معادلة رياضية . ومثل هـذا التصور للطبيعة البشرية يقضى على ماتسميه بالحرية أو بالارادة أو بالقدرة على الاختيار ، بل يقضى على ماقد يكون للحالات الذاتية من قيمة دلالية فريدة ، والمقصود هنا بالحالات الذاتية الحالات كما يحياها الشخص وكما يعانيها بجميع نبضاتها الوجدانية والفكرية .

وتسمى الحركة الجديدة بالتحليل الوجودى أو بالتحليل الفينومينولوجى ، ويتزعم هذه الحركة أطباء للامراض العقلية فى فرنسا وسويسرا ، أمثال مينكوفسكى وبنزفنجر . ويتساءل أصحاب هذه المدرسة الجديدة : «هل ينظر المعالج الى المريض النفسى كما هو فى واقع عالمه الخاص او يكتفى بالحكم عليه بالقياس الى المعايير التى وضعتها النظرية التى يقول بها» ، فالمعروف أن معايير النظريات سواء كانت تحليلية فرويدية أو تجريبية بافلوفية قد افرغت فى قوالب عقلية جامدة، والانسان المريض عندما يقاس بهذه المقاييس النظرية العقلية الصارمة يفقد طابعه الذاتى المميز له ويتحول الى شىء من بين الاشياء الاخرى . ولايمكن أن نفهم شخصية المريض بما تمتاز به من فردية واصالة عن طريق اعادة بنائها قطعة قطعة ، فهذا البناء المصطنع شبيه بشبكة تعجز حلقاتها الواسعة عن أن تلتقط هـذه النبضـات اللطيفة الخفية التى يتكاثف فيها لب الخبرة الذاتية .

على المعالج أن يتحد مع مريضه وهو يعانى أزمته النفسية فى عالمه الخاص وأن يكتشف الدلالة التى يدركها المريض لمقومات عالمه الخاص. ان القول بأن هـذا المريض قطع علاقته بالواقع قول لامعنى له . فلكل مريض واقعه ، وهو منساق داخل هذا الواقع ومتأثر بالمعانى التى يحملها هذا الواقع الشخصى ، وعلى المعالج أن يحس بدوره بهـذا الواقع وأن يعانى بدوره هذه المعانى وأن يحياها فى أعماق نفسه ولايكتفى بأن يتمثلها تمثلا عقليا جامدا .

ان التحليل الوجودى لاينكر قيمة العلم وقيمة الحقائق العلمية ، ولكنه يرى أن الحقائق العلمية فيما يختص بالانسـان حقائق جزئية ومبتورة وبالتالى عاجـزة عن ادراك لب الواقع الانسانى داخـل عالمه

الخاص من المعانى والدلالات . وهذا العجز أكثر وضوحا فيما يختص بالانسان المريض نفسيا ، أى الانسان الذى يبتعد عن المعيار الوسط الذى يضعه العلم للانسان النمطى المجرد . وعلى ذلك تصبح عمليات التشخيص والعلاج أقرب الى النشاط الفنى منها الى النشاط العلمى .

ليس من اليسير الحكم على قيمة التحليل الوجودى فهو لايزال فى مراحله الأولى ، ولكن يمكن القول منذ الآن أن قيمته تنحصر فى أنه رد فعل لتيارات سابقة تعرضت للتحجر والجمود . ومن المعلوم أن الحركات الجديدة فى العلم والفلسفة لاتنشأ فى فراغ ، بل هى دائما فى بادىء الأمر حركة مقاومة ضد أى اسراف ، وحركة تحرير من القيود التى تفرضها الأفكار والمناهج بعد أن يكون أصابها الجمود والتصلب .

غير أن النقائص التى انتابت النظريات التى يهاجمها التحليل الوجودى قد تصيببعد حين التحليل الوجودى نفسه . فهو ، بالاضافة الى الغموض الذى يكتنف مصطلحاته ، مهدد بالاسراف والتشبث ، ويمكن التنبؤ بأن رد الفعل الجديد سيأتى لا من دائرة علم النفس بل من دائرة الطب الجسمى وخاصة من دائرة العامل البيولوجية . فقد ذكرت فى بادىء هذا الحديث أن فرويد وضع جانبا ، ولو الى حين ، الأعتبارات البيولوجية فى تفسير ما يسمى بالأمراض النفسية . غير أنه لم يتمكن ان يتجاهل الجانب الجسمى فى المرض النفسى وأنيعزل الجهاز النفسى عن الجهاز الجسمى . الراقع أن الفصل المنهجى الذى اقيم بين النفس والجسم أصبح ينظر اليه على أنه يعوق تقدمنا فى معرفة الانسان من حيث هو كل متكامل وقد أوضحت التجارب التى تناولت المظاهر الانفعالية مدى التأثير المتبادل بين العوامل النفسية والعوامل الجسمية ، وقد اكتشف أخيرا أن القلق يكون مصحوبا بتغيرات كيميائية دقيقة فى بناء خلايا بعض الاعضاء . وهناك حركة اخذت تقوى على هامش الطب التقليدى وهى الحركة المعروفة بالطب السيكوسوماتى أى الطب النفسى الجسمى . وهو يتناول بعض الأمراض العضوية التى تعالج عادة فى دائرة الطب التقليدى ولكن دون فائدة كبيرة ، فأوضح المنشأ السيكولوجى لهذه الامراض وضرورة الالتجاء الى العلاج النفسى لتحقيقها وشفائها . والدلالة العلمية التى يمكن استنباطها من هذه الحركة الجديدة هى ضرورة المحافظة على وحدة الانسان بجميع مقوماتها البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، وبالتالى ضرورة اقامة التعاون بين الطبيب والمعالج النفسى على أسس علمية سليمة . فاذا كان

المعالج النفسي قد تعرض للنقد لاهماله أحيانا المظاهر الجسمية المصاحبة للأمراض النفسية فان الطبيب بدوره قد يسرف في تطبيق الوسائل العلاجية المادية ويهمل الجوانب النفسية الجديرة بالاعتبار .
واريد أن أشير هنا الى الاسراف الذى وقع فيه أطباء الامراض العقلية فى استخدام العلاج بالصدمات الكهربائية . وقد تنبهت الدوائر العلمية فى اوروبا وامريكا الى هذا الاسراف والى سوء استعمال العلاج بالصدمات الكهربائية فى حالات لايجدى فيها هذا العلاج . فان دائرة تطبيق العلاج بالصدمات فى ميدان الامراض النفسية دائرة ضيقة جدا تنحصر في بعض حالات الهبوط والاكتئاب . وهناك حالات من الهبوط تستلزم العلاج النفسى البحت كعلاج أساسى . ومايقال عن العلاج بالصدمات الكهربائية يقال أيضا عن العلاج ببعض العقاقير المسكنة اذ ان اثرها لايتجاوز حدود الاعراض ولايمكن أن ينفذ الى جذور الصراع الذى يعانيه المريض .

وهناك مجال آخر تقدمت فيه وسائل التشخيص والعلاج هو مجال الأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية لدى الاطفال . فمن المعلوم أن من أبرز خصائص الطفولة أنها المرحلة الأساسية لبناء الشخصية وتكوين مقوماتها الجوهرية . وهى تمتاز بتنشيط عمليات النمو والتعلم الى أقصى حد تحت تأثير عوامل البيئة بصفة خاصة . وتكون هذه العمليات شديدة التشابك فيما بينها فى المجالات الجسمية والنفسية والاجتماعية . فبعد الشهور الأولى من حياة الطفل حيث لاتزال مقومات الشخصية الناشئة فى حالة غموض وعدم تمايز تأخذ هذه المقومات تتضح ، وكلما تقدمت مدارك الطفل الرضيع نحو الاكتمال ازداد التفاعل بين النواحى الجسمية والنفسية والاجتماعية واشتدت عملية التأثير المتبادل بينها . ونظرا للسرعة النسبية لعمليات النمو والتطور أثناء الطفولة ، ونظرا لتعقدها وتباين صورها المتتالية يكون فهم شخصية الطفل أصعب من فهم شخصية البالغ ، اذ أن هذا الأخير قد استقر نسبيا فى بعض نواحى شخصيته واخذ يصطنع فى سلوكه انماطا عامة من التصرفات تتميز بدرجة كبيرة من الثبات . فالبالغ يكاد يكون صورة صادقة للنموذج السائد فى المجتمع الذى ينتمى اليه، فى حين أن الطفل يظل سنوات عدة مجموعة من الامكانيات والاستعدادات التى قد لا تجد الجو الملائم لنموها وازدهارها .. ولهذا السبب يبدو الطفل كأنه دائما فى حالة عصيان وتمرد ، وكثيرا مايلجأ الكبار الى الوسائل العنيفة والأساليب التعسفية لاخضاعه وتهذيبه بقصد

صبغه بالصبغة الاجتماعية الملائمـــة • والتجاء الكبـــار الى اســـتخدام الوسائل العنيفة فى تربية الطفل يرجع فى معظم الأحيان الى عجزهم عن فهم طبيعة الطفـــل وتأويلهم الخاطىء لبعض تصرفاته • واذا كانت مهمة تنشئة الطفل العادى ليست أمرا يسيرا فان الصعوبة ستزداد بلاشك ازاء الطفل المشكل ، أى الطفل الذى يعانى اضطرابات ســـلوكية وبعض الأمراض النفسية التى تحول حيـــاته وحيـــاة والديه الى سلسلة من المشقات والأزمات .

ولهذا السبب يجدر بنا أن نلقى نظرة الى التطورات السيكولوجية الحديثة فى ميدان تشخيص الاضطرابات النفسية لدى الاطفال وطرق علاجها . وكانت مهمة العناية بسلوك الطفل تدخل فى نطـاق التربية ، ويقوم بهذه العناية فى السنوات الاولى من حياة الطفل ، الوالدان ثم ينضم اليهما المدرس عندما يدخل الطفل المدرسة ، وكانت الاسرة تلقى على عاتق المدرسة الجزء الاكبر من هذه المهمة بحجة أن المعلم أكثر دراية بأساليب التربية والتهذيب ،خاصة عندما يكون الطفل مصابا باضطرابات سلوكية تتطلب أساليب خاصة من المعالجة . غير أنه اتضح أن المدرسة بنظمها التقليدية لاتقل عجزا عن الاسرة فى تناول بعض الحالات المشكلة ومعالجتها معالجة مجدية ناجحة . والحالات التى استرعت الانتباه فى بادىء الامر لم تكن تتعلق بالمشكلات الســـلوكية التكيفية بقدر ماكانت تتصل بمشكلات تعليمية . وحتى فى هذا المجال اتضح قصور المدرسة وعجزها ، مما أدى الى الاستعانة بعلماء النفس لوضع الأسس العلمية السليمة لتقدير ذكاء الإطفال وقدراتهم المختلفة لكى يتســـنى تكوين فصـــول متجـــانسة نســـبيا • ومنـذ أوائل القرن العشرين اهتم بينيه بوضع اختباره المشـــهور لقياس ذكاء الأطفـــال • ويعتبر عمل بينيه المحـاولة العلميـة الأولى لفهم طبيعـة الطفل العقلية • ولم تقتصر فائدة اختبارات الذكاء العام واختبارات القدرات الخاصة على الناحية التعليمية البحتة بل تجاوزتها الى الناحية التربوية والسلوكية ، اذ أن تكوين الفصول بشـكل متجانس وبتقليل الفروق العقلية بين تلاميـذ الفصل الواحد قد أدى بطريقة غير مباشرة الى التقليل من الاضطرابات الســـلوكية والى الاحالة دون ظهور الاتجاهات الشـــاذة والعقد النفسية لدى بعض الاطفال .

غير أن اختبارات الذكاء لا تستطلع الا جانبا من الشخصية وتهمل الجوانب الاخرى كالنواحى المزاجية والنزوعية والاتجاهات العاطفية ،

الشعورية منها واللاشعورية ، ثم كل مايتعلق بأساليب معاملة الآخرين وبعملية التكيف الاجتماعي .

ولسد هذا النقص أخذ علماء النفس ينشئون نوعا جديدا من الاختبارات للكشف عن سمات الشخصية وعن بعض النزعات العصابية وأسبابها اللاشعورية . وكانت النتائج الفرعية لهذه الاختبارات تضم الى نسبة الذكاء لتكون صورة عن الشخصية تستكمل معالمها بواسطة المقابلة الشخصية ودراسة ظروف الطفل العائلية ، غير أن الصورة التى كانت تتكون بهذه الكيفية لم تكن متكاملة صادقة ، وعلى الرغم من استخدام الأقيسة الاحصائية والتعبير عن النتائج تعبيرا كميا ظلت نواحى أخرى تستعصى المحاولات التى كانت تبذل للكشف عنها ، وهذه النواحى الخفية المستترة — وهى جد فعالة على الرغم من خفائها — تتعلق خاصة بالدوافع اللاشعورية وبالخبرات الانفعالية التى عاناها الطفل فى السنوات الأولى من حياته .

وأخيرا فازت طرق التشخيص بتقدم حاسم بفضل دراسات التحليل النفسى . ومما هو جدير بالذكر أن التحليل النفسى فى مراحله الأولى كان مقصورا على علاج البالغين ، ولكن سير العلاج كان يقتضى حتما الرجوع الى ذكريات الطفولة والى بعث الذكريات المنسية للصدمات النفسية التى عاناها المريض عندما كان طفلا . غير أن مضمون خبرات الطفولة لم يكن التعبير عنه تعبيرا صريحا مباشرا بل تعبيرا رمزيا وفى معظم الحالات تعبيرا مشوها ملتويا ناقصا ، بالاضافة الى الصياغة الرمزية المقنعة . فكان المحلل النفسى ينظر الى الطفولة خلال مرآة البالغين الذين يقوم بعلاجهم . وقد يبدو من اليسير بعد متابعة الطريق المؤدى من الطفولة الى سن الرشد أن يعكس المحلل الاتجاه وأن يبدأ من الرشد ليعود الى الطفل فيطبق عليه وسائل العلاج التى اتضحت فائدتها مع الراشدين . غير أن الأمر لم يكن بهذه السهولة التى نتصورها لأول وهلة ، ذلك للسبب الآتى : فمعظم الرموز التى يستخدمها البالغ رموز لغوية أو صور وأشكال فى امكانه أن يعبر عنها بواسطة لغة الكلام ، أما قصور الاداة اللغوية لدى الطفل ونقص النضج العقلى وعدم تكامل وسائله التعبيرية فتضطره الى أن يعبر عما يعانيه من قلق وخوف وصراع نفسى بواسطة تصرفاته الحركية وألعابه أكثر من التعبير عنها بواسطة اللغة ، وحتى التعبيرات اللغوية التى يستخدمها لايمكن فهم دلالاتها ورموزها الا اذا ربطناها بالموقف الذى يضم الطفل . واذا تذكرنا

ان الطفل مركز حول ذاته الى حد كبير وانه لايزال معبأ بشحنات كبيرة من النرجسية أو من الحب الذاتى فنكون فى الوقت نفسه قد أشرنا الى القيمة التعبيرية لتصرفات الطفل بالنسبة الى بناء شخصيته ومضمون صراعاته النفسية • ومن أهم العمليات التى يقوم بها الطفل عن طريق تعبيراته الحركية هى عملية الاسقاط . واصبحت مهمة المعالج النفسى محاولة فهم الرموز التى تختفى وراءها نفسية الطفل ووضع الاختبارات الملائمة لمستوى النمو لديه . ومعظم هذه الاختبارات تفترض أساسا ان الطفل يسقط على مواد الاختبار شخصيته بمختلف نواحيها وبخاصة النواحى النزوعية اللاشعورية من خوف وقلق وعدوان وجوع عاطفى الخ ... والاختبارات الاسقاطية متنوعة ، منها اختبار بقع الحبر لرورشاخ واختبار تفهم الموضوع لمورى والاختبارات المعروفة باسم الاختبارات الموقفية حيث يطلب من الطفل أن يعبر عن استجابته فى مواقف مختلفة تقدم له اما بشكل صور موضوعة أو بشكل واقعى فى الحياة اليومية وهناك مجموعة من الألعاب تغرى الطفل الى أن ينشط وأن يعالج أدوات اللعب وأن يضعها فى أوضاع مختلفة ، وقد يندمج الطفل فى لعبه الى حد نسيان العالم الخارجى فيقدم لنا صورة حية لشخصيته وهى تنشط وتعمل وتعبر احيانا بطريقة عنيفة • والنشاط الفنى لدى الطفل قريب جدا من نشاط اللعب وله نفس الدلالة من الناحية التشخيصية .

ذكرت منذ قليل أن الطفل أثناء لعبه قد يعبر عن مكنوناته اللاشعورية بطريقة عنيفة • وليس لهذا التعبير العنيف مجرد دلالة تشخيصية بل له أيضا فائدة علاجية ، اذ أنه ضرب من التفريغ للتوتر النفسى • فالواقع أن العلاج يكاد يبدأ مع المحاولات الاولى لتشخيص الاضطراب السلوكى أو النفسى الذى يعانيه الطفل • وهذه النقطة جديرة بشيء من التوضيح • يمكن القول بأن أسباب الاضطرابات النفسية لدى الاطفال يمكن ارجاعها الى سبب جوهرى واحد هو الخوف • فالطفل بحكم قصور وسائله يتأرجح باستمرار بين الحياة والموت ، وهو يخشى أن يفقد سنده الحيوى أى أن يفقد حب الأم له وعطفها عليه • ومن السهل أن نكتشف وراء شذوذ الطفل فى سلوكه هذا الخوف ، سواء كان الشذوذ فى شكل عدوان ونزعات تدميرية أو هبوط واكتئاب • فبمجرد ما يجد الطفل شخصا يهتم به ولا يمانع فى ارضاء رغباته ويبدى له دلائل الحب والعطف ، كما يفعل المعالج النفسى ، فانه يشعر بالطمأنينة والأمان مما يساعده على مواصلة العلاج لمساعدة الطفل على أن ينمو وعلى أن يتخلص

من قدر كبير من نرجسيته وأن يوجه قسطا من طاقته الحيوية نحو موضوعات خارجية تصبح موضوعات جديدة لحبه بالاضافة الى حبه الذاتي .

وأود هنا أن أشير الى حقيقة هامة اتضحت في السنوات الاخيرة ، وهي أن ترجيح كفة الارضاء والتسامح أضمن لسلامة الطفل نفسيا من ترجيح كفة الحرمان والتشدد . فقد اعتقد في وقت من الاوقات أن تربية الطفل في السنوات الثلاث الاولى يجب أن تكون صارمة وأنه يجب المبادرة في تعويده العادات الحسية من نظافة ونظام منذ السنة الاولى . اتضح أخيرا فساد هذا الاعتقاد ، اذ أن التشدد في تهذيب الطفل منذ السنة الاولى يؤدي فيما بعد الى تشويه بناء الشخصية وبصفة خاصة الى تكوين شخصية تسيطر عليها الوساوس والهواجس والافكار المتسلطة .

يجب على المعالج النفسي أن يتذكر دائما ان الخطر الاكبر الذي يهدد النمو النفسي لدى الطفل في سنواته الاولى هو تركيز طاقته الحيوية على نفسه مما يحول دون سير عملية التطبيع الاجتماعي سيرها الطبيعي . فالطفل الذي يعاني بصفة قاسية ألوانا من الحرمان والاحباط يلجأ الى نفسه باحثا في جسمه عن المناطق التي يمكنه أن يستمد منها لذة حسية يعوض بها عما أصابه من حرمان . وعندما تستغرق بعض مناطق الجسم كالمنطقة الفمية أو المنطقة التناسلية معظم طاقة الطفل الحيوية ، يتوقف النمو النفسي وتظل النزعة النرجسية مسيطرة عليه بصورة قوية جدا ، مما يحول دون تكوين بعض العلاقات الضرورية مع العالم الخارجي ومع البيئة الاجتماعية . وينتج عن ذلك فشل عملية التقمص ، أي عملية الاتحاد بشخصية الوالدين أو بأية شخصية تؤدي ازاء الطفل دور النموذج أو المثال الذي يحب تمثيله ومحاكاته . وفشل عملية التقمص يؤدي في نهاية الامر الى عدم تكوين الضمير الخلقي السليم وبالتالي الى تقوية الاندفاعات الغريزية وتقوية الميل الى العدوان والقيام بالاعمال التدميرية .

وهناك نتيجة هامة أسفرت عنها التجارب العديدة التي أجريت في عيادات علاج الاطفال وتوجيههم وهي ان من العبث الاكتفاء بمعالجة الطفل المريض نفسيا دون الاهتمام بمعالجة الوالدين وبخاصة الأم . ولا يكفي جمع البيانات عن تاريخ الطفل وعن ظروف حياته في الاسرة أو في المدرسة ، بل لا يكفي توجيه بعض النصائح الى الأم ، اذ اتضح في كثير من الحالات أن المشكلة التي يعانيها الطفل انعكاس للاضطراب النفسي الذي تكون الأم مصابة به . فلا بد اذن من القيام بعلاج مزدوج يشمل الطفل والأم معا . فاذا كان الطفل يشكو من اضطرابات نفسية وسلوكية

فلذلك لانه يتلقى الآثار السيئة الصادرة عن بيئته وعن أمه بصفة خاصة، اذ أن اتصالها بالطفل أقوى فى بادىء الأمر من اتصـــال الاب به ، فاذا تحسنت حالة الأم من الناحية النفسية وساعدها المعالج على أن تتخلص من عقدها ومن اتجاهاتها اللاشعورية الشاذة فسينعكس هـــذا التحسن على الطفل فتستقيم أموره من جديد وتزداد قدرته على التكيف الاجتماعى.

وما يقال عن الأم وعن تصرفاتها ازاء طفلها الصغير يقال أيضا عن الأب عندما يتجاوز الطفل السنة الثالثة ويقـــال أيضا عن المدرس ازاء تلاميذه الصغار . فلا بد اذن من تصفية الجو الاجتماعى حول الطفل لكى نضمن له نموا نفسيا واجتماعيا سليما .

السعادة فى متناول يدك *

احتلت أخبار الاقمار الصناعية والسفر الى الكواكب عبر الفضاء المكانة الاولى فى الجرائد والمجلات وتترك قراءة هذه الاخبار فى ذهن القارىء مزيجا من العواطف المتضاربة ، فنعجب حينا من قدرة العقل الانسانى وجبروته فى محاولاته الجريئة لكشف أسرار الكون وتوسيع آفاقه ، بل فى غزو الفضاء وتجاوز الحدود التى تفرضها الطاقة البشرية، وينتابنا الخوف حينا آخر من رغبة الانسان فى أن ينطلق نحو عوالم مجهولة لا بمخيلته فحسب ، بل بجسمه وجوارحه ، وأن يواجه ظروفا جديدة لا عهد له بها من قبل ..

ان من حق العلم أن ينتزع من الكون أسراره الخفية ، وأن يزيد من سيطرة الانسان على قوى الطبيعة لاستخدامها فى كل ما يحقق رفاهيته . والعقل البشرى ينزع بالفطرة الى التساؤل عن كنه الاشياء وماهية الظواهر التى تحيط به ، ولا يهدأ حتى يوفق الى تفسير أو تأويل وان كان جزئيا.. والمشكلات العلمية لا تنفك تطارد الانسان فى تفكيره وتأملاته فتدفعه الى تعمق البحث والسعى وراء تفسيرات أوفى وأشمل .

كل هذه الحقائق المتعلقة بطموح العقل الى الكشف والمعرفة جلية واضحة لا يمكن نكرانها أو تجاهلها ، تطلب المعرفة من أرقى الوظائف التى يؤديها الانسان ولا يمكن أن تكتمل الطبيعة البشرية وأن تسمو على الطبيعة الحيوانية الا بالعلم والمعرفة ، وانه لمن الخطل الحكم على العلم بأنه مصدر شر أو فساد .

غير أن الانسان ليس عقلا بحتا ، بل هو وحدة معنوية جسمية مركبة من دوافع عدة تتعاون حينا وتتضارب حينا آخر .. والحكمة المثلى تقضى بتنظيم هذه الدوافع وتنسيقها بحيث تنشط وتعمل فى انسجام واتزان دون انحراف بالغ لأحد مقومات الشخصية ، ودون سيطرة قهرية لجانب على الجوانب الأخرى .

* مجلة «حياتك» ، عدد ٣ ، نوفمبر ١٩٥٧ .

وكذلك يجب تنظيم نشاط الانسان في مجالي الفكر والعمل بحيث يتحقق الانسجام والتوازن بين مختلف أنواع النشاط حتى لا يطغى اهتمام ما على غيره من الاهتمامات ، وحتى يكون النشاط الفكرى ، وبخاصة النشاط العلمى مرتبطا بحقائق الحياة البشرية ، مستلهما فى جميع الخطوات التى يخطوها الى الامام فى مواجهة أسرار الكون الخفية ٠

وما يصيب نشاط الانسان فى حياته اليومية من انحراف قد يصيب النشاط العلمى فى بعض اتجاهاته ٠ اننا نعلم من دراسات علم النفس المرضى أن الانسان حينما يعجز عن تحقيق التوافق الايجابى النافع يلجأ الى وسائل جديدة من التكيف الذى يبدو سليما فى ظاهره ، فى حين أنه ينطوى على الانحراف والفشل ٠

ومن وسائل التكيف المزيف النزعة الى تحقيق الكمال فى جميع الشئون صغيرة كانت أو كبيرة والسعى وراء قدر أكبر من التقدير والثناء ، والخوف المرضى من الفشل أو النقد ٠٠

ومن أكثر هذه النزعات المنحرفة تحايلا وخداعا اهمال بعض الواجبات أو الاعمال المفيدة وراء ستار من النشاط الزائد الذى يوحى ، بتعدد وجوهه ، أن صاحبه موفق فى شغل أوقاته وصرف مجهوده فى حين أنه لو أصغى الى نفسه قليلا لألفاها غارقة فى لجة من الملل والاستياء ٠ فالفرار مما يجب عمله والالتجاء الى نشاط زائد يتسم بالتطرف والمبالغة، من وسائل التكيف المزيف ، ويعد لونا من ألوان الانحراف النفسى ٠

ويعلمنا التاريخ أن ما يصيب الفرد من انحراف فى سلوكه قد يصيب أحيانا الجماعات نفسها ٠ وحالات التوتر الجمعى من شأنها أن تساعد على انتشار المعانى والتصورات المحملة بشحنات وجدانية قوية ، وعلى خلق الظروف الملائمة للعدوى الانفعالية ٠

ويبدو ان اهتمام الناس فى هذه الفترة من الزمن بالسفر الى القمر له مغزى آخر غير مغزاه العلمى ، وهو محاولة الفرار من الواقع وتجاهل المشكلات الأرضية الراهنة التى تلح فى ضرورة حلها قبل اثارة مشكلات كوكبية جديدة ٠

ومن الطريف أن نذكر هنا أن فى كثير من الحضارات يعزى الى القمر ، سواء الى شكله أو الى أشعته بعض الآثار السيئة فى عقول الناس، و «القمرى» فى بعض اللغات هو الشخص المجذوب ٠٠ وربما يكون من أغراض غزو القمر شن حملة تأديبية عليه حتى يكف عن احداث الخلل فى عقول بعض الناس !!

فمن المحتمل جدا أن تقع الانسانية جمعاء فى بعض الأخطاء السلوكية التى يقع فيها الأفراد ، فتتخذ من المغامرات القمرية مثلا ذريعة لاهمال أو تجاهل مشكلات أساسية يكفل حلها بدون ابطاء رفاهية سكان الأرض ·

فقد تنبه بعض قادة الفكر الى هذا الخطر الجديد الذى يهدد أرضنا وأشاروا الى اختلال ميزان الاهتمام ، وضرر استحواذ فكرة دون غيرها على عقول المسئولين · فمشكلة التوافق النفسى والاجتماعى للشعوب والافراد لا تزال المشكلة الكبرى التى يجب أن تتوافر الجهود الصادقة لحلها واقعيا، لا بالاتجاه بنظرنا الى العوالم القمرية واجتياز الافضية السـماوية الخالية من الرحمة والطمأنينة بل بمواجهة هذه المشكلة مواجهة واقعية متواضعة·

وقد قيل قديما عن الفيلسوف اليونانى سقراط انه «أنزل الفلسفة من السماء الى الارض» ، أى أنه وجه اهتـمام الانسـان الى نفسه لكى يعرفها ، ويسبر غورها ، ويكتشف قدراتها الايجابية ، بدلا من تركيز بصره فى الكواكب والاجرام السماوية ! فان النفس الانسـانية بمثابة عالم صغير لا يقل عن العالم الكبير فى تعقده وخطر مقوماته ·

فالانسانية اليوم فى حاجة الى سقراط جديد ينبهها الى أن جولات النظر العلمى فى النفس الانسـانية ، وفى المقومات الحقيقية للانسان لاتزال قاصرة ، وأنه يجب مواصلة السعى حتى يزداد علم النفس تقدما ، ويزداد المربون دراية بدوافع النفس وبطرق توجيهها وعندئذ يصبح من يملك زمام نفسه مالكا للعالم حقا ··

فعلى كل انسان أن يكون سقراط نفسه ، وأن يوفر بعض جهوده لمعرفة نفسه واكتشاف قواها الخفية ، وعندئذ سيدرك أن السعادة الحقة ليست فى الفرار نحو الآفاق البعيدة ، بل هى فى انجاز ما يجب انجازه كل يوم من الاعمال المتواضعة بعد استئصال النزعات المنحرفة التى تبدد الطاقة النفسية ، وتترك الانسان فريسة للخوف والقلق ·

العلاج النفسي
عند القدماء والمحدثين *

ان لكل مشكلة علمية طرفين مرتبطين ارتباطا مزدوجا : تعاون وتعارض في آن واحد ، تعاون بين الفكر والواقع ، يؤدى الى صياغة الحقائق المكتشفة بواسطة مجموعة من المصطلحات ، ثم تصاب هذه المصطلحات بالجمود والتحجر فيقوم التعارض بينها وما تحدثه مواصلة البحث العلمى من تغيير فى مضمونها ٠

فمن جهة هناك الواقع المعقد الغامض الذى يثير اهتمام العالم ، ويدفعه الى البحث عن حقيقته بشتى وسائل الملاحظة والتجريب ، ومن جهة أخرى هناك مجموعة من الآراء والاحكام التى ستنسقها النظرية التى ترمى الى تفسيره ٠ والمثل الأعلى فى التفسير العلمى هو تحقيق أكبر قدر ممكن من التطابق بحيث يقل اللبس والغموض ٠ وقد قيل بحق ان العلم هو لغة محكمة الصنع ، ولذلك تجد ان كل علم يعنى عناية خاصة بوضع مصطلحاته وبتعريفها تعريفا جامعا مانعا بقدر الامكان ٠

غير ان هذا المثل الاعلى يزداد تحقيقه عسرا كلما ابتعدنا عن ميدان العلوم الرياضية والطبيعية واقتربنا من ميدان العلوم الانسانية ، فالمصطلح فى بنائه اللغوى يظل هو هو ، فى حين ان مضمونه يتطور ويتغير مع تقدم البحث والنظر ، وقد يصل هذا التفاوت بين ثبات المصطلح من حيث شكله اللغوى وتطور المضمون الى حد التعارض بينهما ، مما يدفع بعض العلماء الى طرح المصطلح القديم جانبا ووضع مصطلح جديد أكثر ملاءمة مع مجموعة الحقائق أو الآراء التى وصل اليها العالم فى بحثه ٠ وهذا التفاوت بين المصطلح كما شاع استعماله وبين مضمونه العلمى الجديد واضح جدا فى كثير من المشكلات السيكلوجية وبخاصة فى مجال علم النفس المرضى والطب النفسى ٠ ولهذا السبب يجب من حين الى آخر اعادة النظر فى بعض المصطلحات الشائعة للوقوف على مدى التطابق بين الاسم والمسمى ، أو بين الشكل والمضمون ٠

---

* نشر هذا المقال فى مجلة « العربى » مايو ١٩٦٠ ٠ وفى نهاية المقال نص الخطاب المرسل من يوسف مراد الى رئيس تحرير المجلة ٠

فما المقصود مثلا بعبارة (العلاج النفسي) وهى ترجمة كلمة Psychotherapy

فالمدلول القديم لهذا اللفظ هو علاج الامراض بالوسائل النفسية ، سواء كانت هذه الامراض نفسية أو عضوية ، ثم تطور هذا المدلول حتى أصبح يطلق على علاج الامراض النفسية فقط . ثم نشاهد اليوم العودة الى المعنى الاصلى وهو العلاج بالوسائل النفسية سواء كان المرض نفسيا أو جسميا .

ولا يتسع المقام لبحث هـذه الآراء ومناقشتها ، وهى وثيقة الصلة بالفلسفة ، سواء كانت فلسفة مادية أو روحية ، ولا يعنى ابعاد المشكلة الفلسفية من دائرة هذا المقال انها غير جديرة بالبحث ، فمن اليسير أن نتبين ان كل اجراء عملى نقوم به بصدد الانسان يتضمن موقفا فلسفيا فيما يختص بطبيعة الانسان وخصائصه ككائن مفـكر اجتماعى . فاذا تأملنا فى المعنى الاصلى لعبارة «العلاج النفسى» فاننا نجد الطبيب يسلم بوجود عوامل نفسية وجسمية تتفاعل باستمرار فى سلوك الانسان ، وبأن هذا التفاعل يشاهد فى حالات الصحة والمرض على السـواء . فالطبيب الذى يركز اهتمامه فى الانسان المريض لا فى مجموعة الاعراض المرضية فحسب ، يعلم علم اليقين ان الروح المعنـوية لدى المريض تؤثر فى سير المرض الجسمى وفى درجة المقاومة ، فهو يتخذ تلقائيا الوسائل النفسية لرفع الروح المعنوية وتقويتها فيوجه الى المريض عبارات من شأنها بعث الامل والتفاؤل فى نفسه وتهدئة مخاوفه . وقد يكون التشجيع والايحاء بالتحسن والحث على التفاؤل ، بشتى الطرق المباشرة وغير المباشرة .

ولا شك ان الايحاء يكون أكثر تأثيرا فى الامراض النفسية منها فى الأمراض الجسمية . وقد لا يؤدى مجرد الايحاء الى القضاء على المرض وان أدى فى معظم الاحيان الى تخفيف الاعراض أو ازالة بعضها ولو الى حين . ومن النادر حقا أن تقتصر شكوى المريض على الجانب النفسى فقط ، فحتى فى الحالات التى تقوم فيها العوامل النفسـية بالدور الاساسى فى احداث المرض لا تخلو شكوى المريض من الاشارة الى بعض الآلام الجسمية ، وبهذا الصدد يكون من الخطأ القول بأن هذه الآلام وهمية ، لأنها هى جزء من الخبرة التى يعانيها المريض وهى فى نظره واقعية ما دامت تؤثر فى تفكيره وسلوكه . والقول بوهمية بعض الاعراض مثال طيب للاخطاء التى توقعنا فيها بعض الالفاظ عندما نأخذ بمعناها العام السائد . اننا نقـابل بين الوهمى والواقعى ويدفعنا هذا التقابل دون أن نشـعر الى الاعتقاد بأن

الوهمى ليس له وجود واقعى وانه عديم الاثر وبالتالى ليس جديرا بالاهتمام والعناية ٠

ان الطب القديم فى مجموعه وحتى القرن السادس عشر كان يعد الانسان وحدة نفسية وجسمية متكاملة وكان الطبيب يستخدم على السواء الوسائل النفسية والجسمية لعلاج جميع الامراض دون اقامة تفرقة فاصلة بين أمراض نفسية وأمراض جسمية ٠ والطب العربى بصفة خاصة كان متمسكا بهذه النظرة التكاملية التى كان يوحى بهـا الواقـع الانسانى وتؤيدها الممارسة الطبية ٠ والامثلة على ذلك كثيرة وحسبنا أن نشير الى أحد عباقرة الطب العالميين وهو أبو بكر محمـد بن زكريا الرازى المتوفى عام ٣١٣هـ ، صاحب كتاب الحاوى(١) فى الطب ومنشىء الطب الاكلينيكى بمعناه الحديث ٠ اننا نقرأ فى كتابه « الطب المنصورى » ، وقد لخص فيه أهم ما جاء فى كتاب « الحاوى » فصولا تمهيدية تتناول بالبحث الامزجة والاحلام والتأثير المتبـادل بين النفس والجسم وتؤكد ضرورة مراعاة هذا التفاعل النفسى الجسمى فى علاج المرضى ٠

ونجد هذا الاتجاه عينه فى كتاب «كامل الصناعة الطبية» لابن العباس المجوسى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ فانه يوصى الانسان بأن يتجنب الاعراض النفسانية ويلهم نفسه الفرح والسرور ٠ ومن الاعراض النفسـانية التى ذكرها ابن العباس : الغضب والهم والغم والزمع (الجزع والقلق) والفزع والخجل ، بل ان الفرح ان تجاوز الحد ، أدى الى اختـلال الفكر ٠ فان هذه الاعراض النفسانية تسبب بعض الامراض مثل حمى الدق والذبول وقرحة السل ٠

وجاء فى كتاب الامام فخر الدين الرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ (السر المكتوم فى مخاطبات النجوم) ما نصه : « التجربة والقياس يشهدان بأن

---

(١) من المؤسف حقا أن يظل هذا السفر النفيس مخطوطا لم ينشر وقد ترجم فى عصر النهضة الى اللغة اللاتينية ، وطبع عدة طبعات فى البندقية ، ومنها طبعة عام ١٥٠٩ التى اتيح لصاحب هذا المقال الاطلاع عليها فى المكتبة البدليانية فى اكسفورد ٠ ومما يزيد من اسفنا ويحز فى عزتنا العربية ان النص العربى الكامل لكتاب « الحاوى » من العسير الحصول عليه فى الوقت الحاضر ٠ فانه توجد منه أجزاء مخطوطة فى المكتبة البدليانية فى اكسفورد وأجزاء أخرى فى مكتبة مدريد باسبانيا وفى مكتبة ميونخ بألمانيا ٠ واذا عزمنا على احياء هذا السفر الجليل ونشره فمن المستطاع سد النقص ٠ باعادة ترجمة الأجزاء المفقودة من اللاتينية الى العربية ٠

التصورات قد تكون مبـــادىء لحدوث الكيفيات في الابدان ، فان الغضب القوى قد يعيد السخونة القـوية جداً • حكى أن بعض الملوك عرض له فالج قوى عجز الاطباء عن علاجه فهجم بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه مشافها اياه بالشتم العظيم ، فاشـــتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة قوية ليضرب الشاتم فاندفعت تلك المواد بســـبب حرارة الغضب وزالت تلك العلة القوية » (مخطوط مكتبة برلين رقم ٥٨٨٦ ص ١٤) •

وقد حدث بعد انتشار فلسفة ديكارت فى القرن الســابع عشر ، والتى تفصل فصــلا جوهريا بين النفس والجسم ، وبعد تقـــدم العلوم الطبيعية ، انقصر الطب اهتمامه على الجانب الجسمى ، وترك علاج الامراض النفسية التى كان يدخلها فى دائرة المظــاهر الوهمية لفئة من الدجالين كانوا يدعون ان لديهم قوة خارقة لعلاج مرضى النفس ، فشاعت الشعوذة فى هـــذا الميدان ، ونشأت فرق تجمع فى تعاليمها بين بعض النزعات الصوفية المنحرفة وبعض الملاحظات الســـطحية مما أحاط عالم الامراض النفسية بهالة من الغرابة والغموض ، وأثار اهتـمام الذين يتوقون الى كشف الغيبيات والاتصال بالارواح •

ثم نشأت حركة عرفت بالمغنطيسية الحيوانية بزعامة الطبيب النمساوى مســمر ثم جاء ما يعرف اليـــوم بالتنويم المغنطيسى وقد بينت البحوث العلمية أن العامل الوحيد القائم وراء هذه المظاهر الغريبة هو الايحاء وأن ما يقال عن تحضير الأرواح ليس الا من أثر الايحاء لدى أشخاص يعانون فى جانب من جوانب شخصيتهم شيئا من التفكك والانحراف • فجميع الحالات التى كان يتم فيها الشفاء ــ وهو دائما شـفاء سطحى مؤقت ــ يمكن تفسيرها علميا بما يحدثه الايحاء فى نفسية المريض • ودلالة هذا الشفاء ليست أمرا جديدا بل تدعم الرأى القائل بأثر العوامل النفسية وأثر الألفاظ والتصـــورات فى نفسية المريض وفى حالته الجسمية ولما تقدمت البحوث السيكولوجية التجريبية وامتد تطبيق المنهج التجريبى الى مجال الأمراض النفسية والعقلية ، ازداد فهمنا لطبيعة هذه الأمراض وأسباب نشـأتها • وبينما كان الطب الجسمى يواصـــل انتصاراته بفضـــل بحوث المختبرات والتحاليل الكيميائية والدراســات التشريحية والفسيولوجية ، قامت حركة علمية جديدة أدت الى اقامة الطب النفسى على أسس علمية تستند الى بحوث علمـاء النفس ، والى الحقــائق التى كشفها مؤسس التحليل النفسى سيجموند فرويد • فقد مارس فرويد

فى بدء حياته العلمية معالجة الأمراض النفسية ــ أو ما يطلق عليها فى لغة العامة الأمراض العصبية ــ بالوســائل المادية كالعقاقير أو الأشعة فوق البنفسجيه ثم لم يلبث طويلا حتى درك عقم هذه الطرق فى العلاج . فلجأ فى بادىء الأمر الى التنويم الصناعى ، ثم عدل عنه وأخذ يضـع أسس العلاج بالتحليل النفسى بوساطة تداعى المعانى غير المقيد وتأويل الأحلام ، وقال بأن الأمراض النفســية المنشأ لا يمكن معالجتها وشفاؤها الا بالوسائل النفسية .

وعندئذ تحدد مفهوم العلاج النفسى فأصبح علاج الأمراض النفسية بالوسائل النفسية ، وحذر فرويد المعالج النفسى من أن يوصى بالعلاج الطبى بالعقاقير أثنـاء العلاج النفسى ، لأنه يرى ان الالتجاء الى العلاج الطبى وسيلة هروبية يســتغلها المريض كيلا يواجه مشــكلاته النفســية محاولا توجيه اهتمام المعالج نحو الأعراض الجســمية التى هى فى نظر المعالج أعراض ثانوية لاحقة .

وقد أثار التحليل النفسى سيلا من البحوث والمناقشات بين المؤيدين والمعارضين ، ويجدر بنا أن نقرر هنا أن أثر التحليل النفسى كان عميقا جدا فى مجال العلاج النفسى ، بل فى مجال الطب العقلى كما يدرس فى كليات الطب التى تغلب على دراساتها النظرة الجسمية العضوية . كما ان هذا الاثر لا يقل عمقا وتوغلا فى مجال الدراسات السيكلوجية ، فهناك مجموعة من الحقائق الخاصة باللاشعور وبتأثير الدوافع اللاشعورية فى السلوك أصبحت جزءا أساسيا من حقائق علم النفس العام وبخاصة فيما يتعلق بالحياة الانفعالية ، وبتكوين العواطف والاتجــاهات ، وأساليب الاستجابة فى المواقف الاجتماعية . كما ان نظرتنا الى دور خبرات الطفولة فى تشكيل الشخصية قد تغيرت بفضل التحليل النفسى ، فان معنى العقدة النفســية ، حتى اذا عبرنا عنه بأسلوب يختلف عن أسلوب المحللين ، أصبح معنى جوهريا فى فهمنا لنشأة المرض النفسى ، بل فى فهمنا لكثير من انماط السلوك . وما يصدق على معنى العقدة النفسية يصدق على معان أخرى مثــل الصراع اللاشعورى والمقاومة والتثبيت والنكوص والكبت والاســقاط والاعلاء والتحـول وغــيرها من حيــل الدفاع والتمـويه والتكيف .

فالتحليل النفسى يؤكد وجود أمراض نفســية المنشأ والمضمون ، لا يمكن شفاؤها الا بالوســائل النفسية التى ابتدعها فرويد ومارسها بنفسه أكثر من أربعين عاما ، والتى حلت محل التنـويم وشتى وسائل

الايحاء الاخرى ٠ ان جذور المرض النفسى ترجع الى خبرات الطفولة عندما تصطدم الغرائز وبخاصة الغريزة الجنسية بالقيود التى يفرضـــها عليها النظام الاجتـماعى ، وان المرض النفسى ليس الا تعبيرا رمزيا للصراعات التى عاناها الطفل فى جـــو من الغموض والقلق والتوتر والتى أدت الى توقف نموه الوجدانى والعاطفى والاجتماعى فى مرحلة من مراحل النمو، والى حصر قدر من الطاقة النفسية وتعطيله وراء العقدة النفسية اللاشعورية مما يجعـــل المريض يسلك فى بعض المواقف المثيرة للقلق الذى عاناه فى طفولته المسلك الطفلى عينه الذى كان يواجه به المواقف الصراعية عندما كان طفلا غير ناضج من الناحيتين الفكرية والانفعالية ٠ فالمريض النفسى وان كان قد وصل الى النضج الفكرى فى كثير من مواقف الحياة ، ينقصه النضج الوجدانى والاجتماعى ، ويعود هذا النقص يؤثر بدوره فى تفكيره فهو يدرك التفاوت الكبير بين دلالة المنبه الظـاهرية واستجاباته الطفلية الاندفاعية المضطربة لهذا المنبه ولكنه عاجز عن أن يفسر هذا التفاوت ٠

ومهمة المحلل النفسى هى مساعدة المريض على تفسير هذا التفاوت، وعلى حل العقدة النفسية التى نشأت عن الصراع بين مقومات الشخصية وتوجيهات التربية ومطالب المجتمع ٠ فلا بد لحل الصراع من بعثه من عالم النسيان اللاشعورى ، أى من عالم الكبت ، الى عالم الشعور ، ولا بد من أن يعانى المريض من جديد الموقف الانفعالى الذى عاشه فى طفولته والذى ادى الى تكوين العقدة النفسية ٠ وعودة الذكريات المؤلمة يزيد من استبصار المريض ومن فهمه لحالته ، وزيادة الاستبصار تسمح له بأن يتمثل الخبرة المؤلمة وبأن يدمجها فى تيار شخصيته الواعية ، فيخفف بذلك من وطأتها ويجعلها شيئا مألوفا يمكن السيطرة عليه ٠

ويقوم المعالج النفسى بمســـاعدة المريض على تمثيل خبرات الطفولة وذلك بتأويلها بالنسبة الى عقلية الطفل غير الناضجة ودلالتها بالنسبة الى الراشد الذى يكون قد حقق فى مجال التفكير قدرا من النضج يفوق القدر الذى حققه فى مجال الحياة الانفعالية ٠ وعملية التأويل التى يقوم بها من أدق العمليات ، فعليه أن يلقى الضوء على صراع الاندفاعات التى كانت تتنازع نفسية المريض عندما كان طفلا ، وعلى أساليب المقاومة التى يلجأ اليها بطريقة لاشعورية لتعطيل العلاج ، اذ ان المرض النفسى ضرب من التكيف الشاذ يضمن للمريض قدرا من الكسب المعنوى فيجنبه بعض التبعات ويجلب له عطف الآخرين ٠

ثم هناك مرحلة حاسمة أثناء العلاج بالتحليل النفسى ، فلا بد من

أن تتكون علاقة عاطفية بين المريض والمعالج ، وقد تكون علاقة حب أو كراهية • غير أن المعالج ليس سوى بديل لشخص آخر ، قد يكون الأب أو الأم أو من قام مقامها عندما كان المريض طفلا • وليست هذه العلاقة العاطفية الا بعثا لموقف قديم من مواقف الطفولة ، فالمريض يسقط على المعالج ما كان يعانيه من دوافع وجدانية ، سواء كانت جنسية أو عدوانية، ازاء الأب أو الأم • فالمعالج يؤدي دور المرآة التي تعكس ما يسقط عليها ، أو دور الستار الذي يخفي وراءه الطرف الآخر من المأساة التي عاناها المريض في طفولته • فالموقف دقيق جدا بالنسبة الى المريض والمعالج معا ، لان تكوين هذه العلاقة العاطفية بينهما أشبه ما يكون باضرام النار التي كانت خابية تحت الرماد ، فلا بد من اخمادها ، لا بالأساليب الطفلية التي سبق أن أدت الى تكوين المرض النفسي بل بالأساليب الفكرية التي تميز الشخص البالغ الناضج والتي ستؤدي الى حل العقدة وتصفية الجو الوجداني الذي كان مشحونا بالتناقض والتوتر والقلق •

ويرى التحليل النفسي انه لابد من أن تحدث هذه الأزمة العاطفية بين المريض والمعالج ، لأنها الدليل على أن الطاقة الوجدانية التي كانت حبيسة في العقد اللاشعورية أخذت تنطلق وتتحرر وتصبح قابلة للتصرف بها من جديد • فالمعالج ليس سوى القنطرة التي ستسمح لهذه الطاقة ، التي هي في سبيلها الى التحرر والانطلاق ، بأن تنتقل من المريض الى موضوعها الملائم لها ، أي الى شخص من الجنس الآخر هو غير الاب أو الام أو المعالج نفسه •

ان هذه النظرة السريعة الى أهم مراحل العلاج النفسي تكفي لأن تبرز صعوبة العلاج والعقبات التي تعترض أطواره العديدة ، وتبين لنا السبب الذي من أجله يستغرق العلاج مئات من الجلسات ، وزمنا طويلا قد يصل الى ثلاث أو أربع سنوات بمعدل أربع أو خمس جلسات أسبوعية • ولكن على الرغم من هذه الصعوبات يحتفظ التحليل النفسي بوجه عام بقيمته العلاجية ، سواء في صورته الاولى كما وضعها فرويد أو في صوره المعدلة • فالحقائق الاساسية التي كشفها التحليل النفسي لا تزال قائمة غير ان الخبرة التي اكتسبها المحللون منذ نصف قرن سمحت بتحديد الحالات التي يجدي فيها التحليل النفسي تحديدا أدق من ذي قبل ، وسنكتفي هنا بالاشارة الى أهم هذه الحالات •

فالتحليل النفسي لا يزال أحسن وسيلة لعلاج المخاوف المرضية ، وللكشف عن الصراعات النفسية الكامنة وراءها ، وذلك بسبب شدة

الكبت وعمقه ولغموض التعبيرات الرمزية البـــديلة ٠ فالتنـويم مثـلا لا يجدى ، على الرغم من بعض النتـائج المذهلة التى قد يحققها ؛ لأنهـا نتائج سطحية لا تدوم طويلا ، وكذلك لان التنويم لا يحقق هدف العلاج الديناميكى الحـق الذى يصـل وحده الى جـذور الصراعات النفسية اللاشعورية وكثيرا ما يشاهد فى العلاج بالتنويم ظهور مخـاوف جديدة بدلا من المخاوف التى قضى عليها فى بادىء الامر ٠ فالتنويم لا يمس جذور المرض ٠

وما دام الشخص الذى يعانى مخاوف مرضية يدرك تمـاما سخافة هذه المخاوف ، فالعلاج بالايحاء أو بالاقناع لا يجدى البتة ، بل قد يزيد لدى المريض من شعوره بالاثم ومن موقفه العدوانى نحو المعالج وبالتالى يزيد من مقاومته ٠

والمرض الثانى الذى يفيد الى حد كبير من التحليل النفسى الهستيريا التـحولية حيث يعبر المريض تعبيرا رمزيا عن صراعه النفسى عن طريق تعطيل بعض الوظائف الحسية والحركية ٠ أما فى الحـالات الهستيرية الاخرى ، مثل الحالات الحادة لفقدان الشهية أو فى الحالات التى يسودها القلق والاضطراب فيجب تهدئة المريض بشتى الوسائل قبل الشروع فى التحليل النفسى ٠

ولا يجدى التحليل النفسى فى الهستيريا لدى المتقدمين فى السن ، وضعاف العقول وفى حالة ما يكون الكسب الذى يجنيه المريض من مرضه كبيرا جدا ، أو فى حالة ما تكون الاعراض الوظيفية فى الهستيريا التحولية هى الوسيلة الوحيدة لدى المريض لحل صراعه النفسى وذلك عندما تكون ظروفه المعيشية مصدرا دائما للاحباط والصد ، ويكون فى الوقت نفسه من المحال تغيير هذه الظروف ٠

وكذلك لا يجدى التحليـــل النفسى فى بعض حالات النورستانيا والهجاس لدى المريض الذى يشعر بالملل وبتفاهة الحياة ، لانه يجـد أن الشكوى من الآلام النفسية والجسمية التى يعـانيها هى الوسيلة الوحيدة للترفيه عن نفسه ٠

والتحليل النفسى هو العلاج الوحيد فى حالات الوسواس والافكار المتسلطة المستحوذة على عقل المريض ولكن بشرط أن يكون العلاج مبكرا أى منذ ظهور الاعراض الاولى وقبل استفحالها ٠ أما فى الحالات المزمنة فالتحليل النفسى عاجز عن الشفاء كما ان الوسائل الاخرى مثل العـلاج

بالصدمات أو بالعقاقير أو بجراحة المخ لا تجدى البتة . وقد قيل أن حالات الوسواس والاندفاعات القهرية هي بالنسبة الى الامراض النفسية الاخرى بمثابة السرطان بالنسبة الى الامراض الجسمية . فالاجراء الوحيد المجدى هو العلاج المبكر جدا ، بل الوقاية المنظمة .

أما فى حالات عصاب القلق أو الحالات المشابهة له فانه لا بد من القيام بالتشخيص الفارق الدقيق قبل التوصية بالعلاج بالتحليل النفسى، وذلك لأن القلق قد يصاحب كثيرا من الاضطرابات النفسية والعقلية ولابد من التمييز الدقيق بين الحالات العصابية وبين الحالات الذهانية أو الامراض العقلية الخطيرة التى تكون فى طورها الاول ، والتى لا يجدى فيها التحليل النفسى ، بل قد يؤدى الى تفاقم المرض ودفع المريض الى الانتحار .

وكذلك يفيد العلاج بالتحليل النفسى فائدة عظيمة فى الاضطرابات الجنسية الوظيفية ، أى التى لا ترجع الى أسباب عضوية ، مثل حالات القصور والعجز الجنسى التى تسببها صراعات نفسية مكبوتة أدت الى فصل عنصرى الحب ، العنصر العاطفى والعنصر الحسى ، بعضهما عن بعض .

يتضح مما سبق أن التحليل النفسى ، بفضل التجارب التى مر بها ، اتخذ موقفا جديدا يتصف بالحذر وبروح النقد والشك العلمى وهذه الروح كفيلة بأن تضمن تقدمه وتكفل فائدته فى مجال التطبيق والعلاج .

عزيزى الأستاذ الدكتور أحمد زكى

تحية طيبة وبعد تلقيت شاكرا خطابكم رقم م /١٤٦٥/٥٩ بتاريخ ١٧/١١/١٩٥٩ بشان كتابة مقال فى مجلة العربى عن حقيقة العـلاج النفسى ويسرنى أن أسـاهم فى تحرير مجلتـكم الغراء وقد شرعت فى كتابة المقال غير أننى استسمحكم بتأخير ارساله بعض الوقت لكى أوفى البحث حقه فيما يختص بمدى نجاح العلاج النفسانى فى أمم الغرب أو فشله وما يرجى له فى أمم الشرق • والواقع أنه قامت حملة أخيرا ضد العلاج النفسى كمـــا يطبقه رجال التحليـل النفسى وتدعو هـذه الحركة الجـديدة الى انشـاء ما يسـمى بالعلاج السلوكى Behaviour therapy وأنا فى حاجة الى بعض الوقت للاطلاع على أحدث التطورات فى هذا المجال ثم ان هناك اتجاها جديدا فى مجال علاج الأمراض النفسية والعقلية • فقد اكتشـــفت فى السـنوات الأخيرة عقـــار جديد Lysurgic acid diethylamide من آثاره احداث أعراض شـــبيهة بتلك التى تشـــاهد فى ذهان الهوس والاكتئاب أو فى الفصام ويمكن القضاء على هذه الأعراض بواســـطة عقار آخر هـــو Largactil مما جعل العلماء يتحدثون عن المنشأ الكيميائى للأمراض العقلية • هذا فضلا عن أن حامض الليسرجيك بدأ استخدامه منذ عام ١٩٥٤ كوسيلة لعلاج الأمراض العقلية • وانى علمت أخيرا أن طبيبا انجليزيا من المتخصصـين فى الطب العقلى سيحضر الى مستشفى بهمان للأمراض العصـبية والنفسية بحلوان لتدريب أطبـاء المستشفى على استخدام هذا العقار الجديد فى التشـخيص والعـلاج • وحيث انى فى حاجة الى مطالعة عدد من المقالات العلمية بشأن هذا العقار الجديد لمعرفة ما سيترتب على تطبيقه من آثار فى مجال العـلاج النفسى فانى أطلب مهلة اضافية لاعداد المقال بحيث يقدم شيئا جديدا لقراء مجلة العربى • وأرجو أن أتمكن من ارسال المقـال فى ظرف أسبوعين ، كمـا أرجو أن تتقبلوا عذرى عن هذا التأخير الطويل •

أرجو أن تكونوا متمتعين بكامل الصحة والعافية داعيا لكم بالنجاح والتوفيق فى مواصلة مجهودكم الثقافى الرائع على صفحات العربى •

ودمتم بخير وعافية

يوسف مراد

أمراض الأنفس
كيف تطور علاجها ؟ *

عرضت فى مقالى السابق لمفهوم العــلاج النفسى ، وقد حدث منذ عشرين عاما تطور جديد فى نظرتنا الى بعض الأمراض الجســـمية ، حيث تكون الاصابة عضوية ، بالاضــافة الى الاضطرابات الوظيفيــة الأخرى المصاحبة لها • وأدى هـــذا التطور الى نشـــأة ما يعرف اليوم بالطب السـيكوسوماتى اى الطب النفسى الجسمى (ســيكو = نفسى • سوما = الجسم) • وهذه التسمية غير موفقة فى الواقع لأنها توحى بالفصــل بين النفس والجسم ولكن ما هو جدير بالنظر هو فحوى هذه التسمية •

ان الطب السيكوسوماتى يعود الى نظرة القدماء الى الانسان ، فلا تمييز فى الواقع بين جوهر نفسى وجوهر جسمى • أن الحقيقة الواقعة هى « الانسان » كما يحس وينفعل ويفكر ويتحرك ويتنفس ويهضم الخ •• ، الانسان ، من حيث هو مجمــوعة من الاستجابات لشتى المــواقف التى تحيط به ، وكل استجابة تصدر عن انسان ما تحمل طابع هذا الانسان وتصدر عنه من حيث هو وحدة متكاملة • ويذكرنا أنصار هذه المدرسة برأى ارسطو الذى يقول : ان الانفعال ليس فى النفس ، كما انه ليس فى الجسم ، بل هو فى الانسان كله • وما يقال عن الانفعال يقال أيضا عن أى وظيفة سواء وسمناها بالنفسية أو الجسمية • فالانسان يفكر لا بعقله فقط بل بعضلاته وبدورته الدموية وبمعدته وبسائر أحشائه • والانسان لا يتنفس فقط بواسطة رئته ولا يهضم بواســطة معدته ، بل بوجدانه وأيضا ، بعقله وفكره وذاكرته ومخيلته وبسائر الوظائف التى اصطلحنا على نعتها بالنفسية • واذا أصررنا على أن نميز فى كلامنا بين النفسى والجسمى فهذا التمييزلاوجود له فى واقع شتى العمليات التى تكون سلســلتها المتشابكة المتفاعلة سلوك الانسان •

---

* مجلة « العربى » ، نوفمبر ١٩٦٠ •

وقد خص الطب السيكوسوماتي بالدراسة مجموعة كبيرة من الأمراض التي تصيب الجهاز الدوري والتنفسي والهضمي والافرازي ، بخاصة الوظائف العضوية الخاضعة في نشاطها للجهاز العصبي السمبتاوى . ومن الأمراض السيكوسوماتية يمكن أن نذكر قرحة المعدة ، وقرحة الاثنى عشرى ، والالتهاب التقيحي للامعاء الغليظة ، وارتفاع ضغط الدم الاساسى، والربو ، وتضخم الغدة الدرقية وبعض الالتهابات والامراض الجلدية والاضطرابات العضوية الناشئة عن الانعصاب stress والتي يضمنها الطبيب الكندى سلى Selye فيما يسميه بأمراض التكيف .

وقد بينت التجارب والدراسات الاكلينيكية أن تهيئة الشخص للاصابة بهذه الامراض ترجع الى التوتر الناشىء عن الصراعات السلوكية التي يعانيها المريض ، الى عجزه عن ارضاء حاجته الى الحب والعطف والطمأنينة ، وعجزه عن تصريف ما يحتدم في نفسه من نزعات عدوانية ، أو الى التفاوت الكبير بين قدراته الحقيقية ومستوى طموحه . وهذا يفسر لنا هذا القدر الكبير من القلق الذى يصاحب دائما الأمراض السيكوسوماتية .

وما دام الأمر كذلك فيما يختص بنشأة هذه الأمراض فان العلاج الطبى بالعقاقير أو بالراحة قد لا يؤدى الى الشفاء التام ، فلابد عندئذ من الاعتماد على شتى وسائل العلاج النفسى لمساعدة المريض على فهم حالته ، وتزويده بقدر من الاستبصار ازاء الصراعات النفسية التى يعانيها . وعلى ذلك يمكن القول بأن العلاج النفسى امتدت آثاره العلاجية الى أمراض عضوية كان من شأن الطب الجسمى وحده علاجها .

بل هناك تطور جديد في مفهوم العلاج النفسى يخرجنا من دائرة التحليل النفسى المقصور على الموقف الثنائي المكون من المريض والمعالج . ان موقف المحلل النفسى مطبوع بوجه عام بطابع السلبية ، خاصة فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية ، أخذت تزداد بروزا ، مما أدى الى توسع مفهوم العلاج النفسى بحيث أخذ يضم العلاج بالعمل واللعب والنشاط الفنى ، ومختلف وسائل التأهيل وتذليل الصعوبات التى تعترض تكيف المريض فى مجتمعه الخاص . واتسم العلاج النفسى بسمة ايجابية نشيطة فتجاوز حدود العيادة الى مجالات النشاط المدرسى والمهنى والترفيهى وغيرهما من صور النشاط الاجتماعى .

ولهذا التطور الأخير آثار بليغة بالنسبة الى نظرة الجماعة الى الأمراض النفسية والعقلية . كان المريض يشعر انه الى حد كبير منبوذ من المجتمع،

وكان يخجل من مرضـــه بعكس المريض بالقلب أو بالكبد مثلا • وحتى اليوم وفى كثير من البلاد نرى مستشفيات الأمراض العصبية والعقليه أشبه بالسجون منهـا بدور للعـلاج • وقد وجد أخيرا أن عزل المريض والنظر اليه نظرة ملؤها الاستغراب والحيطة يؤديان الى مضاعفة أعراض مرضه والى القضاء على ما يكون قد تبقى له من رغبة فى الشفاء وفى العودة الى الحياة الطبيعية • نعم ان نظام المعـاملة داخل مستشفيات الأمراض العقلية قد تحسن كثيرا منذ القرن التاسع عشر عندما حطمت الاغلال التى كانت تصفد المرضى ، وقد آن الاوان ، بعد أن ظفر الطب بمجموعة متنوعة من المهدئات ، لازالة القضبان وتحطيم الأسوار العالية التى تفصل المريض عن العالم الخارجى ، الاسوار المادية والاسوار المعنوية على السواء •

ويجدر بنا بهذا الصدد أن نشير الى ما أنشىء فى بعض بلاد الغرب من مستشفيات نهارية للمرضى الخارجيين • فيأتى المريض فى الصـباح ويتلقى العلاج ، وقد يظل فى المستشفى حتى المساء ثم يعود الى منزله تحت رعاية أحد ذويه •

ثم هناك هذه التجربة الجميلة التى قامت بها مدينة امستردام فى هولندة منذ عدة سنوات وأدت الى نتـائج باهرة • فقـد أنشأت ادارة الصحة العامة قسما خاصا لتلبية نداء كل مواطن يعانى أزمة نفسية • فبمجرد تلقى الاشارة التليفونية يتوجه طبيب النجدة النفسية الى منزل المريض ويستمع الى شكواه ويدرس حالته فى اطار بيئته العائلية وظروفه الاقتصادية والمعيشية ويوجه اليه النصح والارشاد ، ويوصى بالعلاج فى المنزل ، أو فى المستشفى اذا اقتضى الأمر • ثم تقوم الاخصائية الاجتماعية الطبية بزيارة المريض من حين الى آخـــر ، وبتدوين البيانات الخاصـــة بسير العلاج • وفائدة هذا النظام انه يسمح بالتشخيص المبكر وبالتالى يضمن قدرا أكبر من نجاح العلاج ، فضلا عن أنه يوفر مبالغ كبيرة من المال ، اذ أن تكاليف تطبيق هذا النظام أقل بكثير من تكاليف علاج عدد متزايد من المرضى العقليين فى المستشفيات • وخلاصة القول ان الاتجاه الجديد الذى يتخذه الآن العلاج النفسى ، وما يصاحبه من وسائل الوقاية ومن نشر مبادىء الصحة العقلية يحقق التكامل بين العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية •

ونود الآن أن نلقى نظرة سريعة على تطور العلاج النفسى ، من حيث أساليبه الفنية ، ومن حيث أسسه العلمية •

سبق أن أشرنا الى الزمن الطويل الذى يستغرقه العلاج بالتحليل النفسى ، والى العقبات التى قد تعترض سيره نحو شفاء المريض وقد ساهمت تجارب الحرب العالمية الثانية فى تطوير أساليب العلاج النفسى . فالتوتر العنيف الذى تبعثه ظروف القتال فى أعصاب المحاربين يزيد من عدد حالات الصدمات النفسية وحالات الانهيار العصبى ويطلق من عقالها تعبيرات هستيرية كانت كافية لدى مجموعة كبيرة من المجندين مما يحد من نطاق تطبيق العلاج بالوسائل التقليدية ، فلابد من أن يواجه المعالج هذا العدد الضخم من ضحايا الحرب النفسانيين ، ومن أن يصطنع وسائل جديدة لتقصير زمن العلاج واختصار المراحل المؤدية الى الشفاء .

ومن الوسائل العلاجية التى استخدمت سواء تحت ضغط الحاجة أو بناء على اعتبارات علمية نذكر العلاج النفسى التخديرى والعلاج النفسى الجماعى . ويرمى العلاج التخديرى الى اضعاف مقاومات المريض وتخفيف الكبت بحيث تنطلق الذكريات المؤلمة المنسية بسهولة ، فتتم بسرعة عملية التفريغ الانفعالى ، وفى ضوء الذكريات المسترجعة يساعد المعالج المريض على اكتساب أكبر قدر ممكن من الاستبصار .

أما العلاج النفسى الجماعى فيرمى الى الافادة من الأثر الذى تحدثه الجماعة فى أفرادها ، مادام الانسان ينشأ وينمو داخل نطاق جماعى وما دامت شخصيته تحمل دائما طابعا جماعيا . يجمع المعالج عددا من الأشخاص يعانون مشكلات متشابهة ، فيقوم المعالج بعرضها وتحليلها ومناقشتها ، مسديا النصح والارشاد ، ومهيئا الجو للتفريغ الانفعالى وزيادة الاستبصار لدى المرضى . وقد أخذ العلاج النفسى الجماعى يحتل مكانة هامة فى مجال العلاج ، وهو جدير بالبحث والتطبيق . ولايتسع المقام للتحدث عنه طويلا ، وحسبنا أن نذكر هنا أنه يفيد بصفة خاصة فى علاج الاضطرابات الانفعالية والسيكوسوماتية ، والمشكلات السلوكية المتعلقة بالحياة العائلية والحياة المهنية ، وكذلك المشكلات الجنسية وحالات ادمان الخمر . وللعلاج النفسى الجماعى طرق متنوعة منها الجماعة التعليمية ، النادى الاجتماعى العلاجى ، الجماعة التقويمية الالهامية ، العلاج الجماعى العميق ، وأخيرا العلاج المسرحى النفسى أو السيكودراما « Psychodrama » .

ويبدو أن العلاج النفسى الجماعى هو العلاج الذى سيسود فى المستقبل لأنه يراعى بصورة واقعية مباشرة أثر العامل الاجتماعى فى تشكيل سلوك الانسان ، حبذا لو اهتم أولو الأمر فى البلاد العربية

بهذا النوع الجديد من العلاج الذى يلائم المجتمعات التى تتجه نحو التصنيع ونحو توثيق العلاقات الجماعية التعاونية ٠

أما فيما يختص بالعلاج النفسى التخديرى فان ما يؤخذ عليه هو أن العقار الكيميائى المستخدم للتخدير يحول دون الادراك الذاتى الشعورى، وقد تختلط الذكريات الحقيقية بالتخيلات الوهمية والهلوسات التى يثيرها المخدر مما يزيد من صعوبة تأويلها ٠ غير أن العلم قد توصل أخيرا الى تركيب عقار جديد يعرف بالحامض الليسرجى Lysergic acid diethylamide من مزاياه انه يبعث الذكريات المكبوتة فى الطفولة الأولى دون الاقلال من وعى المريض وشعوره ٠ فانه يحدث نوعا من الازدواج فى الشخصية ، فيقوم الشعور بمشاهدة اللاشعور ، ويرى المريض نفسه طفلا ، ويشعر بأنه عاد فعلا الى أطوار الطفولة الأولى ٠ وفى امكان المريض أن يصف بدقة وحرارة مواقفه الطفلية ، بل أن يحياها بدرجة كبيرة من العنف مما يؤدى الى التفريغ الانفعالى ويعجل بالشفاء ٠

وتجرى تجربة هذا العقار فى الوقت الحاضر فى القاهرة لأول مرة فى مستشفى بهمان للأمراض العصبية والنفسية تحت اشراف الدكتور لنج الذى اكتسب خبرة واسعة فى استخدام هذا العقار فى أحد مستشفيات لندن ٠ ونتائج هذا العلاج الجديد مشجعة للغاية اذ جاء فى بعض الاحصاءات لحوالى ٩٠ حالة تتبعت على مدى خمس سنوات أن نسبة الشفاء والتحسن تصل الى ٩٥٪ وهى نسبة عالية حقا ٠

أما تطور العلاج النفسى فى السنوات الأخيرة من حيث الأسس العلمية التى يقوم عليها ، وما يترتب عليها من تغيير فى طريقة اجراء العلاج ومواصلته ، فانه يرتبط بتعدد المدارس التى لا تزال قائمة فى ميدان الدراسات النفسية ٠ وعلى الرغم من أن وجهات النظر المختلفة تزداد تقاربا بفضل الدراسات الواقعية المقارنة ، غير أنه من العسير التوفيق بين وجهات النظر النفسية التى تكمن وراء كل مدرسة ، اذ يجب أن نذكر دائما أن موضوع العلوم النفسية هو الانسان ، وأن مشكلة طبيعة الانسان مشكلة معقدة للغاية ومتعددة الوجوه ٠ فالانسان كالعقدة المركزية التى تنتشر من حولها خطوط لا نهاية لها ، بعضها يمتد نحو عالم المادة ، وبعضها الآخر نحو عالم الحياة ٠ وغيرها نحو عالم الروح ٠ وجميع أوجه النشاط الانسانى فى المنزل والمدرسة والمعبد والمصنع والمتجر والشارع ودور اللهو والترفيه تكون شبكة ضخمة بحيث لا يمكن فصل البحوث النفسية عن غيرها من البحوث العلمية من

جهة ، وعن التأملات الفلسفية والعقائد الدينية من جهة أخرى · بل نجد داخل التحليل النفسي عدة حركات تبتعد ، ان قليلا أو كثيرا ، عن الحركة الأصلية التي أنشأها فرويد · ووجهات الخلاف لا ترجع الى اعتبارات واقعية بقدر رجوعها الى اتجاهات فلسفية · ومن أحدث الحركات الفلسفية التي أثرت في التحليل النفسي الفلسفة الظواهرية والفلسفة الوجودية · وبالطبع يترتب على هذه الاختلافات النظرية اتجاهات متنوعة في العلاج النفسي وفي طرق اجرائه ، وفي طبيعة العلاقة بين المعالج والمريض ·

فبينما نجد المحلل النفسي التقليدي يركز اهتمامه في الكشف عن الذكريات المؤلمة التي كبتت في الطفولة ، وفي معالجة العصاب الجديد الذي ينشأ أثناء العلاج عندما يخلع المريض عواطفه على المعالج · وهو يلتزم خلال الجلسات موقفا سلبيا ويمتنع عن توجيه المريض وارشاده في حياته العملية ، نجد فئة أخرى من المعالجين يقررون أن العلاج يجب أن يكون ارشاديا توجيهيا ومركزيا حول الذات الشاعرة لا حول اللاشعور ، وحول الواقع الراهن لا حول الماضي ، ويحذرون من تكوين العصاب الخلفي أو استفحاله ، مؤكدين ضرورة جعل العلاج ايجابيا نشيطا بالاشتراك مع المريض والعودة باستمرار الى الواقع الراهن ومشكلاته ، وعدم الاكتفاء بعملية التحليل بل استكمالها بعملية تأليف وتركيب وتكامل ايجابي موجه ·

وفي ضوء هذا الرأي الجديد يصبح استلقاء المريض على الفراش في جو من السكون التام · والضوء الخافت وجلوس المعالج خلفه من الاجراءات التي يجب ابعادها لانها تحضر المريض في دائرة الطفولة وفي خيال بعيد عن الواقع ؟ بل على المعالج أن يجلس وجها لوجه أمام مريضه وأن يعامله معاملة الصديق لصديقه ، وأن يحاول الاتحاد به عقليا وروحيا ، فيناقش مشكلته في جو من التسامح والعطف والفهم رابطا مشكلته بالواقع اليومي الذي يحياه · ومحاولا الاتصال ببيئته العائلية بقصد توجيه أهل المريض للمساهمة الفعالة في عملية اعادة التكيف الشخصي والاجتماعي في صورة واقعية حية · وأحدث عرض منظم لهذا الاتجاه يجده القارىء في الكتاب الأمريكي للطب العقلي الذي صدر في نوفمبر ١٩٥٩ في الفصل الحادي والعشرين للدكتورة شميد برج وفي الفصل الستين للدكتور كورت جلدشتين ·

ويوجد وجه شبه كبير بين هذا الاتجاه الأخير والتحليل النفسي المتأثر بالفلسفات الظواهرية والوجودية · فان أصحاب المدرسة الوجودية

يطرحون السؤال الآتى : هل ينظر المعالج الى المريض النفسى كما هو في واقع عالمه الخاص ، أو يكتفى بالحكم عليه بالقياس الى المعايير التى وضعتها النظرية التى يقول بها ؟ فمن المعروف أن معايير النظريات قد أفرغت فى قوالب عقلية جامدة سواء أخذنا بنظرية فرويد أو بنظرية التعلم القائم على الفعل المنعكس الشرطى ـ وانسان المريض عندما يقاس بهذه المعايير النظرية المجردة يفقد طابعه الذاتى المميز له ، ويتحول الى مجرد شىء من بين الأشياء الأخرى • ولا يمكن أن يتم العــلاج عن طريق اعادة بنــاء الشخصية قطعة قطعة مادام يغفل المعالج ما تمتاز به شخصية المريض من فردية واصالة •

ويؤكد العلاج النفسى الوجودى ضرورة اتحاد المعالج مع مريضــه وهو يعانى آزمته النفسية فى عالمه الخاص ، وان يشاركه بقلبه وفؤاده فيما يختلج فى نفسه من دوافع وانطباعات وتصورات ، وان يستكشف الدلالة التى يخلعها المريض على مقـومات عالمـه الخاص • فلكل مريض واقعه الشخصى • وعلى المعالج أن يحس بدوره هذه المعانى ، وان يحياها فى أعماق نفسه غير مكتف بتمثيلها تمثيلا عقليا جامدا •

ان التحليل الوجودى يعود بنا مرة أخرى الى هذه النظرة الحية المتكاملة الى الانسان ، الى هذا الانسان الذى يعيش فى هذه اللحظة ، وفى تلك البقعة من الأرض ، وداخل هذه الشبكة المكونة من العلاقات بينه وبين الآخرين ، وفى مرآة الآخرين ، وفى مرآة نفســـه المتعددة الوجوه • هذا الانســـان الحائر الذى يأبى أن تكون حياته سخيفة مملة والذى يرفض أن تكون عشرة الناس له جحيما من الناس والصمت وعدم التجاوب ، بل هو الذى يتوق الى أن يحيا فى الآخرين وأن يحيا الآخرون فيه فى جو من الحب ، والحب وحده هو قاهر الموت •

الآن من واجبنا نحن العرب أن نسأل أنفسنا ماذا صنعنا فى مجال العلاج النفسى للأفراد والجماعات ، فى ميدان الأسرة والمدرسة والجامعة والمصنع ؟ هل لدينا العدد الكافى من المستشفيات والعيادات السيكلوجية؟ وهل نظام مستشفيات الأمراض العصبية والعقلية يلائم مقتضيات العلاج الحديث بشتى صوره ؟ هل أنشأنا مستشفيات للمرضى الخارجيين ؟ لماذا لا نأخذ بنظــام طبيب النجدة النفسية كمـــا هو مطبق فى امســتردام مثلا ؟ •

لا شك أننا نعانى نقصا كبيرا فى مجال تنظيم العلاج النفسى على

نطاق عريض ، ولا أعتقد ان تخلفا يرجع الى العجز المالى بقدر ما يرجع الى عدم الوعى بضخامة المشكلة ، والى عدم الايمان بجدوى العلاج النفسى وبضرورة تطبيقه فى المرحلة الأولى لظهور المرض وقبل استفحاله وتحوله الى مرض مزمن • فالخطوة الأولى فى سبيل النهوض بمهام العلاج النفسى لجميع أفراد الشعب تهيئة الأذهان وتنويرها ، والقضاء على استخدام بعض الألفاظ التى تنطوى على التحقير مثل مجنون ومجذوب • يجب أن يفهم الجمهور أن المرض النفسى أو العقلى ليس من فعل الجن أو الشياطين أو الأرواح الشريرة ، وأن أعمال الشعوذة والسحر واقامة حفلات الزار وتحضير الأرواح لا يمكن أن تجدى نفعا فى علاج هذه الأمراض ، وهى ان دلت على شىء ، فانها تدل على مدى تأخرنا الثقافى وعلى مدى انتشار الخرافات والخزعبلات فى أذهان الناس •

بعد تهيئة الجو يجب تحريك الأوساط الطبية والأجهزة الحكومية لوضع خطط الاصلاح والشروع فى تنفيذها • يجب قلب النظام المتبع فى مستشفيات الأمراض العقلية رأسا على عقب ، تغيير الجو المادى أولا بجعل المستشفى يتكون من وحدات صغيرة جميلة وسط الحدائق والملاعب ، تحطيم القضبان الحديدية وازالة الأسوار وربط المستشفى بالحياة الخارجية • تغيير الجو المعنوى وذلك باعداد هيئة التمريض أعدادا انسانيا قائما على دعائم قوية من العلم والخبرة وحسن المعاملة • العمل على تنمية الاعداد العلمى للأطباء والمشرفين على العلاج وذلك باستدعاء عدد كبير من الاخصائيين الأجانب وبارسال عدد كبير من البعثات العلمية والعملية الى الخارج •

وسيؤدى اعادة تنظيم الخدمات الطبية والنفسية فى المستشفيات الى نتائج باهرة • وحسبنا أن نذكر ما حدث فى ظرف عشر سنوات فى مستشفى فيل افرار بفرنسا • فمن حوالى عشر سنوات كان متوسط اقامة المرضى العقليين فى هذا المستشفى ما يزيد على السنة فأصبح اليوم أربعة شهور • كان عدد الأسرة فى عام ١٩٤٨ خمسمائة وخمسين سريرا وعدد المرضى المستجدين مائة فى العام فهبط عدد الأسرة الى ٢٧٠ وارتفع عدد المرضى الجديد الذين يعالجون فى العام حوالى ٦٠٠ كما أن النسبة المئوية لعدد المرضى المقيمين اقامة دائمة داخل المستشفى هبطت من ٥٠٪ الى ٧٪ • واذا تذكرنا أن نسبة كبيرة من الجرائم يرتكبها أشخاص مضطربون نفسيا أو عقليا فمن اليسير أن ندرك مدى التوفير فى

المال وفى المجهود البشرى الذى يحققه نشر العلاج النفسى وتنظيم وسائل الوقاية والعلاج المبكر •

واذا كان من العسير انشاء مستشفيات مكونة من وحدات صغيرة وحدائق داخل المدن الكبيرة فيمكن الأخذ بالاتجاه الجديد الذى يوصى بانشاء المستشفى وسط المدينة ، فى شكل عمارة كبيرة متعددة الطبقات ، تحوى عددا كبيرا من العنابر بدلا من الغرف الصغيرة المستقلة ، وذلك لتوثيق العلاقات الاجتماعية بين المرضى ، والقضاء على الشعور بالعزلة ، والأدوار العليا مخصصة للحالات الخطرة وكلما تحسنت حالة المريض ينقل الى طابق أسفل فأسفل حيث يجد مجالات أوسع فأوسع من النشاط الاجتماعى ، وعندما يصل الى الطابق الأرضى يكون قد أصبح قادرا على مغادرة المستشفى • فهذه الحركة الهابطة ترمز الى تسن حالة المريض وزيادة قدرته على التكيف الاجتماعى • ولهذا النظام فوائد أخرى فانه يوفر فى الزمن وفى عدد هيئة المعالجة والتمريض نظرا لتركيز الخدمات فى حيز محدود هذا فضلا على أن المرضى الذين تتحسن حالتهم يكلفون بالاشتراك فى تنظيم بعض الأعمال والشئون الادارية • ويقترب هذا النظام من نظام الحكم الذاتى المطبق فى بعض المدارس الحديثة ، فالحياة فى المستشفى لا تختلف كثيرا عن الحياة اليومية العادية فالعلاقة بالعالم الخارجى وبالواقع تظل قوية وفى هذا تعجيل بالشفاء وتدعيم له •

وحبذا لو أخذنا أيضا بنظام المستشفى النهارى للمرضى الخارجيين لكى يحل محل العيادة الخارجية الملحقة بالمستشفى الداخلى والتى تعجز عن مواجهة العدد المتزايد من المرضى الذين يقصدونها والذين لا يفوزون فى معظم الأحيان الا بعلاج سريع تنقصه اللمسة الشخصية والعناية المتصلة • وكما سبق أن قلنا فان نظام المستشفى الخارجى بليغ الفائدة ، وهو يوفر على الدولة مبالغ طائلة تصرف فى اقامة عدد كبير من المرضى المزمنين بسنوات طويلة •

ثم يجب أن نفكر منذ الآن والبلاد العربية مقبلة على حركة تصنيع ضخمة فى تنظيم الخدمات النفسية فى المصانع ، وحتى اذ قصرنا اهتمامنا على الناحية المادية الاقتصادية فان الخدمة النفسية فى المصانع تضاعف من قدرة المصنع على الانتاج ، هذا فضلا على الوجب الانسانى الذى يقع على عاتق أصحاب المصنع والمشرفين عليه ، اذ أنه من واجبهم أن يوفروا لعمالهم الخدمات الطبية والخدمات النفسية على السواء •

وهناك ميادين أخرى فى حاجة الى الخدمات النفسية . وحسبنا أن نشير الى ميدان الدراسة الجامعية ، الى هذا الميدان الذى يعد الذخيرة الانسانية الممتازة التى سيقع على عاتقها بناء المستقبل . ان عدد طلاب الجامعات العربية والمعاهد العليا عدد ضخم عظيم . وهو فى الجمهورية العربية المتحدة وحدها مائة ألف بل يزيدون ولا يوجد لدينا احصاء بنسبة الطلبة الذين يعانون من مشكلات سلوكية ونفسية ، وذلك لسبب واحد ، وهو انعدام الخدمة النفسية فى الجامعات . أما الدراسات التى أجريت فى الخارج فهى تقدر نسبة الطلبة الذين يعانون مشكلات نفسية بحوالى ١٠ ٪ . واذا فرضنا أن هذه النسبة تنطبق على مجتمعنا الجامعى فيكون لدينا حوالى ثمانية آلاف طالب فى حاجة الى الارشاد والعلاج النفسى كل عام . هل يمكن أن نتصور مدى التبديد الذى نلحقه بما لدى شبابنا من طاقة على تحصيل العلم وتثقيف أنفسهم وتقويم شخصيتهم ! واذا أردنا أن نواجه هذه المعضلة الملحة بصورة جدية فلابد من أن ننشىء عشرات العيادات السيكلوجية يعمل فيها مئات من الأطباء والسيكلوجيين والاخصائيين الاجتماعيين . ولكن ما أبعدنا عن هذا القدر الأدنى من الرعاية النفسية لرجال الغد ونحن نكاد لا نملك عيادة واحدة تعمل بانتظام وبصورة جدية ! ورجاؤنا هو أن تواصل حركة التطور الجامعى نشاطها بحيث تشرع فى القريب العاجل فى حل هذه المعضلة الكبرى لكى تضمن البلاد أجيالا صالحة سليمة من أبنائها يساهمون بنشاط متزايد وفى جو من الاطمئنان والاستقرار النفسى فى بناء مجد الوطن العربى .

أزمة العلاج النفسى (*)

المقصود بوجه عام بعبارة « العلاج النفسى » علاج المريض بالوسائل النفسية سواء كان المرض عضوى النشأة أو نفسى النشأة أو كليهما • ومن هذه الوسائل النفســية الايحاء والتحليل النفسى ومساعدة المريض على الاقلاع عن بعض عاداته واكتساب عادات جديدة ، ومساعدته على تغيير نظرته الى الحياة وغير ذلك من الوسائل التربوية المختلفة • غير أن المعنى السائد للعلاج النفسى هو علاج الأمراض النفسية بالوسائل النفسية • ومن أنواع المرض النفسى أو العصــاب نذكر عصاب القلق والهستيريا والمخاوف المرضية والأفكار المتسلطة والوساوس والاندفاعات القهرية •

ولا شك فى أن وسائل العلاج النفسى قد تنوعت وتطورت مع تطور علم النفس ذاته • واذا كان علم النفس قد تقدم منذ نصف قرن واذا كان العلاج النفسى هو أحد الميادين التطبيقية لعلم النفس فيكون من المنطق ان نقرر أن العلاج النفسى بدوره قد تقدم • واذا كان الأمر كذلك فما هو السبب الذى يدفعنا الى التحدث عن أزمة العلاج النفسى ؟

يجب أن نقــرر أولا أن وجــود أزمة فى العــلاج النفسى لا يعنى بالضرورة الفشل أو التقهقر ، بل قد تكون الأزمة دليلا على زيادة الحيوية والنشاط وخطوة جديدة نحو التقدم ونحو تحقيق درجة أكبر من الفاعلية • قد يكون علم النفس الذى يدرس سلوك الانسان السوى قد تقدم محلا فى تفسير هذا السلوك ولكن يحق لنا أن نتساءل ما اذا كنا وصلنا الى تفسير السلوك الشــاذ والمرض النفسى بالدقة نفســها الذى نفسر بهــا السلوك العادى • وحتى فيما يختص بالسلوك العادى هل وصلنا الى حل بعض المشكلات الكبرى التى يثيرها البحث العلمى مثل مشــكلة الوراثة والبيئة ، ومشكلة تبادل التأثير بينهما ومشكلة قوانين التعلم ، ومشكلة دوافع السلوك الانسانى • والواقع أن قيام المدارس المختلفة والمتضاربة أحيانا فى وصف الشخصية وتفسيرها لأكبر دليل على أن هذه المشكلات لم تنل بعد الا نصيبا ضئيلا من الحل • وربما المشكلة الكبرى التى تتفرع منها المشكلات التى سبق ذكرها هى مشكلة تعريف الانسان وما يكمن وراء مختلف التعريفات من وجهات نظر فلسفية متصارعة •

(*) حديث اذاعى فى ٢٨ من ابريل ١٩٦٢ •

غير ان المدارس المختلفة التى تتصارع داخل نطاق علم النفس تدعى كلها الاتصاف بالروح العلمية وتمسكها بالمنهج التجريبى • ومن الأمور المثيرة للدهشة أن كل مدرسة من هـــذه المدارس ، عندما تقوم بتطبيق نظريتها فى مجال العلاج النفسى ، تصيب من النجاح فى تحسين الحالات التى عالجتها ما تحرزه أى مدرسة أخرى • بل هناك ما هو أدعى الى الدهشة، فقد جاء فى أحد بحوث جامعة كاليفورنيا أن مجموعة من المرضى النفسيين الذين عولجوا علاجا نفسيا قورنت بمجموعة ضابطة لم يتلق أفرادها أى نوع من العــــلاج النفسى فكانت النتيجة أن نســــبة التحسن فى حالات المجموعتين كانت واحدة •

وليس معنى هذا عــــدم اسعاف المرضى النفسيين عنــدما يطلبون المساعدة ، ولكن كما يقول الدكتور مايو جروس فى الطبعة الثانية من كتابه « الطب العقلى الاكلينيكى » عام ١٩٦٠ انه لا يمكن الادعاء اننا نعرف كيف نشفى المرضى النفسيين ، انه لا يوجد حتى اليوم علاج نوعى لحالات العصاب ، ومن المؤكد انه لا يوجد علاج نفسى يمكنه أن يدعى الوصول الى نتائج باهرة كالتى تصل اليها جراحة المخ فى بعض الحالات العصيبة من القلق المزمن ومن الوسواس •

واذا كانت بعض العقاقير الحديثة قد أثبتت فائدتها فى علاج العصاب فليس من المحتم أن يقضى هذا النجاح على الاستعانة بالعــلاج النفسى • والواقع أن أزمة العلاج النفسى ترجع خاصة الى نظرتنا الجزئية الى الانسان والى عدم التعاون الكافى بين علم النفس والطب العقلى وما يقوم عليه الطب العقلى من دراسات فســيولوجية الجهــاز العصبى وفســيولوجية الغــدد الصـــماء •

وليس من الغريب ان المدرسة التى تساهم الآن بطريقة جدية ومثمرة فى تدعيم أسس العلاج النفسى هى مدرسة الفعل المنعكس الشرطى التى أنشأها بافلوف وهو عالم متخصص فى دراسة وظائف المخ وقد أيدت البحوث السيكولوجية التى قامت بها مدرسة لندن مع ايزنك ومعاونيه رأى بافلوف فى وظيفتى الاستثارة والكف وبينت أن قابلية التعلم عن طريقـة الاقتران الشرطى تتوقف على العلاقة النسبية بين الاســتثارة والكف • وعلى مثل هذه النسبة يتوقف نوع العلاج ومدى نجاحه مادام العلاج النفسى هو ضرب من فك ارتباطات قديمة غير تكيفية تماما وانشاء ارتباطات جديدة تحل محل الأعراض المرضية •

وبما أن النسبة بين الاستثارة والكف تتوقف لدى كل فرد على بناء جهازه العصبي والجهاز العصبي بدوره خاضع للعوامل الوراثية فانه يترتب على ذلك أن الاستعداد للاصابة بالأمراض النفسية أمر وراثي • أما تنشيط هذا الاستعداد وتحويله الى مرض فمن شأن العوامل البيئية والتنشئة الاجتماعية ودرجة الارهاق الذى يصيب الشخص فى احدى مراحل حياته• وعلى ذلك فان العلاج النفسى من حيث هو عادة تعلم المريض أساليب سلوكية جديدة أو معدلة سيتناول هذا الجانب المكتسب فى الصورة الاكلينيكية للمرض • وبما ان القابلية للتعلم ولانشاء ارتباطات شرطية جديدة تتوقف على النسبة بين الاستثارة والكف فقد يكون من الضرورى ، كلما أمكن ذلك ، الاستعانة بالعلاج الطبى لتعديل هذه النسبة • فقد وجد مثلا أن العصابى المنطوى أكثر أستعدادا من العصابى المنبسط للتعلم الشرطى لان قابليته للاستثارة العصبية تفوق قابليته للكف وذلك لارتفاع درجة النشاط الكولينسترازى لديه حيث تؤدى خميرة الكولينستراز الموجودة فى الدم الى تحلل مادة الاستيلكولين مما يؤدى الى زيادة سرعة التوصيل الكيميائى للسيال العصبى •

ومعنى هذا أن التعاون بين السيكولوجى والطبيب أمر لابد منه • فالطب يكشف عن العمليات الكيميائية التى تعين الى حد ما خصائص السلوك والسيكولوجى باستخدام الاختبارات يعين موقع الشخص العصابى على البعد الذى يمتد من الانطواء الى الانبساط ويحدد فى الوقت نفسه قابلية الشخص للتعلم الشرطى • ولا شك فى أن مثل هذه المعلومات الطبية والنفسية تقوم بدور هام فى عمليات التشخيص والتنبؤ بآثار العلاج ، وكفيلة بأن تدعم أسس العلاج النفسى وتحوله الى علاج سلوكى متكامل •

طرق جديدة فى العلاج النفسى (*)

أدت ظروف الحرب العالمية الثانيــة وضرورة علاج عــدد كبير من الجنود المصابين بصدمات نفسية الى تطوير الأساليب القديمة للعلاج النفسى • وقد ساهم فى الدفع الى هذا التطوير انتشـــار حركة التصنيع وتضخم عدد الســكان فى المــدن الكبيرة وزيادة التوتر فى العــلاقات الانسانيه •

فقد حدث تطور فى مفهوم العلاج النفسى يخرجنا من دائرة التحليل النفسى المقصور على الموقف الثنائى المكون من المريض والمعالج • فموقف المحلل النفسى تغلب عليه صفة السلبية فهو لا يتدخل فى شئون المريض الراهنة مركزا اهتمامه فى الكشف عن العقد وعن الذكريات المكبوتة التى يرجع عهدها الى الطفولة • وبفضل دراسـات الانتروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى أخذ الدور الذى تقـوم به البيئة الاجتمـاعية والقيم السائدة فى هذه البيئة يزداد بروزا فاصبح مفهوم العلاج النفسى يضـم العلاج بالعمل واللعب والنشاط الفنى وتختلف وسائل التاهيل وتذليل الصعوبات التى تعترض تكيف المرض فى مجتمعــه الخاص • واتسـم العلاج النفسى بسمة ايجابية فتجاوز حدود العيادة الخاصة الى مجالات النشاط المدرسى والمهنى والترفيهى •

وقد أدت التوعية الاجتماعية فى ميدان علاج الامراض النفســية والعقلية الى هذه الامراض نظرة موضــوعية علمية خاليــة من الشعور بالازدراء أو الخجل ، والى طابع معاملة المرضى فى المستشفيات العقلية بطابع التفاهم والعطف والى عدم عزل المريض عن المجتمـــع الخارجى • فقد أنشأت مستشفيات نهارية يأتى اليها المريض فى الصــباح ويتلقى العلاج ثم يعود الى منزله بمصاحبة أحد أقاربه •

ومما هو جدير بالذكر بصدد عناية المجتمع بالمرضى النفسيين هذه التجربة الجميلة التى قامت بها مدينة امستردام فى هولندا فى السنوات الأخيرة وقد أسفرت عن نتائج باهرة • فقد أنشأت ادارة الصــحة العامة قسما خاصا لتلبية نداء من يصاب بأزمة نفسية • فعند تلقى الاشــــارة

(*) حديث اذاعى فى ٥ من مايو ١٩٦٢ •

التليفونية يتوجه طبيب النجدة النفسية الى منزل المريض ويستمع الى شكواه ويدرس حالته فى أطار بيئته العائلية • وظروفه الاقتصادية والمعيشية • ويوجه اليه النصح والارشاد ويوصى بالعلاج فى المنزل أو فى المستشفى اذا اقتضى الامر • وتقوم الاخصائية الاجتماعية الطبية بزيارة المريض من حين الى آخر وبتدوين البيانات الخاصة بسير العلاج • ومن مزايا هذا النظام التشخيص المبكر لكثير من الحالات وضمان قدر أكبر من نجاح العلاج • ولا شك فى أن شعور كل مواطن بانه سيجد بسرعة المساعدة التى يطلبها وشعوره بأنه ينتمى انتماء وثيقا الى جماعة ترعاه ، من العوامل الفعالة التى تساهم فى سرعة الشفاء •

سبق أن ذكرنا أن تطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية يقتضى تقصير مدة العلاج • ومن الوسائل العلاجية المختصرة العلاج التخديرى الجماعى • ففى العلاج التخديرى يقوم الطبيب بحقن المريض بمادة مخدرة بقصد اضعاف المقاومات وتخفيف الكبت لكى تنطلق الذكريات المؤلمة المنسية فتتم بسرعة عملية التفريغ الانفعالى وفى ضوء الذكريات المسترجعة يساعد المعالج المريض على اكتساب أكبر قدر ممكن من الاستبصار • والنقد الذى يوجه الى العلاج التخديرى هو أن المخدر قد يشوه الذكريات ويثير تخيلات يصعب ربطها بخبرات المريض •

أما العلاج الجماعى فقد نشأ فى المستشفيات العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية لمواجهة العدد المتزايد من المرضى • يقوم المعالج بجمع عدد من المرضى يعانون من مشكلات متشابهة ويطلب من كل واحد منهم أن يعرض مشكلته وأن يشترك فى مناقشة الآخرين • ثم يحاول توجيه المناقشة ومساعدة الأفراد على تقمص الروح الجماعية وتقوية شعورهم بالانتماء الى جماعة يشترك أفرادها فى تحمل أعباء نفسية متشابهة مما يؤدى الى تخفيف وطأة القلق والشعور بالذنب • ومن الموضوعات التى يناقشها المعالج مع مرضاه أسباب الصراع النفسى ونشأة القلق وآثار الصراع فى السلوك ، والتفاعل الذى يقوم بين الدوافع المختلفة ، وطرق مواجهة المخاوف والعلاقة بين الوظائف الجسمية والانفعالات • وبفضل هذه المناقشات الجماعية يزداد المريض ثقة بنفسه عندما يشاهد ان متاعبه ليست مقصورة على نفسه بل يشترك فيها غيره من الناس ، كما ان فهمه لنفسه يزداد عمقا ووضوحا • ولا شك فى ان مثل هذه الجلسات الجماعية تقوى شخصية المرضى وتحدث لديهم قدرا كبيرا من التفريغ الانفعالى والتطهير النفسى •

ومن وسائل العـــلاج الجماعي ما يعرف بالســيكودراما أو العلاج المسرحي النفسي • فيقوم بعض المرضى تحت ارشاد المعالج بابتكار مواقف يدور فيها الحوار حول مشكلة مشــتركة مثل عودة المريض الى الحيـــاة المدنية بعـــد خروجه من المستشفى • فيناقش المرضى بطريقة تلقائية الاحتمالات المختلفة ويقومون بتمثيل المواقف التى سوف يمرون بهـــا ويقترحون الحلول وطرق التكيف • ومن المستحسن تدعيم آثار العلاج النفسى الجماعي بوسائل علاجية أخرى كالعــلاج بالعمل والارشاد المهنى واعادة التأهيل وتنمية بعض الميول والقدرات •

والاتجاه الأخير الذى هو جدير بالذكر هو طبع العلاج النفسى بطابع ايجابى ارشادى وتركيزه حول الذات الشاعرة لا حول اللاشعور ، حول الواقع الراهن لا حول المــاضى • وعلى ذلك يصـــبح استلقاء المريض على الفراش فى جو من السكون التام والضوء الخافت وجلوس المعالج خلفه من الاجراءات التى يجب ابعادها لانها تحصر المريض فى دائرة الطفولة وفى جو خيالى بعيد عن الواقع • بل على المعـــالج أن يجلس وجها لوجه أمام مريضه وأن يعامله معاملة الصديق لصديقه وأن يحاول الاتحاد معه عقليا وروحيا ، فيناقش مشكلته فى جو من التسامح والعطف والفهم ، رابطا مشكلته بالواقع اليومي الذى يحياه ومحاولا الاتصال ببيئته العائلية بقصد توجيه أهل المريض للمساهمة الفعالة فى عملية اعادة التكيف الشخصى والاجتماعي بصورة واقعية حية •

ويقترب هذا الاتجاه من العلاج النفسى الوجودى الذى يراعي ما تمتاز به شخصية المريض من فردية وأصالة وما يتصف به واقعه الشخصى من صفات وملابسات خاصة • فهو ينظر الى الانسان نظرة شخصية تكاملية كلية • وقد أثار الاتجاه الوجودى فى العلاج النفسى نقد المدرسة السلوكية التى تهتم بالجزئيات وتطبق فى العلاج نظرية التعلم القائمة على العقل المنعكس الشرطى • ويبدو لنا ان وجهة النظر الكلية متممة لوجهة النظر الجزئية التى تتمسك بها مدرسة التعلم الشرطى • واتحاد وجهتى النظر كفيل بأن يساعدنا لا فقط على وصف السلوك وتفسيره بل أيضا على فهمه وعلى تحقيق الاتحاد العقلى والروحى بين المعالج والمريض •

والكلمة الأخيرة ترجع الى شخصية المعـــالج التى يجب أن تتصف لا بالعلم والخبرة فقط بل بقدر كبير من القدرة على التعاطف والمشاركة الوجـــدانية •

تطور العلاج النفسى (*)

ان تطور العلاج النفسى مرتبط بتطور المعرفة من صورتها السحرية الى صورتها العلمية خلال تتابع المعتقدات والنظريات الخاصة بطبيعة الانسان وبنوع العلاقة القائمة بين النفس والجسم · ان الملاحظة المباشرة اليومية لسلوك الانسان أدت منذ العهود الاولى للتفكير الانسانى الى التمييز بين مجموعة الحركات الواضحة التى يؤديها الجسم لمعالجة الاشياء وللاتصال بالآخرين ، سواء فى مواقف التعاون أو مواقف التنافس والتصارع ، وبين ما يصاحب هذه الحركات من كلام وأحاسيس وجدانية، أو ما يسبقها أو يتبعها من أفكار وتصورات · فلدينا من جانب السلوك الحركى الذى يمكن وصفه اجمالا بانه سلوك جسمى ، ومن جانب آخر النشاط الفكرى والحالات الشعورية التى يمكن وصفها اجمالا بانها نفسية ·

وقد أدى نقص المعرفة بالعوامل والشروط الواقعية المسببة للآلام الجسمية والنفسية الى ارجاع المرض الى عوامل خفية أو قوى غيبية ، بل الى شياطين وأرواح شريرة · والوسائل التى يستخدمها الساحر من حركات وطقوس واجراءات غريبة ترمى الى التأثير فى هذه القوى الخفية الغيبية · كان المرضى يقصدون الكهنة والسحرة ويمضون الايام والليالى على أبواب المعابد والمغارات فى انتظار حدوث المعجزة التى ستمنحهم الشفاء ·

ويحدثنا تاريخ الطب النفسى فى العصور القديمة عن كثير من حالات الشفاء الغريبة · وكان الشرط الأساسى لحدوث الشفاء الايمان القوى بأن المعجزة سوف تتم ، ذلك بالاضافة الى الجو المعنوى الغريب الذى كان يسود الموقف العلاجى · ويرى العلم الحديث ان عامل الشفاء فى هذه الحالات الغريبة هو الايحاء : الايحاء الذاتى والرغبة فى الشفاء ثم الايحاء الصادر عن الساحر أو الكاهن ·

ويشير لفظ الايحاء الى ان الفكرة أو الصورة الذهنية التى نتخيلها أو الكلمة التى نعبر بها عن هذه الفكرة أو هذه الصورة من شأنها ان

(*) حديث اذاعى فى ٥ من يوليو ١٩٦٢

تحدث حركة جسمية وأن تتجسم وأن تتحول الى صورة جسمية ، أى الى ان تغير من شكل الجسم ومن بناء بعض الاعضاء سواء بطريقة عابرة أو مستديمة ٠

وليس من العجيب أن يتدخل الدجل والشعوذة فى علاج الامراض النفسية والعقلية ، وأن ينظر الى المرضى بأنهم تحت تأثير أرواح شريرة ، بل انهم أشرار ومصدر شؤم وبلاء ٠ فكانوا يعاملون بقسوة وكان يصل تعذيبهم الى حد رجمهم أو احراقهم ٠ ولم تتغير نظرة المجتمع الى مرضى العقل الا فى القرن التاسع عشر عندما حاول الاطباء تفسير المرض العقلى تفسيرا علميا كأية ظاهرة طبيعية بالبحث عن العوامل المسببة له ٠ وقد فسرت بعض الامراض بارجاعها الى اختلال الحياة الانفعالية واضطراب المخيلة ٠

وباستعراض الوسائل الجديدة التى طبقت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثل المغناطيسية الحيوانية التى قال بها الطبيب النمساوى فرانز انطن مسمر ، ثم ما عرف بالتنويم المغناطيسى نجد ان حالات الشفاء التى كانت تحدث يمكن تفسيرها بالايحاء ٠ كان مسمر يعتقد بوجود سيال مغناطيسى فى الجسم وان اضطراب هذا السيال هو السبب فى ظهور المرض النفسى ٠ فحاول فى بادىء الامر التأثير فى هذا السيال باستخدام مغناطيس معدنى يمرره على جسم المريض وكانت هذه الطريقة تنجح فى ازالة العرض الذى يشكو منه المريض ثم رأى انه مزود بسيال مغناطيسى قوى فاكتفى بأن يمر بيديه على جسم المريض وكانت النتائج أيضا طيبة ٠

وقد راجت طريقة مسمر وانتشرت رغم حكم المجمع العلمى الفرنسى عليها بانها دجل وشعوذة ٠ ثم حدث أن أحد تلامذة مسمر المركيز دى بويسجر ـ شاهد أحد مرضاه يصاب أثناء علاجه بحالة شبيهة بحالة الشخص الذى يتجول وهو نائم فسمى هذه الحالة بالجوال الصناعى ٠ ثم أطلق الطبيب الدكتور بريد عام ١٨٤١ على هذه الحالة كلمة النوم الصناعى أو النوام أو ما يسمى بالتنويم المغناطيسى ٠ غير ان الدكتور بريد نفسه لم يسلم بوجود أى سيال مغناطيسى وابتكر طريقة آلية لاحداث النوام ٠ وكان النائم تحت سيطرة المنوم ينفذ كل ما يوحى به اليه ويحقق بعض الاعراض المرضية التى تشاهد فى الهستيريا وفى حالات الهذيان والهلوسة ، كما أن ايحاء الطبيب كان يؤدى لدى المرضى الى اختفاء بعض الأعراض ٠

ومما هو جدير بالذكر ان فرويد ، مؤسس التحليـــل النفسى ، استخدم فى بادىء الامر التنويم الصناعى للافراج عن الذكريات المكبوتة التى ترجع الى نشأة المرض النفسى ولتطهير المريض من صراعه وعقده • ثم اكتشف حدود هـذا النهج العــــلاجى فاستعاض عنه بالتداعى الحر وبتأويل أحلام المريض • والى فرويد يرجع الفضــل فى اثبات ان أثـــر الايحاء سطحى لا يصل الى جذور المرض مكتفيا بازالة عرض سوف يحل محله عرض آخر •

أما الطريقة المثلى فى العلاج فتكون بالكشف عن الاســباب العميقة للمرض النفسى ومساعدة المريض على أن يزداد استبصارا بالنســـبة الى مشاكله وأن يستأنف نموه النفسى حتى يحقـــق درجة عالية من النضج العاطفى والاجتماعى ويكتشف بنفسه بفضل تقوية ذاته الحـل المناسب لمشكلته •

وقد تفرعت عن التحليل النفسى كما وضعه فرويد طرق علاجية شتى تعتمد بدرجات متفاوتة على المفاهيم التحليلية الاساسية كالكبت والصراع اللاشعورى والتثبيت والنكوص والاسقاط والتحول والتبرير • وبعض هذه الطرق ترمى الى تقصير مدة العلاج وتركيز الاهتمام فى الملابسات الراهنة للمشكلة دون التوغل فى ذكريات الماضى البعيد • والبعض الآخر تؤكد أهمية العوامل الحضارية وتحاول تدعيم العلاقات الاجتماعية •

وقد تعرض التحليـــل النفسى لنقد مدارس أخرى فى علم النفس وخاصة المدارس السلوكية التى تلتزم المنهج التجريبى والموضوعى كما هو متبع فى العلوم الطبيعية غير انه يمكن القول أن العامل الاساسى فى الشفاء يكمن فى شخصية المعالج وان الاختلافات فى شخصية المعالجين قد تكون أكثر خطرا من الاختلافات القـائمة بين المدارس • وليس من الغريب أن يجتاز العـــلاج النفسى من حين الى آخر فترات من التأزم نظرا لتضارب الآراء فى تقدير وسائل العلاج ونتائجه • غير أن الازمة فى كل حركة علمية كثيرا ما تكون عاملا فعالا فى تقدم هذه الحركة ورقيها •

العبقرية والجنون

مشروع كتاب

العبقرية والجنون

الفصل الأول

مشكلة العبقرية والجنون

يقول جورج براك (١) Braque « ان كل علم يحوى شـــيئا من الخداع والتضليل ، ففى امكان العـــالم حل أية مشكلة اذا اتقن وضعها وصياغتها » ·

فهناك وضع لمشكلة العبقرية والجنون يؤدى الى حلها حلا يسيرا وذلك باعتبارها مفتعلة غير قائمة على حقائق واقعية · فيقول أنصار هذا الرأى ان العبقرية والجنون ضدان لا يجتمعان ، اذ أن العبقرية هى ازدهار العقل وكماله فى حين أن الجنون فساده وانهياره ؛ والجمع بين النقيضين يتنافى مع المنطق السليم · واذا كان هذا القول صحيحا من الناحية السيكولوجية فهو أيضا صحيح من الناحية الفسيولوجية اذ أن كمال العقل يتوقف على سلامة الخلايا العصبية فى الدماغ وانحلال هذه الخلايا لا بد أن يؤدى الى اضطرابه وفساده · فلا علاقة اذن بين العبقرية والجنون ولا يمكن القول بأن العبقرية ترجع الى الجنون لأن الصحة لا يمكن أن تصدر عن المرض والعكس أيضا صحيح · فاذا انتهت حياة بعض العباقرة بالجنون فليس هذا دليلا على أن العبقرية هى سبب الجنون وليس لأن هذا الاخير كان كامنا فى عقل العبقرى ·

ولا شك فى أن وضع المشـــكلة فى هذه الصيغة المنطقية يؤدى الى حلها عن طريق انكارها وذلك على أساس من التفـــكير المنطقى · غير أن التفكير لا يمكن أن يقوم بدون أفكار ولكل فكرة مضمون ومضمون الافكار التى تتناول الواقع الخارجى ليس من خلق العقل ، كمـــا هو الحـــال فى بعض المعانى الرياضـــية ، بل لا بد من استخلاصه من الواقع · ونظرا

---

(١) مصور فرنسى ولد سنة ١٨٨٢ ، أحد مؤسسى المدرسة التكعيبية فى أوائل هذا القرن واشـــترك مع بيكاســـو فى تطوير الاسلوب التكعيبى الى أقصى درجات التجريد ثم عاد فى عام ١٩٣١ الى أسلوب مجسم يستوحى فيه المظاهر الطبيعى · له أحكام نافذة وتأملات عميقة فى الفن والعلم والفلسفة ·

لتعقد الواقع وتعدد أوجهه وخفاء بعض نواحيه ليس في قدرة العقل أن يصل دفعة واحدة الى صياغة الفكرة بحيث تكون مطابقة للواقع تمام التطابق · فترجمة الواقع في لغة الفكر ، ككل ترجمة ، ناقصة ومشوهة·

ان هذه الاعتبارات في علاقة الفكر بالواقع تدفع بالمشكلة التي نحن بصددها الى مشكلة أوسع منها ، هي المشكلة التي كان يعانيها الفيلسوف سقراط كلما أراد أن يصل الى نتيجة أكيدة في موضوع من الموضوعات التي كان يثيرها ، هي مشكلة التعريف ، تعريف المفردات ، أي تحديد مضمون الافكار التي هي بمثابة أدوات البناء الفكري ·

والآن اذا عدنا الى الوضع السالف لمشكلة العبقرية والجنون فلنا أن نتساءل هل تعريف العبقرية بأنها كمال العقل والجنون بأنه فساده تعريف سليم ، هل يوجد شيء واحد ، مميز ومحدد ، يسمى بالعبقرية وشيء آخر لا يقل عن الاول تميزا وتحديدا يسمى بالجنون ؟ أليست الالفاظ التي نستخدمها لا تعدو أن تكون مستخلصات فقيرة هزيلة لا تعتبر الا عن أشباح لم تستنبق من الواقع سوى بعض المعالم دون غيرها ؟ أليس في التجريد والتعميم خيانة للواقع وابتعاد عن الحياة التي هي في صميمها تطور وتجديد ، صراع ووثب ؟ وهل أساليب المنطق ، هذه الاساليب التي نصفها بأنها معقولة ومتزنة ، تنطبق على الواقع بهذه الصرامة الرياضية التي يدعو اليها أنصار التفكير المنطقي ؟

أليس من الغريب أن يذهب أرسطو الى القول بأن العبقرية يصاحبها دائما مس من الجنون · قد نفهم ذلك من أفلاطون ، الذي سبق تلميذه في هذا الرأي ، لما يتسم به تفكيره من صبغة صوفية عاطفية ، ولكنه يصدمنا عندما يصدر عن واضع المنطق نفسه ·

الواقع أن هناك وراء العبقرية والجنون تكمن مشكلة كبرى ، لا تثيرها التأملات الوهمية، بل يشهد بوجودها التاريخ منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا ·

توجد قطعا علاقة بين العبقرية والجنون ، علاقة معقدة ومتعددة الوجوه ، ليست علاقة تطابق وتوحيد ، ليست علاقة مطلقة بين العلة والمعلول · أن مدلولات هذه الالفاظ أصبحت لا تنطبق على تصورنا اليوم للتفسير العلمي · أن التفكير العلمي أدرك اليوم بصورة واضحة أن موضوعات العلم ليست ثابتة مستقرة جامدة ، بل هي موضوعات تنبض فيها الحركة والحياة ، هي الوجود بما ينطوي عليه من متناقضات تبعث

الواحدة اثر الاخرى كلما ارتفع العلم من مستوى الى مستوى أرفع وأشمل . تفهمنا للحياة ومشكلاتها يجب أن يتصف بصفة الواقع المتحرك المتجدد . والواقع ، سواء فى عالم المادة أو الحياة أو الفكر ، اتزان غير مستقر ، تقهقر نسبى تعقبه وثبة الى الامام ، هو أشبه بحركة دائرية لولبية(١) وفى ضوء هذه النظرة يمكن أن نقول بوجه من الوجوه ان العبقرية تتم بفضل الجنون وعلى الرغم منه .

فالمشكلة اذن قائمة ولن نخدع أنفسنا ، كما يقول براك ، بصياغتها فى أسلوب يتضمن حلها المباشر بدون عناء . وعلينا قبل كل شىء أن نستطلع الواقع فى جميع وجوهه وأن نخضع النظرية للواقع لا العكس . فقد احتفظ لنا التاريخ بأسماء العباقرة ويتضح من النظرة الاولى أن العبقرية تجلت فى ميادين متعددة من النشاط الانسانى : فى الفن والادب، فى العلم والفلسفة ، فى الاقتصاد والسياسة ، فى ادارة الشئون العامة والاصلاح الاجتماعى ، وفى كل ميدان من هذه الميادين تصطبغ العبقرية بصبغة خاصة ، كما أن العوامل العديدة التى تتضافر فى بعثها وتنميتها حينا وفى اعاقتها واخمادها حينا آخر تتفاوت كما وكيفا . فليست هناك عبقرية واحدة تظل هى هى فى جميع الازمنة والظروف ، بل هناك عبقريات مختلفة متنوعة ، بل الاولى أن نقول ان هناك عباقرة وكل عبقرى لا يمكن فصله عن بنائه الفسيولوجى والسيكولوجى ، كما لا يمكن عزله عن الاطار الاجتماعى الذى يحيط به وعن المجال الحضارى الذى يحلم ويعمل فى أرجائه . وليس معنى هذا تفتيت العبقرية واذابتها فى مظاهرها المتعددة المتضاربة فهى تظل تحتفظ بشخصيتها التى تميزها عن غيرها من مظاهر النشاط الانسانى غير أنها شخصية ذات ألف وجه ووجه كما أن الواقع يتكون من ألف لحن ولحن !

وما قلناه عن العبقرية يصدق أيضا على الجنون ولا غرابة فى أن آلاف الخيوط التى تكون صورة العبقرى قد يتشابك بعضها مع بعض الخيوط التى ترسم ملامح المجنون فليست الظلال مجرد فراغات صامتة بل هى تؤدى وظيفة رئيسية فى بعث الحياة والحركة اذ أنها تزيد الاضواء ضياء وسطوعا والانوار اشعاعا وبريقا !

---

(١) يمكن الرجوع الى مجلة علم النفس المجلد الأول العدد الثالث (يوليو ١٩٤٦) للوقوف على أسس المنهج التكاملى فى تفسير الظواهر السيكولوجية .

ان اصرار المناطقة على التدليـل بعـــدم امكان الجمع بين النقيضين لا يعـــادله فى قوته الا رأى الذين يرون أن هنـاك ضربا من العلاقة بين العبقرية والجنون • غير أن بعض أنصار الرأى الثانى وقعوا فى المبالغة نفسها التى وقع فيها من يرون الفصـــل المطلق بين الطرفين • فقد حصروا أنفسهم فى دائرة التفسير بالعلة والمعلول ونسوا أن أى ظاهرة هى محصلة عدد كبير من العوامل المتفاعلة فيما بينها بحيث أن أى تغيير يحـدث فى أحد العوامل يصيب العوامل الأخرى مما يؤدى بالتـالى الى تغيير العامل الاول وهكذا يستمر التفاعل المتبادل سواء أبطأ أو أسرع ولا ينتهى هذا التفاعل الا بتفكك وانحلال المنظمة التى تضمه لكى يحل محلهـــا منظمة أخرى تختلف عن الاولى اختلافا واضحا •

وعلى ذلك تصبح المشكلة محصورة فى معرفة طبيعة العـــلاقة التى تربط بين العبقرية والجنون • ويجب أن تقـــوم دراسة هذه العلاقة على وقائع مستمدة من حياة العباقرة أنفسهم ومـمـــا عانوه من آلام الابتكار والتعبير • وقد اتضحت لنا الآن المعالم الرئيسية لبحثنا : فبعد أن نعرض بشىء من التفصيل النظرية التى تذهب الى التوحيد والتطابق بين العبقرية والجنون سنتناول بالتحليل بعض الشخصيات البارزة فى تاريخ الانسانية؛ ثم فى ضوء هذه الدراسة سنحـــاول تحليـــــل كل من العبقرية والجنون للكشف عن طبيعة العلاقات التى تربط بينهما وبهـــذه الكيفية نكون قد اقتربنا من حل المشكلة •

وحيث ان ميادين النشاط الانسانى وما برز فيها من عباقرة أوسع من أن تحصر فى عدة صفحات سنقتصر فى طلبنا لشهادة التاريخ على ثلاثة ميادين هى الفلسفة والادب والفن وسنعالج فى ميـــــدان الفلسفة شخصية أوجست كونت A. Comte وفى ميدان الادب جيرار دى نرفال وفى ميدان Gérard de Nerval الفن فنسان فان جوخ Vincent Van Gogh وربما يعترض على هذا الاختيار بأن يقال اننـــا حددنا اختيارنا بحيث يتلاءم مع النظرية التى نميل الى اثباتها ونكون قد لجأنا الى التضليل الذى يشير اليه براك Braque فى رأيه الذى أثبتناه فى مستهل هذا الفصل، غير أننا نسارع الى الرد على هذا الاعتراض بأن نكرر ما سبق أن قلنا بأن العبقرية متعددة الوجوه وربما سنضطر الى التمييز بين أنواع من العبقريات على الرغم من أوجه الشبه التى تقرب بينها من حيث ما تمتـــاز به عملية الالهام والابداع من صفات مشتركة سواء كانت فى ميدان الفن والفلسفة والادب أو فى ميدان العلم والسياسة والاقتصاد •

الفصل الثاني

العبقرية جنون

ان النظرية التى تقول بأن العبقرية ضرب من الجنون ليست وليدة العصر الحديث بل ترجع جذورها الى بعض فلاسفة اليونان ، غير أن ممثلي العلم الحديث أقاموا رأيهم على أسس فسيولوجية وقالوا ان العوامل الجسمية التي تسبب الجنون هي بعينها الاسباب التى تحدث العبقرية ٠

أما القدماء فقد أرجعوا جميع ألوان السلوك الشاذ وسائر المظاهر العقلية الغريبة الى تأثير قوى خفية تفوق الطبيعة ٠ فلم يميزوا بين الهام الحكماء وخطرفة المجانين ٠ فلفظ «مانيا» mania فى اللغة اليونانية القديمة يشير الى حماس المبتكر والى الهياج الذى يعترى المجنون أثناء هذيانه ٠ ويقول أرسطو : « ان احتقان الدماغ بالدم يحول بعض الاشخاص الى شعراء وأنبياء وعرافين ؛ وكثيرا ما كان مشاهير الرجال في الشعر والفنون مصابين بالجنون أو بالمرض السوداوى ؛ نافرين من مصاحبة الآخرين غير واثقين بهم ٠ وقد شوهدت مثل هذه الصفات لدى سقراط وأفلاطون وغيرهم خاصة لدى الشعراء »(١) ومما دعا أرسطو الى وضع مظاهر العبقرية والجنون فى فئة واحدة هو نظرته الى وظيفة الدماغ ٠ فكان يعتقد ، بخلاف ما ذهب اليه أستاذه أفلاطون ، أن عضو الفكر هو القلب لا الدماغ ، وأن الدماغ لا يعدو أن يكون غدة وظيفتها تبريد الحرارة الصادرة من القلب وعندما يقصر الدماغ عن تأدية هذه الوظيفة يحدث الاحتقان وما يتبعه من هيجان وهذيان وهز ٠

ومما هو جدير بالذكر أن لفظ «المجذوب» باللغة العربية يطلق على المجنون كما أنه يطلق على الشخص الذى تتعطل حواسه الخارجية عندما تتملكه قوة خفية علوية ٠ ولفظ «العبقرية» مشتق من عبقر وهو اسم مكان يقال انه موطن الجن وهى كائنات قد تلهم الشاعر أو الفيلسوف أو

---

(١) كتاب المشكلات ، الجزء ٣٠ ٠

تثير أعراض الجنون · وليس معنى « الشيطان » الذى كان يلهم سقراط بعيدا عن معنى الجن ·

وظلت النظرية التى تجمع بين العبقرية والجنون تتردد أصداؤها فى القرون الوسطى حتى العصر الحديث · ومن الغريب أن نجد لها أثرا فيما كتبه بعض فلاسفة القرن الثامن عشر ، هذا العصر الذى امتاز بتمجيد العقل والمنطق ودعا الى تفسير سلوك الانسان تفسيرا علميا · فنقرأ مثلا فى دائرة المعارف التى نشرت فى هذا القرن الآتى بامضاء ديدرو (١)

« إن من وهبتهم مزاجا يدفعهم الى التأمل والحزن لم يؤتوا هذه البصيرة الخارقة والتى تكاد تكون الهية الا بفضل ما اعترى جهازهم الجسمى من اختلال واضطراب ؛ تلك البصيرة التى تتجلى لديهم من وقت الى آخر وتبعث فيهم من الافكار ما هو رائع جليل أحيانا أو ما هو طائش ومجنون أحيانا أخرى ·· ويا أسفا فما أقوى الصلة التى تربط بين العبقرية والجنون ! وأولئك الذين وسمتهم السماء اما بسمة الخير أو بسمة الشر معرضون لمثل هذه الاغراض وقد يعانون منها بدرجات تتفاوت عددا وشدة ؛ فقد يسجنون ويكبلون بالسلاسل أو تقام لهم التماثيل لتمجيدهم »

ويوضح لنا ديدرو آراءه فى العبقرية فيما كتبه فى النقد الادبى والفنى · فلم تطغ فلسفته الوضعية على حسه الفنى · فهو يقول بالعودة الى الطبيعة . بضرورة استلهام الطبيعة والواقع وعدم الفصل بين الفن والطبيعة ويدافع بحرارة عن حرية العبقرى واستقلاله ويرى أن شخصية الفنان أو الاديب يجب أن تنمو حرة طليقة · وليست النقائص الا الظلال التى تزيد الجمال روعة · والسمة الرئيسية التى تطبع العبقرية هى الحماس وبهذا يكون قد وضع المعالم الاولى للحركة الرومانتية التى ستزدهر فى القرن التاسع عشر ·

---

(١) ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) أديب وفيلسوف فرنسى · أشرف على اصدار دائرة المعارف فى عام ١٧٤٩ حتى اصدار آخر جزء منها فى عام ١٧٧٢ · ومن أهم مؤلفاته : « خواطر فلسفية » ، « رسالة عن العميان موجهة الى المبصرين » ، ودراسات فى النقد الفنى نشرت بعنوان « صالونات » ومجموعة كبيرة من القصص والتمثيليات عرض خلالها آراءه فى الفلسفة الطبيعية والأخلاق · وكان يدعو بالعودة الى الطبيعة وبالابتعاد عن التصنع والجمود فى الفن والأدب · ويعد مع جان جاك روسو ممن مهدوا السبيل للحركة الرومانتية فى القرن التاسع عشر ·

ولم يتخذ رأى ديدرو شكله العلمى الا فى القرن التاسع عشر عندما آخذ بعض أطباء الامراض العقلية أمثال بينل Pinel واسكيرول Taylor يغيرون نظام مستشفيات الامراض العقلية بطبعه بطابع الانسانية والرحمة ويقيمون الطب العقلى على أسس علمية مرجعين جميع الامراض سواء كانت جسمية أو عقلية الى عوامل طبيعية غير روحانية ·

وفى الابحاث التى نشرت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر نذكر بحثين للدكتور ليلو Lélut الاول فى عام ١٨٣٦ بعنوان «شيطان سقراط»(١) والثانى فى عام ١٨٤٦ بعنوان «حجاب بسكال»(٢) ، يثبت فيهما أن سقراط وبسكال كانا مصابين بالهلوسات السمعية والبصرية وبنوبات عصبية تشنجية ·

غير أن الدكتور ليلو لم يكن من أنصار النظرية التى توحد بين العبقرية والجنون ، فبعد أن ذكر الادلة التى تثبت وجود الاضطرابات العقلية لدى كل من سقراط وبسكال يعود ليقول ان سقراط لم يكن عبقريا وأن فلسفته لم تكن الا مجموعة من الالفاظ الجوفاء · أما عن بسكال فقد أبدى فى طفولته دلائل العبقرية ثم انطفأت نارها بعد ذلك وأن ما ابتكره بسكال من طرائف رياضية كان عديم الفائدة وأن اكتشافاته العلمية كانت فى الواقع سرقات ·

لسنا بطبيعة الحال بصدد الدفاع عن عبقرية سقراط أو بسكال ولكننا نريد الاشارة الى أثر بعض المعتقدات الراسخة فى أذهان الباحثين والتى تدفعهم أحيانا الى تغيير مدلول الالفاظ لكى تتلاءم مع الوقائع او « الوقائع المزعومة » مع نظرياتهم · فكان ليلو ينظر الى سقراط كعدو للديموقراطية والى بسكال كعدو للعلم الوضعى خاصة بعد تحوله الدينى · ففى نظر ليلو لا يمكن أن يكون عدو الديموقراطية أو الرجل الصوفى عبقريا (٣) ·

---

(١) أعيد طبع هذا البحث فى عام ١٨٥٥ ثم طبع مرة ثالثة فى أواخر القرن بعد وفاة المؤلف وبدون تاريخ بعنوان : العبقرية والعقل والجنون ·

(٢) اشارة الى النص الذى كتبه بسكال عقب عودته الى الدين وتجاربه الصوفية · وهذا النص معروف بالذكرى · راجع كتاب «بسكال» للدكتور نجيب بلدى — ص ٩٥ ومابعدها ·

(٣) الا يحق لنا أن نقول عن «العلم» ماقيل عن «الحرية» : « يا أيتها الحرية ! ما أكثر الجرائم التى ارتكبت باسمك ! » — «يا أيها العلم ! ما أكثر الأخطاء التى تختفى وراء ستارك ! » ·

أما الــكتاب الذى دعم النظرية التى تؤكد أن العبقرية جنون فهو كتاب الدكتــور مورو دى تور Moreau de Tours المنشور عـام ١٨٥٩ بعنوان : « علم النفس المرضى وعلاقته بالفلسفة والتـاريخ » . ففى هذا الكتاب يذكرنا المؤلف بقول أرســطو مؤكدا أن ما ذهب اليه الفيلسوف اليونانى لم يكن ضربا من اللعب اللفظى بل حقيقة واقعية . فهو يؤكد أن العبقرية ذات منشأ مرضى ، انها نتيجة مرض عصبى ؛ ولـكنه يؤكد من جهة أخرى أن العبقرية هى أعلى درجات النشـاط العقلى . ويشرح مورو دى تور رأيه بقوله : « ان العـــوامل العضوية الأكثر ملاءمة لنمو الملكات العقلية هى بعينها التى تولد الهذيان .. وقـــد يؤدى التكتل غير العادى للقوى الحيوية فى عضـو ما الى نتيجتين متســاويتين من حيث احتمال حدوثهما : زيادة الطاقة فى وظائف هـــذا العضو وكذلك احتمال أكبر لاصابة هذه الوظائف بالاحتلال والانحراف » وهـــذا الاختلال هو بعينه المرض العصبى الذى يطـلق عليه لفـظ (١) névrose . غير أن مورو دى تور يتردد بعض الشىء فى تعريف هذا اللفظ ، فبعد أن يفسر الاختلال تفسيرا عضويا يعود فيقول أنه لا يقصد من هذا اللفظ الا معنى الهياج والحماس . ثم يعود مرة ثانية فيؤكد أن هـــذا الهياج ذو طبيعة مرضية . ولنستمع اليه مرة ثانية : «العبقرية ، أى أعلى وأسمى ما يعبر عن النشاط العقلى ، ليست الا مرضا عصبيا ! ولم لا ؟ . أرى اننا نستطيع قبول هذا التعريف بشرط ألا نحمل لفظ névrose هذا المعنى المطلق الذى يتخـــذه عندما نتحـــدث عن الاحوال المختلفة التى تعترى الاعضاء العصبية ، بل يجعله قريبا من معنى الهياج (ولا أقول الاختلال) الذى يصيب الملكات العقلية . وفى هذه الحالة يشير لفظ névrose الى استعداد خاص لهذه الملكات ، مع اشتراك هذا الاستعداد مـع الحالة الفسيولوجية ولكنه يتجـــاوز حدود الفسيولوجى حتى يقترب من الحالة المضادة وهذا ما يفسر لنا الطبيعة المرضية لهذا الاستعداد » .

ويمكن تلخيص رأى مورو دى تور فى العبارة الآتية : العبقرية هياج ولكنه هياج مرضى . فهو لا يعتبر المرض نتيجة اجهـاد العبقرى أو الثمن

---

(١) ترجمت هنا لفظ névrose بمرض عصبى بدلا من «عصاب» وهو اللفظ الذى اقترحته منذ عام ١٩٤٣ . ففى رأى مورو دى تور névrose هو مرض عضوى يصيب الجهاز العصبى مما يؤدى الى اختلال وظائفه . أما اليوم وبفضل أبحاث جانيه Janet وفرويد Freud والغالبية العظمى لأطباء الأمراض العقلية فيجب التمييز بين المرض العضوى والمرض الوظيفى . والمرض العصبى الوظيفى أى العصاب ذو نشأة نفسية لانتيجة اصابة الجهاز العصبى اصابة عضوية .

الذى يدفعه نتيجة للارهاق العصبى ، بل يؤكد الطبيعة المرضـية لنشأة العبقرية • غير أنه لم يحدد بوضوح نوع المرض واكتفى بأن يطلق عليه لفظا عاما هو المرض العصبى •

أما العالم الذى قام بتحديد نوع المرض فهو الطبيب الايطالى لومبروزو Lombroso فى كتابه الشـــهير «الانسان العبقرى»(٢) • كان لومبروزو يعمل طبيبا فى السجون وكان مهتما بالدراسات الانثربولوجية التى تتناول الانسان الاول ومختلف السلالات البشرية والسـمات الجسمية التى تفرق بينها • وقد بدأ حياته العلمية فى ميدان العلوم الجنـائية بمساهمة قيمة تثبت علاقة المجنون بألوان معينة من الاجرام • ثم انطلق فى تعميم نظريته فى تفسير مختلف أوجه النشاط الانســانى بعوامل وسمات عضوية فقرر أن العبقرية أيضـــا ذات نشأة مرضية وحدد المرض بأنه الصرع • فهو يقول مثلا : « ان الصراع لا تقتصر مظاهرة على النوبات التشنجية بل كثيرا ما تتخذ هذه المظاهر شكل المعادلات النفسية كالابتكار العبقرى مثلا •• فالصرع قد يؤدى من النـــاحية العقلية اما الى طاقة لا يمكن قهرها أو الى تخيلات جامحة حادة » •

وقد استعرض لومبروزو حياة مئات من العباقرة منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر فىمجال الفلسفة والعلم والفن والشعر والسياسة• ونجد فى قائمة الاسماء التى ذكرها كبار العباقرة الذين اعترف التاريخ بفضلهم بجانب أشخاص امتازوا ببعض المواهب دون الوصول الى مستوى التفوق الحقيقى • فقد وسع معنى العبقرية كما فعل العـــالم الانجليزى جالتون Galton فى كتابه عن «العبقرية الموروثة» اذ خلط بين العبقرية والموهبة فوجد أن نسبة عدد العباقرة هى ٤٢١ على المليون •

ربما يكون من الطريف ذكر أسماء العباقرة الذين وسمهم لومبروزو بالجنون أو بعبارة أدق بالصرع أو بنوبات معادلة للنوبة الصرعية الصريحة• وحسبنا أن نذكر بعضهم وأن نشير الى الادلة التى اعتمد عليها لومبروزو لاثبات نظريته وذكر هذه الادلة كفيل بأن يظهر ضعفها •

فالعدد الاكبر للعباقرة نجده من بين الفلاسفة والعلماء ثم يليهم رجال الشعر والفن وأخيرا رجال السياسة • وربما يدهش القارىء عندما يعلم أن من بين الفلاسفة والعلمـاء الذين يذكرهم لومبروزو لدعم نظريته تجد

---

(٢) ظهرت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب فى عام ١٨٩٥ •

ارسطو وابن سينا وجليليو وديكارت واسبينوزا وليبنتز ولوك ونيوتن وهيوم وكنت وهيجم وكوفييه وداروين الخ ٠٠

ومن بين الشعراء والفنانين اكريس ودانتى وسرفانتس وملتون وجيته وشيلى وبيرون وفكتور هوجو وشكسبير وموليير وهندل وهيدن وموزار وبيتهوفن وفاجنر ورافائيل وميكيل أنجلو الخ ٠

ومن بين رجال الحكم والسياسة بريكليس وديموستين ويوليوس قيصر وريشوليو وكروموول وبطرس الاكبر وفريدريك الأكبر وكاترين الثانية ونابليون وماتزينى وكافور الخ ٠٠

والأدلة التى يذكرها لومبروزو متفاوتة جدا من حيث قيمتها التشخيصية وبعضها يمكن أن ينعت بالسخافة أو بعبارة أخف بالسذاجة التى لا تتفق بتاتا مع روح النقد العلمى (١)

ونذكر فيما يلى بعض هذه الادلة على سبيل المثال ٠ فجاليليو وجاسندى وديكارت واسبينوزا وهوبس ولوك وليبنتز ونيوتن وهيوم وكنت وبنتام موصومون بالعقم فلم يتزوجوا ولم ينجبوا ٠ ومن الادلة العجيبة التى يذكرها لومبروزو صغر القامة وضمور الجسم وطول العمر ، فالفيلسوف هوبس وفونتنال وبنتام تجاوزوا الثمانين ! والوراثة أيضا تؤدى دورها فبلوتارك كان جده سكيرا وكذلك بيتهوفن كان أبوه وجدته من مدمنى الخمر ، وهيجل أصيبت أخته بالجنون ٠

ويعد لومبروزو الانتحار من دلائل الجنون وهو كذلك فى معظم الحالات(٢) ، غير أنه لم يدقق فى صحة الروايات التى استند اليها ٠ فهو مثلا يذكر أرسطو فى عداد المجانين لأنه انتحر ٠ غير أن رواية انتحار أرسطو لا تقدم على سند صادق كما وضح ذلك مؤرخ الفلسفة اليونانية جروت Grote وغيره من المؤرخين ، فهناك روايات أخرى أكثر ثقة من الاولى تؤكد أن أرسطو مات فى سن الثالثة والستين بعد أن عانى مرضا عضالا فى معدته ٠

---

(١) قال بعض الظرفاء أن أكبر دليل على صحة نظرية لومبروزو هو لامبروزو نفسه، اذ أن وضع جميع العباقرة الذين تفخر بهم الانسانية فى جراب واحد لايمكن أن يصدر الا عن عبقرى مجنون ! ٠

(٢) نقول فى معظم الحالات اذ يجب أن تراعى بعض العوامل التاريخية والتقاليد الدينية لدى بعض الشعوب ٠ ففي عصر الرومان مثلا حيث كان العالم المتمدن كله خاضعا لسلطانهم فلم يجد بعض الساسة سوى الانتحار فرارا من الاضطهاد ٠

يتضح لنا من عرض حالة أرسطو أن لومبروزو يذهب الى أن الجنون سواء ظهرت أعراضه في بدء الكهولة أو في أواخر الشيخوخة فلا بد أن يكون كافيا في الشخص منذ الطفولة وأن مظاهر العبقرية ترجع اليه كما يرجع المعلول الى العلة • وهذا موقف عجيب لدى طبيب لا يفرق بين الجنون المبكر وما يصاحب الشيخوخة لدى بعض الافراد من أعراض الانحلال والتدهور الجسمي والعقلى • ثم نجده يقرر أن الجنون الذى يكمن وراء العبقرية هو الصرع ثم عندما تعوزه أعراض الصرع الصريحة يلجأ الى ما يسميه بالنوبات المعادلة للنوبة الصرعية ويدخل فى نطاقها كل عرض من شأنه أن يؤيد نظريته • فضلا عن أنه لم يقارن بين انتاج العبقرى فى الفترة التى يتمتع فيها بكامل قواه العقلية وانتاجه ــ اذا كان هناك انتاج ــ بعد اصابته بالجنون • وقد وقع فى هــذا الخطأ المنهجى عندما قرر أن عبقرية نيوتن ترجع الى الجنون • والواقع أن نيوتن أصيب بانهيار عصبى وبخلط ذهنى فى عام ١٦٩٣ عندما احترقت داره للمرة الثانية ودمرت النيران معمله وبعض المخطوطات الهامة • ولــكن يجب أن نذكر من جهة أخرى أن نيوتن قد نشر كتابه الرئيسى الذى يحوى جميع اكتشافاته فى عام ١٦٨٧ وهو كتاب المبادىء الفلسفية ، وكان فى الخامسة والاربعين من عمره • ولم يكتشف نيوتن بعد ذلك شــيئا جديدا فى العلم بل اكتفى بتوضيح كشوفه السابقة وباضافة أجزاء مستخرجة من بحوثه القديمة التى لم يكن قد نشرها • فمن الواضح هنا أن الجنون كان سببا معطلا للعبقرية ، غير أن لومبروزو لم يخضع تفكيره واستدلالاته للنقد العلمى السليم وأصر على أن العبقرية مظهر من مظاهر الصرع أو عوض من الاعراض البديلة عن الصرع • وامعانا منه فى تدعيم نظريته بجميع الوسائل الممكنة فقد عقد فصلين طويلين فى القسم الثالث من كتابه لاثبات وجود العبقرية لدى نزلاء مستشفيات الامراض العقلية فذكر بعض القصــائد ونشر بعض الصور لتدعيم نظريته • وحسبنا أن نشير هنا الى هذا الجانب من نظرية لومبروزو وسنناقش هذا الموضوع فى الفصلين الرابع والخامس أثنــاء حديثنا عن الشاعر والاديب جيرار دى نرفال والمصور الفنان فنسان فان جوخ •

في علم النفس الصناعي

علم النفس الصناعى
وضرورة تنظيمه فى مصر (*)

تشجيع الصناعة فى مصر وتنظيمها من الأسس الجوهرية لنهضتنا القومية ويجب أن يكون هذا التنظيم علميا واجتماعيا معا بحيث يشمل جميع نواحى النشاط الصناعى : تهيئة أحسن الظروف الطبيعية من ضوء وحرارة وهواء ، مراقبة الضوضاء وعلاجها ، اختيار أكفأ العمال لكل نوع من الأعمال بحيث يؤدى تكييف العامل للمهنة والمهنة للعامل الى زيادة الانتاج مع الاقتصاد فى المجهود وذلك عند ما يزداد العامل شعورا بكفاءته وملاءمته للعمل وما يتبع ذلك من الشعور بالاطمئنان والرضى والتقدير ؛ تحليل أنواع الأعمال المختلفة وما تتطلبه من حركات لتنظيم هذه الحركات وازالة الحركات الضارة أو العائقة أو الضائعة مما يؤدى الى الاقتصاد فى المجهود وزيادة الانتاج وتحسينه ؛ تحسين العلاقة بين العمال والمشرفين عليهم على أساس من العناية والتفاهم لا مجرد اصدار الأومر ؛ معالجة الحوادث ونظام التأمين الاجتماعى والمكافآت ؛ تنظيم أوقات الفراغ وايجاد ميادين جديدة للنشاط الاجتماعى والثقافى ؛ اعادة توجيه الذين أصيبوا بعاهات لا تحول دون قيامهم بعمل ملائم لهم الخ ...

ان كل هذه الأمور يقوم بمعالجتها وتنظيمها جماعة من الاخصائيين فى علم النفس ويطلق على هــذا الفــرع من علم النفس الصنــاعى ، Industrial Psychology وبالاضافة الى العمليات التى سبق ذكرها ، يهتم هذا الفرع الهام من علم النفس التطبيقى بدراسة أهم وسـائل الاعلان والدعاية ، كما أنه يقوم بتحليل الأســواق المختلفة تمهيدا للاعلان عن بعض السلع وترويجها .

ولابد من أن يستعين السيكولوجى الصناعى بمن لهم خبرة بالهندسة والاقتصاد كما أنه يستعين بالطبيب وبالسيكولوجى الاكلينيكى لدراسة المشكلات السلوكية وما يتصل بها من ظروف ناشئة فى المعمل .

(*) « مجلة علم النفس » ، فبراير ١٩٤٨ .

ومما هو شبيه بالعمل الذى يقوم به السيكولوجى فى المصنع عملية التوجيه المهنى فى المدارس لمعرفة من هو صالح لمواصلة دراسته الثانوية المؤدية الى الدراسات العليا ومن هو كفء للدراسات العملية مثل التى تقدمها مدارس الصناعات التطبيقية ٠

هذا فضلا عن طرق اختيار ذكاء التلاميذ لتكوين فصول متجانسة وتحقيق الوفاق بين مستوى الفصل ومواد المنهج وطرق تدريسه ، وكذلك اختبارات الشخصية وما يترتب عليها من اجراءات ارشادية وعلاجية يقوم بها المختصون فى العيادات السيكولوجية الملحقة بالمدارس ٠

وأخيرا يجدر بنا أن نشير الى ناحية هامة من نشاط الامة وهى تنظيم الجيش بأحدث الوسائل العلمية ٠ فأنظمة الجيوش الحديثة تتولاها هيئة من الاخصائيين وخاصة فى بعض الأسلحة مثل الطيران والمدفعية ومختلف وسائل النقل الميكانيكى ٠ فمن البديهى أن هذه الأعمال المختلفة من قيادة طيارة أو سيارة أو دبابة أو استخدام المدافع على اختلاف أنواعها تتطلب من القائمين بها قدرات ميكانيكية خاصة يمتاز بها بعضهم دون بعض، وقد لجأت الجيوش الحديثة فى تنظيم مختلف الأسلحة والفرق الى سيكولوجيين لاختبار الجنود واختيار أصلح الأشخاص لكل عمل معين ٠ والدوائر العسكرية العليا فى مصر تفكر جديا فى استخدام هذه الوسائل العلمية الحديثة لتحقيق أكبر قسط من الكمال والتوفيق فى تنظيم مختلف الاسلحة ، خاصة بعد أن تقرر تقوية الجيش وتعزيز وسائله الهجومية والدفاعية ٠

فالمصنع والمدرسة والجيش ، تلك هى الأركان الثلاثة التى يجب تدعيم أنظمتها بصفة علمية بحيث تؤدى ما هو مرجو منها من فائدة فى سبيل نهضة قومية شاملة مطردة ٠ ولهذا يصبح من واجب الجهات العلمية فى مصر التى تقوم بالدراسات السيكولوجية أن تستعد منذ الآن — وبطريقة منظمة شاملة — لمواجهة هذه الطلبات الحيوية ويجب تنسيق الجهود بين الهيئات العلمية فى الجامعتين وفى معاهد التربية العليا للمعلمين المختلفة التى يتكون منها الشعب ٠

ولكن مما يؤسف له حقا أن المشرفين على مستقبل البلاد ، سواء فى الدوائر الحكومية الادارية أو فى معاهد العلم التى تهتم بتدريس علم النفس والتربية لم يعملوا شيئا يذكر لتطبيق علم النفس لتحسين حالة الطوائف المختلفة التى يتكون منها الشعب ٠

فاذا نظرنا الى المدارس وتساءلنا عما عمل فعلا فى ميدان تطبيق

الاختبارات لتوجيه التلاميذ حسب قدراتهم واستعداداتهم ، وانشاء فصول خاصة لضعاف العقول أو للموهوبين من أبناء الأمة لا نجد شيئا جديرا بالذكر .

واذا تحولنا شطر المصانع والحياة العمالية للوقوف على ما تم بصدد تنظيم العمل الصناعى على أسس علمية سيكولوجية لمحاربة الاهمال والتبذير واذا بحثنا مدى « العناية » بالعامل ، لا مجرد ادارته واصدار الأوامر اليه ، لألفينا النتيجة محصورة فى نطاق ضيق جدا لا يتجاوز انشاء عيادة طبية ومطعم فى عدد قليل من المصانع . واذا تساءلنا هل يبحث أولو الأمر فى منشأ الحوادث التى تعالج فى العيادة وما اذا كانت ترجع الى عوامل فنية أو الى المشكلات النفسية التى يعانيها العمال وجدناهم لا يدركون لمثل هذه الأسئلة معنى ، معتقدين أنهم أدوا واجبهم لأنهم أمدوا العامل بالاسعافات الأولية .

واذا حاول أحد أن يسترعى نظر أصحاب المصانع الى التبذير الهائل الذى يصيب الانتاج لعدم اختبار العامل وفقا لاستعداداته وما يتطلبه كل عمل من مهارة أو قدرة خاصة ، أو لعدم العناية بالمشكلات السلوكية والأزمات النفسية التى يشكو منها بعضهم سواء كانوا من العمال أو من الرؤساء ؛ فانه لا شك فاشل فى محاولته لأن الأرباح الكبيرة التى قد يجنيها بعض أصحاب العمل تجعلهم عاجزين عن ادراك نواحى النقص المؤدية الى التبذير فى المواد الأولية وفى الوقت والمجهود . وكثيرا ماسمعنا بعض المهندسين الصناعيين يصرحون بأن تنظيم العمل فى ضوء ما يقدمه علم النفس الصناعى من اقتراحات ووسائل كفيل بخفض تكاليف الانتاج والاسعار وزيادة الانتاج وتحسينه مما يؤدى الى تحسين حال العمال من جميع الوجوه الصحية والفنية والاجتماعية دون خفض نسبة الأرباح .

❊ ❊ ❊

يجب أن ندرك تماما أن المشاكل الاقتصادية والتربوية والمهنية والاجتماعية التى نواجهها الآن فى مصر ستزداد تعقدا وخطرا اذا نحن لم نتدبر الأمر منذ الآن ونفكر جديا فى جميع الوسائل الصالحة لمعالجة هذه الحالة . ومما لا شك فيه أن من أهم وسائل الاصلاح الاعتماد على العلم لتنظيم النشاط ، وعلم النفس الصناعى الذى يمتاز بصفات علمية وفنية واضحة فضلا عن نزعته الاجتماعية الصريحة من أهم وسائل التنظيم والاصلاح . ويمكن حصر مسائل علم النفس الصناعى فى النقط الثلاث الآتية :

١ ــ يجب انشاء علم نفس صناعى فى مصر ، جدير بأن يسمى علما ، ولذلك يجب أن يقوم على الدراسة التجريبية المنظمة ٠

٢ ــ تطبيق علم النفس الصناعى بطريقة منظمة بحيث يخدم الأفراد دون المساس بكرامتهم وحقوقهم الانسانية ٠

٣ ــ اشتراك الهيئات الحكومية والقومية المختلفة فى تنظيم علم النفس الصناعى وتطبيقه وتحمل تبعة هذا التنظيم ٠

* * *

ان منشأ علم النفس الصناعى يرجع الى ضرورة تحقيق التوافق الملاءمة بين العامل وعمله ، أى اختيار أصلح عامل لعمل معين ، ثم أدى هذا الاهتمام الى اهتمام آخر وهو تحقيق التوافق بين العمل والعامل أى تنظيم العمل وتحديد مراحله وتحليل حركاته بحيث يؤدى القيام به الى أكبر انتاج بأقل مجهود ٠

وغرض علم النفس الصاعى يوجه عام غرض مزدوج : أولا ــ تعيين مقومات السلوك الانسانى بازاء موقف معين وذلك بطرق كمية وباستخدام المقاييس الموضوعية المقننة وتجنب كل تقدير ذاتى قائم على التخمين والحدس ٠ ثانيا ــ بالاعتماد على النتائج التى تسفر عنها هذه الخطوة الأولى والتنبؤ بما يكون عليه سلوك الأفراد بازاء موقف يحتمل حدوثه ويكون ذلك أيضا باستخدام الوسائل العلمية والمقاييس المختلفة ٠

ويعنى علم النفس الصناعى بظروف الانتاج وتقدير مداه فى ميادين أربعة : الانتاج المدرسى ــ الانتاج المهنى ــ الانتاج العسكرى ــ الانتاج فى ميدان الرياضة البدنية ٠

والمشكلات التى يمكن اثارتها بصدد التوجيه والاختبار كثيرة متعددة ؛ فمنها ما يتعلق مثلا باختيار نوع الدراسة التى تصلح لطفل معين: هل فى استطاعته أن يواصل دراسته الثانوية بنجاح أو هو معرض للفشل والخيبة فى الامتحانات نظرا لوجود نقص فى بعض القدرات التى يتطلبها هذا النوع من الدراسة ؟ ومنها ما يتعلق باختيار المهنة : هل يستطيع هذا الشاب الذى يتدرب على مهنة معينة أن يصبح فى المستقبل عاملا ماهرا ؟ ألا توجد مهنة أخرى تسمح له استعداداته بأن يتفوق فى مزاولتها أكثر من تفوقه فى المهنة الأولى ؟ واذا فرضنا أن أحد المصانع استقدم آلات جديدة وأراد أن تكلف بعض عماله بادارتها فأيهم أقدر من غيرهم على القيام بالعمليات الجديدة التى تتطلب قدرات عقلية وميكانيكية خاصة ؟ وفى

ميادين القتال أيهم أقدر من غيرهم على تكوين فرقة قادرة على صد هجـوم الأعداء فى ظروف معينة ؟ واذا كنا بصدد وسائل النقل الميكانيكى الى من نعهد بقيادة القطارات والسيارات والطيارات بحيث نضمن سلامة الركاب وتجنب الاخطاء التى تعرض حياة الركاب للحوادث والموت ؟

ربما يقول قائل ان أحسن وسيلة الحاق الطفل بالمدرسة أو تدريب الصانع المبتدىء على آلته والطيار على طيارته وقائد السيارة على سيارته للوقوف على صلاحية كل منهم للعمل المكلف به . ولـكن سنى الدراسـة طويلة تستغرق عددا من السنوات يكون الطفل فيها قابـلا للتحصـيل والتعلم ؛ ثم ليس من السـهل تغيير المهنة التى اقتضى تعلمهـا مجهودات متواصلة ، هذا فضلا عن الأثر النفسى السيىء الذى يتركه الانتقال من مهنة الى أخرى بطريقة عشوائية مرهونة بظروف طارئة ؛ وفيمـا يختص بقيادة وسائل النقل السريعة الجوية والبرية فاى خطأ كبير قد تكون له عواقب وخيمة جدا وقد يؤدى أدنى سهو الى احداث الكوارث نظرا لعجز الشخص عن تركيزالانتباه أو ضبط مزاجه الانفعالى . فلا بد من ضمـان حسن النتيجة الى أقصى حد ممكن قبل تعريض الشخص لبذل مجهودات لا تحقق فى المستقبل كامل التوافق بينه وبين نوع العمل الذى يعد نفسه له ، ولذلك يجب أولا اختيار أصلح الأشخاص لعمـل من الأعمال قبـل الشروع فى التعليم والتدريب .

وعلى ذلك تكون المهمة الأولى الملقاة على عاتق علماء النفس الصناعيين توجيه الأفراد لأنواع النشاط التى فى استطاعتهم أن يأتوا فيها بأحسن النتائج وذلك بواسطة اختبارات مختصرة يمكن تطبيقها فى زمن قصـير وموضوعة بحيث تسمح بالتنبؤ بما قد تكون عليه نتائج نشاطهم فى أعمال أكثر تعقيدا من تلك التى كلفوا بها أثناء اجراء الاختبارات .

أما المهمة الثانية فهى اختيار أكفأ الأشخاص من بين المدربين للقيام بعمل ما أحسن من غيرهم .

لنفرض مثلا العمل على المخرطة فى ورشة ميكانيـكية . ففى حالة التوجيه **Orientation** نختار من بين مجموعة من الأحداث من يمتازون باستعداد خاص **Special Aptitude** للقيام بهذه الدراسة بنجاح . أما فى حالة الاختيار **Selection** فعلينا أن نختار من بين مجموعة من العمال الذين قضوا فترة التدريب **Training** واكتسبوا خبرة فى هذا النوع من الأعمال من هم أصلح من غيرهم للقيام بهذا العمل فى حالة ما يـكون

عدد المتقدمين لهذا العمل يفوق عدد العمال الذين يراد تشغيلهم وذلك باختبار قدرتهم الفعلية Acutal ability بوساطة اختبارات التحصيل أو الانجاز Achievement tests . واذا كانت هناك درجات فى صعوبة عمل واحد فيمكن توزيع العمال حسب هذه الدرجات ومستويات قدرتهم Ability فى تأدية العمل نفسه (١) .

ولكن من جهة أخرى يهتم علم النفس الصناعى بتكييف العمل بحيث يلائم مستوى معينا من القدرة ، كان يعنى بازالة العوامل المؤدية الى الحوادث الخطرة كالصدمات أو التسمم أو الاصابات الجسمية أو التشويهات والأمراض ، كما أنه يعنى بتبسيط الحركات وايجاد الايقاع الذى يتفق مع القدرة الحركية العامة مع مراعاة قابلية العامل للتعب ، كما يعنى بتحسين الأجهزة والآلات لا لزيادة الانتاج فقط بل لتسهيل ادارتها واستعمالها .

ومن مهمة علم النفس الصناعى أيضا أن يكشف عن أنجح الوسائل للتكوين المهنى وأصلح المناهج للتعليم بحيث يصل العامل الى اتقان مهنته فى أقصر مدة ممكنة بتجنب بعض الأخطاء وبمقاومة بعض العادات والحركات السيئة التى قد يكتسبها دون أن يشعر بها . وذلك بحليل العمل Job analysis وتعيين مراحل تعلمه سواء من الوجهة النفسية أو من الوجهة الحركية ، كما فى تعليم الآلة الكاتبة (٢) أو أجهزة التلغراف أو مختلف الأجهزة المستخدمة فى الصناعة .

وأخيرا يهتم علم النفس الصناعى بايجاد الظروف الملائمة التى تسمح للمصابين فى أثناء العمل بأن يستمروا فى العمل بعد شفائهم وذلك بتوجيههم نحو عمل جديد أيسر من العمل الأول ولكنه مرتبط به ومتجانس معه الى حد كبير .

توجيه ـ اختيار ـ انقاذ المصابين بعاهات مستديمة واعادة تشغيلهم ـ تنظيم المهن ـ تنظيم الاعداد المهنى ، تلك هى الوظائف الأساسية التى يؤديها علم النفس الصناعى .

---

(١) للوقوف على معانى المصطلحات الخاصة بعلم النفس الصناعى نرجو الرجوع الى قاموس المصطلحات المنشور فى هذا العدد .

(٢) راجع ما كتبناه عن مراحل تعلم الآلة الكاتبة فى كتابنا مبادىء علم النفس العام ص ١٨٤ ـ ١٨٥ الناشر : دار المعارف بمصر ـ ١٩٤٨ .

ليس من شك فى أن علم النفس الصناعى يرمى الى خدمة العمل بوجه عام والى تحقيق رفاهية العامل وضمان سير المؤسسة الصناعية وتنميتها ٠ غير أن كثيرا ما ينظر العامل الى السيكولوجى الصناعى نظرة ارتياب وحذر معتقدا أن مهمة السيكولوجى هى حمله على بذل أقصى المجهودات خدمة لصاحب العمل وخفض أجور من أصبح أقل صلاحية فى تأدية العمل نتيجة للسن أو المرض ٠ ولهذا الحذر أساس يرجع الى الوسائل التى طبقها منذ نصف قرن الأمريكى تيلور Taylor ؛ فكان يبدأ بتعيين أقصى انتاج يستطيع أن يصل اليه أكفأ عامل ، ثم كان يطالب جميع العمال بأن يصلوا الى الانتاج النموذجى والا هددهم بالرفت ٠ ومما شجعه فى هذه المعاملة الظالمة أن عدد المهاجرين المتعطلين كان كبيرا وقتئذ بحيث كان العرض يفوق الطلب بكثير ٠ ثم كان تيلور يعيد عملية الاختبار كل عدة سنين لرفت العمال الذين قل انتاجهم على أثر الانهاك الذى أصابهم بعد المجهود المضنى الذى كانوا يبذلونه للمحافظة على مستوى الانتاج المطلوب منهم ٠

ولكن مثل هذا النظام لم يلبث طويلا حتى ظهرت نقائصه العلمية والخلقية ، فلجأ بعض أصحاب المصانع الى وسيلة أخرى لزيادة الانتاج وذلك باثارة المنافسة بين العمال بمنح أنشطهم مكافآت قد تصل الى ٥٠٪ من الأجر الأساسى ٠ غير أنه اتضح أن الدافع الى الكسب الأكبر يضعف ويتضاءل اذا لم يراع صاحب العمل ارضاء الدوافع الأخرى التى لا بد من ارضاء بعضها لضمان الانتاج المتواصل وقد أسفرت بعض التجارب عن النتائج الآتية فيما يختص بترتيب دوافع العمل حسب أهميتها :

فالدافع الذى يأتى فى المرتبة الأولى هو الاطمئنان الى الاستمرار فى العمل ،فالشعور بالأمان وبضمان المستقبل أصبح اليوم فى الظروف المضطربة التى تجتازها الانسانية العامل الأول فى تحقيق سعادة الانسان وتوازنه ، فالخوف المعنوى كالخوف المادى من شأنه أن يضعف العزيمة ويشل الحركة ٠

ثم يأتى فى المرتبة الثانية توافر الشروط اللازمة للعمل المريح بازالة عوامل الضجر والملل والتعب السريع ٠

ويأتى فى المرتبة الثالثة والرابعة عاملان اجتماعيان هما الوئام مع رفاق العمل ثم حسن اختيار رئيس العمال أو المشرف على العمل ٠ فلا شك

فى أن لنوع العلاقة الانسانية القائمة بين العمال بعضهم مع بعض وبينهم والمشرفين عليهم أثرا كبيرا فى تحقيق رضا العمال وتقوية روحهم المعنوية ٠

ثم تأتى فى المرتبة الخامسة والسادسة الاعتبارات المالية ــ بشرط أن يكفى الحد الأدنى للأجر لسد حاجات العامل الأساسية ويضمن له حياة كريمة ــ وهذان العاملان هما أولا فرصة التقدم والترقية وثانيا الأجر المرتفع ٠

وأخيرا هناك دوافع أخرى مثل الفرصة لتعلم مهنة جديدة أو القيام بعمل سهل فى أوقات لا تتطلب عناء كبيرا ، ولكن هذه الدوافع أقل أهمية من غيرها ٠

ويمكن أن نستخلص مما سبق ضرورة التوفيق بين حاجات العامل المادية وحاجاته النفسية والاجتماعية ٠ فمن الخطأ أن ننظر الى العامل كأنه مجرد آلة تستهلك كذا من الطاقة وتأتى بكذا من العمل ٠ بل يجب أن ننظر اليه كانسان من حقه أن يحيا حياة كاملة تضمن له الطمأنينة والرضى بارضاء دوافعه المادية والمعنوية والاجتماعية على حد سواء ٠

فالغرض الذى يحق لعلم النفس الصناعى أن يرمى اليه هو ليس زيادة الانتاج فحسب ، بل التوفيق بين الانتاج الأكبر ومصلحة أكبر عدد ممكن من العمــال وكرامتهم ٠ ولذلك يجب أن يعتبر الانتاج المتوسـط نموذجا أو معيارا للانتــاج العام ، لا الانتاج الأعلى لأكفأ عامل كما كان يصنع تيلور وبهذه الكيفية يساهم علم النفس الصناعى فى تحقيق أحد وجوه العدالة الاجتماعية بين العمال بالدفاع عن أقلهم كفاءة ٠

* * *

عندما يتجه علم النفس الصــناعى اتجاها تكامليــا بمراعاة جميع العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية يصبح فى استطاعته أن يؤدى أجل الخدمات للعامل ولأصحاب العمل ٠ والمجهودات التى بذلها العلماء فى ميدان العلم جديرة بالاعجاب حقا ، فبصدد ضرورة وضع أصلح الاختبارات للتوجيه والاختيار اضطر العلماء الى القيام بتحليل المهن المختلفة والوقوف على سلسلة الحركات التى يجب القيام بها لتأدية كل نوع من الأعمال عن أحسن وجه من حيث المجهود والزمن وانتاج ٠ وقد بدىء فعلا منذ حوالى أربعين عاما بتحليل أهم المهن ولكن لا يزال المجال واسعا شاسعا اذ أن عدد المهن بفروع كل مهنة يقرب حسب أحدث احصاء أمريكى الى عشرين ألف مهنة مختلفة ٠

وقد اتضح بعد المحاولات الأولى أنه يجب تحليل المهنة أولا من حيث حركاتها العنصرية لا من حيث الوظائف الفعلية التى تتطلبها تأديتها ·
ومن أشهر العلماء الذين قاموا بدراسة الحركة وصلتها بالزمن فرانك جلبرث F. Gilbreth (١) · فقد لاحظ فى أول الأمر أنه من المحال الاكتفاء بمشاهدة العامل أثناء قيامه بالعمل ومحاولة وصف حركاته بألفاظ اللغة العادية · فاذا تأملنا فى حركات العامل الذى يقوم بعملية تعبئة مظاريف أو علب فان حركاته ستكون من السرعة والتعقيد بحيث يستحيل على الملاحظة أن يتتبعها ويصفها فى آن واحد ويسجل ما يشاهده · ولتيسير عملية الملاحظة والوصف قام جلبرث بارجاع جميع الحركات الممكنة التى يقوم بها أى عامل يزاول أى مهنة الى مجموعة محددة من الحركات العنصرية وقد أطلق على العنصر الحركى لفظ ثربلج therblig وهو اسم هذا العالم بعد قلب حروفه · وقد حصر جميع الحركات العنصرية فى سبع عشرة حركة : بحث ــ وجد ــ اختار ــ قبض ــ وضع ــ ضم ــ استخدم ــ فصل ــ راقب ــ نقل الفارغ ــ نقل المحمل ــ أطلق الحمل ــ استعد للعملية القادمة ــ وضع الخطة ــ ارجاء لا بد منه ــ ارجاء يمكن تفاديه ــ استراح ·

وربما أنه يصعب فى كثير من الحالات تتبع الحركات العنصرية وتحديد الزمن الذى تستغرقه كل منها لجأ جلبرث الى تسجيل الحركات بالسينما ثم عرض الفيلم ببطء ، وبالمقارنة بين عمال مختلفين من حيث المهارة والزمن كالمقارنة بين المبتدىء ومن حذق الصنعة يمكن تحديد الحركات الضرورية والمفيدة وتمييزها عن الحركات غير المفيدة ووضع أمثل المناهج للتعليم وأكثرها اقتصادا للمجهود ، كما أنه يصبح من اليسير وصف النشاط السيكولوجى الذى يضمن أحسن الانتاج بأقل مجهود مستطاع ، وبالتالى وضع الاختبارات للتوجيه والاختيار بحيث تكون ملائمة تماما لما يراد الكشف عنه من قدرات خاصة لدى الشخص الذى يجرى عليه الاختبار ·

وقبل أن نتحدث عن قيمة الاختبارات بوجه عام نود أن نشير بايجاز الى بعض النتائج العملية التى أدت اليها دراسة الحركة وصلتها بالزمن · وقد لخص بارنس (١) هذه النتائج فى ثمانية مبادىء :

---

(١) F.B. Gilbreth : Motion Study. New York, 1911.

(٢) R.M. Barnes : Motion and Time Study. New York, 1937.

١ ـ كلما أمكن ذلك يجب أن تبدأ اليدان نشاطهما وتنجزاه في نفس الوقت ٠

٢ ـ كلما أمكن ذلك يجب ألا تتوقف اليدان عن العمل في أثناء تأديته ، في نفس الوقت ٠

٣ ـ كلما أمكن ذلك يجب أن تتحرك اليدان في نفس الوقت وفي اتجاهات متقابلة متناظرة ٠

٤ ـ الحركات المتصلة المنحنية أفضل من الحركات المستقيمة التي تقتضي تغيرا فجائيا في اتجاه الحركة ٠

٥ ـ كلما أمكن ذلك يجب أن يؤلف بين أداتين أو ثلاث بحيث تكون أدارة واحدة ٠

٦ ـ يجب اعفاء اليدين من كل عمل في استطاعة القدمين أو أي عضو آخر القيام به ٠

٧ ـ يجب أن تكون أجزاء « العدة » موضوعة في وضع ييسر القبض عليها واستخدامها بسرعة ٠

٨ ـ يجب أن يكون للأدوات والمهمات أمكنة ثابتة توضع فيها ٠

تحليل العمل جانب أساسي من علم النفس الصناعي والجانب المتمم له هو تحليل الشخص لمعرفة قدراته العقلية والحركية وسائر مقومات شخصيته ٠ وتوجد أنواع مختلفة من الاختبارات التي تسمح بتحديد صلاحية الشخص أو عدم صلاحيته لعمل من الأعمال ٠

وأقدم هذه الاختبارات وأشهرها هي اختبارات الذكاء أو القدرة العقلية العامة أو المستوى العقلي العام مثل اختبار بينيه وسيمون Binet & Simon ويسمح هذا الاختبار بتحديد مدى التأخر أو التقدم بالقياس الى مستوى متوسط لكل سن زمنية ٠ ومثل هذه الاختبارات مكونة من مسائل تتطلب لحلها معرفة اللغة والحساب وتعتمد على المعلومات المكتسبة والعمليات المجردة من حكم ومقارنة ٠ وهناك اختبارات للذكاء لا تعتمد على اللغة بل على معالجة الأشياء وحل مسائل عملية ٠

واختبارات الذكاء المقننة على عدد كبير من الأفراد تسمح باقامة التمييزات الدقيقة بين مستويات النمو العقلي العام ونتائجها جديرة بالثقة

لأن مجموعة الأسئلة الخاصة بكل سن عقلية تمتاز بالتنوع • ويترتب على ذلك أن التقديرات الخاصة بالعوامل العقلية العامة يقوى بعضها بعضا في حين أن التقديرات التي تتناول القدرات الخاصة تتعادل ويلغي بعضها بعضا • فيكون الاختبار بمثابة مقياس للنمو العقلي العام •

ولكن مثل هذه الاختبارات لا تفيد اذا أردنا أن نكشف عن قدرات خاصة لأنواع خاصة من النشـــــاط تمتاز بها مهنة دون الأخرى مثــــل مهنة المهندس أو الطبيب أو الميكانيكي أو المحاسب الخ ••• فلا بد من وضـع اختبارات لقياس القدرات الخاصة سواء لقياس القدرات من حيث هي استعداد أو من حيث هي مقدرة فعلية على تأدية عمل أو مجموعة من الأعمال • ففي الحالة الأولى يقيس الاختبار استعداد الشخص للتعلم وفي الحالة الثانية الحد الذي وصل اليه بعد التدريب والتعليم •

وفي التوجيه والاختيار المهني يطلب السيكولوجي من الاختبارات تكون له قيمة عملية بأن يسمح بأن يقيس قدرات الأشخاص بالقياس الى بعضهم بعضا للتمييز بينهم من حيث مدى صلاحيتهم أو عدم صلاحيتهم لمهنة معينة ؛ ولا يهتم بتحديد طبيعة القدرات من الوجهـة السيكولوجية بقدر ما يهتم بصحة الاختبار وثباته من الوجهة العملية •

والمناقشات النظرية التي تدور حول عوامل العقل أو طبيعة القدرات وما اذا كانت هناك قدرة عامة من جهة تشترك في جميع الأعمال وقدرات خاصة من جهة أخرى لا تزال قائمة بين العلماء وكثيرا ما يؤدي اختلاف الوســـائل الرياضية المستخدمة في تحليل العوامل الى نتـائج مختلفة متعارضة • فنرى اسبيرمان مثلا يميز بين العامل العام وهو عامل الذكاء العام وعوامل خاصــة في حين يذهب ثرســتون الى أن العوامل العقلية الأسـاسية يمكن ارجاعها الى ثمانية عوامل وقد وصل الى هذه النتيجة بتحليل النتائج التي أسـفرت عنها مجموعة من سبعة وخمسين اختبارا مختلفا مستخدما طرقا خاصة في تحليل العوامل تحليلا رياضيا • والعوامل الثمانية التي يذكرها ثرستون تلخص فيما يلي :

١ ــ عامل المكان وهو القدرة على الحكم بدقة على المكان والأشكال •

٢ ــ عامل الادراك وهو القدرة [illegible] ملاحظة التفاصيل بسرعة والكشف عنها عندما تكون مندمجة في الأشياء [illegible] اليها بصلة وظيفية •

٣ ــ عامل العدد وهو [illegible] العمليات الحســـابية بسرعة ودقة •

٤ ـ عامل العلاقات اللفظيـة وهو القدرة على قراءة الجمـل وفهم معانيها ٠

٥ ـ عامل اللفظ أو القدرة على هجاء الكلمات وتعريفها ٠

٦ ـ عامل التذكر ٠

٧ ـ عامل الاسـتقراء أو القدرة على الكشف عن المبدأ أو القانون العام الذى يقوم عليه تصنيف الجزئيات ٠

٨ ـ عامل القيـاس وهو القدرة على تطبيق مبدأ عـام على حالات جزئية ٠

هناك تصنيف آخر للقدرات معروف بتصنيف مينسوتا Minnesota وهو اسم احدى الولايات المتحدة بأمريكا يقسم القدرات الى ست :

١ ـ الأكاديمية وهى القدرة على فهم المعانى والرموز واستخدامها ٠

٢ ـ الميكانيكية وهى القدرة على معالجة الأشياء وعلى تصور الحركات الميكانيكية ٠

٣ ـ الاجتمـاعية وهى القدرة على فهم الآخرين ومعاملتهم والتكيف معهم ٠

٤ ـ الكتابيـة وهى القدرة على القيـام السريع الدقيق بالأعمـال الكتابية ٠

٥ ـ الموسيقية وهى القدرة على التمييز بين الأصـــوات الموسيقية واستخدامها فى التعبير ٠

٦ ـ الفنية وهى القدرة على ابداع الصور الفنية والتقدير الجمالى ٠

ومقاييس مينسوتا تسمح بتقدير القدر اللازم من كل هذه القدرات الست للنجاح فى ٤٣٠ مهنة ٠

ونجد فى مجموعة الاختبارات المستخدمة فى جامعة دنفر Denver أن السمات والقدرات التى تقيسها هذه الاختبارات موزعة فى عشر فئات كما هو موضح فيما بعد :

١ ـ الذكاء وهو مقسم الى أربعـة أقســام : اللفظى ـ الكمى ـ التفكيرى ـ الأحكام العملية ٠

٢ ـ مدى التحصيل التربوى ٠

٣ ـ الصفات الاجتماعية وهى تشمل الانطواء ـ الذكاء الاجتماعى ـ النضج الانفعالى ٠

٤ ـ الشخصية ومدى انحرافها ٠

٥ ـ القدرة الميكانيكية وهى تشمل المهارة ـ المعالجة اليدوية ـ المعلومات الميكانيكية ـ الهندسة الميكانيكية ٠

٦ ـ القدرة على الأعمال الكتابية وتشمل المراجعة وترتيب الملفات ـ الاختزال ـ أعمال السكرتارية ٠

٧ ـ القدرة الموسيقية ٠

٨ ـ القدرة الفنية وتشمل التقدير الجمالى والاستعداد الفنى ٠

٩ ـ الاهتمامات والميول المهنية ٠

١٠ ـ متفرقات : ابصار الألوان ـ ابصار الأشكال وتقدير الحركة ـ الاستعداد للقانون ـ الاستعداد لدراسة الطب ٠

يلاحظ فى المجموعة الأخيرة التى أثبتناها أن الموجه المهنى لا يكتفى بقياس الذكاء وبعض القدرات الخاصة بل يحاول قياس أهم سمات الشخصية ، ولابد من مراعاة العوامل الخلقية والانفعالية والمزاجية لأنها تؤثر فى نتيجة اختبارات الذكاء والقدرات الخاصة لأن القيام بهذه الاختبارات يتطلب اشتراك الشخص بجميع مقوماته الخلقية والمزاجية ٠ ثم هناك عوامل الماضى وذكريات الشخص وعاداته واتجاهاته الوجدانية من حب وكراهية الخ ٠٠٠ يجب الوقوف عليها لتقدير نتائج الاختبار (١)٠

ولكن يجب دائما أن تكون الملاحظات التى تقوم بها لتقدير العوامل المزاجية والشخصية ، مثل ملاحظة نوع الأخطاء وكيفية تغيير المنهج فى أثناء الاختبار ، حسب جدول موضوعى لا حسب تقديرات ذاتية ٠ واذا كان الاحصاء هو أساس علم النفس الصناعى يجب أن تعرف أن النتائج

---

(١) راجع فى هذا العدد مقال الدكتورة مارى سميث والأستاذ أحمد زكى عن طريقة الاستبار الشخصى interview ٠ وقد تناول كتاب هذا العدد بالتفصيل أهم المسائل التى أشرنا اليها فى مقالنا التمهيدى وبخاصة مقال الدكتور عزت راجح عن المهارة اليدوية ومقال الأستاذ محمود أمين العالم عن الانسان والمهن الصناعية ٠

الاحصائية تكون عديمة الفائدة اذا كانت المعلومات والبيانات التى نعالجها بالاحصاء قد جمعت بطريقة ذاتية • فالنقص الذى يعترى البيانات لا يزال قائما فى النتائج الاحصائية مهما كانت العمليات الرياضية دقيقة معقدة •

❊ ❊ ❊

وبعد أن ألقينا نظرة سريعة على مجال علم النفس الصناعى ومدى تشعبه يجدر بنا أن نعود الى النقطة التى بدأنا بهـــا وهى ضرورة تنظيم علم النفس الصناعى فى مصر تنظيما علميا شـــاملا • فهذه المهمة الجليلة التى ستعود بنفع عظيم على الأمة بأسرها يجب أن تنظمها الدولة بطريقة جدية ووفقا لمنهج ســديد متواصــل الحلقات بحيث يكون الشروع فيها وتنفيذها وجنى ثمارها بمثابة حركة واحدة متواصلة تبدأ وتقوى وتستمر بدون توقف ولا تردد • والدوائر التى فى اســتطاعتها أن تنهض بعلم النفس الصناعى فى مصر هى الجامعة ووزارة المعارف ووزارة الشـــئون الاجتماعية • فحبذا لو تضـــافرت الجهود ووحدت وجهات النظر لانشـــاء معهد علم النفس الصناعى لاعداد اخصائيين فى التوجيه والاختبار المهنى • فقد أصبحت حياة الأمة من التعقيد وتعددت نواحى النشاط الاقتصـــادى والصناعى بحيث أصبح الزاما أن تفكر منذ الآن باعداد مهندسين بشريين لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات فى مختلف ميادين النشـــاط فى المدرسة والمصنع والجيش ، فان الوقاية فى هذا الميدان أيضا أفضل من العلاج •

علم النفس فى خدمة الانتاج القومى (*)

حاول العلماء تعريف الحياة كما حاولوا تعريف الحركة فلم يفلحوا لا لعجز اللغة عن التعبير فحسب بل لأن التعريف يجب أن يرتكز فى بدء حركته على حقائق أولية يشـــعر بها العقل أن يتعقلها ومن هذه الحقائق الحياة والحركة والتطور وهى حقائق أولية لأنها لا ترجع الى شىء سواها بل كل ما هو فى الوجود يرجع اليها • غير أن هناك مراتب فى الحركة فحركة الكائنات الحية تمتاز بخصائص جديدة لا توجد فى حركة الأجسام غير الحية وان كان فى قدرة التأمل الفلسفى أن يكشف عن المعالم التخطيطية لحركة الأحيـاء مرتسمة بطريقة رمزية فى حركة غير الأحياء ، ثم هنـاك الحركة الصادرة عن قوة العقل ومن أهم مميزاتها أنها موجهة نحو هدف يختاره الشخص بعد تفكير منزه عن الأهواء يعتمد فى وثبته وحركته على ارادة حرة وشعور حى • وفى قدرة التفكير الفلسفى أن يكشف عن المعالم التخطيطية لنشاط العقل وحركة التفكير مرتسمة بطريقة رمزية فى نشاط الكائنات الحية •

واذا أردنا أن نتمثل الحركة الحية فى أشمل صورة فى صورها فانها تبدو لنا أنها بمثابة كفاح مستمر يقوم بوظيفتين أساسيتين المقاومة أولا ثم البناء والخلق ثانيـا ؛ مقاومة العوامل التى تهدد التوازن الديناميكى الذى يمتاز به الكائن الحى أى مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ؛ ثم السعى نحو البناء بخلق صور جديدة من النشاط •

والحياة النفسية والحياة الاجتماعية فى صورها الســوية تمتاز كل منها بهذا اللون من الكفاح ، مقاومة ثم بناء وخلق خلال مراحل تطورية خاصـة مؤدية الى التكامل بعد اجتياز أزمات تخرج منها الشخصية كما تخرج منها الأنظمة أكثر نضجا وأوفر قدرة على العمل المنظم المتحد فى هدفه وبالتالى على العمل المنتج الذى يزيد الشخصية كما يزيد المجتمع ثراء وقوة وسعادة •

(*) « مجلة علم النفس » ، يناير ۱۹٥۳ •

وتجتاز الأمة المصرية الآن مرحلة حاسمة من مراحل تطورها وتقدمها، فهى تعانى أزمة شبيهة بالأزمات النفسية التى تخرج منها الشخصية أكثر اتزانا وتكاملا وذلك بفضل اصطدامها بالواقع وما يترتب عليه من زيادة تركيز الشعور على نفسه والكشف عما تتضمنه النفس من قدرات جديدة وخاصة من قدرة على التفكير وعلى القيام بأفعال ارادية حرة ، وقد بين علماء التحليل النفسى كيف ترتقى الشخصية عندما يخضع الفرد مبدأ اللذة لمبدأ الواقع وعندما يأخذ الأنا الأعلى يتكون مع توفير جميع العوامل التى تدعم قوة الذات الشاعرة وتجعلها قادرة على أن توفق بين الحوافز الاندفاعيه اللاشعورية وبين الضوابط الصادرة من الأنا الأعلى .

فالأمة المصرية بفضل الحركة الحكيمة التى قام بها جيشها ، تمر بأزمة نفسية واجتماعية ستسمح لها بعد اجتيازها بنجاح بأن تدرك بوضوح كل ما يتضمنه أفرادها من قدرات وامكانيات على البناء والخلق والعمل المثمر وبأن تعيد تنظيم سلم القيم بحيث تخضع القيم المادية والاقتصادية للقيم الفكرية والروحية كما يتعلم الطفل انكار الذات والتغلب على نزواته وعلى دوافع اللذة والمتعة الحسية وتمثيل الأهداف الراقية التى يعينها الواقع فى صوره الأخلاقية والاجتماعية والروحية .

وتمتاز حركة الجيش المصرى بطابع خاص قلما نجد ما يماثله فى الحركات التى توصف بالثورة أو بالاصلاح اذ أنها جمعت فى حركة واحدة وفى آن واحد بين وظيفتى الكفاح وهما مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ثم وظيفة البناء والخلق . وذلك لأنها استلهمت القوانين التى تهيمن على كل تطور سوى للكائن الحى وهى القوانين التى تبرز ما يتصف به الكائن الحى فى نموه من وحدة وتكامل بين مختلف وظائفه . وان كان تحقيق التكامل الاجتماعى أعسر تحقيقا من التكامل النفسى فانه هو الخطة الوحيدة التى يجب أن يسير عليها المصلح الاجتماعى .

وتعريف عملية التكامل كفيل وحده بأن يرسم لنا خطة الاصلاح . وليسمح لى القارىء بأن أذكر هنا ماسبق أن نشرته فى عدد فبراير ١٩٤٧ من هذه المجلة صفحة ٤٢٨ : ينطبق معنى التكامل على كل « نظام يقوم على تنسيق مقومات جزئية أو على تآزر أعضاء لتأدية مجموعة من الأفعال ترمى الى حفظ هذا النظام وتنميته وفقا لنموذج معين . فمعنى التكامل يتضمن معان مختلفة منها الأجزاء ثم الصلة بين الأجزاء المنظمة بين الأجزاء ثم التنظيم الديناميكى وأخيرا تأدية وظائف وفقا لنموذج معين . وأعتقد أن

النقطة الأخيرة (وهى تأدية وظائف وتحقيق غرض) هى النقطة الأساسية.

أعلنت الأمة عزيمتها على تنظيم العمل وزيادة الانتاج ، ويقضى هذا البرنامج الذى يرمى الى استغلال الثروة القومية تعبئة جميع القوى والجهود. وأول مقوم للثروة القومية هو العمل ، عمل المزارع والصانع والتاجر الذين ينتجون ، وعمل العلماء والفنيين على اختلاف فروع تخصصهم وهم الذين ينظمون العمل والانتاج ٠

ويجب أن يشتمل التنظيم المجموعة الموحدة التى تكون نواة العملية الانتاجية وتتكون هذه المجموعة من العامل وآلته والمادة الخام التى يعالجها ٠ ومن وظيفة المهندس القيام بتنظيم هذه المجموعة الثلاثية ٠ وقد تركزت العناية فى بادىء الأمر فى دراسة الآلة والمادة وجاء العامل فى المرتبة الأخيرة ولم ينظر اليه الا بوصفه آلة تقوم فيها العضلات بوظيفة المحرك وأهمل الجانب الاجتماعى الى حد كبير والجانب النفسى الى حد أكبر ٠

ثم فطن رجال الأعمال والصناعة الى ضرورة العناية بالعوامل النفسية ومدى تأثيرها فى الانتاج فنشأ علم تطبيقى جديد هو الهندسة البشرية وأنشئت المعاهد الخاصة لتخريج مهندسين بشريين يركزون اهتمامهم فى دراسة تكييف العامل لمهنته وتكييف المهنة للعامل مع مراعاة الشروط الاجتماعية التى تحيط بالعمل والعمال ٠

والهندسة البشرية human engineering تسمية جديدة لعلم النفس التطبيقى Psychotechnique وميزة هذه التسمية أنها تشير الى ضرورة التنسيق بين مختلف العلوم التى تتناول طبيعة الانسان وقوانين نشاطه فى مختلف الميادين التى يشترك فيها ٠ فالهندسة البشرية تعتمد على علم النفس التجريبى والفسيولوجى ، وعلم النفس الديناميكى الذى يهتم خاصة بدراسة دوافع السلوك وعلم النفس الاجتماعى وسيكولوجية الفوارق الفردية وعلم النفس المرضى والاكلينيكى وبعض الدراسات الاجتماعية الخاصة بشئون العمال والتشريعات العمالية ودراسات أخرى خاصة بتركيب الآلات الميكانيكية وتنظيم المصانع واحصاء الاختصاصات المهنية من مدنية وعسكرية وتحليل العمل والحركات التى يتطلبها أداؤه ٠

وقد اتسع نطاق الهندسة البشرية فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى الأمم الأوروبية الكبرى فأنشئت فيها المعامل السيكولوجية التطبيقية ومعاهد التوجيه والاختيار المهنى والعيادات السيكولوجية فى المدارس والمصانع ٠ ولم يقتصر التطبيق السيكولوجى على المدارس والمصانع بل

شمل أيضا المؤسسات التجارية والوظائف الكتابية والمهن الحرة والاذاعة والدعاية وسائر وسائل رفع الروح المعنوية فى السلم والحرب • فأصبح علم النفس بفرعيه النظرى والتطبيقى يدرس فى كليات الطب والتجارة والهندسة والحقوق • ولكى نكون فكرة سريعة عن مدى انتشار التطبيقات السيكولوجية يكفينا الآن أن نلقى نظرة سريعة على أعمال المؤتمر الدولى التاسع لعلم النفس التطبيقى الذى عقد فى سبتمبر ١٩٤٩ فى برن عاصمة سويسرا واشترك فيه ممثلو ١٩ دولة وألقيت فيه مائة وثلاثون بحثا تناولت الموضوعات الآتية :

١ ـ دور علم النفس التطبيقى فى الحياة الاجتماعية والسياسية

٢ ـ دراسة الشخصية بواسطة الاختبارات

٣ ـ الاختبارات وميادين تطبيقها

٤ ـ التدريب المهنى

٥ ـ سيكولوجية العمل الانسانى من الوجهة الاجتماعية والفنية

٦ ـ قيمة التطبيقات السيكولوجية

٧ ـ التوجيه المهنى

٨ ـ التحليل الرياضى للعوامل المهنية

٩ ـ اختيار الطيارين

١٠ ـ التطبيقات السيكولوجية فى المدارس والجامعات

١١ ـ علم النفس التطبيقى ووسائل التعليم السمعية والبصرية

١٢ ـ سيكولوجية ذو العاهات

ومما يسترعى النظر هو تضافر جهد الأطباء وعلماء النفس والاجتماع فى معالجة مختلف المشاكل التى تتضمنها دائرة العمل والمهنة وفى البحث عن أنجع الوسائل لتحقيق توازن الشخصية وزيادة فاعليتها ولتنظيم النشاط فى جو من التفاهم والتضامن •

ويجدر بنا أن نسترشد بما حققته الهندسة البشرية فى الدول الغربية لوضع المعالم الأولى لبرنامج شامل للتطبيقات السيكولوجية فى مصر •

ولا بد في بادىء الأمر أن نذكر بعض الحقائق الأولية التي ستوجهنا في تحديد مجال هذه التطبيقات وتعيين شروط نجاحها • وذلك في النقط الأربع الآتية :

١ ــ لا يختلف مجــال علم النفس التطبيقي عن مجال النشــاط الانساني ، ســواء اتخذ هذا النشــاط صورة النمو أو اللعب أو العمل والانتــاج أو علاقة الأفراد بعضهم ببعض والتأثير المتبادل بينهم أو بين الجماعات التي ينتمون اليها • وعلى ذلك يتكون مجال التطبيقات السيكولوجية من الأسرة والمدرسة والجيش ومحل العمل في حقل أو متجر أو مصنع أو دار للاذاعة أو الصحافة أو النشر ؛ والعيادات والمستشفيات والملاجىء والمحاكم والاصــلاحيات والســجون والأندية والشارع ، أي كل مجال لنشاط الانسان منذ ولادته (١) •

٢ ــ بينما كانت المناقشات تدور بين مدارس علم النفس المختلفة أخذ بعض علماء النفس منذ أوائل القرن يعملون في الميدان العملي بوضع الاختبــارات لقياس القدرات العامة والخاصــة مؤمنين بأن أحسن وسيلة لمعرفة مدى صلاحية آلة من الآلات الخاصة هو الشروع في استخدامها للكشف عن عيوبها وادخال التحسينات عليها • والنتــائج الباهرة التي وصل اليها علم النفس التطبيقي اليوم تؤيد هذا التفاؤل الجميل الذي كان يقوي عزيمة مؤسسي هذا العلم أمثال بينيه ولاهي وبيرون في فرنسا وبيزولي وجملي في ايطــاليا وشترن ولبمان ومنستربرج في المانيا وديكرولي في بلجيكا وكلاباريد وبوفيه في سويسرا ومايرز واسبيرمان في انجلترا وميرا في أســبانيا وروسوليمو في روســيا وجلبرث وودورث وثرستون في أمريكا •

وهذا التضافر الدولي في تنمية علم النفس التطبيقي وخاصة طرق التوجيه والاختيار المهني أكبر دليل على حيوية هذا العلم وأقوى كفيل بتقدمه ونجاحه • فقد أنشىء في بلجيكا في عام ١٩٠٨ أول مكتب للتوجيه

J. Stanley Gray & others : Psychology in Use. American Book Company, New York, 1941, p. 663.
Psychology in Human Affairs, McGraw Hill, New York, 1946, pp. 646
J.P. Guilford & others : Fields of Psychology, Basic and Applied. 2ed. Van Nostrand Co., New York, 1950, p. 779.
La Psychotechnique dans le Monde Moderne. Compte rendu du IXe. Congrès Int. de Psychotechnique, Berne, 12-17 September 1949, Presses Universitaires de France, Paris, 1952, p. 630.
W.C. Varnum : Psycholdogy in Everyday Life : 2d ed., McGraw-Hill, New York, 1942, p. 490.

المهنى باشراف الطبيب المربى ديكرولى وفى عام ١٩١٨ أنشأ كلابازيد فى جنيف أول معهد للبحوث السيكولوجية التطبيقية وانعقد فى جنيف عام ١٩٢٠ أول مؤتمر دولى لعلم النفس التطبيقى ٠

ثم توالت المؤتمرات حتى المؤتمر الدولى التاسع الذى انعقد فى برن عاصمة سويسرا سـنة ١٩٤٩ والذى سبقت الاشارة الى البحوث التى ألقيت فيه ٠

فقد أصبح من عبث القول التساؤل عن قيمة الاختبارات والتطبيقات السـيكولوجية فهى الآن جديرة بكل ثقتنا ومواصلة استخدامها كفيل بتنميتها وتحسينها ٠ فما علينا فى مصر الا أن نستأنف العمل الذى بدأه الأستاذ اسماعيل القبانى وزملاؤه فى معهد التربية وأن نتوسع فى وضع الاختبارات على مختلف أنواعها بحيث تلائم البيئة المصرية وتساعدنا على مواجهة المشكلات الخاصة بمجتمعنا ٠

ويسرنا أن نذكر هنا أن ادارة الجيش المصرى وهى حريصـة كل الحرص على الأخذ بجميع وسائل النهضة العسكرية أنشأت منـذ شهرين قسم الخدمة السيكولوجية العسكرية وقد بدأ هذا القسم عمله بتطبيق بعض اختبارات الذكاء والشخصية على طلبة الكلية الحربية المستجدين وهو يشرع الآن فى تأسيس المعمل لاختبار السواقين والطيارين ورجال سلاح المدفعية والاشارة الخ ٠٠

٣ ــ غير أنه يجب الاشارة الى أن حركة التطبيقات السيكولوجية فى مصر لا تزال فى المهد ٠ ولكى تنشط وتنمو لابد من أمرين أساسيين الأول انشاء معهد خاص للتطبيقات السيكولوجية لتخريج مهندسين بشريين فالبلاد فى حاجة الى مئـات من السـيكولوجيين العمليين يجمعون بين الثقـافة السيكولوجية والاجتماعية والفنية أما الأمر الثانى فهو ضرورة القيـام بدراسة اجتماعية احصائية منظمة لجميع أوجه النشاط فى البلاد ، ويجب أن تكون هذه الدراسة حرة جريئة مخلصة ، خاصة عندما تتناول مختلف المهن والطبقـات والتيـارات الفكرية والاتجاهات العاطفية التى تتفاعل وتتصارع داخل المجتمعات الفرعية التى تكون المجتمع المصرى بأكمله ٠ ولتحقيق هذه الخطوة الأساسية يجب تخريج بحاثة اجتماعيين تدربوا على

البحث الاجتماعي خارج جدران المعاهد والجامعات ، بل في القرى والمصانع والشوارع حيث تتجسم الحقائق النفسية والاجتماعية ، وتنشأ العلاقة الانسانية التي تزيد الباحث العلمي استبصارا وتغذي تفكيره بمادة واقعية حية . فقد سئمت البلاد الكلام ثم الكلام حول المناهج والنظريات ، فالمنهج لا يمكن أن يصقل الا بالشروع بتنفيذه ، أما النظرية فيجب أن تتطور وأن تتجدد وأن تكون دائما وليدة الملاحظات والتجارب والاصطدام بالواقع المتعدد الوجوه المتشابك العوامل .

وحبذا لو أنشىء بجانب معهد التطبيقات السيكولوجية معهد آخر لدراسة الرأي العام على أسس علمية احصائية وكدت أقول عضلية اذ لابد هنا كما في سائر البحوث الاجتماعية نزول الطالب والباحث والعالم الى الميادين الخارجية والاقامة في الأجواء الاجتماعية المختلفة والاختلاط بالأشخاص لمشاركتهم أفزاعهم وآمالهم وسائر حركاتهم النفسية .

٤ ــ وما سبق يمهد التحدث عن النقطة الرابعة والأخيرة .

هاجمنا في الفقرة السابقة الاسراف في المناقشات النظرية ودعونا الى العمل . غير أن العمل الانساني الحق ، العمل الذي يرضي بطريقة منظمة منسجمة جميع حاجات الانسان ونزعاته النفسية حتى الروحية منها ، يجب أن يكون عملا موجها يرمي الى غاية يتفق الجميع على أنها أسمى الغايات للمجتمع الانساني ، ويستند الى نظرة فكرية شاملة الى الانسان والى الكون ، الى الانسان في طبيعته ومصيره .

وهناك نظريتان متطرفتان وبالتالي خاطئتان ، لتفسير صلة الأفراد بالمجتمع . النظرية التي تقول بأن المجتمع هو الذي يكون الفرد تكوينا كليا ، ويمنحه كل ما يعين انسانيته وهي نظرية دوركهيم المستلهمة من بعض فلاسفة الألمان والتي تطبقها الأنظمة السياسية الدكتاتورية . والنظرية التي تفسر المجتمع على أساس علم النفس الفردي وتذهب الى أن الفرد هو الذي يشكل المجتمع لا العكس ، ومثل هذه النظرية اذا طبقت لابد وأن تؤدي الى الفوضى . الواقع ان المجتمعات والأفراد تكون وحدة معقدة التركيب تتبادل فيها التأثيرات بحيث تؤدي الى ازدهار شخصية الأفراد وضمان حرياتهم داخل نظام قائم على الاخاء والمحبة .

وفي وسع علم النفس التطبيقي أن يساهم مع غيره من العلوم في تحقيق هذه الغاية . فليس غرضه خدمة فئة أخرى وتحويل الانسانية الى

نظام آلي لأكبر انتاج ممكن على حساب القيم الروحية ، بل غرضه تحقيق العـدالة الاجتماعية وسعادة الأفراد والمجتمعات وجعل الشخصية محور النشاط مهما كان هذا النشاط متواضعا • فالمهندس البشرى الشـاعر بقدسية رسالته يعمل دائما وهو مدفوع باحترامه العميق نحو الشخصية الانسانية التى تتميز بالفكر والحرية والقيم الروحية السامية التى تتوق الانسانية الجاهدة نحو تحقيقها بايمان واخلاص •

كلية الآداب فى خدمة الصناعة *

سيبدو من الغريب لأول وهلة أن تدعى كلية الآداب مساهمتها فى الانتاج الصناعى • فمن المعلوم أن هذا الأمر موكول الى الفنيين الذين يتخصصون فى كليات الهندسة والعلوم والتجارة • أليست الصناعة قائمة على تحويل المواد الخام الى أشياء مصنوعة وعلى تعبئة الطاقة المادية وتنظيم تشغيلها فى مصانع يقوم بانشائها مهندسون متخصصون وتحوى عددا صغيرا أو كبيرا من مختلف الآلات والأجهزة ؟ فما هذا الادعاء اذن الذى تتشدق به كلية الآداب زاعمة أن من مهمتها أيضا أن تساهم فى المجهود الصناعى ؟ هل هى تقوم بتحليل المواد الكيمائية وباختبار مقاومة المواد بوضع الرسومات الصناعية وبدراسة قوانين الميكانيكا ؟ هل تحوى بين جدرانها المعامل المزودة بالأجهزة الدقيقة التى تسجل ذبذبات الطاقة على مختلف مظاهرها ؟

الواقع أن كلية الآداب لا تقوم بمثل هذه الأعمال وليست الدراسات الميكانيكية والهندسية والكيميائية من مناهجها • غير أننا عندما ننظر الى الصناعة يجب علينا ألا نغفل عنصرا هاما لا تقل أهميته عن سائر العناصر التى ذكرنا ، ألا وهو العنصر الانسانى المتمثل فى الأيدى العاملة وفى العلاقات الانسانية القائمة بين العمال وأصحاب العمل وبين العمال وبعضهم • أن أرباب الصناعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما تضخمت المؤسسات الصناعية وأصبح عمالها يعدون بالآلاف وبعشرات الآلاف كانوا ينظرون الى العامل نظرتهم الى الآلة الصماء كأنه بمثابة مجموعة من العضلات يمكن قياس طاقتها وشغلها بكمية ما تنتجه كما يقاس شغل الآلة سواء بسواء • فقام المهندس الصناعى بدراسة حركات الآلة البشرية وتنظيمها بحيث تصل فى مجهودها الى أقصى حد من الانتاج، واذا أصيبت هذه الآلة البشرية بعطل يؤدى الى نقص الانتاج كان يعزى هذا العطل الى نزوات هذه الآلة مما كان يستتبع الاستغناء عنها والاستبدال بها آلة جديدة أى عامل آخر فى قدرته أن يحقق الحد المفروض من الانتاج •

(*) نشرت هذا البحث «اللجنة الاجتماعية لأسبوع شباب الجامعات» ، ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥•

غير ان صاحب العمل وحتى المهندس ذا النزعة الصناعية البحتة لم يلبثا طويلا حتى أدركا ان العامل ليس بالآلة الصماء وان وراء هذه العضلات قلبا يرغب حينا ويخشى حينا آخر ، قد تدفعه حوافز متضاربة يصعب عليه التوفيق بينها مما كان يؤدى الى اضطراب انتاجه وعدم استقراره فى مستوى واحد ·

وقد يدهش العامل نفسه من عجزه عن الوصول الى المستوى المنشود فى الانتاج على الرغم من عزمه الصادق ومحاولاته المخلصة فى تحسين كفايته · فربما كان العمل المكلف به لا يجلب له من أنواع الرضى ما كان يأمل الفوز به ، أو ربما كان الجو المعنوى الذى يحيط به يعوقه عن انه ينمى جميع امكانياته ·

الواقع ان الموقف الصناعى معقد الى أقصى حد ، فهو ملتقى عدد كبير من العوامل المختلفة ، بعضها فنى وبعضها اقتصادى وبعضها الآخر نفسى اجتماعى · ان النشاط داخل هذا الموقف ليس مقصورا على سلسلة من الأعمال المادية تجرى فى بيئة مادية معينة ، بل هناك الجو السيكولوجى أو بعبارة أدق المجال السيكولوجى الذى يضم فى آن واحد النظام المادى ونظام العلاقات الانسانية التى تربط بين الأفراد والجماعات التى تكون هيئة المديرين والموظفين والعمال · ثم أن هذا المجال السيكولوجى المصور بين جدران المصنع ليس ألا جزءا من مجال سيكولوجى أوسع يضم المصنع والجمهور الذى سيستهلك منتجات هذا المصنع · أضف الى ذلك أن العامل لا ينتسب الى جماعة واحدة هى جماعته المهنية ، بل هو عضو فى عدة جماعات ، وعليه أن يوفق بين مختلف واجباته وحقوقه داخل هذا النظام الجماعى المتشابك الذى يضمه من حيث هو وحدة متعددة النواحى والنشاط ·

فنشاط العامل داخل المصنع وسلوكه المهنى وتعامله مع زملائه فى العمل ، كل هذا مرتبط الى حد صغير أو كبير بسلوكه وظروفه داخل الدوائر المتعددة التى ينتمى اليها والتى يشترك فى نشاطها فى أوقات معينة كل يوم أو كل أسبوع أو من حين الى آخر · وعلى الرغم من محاولاته بأن يتكيف فى كل ظرف تبعا لمقتضيات هذا الظرف فمما لا شك فيه أن يتسم بأسلوب معين من السلوك يصبغ بصبغته الخاصة جميع تصرفاته ·

واذا كان الاهتمام الكبير الذى يستأثر في عصرنا هذا بتفكير أرباب الصناعة ورجال الاقتصاد هو زيادة الانتاج وزيادة الكفاية الانتاجية للعامل فانه من الضرورى أن نعنى بالعامل انسانا وعضوا فى عدة جماعات بقدر ما نعنى بتوفير المواد الأولية للصناعة والحصول على أحدث الآلات وضمان القوة المحركة لها • ولا شك أن العلوم السيكولوجية والاجتماعية هى التى تكشف لنا عن طبيعة الانسان وطبيعة التجمعات البشرية وتفسر لنا سلوكه فى المواقف الاجتماعية المختلفة المحيطة به • والعامل داخل المصنع وهو يعمل على آلة معينة ويتعامل مع نفر من الرؤساء والزملاء يسلك ويتصرف طبقا لما أوتى من قدرات واستعدادات ، محاولا التوفيق بين دوافعه ورغباته وبين مقتضيات العمل المكلف به • فالتنظيم الأمثل هو الذى يرمى الى وضع العامل فى المكان الملائم واتاحة الفرصة له لتنمية امكانياته ولتثقيفه بالثقافة اللازمة له لكى يرتقى حتى يرضى نفسه ويرضى صاحب العمل . وبعبارة أخرى تحقيق جميع الظروف المادية والاجتماعية والمعنوية التى تساهم فى زيادة الكفاية الانتاجية للعامل •

وحيث ان تدريس العلوم السيكولوجية والاجتماعية من اختصاص كلية الآداب فانه يصبح من الواضح ان جانبا من التبعات التى يفرضها واجب تنظيم الصناعة يقع على عاتق كلية الآداب • وفيما يلى اشارة وجيزة الى بعض الأعمال التى يجب أن يقوم بها الخبير السيكولوجى والاجتماعى فى مجال النشاط الصناعى •

❊ ❊ ❊

من أهم الأعمال التى تدخل فى دائرة تخصص السيكولوجى ما يأتى :

١ ـ اختيار العمال قبل قبولهم في المصنع •

٢ ـ اختيار من سيقوم المصنع بتدريبهم لكى يصبحوا عمالا أكفاء •

٣ ـ وضع الأسس التى يستند اليها الاختيار والتدريب •

٤ ـ دراسة أهم العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية التى ترفع الكفاية الانتاجية الى المستوى المنشود •

٥ ـ تنظيم العلاقات الانسانية داخل المصنع بين العمال والادارة وبين العمال فيما بينهم ، وكذلك تنظيم العلاقات الانسانية بين المصنع والجمهور •

٦ ـ المساهمة فى دراسة الأسواق من الناحية النفسية والاشتراك فى تنظيم حملات الاعلان والدعاية ٠

٧ ـ دراسة العوامل النفسية التى ترفع من نسبة الحوادث واتخاذ الاجراءات الكفيلة بخفض هذه النسبة مما يؤدى الى زيادة الأمن والانتاج ٠

ولتحقيق هذا البرنامج الحيوى لابد من تضافر الجهود بين المتخصصين فى علم النفس الفسيولوجى وعلم النفس الاجتماعى وعلم النفس التجريبى وعلم الفروق الفردية والجماعية وطرق قياسها ، وعلم النفس المرضى وعلم النفس التطبيقى ، وكلها علوم يقوم بتدريسها فرع الدراسات الاجتماعية والنفسية بكلية الآداب ٠

ولتوضيح فائدة هذه الدراسات من الناحية العلمية والتطبيقية فى المساهمة فى تنظيم النشاط الصناعى نكتفى بذكر بعض الأمثلة ٠

من المعلوم أنه فى امكان المصنع أن يحصل على عدد كبير من الآلات المتشابهة وطبيعى أن ينتظر من هذه الآلات المتشابهة فى تركيبها أن تكون أيضا متشابهة فى كمية الانتاج وجودته ٠ ولكن لا يمكن أن يتحقق هذا الغرض الأخير الا اذا فرضنا أن فى امكان المصنع أن يحصل على عدد من العمال المتساويين قدرة وكفاية فى الانتاج ليقوموا بالعمل على هذه الآلات ٠ غير أن المهندسين ورؤساء العمال يعرفون حق المعرفة أن جميع الآلات المتشابهة لا تنتج الانتاج نفسه وأن الفرق فى الانتاج يرجع لا الى الآلة بل الى من يقوم بادارتها ومراقبتها أى العامل نفسه ٠ فاذا أمكن المهندس أن يزيل جميع الفوارق بين آلات من نوع واحد فالفوارق الموجودة بين الأشخاص أمر واقعى لا يمكن تجاهله وأنه ليس بالأمر الهين ازالة هذه الفوارق ٠ ولا يلبث المهندس طويلا حتى يدرك أن التدريب ذاته لا يكفى للخفض من مقدار الفروق الفردية بل قد يؤدى فى بعض الحالات الى تضخيمها وابرازها بشكل أوضح ٠ فقد ثبت ان التدريب يزيد من الفروق الفردية بقدر زيادة العمل فى التعقد والصعوبة ٠ أما اذا كان العمل الذى يدرب عليه المرشحون للعمل سهلا فان الفروق تميل الى التلاشى وذلك لأن الشخص الماهر يصل بسرعة الى اتقان العمل ولم يعد التدريب يؤثر فيه ، فى حين ان الشخص ذا القدرة المحدودة يظل يستفيد من التدريب حتى يصل الى مستوى زميله الماهر ٠ ولكن يجب أن نلاحظ ان الشخص

الماهر سرعان ما يمل عمله السهل وعلى الرغم من قدرته العاليه فسيؤدى الملل الى خفض الانتاج ٠

ومن المسلم به أن هناك عددا من الفروق بين الأشخاص من حيث السمات الجسمية كالطول والوزن والقوة العضلية والدقة الحسية ومختلف السمات المرفولوجية ، أى السمات الخاصة بشكل الجسم وبالنسب الموجودة بين أجزائه ٠

ومن المسلم به أيضا ان هناك فروقا فردية من حيث الذكاء العام ومن حيث القدرة على التذكر والتخيل والتفكير ٠ وكذلك من حيث المزاج والطباع وسمات الشخصية ٠ ولكن هل يفطن كل واحد منا الى ان هناك قدرات خاصـــة قد لا تتأثر الا فى حدود ضيقة بالقدرة العقلية العامة وان اعتبار الفروق فى القدرات الخاصة أمر جوهرى نظرا لقيام الأعمال الصناعية على التخصص وان أوجه التخصص تزداد يوما بعد يوم ؟

وحتى لو سلم الجميع بوجود الفوارق الجسمية والعقلية والمزاجية فان الأمر الجوهرى ليس الاعتراف بها بل معرفة تقديرها وقياسها ، ثم القيام بتحليل مختلف الأعمال الصناعية للكشف عن القدرات العامة والخاصـة التى تلائمها ثم اختيار الأشخاص الذين يتصفون بهذه القدرات بشـكل يضمن نجاحهم فى تأدية العمل الذى سيكلفون به ٠

ولكى نتبين أثر الاختيار المهنى فى رفع الانتاج يمكننا أن نتبين أثر عدم الاختيار فى مدى التفاوت فى الانتاج بين عدد من العمال يقومون بعمل واحد ٠ فقد قام أحد الخبراء بتقدير الانتاج الفردى لمجموعة من ٣٦ من العمال يقومون بتركيب أجزاء كهربائية ٠ فقد وجد أن الانتـــاج مقدرا بالنسبة المئوية لمتوسط الانتاج يتراوح بين ٦٠ ٪ و١٤٥ ٪ ، أى أن العمال المهرة ينتجون ضعف العمـــال غير المهرة وبالتالى يتحمل المصنع ضعف التكاليف بالنسبة الى العامل غير الماهر ٠ وجميع الظروف متشابهة بالنسبة الى جميع العمال على أساس قدرتهم على القيام بهذا العمل ٠

وكذلك الحال فيما يختص بمجموعة من ١٩٩ من العاملات يعملن فى مصنع من الجوارب ٠ فكان الانتاج يتراوح بين ربع دستة وسبع دست من الجوارب فى الساعة ٠ ولوحظ أن هذا التفاوت الكبير يرجع الى التفاوت فى مدة تدريب العاملات ٠ فأجريت المقارنة بين العاملات اللواتى تدربن مدة سنة على الأقل ــ وهى المدة اللازمة للتدريب التام ــ فوجد ان التفاوت

فى الانتاج لا يزال كبيرا اذ يتراوح بين ثلاث وسبع دست فى الساعة · والتدريب هنا لم يؤد الى تلاشى الفروق الفردية فى المهارة اليدوية التى كان يقتضيها هذا النوع من العمل · ولا شك أن اختيار العاملات بواسطة الاختبارات الخاصة بالمهارة اليدوية كفيل بأن يجعل المجموعة أكثر تجانسا وبالتالى بأن يرفع الانتاج العام الى مستوى أعلى ·

وقد اتضح من جهة أخرى أن المؤهلات الفنية التى تمنحها المدارس الصناعية ليست لها دلالة خاصة من حيث قدرة حامليها على القيام بنوع من الأعمال الصناعية دون غيرها · فقد تقدم لاحدى المصانع مجموعة من ١١٢ فتى للعمل كمساعدين ميكانيكيين وبعضهم يحمل شهادة تخصص فى الأعمال الميكانيكية من احدى المدارس الصناعية والبعض الآخر سبق له مزاولة هذا النوع من العمل · فطبق على الجميع مجموعة من الاختبارات منها اختبار المعلومات الفنيـة واختبار القدرة العقلية العامة · فتراوحت النتائج فى الاختبار الأول بين خمس درجات و١٢٥ درجة وكان مجموع الدرجات ١٣٠ أما اختبار القدرة العقلية العامة فأسفرت نتائجه عن وجود حوالى ١٢ ٪ من ضعاف العقول و٥ ٪ من المتفوقين ·

وعلى ذلك لا يمكن الاعتماد على الشهادات التعليمية وحدها للحكم على قدرات الشخص العقلية والفنية · كما انه لا يمكن الاعتماد على التوصيات التى يقدمها طالب العمل أو الاقرارات التى يحصل عليها من المؤسسـات التى كان يعمل فيها من قبل · وكذلك لا يكفى الاختبار الشخصى الذى لا تزيد مدته عن حوالى ربع ساعة من التحادث مع طالب العمل ومراقبة استجاباته للحكم على شخصيته ومدى كفايته · فكل هذه الوسائل المختلفة التى يستخدمها صاحب العمل لاختبار عماله ناقصة غير دقيقة وتشوبها العوامل الذاتية من تحيز وأفكار قبل تعيينهم أو قبل تدريبهم على أسس علمية موضوعية مقننة بواسطة اختبارات سبق التأكد من صحتها وثباتها وقيمتها التنبؤية · يجب أن تقترب الأقيسـة والاختبارات السيكولوجية بقدر الامكان من الأقيسة والاختبارات التى يستخدمها الطبيب فى الكشف الطبى الذى يجرى على طلاب العمل فى المصنع ·

ان ضرورة الالتجاء الى الاختبـارات السيكولوجية للاختيـار المهنى أمر مسـلم به فى البلاد الأوروبية والأمريكية الراقية · فقد قام بعض العلماء المتخصصين فى ادارة شئون العمال ببحث تطور وسائل الاختيار المهنى فى الولايات المتحدة من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٥٣ · وقد تناول بحث عام ١٩٥٣ ستمائة وثمان وعشرين شركة تضم حوالى خمسة ملايين

من العمال • فوجدوا أن وسائل الاختيار الموضوعية فى تزايد مستمر فى حين يقل الاعتماد على التوصيات والاقرارات •

فى عام ١٩٣٠ لم تكن تستخدم الاختبارات السيكولوجية الا فى نطاق ضيق جدا ثم أخذت طريقة الاختبارات تنتشر حتى ان ٧٥٪ من الشركات الستمائة والثمان والعشرين التى بحثت فى عام ١٩٥٣ كانت تعتمد على الاختبارات السيكولوجية و ٨٠٪ على الكشف الطبى لاختيار عمالها •

وتوزع الاختبارات التى استخدمتها هذه الشركات على النحو الآتى :

الاختبارات الخاصة بالأعمال الكتابية وأعمال السكرتارية	٧٣٪
الاختبارات الخاصة بالمعلومات المهنية	٣٠٪
اختبارات القدرة العقلية العامة أو اختبارات الذكاء	٥٦٪
اختبارات القدرة الميكانيكية	٤٠٪
اختبارات المهارة اليدوية	٢٨٪
اختبارات الشخصية	٤٠٪
اختبارات عملية	٣٣٪

ولنأخذ مثلا النوع الأول من هذه الاختبارات وهو الخاص بالأعمال الكتابية • فقد وجد أن القدرة على القيام بنجاح بهذه الأعمال ليست قدرة بسيطة بل قدرة مركبة من أربعة عوامل ميزتها الدراسة الدقيقة التى تعتمد على الطرق الرياضية كالتحليل العاملى •

فالعامل الأول هو القدرة على ادراك الكلمات والأرقام • ويستخدم لقياس هذه القدرة تمرينات مقننة تحوى على عدد من الأزواج اللفظية أو العددية بعضها متشابهة تمام التشابه وبعضها الآخر يحوى اختلافات دقيقة على المختبر ان يميزها بسرعة • وميزة هذه التمارين أنها مرتبطة ارتباطا ضعيفا جدا بالذكاء العام ولا تتأثر نتائجها بالخبرة أو بالسن ، أى أن هذه الاختبارات تقيس القدرة على ادراك الكلمات والأرقام فى لبها وأساسها •

والعامل الثانى هو القدرة على فهم معنى الكلمات وغيرها من الرموز • هذا هو العامل اللفظى الذى ميزه ثرستون ووضع له اختبارات خاصة تشمل معرفة مفردات اللغة وفهم النصوص •

والعامل الثالث هو المعروف بالعامل العددى وهو القدرة على معالجة الأرقام • يتدخل هذا العامل فى العمليات الحسابية البسيطة وفى حل المسائل •

اما العامل الرابع فهو خاص بالمهارة اليدوية وبخفة حركات الأصابع• ويتضح وجود هذا العامل من تحليل الأعمال الكتابية نفسها ولم يصل بعد التحليل العاملى الى عزله •

ولاشك أن هناك علاقة بين القدرة الكتابية كما سبق وصفها والقدرة على التكيف ولابد من اختبار هذه القدرة الأخيرة بواسطة اختبارات خاصة للذكاء فى حالة ما تتطلب الوظيفة الكتابية التى يقوم بها الموظف تغيير نوع النشاط من حين الى آخر • هذا فضلا على اختبارات الشخصية التى تكشف عن اتجاهات الموظف من سيطرة أو خضوع أو انطواء أو انبساط أو عدوان أو ميل الى التعاون الخ •• ولنأخذ الآن مثالا آخر خاص بجانب هام جدا من النشاط الصناعى والتجارى وهو النقل بالسيارات الثقيلة سواء نقل المهمات فى الطرق العامة أو نقل الركاب فى شوارع مدينة كبيرة كمدينة باريس أو القاهرة •

ان عمليات النقل ذات قيمة حيوية للنشاط القومى من جميع نواحيه• وتقتضى المصلحة العامة توافر أسباب الأمن والسرعة والانتظام مع الاحالة دون الاستهلاك السريع لسيارات النقل ، ومن بين العوامل التى تضمن تحقيق جميع هذه الشروط الأشخاص المكلفون بقيادة السيارات •

وعملية القيادة مركبة تتطلب من قائد السيارة مجموعة من الصفات المزاجية والخلقية ومن القدرات العامة والخاصة • وسنذكر بعد قليل أهم هذه الصفات والقدرات كما كشفت عنها الدراسة العلمية التى قام بها «لاهى» LAHI فى باريس وهو أحد منشئى علم النفس الصناعى فى الربع الأول من هذا القرن •

فى عام ١٩٢٣ فكرت شركة النقل المشترك فى باريس فى ايجاد حل لمشكلة الحوادث العديدة التى كانت تقع يوميا لسائقى الثلاثة آلاف سيارة التى تملكها ، اذ بلغ عدد الحوادث فى عام ١٩٢٢ ثمانى عشرة الف حادثة ذهب ضحيتها مئات من الركاب والمارة فضلا على الخسارة المادية الفادحة التى كانت تتحملها الشركة • فكلف الاستاذ «لاهى» بدراسة الموضوع

ووضع خطة محكمة لاختيار السائقين قبل تدريبهم ٠ وبعد القيام بتحليل العمل وضع «لاهي» مجموعة من الاختبارات اللفظية والحركية بحيث يسمح كل اختبار بقياس كل قدرة خاصة على حدة فضلا على اختبار الذكاء والذاكرة ٠ وكانت تسجل نتائج الاختبارات فى شكل « بروفيل » سيكولوجى يسمح فحصه بالتنبؤ عن مدى احتمال نجاح طالب العمل فى تعلم قيادة السيارات الثقيلة ثم مزاولة هذه المهنة ٠

ويقتضى النجاح فى مهنة قيادة سيارات النقل توافر القدرات الآتية :

١ ــ أن تكون استجاباته سريعة ومنظمة ٠

٢ ــ الا يصاب بسرعة بالتعب النفسى الحركى ٠

٣ ــ أن يكون قادرا على تقدير السرعات والمسافات بالنظر ٠

٤ ــ أن يكون جيد الأبصار عند انخفاض الضوء وقت الغسق وفى الليل ٠

٥ ــ أن يكون قادرا على مقاومة « الزغللة » فى حدود معينة وان يستعيد تكيفه البصرى بسرعة لاتقل عن حد معين ٠

٦ ــ أن يكون مدى الأبصار العملى فى حدود معينة بحيث يتمكن ان يلمح ما يدور على يمينه وعلى يساره دون الانقطاع عن رؤية ما يحدث أمامه ٠

٧ ــ أن يكون قادرا على الانتباه الموزع ، قوى الأعصاب لاينفعل بسرعة وعلى مقاومة آلية الحركات كلما لزم الأمر ٠

٨ ــ أن يتمتع بقوة عضلية معينة ، قادرا على تحمل التعب وبذل المجهود الذى تتطلبه مهنته بنوع خاص ٠

٩ ــ وحيث أن القيادة تقتضى القيام بعدد من الحركات المختلفة من حيث شكلها واتجاهها ومدتها فلابد من أن يتصف قائد السيارة بقدرة عالية على تفكيك حركات اليدين والقدمين بحيث لاتتبع اليد أو القدم الأخرى فى حركتها ٠

وقد أدى الاختيار المهنى فى ميدان قيادة السيارات الى نتائج باهرة بفضل استخدام الاختبارات السيكولوجية وفيما يلى الفوائد التى جنتها شركة النقل المشترك فى باريس ٠

انخفضت نسبة الذين يســـتبعدون أثناء التدريب من ٢٠٪ قبل تطبيق الاختبارات الى ٤٪ بعد تطبيقها ، كما أن مدة التدريب انخفضت من ١٥ يوما الى ١٠ أيام ٠ ودلالة ذلك بالقياس الى نفقات الشركة خفض نفقات التدريب بنسبة ٣٣٪ ٠

أما فى ميدان الحوادث ونسبة وقوعها فقد كانت النتائج باهرة حقا ٠ طبقا لمقارنة بين ١٩٢٣ و عام ١٩٤٨ نجد أن متوســط عدد الحوادث فى السنة بالنسبه الى السائق الواحد انخفض من ٢ر٢ الى ٥ر٠ أى بنسبة ٧٥٪ وهى نسبة عظيمة ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى عام ١٩٢٩ أرتفعت نسبة الحوادث وكان السبب فى ذلك أن اضطرت الشركة الى تعيين عدد من السائقين دون اختبارهم تطبيقا للقوانين العمالية التى أصــدرتها الحكومة فى هذه السنة وهى تقضى بخفض عدد ســاعات العمل يوميا ٠ وعندما تمكنت الشركة من اختيار السائقين الجــدد انخفضت نســبة الحوادث من جديد ٠

وقد تجددت هذه الظاهرة فيما بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ عند اعلان الحرب العالمية الثانية وتجنيد عدد كبير من عمال الشركة ٠ فلجأت الشركة بحكم الضرورة الى تشغيل سائقين تعلم أنهم دون مستوى الكفاية المطلوبة وعندئذ ارتفعت نسبة الحوادث بشكل مريع ٠ ومثل هذه التجارب السلبية تقيم الدليل على أهمية الاختيار المهني وخطورته ٠

وبالمقارنة أيضا بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٤٨ نجد أن عدد الحوادث لكل مائة ألف كيلومتر تقطعها جميع سيارات الشركة انخفض من ٥ر١١ الى ٢ أى بنسبة ٩٠٪ تقريبا ٠ فبينما كانت الشركة تنقل فى عام ١٩٢٣ مائة ألف راكب لكل حادثة واحدة أصبحت فى عام ١٩٣٨ تنقل أربعمائةألف راكب لكل حادثة واحدة ٠ فى حين أن الحوادث التى تحدثهــا السيارات الخاصة تزداد نسبتها بازدياد عدد السيارات فبين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٨ زاد عدد السيارات الخاصة فى باريس وضــــواحيها بمقدار ٢١٨٪ وزادت الحوادث بمقدار ٨٤٪ أما سيارات الشركة فقد زادت بمقدار ٢٠٠٪ ولكن عدد الحوادث التى أحدثتها بدلا من أن يرتفع انخفض بمقدار ٣١٪ مع العلم بأن متوسط سرعة هذه السيارات زاد بمقدار ٨٠٪ ٠

ولا يمكن أن يعزى هذا التفاوت الصـــارخ بين السيارات الخاصـــة وسيارات الشركة الى التحسينات الفنية وتنظيم حركة مرور واصــــلاح الطرق الخ ٠٠ اذ ان هذه العوامل مشتركة بين جميع السيارات ٠ ولــكن

هناك عاملا واحدا يستطيع ان يفسر هذا التفاوت الا وهو قيـــام الشركة باختيـار عمالها بواسطة الاختبارات السـيكولوجية الدقيقة في حين أن سائقي السيارات الخاصة لايخضعون لمثل هذا الاجراء ٠

* * *

وســـيطول الحديث لو أردنا أن نبين الخدمات الحيوية التي يستطيع السيكولوجي أن يقدمها في سبيل تنظيم النشاط الصناعي ورفع الكفاية الانتاجية لدى العمال فهناك ميدان واسع خصب للتطبيقات السيكولوجية هو ميدان العلاقات بين هيئة العمال وهيئة الادارة وبين العمـال بعضـهم ببعض ٠ فالتوترات التي تنشأ داخل المصنع من شأنها اعاقة العمل وخفض الانتاج وجعل الجميع يشعرون بالاخفاق والحرمان ٠ ان دراسة مستوى طموح العمال تبعا للفئات التي ينتمون اليها وبحث نوع العلاقات القائمـــة بين مختلف الفئات وبينها وبين الادارة تسمح باستخلاص العوامل الأساسية التي تحدد الروح المعنوية داخل المصنع ٠

ومن أهم الدراسات التي يقوم بها السيكولوجي الصناعي دراســـة مختلف الدوافع التي تحرك العامل ومقارنة هـــذه الدوافع بعضها ببعض بالقياس الى مستوى الانتاج والى تحقيق التعاون الصادق بين العمـــال والادارة ٠ فقد وجد أن الأجر المادي يأتي في مرتبـــة متأخرة بين مختلف الحوافز الدافعة الى العمل المنتج المنسجم وأن شعور العامل بأنه مقدر من الادارة وأن كرامته مصونة وأنه مطمئن على غده ، فتلك عوامل معنوية قد تفوت الادارة ادراك خطورتهـــا في حين أنها بليغة الأثر في كيفية سير العمل داخل المصنع أو داخل المؤسسة التجارية ٠

وخلاصـــة القول ان كلية الآداب باعدادها جيـلا من السيكولوجيين المسلحين بثقافة علمية واسعة ودقيقة في آن واحد تتوق في هـذا العهد المبارك ، عهد الثورة والشباب والتجديد ، الى أن تســـاهم في الانتاج القومي وفي تنشيط الصناعة وتنظيمها ، جنبا لجنب مع أخواتها الجامعيـة الأخرى من هندسة وعلوم وتجارة وزراعة وطب ٠ وترجو أن يتحقق في المستقبل القريب هذا الحلم الجميل عندما يدرك أصحاب الأعمال الصناعية والمشرفون على المؤسسات الصناعية ســـواء كانت أهلية أو حكومية ، أن للسيكولوجي مكانا في المصنع بجانب أخيه العامل والمهندس وأن مساهمته وان كانت لاتلمس ماديا بطريقة مباشرة جليلة الأثر في بناء صرح الصناعة الشامخ في وطننا العزيز ٠

علم النفس والكفاية الانتاجية (١)*

ان الانتصار فى معركة الانتاج يتوقف فى نهـاية الامر على أعلى مستوى ممكن من الكفاية الانتاجية ٠ لا بد من أن تضمن أجهزة التخطيط والتنفيذ والتوجيه أكبر قدر ممكن من المكاسب مع أكبر خفض ممكن للخسائر ٠ ولتحقيق هذا الهدف يجب أن تتضافر جهود جميع المختصين فى العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية على السـواء ٠ يجب أن تتناول الدراسة العلمية العـامل ، لا من حيث هو مجرد ترس من تروس جهاز الانتاج ، بل من حيث هو انسان بكافة دوافعه وقدراته ودراسة العامل من الناحيتين النفسية والاجتماعية لا تقل أهمية عن دراسة خصـائص المواد الاولية التى تستخدم فى الصناعة ودراسة تصميم الآلات وتنظيم المصانع من النواحى الميكانيكية والهندسية ٠

انه من السهل صنع آلاف الآلات المتشابهة وضبط حركتها وتوحيد انتاجها ولكن الامر ليس بمثل هذه السهولة فيما يختص بالايدى العاملة ٠٠ فقد اعتقد رجال الصناعة فى وقت ما أنه من الممكن صب العمال فى قوالب موحدة ولكن سرعان ماتبين خطأ هذا التصور ، بل مدى الظلم الذى يقع على فئة من العمال ٠٠ وترجع هذه النظرة الخـاطئة الى أن الجهود الاولى التى بذلت لزيادة الانتاج قام بها مهندس أغفل جانب العامل الانسانى ٠ ففى بداية هذا القرن وضع تيلور المبادىء التى يجب اتباعها لزيادة الانتاج فى أية مؤسسة صناعية وفيما يلى تلخيص هذه المبادىء :

١ ـ تقسيم العمل ٠٠

٢ ـ تنظيم فترات الراحة ٠٠

٣ ـ وصف تحليلى دقيق لكل عمل من الاعمال ٠٠

٤ ـ تحديد الحركات التى يجب تاديتها أثناء العمل والتقليل من الحركات الزائدة غير المفيدة ٠٠

(*) « مجلة العمل » ، مايو ١٩٦٣ ٠

٥ ـ التكيف للعمل ٠٠

٦ ـ نظام المكافآت على الانتاج ٠٠

ان تيلور بدون شك يعتمد على بعض الحقائق التى أسفرت عنها دراسة العمل من الناحية النفسية والفسيولوجية مثل تحليل التعب لتحديد فترات الراحة وايقاع الحركات وسرعتها والصلة بين السرعة والدقة ٠ انما أدرك بصفة عامة مبهمة أن هناك بعض الشروط الجسمية والنفسية للقيام بأعمال مهنة معينة ، غير أنه لم يدرس العوامل النفسية العميقة لتكيف العامل لمهنته ، كما انه أهمل الآثار النفسية التى تحدثها الشروط التى يفرضها على العامل ٠ وقد اعترف هو نفسه ـ بعيوب نظامة عندما قال : « اننا نحاول زيادة انتاج الآلة ولكننا ننسى العامل الذى يعمل على هذه الآلة » ٠٠

وعندما وجهت العناية الى دراسة شروط العمل من الناحية النفسية وعلاقة هذه الشروط بالانتاج برزت فى المقدمة حقيقة هامة وهى وجود فروق فردية بين الأشخاص ٠ كانت هذه الحقيقة التى لا يمكن انكارها مهملة كل الاهمال وكان الاعتقاد السائد هو أن لدى كل فرد قدرة لا حد لها للتكيف والتشكل وان النقص فى الانتاج مرده كسل العامل أو اهماله أو عصيانه أو سوء النية وما الى ذلك من التبريرات التعسفية ٠٠

ولذا وجهنا نظرنا شطر حوادث العمل ـ ومن المعلوم أنها تكلف الانتاج القومى خسائر باهظة فاننا نرى أن الاعتبار الاول الذى لفت نظر الباحثين هو أنه عندما تتساوى ظروف العمل وبصفة خاصة أجهزة الامن تلاحظ فروق كبيرة فى نسبة تكرار حوادث العمل وخطورتها ٠٠ وقد بين ذلك العالم الانجليزى فارمر فى بحث له نشر عام ١٩٢٧ فى مجلة المعهد القومى لعلم النفس الصناعى فى لندن ٠ وفى بحث آخر قام به العالم الايطالى بانكيرى عام ١٩٤٧ وجد أن فى جماعة من العمال يقومون بنفس العمل عدد الحوادث بالنسبة الى فرد واحد يتراوح بين صفر و ٨٧ فى مدة ثلاث سنوات ٠٠

وفى ضوء هذه البيانات يمكن أن نقرر أن توزيع الحوادث لا يتم وفقا للمصادفة ، بل أن الحوادث تقع بنسبة كبيرة لبعض الاشخاص وبنسبة ضئيلة للبعض الآخر وهذا نتيجة حتمية لتضافر بعض الظروف ، مما

يجعلنا نفترض أن هناك استعدادا خاصا لدى فئة من العمال لكي يصابوا بصفة مطردة بنسبة كبيرة من الحوادث وذلك مع بقاء ظروف العمل الاخرى متساوية • واذا كان هذا الفرض صحيحا فان العوامل الشخصية الشعورية منها واللاشعورية تؤدى دورا رئيسيا في وقوع حوادث العمل••

والواقع أن المشكلة ليست بهذه البساطة كما تبدو لأول وهلة • انه محاولة ارجاع ظاهرة سلوكية الى عامل أساسي واحد تتعارض مع الروح العملية الحقة اذ أنها تقوم بتحليل تعسفي يفقد الظاهرة ما تتميز به من واقعية وتعقيد • ان كل ظاهرة سلوكية هي نتيجة تفاعل بين عدة عوامل بيئيه وشخصية أى بين عوامل مادية وجسمية ونفسية واجتماعية• والنقطة الاساسية من حيث منهج الدراسة هى كيفية تصورنا للتفاعل الذى يتم بين مختلف هذه العوامل • لدينا شخص معين داخل موقف معين أو لدينا عدة أشخاص داخل موقف واحد ، أو لدينا شخص ينتقل من موقف الى موقف آخر •

هذه العبارات تثير في ذهننا تصورات واضحة • هل لها دلالة دقيقة تسمح لنا بأن نفكر تفكيرا واضحا يوصلنا عن طريق الاستدلال الى نتائج سليمة ؟ اننا نعتقد أنه من السهل أن نصف سمات هذا الشخص المعين الذى نتحدث عنه وأن نرسم بوضوح صورة ثابته لمعالم شخصيته •• ثم نقوم بوصف الموقف وتحليل عناصره وتحديد دلالته وبعد ذلك نقوم بالربط بين بعض عناصر الشخصية من جهة وبعض عناصر الموقف من جهة أخرى ونقرر اننا بهذه الطريقة نكون قد فسرنا الظاهرة التى نحن بصددها •

ان هذا المنهج الذى يبدو سليما من الناحية العلمية يشوبه نقص جوهرى ، هو أننا حددنا دلالة الموقف أو دلالة المؤثر بالنسبة الى نظرتنا الشخصية معتقدين أن هذه النظرة تتسم بالدقة وبالموضوعية ، ومفترضين ان الموقف الخارجي له دلالة واحدة موضوعية بالنسبة الى أى شخص •• الواقع هو غير ذلك ، فقد بينت الدراسات التى تناولت عملية ادراك العالم الخارجى ، وحتى مجرد الادراك الحسى للمنبهات المادية ان دلالة هذه المنبهات تختلف من شخص الى شخص ، بل تختلف لدى الشخص الواحد تبعا لحالته النفسية والمزاجية وتبعا لاتجاهاته العاطفية والفكرية • لان الشخص لا يدرك الاشياء من حيث هى أشياء موضوعية بل من حيث هى قيم ، من حيث هى اشارات وعلامات ورموز تختلف دلالتها الوظيفية باختلاف حالة الشخص الجسمية والنفسية وما يقال عن المنبهات المادية أو

عن المواقف المادية يقال بالاحرى عن المواقف التى تضم شخصا آخر أو عدة أشخاص آخرين ٠٠

ومعنى هذا أن دراسة ظاهرة سلوكية مثـل حوادث العمل لا يجوز حصرها فى دائرة الدروس الاحصـائية التى تنصب على اعداد كبيرة من الحالات ، بل لا بد لها من أن تتناول بطريقة عميقة واستقصائية كل حالة فردية على حدة ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أن الدراسات الاحصائية للعوامل المسببة للحوادث والاصابات فى الصناعة لا تؤدى دائما الى توافق النتائج والى تأويلات واحدة وسنرى عند ذكر بعض الأمثلة أن التضارب فى تفسير نتائج الدراسات الاحصائية قد يرجع أحيـانا الى اغفـال بعض العوامل وأحيانا أخرى ، الى عدم تحديد مفهوم المصطلحات تحديدا دقيقا واضحا فما هو مثـلا مفهـوم الموقف ، والبيئة والذكاء وما هو المقصود بالعامل الشخصى ؟ ٠

أننـا نلاحظ فى معظم دراسات أسباب الحوادث التى تتناول حوادث العمل تقسيم الاسباب الى بيئية وشخصية ومعـالجة كل قسم من هذين القسمين على حدة كأن العوامل الميكانيكية والمـادية مستقلة عن العوامل الشخصية ولكن يجب أن نذكر أن الدافع الى دراسة كل عامل على حدة هو مجرد تبسيط البحث واذا كانت هذه الخطوات التحليلية لا بد منها فى بادىء الامر يجب ألا ننسى أن الدراسة لا يمكن أن تكتمل الا بالعودة الى النظرة التأليفية التكاملية بالرجوع الى الدراسة الاكلينيكية لجميع الحالات الفردية ٠

فقد وجدت علاقة واضحة بين الحالة الصـحية وعدد الاصابات فى العمل ٠ والمقصود بالحالة الصحية هنا هو اما عدد الامراض وعدد مرات التردد على العيادات الطبية فى المصنع ٠ ومدلول الحالة الصحية هنـا غـير واضح فيبدو أنه مقصور على الامراض الجسمية أو الشكاوى الجسمية مع العلم بأن نصف هذه الحالات تستتر وراءهما أعراض مرضية نفسية وهذا الاعتبار يجعلنا نتساءل عن احتمال وجـود اسـتعداد سـابق للتعرض للحوادث ٠

وقد يبدو أن التعب يؤدى دورا هاما فى وقـوع حوادث العمل ٠ والواقع أن نتائج البحوث بهذا الصدد متضاربة وذلك لتعقيد ظاهرة التعب من جهة ووجود فروق فردية كبيرة من حيث قابلية كل فرد للتعب تحت تأثير عوامل وجدانية انفعالية ٠ فقد وجد مثـلا أن عدد الاصابات يكون

مرتفعا عقب يوم الراحة الاسبوعية ثم ينخفض تدريجيا من اليوم الاول الى السادس بنسبة ٢ الى واحد • ولا يرجع سبب ارتفاع النسبة فى اليوم الاول الى تاثير تعب ناتج عن الاعمال المنزلية التى يقوم بهـــا العامل أو العاملة يوم العطلة الاسبوعية ، بل الى ضرورة اعادة التهيؤ للعمل بعـــد فترة الراحة الطويلة ••

وفيما يختص بارتفـاع ضغط الدم فمنذ وجد أن سائقى السيارات من سن ٥٠ سنة وما فوق والمصابين بارتفـــاع ضغط الدم يرتكبون من الحوادث ضعف ما يرتكبه غيرهم من نفس السن وبدون ارتفاع ضغط الدم كما وجد أيضا فيما يختص بفئة السائقين أن الخمور لها تأثير واضح فى وقوع الحوادث وتتلخص آثار المواد الكحولية فى أنهـــا تضعف الانتباه لاشارات المرور ، والبيئة الخارجية ، تبطىء سرعة استجابة العينين واليدين والقدمين ، تزيد من مدى تغير الاداء ، وأخيرا تولد شعورا زائفا بالثقة فى النفس • وقـــد يكون من المفيد دراسة تأثير المكيفات ، مثـل الحشيش والافيون ، فى أداء السائقين ومقارنته بتأثير الكحول •

وفيما يختص بعلاقة القدرات الحركية النفسية مثـل زمن الرجع ، بحوادث العمل فان نتائج البحوث جاءت متضاربة وذلك لاغفال تأثير بعض العوامل الانفعالية ، وعدم التمييز بين زمن الرجع لمنبه بسيط وزمن الرجع الذى يتطلب الاختيار بين عدة منبهات ••

ويوجد اتفاق تام بين الباحثين فيــما يختص بتأثير الخبرة السابقة والتدريب فكلما زادت الخبرة وكان التـــدريب مبكرا ووافيا قلت نسبة الحوادث •

ويعود التضارب في النتائج عند بحث العلاقة بين مســـتوى الذكاء ونسبة الحوادث • يذهب بعضهم الى وجود علاقة عكسية مطردة بين نسبة الذكاء ونسبة اعدد الحوادث •• ويقول البعض الآخر بعدم وجود أى علاقة بين نسبة الحوادث ونسبة عالية من الذكاء وان هذه العلاقة محصورة فقط فى المستويات المنخفضة من الذكاء • وان السبب الرئيسى لتضارب النتائج فى هذا المجال هو غموض مفهوم الذكاء وتفاوت النتيجة التشخيصية لكثير من الاختبارات وقد أدت بحوث العـــالم الفرنسى بورناردل الى القاء بعض الضوء على هـــذه المشكلة فهو يقـــول بضرورة التمييز بين الذكاء العملى

والذكاء التجريدى قد وجد ارتباطا كبيرا بين مستوى الذكاء العملى ونسبة وقوع الحوادث فى حين أن الارتبـــاط ضئيل جـــدا بالنسبة الى الذكاء التجريدى ..

وقد سبق أن أشرنا عند التحدث عن التعب وعن القدرات الحركية النفسية وعن الحالة الصحية عامة أن هناك عوامل وجدانية انفعالية قد تتدخل فتؤدى الى اختلاف النتائج بين الباحثين . وقد برزت أهميه العامل الانفعالى فى البحوث التى أجريت فى العشرين سنة الاخـيرة تحت تأثير ما يعرف بعلم النفس الدينامى وبعلم نفس الاعماق وبصـفة خاصة تحت تأثير التحليل النفسى والطب السيكوسوماتى ، أى الطب النفسى الجسمى، وهو اتجاه جديد فى الطب يستوحى كثيرا من حقائق التحليل النفسى ..

فالاصابة فى العمل مهما كانت الظروف الخارجية وسيلة من وسائل الهروب من المسئولية ، ووسيلة لتصريف النزعات العدوانية ، وصبها على الآخرين وعلى الشخص نفسه ضحية الحادث . فالعمال الذين يتعرضون أكثر من غيرهم لحوادث العمل وللاصابات يتميزون بالسمات الآتية :

١ ــ موقف مطالبة واحتجاج وتذمر نتيجة لما يشعر به العامل من حرمان واحباط لانه اضطر الى مزاولة مهنة معينة فى حين أن ميوله كانت تدفعه الى اختيار مهنة أخرى .. فهو يعتبر نفسه ضحية الضغط العائلى أو الظروف الاجتماعية ..

٢ ــ يؤمن بالقضاء والقدر ويعتقد أن حظه دائما سيىء .

٣ ــ يحتفظ بموقف الطفل المريض الذى يطالب باستمرار بالتدليل والرعاية الفائقة ، فهو يجنى مكسبا معينا من تعرضه للاصابة .

٤ ــ يعانى من طموح زائد ، لا يتناسب مع قدراته الفعلية ، ودون مراعاة للواقع .

٥ ــ خوف شديد من أن تقع له حوادث ومن أن يصاب أثناء العمل.

٦ ــ يعانى من عقدة الادانة أو بما يسمى بالشعور بالاثم أو الخطيئة، مما يولد فيه نزعة لا شعورية الى تدمير ذاته .

٧ ــ كان فى طفولته عدوانيا ، وفى حالة ثورة مستمرة ضد سلطة الوالدين فى الاسرة ، وسلطة المدرسين فى المدرسة .

قوبلت هذه الدراســات من بعض علمـــاء النفس بكثير من النقد

والشك . فهم يرفضون القول بوجود استعداد سابق للتعرض للحوادث والوقوع فيها ، مهما كانت الظروف الخارجية . فقد بينت المحاولات التى بذلت للوقاية لتحقيق أكبر قـدر ممكن من الامن فى دائرة العمـل ، أن تغيير الجو السيكولوجي ، وتحسين العـلاقات بين الافراد داخل جماعة العمل وزيادة الشعور بالتضامن والشعور بقيمة الاسهام الفردى فى الانتاج الجماعي ، كل هذه الاجراءات أدت فعلا الى خفض نسبة الحوادث . فاذا سلمنا بوجود استعداد سابق للتعرض للحوادث ، فليس معنى هـذا أن وقوع الحوادث أمر محتوم لا مفر منه .

فالاجراءات الوقائية قـد تكون بالنسبة الى بعض العمـال المعرضين أكثر من غيرهم لحوادث العمل نظرا لتغلب تأثير العوامل الانفعالية فىتكوين شخصيتهم ، قد تكون فى الوقت نفسـه علاجا لهم يخفف من توترهم الداخلي ومما يعانوه من قلق وحصر نفسى .

وعلى كل حال ، فان الدراسات التى عملت بوحى من حقائق التحليل النفسى قد أسهمت بصورة واضـحة فى تأكيد ضرورة النظر الى العامل نظرة انسـانية تحترم كرامته واحاطة جو التعـامل معه بروح الارشاد والمساعدة والتوجيه ، بعيدا عن تعسف السلطة ورغبة السيطرة .. كما أن دراسات التحليل النفسى هى التى ستسمح لنا بأن نحقق ، بالتعاون مع سائر البـحوث التـجريبية والفنية ، الدراسة التـكاملية للسلوك الانسانى ..

علم النفس والكفاية الانتاجية (٢)*

ان صيانة القوة البشرية لا تقل أهمية عن صيانة القوة الآلية ، بل هي التى تضمن الثانية ٠٠ ان عملية تكييف الآلة للانسان ، والانسان للآلة عملية معقدة متشعبة النواحى ، يتفاعل فى داخلها عدد كبير من العوامل الفيزيقية والميكانيكية والنفسية والاجتماعية ٠

هذا التفاعل يظهر بصورة واضحة فى حوادث العمل ، التى سبق لنا التحدث عنها فى العدد السابق من هذه المجلة ، وهو واضح جدا فى ظاهرة التعب ، وبصفة خاصة التعب فى الأعمال الصناعية ٠

وقد يبدو لبعضهم ان التعب يعد مشكلة ، بعد هذا التقدم الهائل فى تصميم الآلات التى تتلاءم مع مجموعة الحركات الطبيعية التى يمكن القيام بها ، وبعد أن قصرت ساعات العمل وخفضت الى ثمان ، ثم سبع ساعات فى اليوم ، تتخللها فترة من الراحة لتناول وجبة الغذاء ٠٠ غير اننا اذا دققنا النظر فى الظروف الجديدة التى خلقها الانتاج الصناعى الذى يتميز بسرعته وضخامة كمياته وبتجزئة العملية الكلية الى عدد كبير من العمليات الفرعية المتسلسلة ، فاننا نلاحظ ظهور عوامل جديدة من شأنها خفض سير العمل واصابة الانتاج فى كمه وكيفه ، من هذه العوامل نذكر الملل ، وعدم شعور العامل بقيمة اسهامه فى العملية الكلية ، ولاشك فى ان مثل هذه العوامل لها رد فعل سيىء على الكفاية الانتاجية وتؤدى الى الشعور بالتعب المبكر ، أى بالتعب الذى لا تكفى فى تفسيره العوامل الفسيولوجية٠

ثم ان هناك جانبا آخر للمشكلة لايزال قائما على الرغم من وجود فترة الراحة التى تقسم اليوم الى قسمين ٠٠ ان تعميم نظام الراحة هذا فى جميع الصناعات على اختلاف أنواعها تعميم لايقوم على أساس علمى ، ويغفل الطبيعة النوعية لكل عمل من الأعمال الصناعية ٠

(*) «مجلة العمل» ، أغسطس ١٩٦٣ ٠

فمشكلة التعب فى الصناعة لاتزال قائمة ، وهى فى حاجة الى اعادة دراستها من حين الى آخر مع تطور الأساليب الصناعية ، وتغير الظروف النفسية والاجتماعية التى تصاحب عملية الانتاج ..

ان كل مجهـود عنيف ، او كل عمل تستمر مدته يؤدى الى ظهور التعب .. والتعب كما قلنا ظاهرة معقدة لها جانب فسيولوجى ، وآخر سيكولوجى .

ان تشغيل العضلات ، كأى تشغيل عضـوى أو آلى ، هو فى الواقع تحويل للطـاقة ، واستنفاد بعض الطـاقة المخزونة فى الجسم ، والنشاط العضلى يصاحبه تكوين فضـلات مختلفة . تنصـب فى الدورة الدموية وتحدث آثار التعب ، ولا تزول هـذه الآثار الا بتخلص الجسـم من هذه الفضلات أهمها ثانى أوكسيد الكربون ، وحامض اللاكتيك ، وأشـباه القلويات المعروفة بالكومايين الناتجة عن تحلل المواد الشبيهة بالالبومين ولهذه الفضلات آثار سامة ، فاذا حقنا حيوانا بتوكسين التعب باستخدام دم حيوان مجهد فان آثار التعب ، واعراضه تظهر على الحيوان الذى نجرى عليه التجربة ومن هذه الأعراض نذكر هبوط درجة الحرارة ، ونقص فى التنفس . والميل الى النعاس .. وأخيرا الموت .

وبالاضافة الى نقص المخزون من الطاقة ، والى تكوين التوكسينات ، توجد ظواهر عصبية كتأثيرات الكف والتعطيل ، تؤثر فيها لا فقط كمية العمل ومدته بل رتابته وما يحدثه من ملل .

التعب يؤثر فى الوظائف الفسيولوجية المختلفة من تمثيل وتنفس ودورة دموية واخراج فالعمل العنيف المنهك الذى لايدوم طويلا ، كالعمل الذى يسـتمر مدة طويلة يؤديان الى زيادة نسبة التنفس ، أى الى زيادة استنفاد الطاقة وتبديدها .

أما آثار التعب فى الدورة الدموية ، فهى احتقان الاعصـاب التى تقوم بمجهود كبير ، مما يؤدى الى فقر دم نسبى فى الاعضـاء الأخرى ، وتمدد فى بعض الشرايين من جهة ، وانقباض فى البعض الآخر ، وزيادة سرعة النبض مع هبوط فى ضغط الدم .

وقد تظهر كمية من الزلال أو اليوروبلين فى بول الأشخاص المرهقين، كما أن التعب الشديد يؤدى الى اضطراب وظائف الهضم والإفراز ووظائف الجهاز العصبى المستقل .

غير أن التدريب من شأنه ان يحد من آثار التعب ، وأن يرجع الى مستوياتها السوية حركة التنفس ، وأيقاع ضربات القلب وضغط الدم .. فالتدريب والتمرين المتواصل يحدثان أشكالا شتى من التعويض واعادة التكيف ، مثل تضخم القلب لدى العدائين ، وزيادة نشاط الغدد الادرينالينية .

ثم ان هناك حقيقة هامة يجب مراعاتها ، وهي وجود الفروق الفردية . فباستخدام جهاز الارجوجراف أو المتعبة . تبين أن منحنى التعب يختلف في شكله باختلاف الأشخاص ، فقد يظهر التعب تدريجيا ، أو يحتفظ الشخص بقوته العقلية مدة ما ثم يهبط ببطء وبصورة تدريجية ، أو يهبط فجأة وبسرعة . ويمكن تغيير منحنى التعب المنحرف لدى شخص ما بتغير نظام الطعام واستخدام العقاقير .

قد يظن مبدئيا أن التعب لابد وأن يؤثر تأثيرا سيئا في الوظائف النفسية .

والواقع أن للتعب آثارا متعارضة مفارقة ، فالتعب يزيد من حدة الحواس وعتبة الاحساس بالألم تهبط ، وكذلك الاحساس السمعي ، كما أن المجال البصرى يتسع وتزداد قدرة عدسة العين على التكيف تبعا لبعد المرئيات .. ومن أغرب آثار التعب زوال الخداع البصرى العضلي . الذى يجعل الشخص يحكم على جسمين متعادلين في الثقل ، ولكن مختلفين في الحجم .. ان أكبرهما حجما أقلهما وزنا .

ان هذه الظواهر غريبة حقا ، غير أن غرابتها تزول عندما ندرك أن الاحساسات ليست بالظواهر المنفصلة المنعزلة ، بل هي مندمجة في مجموع النشاط النفسى ، فالتعب يؤثر في النشاط النفسى كله وتأثيره يؤدى إلى ارتداد السلوك الى انماط أولية بدائية ، فهبوط عتبة الألم يفيد النكوص من مستوى الحساسية المميزة الحاكمة الى مستوى الحساسية التأثيرية الأولية التي تطغى عليها موجات الشحنات الوجدانية ، أى هبوط من مستوى لحاء المخ الى مستوى الثلاموس الذى هو أقدم في تكوينه من اللحاء . وذلك من وجهة تطور أنواع الحيوانات الفقرية .

وزيادة القدرة على التكيف البصرى أو اتساع المجال البصرى من حيث العمق ، من خصائص الابصار عند الطفل .. وكذلك الخداع البصرى العضلي الخاص بالعلاقة بين الوزن والجسم لا يشاهد لدى الاطفال كما انه لا يشاهد لدى ضعاف العقل . فآثار التعب اذن هي آثار نكوصية

شبيهة بآثار بعض الأمراض النفسية ، أما فيما يختص بحدة الحواس فانها تختلف باختلاف درجة التعب ، فهي تنقص في التعب المعتدل ولكنهـــا تزداد في التعب الشديد ٠

ويشاهد النكوص والارتداد الى أشكال بدائية في مجال النشاط الحركي أيضا ٠٠ فالحركات التي كانت متآزرة متضامنة تضطرب وتختل ، ثم تظهر حركات متطفلة تزيد من استنفاد الطاقة بلا جدوى لانهـــا دليل على خفض القـوة السـيكولوجية وتراخي وظائف التعـديل والتنظيم ٠ فيضطرب الفعل ، خاصة عند بدايته ، ويفقد الشخص المنهك القدرة على المبادأة ، ويصبح سلوك العامل المدرب شبيها بسـلوك المبتدىء الذي لم يتم تدريبه ، وكذلك يصبح انهاء الفعل في الوقت المحدد أمرا عســــيرا فيتوقف اما قبل موعده أو بعده ٠

ويؤدي التعب الزائد الى اضطراب الاستجابات للمنبهات الخارجية ، فتصبح الاستجابة في بادىء الأمر آلية أو متحجرة ، واذا زاد التعب يزداد اضطراب السلوك ، وقد يصل الى الحركات التشنجية والصراخ والبكاء ، فيثور الشخص لاتفه الأسباب ، ويستسلم للانفعالات العنيفة ويصـــبح سلوكه أشبه بسلوك الهستيري ٠

ان الآثار التي وصفناها لا تظهر الا عندما يتجاوز التعب حد الاعتدال، ولذلك يجب التمييز بين التعب السوي والانهـاك والارهاق ٠٠ فالتعب السوي يؤدي وظيفة سيكولوجية هامة هي تنبيه الشـــخص بأن عليه أن يرتاح قبل نفاد الاحتياطي من الطاقة ، وقد يبدو من الغريب أن نقرر اننا في حاجة الى بذل كمية من الطاقة لكي ننتقل من العمل الى الراحة ، ولكي نستمتع فعلا بهذه الراحة ٠ اما في حالة الانهـاك يصـــبح طلب الراحة وتحقيقها أمرا عسيرا ٠ ٠ أن المهم ان يرتاح الشخص في الوقت المناسب دون تبكير ولاتأخير ، ولكن ليس في امكان كل شخص تحقيق هذا الوضع الامثل ، فهناك مواقف مهينة تســـبب لدى بعضهم تعبا مبكراً ، لان التعب ليس مرتبطا بالضرورة بكمية المجهود الجسمي الذي يبذل ٠٠

فقد تنقص ساعات العمل وتكون الأعمال أسهل تنفيذا من ذي قبل ، ومع ذلك يزداد التعب المهني ٠٠ وسبب ذلك هو الملل الناشىء عن نوع العمل ٠ ويكون الملل مقاومة جديدة يجب تذليلها بالاضـــافة الى المقاومات التي يتضمنها العمل ذاته ٠

وقد لوحظ أن الملل يؤدى الى نقص الانتاج خاصة لدى العمال ذوى القدرات العالية ، والوسائل التى اتخذت لمحاربة الملل كالاستماع الى مقطوعات موسيقية ، أدت الى رفع مستوى الانتاج والى مقاومة التعب ٠

وكما سبق أن أشرنا فى بدء هذا المقال لاتوجد علاقة طردية بين زيادة ساعات العمل والانتاج ٠

فقد لوحظ فى مصانع زايس فى ألمانيا أن متوسط الانتاج زاد بنسبة ١٦٪ عندما خفض عدد الساعات يوميا من تسع الى ثمانى ساعات ٠٠ ومعنى هذا انه توجد مدة مثلى للعمل ، غير انه يجب أن تذكر أن هذه المدة المثلى تختلف باختلاف الصناعات ٠٠ ثم انه لا يكفى خفض ساعات العمل دفعة واحدة ، بل يجب ادخال فترات قصيرة من الراحة فى الصباح والمساء تتراوح بين خمس وعشر دقائق حسب طبيعة العمل ، وقد وجد أن الانتاج يفيد من هذه الفترات القصيرة من الراحة ، وان نسبة انخفاض الانتاج فى فترة « التحمية » ضئيلة بالقياس الى زيادته ٠

وأخيرا يجب أن نذكر أن الظروف المادية من اضاءة وتهوية وضوضاء وسهولة التحرك تؤثر فى التعب ، فبمعالجة هذه الظروف بالاضافة الى وضع خطة مثلى للوقاية من آثار التعب المنهك ، داخل الاطار العام للصحة البدنية والنفسية للعاملين فى الصناعة ٠

علم النفس والكفاية الانتاجية (٣)*

كل محرك فى حاجة الى ما يحركه ، الآلة فى حاجة الى الوقود أو الى أى قوة محركة ، ولكنها هى أيضا فى حاجة الى العـــامل لتنظيم سيرها وضبط انتـــاجها وحتى الآلة الالكترونية المزودة بأجهزة التنظيم الذاتى تحتاج الى رقابة العامل والعامل بدوره هو بمثابة محرك ولا بد من وجود قوة تحركه وتدفعه الى العمل وتضمن مواصلة نشاطه وهذه القوى المحركة نطلق عليها اسم الدوافع على اختـــلاف أنواعها من حوافز وبواعث ، وقد اصطلح على أن الحوافز مصـــدرها داخلى ، أى الدوافع التى تتوقف على تكوين الانسان جسميا ونفسيا مثل الحاجات العضوية والميول النفسية فى حين أن البواعث مصدرها اجتماعى مثل الثواب والعقـــاب : وحيث ان الانسان يفوق الآلة فى تعقيده ، كيفا وكما اذ هو فى الواقع مجموعة من محركات ، فان الفصل بين الحوافز والبواعث هو مجرد تمييز منهجى لأنها جميعها فى تفاعل مستمر ٠ ولهذا السبب فان الاجابة على سؤالنا : ماهى القوى المحركة للعامل فى نشاطه الانتاجى ليست سهلة كما قد تبدو لأول وهلة ٠

اذا سألنا العامل لماذا تعمل فسيجيب على الفـــور انه يعمل لكسب العيش ٠ اجابة صحيحة لا شـــك فى ذلك ولكنها اجابة مقتضبة ٠ واذا سألناه هل ترضى بالأجر الذى تكســـبه مهما كانت ظروف العمـــل فانه سيتردد أو يجيب صراحة بالنفى ٠٠ ومعنى هذا أن الحصول على الاجر فى صورة مبلغ من المال ليس هو الباعث الوحيد على العمل ، بل ليس هو فى المجتمعات المتطورة اجتماعيا واقتصاديا الباعث الاهم ٠ الواقع اننا عندما نقوم بتحليل موقف العامل فى وسطه المهنى وعلاقاته مع الزملاء والرؤساء نلاحظ ان الاجر الذى يطالب به لا يقتصر على الناحية المادية بل يتضمن نواح معنوية تفوق فى نظره الناحية المادية البحتة ٠

ولا يمكن فى معالجة هذا البحث الخطير الاكتفاء بمـــا يقدمه لنا علم

---

* مجلة « العمل » ، ديسمبر ١٩٦٣ ٠

النفس من حقائق خاصة بدوافع السلوك في ميـــدان العمل . فبعد أن نطالب هيئة المصنع الادارية والهندسية بتحقيق أكثر الشروط ملاءمة لسير العمل وضمان الانتاج العالي المتواصـل لا بد من أن نتجه صـــوب عالم الاقتصاد لكي يجيب على سؤالنا : « **لماذا نعمل** » فضـــــلا على اجابته على سؤال ثان هو : **كيف نعمل ؟**

ان الاطلاع على رأي علمـاء الاقتصـاد في الموضوع الذي نبحثه الآن عظيم الفائدة لا للمتخصصين في علم النفس الصناعي فحسب بل للعمال أنفسهم فقد وجد ان من عوامل الاحباط والتذمر والملل أن يجهل العامل قيمة الدور الذي يقوم به في مجموع الاعمال التي يؤديها المصنع ومدى اسهامه في الإنتاج النهائي وتثقيف العامل ثقافة اقتصادية أولية يسـاعده على فهم وضـــعه داخـــل المشروع الصناعي الذي ينتمي اليه ، وتزويده بالمعلومات الاساسية الخاصة بالاستثمارات والارباح والاجور المباشرة وغير المباشرة يوثق صلته بالمصنع ويقـــوي فيه روح الانتماء للجماعة السليمة للحقائق الاقتصادية ولكل ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية فقد أصبحت اليوم الثقافة الاقتصادية في اطار النظام الاشتراكي المتطور من مستلزمات تكوين المواطن الصالح .

وقد زدت ايمانا بضرورة نشر الثقـافة الاقتصادية الى جانب ألوان الثقافات الأخرى بعد اطلاعي على بعض مؤلفات العـــالم الاقتصادي .. والباحث الاجتـماعي الفرنسي جان فورستييه .. ففي خلال خمس عشرة سنة نشر ما يقرب من عشرين كتابا وبحثا وترجم معظم هـــذه الكتب الى ســبع لغات في ١٤ دولة . وقد ظهرت في بيروت ترجمـــة عربية لكتاب «فورستييه» حضارة عام ١٩٧٥ وحبذا لو ادرجت وزارة الثقافة والارشاد القومي في مشروع المكتبة العربية بعض كتب فورستييه لترجمتها اذ اقتصر المشروع على ترجمة كتابين فقط في الاقتصاد والمالية العامة ، في حين أنه قدم ثلاثين كتابا في العمارة لترجمتها وبعض هذه الكتب موجهة للقارىء العام لمساعدته على فهم المشـــكلات الاقتصادية الكبرى وربطها بالمشكلات الاجتماعية والسياسية .

ويتناول فورستييه موضوع دوافع العوامل في كتابه : «لماذا نعمل» ولكن من وجهة نظر علم الاقتصاد وأرى من المفيد أن ألخص بعض آرائه قبل معالجة الموضوع من وجهة علم النفس .

وأهم الموضوعات التي يعرضها المؤلف هي : ضرورة نشر الثقـافة الاقتصادية بين تلامذة التعليم الثانوي ثم بين الجمهور العام باستخدام جميع

وسائل الاعلام الدافع الى العمل والاسباب التى أدت الى تقسيم العمل والى العمل الجماعى ثم نظام المبادلات والعملة والاجر والربح وأخيرا النتائج التى توصلت اليها الانسانية بعد ثلاثة آلاف قرن فيما يختص بمستوى المعيشة ونوع المعيشة ٠

وتقدم الانسانية فى مجال الاقتصـــاد كان بطيئا جدا حتى ظهـور البحوث العلمية منذ قرن ونصف وعلى الرغم من تقدم البحوث العلمية فى مجال الاقتصاد فان هذا العلم لا يزال متخلفا اذا قيس بالعلوم الطبيعية ٠ والأمر كذلك فيما يختص بالعلوم الانسانية الأخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية وعلوم الادارة وتنظيم العمل ٠ فاننـــا نعرف كيف نطلق الصواريخ عبر الفضاء ونتحكم فى سير الأقمـار الصناعية فى حين ما زلنا نعانى كثيرا من العجز فى تجنب الحروب مهما كان ميدانهـــا محدودا أو تجنب الازمات الاقتصادية ، أو القضـاء على البطالة أو الحد من انتشارها فى البلاد الرأسمالية ٠

سبق أن ذكرنا ان الاجابة على سؤال : لماذا نعمل هى كسب العيش٠ والعالم الاقتصادى يقوم بتحليل هذه الاجابة فيبين لنا ان مايضطر الانسان الى أن يكون له نشاط اقتصادى هو ان الطبيعة لا ترضى حاجات الانسان الا بفضل شغله وجهده ، ثم ان هناك تفاوتا كبيرا ، حتى فى حالة ما يعمل الانسان بين نتائج عمله أى بين الانتاج وبين حاجاته ورغباته الاستهلاكية٠ ومما لا شك فيه ان الانسان ممزق بين نزعتين قويتين : النزعة الى تجنب التعب والنزعة الى توســيع دائرة استهلاكه ٠ وحيث ان الطبيعة لا تمنح خيراتها الا بمقدار ونظير مجهــود كبير يبذله الانســان فان التفاوت بين الرغبات ووسائل ارضائها يولد حتما حالة من التوتر والصراع تؤدى الى بذل مجهودات متناقضة متضاربة تتسبب فى زيادة الخسائر والآلام ٠

ان الطريق المؤدى الى التقدم الاقتصادى وعر عسير المسلك ، وليس من الغريب أن تظل الحياة الاقتصادية ناقصة متخلفة وحياة الانســان من الوجهة الجسمية والعاطفية والمعنوية مليئة بالصعوبات والمتناقضات والآلام٠ فتحسين حياة الانســان من الوجهة الاقتصادية مرهونة بالتحسينات التى يجب تنفيذها فى آن واحد فى مجال الطب والاخلاق والاجتماع والسياسة لأن الوضع الانسانى كل لايمكن تجزئته والا أصابه الاضطراب والخلل .

والموقف الاقتصادى لا يزال يحوى كثيرا من المتناقضات التى لم يتم حلها حتى الآن الا بصورة ناقصة جدا فمثلا تحقيق الكفاية الانتاجية يقتضى

تقسيم العمل والتخصص ولكن تقسيم العمل هذا أدى الى مشكلة المبادلات التى أدت بدورها الى انشاء نظـــام العملة والاجور وهو نظام ناقص كثير المساوىء فالعملة التى انشئت لكى تكون وسيلة لتسهيل التبادل بطريقة مرنة أصبحت غاية فى ذاتها ووسيلة من وسائل الطغيان والقهر • وأخذت المصالح الشخصية تتضارب وتتصارع فبوصفنا منتجين نريد رفع الاسعار لزيادة الأرباح والأجور ونريد خفض ساعات العمل لزيادة ساعات الترفيه، ولكن بوصفنا مستهلكين نريد خفض الأسعار وزيادة الانتاج • وكذلك نجد ان التقدم التكنولوجى حليف قوى غير انه يولد الضوضاء ويزيد من التوتر العصبى ومن عدم الاستقرار فى العمل والمسكن والهجرة من الريف وتضخم الأحياء الصناعية وتكتل السكان فى مساكن غير صحية •• الخ •

ولكن على الرغم من كل هذه الصعوبات يجب أن يكون ايماننا بالعلم التجريبى قويا راسخا اذ بفضله ستذلل كثير من الصعوبات وتتحقق الى حد كبير الملاءمة بين الانسان والطبيعة ولكن بشرط أن يشمل هذا التقدم جميع العلوم الانســانية فكما ان القرن التاسع عشر كان عصر العلوم الطبيعية يجب أن يـــكون القرن العشرون عصر نمو العلوم النفســـية والاجتماعية والســياسية ، عصرا يبشر بظهور تكامل الفكر العلمى والفكر الفلسفى •

واذا انتقلنا الى مجال الدراسات النفسية لمعرفة ما هى دوافع العمل فاننا نرى أن بعضهم يصنف هذه الدوافع بالترتيب الآتى :

١ ــ كسب العيش والخوف من العوز

٢ ــ الرغبة فى رضا المعلم أو الرئيس والخوف من العقاب

٣ ــ الحاجة الى الثناء والتقدير والخوف من الازدراء والتحقير •

٤ ــ الميل الى بذل النشاط والتمتع بالعمل والفرار من الملل •

٥ ــ الواجب الاخلاقى والخوف من تأنيب الضمير •

هذه الدوافع فى معظم الحـالات تعمل معـا ولـكن بدرجات متفاوتة حسب الافراد وحسب الظروف فالعمل ليس نظاما اقتصاديا فقط بل هو نظام اجتماعى فالعامل يسعى لا لكى يحتفظ بمركزه الاقتصادى والاجتماعى فحسب بل أيضا لتحسين هذا المركز • فقد يعترض العامل على أن تحل الآلة محل المهارة اليدوية لا لأنه سيتقاضى أجرا مخفضا ولكن لأنه يأنف أن يكون فقط موردا للآلة بعد ان كان صانعا ماهرا والتمييز الذى يقيمه

عالم الاقتصاد بين مستوى المعيشة ونوع المعيشة يفسر لنا تعدد الحوافز والبواعث التى تدفع العامل الى أن يغير من اتجـــاهاته وأن يتخذ مواقف مختلفة ازاء عمله لا يمكن تفسيرها فى ضوء دافع كسب العيش فحسب • وليس من النادر أن يضحى الشخص بمنافعه المادية ، بل أن يعرض حياته للخطر فى سبيل المحافظة على مركزه الاجتماعى •

وقد بينت التجارب أن الاجر المادى لا يكفى لضمان روح معنوية عالية أو مستوى عال من الانتاج فى الجدول الآتى قائمة من ١٢ باعثا على العمل طلب ترتيبها حسب أهمية كل باعث أجريت التجربة أولا فى آمريكا على مائة موظف كتابى ومائة وخمسين من الشبان يعملون فى ميادين مختلفة• وأجريت التجربة الثـانية فى انجلترا على ثلاثمـــائة وخمس وعشرين من عاملات المصانع • ويلاحظ أن فى التجربة الثانية كانت القائمة المعروضة تحوى فقط عشرة بنود •

الدوافع	٣٢٥ عاملة	١٥٠ عاملا	١٥٠ موظفا
فرصة للترقية	٥	١	١
عمل ثابت	١	٢	٢
فرصة استخدام أفكار شخصية	٧	٣	٣
فرصة تعلم عمل جديد	٨	٤	٤
رئيس جيد	٤	٥	٦
فرصة خدمة عامة		٧	٥
أجر مرتفع	٦	٦	٧
رفاق عمل طيبون	٣	٨	٨
ظروف مريحة للعمل	٢	٩	٩
ساعات مناسبة	٩	١٠	١١
عمـــل نظيف		١١	١٠
عمـــل سهـــل	١٠	١٢	١٢

يتبين من هذا الجدول أن الأجر المرتفع ترتيبه السادس أو الســابع وأن سهولة العمل تأتى فى المرتبة الاخــيرة وأن فرصة الترقية فى المرتبة الأولى بالنسبة الى الرجال لمـا تنطوى عليه هذه الترقية من تقدير مهنى والاجتماعى وكذلك ثبــات العمل الذى يعنى الامن والاطمئنان يأتى فى المرتبة الأولى بالنسبة الى العاملات وفى المرتبة الثانية بالنسبة الى العمال ٠ أما الاختلافات بين النساء والرجال فى الحكم على الاهمية النسبية للدوافع المذكورة فترجع من جهة الى الفروق الجنسية والى اختــلاف بعض ظروف العمل ٠ فالمرأة أميل من الرجل الى الاهتمام بالشئون الاجتماعية والعلاقات الشخصية وبتحقيق شروط الحياة المريحة المنظمة ومن جهة أخرى فهى أقل ميلا من الرجل الى الابتكار والطموح ٠ وهذا واضح من الجدول المذكور كما أن هناك دراسات أخرى عــدة تؤيد هــذه النتائج مع الفروق طبعا التى ترجع الى الضغوط الثقافية والتطورات الحضارية ٠

فـي الفـــــن

الاتجاهات الراهنة فى الفن المعاصر (*)

عندما نواجه مشكلة ما ، سواء كانت صفتها الغالبة سيكولوجية أو اجتماعية ، يمكننا أن نتجه من لب المشكلة ومركزها نحو محيطها واطارها الخارجي ، أو نبـــدأ الاطـــار متجهين تدريجـــا نحو المركز . ولكن هذه التفرقة بين المنهجين ليست حاسمة اذ لابد من الحصول على بعض المعلومات العامة بشأن اللب والاطار معا وبفضـــل التعاون بين هذين النوعين من المعلومات العامة تتضح وتتبلور المعلومات الخـاصة بكل من اللب والاطار ، أى بكل من المركز ومايحيط به .

ففيما يختص بمشكلة الفن يمكن القول بأن العمل الفنى لكل فنان ومايحمله هذا العمل من طابع شخصى من حيث الاسلوب والمضمون يكون لب المشكلة أو مركزها ، فى حين أن الوسط الذى يعيش فيـه الفنان والجو الثقافى الذى يحيط به وسائر الاحـداث الاجتماعية التى تكون الشبكة الحيوية التى تضمه كل هذا يكون الاطار أو مجموعة الحلقات الاطارية التى تحيط بالنقطة المركزية . وكما سـبق أن أشرنا هنــاك تفاعلات متبادلة باســتمرار بين القطب المركزى والاقطاب المحيطـة والصورة المتكاملة للنشاط الفنى لفنان ما ، أو لمدرسة فنية ما ، لاتتم الا بمعرفة هـــذه التفاعلات ذات الاتجاهين الرئيسيين : اتجاه من المركز نحو المحيط واتجاه من المحيط نحو المركز .

ولكن هل يعنى قولنا أن شخصية الفنان من حيث هو فنان ومن حيث هو انسان هى المركز ؟ اننا نرجح أهمية هذه الشـــخصية الفردية على أهمية الاطارات التى تحيط بها . هذا هو اعتقادنا أو على الأقل الفرض الذى سنوجه بحثنا بمقتضاه . لا شك أن هذا الموقف ســـيثير اعتراض علمـــاء الاجتماع ، وتخفيفا لحدة المناقشـــة نود أن نقـــرر أن جميع العوامل من فردية واجتماعية عوامل ضرورية وهامة ، وأن كل فئـــة من العوامل لا تكفى لتفسير الظاهرة الفنية ، شأنها فى ذلك شأن جميع

* « حياتك » ، نوفمبر ١٩٥٩ .

المشكلات الانسانية ، ولكن ما يجعلنا نرجح كفة العوامل الفردية ، وخاصة فى مجال النشاط الفنى ، هو ان العوامل الاجتماعية تشمل جميع الافراد ومشتركة بينهم جميعا وان العامل الذى يؤدى الى التمايز والتفاضل وبالتالى الى خلق أساليب جديدة وتيارات جديدة داخل المجتمع ــ هو العامل الفردى . ولا يكفى لدحض هذا الرأى القول بأن استجابة الفرد ليست سوى رد فعل لتأثير المجتمع عليه لأن رد الفعل هذا ليس حركة آلية بحتة وليس مادة أولية صماء ، بل صياغة سبقها جهد متواصل ومهد لها نضج كامن وتحمل طابع شخصية الفنان . فليس العمل الفنى اذن مجرد ترديد لما هو قائم فعلا فى مجتمع الفنان ، هو بلا شك افصاح عنه ولكنه افصاح يتسم بالجدة والابتكار فضلا على أنه يتسم أيضا بصفة تنبؤية مشيرا بصفة رمزية الى التطور الثقافى أو الفكرى الذى ستتمخض عنه الحالة الراهنة للاوضاع الاجتماعية . وعلى ذلك يكون المحك الفارق بين تأثير كل فئتى العوامل الفردية والاجتماعية ، هو شخصية الفنان بما تمتاز به من خصائص فردية فريدة ، وهذا الرأى أكثر ملاءمة لميدان النشاط الفنى بالقياس الى سائر الميادين الأخرى للنشاط الانسانى لأن ما نبحث عنه فى تقديرنا للعمل الفنى وفى تذوقنا له هو اللمسة الشخصية والرؤية الفردية والتعبير الفريد الذى ينطق به العمل الفنى بصورة أصيلة مخلصة .

ولكن رغم وضعنا العوامل الفردية فى المرتبة الأولى على النحو الذى شرحنا ، لن نبدأ من هذا المركز لكى نتجه نحو الاطار ، بل اننا نشعر أن المنهج الذى سيساعدنا أكثر من غيره على فهم الحركات الفنية هو الذى يقدم لنا نظرة شاملة عن العوامل المحيطة وعن الملابسات الاجتماعية والفكرية المصاحبة لهذه الحركات . وسنبدأ بالتساؤل عن الاتجاهات الراهنة فى الفن المعاصر ، وما اذا كان موقف الفن المعاصر يختلف عن موقفه فى العصور السابقة وما هى أوجه هذا الاختلاف .

لا شك ان الفن قام بدور خطير فى حياة الانسانية منذ أن كان جانبا هاما من نشاط الانسان ساكن الكهوف عندما كان يمزج نشاطه فى الرسم والتلوين بنشاطه السحرى لدفع الأخطار الأرضية والسماوية التى كانت تهدده وتقلقه ولتحقيق شىء من الاطمئنان ازاء القوى الغاشمة التى لم يكن بعد قد تفهم كنهها . ثم لم يلبث الانسان طويلا حتى استشعر بلذة تشكيل الصلصال بعد تليينه بالماء ، وبلذة رسم أشكال الحيوانات

والانسان وتلوينها بما كان يجده من ألوان ترابية ، وكلما زاد قسطه من الاطمئنان والأمان توارت الأغراض السحرية لتفسح المجال للذة الفنية التى يبعثها انشاء الأشكال الجديدة غير أن هذا الجانب الغيبى لم ينعدم أبدا وظل يحيط كالهالة بالعمل الفنى فظل الفن فى خدمة الدين ، خاصة فى الحضارات القديمة وفى العصور الوسطى ثم تعددت اغراضه فأخذ جانب كبير منه يلبى طلبات الطبقات الراقية صاحبة النفوذ والمال . أما السمة السائدة للفن فى عصرنا هذا فهى تحرره التدريجى ومطالبته بشكل من الاستقلال الذاتى فلم يعد خاضعا فى مجموعه للدين أو لأى نوع من الارستقراطية بل أصبح نشاطا قائما بذاته الى حد كبير ، نشاطا يرمى الى التعبير عن جوهر الانسان دون الانفصال طبعا عن المحيط الاجتماعى، ولكنه من ثنايا السياق الاجتماعى لا ينفك يؤكد ذاتيته واستقلاله .

ومما يساعد الفن المعاصر على تحقيق هذا القدر الكبير من التحرر والاستقلال الذاتى — على الأقل فى البلاد التى لا تزال تؤمن بالديمقراطية الحقة — هو سلسلة الأزمات التى انتابت السلطات الدينية والسياسية والمالية التى كانت تسيطر عليه بل الأزمات التى هزت دعائم حضارتنا العصرية وأثارت الشك فى القيم العقلية والمنطقية التقليدية . وحسبنا أن نشير هنا الى آثار الحربين العالميتين وآثار الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٥ وما يشع عنها من خوف وقلق وان نذكر الفلسفات الجديدة مثل الفلسفات اللاعقلية والفلسفات الوجودية التى أطلقت العنان للقوى العاطفية ومجدت الحرية المطلقة ، هذا فضلا على الجولات التى قامت بها نظرية التحليل النفسى الى أعماق النفس البشرية وما كشفت عنه من نزعات لا شعورية متضاربة ومن صراعات اليمة مقلقة .

ونلاحظ من جهة اخرى ان الوسائل العلمية الجديدة فى التصوير الفوتوغرافى بالألوان وفى التسجيل الصوتى وفى النشر والتوزيع فتحت سبلا جديدة تصل الفنان وآثاره بعدد أكبر فأكبر من الناس . فأصبحت كنوز المتاحف العالمية والآثار المعمارية لمختلف الحضارات القديمة والحديثة والمؤلفات الشعرية والموسيقية التى طربت لايقاعاتها المتنوعة ولصورها الفاتنة وللالحان الساحرة العصور المتتالية من أقصى العالم الى اقصاه أصبحت كل هذه الروائع على اختلاف أساليبها ومضموناتها فى متناول يد كل من يريد الاطلاع عليها والاستمتاع بها . وقد سمحت هذه التسهيلات فى النشر والتسجيل بالقيام بمقارنات مفيدة جدا بين الأساليب الفنية المختلفة التى ظهرت على مر العصور وقد أدت هذه المقارنات الى

تغذية الذوق الفنى والى جعله اكثر ثراء ومرونة وتقبلا للاوان الفنية المتباعدة غير المتجانسة ، كما انها أدت الى توسيع الآفاق فى تاريخ الفن وفى النقد الفنى ، ومن اهم نتائج هذه الحركة الواسعة فى التقريب بين العصور وفى المقارنة بين الفنون المتنوعة من نحت وتصوير وعمارة وموسيقى وشعر الخ .. وفى مضاهاة الأساليب بعضها ببعض ، أن تحطم المعيار التقليدى الجمال وأن اضطر الفن الكلاسيكى الذى كان سائدا فى أوروبا منذ عهد النهضة الى أن يفسح المجال الأساليب فنية وطرز انشائية لم تعرفها أوربا حتى نهاية القرن التاسع عشر حق المعرفة ؛ فكانت تحكم على الفن فى العصور القديمة — فيما عدا الفن اليونانى الذى كان مثالا للفن الكلاسيكى — وعلى الفن الشرقى والفن الأسيوى والفن الافريقى والفن المكسيكى القديم والفن البدائى بأنه ناقص ، غير ناضج . بل كانت تنعته بالقبح وعدم الذوق . وهذا انقلاب خطير فى نظرتنا الى الفن فلم يعد مضمونه هو المضمون الكلاسيكى التقليدى المحدد حضاريا وزمانيا بل أصبح له مضمون أوسع وأعمق .

وقد تبدو الصورة العصرية للفن نظرا لما تحويه من ألوان واساليب متعددة وما توحى به من أجواء مختلفة ، قد تبدو لأول وهلة مفككة غير منسجمة النواحى غير أنه يمكن التغلب بسهولة على هذا الاحساس اذ وراء تعدد الوجوه وتضارب الجوانب تقوم وحدة حية ديناميكية ، ليست هى وحدة الأسلوب ، كالأسلوب الكلاسيكى مثلا ، ولا هى الوحدة التى تمليها اتجاهات غريبة عن الفن ، سواء كانت هى صادرة عن سلطة دينية أو أيديولوجية أو سياسية ، بل هى الوحدة التى تنبع عواملها من داخل النشاط الفنى نفسه بفضل شعور الفنان بذاتيته . فقد أدرك الفن ذاته بدرجة من الوعى والشعور أكبر من ذى قبل ، وأدرك جوهر الرسالة التى يقوم بتأديتها وهى التعبير الصادق — بلغته الخاصة — عما يميز انسان القرن العشرين وموقفه من المشكلات الأساسية الخاصة بوجوده ومصيره ، ودليل جديد يضاف الى الأدلة التى ذكرناها على حدوث هذا الانقلاب الخطير فى تناول الفنان لفنه ولرسالته بالتفكير والتأمل ، فقام هو بدوره يحلل الخطوات التى يخطوها فى تصور عمله والتعبير عنه ، فأضاف الى عمله كمبدع عمل الناقد والفاحص دون أن يطفىء هذا الاتجاه التحليلى والنقدى جذوة الالهام ودون أن تصاب حركته الابداعية بأى تعثر أو ابطاء . وعلى ذلك لم يعد التأمل فى الفن وفى أساليبه ومضمونه من اختصاص الفيلسوف الذى يخضع فى تفكيره لمذهب معين ، بل أصبح ما يسمى بعلم الجمال أو بعبارة أدق الاستطيقا دراسة قائمة

بذاتها تستمد أصولها ومبادئها ومنهجها من النشاط الفني نفسه لا من أي فلسفة من الفلسفات القائمة · وقد تؤدي هذه الدراسة الاستطيقية المستقلة الى الايحاء بفلسفة جديدة أو على أقل تقدير الى تطوير الفلسفة وتغذيتها برؤيا جديدة شأنها في ذلك شأن الدراسات العلمية التي تطبع فلسفة كل عصر بطابع الاتجاه العلمي السائد .

وهنالك سمة أخرى للحركة الفنية المعاصرة يمكن الكشف منها عندما تنظر الى موكب الفنون المختلفة وتطور كل فن بالنسبة الى الفنون الأخرى .. لا شك انه يوجد نوع من التجاوب والتناظر بين الفنون وقد يسير تطور فن من الفنون في خط مواز لتطور فن آخر وبايقاع واحد ، وقد يتصدر فن ما بقية الفنون في حركة التطوير كما أنه قد يتخلف فن في تطوره عن موكب الفنون الأخرى .. ونود الآن (١) ١ ـ أن نشير بايجاز الى المحك الذي يسمح لنا بالحكم على مدى التجاوب بين الفنون المختلفة ، ٢ ـ وأن نتتبع تطور الفنون منذ القرون الوسطى حتى عصرنا هذا للكشف عن الأسلوب الذي كان سائدا في كل عصر من العصور ولمعرفة الفن الذي كان رائد الموكب في كل مرحلة من مراحل التطور ، ٣ ـ وأخيرا أن نحدد ، في ضوء ما سبق ، موقف الفن المعاصر من حيث التجاوب بين الفنون المختلفة وما اذا كان هنالك فن بالذات أخذ يتزعم بقية الفنون ويقوم بالتأليف بينها وتوجيهها نحو الأسلوب الذي قد يسود في المستقبل القريب ، وبهذه الطريقة نكون قد طبقنا المنهج التكاملي الذي يرمي الى الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل والى التأليف الوظيفي بين وجوه النشاط المختلفة .

ان الفنون التشكيلية والموسيقى والشعر والأدب وسائل تعبيرية تحرك النفس وتثير فيها شتى العواطف والمعاني كل فن بأسلوبه الخاص وقد تتجاوب هذه التعبيرات بفضل ما يوجد بينها من عنصر مشترك . وقد يكون هذا العنصر المشترك هو الموضوع الذي يتناوله كل فن في عصر من العصور . فنجد مثلا أن في عصر النهضة وحتى القرن السابع عشر كانت الموضوعات السائدة مستمدة من الأساطير ومن الأحداث التاريخية في عهد اليونان والرومان . فكان الأدباء والشعراء والمصورون ومؤلفو موسيقى الأوبرا يستلهمون التراث القديم . وكذلك نجد في العصر

---

(١) سنكتفي هنا بالرد على هذا السؤال الأول مرجئين الاجابة عن السؤالين الثاني والثالث الى المقالة القادمة .

الرومانتيكي في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن الفنون تتجه نحو الشرق تستمد منه الهامها فقصائد الشاعر فيكتور هوجو في «الشرقيات» تتجاوب مع لوحات فيلاكروا Delacroix التي تمثل مذابح خيو أو نساء الجزائر او حفلة زواج في المغرب ، كما أن «ليالي» الشاعر الفرد دي موسيه Alfred de Musset تتناغم مع ألحان « ليليات » شوبان Chopin وكما ان «الام فرتر» لجوته Goethe ستتردد اصداؤها في السيمونية الثالثة لبيتهوفن Beethoven ونجد كذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سيطرة النزعة الواقعية والوضعية في قصص فلوبير وزولا Zola وفي لوحات كوربيه Flaubert غير أن « الموضوع » ليس مبدأ عاما للتاليف بين الانتاج الفني في عصر من العصور ، فقد يستلهم الفنان الموضوعات التاريخية والشرقية ولكنه يشذ في أسلوبه عن أساليب معاصريه . فالمصور انجر Ingres مثلا في لوحته « الحمام التركي » يظل مخلصا للاسلوب الكلاسيكي مع انه عاصر الحركة الرومانتيكية . فمن الأولى اذن ان نشير الى الجو الوجداني والفكري الذي يسود عصرا من العصور ونعتبر هذا الجو هو الحد المشترك الذي يربط بين الفنون بعضها ببعض . فمثلا القرن السابع عشر في فرنسا يتصف بالاعتدال والتوازن والمنطق والعظمة الهادئة الساكنة في حين ان الجو في عهد روسو Rousseau يميل الى النحيب والخيال والانسياب العاطفي ، بينما يتميز عهد فكتور هوجو بالبطولة والطموح والالتهاب والانفعال واذا كان من اليسير أن تطبق هذه المعاني في الأدب والشعر لاننا نعبر عنها بالألفاظ نفسها التي يستخدمها الأديب أو الشاعر فكيف نعمم تطبيقها على الموسيقى أو التصوير اذ أن الأولى تستخدم الأنغام والثاني الخطوط والأشكال والألوان ؟ فلابد اذن من ايجاد صورة تعبيرية مشتركة بين مختلف الفنون ، أو بعبارة أخرى ايجاد العامل الذي سيحول الصور اللفظية والصور الصوتية والصور التشكيلية الى صور متكافئة متبادلة . فاذا وفقنا الى الكشف عن التكافؤ الصوري أو التعادل الشكلي فاننا نكون قد وجدنا الأساس الذي سنقيم عليه هذه التجاوبات والتناظرات التي توحد بين الفنون دون المساس بالطابع الفردي الذي يميز كل فن عن غيره .

ولكي نفهم ما نقصده بالتكافؤ الصوري سنورد هنا بعض الأمثلة . لنقارن مثلا بين فن المعمار وفن الحدائق والمسرح والموسيقى في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر . فالأسلوب السائد في

جميع هذه الفنون هو النظام والتوازن والتناظر . والقانون العام المسيطر على هذا الأسلوب هو ضرورة تقييد الحركة وعدم السماح لها بتجاوز حدود مرسومة من قبل ، والشكل الخارجي هو الذي يحدد المضمون لا العكس . فالمسرحية الكلاسيكية خاضعة لقانون الوحدات الثلاث : وحدة الموضوع أو الحدث ، وحدة المكان ، وحدة الزمان — وفي المعمار يخضع لقانون ترتيب الأجزاء الداخلية ، وفي الموسيقى يحلل لولي Lulli افتتاحية الأوبرا بقسميها الى اقسام ثلاثة منتظمة : حركة بطيئة ، حركة سريعة ثم العودة الى الحركة البطيئة (١) .

ولنقارن الآن بين الموسيقى والتصوير في عهد الرومنتيكية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولنتساءل ما هو الحد المشترك بين موسيقى شوبان Chopin ولوحات ديلاكروا Delacroix فنجيب بأنه تغلب اللون على الرسم . فالرسم يحدد بخطوطه المغلقة المساحات والأبعاد ، والشكل الذي يقدمه الرسم هو أكثر تجريدا من الشكل الذي توحي به الألوان غير المحصورة داخل خطوط صارمة ، فاللون هنا يقتحم ما يمكن اقامته من حدود وخطوط مغلقة والاهتزازات التي توحي بها الألوان هي التي تثير فينا الاحساس بالحركة ، فالصورة الرومانتيكية مفتوحة وليست مغلقة ، أن ما توحي به هو أكثر مما تعبر عنه ، بعكس الصورة الكلاسيكية التي يتعادل فيها ما تعبر عنه وما توحي به ، أي انها لا توحي بشيء أكثر مما تعبر عنه .

ومن السهل أن نكتشف التكافؤ الصوري أو الشكلي بين تصوير ديلاكروا وموسيقى شوبان فعند شوبان يلعب اللون دورا رئيسيا والمقصود باللون هنا هو هذه التمايلات الايقاعية اللطيفة ، ثم الانتقالات السريعة من مقام الى مقام آخر وانسياب الالحان بعضها على بعض دون أن تفقد المقطوعة الموسيقية بناءها الخاص ، ولا شك أن موسيقى شوبان توحي بآلام النفس الرومانتيكية وقلقها أكثر مما توحي به موسيقى موزار أوهيدن .

واذا انتقلنا الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر نجد تعادلا كبيرا في الشكل وتجاوبا صادقا بين موسيقى ديبوسي debussy ولوحات الانطباعيين impressionnistes أمثال مونيه monet وبيسارو Pissarro وسيسلي Sisley وقد وصفت موسيقى ديبوسي بأنها انطباعية

---

(١) حبذا لو استمع القاريء من حين الى آخر الى البرامج الموسيقية في البرنامج الثاني للاذاعة ، والى تحليل الاعمال الموسيقية .

لأنه أطلق على بعض أعماله أسماء شبيهة بالأسماء التى استخدمها المصورون الانطباعيون مثل « انعكاسات فى الماء » « حديقة تحت المطر » ولكن لأنه قام بثورة وجدانية وعقلية ضد موسيقى فجنر Wagner ذات التأثير المسرحى المصطنع كما ثار الانطباعيون فى التصوير ضد حماسة الرومانتيكيين وجموحهم . فمرونة الايقاعات وتنوعها فى موسيقى ديبوسي تخلق جوا لطيفا مخلخلا مرنا لا جمود فيه يدعو الى الاستسلام للخيال والأحلام ، ولوحات الانطباعيين بتحليلهم للاضواء والألوان وباستبعادهم للألوان القاتمة غير الصافية تقدم لنا أجواء تهتز بما تشعه من نور وبما تحويه من انعكاسات ضوئية لطيفة .

وعلى ذلك فالحد المشترك بين الفنون التى تتجاوب ليس هو الموضوع – اذ يكاد الموضوع ينعدم فى بعض الأعمال الموسيقية والتشكيلية – بقدر ما هو الجو العاطفى والعقلى السائد ، وما يحدد هذا الجو هو ما سميناه بالتكافؤات الشكلية . ولهذه النتيجة أهمية كبرى لوضع أسس النقد الفنى ولتربية التذوق الفنى ولاقامة الاستطيقا – أى علم الجمال كما نقول عادة – على أسس مستمدة من طبيعة النشاط الفنى ذاته ، لا من أية فلسفة تتطوع من الخارج أن تفرض أحكامها على هذا النشاط . وعندئذ سنقلع عن هذه العادة السيئة التى تجعلنا نتساءل أمام بعض لوحات الفن المعاصر أو عندما نستمع لبعض السيمفونيات : ما معنى هذا ؟ منتظرين ان يجيب علينا الفنان بسرد قصة مشوقة أو بالقاء موعظة أو خطبة حماسية . مايجب أن نستوضحه أولا هو القيم الشكلية والمضمون الشكلى اللازم لطبيعة كل فن ، ثم لنا أن نستشعر الجو العاطفى أو الفكرى الذى يحيط بالعمل الفنى وأخيرا – اذا أردنا مواصلة الحديث واذا استغوتنا الثرثرة – قد نبحث عن المضمون الخارجى أو عن الموضوع وأن نقول : ما معنى هذا ؟ ولكن اذا تتبعنا هذا التسلسل الذى ينقلنا من الشكل الى المضمون الداخلى ثم الى المضمون الخارجى نكون قد أشبعنا منذ المرحلة الأولى رغبتنا فى الفهم الفنى الحق الأصيل .

التحليل النفسى والابداع الفنى (*)

المقصـــود بالتحليل النفسى نظرية فرويد وأتباعه ، أما نظرية أدلر ونظرية يونج فتعرف الأولى بعلم النفس الفـــردى والثانية بعلم النفس التحليلى . ولكل واحدة من هـــذه النظريات الثلاث مجالات تطبيقية فى الفنون والآداب ، سواء لتحليل شخصية الاديب وتأويل آثاره ، أو للربط بين تكوين الشخصية ومضمون العمل الفنى . غير أن أكثر هذه النظريات تأثيرا فى الدراســات الجمالية والنقد الادبى أو الفنى هى نظرية التحليل النفسى .

ويتضمن التحليل النفسى النواحى الثلاث الآتية : منهج بحث يتناول بصفة خاصة العمليات النفسية اللاشعورية التى تنشط فى الاحلام والتى تكمن فى الأعراض العصـــابية ، طريقة لعلاج الأمراض النفسية ، نظاما متسقا من المعلومات والمفاهيم لتفسير السلوك ونشأة الشخصية وتطورها .

* * *

وحيث ان العمل الفنى مظهر من مظاهر السلوك ، فانه يمكن محاولة تفســيره بمفاهيم التحليل النفسى كأى مظهر سلوكى آخر ، ومحاولة ربط شخصية الفنان بأثره الفنى من حيث هو يعبر بطريقة رمزية عن هـــذه الشخصية ، وخاصة عن بعض دوافع السلوك الشعورية وغير الشعورية . وقد قام فرويد نفسه بهذه المحاولة فى المقــال الذى نشره عام ۱۹۰۷ عن الهذيان والاحلام ، فى القصة القصيرة « جرافيدا » للأديب ينسن . والمبدأ الذى اعتمد عليه فرويد هو أن الاحلام التى يتخيلها الاديب ويصورها فى قصته قابلة للتأويلات ذاتها التى نفسر بها أحلام الليل ، أى أن العمليات اللاشعورية التى تؤثر فى صياغة الاحلام هى ذاتها التى تعمل وراء النشاط المبدع للشاعر أو للقصصى .

والعلاقة القائمـــة بين الاديب وعمله علاقة مزدوجة ذات اتجاهين :

(*) مجلة «حياتك» ، فبراير ۱۹٦۱ .

يمكن من تحليل العمل وتفسيره القاء الضوء على بعض اتجاهات الاديب ودوافعه وماقد يعانيه من صراعات نفسية ، كما أن معرفة حياة الأديب وخاصة الخبرات التى مر بها منذ طفولته تساعد على تحليل الأدب ، بأن توضح لنا الأسباب التى دفعت الأديب الى طرق بعض الموضوعات دون غيرها ، والى اختيار بعض الصور والتشبيهات دون غيرها والى صياغة اسلوبه بشكل خاص •

وقد يجدر بنا قبل الشروع فى تطبيق التحليل النفسى فى مجال النشاط الفنى ، أن نتبين أهم الاسس والمفاهيم التحليلية النفسية • فالمبدأ الاساسى الذى يلح فرويد فى تأكيده هو حتمية السلوك ، أى أن أفكار أى شخص وعواطفه وأفعاله وتصرفاته فى لحظة ما ، تتوقف توقفا تاما على تطور دوافعه الشخصية وتشكيلها خلال الخبرات التى سبق أن عاناها ، كما أنها تتوقف على كيفية ادراكه الموقف الذى يحيط به •

وهذا المبدأ الاساسى يؤدى الى تأكيد الدور الهام الذى تقوم به الطفولة الأولى فى تكوين الشخصية • ويخضع هذا التكوين لتأثير عاملين أساسيين: النزعات الغريزية من جهة وأهمها الجنسية والعدوانية ، وطبيعة الموقف السيكولوجى والاجتماعى من جهة أخرى •

ويتمخض التفاعل بين هذين العاملين عن تكوين أركان الشخصية الثلاثة : الهو ، أى مجموعة الغرائز والدوافع اللاشعورية ، الانا ، أى مجموعة الوظائف الشعورية والادراكية والمعرفية بالاضافة الى الوسائل الدفاعية اللاشعورية ، الانا الاعلى ، وهو يتكون بتمثيل القوى المانعة والسلطات الناهية التى يصطدم بها الطفل أثناء نموه ، وهو مصدر رجاع الادانة والتأنيب والعقاب الذاتى والمنع والكف وايلام الذات •

ونظرا لتباين مصادر الشخصية ومواردها ، ونظرا لترجح الشخص بين قطبى اللذة والواقع ، لا تلبث الشخصية طويلا حتى تصبح مجالا للصراعات النفسية وشتى ألوان الاحباط والحرمان ، ومعظم هذه الصرعات لا شعورية ، كما أن معظم عناصرها يظل الشخص يجهلها وان كان يعانى شعوريا نتائج هذه الصراعات • ويحاول السلوك خفض حدة الصراع أو حله بواسطة عمليات دفاعية مختلفة ، كالاسقاط والابدال وأحلام اليقظة والتخييلات والارضاءات الرمزية والتبرير والاعلاء •

والعمل الفنى — كسائر الأعمال الأخرى — قابل للتحليل والتفسير فى ضوء شبكة العلل والمعلولات التى تكون تاريخ الشخص منذ ولادته •

وللعمل الفنى كما أن للأحلام مضمونين : المضمون الصريح والمضمون الكامن ٠ ومهمة التحليل النفسى والأدبى تأويل الرموز التى يصـــطنعها الاديب ، وذلك للكشف عن المضمون الكامن ٠

وعندما يقـــارن فرويد بين الفنان والمريض نفسيا ، يرى أنهمـــا يتشابهان من جهة ويختلفان من جهة أخرى ٠ أما وجه الشـــبه فهو أن الاثنين يفران من الواقـــع الاليم ويلجآن الى عالم الخيال ، حيث يجدان ما يرضى نزعاتهما ارضاء بديلا رمزيا ٠ أما وجه الاختلاف فهو أن الفنان وحده قادر على أن يعود من جديد الى عالم الواقع ، وأن يواجه جمهوره بما أبدعه من آثار وأعمال ، وأن يحمله على أن يشاركه فيها وجدانيا وعاطفيا ٠ وليس الباعث الى هذه المشاركة سوى اللذة التى يستشعرها الجمهور من جراء ارضاء نزعاته ورغباته اللاشعورية بتأثير العمل الفنى فى نفســه ٠ أما سلوك المريض نفسيا فانه يتسم بطابع نرجسى غير اجتماعى ، مما يجعله غير قابل لتحقيق التواصل مع الآخرين ٠ وبعث المشاركة الوجدانية الا اذا كان الملتقى هو أيضا مريضا نفسيا ٠

* * *

تلك هى أهم المبادىء والمفاهيم التى صاغها التحليل النفسى لتفســير السلوك ، والتى يستخدمها المحلل عندما يتحول الى ناقد أدبى للكشف عن المضمون الكامن فى العمل الفنى ٠ فهذا العمل أشبه ما يــكون باختبارات الشخصية التى تعرف بالاختبارات الاسقاطية التى تكشف عن ســـمات الغموض واتجاهاته ، خـــلال اجاباته عن الاســـئلة أو خلال استجاباته للمواقف الغامضة التى تقدمها صور الاختبار وأشكاله ٠

والواقع أن معظم الدراسات التى عملت فى ميدان تطبيق التحليل النفسى فى النقد الأدبى ، كانت دراسات تحليلية أكثر منها أدبية ، اذ كانت ترمى خاصة الى تشخيص سمات شخصية الأديب ، والى الكشف عن الصراعات النفسية التى دفعته الى اختيار موضـــوعه الذى كانت معالجته وسيلة لعلاج الأديب من صراعه ٠ والمحور الذى تدور من حوله تحليلات الباحث كان دائما عقدة أوديب ، كما تتجلى فى المواقف الثلاثية التى تضم العاشق والمعشوق والمنافس ٠ وكثير من البحوث التى قام بهـــا المحللون تقتصر على هذا الاتجاه الوحيد ، الذى ينتقل من العمل الفنى الى صـــاحبه للكشف عن عقده ومكنوناته اللاشعورية ٠ أننا نشاهد هذا الاتجاه فيما كتبه فرويد نفســـه عن شكسبير ودوستويفسكى ، وفى بحوث رانك عن عقدة

أوديب فى إعمال الشـــعراء عبر القرون ، وتحليل جونس لشـــخصية شكسبير خلال شخصية هملت ، ودراســـة الدكتور لافورج للشــــاعر الفرنسى بودلير ودراسة مارى بونابرت للشاعر الامريكى ادجار بو ٠

وقد هوجمت هــذه البحوث هجوما عنيفا ، سواء من علماء النفس التجريبيين أو مؤرخى الأدب ونقاده ٠ وتتلخص أوجه النقد فيما يلى : قيام التفسير على عامل واحد هو عقدة أوديب ، افتراض عمومية هذه العقدة ثم تعميم التفسير بها على جميع الأعمال الفنية ، انكار نوعية النشاط الفنى وعده مجرد تعبير عن الاندفاعات الجنسية المكبوتة ، وأهم نقد فى نظر رجال الأدب هو أن البحوث التحليلية الأدبية لم تزودنا بمفاهيم أدبية حقة تبرز خصائص العمل الأدبي من حيث هو عمـــل فني ، وارجاع المتعة الجماليه الفنية الى ضرب من المتعة الجنسية ٠

ان هذه الانتقادات جديرة بالاعتبار ما دامت البحوث التحليلية لم تنجح فى القاء الضوء على عملية الابداع الفنى ذاتها ، خاصة وانها لم تهتم الا بمضمون العمل الفنى وأهملت الشكل ، بل فصلت بين الشكل والمضمون فى حين أن الاثنين متلازمان لا يمكن أن يتعين أحدهما دون الآخر ٠

وقصور نظرية التحليل النفسى عن أن تحقق أهداف النقد الأدبى والفنى وعن أن تقدم لنا أساسا صالحا للتقدير الجمالى ، يمكن أن نلمسه فى كثير من الأعمال الأدبية من قصص ومسرحيات ، التى أخذت تظهر ابتداء من العقد الثانى من هذا القرن ، والتى اســـتوحت بطريقة مباشرة بعض المفاهيم التحليلية ، وبخاصة عقدة أوديب لاقامة حبكة الرواية ٠ فقد حكم النقاد على هذه الأعمال بالضعف والتصنع ، لان العمل الفنى لا يمكن أن يبدأ من أساس نظرى ، ثم يحاول الأديب خلق الحوادث التى تتلاءم مع هذا الأساس النظرى ، ثم التعليق على هذه الحوادث بتأويلات مستمدة من تحليل المحللين النفسيين للحالات المرضية التى يشاهدونها فى عياداتهم ان المعلومات ــ مهما كانت غزيرة ــ لا يمكن أن تقوم مقام عبقرية الأديب ٠ يجب أن يكون الأديب أديبا وفنانا أولا ، وعندئذ يصـــبح فى قدرته أن يخلق فى قصته ، أو فى مسرحيته ، جوا يوحى ، بطريقة غير مباشرة ــ بجو الآراء التحليلية النفسية ٠ هذا ما صـــنعه أديب أصيل مثل جيمس جويس ، أو لورنس ، أو توماس مان ٠

ولكن ــ بصدد هذا النقد الموجه الى تطبيق التحليل النفسى فى مجال الأدب والفن ــ يجب أن نذكر هنا أن أتباع فرويد كانوا أكثر مبالغة وأقل

حذرا من أستاذهم • فلا بد أن نذكر ، انصـــافا لفرويد ، أنه اعترف فى كتابه « حياتى والتحليل النفسى » أن التحليل النفسى عاجز عن أن يلقى أى ضوء على مشكلتين من المشكلات التى يتناولها علم الجمال والنقد الفنى : المشكلة الأولى هى الخاصة بتجلية الموهبة الفنية ، والمشكلة الثانية خاصة بالكشف عن الوسائل التى يستخدمها الفنان لصياغة عمله الفنى • أو ، بعبارة أخرى : التحليل النفسى عاجز عن أن يحل مشكلة الابداع الفنى من حيث هو عملية سيكولوجية تؤدى الى خلق صور ومعان جديدة مبتكرة • ويقول فرويد أيضا فى المقدمة التى كتبها لكتاب مارى بونابرت عن ادجار بو فى عام ١٩٣٣ : « تدعى مثل هذه البحوث تفســير عبقرية المبدعين ، بل توضح العوامل التى أيقظت هذه العبقرية ، ونوع الموضوع الذى فرضــه القدر عليها • »

❋ ❋ ❋

يتضح لنا مما سبق أن الشرط الأساسى ــ لكى تصبح مســـاهمة التحليل النفسى مجدية فى تجلية سر الابداع الفنى ــ هو الجمع بين النظرة الاستطيقية ، أى الجمالية الفنية ، والنظرة السيكولوجية ، وتضـــافر النظرتين كفيل وحده بدراسة التفاعل بين شكل العمل الفنى ومضمونه ، والتفاعل بين شخصية الفنان وعمله ، مع الوقوف طويلا عند العمل الفنى فى حد ذاته لتحليل خصائصه الشكلية الفنية •

وقد فطن يونج ، وهو مؤسس مدرســة علم النفس التحليلى ، الى عقدة المشكلة التى نحن بصددها • فهو يقول فى « دراساته فى علم النفس التحليلى » ما يلى : « ان ممارسة الفن نشاط سيكولوجى أو نشاط انسانى صادر عن بواعث نفسية ، وبما أنها كذلك فهى موضوع للدراســـات السيكولوجية بل يجب أن تكون موضـــوعا لها • وهذا التقرير يعين بوضوح الحدود التى يمكن أن تطبق فيها وجهات نظر علم النفس : هـــذا الجانب فقط من الفن الذى يتضمن عمليات النشأة الفنية يمكن أن يكون موضوعا لمثل هذه الدراسات النفســـية ، أما ما هو خاص بماهية الفن فلا يدخل فى نطاق علم النفس • وهذا الجانب الأخـــير الذى يحاول أن يعرف كنه الفن ذاته لا يمكن أن يخضع أبدا للتحليل السيكولوجى ، بل فقط للتحليل الجمالى الفنى » • ويريد يونج بهـــذا القول أن يؤكد نوعية النشاط الفنى واستحالة ارجاعه الى أنواع أخرى من النشاط كاللعب مثلا أو الجنس ، وأن للدراسات الجمالية وللدراســات الفلسفية فى طبيعة الفن استقلالها الذاتى ، وان كانت تستعين بما تمدها به من معلومات وحقائق العلوم النفسية والاجتماعية •

وتتمثل هذه النظرة الواسعة التكاملية فى بحوث السيكولوجى السويسرى شارل بودوان ومن أهم مؤلفاته « الرمز لدى الشاعر البلجيكى فرهاريرن » « التحليل النفسى للفن » ، « فكتور هوجو فى ضوء التحليل النفسى » ؛ وفى كتاب شارل مورون « مدخل الى دراسة الشاعر الفرنسى مالرميه فى ضـوء التحليل النفسى » • كما أنهـا تتمثل فى مؤلفات الفيلسوف الفرنسى جاستون باشيلار عن الأديب الفرنسى « لوترياموں » وعن التخييلات التى تدور حول النار والماء والهواء والارض وعلاقتهـا بالرؤيا والاحلام • وسوف نرى فى مقالنا القادم مدى مسـاهمة هـذه البحوث الجديدة فى اثـراء النقد الأدبى والفنى وفى تجلية سر الابداع الفنى •

حول مشكلة الالهام (*)

ان لغة العلم ولغة الفن على طرفي نقيض ، فبينما يمكن ترجمة الحقائق العلمية من لغة الى لغة دون التباس أو غموض أو تشويه نجد أن أى تعبير فنى لايمكن نقله من لغته الاصلية الى لغة اخرى دون أن يفقد طابعه الفنى الأصيل . من المحال مثلا ترجمة الشعر دون أن يفقد شاعريته ، لأن هذه الشاعرية لاتكمن فقط فى المعانى بل تكمن أولا واصلا فى الوزن والايقاع ، وحيث ان الوزن أو الايقاع أو الجرس أو النبر يتوقف على صيغة الألفاظ ونظام تتابعها فمن المتعذر تحقيق التطابق التام بين الأصل والترجمة .

وتستخدم لغة الفن ألفاظا يصعب تحديد معناها لأنها توحى ولاتفصح وتظل محاطة بغمامة من الغموض . وينبعث من بعض هذه الألفاظ سحر غريب يخطف القلب خطفا ويخدر العقل تخديرا ولفظ الالهام من الألفاظ الساحرة المخدرة . وقد حاول علم النفس تجلية حال الملهم وتفسير عملية الالهام بارجاعها الى أصولها ومواردها غير انه اصطدم فى نهاية الأمر بمعنى آخر أكثر غموضا من الالهام ذاته هو معنى اللاشعور . والواقع أن جانبا كبيرا من مشكلة الالهام يدخل فى نطاق مشكلة اللاشعور ، ولاشك فى أن الانوار التى سلطت أخيرا على غياهب اللاشعور تكشف لنا عن بعض الأسرار الكامنة في موارد الالهام وينابيعه .

ويبدو لنا ان أحكم منهج لتناول مشكلة الالهام هو محاصرتها من الخارج أولا ثم الاقتراب تدريجيا من لبها وصلبها بتحليل نفسية الفنان عندما يقول عن نفسه أنه الهم كذا او كذا . والمقصود بعملية المحاصرة من الخارج الوقوف على مااصطنعته اللغة من الفاظ وما اعتمدت عليه من تشبيهات للتعبير عن عملية الالهام أو مايجرى مجراها . والتحليل اللغوى للألفاظ والمعانى منهج سليم لأن لغة كل قوم تلخيص للخبرات وتكثيف لما تعانيه النفس من أحوال وكيفيات وقد قيل من قبل ان اللغة سيكولوجيا متحجرة .

(*) مجلة «حياتك» ، يناير ١٩٦١ .

وقبل أن نذكر معنى «ألهم» كما جاء فى القواميس نود أن نشير الى أن ألفاظ اللغة لم توضع كلها بطريقة اختيارية بحتة كما توضع رموز الجبر مثلا ، بل هناك أحيانا رابطة أو وجه شبه بين الأصوات والمعانى ، اى أن لبعض الاصوات صفة فراسية توحى فورا بالمعنى وتعبر عنه بصورة حسية ملموسة : أصوات توحى بأنواع من الحركات كالتسلسل والتعاقب ، والسرعة والبطء ، واليسر والعسر ، والتردد والانسياب الخ .. كما أنها توحى بصفات دون غيرها كاللين والصلابة ، والدقة والغلظ والرقة والفظاظة الخ ... فلنتأمل مثلا فيما توحى به أصوات الحروف التى يتكون منها لفظ « ألهم » : فلاصدار صوت اللام والهاء لابد من ان يظل الفم مفتوحا فى حين أن الميم تقتضى أولا اغلاقه بضم الشفتين ثم فتحه . وللنطق باللام لابد من اشتراك اللسان وتحريك طرفه نحو مقدم الحنك مع بذل قدر من المجهود ، فى حين أن اللسان يسكن عند النطق بالهاء ويصدر الصوت بحركة زفير أو شهيق أشبه ماتكون بالصوت الذى يصدره المرء فى حالة الدهشة أو التعجب أو التأوه أو حدوث الفهم دفعة واحدة . فلدينا اذن فى بادىء الامر حركة وجهد ثم مرور النفس ثم الضم . وهذه المعانى متمثلة كلها أو بعضها فى معنى الالهام فى كثير من اللغات ففى اللغة العربية نقول لهم الشىء ابتلعه ولهم الماء جرعه وألهمه الشىء أبلعه اياه . وفى اللغة الفرنسية أو الانجليزية يفيد لفظ **Inspiration** وهو ترجمة الهام معنى نفخ الهواء الداخل . وعلى ذلك يكون الشخص الملهم هو من يتلقى دون تعمد منه ودون أن يعرف تماما مصدر الخاطر الذى يرد فى ذهنه فيعزوه الى الآلهة أو الى ربات الشعر أو الى الجن .

ونلاحظ أن كتب اللغة تستخدم صيغة المجهول عند تعريف الالهام . فيقول الجرجانى فى تعريفاته : الالهام هو مايلقى فى الروع بطريق الفيض . وقيل الالهام ماوقع فى القلب من علم . وهناك وجه شبه بين الالهام والايحاء فيقول الجرجانى فى تعريف الايحاء : القاء المعنى فى النفس بخفاء وسرعة . ونجد فى كتب فقه اللغة الفرنسية تقارب المعنى بين الالهام والايحاء والايعاز والايهام والاغراء فكأن المستمع يكون الى حد كبير مسلوب الارادة عاجزا عن منع الفكرة من أن تتسلل الى القلب والفؤاد فيجد نفسه يتكلم أو يعمل مدفوعا بقوة خارجية غريبة . وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى فى محاورة «أيون» عندما يقول لنا ان الشاعر يكون فاقد العقل عندما ينشد شعره الغنائى وهو شبيه بكهنة سيبيل ، آلهة قوى الطبيعة ، عندما يعتريهم الهذيان أثناء الرقص ، والشاعر شىء

لطيف خفيف مقدس وهو يظل عاجزا عن الابـداع مالم يلهمه الاله حتى يصبح مفتونا مسحورا ٠

ويتردد هذا المعنى على أفواه الشعراء فيقول بعضهم ان الشـعر جنون جميل أو حمى جميلة ، وأن الالهام هتر وهذيان ويقول الفيلسوف نيتشه ان الشاعر هو صـوت القوى العلوية وأن الالهام هو من قبيل الكشف والوحى والاطلاع على ماوراء الحجاب من المعانى الغيبية على حد قول الصوفية . ان النفس الملهمة تكون فى حالة انجذاب وانخطاف ، فى حالة جذل وتهلل .

❋ ❋ ❋

ان فهمنا للالهام مرهون بفهمنا للاشعور ، كما أن تصورنا له يختلف باختلاف تصورنا للمدارس الادبية والفنية المختلفة ، وهـذه المدارس بدورهـا تقف مواقف مختلفة بازاء مفهوم اللاشـعور ومايكون للعوامل اللاشعورية من أثر فى اذكاء جذوة الالهام واطلاق العمل الفنى .

ومعنى الالهام كما كشفنا عنه خلال تحليلنا لمفهومه اللغوى شديد الارتباط بمعنى اللاشعور اذ أن الاثنين يشتركان فى صفة واحـدة هى صفة الخفاء . اننا بصدد آثار يتعذر تفسيرها بالعوامل الراهنـة الماثلة معانيها فى الشعور وذلك لأننا نجهل أصول هذه الآثار وينابيعها .

والخطة التى نصطنعها لتفسير اى ظاهرة نفسـية ترمى دائما الى ربط المعلول بعلته ، أو بعبارة أدق ، بمجموع العوامل التى تعين حـدوث المعلول . وبعض هذه العوامل يسهل الكشف عنه وبعضها الآخـر يظل خافيا فنضطر الى افتراض وجوده ولكن دون الخروج من دائرة العوامل النفسية ، فنضيف الى أثر العوامل الراهنة أثر الخبرات السـابقة ٠ وقد تظهر آثار هذه الخبرات فى بزوغ فكرة جديدة ، أو صورة غير مألوفة ؛ أو تشبيه مبتكر ، وقد تتكاثف هذه الآثار وتكون اتجاها عقليا أو عاطفيا جديدا أو نمطا جديدا فى التفكير والاسلوب . وفى جميع الحالات نقرر ان مايصدر عن الشاعر أو الفنان يصدر عن شخصيته العميقة وعن جميع مقومات هذه الشخصية بعد ان تكون هذه المقومات قد اندمجت بعضها ببعض بصـورة قوية مبتـكرة ٠ وعلى ذلك لا تقتصر آثار الخبـرات السابقة على أفكار وصور متفرقة بل تشمل ايضا كيفية النشاط نفسه ، كيفية تداعى الافكار والصور وارتباطها بعضها ببعض . بل يمكن أن نقرر أن طابع العبقرية الملهمة لايكمن فقط فى بزوغ هذه الفكرة أو تلك بل فى

اسلوب التعبير . فما أكثر الأفكار الجديدة والصور الغريبة التى ترد على ذهن الكاتب والتى تداعب مخيلة الفنان وماأكثر هذه الأفكار التى تتلاشى وتزول عقب التحامها • فليست العبرة فى تزاحم الأفكار الجديدة بل العبرة فى اختيار احداها والتعبير عنها تعبيرا فنيا ، أى كما سبق أن بينا فى مقالنا السابق عن طبيعة الفن ، التعبير عنها تعبيرا ايهاميا ، تعبيرا يوحى باكثر مما يشير اليه ، لأنه يظل محتفظا بعدد كبير من الامكانيات لايمكن تحقيقها دفعة واحدة . ان خلود الروائع الفنية لايرجع الى مايشع عنها من جمال مباشر بقدر ما يرجع الى ما قد توحى به من معان وما تبعثه من انطباعات جديدة كلما التقت خبرة المتذوق بخبرة الفنان المبدع . خلود العمل الفنى يتوقف اذن على قابليته لتجدد دلالته ، كأنه يعبر مراحل الأزمنة بحركة واحدة فيوحد بين الماضى والمستقبل ويحقق معجزة اللحظة الخالدة .

واذا كان لهذه التأملات نصيب من الصحة فلابد من أن نوسع مفهوم اللاشعور وأن نصغى الى من يتحدثون عن لاشعور جمعى يضيف الى مكنونات الشعور الفردى رواسب جميع الخبرات التى عانتها الانسانية ، اى انه يمكن القول بأن الوراثه ليست مقصورة على دائرة الخصائص الجسمية بل تعمل عملها أيضا فى دائرة المضمونات النفسية، سواء كانت استعدادات وامكانيات ، أو أنماطا وأشكالا من التصورات والحدسيات • وترجع هذه النظرة الى طبيعة الانسان والى معتقدات وفلسفات قديمة جدا تتردد فى عدد من الأساطير لشعوب مختلفة فالقول بأن الانسان هو عالم صغير يعكس العالم الكبير يتضمن القول باللاشعور الجمعى ، كما انه ينطوى على الرأى الذى يقول بأن العقل ، بما يتميز به من شعور ووعى ، ليس السبيل الوحيد الى المعرفة ، بل ان للعواطف ، ومايكمن وراءها من قوى لاشعورية مشتركة بين جميع الأفراد ، القدرة على المعرفة ولو خطفا واختلاسا وبأسلوب قد يختلف كثيرا أو قليلا عن أساليب المعرفة المنطقية العقلية . فهناك تيار فكرى يجتاز تاريخ الفكر الانسانى مارا بأفلاطون وأفلوطين وجاك بوم الألمانى وسويندنبرج السويدى وغيرهم من الصوفية ومن الشعراء الرومانتيكيين والفلاسفة اللاعقليين، وليس الالهام سوى تلقى هذه النداءات التى تنبعث من هذا العالم المجهول والتى لاتصل رسالتها الا الى القلوب التى طهرتها الآلام والى الحواس التى أرهقتها الأشواق والآمال .

ولكن القول باللاشعور الجمعى يزيد مشكلة الالهام تعقيدا ، فاذا

اقتصرنا في تفسيرنا للالهام على ارجاعه الى موارده اللاشعورية الفردية فاننا نميل الى تقريب الالهام من الحلم وعد الصورة الملهمة شبيهة بالصورة التي يراها النائم في نومه ولكن صور الحلم صور جزئية ناقصة مفككة متناقضة غير مرتبطة بعضها ببعض ، والعقل الواعي هو الذي يقوم بسد الثغرات وحل التناقضات والربط بين الصور في سلسلة من حوادث تحاكي الى حد ما حوادث الحياة الواقعية غير ان هذه الصورة المنظمة للحلم تظل بعيدة جدا من الصورة التي يظهر عليها العمل الفني ، فالمشكلة اذن ليست محصورة في مصدر الالهام ، سواء كان هذا المصدر اللاشعور الفردي أو اللاشعور الجمعي ، بل تتركز في كيفية صياغة المعطيات اللاشعورية في تعبير الفنان عن رؤياه وحلمه .

واذا استبعدنا تفسير الالهام باللاشعور فهل نكون أكثر توفيقا بارجاعه الى نشاط عقلي محكم ؟ هل يضع الشاعر خطة قصيدته قبل الشروع فيها ؟ هل يعلم من قبل كيفية تسلسل المعاني واتجاهها نحو خاتمة مقصودة بحيث يمكن القول بان معرفة الخاتمة هي التي تنظم بعث المعاني والصور وارتباطها في سلسلة من الحلقات المتلازمة ؟ اننا نعلم أن الشاعر ادجار ألن بو ذهب هذا المذهب في كتابه « فلسفة الانشاء » وطبق نظريته في تحليل قصيدته الخالدة «الغراب» . ولكن اذا أخذنا برأي بو ألا يصبح العمل الفني ضربا من الصناعة البحتة الخاضعة لمجموعة من القواعد التي يمكن تعلمها وتطبيقها كما يتعلم صانع الآلة قواعد تركيبها ؟ واذا قام الشاعر بصياغة قصيدته كما يقوم المهندس المعماري ببناء عمارته فهل ستحتفظ قصيدة الشاعر بشاعريتها ؟ .

ومن الواضح أن حل مشكلة الالهام يكون بدراسة التفاعل الذي يتم بين الحلم والواقع ، بين الايحاءات المنبعثة من عالم اللاشعور والمجهود العقلي الذي يبذله الفنان في صياغة هذه الايحاءات في صورة قادرة على أن تحقق التجاوب بين حساسية الفنان وحساسية المتذوق . ان الاستسلام الكلي للالهام يقضي على شخصية الفنان ، على حريته وفاعليته ويجره الى الجنون اذ سيصبح هو وموضوع الهامه شيئا واحدا . الفنان الحق هو الذي يستوحي الهامه دون الاتحاد به ، هو الذي يحقق نوعا من التباعد بينه وبين الهامه بحيث يظل مسيطرا عليه ، هو الذي يقول عن نفسه : انني ملهم ولكنني فنان بفضل هذا الالهام وعلى الرغم منه .

لدينا اذن من جهة الايحاء والرؤيا والحماسة والتلقائية ومن جهة

أخرى المنهج والجهد العقلى والتوجيه الارادى والقدرة على الاختيار والتنظيم . ان القضاء على أحد الطرفين لحساب الآخر هو قضاء على العمل الفنى ، فلابد من التعاون بين الطرفين ولكن الاعمال الفنية والادبية ستختلف بعضها عن بعض وستتوزع بين قطبى الكلاسيكية والرومانتيكية تبعا لمقدار ترجيح أحد الطرفين على الآخر . وقد يكون من الطريف حقا أن نقارن بين تصور الكلاسيكية للعبقرية وتصور الرومانتيكية لها وربط هذين التصورين بالظروف الاجتماعية الخاصة بكل عصر . وعندئذ سنكشف عن سر تعدد الاذواق وسنجد فى نهاية الأمر انه لايوجد تعارض جوهرى بين الأذواق ، بل ان تعدد الأذواق يتحقق فى الواقع لدى كل فرد لأن كل فرد ليس شخصية متعددة الوجوه والجوانب ولايمكن ارضاؤها جميعا ودفعة واحدة . ان الانسان عالم بأكمله وان كان صغيرا ، عالم يعكس جميع وجوه الوجود ، الظاهرة منها والخفية .

التحليل النفسى والنقد الأدبى (*)

لا شك فى أن أساليب النقد الأدبى لايمكن أن تجمد وتقف عند صورة واحدة ، على حين تتطور أساليب الأدب وصوره وتتنوع مضموناته وهى تجارى تطور الحياة نفسها .

ولايقتصر الادب على أن يعكس ظروف الحياة من مآس أو مهازل خلال نظرة الاديب الفنان ، بل هو يعكس شيئا آخر أعمق وأدق مما يمكن ادراكه لأول وهلة ، أو حتى بعد تأمل وتفكير ، يعكس بوادر تيارات اخذت ترتسم خطوطها خلف الحوادث والتأملات دون أن يشعر بها الأديب شعورا واضحا جليا ، هى بوادر التطور الذى يصيب الحساسية الانسانية فى عهد من عهود تاريخها .

اننا نخطىء حقا اذا ذهبنا الى أن العقل الانسانى قد اكتمل تكوينه ، وأن مقولات الفيلسوف اليونانى «أرسطو» أو حتى مقولات الفلاسفة المحدثين ــ أمثال «كانط» أو «هيجل» أو «هاميلان» ــ قد استنفدت فى شبكتها المنسقة جميع امكانيات التفكير . . ومايصدق على العقل والمنطق العقلى يصدق بالأحرى على الشعور والوجدان والحاسة العاطفية ، وعلى ماتنبض به الآثار الأدبية والفنية الخالدة من تطلعات روحية وتلمسات غيبية .

فاذا فرضنا أن العلم قد نجح فى تطهير جو المعرفة العقلية وطرد الأشباح والشياطين ، فليس معنى هذا أنه قضى على هذه الأشباح والتخيلات التى كانت تطارد الانسان منذ كان يسكن الكهوف ، والتى لا تزال تزوره فى أحلام الليل وكلما أطلق العنان لتأملاته فى مباهج الطبيعة أو مفازعها .

يكفى أن نقارن بين أدب القرن التاسع عشر والادب المعاصر لكى نلمس الاختلافات العميقة التى تباعد بينهما . ان مفكرى القرن التاسع عشر دأبوا على اقامة الفواصل بين ميادين المعرفة المختلفة وصياغة الفوارق

(*) مجلة «حياتك» مارس ١٩٦١ .

التى تميز بين أساليب التعبير المتنوعة ولكن جاءت الكوارث العالمية التى نزلت بالانسان المعاصر ، وماصاحبها من انقلابات ثورية فى النظم الاجتماعية وفى القيم الحيوية والفكرية والروحية ، فحطمت هذه الفواصل ووضعت الانسان أمام نفسه وهو يتساءل حائرا قلقا عن قيمة الحياة ومعنى الوجود .

لقد امتزجت الآداب والفنون بالفلسفة ، واصطبغ التفكير الفلسفى باللون الأدبى ، وخرج كل من الأديب والفنان والفيلسوف من برجه العاجى ليجوب دروب الحياة ، منحدراتها ومشارفها .

وحيث أن النقد الادبى — أو الفنى — عمل انشائى يتطلب من صاحبه القدرة على الخلق والابتكار ، فضلا على نفاذ البصيرة فى التحليل والتفسير ، لا مجرد التطبيق الآلى لعدد من المفاهيم والمعايير ، فانه مضطر الى أن يساير أساليب الادب فى تطورها وتنوعها ، وان يوسع آفاقه ويطوع مداركه ، بحيث يهيمن على الاثر الادبى ليدرك مداه ويلتقط ماتنبض به رموزه وصوره من معنى ودلالة .

وحيث انه من التعسف بتر العمل الفنى عن مبدعه ، فلاشك ان تجلية العلاقة بينهما من شأنها أن تلقى ضوءا جديدا على العمل الفنى ، لكى يبدو فى صورة كائن حى له تاريخه وله وحدته . ومن الطبيعى أن يطمع الناقد فى استخدام ماقد تكشف عنه العلوم النفسية من الحقائق الخاصة بالنشاط العقلى وبالدوافع النفسية العميقة ، لكى يضفى على نقده صفة الدقة العلمية والتفسير المنهجى المتسق .

ولاشك أن اهتمام النقاد باستخدام مفاهيم التحليل النفسى يرجع الى رغبتهم فى تحويل النقد من نزعته الانطباعية لدفعه نحو الدراسة الوضعية العلمية . ولكن الخطر الذى يهدد تطبيق التحليل النفسى فى مجال النقد الادبى هو تحويل اعمال الكاتب الى وثائق اكلينيكية لتشخيص مرضه ، أو على الأقل الكشف عن عقده وبخاصة عقدة أوديب . وهذا هو ماحدث فعلا مع بعض المحللين النفسيين الذين تناولوا بالنقد اعمال بعض الشعراء — امثال راسين وبودلير وبو وملارميه — فاصبح التأويل التحليلى تأويلا مملا يصدق على جميع الحالات ، وأصبح العمل الادبى مجرد عملية تعويض أو اعلاء . فالشبكة التحليلية التى يضعها المحلل على العمل الفنى لاتسمح الا برؤية الأشكال المرتسمة عليها دون الكشف عن نوعية الابداع الفنى وعن شخصية الكاتب من حيث هو فنان مبدع .

واذا كانت مهمة النقد الأساسية هى التوسط بين الكاتب والقارىء ، لتحليل العمل الأدبى وتفسيره وابراز قيمته الفنية ودلالته الانسانية ، فلابد من أن ينبع النقد من داخل الأثر الفنى ذاته ، وأن يكون هو مصدر منهج الناقد ومصدر المعايير التى يستخدمها فى أحكامه . وقد فطن كبار النقاد المعاصرين الى هذه الحقيقة ، ورفضوا عن علم ودراية تطبيق مفاهيم التحليل النفسى وأساليبه التفسيرية ، دون أن تفقد أعمالهم النقدية شمول النظرة وعمق التحليل . فلدينا مثلا كتاب البير بيجان «الروح الرومانتيكية والحلم» وهو يعد من روائع النقد الحديث والذى يبحث فى الحركة الرومانتيكية فى المانيا وفى الشعر الفرنسى . ومن المعلوم أن العواطف والانفعالات والتخيلات والاحلام تقوم بدور هام فى الهام الأديب الرومانتيكى ، وفى اثارة الصور والتشبيهات والاستعارات والرموز التى تخلق الجو الخاص بهذه المدرسة فى الأدب ، ويبدو أن التحليل النفسى بتحليله للاشعور والاحلام ، ومايتضمنه اللاشعور من عقد وصراعات ومتناقضات ، هو أصلح المناهج للكشف عن مكنونات الروح الرومانتيكية وماتعانيه من دوافع وانفعالات متضاربة . ومع ذلك فان «البير بيجان» يذكر لنا فى مقدمة كتابه الأسباب التى دفعته الى عدم الاعتماد على المنهج التحليلى . وهو يلخص هذه الأسباب فى اعتراضين أساسيين ، أولهما خاص بدراسة الرومانتيكية بصفة خاصة ، وثانيهما ينصب على تطبيق التحليل النفسى عامة على الأعمال الفنية .

وفحوى الاعتراض الاول هو أن تصور التحليل النفسى للحلم خاصة وللحياة النفسية عامة يتعارض تماما مع جوهر الرومانتيكية وجوهر الشعر الحديث الذى ينتمى الى هذه الحركة بشكل من الأشكال .

ان نظرية التحليل النفسى الفرويدى تعتمد على فلسفة القرن الثامن عشر ، فلسفة هلفيسيوس مؤلف كتاب «الانسان الآلة» وفلسفة علماء دائرة المعارف . والحركة الرومانتيكية لم تكن الا رد فعل للنزعة العقلية الصارمة التى كانت سائدة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . والتبادل الذى يتم بين الشعور واللاشعور يتخذ شكل دائرة مغلقة داخل الفرد ، فى حين أن الرومانتيكيين يذهبون الى أن الحياة اللاشعورية الغامضة متصلة على الدوام بواقع آخر أوسع مدى من الحياة الفردية ، سابق عليها وأعلى منها مرتبة .

وبينما التحليل النفسى يرمى الى شفاء الانسان المصاب بمرض نفسى ، والى تمكينه من أن يتلاءم مع الحياة الاجتماعية ، نرى الرومانتيكية

لاتكترث بهذا النوع من الصحة النفسية . بل تحاول أن تكتشف في التصورات والتخيلات ـ حتى المرضية منها ـ الطريق المؤدى الى الجوانب المجهولة من النفس البشرية ، وذلك لا حبا فى المعرفة ولا لتطهير النفس وتقويمها ، بل للكشف عن السر الذى يسمح للانسان بأن يتجاوز حدوده فى الزمان والمكان . ويجعل من وجوده الراهن مجرد نقطة على خط المصير الممتد الى اللانهاية . فهذا التعارض الذى يفصل بين التحليل النفسى من جهة وبين التصوف والرومانتيكية من جهة اخرى . يجعله عاجزا عن أن يفهم تماما ما ليس فى نظره سوى حالة من حالات المرض النفسى .

أما الاعتراض الثانى الذى يوجهه «ألبير بيجان» إلى تطبيق التحليل النفسى الفرويدى على العمل الفنى ، فهو أن التحليل ينظر اليه نظرته الى مجموعة من الأعراض . وأنه يرمى من دراسته لهذه الأعراض الى دراسة حياة الأديب أو الفنان وتحليل أعصابه ويمكن قبول مثل هذا الموقف اذا كان الفرض النهائى من الدراسة توسيع مجال التجربة التحليلية النفسية وتقديم طريقة العلاج . أما كل ما يدركه التحليل بالنسبة الى العمل الفنى فهو علاقته بسيكولوجية الفنان دون الوصول الى تقدير قيمة الاثر الفنى ودلالته الجمالية .

يتحدث المحلل مثلا عن فشل الشاعر بودلير ، ولكن من شأن أية قصيدة من «ازهار الشر» دحض هذا الراى . ينظر المحلل الى الصور والتشبيهات والاستعارات التى يستخدمها الشاعر نظرته الى رموز أو علامات يمكن تفسيرها وردها الى معناها الحقيقى الواقعى ، فى حين أن هذه الصور والتشبيهات لها فى نظر الشاعر وفى نظر المتذوق لشعره كيانها الذاتى ، ووظيفتها أن تلمح مجازا الى ما لا يمكن التعبير عنه بوسيلة أخرى . ومن الممكن أن تكون العمليات النفسية التى تؤدى الى الافكار المتسلطة المرضية هى نفسها التى تبعث رؤيا الشعر ، غير أن الشاعر ـ على العكس من العصابى ـ ينجح فى أن يتحرر من تصوراته وتخيلاته ، فيطلقها لكى تحيا مستقلة فى عالم جديد هو عالم الشعر والفن .

وفى كتاب حديث للناقد «فلاديمير وايدلى» عن المصير الحالى للآداب والفنون ، يذهب المؤلف الى أن تطبيق التحليل النفسى فى الأدب لايمكن أن يفيد الا فى حالة واحدة ، هى الكشف عن الأدب الزائف غير الأصيل . فمادام العمل الفنى فى نظر التحليل النفسى هو صمام الأمن

لرغبات الفنان المكبوتة ، ومادام الاديب يسقط نفسه فى بطل القصة فليست مهمة الناقد المحلل الا ان يكشف وجه الأديب خلف قناع البطل، وأن يتعرف الدافع الذى حرك قلم الأديب ، وسوف يجد أن هذا الدافع مشترك بين معظم الناس .

فالقصة مثلا ـ التى ليست سوى وسيلة لكى يسقط صاحبها مايعجز أن يحققه فى الحياة الواقعية ، والتى لايتجاوز أثرها لدى القارىء عن ارضاء رغباته المكبوتة ـ لابد وأن تكون عملا أدبيا هزيلا . أما العمل الادبى الأصيل ، فان التحليل النفسى عاجز عن ان يصل الى لبه ، وأن يقف على مايحدث فعلا فى الخلق الفنى الحقيقى . ومايقال عن اعلاء الغريزة الجنسية ليس سوى تمويه وتضليل . ان العمل الفنى ينتمى الى بعد آخر غير الأبعاد الغريزية ، كما أنه ليس محصورا فى دائرة العقل البحت .

هناك قيم روحية مقدسة ، لايمكن أن تدركها النفس الا اذا تجاوزت حدود العالم الخاضع للضرورة المادية الميكانيكية ، ودخلت عالما يقدس الحرية ويصون فى الانسان هذا الجانب الالهى الذى يرفعه فوق مستوى الطبيعة . ان عملية الخلق الفنى فى نظر «فلاديمير وايدلى» لابد أن تكون صورة من المشاركة فى عملية الخلق المطلق ، والاديب الحق ـ سواء شعر بذلك أو لم يشعر ـ مدفوع بنوع من الشعور الدينى وباحساسه بالمقدس والمتعالى . ومما لاشك فيه أن التحليل النفسى ـ الذى يرمى الى أن يكون علما وضعيا ـ لاتصلح مفاهيمه للتعبير عن المقدس ، وقد اعترف فرويد نفسه ـ وهو بصدد خبرات المتصوفة ـ بعجزه عن الشعور بما سماه بالاحساس المحيطى .

❋ ❋ ❋

وهكذا نرى كيف ان الجدل الدائر بين بعض النقاد والمحللين النفسيين ـ فيما يختص بعملية الخلق الفنى ـ يتجاوز حدود العلم ليدخل مجال الفلسفة والميتافيزيقا . وانه لأمر طبيعى أن نتوقع مثل هذه النتيجة ، لأن اثارة المشكلات الفلسفية الكبرى ـ مثل مصير الانسان وطبيعة الحب ـ لم تكن مقصورة على أصحاب المذاهب الفلسفية ، بل تناولها الشعراء عبر القرون من عهد اليونان الى عصرنا هذا . بل هناك مجموعة من الشعراء الانجليز فى القرن السابع عشر ـ وعلى رأسهم دن وهربرت ـ يطلق عليهم « الشعراء الميتافيزيقيون » . وتمتد سلالة هؤلاء الشعراء الى يومنا هذا ، وهى تتمثل فى اعظم الأسماء أمثال ويتمان

ولافورج وميشسو و ت • س • اليوت • ومحاولة ارجاع أعمال هؤلاء العباقرة فى الشعر الى مجرد عمليات اسقاط وتعويض وتبرير وما اليها من الوسائل النفسية الدفاعية لاتعدو أن تكون مهزلة عقيمة لاتخدم العلم ولا الفن على حد سواء .

فاذا أردنا الافادة من منهج التحليل النفسى فى تفسير سلوك الفنان المبدع وأعماله ، فلابد من توسيع آفاق التحليل النفسى وتجاوز حدود مذهبه المغلق . فبعد أن يكشف الناقدالمحلل بعض مصادر الرموز والصور التى ينض بها العمل الفنى ، عليه أن يتتبع تفرع هذه الرموز وازدهارها واثراءها فى مناطق النفس العليا ، بفضل نشاط التخيل المبدع الذى هو أكثر من مجموع العوامل الفريزية والعقلية التى نعتقد أنها هى وحدها التى يقوم عليها بناء النفس البشرية .

وهذا هو ماحاول أن يصنعه بعض النقاد الذين اتخذوا من التحليل النفسى نقطة بدء لتحليلاتهم دون الاقتصار عليه • فنرى مثلا المحلل النفسى السويسرى «شارل بودوان» يؤكد أنه من الخطأ محاولة رد ماهو اعلى الى ماهو أدنى ، والقول بأن العمل الفنى ليس سوى تعويض أو اسقاط . فعندما يقول لنا بودوان أن الشاعر فكتور هوجو كانت تتنازعه دوافع متعارضة كالعدوان والشعور بالاثم ، ليس هذا القول تفسيرا شاملا لشخصية الشاعر من حيث هو شاعر ، بل المقصود منه الكشف عن بعض العوامل التى جعلت الشاعر يكتب ماكتبه .

وكذلك نرى شارل مورون فى مدخله الى تحليل الشاعر ملارميه يبين لنا أثر موت الأم ثم موت الأخت فى بعث بعض الصور والرموز . ولكن ليست هذه الحوادث التى صدمت شخصية الشاعر فى طفولته هى التى تفسر شاعريته واستمرار الهامه وتدعيم رغبته فى التعبير الأدبى ، هى تفسرها اذا حصرنا أنفسنا فى دائرة المنطق العقلى ، أى انها تعينها من أسفل ، فى مجال الوجدان الادنى . ولكن هناك مجالا آخر ، مجال الوجدان الاعلى ، وهو مجال اللاعقلية الاستطيقية التى تعلو فوق العقل . ومورون يؤكد أننا هنا بصدد حقائق تجريبية لاتقل واقعية عن التجارب المادية وأننا كلما اقتربنا من العلوم الانسانية قلت الفوارق بين الذات العارفة وموضوع المعرفة . لايمكننا أن نفهم الاساطير الا اذا كنا الى حد ما قادرين على خلقها ولايمكن أن نفهم الشعر الا اذا كنا الى حد ما شعراء وعلى الرغم من الطابع الاسطورى الذى طبع به فرويد مذهبه ، فان

قصور نظرته الى طبيعة العمل الفنى يرجع الى قصور شاعريته والا لما ذهب الى الخلط بين القيمة الشعرية والتعبير عن الجنسية المكبوتة ، الخلط بين القصيدة والعرض المرضى .

ليس من اليسير تلخيص الرأى الذى انتهى اليه موررون فى عدة سطور ، فلابد من قراءة الفصل الممتع الذى يختتم به كتابه وهو يتحدث عن أسطورة ارفيه الذى هبط الى عالم الموتى فأحياهم بسحر فنه . فالشاعر يهبط بدوره الى العالم المظلم ، ولكنه ــ بعد أن يكون قد أحيا بعض جوانبه الخفية ــ يعود الى النور دون ان ينظر وراءه . وهذا الاتصال بعالم القيم الروحية والفنية هو الذى يسمح للفنان بأن يحول الرصاص الى ذهب ، والرماد الى حياة .

تأثير الألوان على الحالة النفسية والجسمية (*)

لا يقتصر تأثير الألوان على توضيح الرؤية وتشكيل الادراك بحيث يتلاءم مع طبيعة العمل الذى نقوم به بل يمتد الى النواحى النفسية الاخرى مثل الحالة المزاجية من اهتمام أو ملل ، من فزع أو كآبة • فاللون بالاضافة الى طبيعة السطح الملون من حيث النعومة والخشونة لا يقوم فقط بامتصاص الضوء أو انعكاسه بل يعطى أيضا الاحساس بالسخونة أو البرودة ، والاحساس بامتداد المكان أو انكماشه ، كما انه يؤثر فى الحالة الجسمية والنفسية فيكون تأثيره اما التنشيط والتهييج وتوليد الشعور بالفرح والبهجة أو على العكس من ذلك تهدئة الاعصاب وخفض التوتر وقد يصل تأثير بعض الألوان الى اثارة الشعور بالضيق والكآبة •

وسنتناول الآن كل لون من ألوان الطيف الشمسى لنبين آثاره فى الحالة الفسيولوجية والنفسية •

اللون الأحمر يزيد من درجة الشد العضلى وبالتالى يعطى الاحساس بزيادة القوة العضلية ويحارب الاحساس بالتعب ، كما انه يرفع ضغط الدم وينشط حركة التنفس وهذه المظاهر الفسيولوجية الثلاثة متلازمة • ومن الناحية النفسية اللون الأحمر ينشط العمليات العقلية ويقوم الميل الى الحزن والكآبة وينشط بوجه عام الحاجات الغريزية والشهوات على اختلاف أنواعها ، فهو لون حار مهيج •

اللون البرتقالى ، يزيد قليلا من سرعة النبض ولكنه لا يؤثر فى ضغط الدم • منشط انفعالى ، يفتح الشهية للطعام ويساعد على الهضم •

اللون الأصفر ، أكثر الألوان بعثا للسرور والبهجة ؛ منشط بصرى وعصبى ، له تأثير مهدىء على الحالة العصبية والنفسية فى بعض الامراض النفسية لأنه يثير الشعور بالتفاؤل والثقة •

(*) حديث اذاعى فى ١١ من يونيو سنة ١٩٦٠ •

اللون الاخضر ، وهو موجود فى وسـط الطيف الشمسى على مسافة واحدة بين طرفيه وهمـا الاحمر والبنفسجي ولذلك سترى أن تأثيره فى الحالة الجسـمية والنفسية يتصف بالاعتدال والتوازن • فالأخضر يخفض من ضغط الدم ويوسع الاوعية الدموية الشعيرية ، ومسكن ومهدىء ويخفف آلام الصداع والآلام العصبية الاخرى الناتجة من ارتفاع شديد فى ضغط الدم ، له تأثير فعال فى علاج الارق والتعب العصبى ، يؤدى الى استقرار المزاج وتوازنه ويدفع الى التفكير والتأمل الهادىء ، يعطى احساسا بالطراوة والنداوة كأن الانسان يسير بين المزارع والمروج تحت ظـل الاشجار الخضراء •

اللون الازرق ، يخفض ضغط الدم ودرجة التوتر العضلى ، ومسكن للتنفس والنبض ، تأثيره المهدىء يفوق تأثير اللون الاخضر وقد يؤدى الى حالة الانهباط والكآبة • فهو مسكن فعـال فى حالات التهييج العصبى الشديد والنشاط الزائد المضطرب كما فى حالات الهوس والهياج النفسى • يعطى الاحساس بالبرودة •

اللون البنفسجي ــ تأثيره شبيه بتأثير اللون الازرق ولـكن بدرجة أشد فهو مهدىء قوى ويبعث فى النفس انفعال الحزن والكآبة والانهباط الشديد • يزيد من المقاومة العضوية للقلب والرئتين والأوعية الدموية •

يمكن أن نستنتج من هذا البيان تطبيقات عملية كثيرة ولكن يجب أن نذكر ان الحالة الجسمية والنفسية لا تتأثر بعامل اللون وحده بل بعدة عوامل أخرى نفسـية وبيئية فاللون عامل مساعد يتفاعل تأثيره مع تأثير العوامل الأخرى وقد يكون التفاعل فى صورة تعاون أو تضارب أو تنافى • فلا بد من وزن تأثير كل عامل والتأليف بين التأثيرات المختلفة للوصول الى النتيجة التى نريدها •

ويمكن استخدام الحقائق التى ذكرناها بدرجة كبـيرة من الثقة فى اختيار اللون أو نظـام من الالوان الملائم للمحيط الخـارجي تبعا لنوع النشاط وبوجه خاص تبعا للغرض الذى نريد تحقيقه اما زيادة النشاط أو خفضه ، أو طلبا للراحة أو النوم • والمقصود بالمحيط الخارجي هو الديكور الذى يعيش فيه الانسان ، واللون يؤدى دورا هاما فى تحديد صفات هذا الديكور • فلون غرفة النوم يجب أن يختلف عن لون غرفة الاكل أو غرفة الجلوس أو غرفة المكتب ، بل فى كل غرفة يجب أن تختلف ألوان الجدران تبعا لمصدر الضوء وموضع السرير أو المكتب •

فاللون الذى يجب اختياره لغرفة النوم أو الغرفة التى نجلس فيها

طلبا للراحة هو الازرق أو الاخضر . أما غرفة الأكل فيجب أن يكون لونها برتقاليا وكذلك المطاعم العامة .

أما المكتب فيختلف لونه تبعا لوظيفته ، فاذا كان للبحث والمطالعة فاللون الاخضر الخفيف يساعد على التأمل والتفكير ، ويكون لون السقف أزرق خفيف . أما اذا كان المكتب للاستقبال فيكون لون الحائط الذى يواجه الزائر من الالوان المهدئة الساكنة فى حين يكون لون الحائط المقابل للجالس على المكتب أحمر لانه منشط .

وتختلف الألوان ونظامها فى المصانع تبعا لنوع العمل ويراعى فى اختيار نظام الالوان أن تساهم أولا فى توزيع الاضاءة من حيث الامتصاص والانعكاس ومحاربة الانبهار ثم فى محاربة الملل واثارة الاعصاب . وفيما يلى بعض الاقتراحات .

ففى مصنع للنسيج يكون لون الجدران أصفر خفيف مطفى مع خيوط وردية ورمادية ويكون لون الآلات أخضر فاتحا .

فى مصنع للغزل يكون الجزء الاعلى من الجدران مدهونا بلون ذهبى والجزء الأسفل بلون أخضر وبينهما شريط أسود ، أما الآلات فلونها رمادى وابيض .

وفى المؤسسات التى تقوم بغسل الملابس وتنظيفها تدهن الجدران بالابيض ، والابواب بالابيض والاسود ؛ والسخانات باللون البرنزى ومواسير المياه الساخنة باللون الاحمر ومواسير البخار باللون الاصفر ومواسير المياه الباردة باللون الازرق .

تلك هى بعض الخدمات التى تؤديها الالوان فى خلق الجو الملائم للنشاط المنتج المريح وفى مساعدة الانسان على محاربة الملل وتنظيم حالاته المزاجية والنفسية تحقيقا لحياة أكثر رفاهية وسعادة .

المسرح وتطهير النفس (*)

قديما قال أرسطو ان التراجيديا باثارة الشفقة والرعب فى نفس المشاهد تطهره من أهوائه وانفعالاته • واليوم يقول التحليل النفسى ان فى الابداع الفنى والتذوق الفنى علاجا للصراعات النفسية وتنفيسا عن الرغبات المكبوتة والدوافع اللاشعورية •

يبدو أن التحليل النفسى يعمم رأى أرسطو ويعزو لجميع الفنون صفة التطهير ، والواقع أن أرسطو ، وان خص التراجيديا بتطهير النفس ، يقصد جميع الفنون الجميلة ، فكتابه المعروف بفن الشعر يتناول الابداع الفنى بوجه عام أو اذا التزمنا عنوان الكتاب باليونانية يتناول « الصنعة الجميلة » التى ليست الا محاكاة للواقع المحسوس • وترمى هذه المحاكاة الى التعبير عن صورة المحسوس ، وبما انه لا وجود للصورة بدون هيولى أى بدون مادة ، فلا بد من أن يكون التعبير الفنى بدوره محسوسا ، وعلى ذلك تشترك النفس والجسم فى الابداع الفنى وفى تذوق الجمال •

ويجب ألا نقصر نظرية أرسطو فى تطهير النفس على دائرة الاخلاق • نعم انه أراد أن يرد على أستاذه أفلاطون الذى اتهم الأعمال المسرحية باثارة الشهوات بدلا من اخمادها ، غير أن نظرية أرسطو فى التطهير تتجاوز حدود القيم الاخلاقية والتربوية لتضع أسس علم الجمال كما سيقدمه لنا فيما بعد الفيلسوف « كانط » يريد أرسطو أن يوضح لنا طبيعة العاطفة الجمالية التى تتصف بالموضوعية والتنزه عن النفعية • بفضل تطهير النفس من شهواتها عن طريق مشاهدة أحداث المأساة يصل الانسان الى نوع من المعرفة الصوفية التى يبزغ ضياؤها بفعل نوع من الحماس والتجلى أثناء القيام ببعض الطقوس الدينية •

(*) مجلة «الثقافة» ، ٢ من يونيو ١٩٦٤ •

وعلى ذلك يكون تفسير نظرية التطهير لدى أرسطو على مستويين : مستوى أخلاقي وتربوى ثم مستوى معرفى جمالى • واذا قارنا بين أعمال اسخيلوس وسوفوكليس من جهة وأعمال كتاب المأساة فى القرن العشرين أمثـــال كلودل وكامو وأنوى وســـارتر فان المشـــكلة الكبرى التى تعالجها هذه الأعمال هى مصير الانسان ، قيمة الحياة ، الصراع بين الخير والشر ، بين الجسم والنفس ، بين حرية الفرد وسلطة المجتمع ؛ ثم البحث عن المطلق ، الحرية المطلقة ، الطهارة المطلقة ؛ الثورة المطلقة •

والمحرك الأكبر لأحداث المأساة هو شعور الانسان بالاثم والخطيئة ، أو مايسميه التحليل النفسى بعقدة الادانة ، ويقول « كيتو » أستاذ الأدب اليونانى بجامعة برستول :

أليس جوهر المأســـاة فى أن يؤدى خطأ طبيعى يقع فيه المرء الى عذاب شامل لا يتناسب البتة مع السبب ، وأن هذا العذاب الفائق ليس نتيجة أمر عرضى عابر ، بل نتيجة طبيعة الحيـاة الانســانية وتركيبها الصميم ؟

جوهر المأساة يكمن اذن فى هذا التفاوت الرهيب بين ذنب مجهول وعقاب صارم • ان الانسان يتهم ويدان وينفذ فيه حكم الاعدام دون أن يعرف سبب الاتهام ، فحاله كحال بطل قصة كفكا « القضية » ، أو جان فى مسرحية كامو « سوء تفاهم » • ان الانسان ممزق بين السعادة التى أصبحت وهما بعيدا والبؤس الذى يطارده ويحوم حوله • ان حياته أصبحت رهانا يائسا بين الوجود والعدم ، بين الحب والكبرياء بين قيمة الحياة وعبثها ، بين المعقول واللامعقول ، أن صرخة الانسانية خلال معظم روائع الفن والأدب هى فى نهاية الأمر صرخة الفشل والخوف •

هل معنى هذا أن الأثر التطهيرى الذى نعزوه للعمل الفنى بوجه عام ولمشاهدة الأعمال المسرحية المأسوية بوجه خاص أثر سطحى عابر ؟ هو كذلك اذا ظل فى مستوى الانفعال ، فى مستوى الضحك أو البكاء ، فى مستوى الصراخ والتشنج ، دون أن يرتفع الى مستوى الفكر والمعرفة • ان تطهير الشهوات يعنى تحرير الانسان مما يعوق صعوده الى أعلى ، مما يمنعه من أن يختبر بنفسه وبشدة وحرارة مدى امكانيـاته وقدراته • وحرية الانســـان الحقة تتمثل فى قدرته على التفكير وقدرته على الاختيار وقدرته على تحمل المسئولية ازاء ما يختاره •

يجب اذن أن يتجه التطهير من أسفل الى أعلى ، من الجسم الى النفس

وهذا ما يمكن أن يحققه الفن المسرحي الاصيل ، ان المسرح يحتل من بين الفنون مكانا ممتازا ، بل هو تأليف سمفوني بين عدة فنون : الرقص ، الغناء ، الشعر ، والفنون التشكيلية والزخرفية وفن الاضاءة وسائر الفنون الخاصة بالتكنيك المسرحي . ان الخطوة التى تفصل بين الصراخ والغناء ، بين التهيج العضلي والرقص هى الصياغة الفنية التى هى قبل كل شيء نظام وضبط واحكام ٠ ان الصوت الموسيقى هو صوت خاضع لنظام معين محكم ، هو صوت يحاكي نفسه ، يصغي الى نفسه ، ثم يمتد ويستمر ٠ ولا بد لاصدار الصوت الموسيقى من التحكم فى حركات الجسم كله ٠ فأى تشنج ، وأى انتفاض يحول النغم الموسيقي الى ضوضاء ٠ فالموسيقى اذن لكى تنبع صافية متزنة تقتضى أخضاع الجسم لنظام صارم وتطهيره من الانفعالات العنيفة ٠ وما يقال عن الموسيقى يقال أيضا عن الرقص ، ويقال أيضا عن المشهد المسرحي ، فالصياغة الفنية تحول الفوضى الى نظام وبالتالى تسمح بادراك هـذا النظام وتذوقه ، وبالادراك نصل الى المعرفة ومنها الى التبصر والاستبصار ٠

وعندئذ تتلاشى الأشباح المخيفة ويعود الأمن والاطمئنان الى النفس٠ وكما أن للمأساة تأثيرها فى تحطيم بعض القيود التى تعوق حريتنا وفى تطهير النفس من انفعالاتها المؤلمة ، فالتحليل النفسى يرمي هو أيضـا الى تحريرنا وتطهيرنا من الخداع الذاتي ومن مخاتلات الشعور وذلك بطرد الأشباح وخفض عدد الشخصيات الزائفة التى تتطاحن فى المأساة الداخلية ٠

ولا يقتصر تأثير المسرحية على المشاهدين بل يشمل أيضـا المؤلف نفسه ٠ ان الكاتب يتخلص من بعض ما يعانيه من توتر وصراع بتحويل حواره الداخلي الى حوار خارجى بين شـخصيات تتجسم فيها اتجاهات المؤلف المتعارضة ٠ فالتأليف الأدبى يؤدى من الناحية النفسـية وظيفة التعويض عما يحسه الكاتب من نقص وعجز ، بل هو يؤدى وظيفة ثانية أعمق من الأولى وهى تخفيف ما يستشعره من الاثم والادانة باشراك الجمهور فيما يعانى من صراع ، فضلا على أنه ينتظر منه التقدير ، وهـذا التقدير ينطوى فى نظر الاديب على معنى العفو والصفح مما يجعله يشعر بأنه برىء بفضل ما يثيره لدى القارىء أو المشاهد من عطف ومشاركة وجدانية ٠

غير أن التأثير التطهيرى للمسرحية بالنسبة الى الأديب أقل شدة من تأثيره على المشاهدين ، ولا يصل الى مستوى التطهير الذى يحدثه العلاج بالتحليل النفسى ، فانه على الرغم من بعض أوجه الشبه بين المواقف الدرامية والمواقف التحليلية فهناك فرق جوهرى يجب الاشارة اليه ، ان التحليل

النفسي هو تحليل اللاشعور ويقتضى العلاج أن يقول المريض كل مايخطر بباله والا يقوم بعملية اختيار بين ما سيقوله ومايمتنع عن ذكره ، كما انه من واجب المحلل أن يحاول القاء الضوء على جميع زوايا اللاشـعور لكى لاتتركز الادانة أو الشعور بالاثم فى الجانب الذى أغفل ذكره • أما الكتابة الأدبية فانها تقتضى الاختيار والصـقل والنقد ، فى حين أن اللغة التى يستخدمها المريض أثناء التحليل لغة تسوقها الارتباطات الحرة الطليقة بين المعانى والصور وبالتالى تكون مجـــردة من كل قيمة فنية ، الا فى بعض الاحيان كما يحدث فى الكتابة الاتوماتيكية التى استخدمها أحيانا انصار المدرسة السيريالية •

وعلى كل حـــال فان التأليف المسرحى بالنسبة الى الأديب يؤدى الى تخفيف بعض ما يعانيـــه الأديب من صراع ، ثم يبعث الصراع من جديد فيستأنف الأديب انتاجه الفنى • فلا بد للمبدع من محرك عميق يدفعه الى التعبير الفنى ومن أقوى الدوافع الى الابداع الفنى مايعتلج فى نفس الأديب من صراعات ولكن دون أن يؤدى احتدام الصراع الى الكف التام ودون أن يضعف القدرة على الصياغة الفنية • فلا بد من توافر شرطين أساسيين لكل أبداع فنى أو أدبى : التلقائية والحرية من جهة والقدرة على الضبط والأحكام من جهة أخرى •

مرور خمسين عاما على كتاب الروحية فى الفن (*)

يشهد تاريخ الفكر الانسانى على الارتباط الوثيق بين الفلسفة والعلم وذلك لاتفاقهما فى الهدف على الرغم من اختلاف الوسائل المؤدية الى المعرفة واختلاف المستويات التى تتم عندها هذه المعرفة · ولكنه يندر أن نرى التقارب يتحقق بين العلم والفن أو بين الفلسفة والفن ، وذلك لان الفن لا يرمى الى المعرفة ولا يحاول أن يفسر الوجـــود بل غرضه الاساسى هو التعبير عن نواح فريدة جزئية لهذا الوجود خلال مزاج الفنان ونظرته ، والتمتع بهذا التعبير تمتعا جماليا بعيدا عن الاعتبارات النفعية ·

غير أن العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر شاهدا عدة محاولات لتطبيق بعض الحقائق العلمية الخاصة بتحليل الضوء فى مجال التصوير ، كما أن العقد الأول من القرن العشرين كان فترة خصيبة جدا لتطعيم الفن بعناصر عقلية وفلسفية · وجاءت الاشـــارة الاولى من ميونيخ فى ألمانيا عندما نشر فورنجر فى عام ١٩٠٨ كتابه «التجريد والتقمص الوجدانى» · ولم يكن المؤلف فنانا بل فيلسوفا ومؤرخا ولكن أحدث كتابه ضجة كبيرة فى أوساط الفنانين ولم يقتصر تأثيره على ميـــدان العمـــل الفنى بتوجيه الفنانين نحو التجريد بل تعداه الى مجال التفكير والتأمل فى طبيعة الفن ورسالته ·

وفى عـــام ١٩٠٨ هبط ميونيخ فنـــان روسى ، فاسيلى كندنسكى بعد أن طاف تونس وهولندا وايطاليا وفرنســا وتأثر بفن الانطباعيين والوحشين بالاضافة الى الأثر العميق الذى تركه فى نفسه الفن الشعبى فى مقاطعات روسيا الشمالية · فأقبل على قراءة كتاب فورنجر بشغف متزايد ، فتفاعلت فى نفسه الآراء الفلسفية مع الخبرات الفنية والنزعات الصوفية التى تميز بصفة خاصة الروح السلافية · وأسفر هذا التفاعل

(*) جريدة «وطنى» · ١٩٥٩ ·

العميق بين العوامل الفكرية والعوامل الوجدانية الفنية عن أول كتاب يكتبه فنان عن التصوير المجرد وعن أول صورة مجردة تظهر فى التصوير المعاصر عام ١٩١٠ · ومن اليسير أن نقدر الدلالة التاريخية لهذا الحدث عندما ننظر الى مدى انتشار التجريدية بعد الحرب العالمية الثانية فان أكثر من خمسين فى المائة من مصورى العالم يزاولون اليوم التصوير المجرد ويرسمون لوحات لا تمثل الواقع الخارجى ولا تشير الى أى جانب منه بل تقتصر على تركيب الاشكال المبتكرة وعلى توزيع البقع الملونة بطريقة ذاتية بحتة ·

ويجدر بنا أن نحتفل بمرور نصف قرن على ظهور هذه الحركة الجديدة فى الفنون التشكيلية وعلى ظهور الكتاب الذى يعد بحق الدعامة الاساسية لفلسفة التجريد فى التصوير · ان العنوان الذى أطلقه كندنسكى على كتابه «الروحية فى الفن» ينقلنا دفعة واحدة من العالم الخارجى الى عالم الروح والاحساس الداخلى ·

ما هو العمل الفنى فى نظر كندنسكى ؟ انه يتكون من عنصرين ، داخلى وخارجى · يتمثل العنصر الداخلى فيما تعانيه روح الفنان من انفعال، وفى مقدور هذا الانفعال أن يثير لدى المشاهد انفعالا شبيها بانفعال الفنان ·

ويقول كندنسكى أن الروح لارتباطها بالجسد تتأثر عن طريق الحواس ، فالمحسوس هو الذى يبعث الانفعالات ويحركها ، فالمحسوس هو بمثابة القنطرة ، أى العلاقة بين اللامادى ، أى انفعال الفنان ، والمادى وهذه العلاقة هى لب العمل الفنى ، وكذلك يربط المحسوس بين المادى ، أى الفنان وعمله ، واللامادى ، أى الانفعال الذى يثار فى روح المشاهد ، وعلى ذلك نكون بصدد السلسلة الآتية : انفعال الفنان ــ المحسوس ــ العمل الفنى ــ المحسوس ــ انفعال المشاهد · ويكون الانفعالان متشابهين أو متعادلين اذا كان العمل الفنى ناجحا · فالتصوير لا يختلف عن الغناء فكل منهما وسيلة اتصال · ولا بد من وجود العنصر الداخلى ، أى الانفعال ، والا أصبح العمل الفنى خداعا كاذبا · والعنصر الداخلى هو الذى يعين شكل العمل الفنى ·

ان لغة التصوير هى الاشكال والالوان ويجب أن تقتصر اللوحة على انسجام التركيب بين عناصر هذه اللغة · وهذه العناصر وحدها بعد تنظيمها كفيلة بأن تعبر عن انفعال الفنان ، تماما كما هو الحال فى الاصوات الموسيقية · وليس من الغريب أن ينزع كندنسكى الى تحويل اللوحة الى سمفونية من الأنغام فقد كان يريد فى مطلع شبابه أن يتعلم

الموسيقى ثم توارى هذا الميل وكمن فى أعمـــاق نفسه دون أن يموت ، وها هو يبعث من جديد مستخدما الاشـــكال والالوان بدلا من الاصوات والانغام • وليس من جوهر اللوحة الفنية أن تمثل أشـــياء مجسمة • فالشكل فى ذاته قادر على أن يعبر عن المعنى الداخلى ويزداد هذا التعبير قوة ونفاذا كلما كان مندمجا فى علاقات لونية توافقية • والجمـال هو أن نحقق بنجاح هذا التجاوب بين الانفعال الداخلى والتعبير •

ويوافق كندنسـكى على ما ذهب اليه فورنجر من أن القيم الروحية الحقة هى مبدأ الفن وغايته ، وان كل عمـل فنى أصيل يسجل بأسلوبه الخاص مرحلة من مراحل التطور الذى يشكل الانسان والعالم الخـارجى خلال عصور التاريخ • فالفن ليس سوى مظهر من مظاهر القوى الروحية التى تهيمن على التطور والتى تعين نظرة الانسـان الدينية الى الوجود فى أطواره المتغيرة المتعاقبة •

السريالية فى الفنون التشكيلية (*)

فى النصـف الأول من القرن العشرين تعـددت مدارس الفنون التشكيلية الى حد لم يكن له مثيل فى العصور السابقة • ويلاحظ هـذا التنوع الكبير لأساليب التعبير الفنى فى ميدان التصوير بصفة خاصة • ومن أهم المدارس التى تعاقبت بعد الحركة الانطباعية فى اواخر القرن التاسع عشر المدارس الآتية : البنـائية ، والوحشية ، والتعبيرية ؛ والتكعيبية والسريالية والتجريدية •

وأوجه الخلاف بين هذه الحركات يمكن تلخيصها فى الصراع الذى يقوم بين مقومات اللوحة ، وهو الصراع نفسه الذى يمكن مشاهدته فى أى أثر فنى : ما هو النموذج الذى يستوحيه الفنان ؟ ما هى الوسيلة الفنية التى يغلبها الفنان فى انتاج آثره الفنى على غيرها من الوسائل ؟ هل هو الشكل كما تحدده خطوط الرسم أو كما تعبر عنه الألوان ؟ ما هو مدى خضوع الفنان للنموذج ، أو بعبارة أخرى ما هو نصيب المحاكاة ونصيب الابداع فى تنفيذ العمل الفنى ؟ وأخيرا ما هى العلاقة القائمة بين الشـكل والمضمون ، والى أى حد تكون دلالة هذا المضمون فردية أو اجتماعية ؟ •

ان كل هذه الاعتبارات ، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره ، توحى الينا بتعقد مشكلة الفن المعاصر وبضرورة تعدد وجهات النظر فى النقـد الفنى ، وتعدد المدارس القائمة اليوم يحتم على المؤرخ أو الناقد أن يغير معايير أحكامه لكى تتلاءم مع كل حركة جديدة وما تنطوى عليه كل حركة من أغراض فنية بحتة أو من اغراض اجتماعية وفلسفية •

وتؤدى المدرسة السريالية فى الأدب والفنون التشكيلية دورا هاما فى تطور معايير الحكم على دلالة الاثر الفنى وقيمته • ولفظ « السريالية » surréalisme يعنى « ما فوق الواقع » هل المقصود ان الفن السريالى غير واقعى ، وانه وليد الابداع المطلق ، وان دلالته لا تتجاوز حدود القيم التشكيلية البحتة ؟ اعتقد ان هذا الحكم لا ينطبق على الفن السريالى قدر

(*) جريدة «وطنى» ، ١٩٥٩ •

انطباقه على الفن التجريدى • فهنـاك نموذج يلهم الفنان السريالى ، وهو نموذج واقعى ، بل أكثر واقعية من أى نموذج نجده فى الطبيعة ، لانه نموذج داخلى • هو رؤيا من وحى الفنان نفسه ، من وحى دوافعه ورغباته اللاشعورية • وهذا النموذج الداخلى لا يمكن ان تراه العين التى تحجرت وأصبحت أسيره المألوف والعادى والتقليدى والشـــائع ، بل العين التى أصبحت عاجزة عن ادراك جوانب الجدة والغرابة التى لا تزال قائمـــة فيما هو عادى ومألوف • فالفنـــان السريالى يدعو الى اعادة تربية العين بتحطيم هذا الحاجز الذى أقامته العادات والتقاليد حتى ينفذ الانســان ببصيرته الى عالم اللاشعور والاحلام ، بل الى عالم الهذيانات والهلوسـات وعندئذ تستأصل جذور المألوف والرتيب والممل ويشعر الانسان ، ولو الى حين ، بأنه فقد القدرة على التوجه فى المكان والزمان وأنه أصـــبح أمام مشهد جديد ، وعندئذ تحدث الصدمة والدهشة والذهول ويتحقق الاحساس الفنى الاصيل •

ان الفن السريالى يتوسط الطريق بين التكعيبية والتجريدية • فالأولى لا تزال تستوحى الواقع الخارجى غير أنها تفكك هذا الواقع وتعيد بناءه بصورة جديدة • فهى تتغلب على مشـكلة البعد الثالث برده الى البعدين اللذين يتمثلان فى طول اللوحة وعرضها ، وتســمح لنا بأن ندور حـول الشىء دون أن نتحرك ، فالرائى هو المركز والعالم يدور من حوله • اننـا نعود مع التكعيبية الى هـــذه النظرة القديمة التى تجعل من الارض مركز الكون ومن الانسان مركز الوجود •

أما التجريدية فى التصوير فهى تنشد القيم التشكيلية البحتة دون أن ترمز هذه القيم الى أى موضوع خارجى • اللوحة التجريدية ليســت سوى سمفونية من الخطوط والمساحات والاشكال والألوان ، هى شـــبيهة بسمفونية موسيقية بحتة ونعنى بحتة أنها لا تحاكى شيئا ولا توحى بأية فكرة معينة بل هى نظام من الأنغام ترتبط وتتجاوب تبعا لنسب معينة • واللوحة التجريدية ان عبرت عن شىء فانها تعبر عن حرية الفنان المطلقة أن يلعب بالقيم التشكيلية كيفما يشاء ، فهى المرحلة الاخيرة لحركة تحرر الفنان من الواقع التى بدأتها المدرسة التكعيبية •

فالسريالية باستلهامها النموذج الداخلى الذى يحمله الفنان فى أعماق نفسه تتوسط الطريق كما قلنا بين التكعيبية والتجريدية ، غير أنها تعلو عليهما لأن الواقع الداخلى أكثر أصالة وغزارة من الواقع الخارجى ولأنها لاتقصر دلالة الاية الفنية على القيم التشـــكيلية البحتة • فهناك مضـــمون

انسانی ، وان كان غريبا ، مثيرا للدهشة ، ولكنه مضمون يعبر عن مكنونات نفســية الفنان ويعبر خلال الفنان عن بعض التيارات الفكرية والوجدانية السائدة فی بيئة الفنان الثقافية · ومن أهم سمات هذه التيارات القلق الذی يسيطر علی قلب الانسان العصری الانسان الذی أصبح يجهل مصيره · والواقع ان الفنان السريالی عندما يسقط علی لوحته هذه الاشباح المخيفة يحاول استئناس هذه الاشباح ليعيد الی نفسه المعذبة شــيئا من الطمأنينة والأمان وليضیء فی جوانب قلبه المظلم وميضا من الأمل ·

دفاع عن اللامعقول فى فن التصوير الأمريكى

نشرت (الصداقة) ـ فى عددها الصادر فى ٢٥ من أبريل ـ صورة من رسم الفنان الامريكى (كليفورد ستيل) ، تمثل مسطحا مستطيلا مطليا بطبقة سميكة غنية من اللون الأسود ، وفى جانبى المستطيل فجوات، تمزيقات غير منتظمة باللون الاحمر ، كما لو كان الاحمر يمثل النار التى بدأت تأكل جانبى الشكل وتعكس اشعتها على السطح الاسود .

وجاء تحت الصورة التعليق الآتى : (الصورة التى فوق هذه السطور .. أى والله صورة ! .. سواء صدقت أو لم تصدق . فان قارئة متحمسة كتبت الى مجلة (نيوزويك) الأمريكية تدافع عن الفنان الذى (أبدع) واسمه كليفورد ستيل ، ووصفت هذه (اللوحة) بالذات بأنهـا تمثل (شعور ستيل بنفسه العظيمة ، وذكائه وقوته) .. ويضيف التعليق : (لم لا ؟ .. انه عصر (اللامعقول) .

والواقع أنه يوجد سوء تفاهم ضخم بين الفنان المصور المعاصر وبين الجمهور ، ومن واجب مؤرخ الفن أو الناقد الفنى أن يبـذل كل ما فى وسعه من جهد للتخفيف من شدة سوء التفاهم هذا .

ولا بد لكى يبدأ الحديث بيننا وبين الفنان أن نقبل بعض (المسلمات)، وأن نجعل منها أساسا للحوار ، والا فمن الأفضل أن نقضى وقت فراغنا فى قراءة مجلة (ميكى ماوس) المصورة ، ولا أقول أن نقتصر على تذوق أعمال فنانى عصر النهضة مثلا ، أو فنانى المدرسة الهولندية أو الاسبانية أو أية مدرسة كلاسيكية ، لأننى أشك فى أن الجمهور يفهم مثل هـذه الأعمال ـ التى تبدو (سهلة القراءة) ـ كما يجب أن نفهم من الوجهة الفنية التشكلية . اننا نعتقد انه يكفى أن تكتب نبذة (أدبية) عن (موضوع) الصورة وما تثيره من عواطف وأفكار ، لكى نقرر اننا قد أصدرنا حكمنا على قيمة هذه الصورة .. أن منظر هذه الفاكهة يسيل اللعاب ! .. ما اجمل

هذه الطبيعة الصامتة ! ٠٠ وكم بودى أن أمد يدى لكى استشعر الملمس المخملى لقشرة هذه الخوخة اليانعة ! ٠٠

والملمس الحريرى للمفرش الذى يغطى المائدة ! ٠٠ كل هذا الكلام ينتمى الى دائرة الوصف الادبى ، لا الى دائرة التحليل الفنى التشكيلى ٠

ان المغالطة الأولى التى نحن ضحيتها ، هى استخدامنا لفظ (تصوير) الذى يوحى بأننا ازاء صور لأشياء يمكن نعرفها على التو وتسميتها بالاسماء نستخدمها فى حياتنا اليومية ٠ يجب أن نستبعد لفظ (صورة) ونستخدم لفظ (اللوحة) ٠٠ وان نعرف (اللوحة) بانها مسطح يحمل ألوانا موزعة بشكل معين وأن اللوحة فى صميمها غاية نفسها ، لا مجرد وسيلة لاستثارة أفكار نستخدمها فى صياغة قصة ٠

تلك هى المسلمة الأولى ، أما المسلمة الثانية ، فهى أننا ازاء انسان اختار أن يقضى حياته فى عمل لوحات ، وأنه أجاد فى عمله ، وأنه يريد أن (يعمل) ، أن (يصنع) ٠٠ لا أن يكون واعظا أو مبشرا أو مؤرخا ٠ ان من حقه أن يكون كل هـــذا ، ولكن عليه أن يكون ــ أولا ــ فنانا تشكيليا ، كما أن من حقه أن يكتفى بأن يكون فنانا تشكيليا فحسب ٠ ولا يعنى اقتصاره على فنه الخالص أن أعماله خالية من كل قيمة انسانية ٠ كلا ! ٠٠ ان لها قيمة انسانية بل لها دلالة انسانية عميقة ، لاتقل عما تعبر عنه لوحات فنان واقعى يدافع عن أيديولوجية معينة ٠

نقول ان الفنان انسان جاد ، بشرط أن يكون فنانا أصـــيلا ٠ نعم أن هناك من بين مدعى الفن مهرجين ومنافقين ، فكما توجد لوحات واقعية رديئة ، توجد أيضا لوحات تجريدية رديئة ٠ فمن الخطأ ان نظن ان الفن التجريدى لا يخضع لقواعد وانه متحرر من كل قيــد وأنه مجرد تلقائية مطلقة أو عشوائية عمياء ، وان الموقف الوحيد الذى يجب أن نقفه منه هو الازدراء والتهكم ٠

هب انك التقيت بأحد سكان جزر (جلاباجوس) فى المحيط الهادى ، واستمعت الى كلامه ، فهل من حقك أن تحكم عليه ٠ انه هذر وهذيان لأنك لا تفهمه ؟ ٠٠ عليك ان تعلق حكمك حتى تتعلم هذه اللغة الغريبة ٠

ولفن التصوير لغته الخاصة به · كما للنحت والموسيقى ··

ان المشكلة فيما يختص بفن التصوير ان العين التي نرى بها اللوحة لم تتعود سوى الرؤية النفعية ، وهى تحتاج الى تربيـة طويلة وشـاقة لكى ترتقى الى الرؤية الجمالية ، لكى تتعلم لغة الخطوط والاشـكال والألوان والعلاقات القائمة بينها ، ثم أضف بعد ذلك ما يروقك من تعليقات أدبية ، اذا كانت اللوحة تضعك فى عالم مألوف لديك ·

تلك هى المسلمة الثالثة ، التى تقرر ان لفن التصوير لغته الخاصـة به ، وانه يجب اعادة تربية العين من الوجهة الجمالية ، أو ـ بعبارة أدق ـ من الوجهة الاستطيقية ·

وهناك مسلمة رابعة خاصة بالفن التجريدى ، بالتصوير اللاتصورى، بالفن التشكيلى اللاشكلى ، باللوحات غير ذات الموضوع الواقعى المجسم أو المشخص ، وهى أنه من المتعذر التحـدث عن لوحة تجريدية معزولة عن سائر أعماله · ان الفن المعاصر ـ وان كان لابد من أن يظل محسـوسا بشكل من الاشكال ـ يتضمن أكثر من غيره دلالة سيكولوجية وفلسـفية عميقة ، هو مطبوع بطابع ذهنى يمكن استشفافه وراء الطابع الحسى ، وذلك بدراسة شخصية الفنان ودراسة لاشعوره · أن لمسات الفرشاة هى فى الوقت ذاته همسات فكرية ، واللوحة التى تتكون من منظومة من الاشارات والرموز ليست الا مرآة تعكس تأملات الفنـان ، لا فى العالم الخارجى فحسب ، بل بصورة خاصة فى العالم الداخلى الذى يعيش فيه الفنان فى أعماق نفسه · اصبح الفنان التجريدى لا يعبر عن نماذج خارجية ثابتة ومنسقة نسبيا ، بل عن نماذج خارجية ثابتة ومنسقة نسبيا ، بل عن نماذج داخلية هى أقرب الى البوادر والسـوانح واللمع منها الى أشياء جديدة أو أفكار واضحة ·

وبعد هـذه المقدمة التى لم يكن منهـا بد ، تمهيدا لفهم التيارات الجديدة فى الفن المعاصر ، نعود الى حديثنا عن (كليفورد سـتيل) وعن لوحته التى شوهها فى ذهن القارىء ما انطوى عليه التعليق من تهكم ، أو على أقل تقدير من دعاية بريئة ·

ينتهى (كليفورد ستيل) الى مجموعة فنانين أرادوا ان يطبعوا الحركة التشكيلية فى الولايات المتحدة بطابع جديد يختلف عن الطابع الأوروبى ·

فان نيويورك التى تنافس الآن باريس لكى تكون العاصمة الدولية لفن التصوير تأثرت منذ حوالى نصف قرن بمدرسة باريس • ففى المعرض الدولى ــ الذى أقيم فى فبراير ١٩١٣ ــ التقى الجمهور لأول مرة بالفن التكعيبى والفن التجريدى ، وكانت الصدمة الأولى •• ثم تلتها الصدمة التى احدثها الفن السيريالى ، غير ان هذه البذور لم تلبث طويلا حتى وجدت تربة خصبة ، واخذ الفنانون الامريكيون يجارون فنانى الغرب ، بل يفوقونهم ، فى المبالغة والتطرف ، وأخيرا حاول بعضهم انشاء أساليب فنية مبتكرة ، تحمل الطابع الامريكى ، كالحركة التى بدأها (جاكسون بولوك) و (فرانز كلين) و (دى كوننج) وهى تتميز بعنف الحركة وسرعتها وانفجارية الفعل وامتداد وانطلاق رغبة الحياة الجامحة • وهذا التيار الجديد يعبر عن صخب الحياة الامريكية وتوترها فى المدن الكبيرة ، وميل بعضهم الى التحقيقات السريعة التى تستسلم للعشوائية أكثر من أن تعتمد على التأنى والتبصر •

غير أن (كليفورد ستيل) لا ينتمى الى هذه المدرسة ، بل ــ على العكس من ذلك ــ يتجه اتجاها مضادا مع اثنين من كبار فنانى الولايات المتحدة ، هما (مارك رونكو) و (مارك توبى) • فقد أنشأ مدرسة جديدة تناهض تماما مدرسة نيويورك ، أطلق عليها اسم (مدرسة المحيط الهادى) ، لأنهم كانوا يدرسون الفن فى معاهد سياتل وسان فرنسيسكو ، وكانت انظارهم متجهة نحو الصين واليابان ، نحو فلسفة تنشد التأمل والسلام ــ فلسفة البوذية كما تمثلها مدرسة (زن) ــ ، نحو فن يتميز بالرقة والرشاقة ، فى قريب جدا من فن الخطوط الجميلة ، فن الكتابة برموز تحاول كشف المحجوب وراء المعطيات الحسية المألوفة •

ويرى فنانو مدرسة المحيط الهادى أن الفن المعاصر فى معظمه يمجد النزعات العدوانية التدميرية ، يمجد العنف واسالة الدماء ، ويعبر بصرخات ساخرة عن اليأس والتشاؤم ، ويزيد من جو الرعب والقلق الذى يكتنف انسانية اليوم • ان الموضوعات التقليدية التى كانت تبعث فى قلب المتذوق الهدوء والطمأنينة مثل مشهد غروب الشمس أو مداعبة أشعة القمر لاشباح الليل أو منظر طبيعى شاعرى حالم •• كل هذه الموضوعات فقدت اليوم دلالتها الرومانتيكية • فساكن المدن يجهل الطبيعة واذا رآها فان سرعة السيارة أو الطائرة تشوهها وتقضى على رونقها وسحرها •• فلا بد من العودة الى سذاجة الطفولة وبراءتها ، والكشف عنها من خلال تأملات روحانية ، وابتكار الكتابة الرمزية التصويرية التى تعبر عن هدوء

هذه التأملات وعمقها ، ولتكن حركة الفرشاة بطيئة عريضة هادئة تفصح عن اهتزازات النفس الخفية بلمسات هامة ·· ان النقاد الذين يصفون لنا لوحات روثكو وستيل يتحدثون عن الحياة الكامنة التي تجعل هـــــذه المسطحات العريضة من الألوان تهتز وترتعش برفق وحنان وبقوة اقناع تفوق لدى من يصغي اليها ويستسلم لها ، قوة اللوحات التعبيرية العنيفة التي تتشنج فيها ملامح انســــان القرن العشرين المعذب البائس ، والتي تتحول فيها أعضاء الانسان الى ما يشبه أشلاء الموتى !

ان من حق الفنان أن يحيا الحياة الروحية التي ارتضـاها لنفسه . وأن يعبر عن خبراته النفسية بالأســلوب الذي يرى أنه أكثر ملائمة من غيره لكي يصبح تعبيره صادقا أمينا ·

واذا كانت لغته التصويرية غامضة لنا وغير مفهومة ، فكل ما تقتضيه السماحة الانسانية هو الصمت أولا وقد ينبعث من أعماق هذا الصـمت لحن خافت من الاعجاب ، وحركة بادية من التجاوب والمشاركة ·

وأفضــل ما أختم به هــذا الحديث : ما يقوله (ستيل) نفسه في دفاعه عن رؤيته الفنية ·

(منذ أقدم العصور والفنان مطالب بأن يحافظ على قيم معاصريه · غير أن سجل الأعمال الفنية في معظمه ، يعبر عن الاحباط والســادية والمعتقدات الخرافية وارادة القوة والسيطرة · ان الشخص القلق المتوتر يجد ما يرضيه في الأعمال المهوشة المرتبكة التي ينتجها الفنانون الذين يتجاوبون معه ·· ان القيم التي تحويها هذه الأعمال ، لا تسمح باستشعار الراحة والسلام ، ويزداد الحقد المتبادل بين الفنان وجمهوره عندما يكتشف أن الخلاص أمر لا يمكن شراؤه ·

اننا نقوم الآن بعمل جديد ، لا يرمي الى تصوير اســـاطير بالية أو أساليب التهرب التي يصطنعها معاصرونا · على الفنان أن يتحمل تبعة ما ينفذه من أعمال · ومقياس عظمته في عمق فهمه واســتبصاره وفي شجاعته في تحقيق رؤيته الخاصة) ·

ان الطريق الموصل الى فهم أعمال ســتيل وروتكو وتوبى من اشق الطرق لانه طريق التأمل الهادىء العميق · لابد من أن تقوم بالرحلة الصوفية نفسها التي اجتازها الفنان في صمته الروحي ، كلما تشرق اضواء الليل فتعمق نظراته وتجلو رؤيته ، لكي نلتقي به ونتجاوب معه وعندئذ فقط ، يدور هذا الحوار الصامت الذي هو ذروة الاعجاب الجمالي ·

الاتجاهات المعاصرة فى الفنون التشكيلية (*)

شهد العقد الأول من القرن العشرين ثلاث حركات جديدة فى فن التصوير الوحشية والتكعيبية والمستقبلية • ولكل حركة من هذه الحركات الثلاث دلالة خاصة من حيث معالجة ثلاث نواحى من مقومات اللوحة هى اللون والشكل والحركة ومن حيث تأثيرها فى الحركات التشكيلية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى •

وقبل التحدث عن هذه الحركات وتمهيدا لفهمها وتقديرها يجدر بنا أن نتناول بالبحث احدى الظواهر الهامة التى تميز بصفة خاصة الفن المعاصر ، هى ظاهرة تشويه الشكل ، أو عدم مراعاة الشبه بين الصورة والنموذج • وقد يعترض على استخدام لفظ « التشويه » فى مجال الفنون الجميلة بحجة أن التشويه يفيد معنى التقبيح ولكن ليطمئن المعترضون اذ أن الأشوه من النعوت المتضادة المعنى فهو القبيح أو المليح فقد يكون التشويه اذن اما موضع استنكار أو استحسان ، وقد يكون من الوسائل القوية للتعبير الفنى ، بل قد يكون من مقتضيات الفن التشكيلى •

والواقع أن هناك نوعين من التشويه : تشويه الشكل الظاهرى وهو معروف بالتشويه التعبيرى وتشويه البناء وهو المعروف بالتشويه الجوهرى أو التشريحى • التشويه التعبيرى يحترم القانون الكلاسيكى وقد أستخدمه مصورو عصر النهضة فى القرن التاسع عشر • فقد يغير المصور من شكل بعض أجزاء الجسم كالوجه والعنق واليد والاصابع وذلك لتأكيد الأثر التعبيرى أو لابراز الرشاقة ولكن دون القضاء على قواعد الرسم الكلاسيكى ، هو ضرب من اللعب بين الواقع والأشكال المصطنعة المألوفة • اما التشويه

---

* حديث اذاعى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٠ •

الجوهرى أو التشريحى فهو خاص بالفن الحديث المعـاصر ، وهو نوع من اللعب بين الواقع وبين المقتضيات التى تحتمها عدة عوامل مثل مســاحة اللوحة ، انطلاق خيال الفنان ، ابتكار أشكال جديدة ، الايحاء بفضاءات خيالية ، تحقيق التوازن والربط بين أجزاء اللوحة · اننا نشاهد مثل هذه التشويهات الجوهرية فى الشكل فى بعض لوحات سيزان وبصفة خاصة لدى ماتيس وبيكاسو وغيرهما من المصورين العصريين ، أى لدى فنانين أرادوا أن يحرروا رؤيتهم من التقاليد القديمة وان يكتشفوا لغة التصوير الأصيلة كما استخدمها مثلا قدماء المصريين بوجه خاص وفنانو الشرق بوجه عـام ·

وما قلناه عن تشويه الشكل يصدق أيضا على تشويه اللون · ولنأخذ مثلا الحركة الاولى التى ذكرناها فى مطلع هـــذا الحديث وهى الحركة الوحشية ، أولى الحركات الفنية الثورية فى القرن العشرين · ففى عام ١٩٠٥ عرض اثنا عشر مصورا لوحاتهم وكان زعيمهم ماتيس · فأثار هذا العرض ضجة استنكار عنيفة فى الأوساط الفنية · وازدادت المقاومة عنفا أثناء المعرض الذى أقيم عام ١٩٠٦ · ولم يطلق هؤلاء المصـورون اسم الوحشيين على أنفسهم بل أطلقه أحد النقـاد ، فعندما دخل قاعة العرض لمح فى وسط القاعة تمثالا صغيرا منحوتا حسب أسلوب فن النهضة ، فقال (دوناتللو بين الوحوش) لم تحتفظ حركة الوحشيين طويلا بعنفها الأول فاذا ظل ماتيس مخلصا لروحها تحول عنها البعض اما بالعودة الى الأسلوب الكلاسيكى أو باكتشاف أسلوب شخصى جديد كما ان فرعا جديدا أخذ ينمو فى الحركة المعروفة بالتعبيرية ، خاصة فى ألمانيـا وبلجيكا ، حيث تغلب الجانب القصصى أو الانفعـالى على الجانب التشكيلى البحت ·

ويمكن تلخيص مبادىء الوحشية فيما يلى : منح المقام الأول للألوان الفاقعة الساخنة الخالصة كما تخرج من الأنبوبة ، تساوى القيمة الضوئية فى جميع أنواع اللوحة ، بناء الفضاء بواسطة الألوان ، اضاءة السـطح المنبسط المفلطح دون تجســيمه بواسطة الظلال ، تبسيط الوســائل وتنقيتها ، تحقيق التوازن التام بين التعبير أى الايحاء الانفعالى والزخرفة أى التنظيم الداخلى وذلك بواسطة التلوين · ويجدر بنا ان نشير هنا الى أن تغلب الايحاء الانفعالى على الزخرفة والتنغيمات الجزئية أدى الى الحركة التعبيرية التى سبق ذكرها ·

وبعد عام ١٩٠٧ أخذت حركة الوحشية تخف حدة وتأججا فحلت

محلها حركة ثورية جديدة بزعامة بيكاسو وبراك وقد أطلق النقاد على هذه الحركة اسم التكعيبية وذلك على سبيل السخرية والازدراء ، لأن اللوحات التى كان يعرضها بيكاسو وبراك تبدو انها مكونة من مكعبات متداخلة أو مصفوفة الواحد بجانب الآخر • لم يوافق أصحاب هذه الحركة على التسمية التى أطلقت عليهم ، فهم يرفضون ان يعدوا من بين أصحاب النظريات ، وبهذا الصدد يقول بيكاسو اننا عندما نصور تبعا لهذا الاسلوب الجـــديد فاننا لا نرمى الى أنشاء التكعيبية بل الى التعبير عما فى أنفسنا ، والمشكلة الأساسية التى واجهها بيكاسو وبراك تتلخص فى ابتكار وسيلة جديدة لتمثيل الاحجام الملونة على سطح ذى بعدين ، دون الخضوع لمظاهر الواقع المتغــيرة العــابرة ، انهمــا على طـرفى نقيض من الانطبــاعيين • وتمخضت الحركة التكعيبية عن لغة تشكيلية جديدة تمتزج فيها العناصر الوجدانية والعقلية • فالتكعيبيون يحاولون ان يحددوا الخصائص الثابتة للأشياء وأن يوحوا بثبات الأشياء واستقرارها فى فضاء مغلق دون منظور ودون ظلال واضواء وذلك عن طريق ضرب من التبلور الهندسى أوحى به سيزان من قبل • وموضوعات اللوحات التكعيبية مقصورة على أشـــياء بسيطة : أشجار ، منازل ، أوان ، آكواب ، ثم بعد ذلك المناضد وبعض الآلات الموسيقية ؛ وكلها أشياء يمكن ردها الى أشــكال هندسية ؛ بل أخذ بيكاسو يتناول الأشخاص بأسلوبه الجديد فمالت المكعبات الى أن تكون مسطحات متداخلة ذات جانبين أحدهما فضاء والآخر مظلل فأصــبحت الأشكال مزدوجة المنظور تبدو أحيـــانا بارزة الى الأمام وأحيـانا أخرى منسحبة الى الخلف • وبقصد ترك الشكل يتحدث عن نفسه ، مهما تكن درجة التشتت أو التشويه ، أصبحت الألوان فى المرتبة الثانية واقتصر بيكاسو وبراك على استخدام لون أو لونين من الالوان الباردة مثل الرمادى والبنى الخفيف • فى نفس الوقت تغير تكوين اللوحة فبدلا من ان يقف المشاهد بعيدا عنها دعته الى الدخول فيها والى أن يدور حول الشكل ناظرا اليه من جميع زواياه فى آن واحد • فقد ابتكر التكعيبيون بهذه الطريقة فضاء تشكيليا جديدا يعد محاولة لحل مشكلة الحركة واستمرارها بصورة مبتكرة جديدة • فقد حلت النظرة المتزامنة محل النظرة المتتابعة ، اى حل التآنى محل التتالى كما لو كان المصدر يريد أن يلخص فى شكل واحد جميع جوانب الشىء أو كان المشاهد يدور بسرعة حول الشىء فينطبع أثر أحد الجوانب على شبكية العين ولا يزال حتى يحدث أثر جانب ثان ثم ثالث فتتراكم الآثار وتتجمع وتندمج اللحظات المتتالية فى لحظة واحدة مما يوحى باستمرار الزمن • هذا يفسر لنا بعض اللوحات الغريبة التى تمثل الرأس

مجابها والأنف جانبيا أو تمثل الوجه جانبيا والعين مجابهة كما فى رسومات قدماء المصريين ٠

يميز بعض مؤرخى الفن الحديث ثلاث مراحل اجتازتها الحركة التكعيبية من ١٩٠٧ الى ١٩١٠ ثم المرحلة التحليلية من ١٩١٠ الى ١٩١٢ ، واخيرا المرحلة التأليفية أو التركيبية وقد اعترض بيكاسو على استخدام لفظى التحليل والتركيب ٠ فالفنان ليس بعالم ، غرضه هو ابتكار الاشكال وعندما يتم تصوير الشكل يصبح وحدة قائمة بذاتها تحيا حياتها الخاصة ٠ وكان بيكاسو يكرر قوله المشهور « اننى لا أبحث بل اجد ولا اعرف ما كنت أبحث عنه الا بعد ان اجده » يريد بهذا القول أن يؤكد ان الصدارة فى الفن ليست للموضوع الخارجى بل لقدرة الفنان على الابداع وعلى خلق أشكال جديدة ٠

ويبدو لى ان التكعيبية ترجحت ، لا بين التحليل والتركيب ، بل بين التجريد والتجسيم ، بين استلهام مخيلة الفنان المبدعة واستلهام الواقع ، بين القيم الشكلية الهندسية البحتة والقيم اللمسية ٠ فالمرحلة المعروفة بالتركيبية تتميز بالعودة الى الواقع وادخال اجزاء من الأشياء فى اللوحة بلصقها وادماجها فى الصورة كقطعة من الورق أو النسيج أو أجزاء من نشارة الخشب أو حبات من الرمل ٠

ثم طغى الجانب الحسى على الجانب العقلى فى لوحات التكعيبيين بالعودة الى الألوان بعد عام ١٩١٤ كما نشاهد ذلك فى بعض أعمال بيكاسو ولوحات جوان جرى وديلونى وهذا الانسجام الذى تحقق من جديد بين العنصر الحسى والعنصر العقلى ، بين اللون والشكل ، اكسب اللوحة مزيدا من التنغيم والموسيقى ٠

ان الحركة التكعيبية بوجه عام ، على الرغم من تطرفها ومن محاولاتها الجريئة لقلب الأوضاع المألوفة ، لم تكن حركة عابرة فروحها لايزال حيا نابضا فى أعمال الفنانين المعاصرين ، بل قد تجاوزت آثار هذه الحركة حدود التصوير الى النحت والى العمارة ، بل الى الحياة اليومية فى شكل الأوانى التى نستخدمها وفى تصميم الموبيليا وفى الزخرفة الداخلية ٠

فالحركة التكعيبية لم تستوح الواقع ولم تستمد الهامها من الحياة اليومية ومع ذلك طبعت الواقع والحياة اليومية بطابعها الخاص لانها لم تكن محاكاة عمياء تستأثرها المظاهر المألوفة بل كانت حركة ابداعية خلاقة ولهذا السبب شكلت كثيرا من مظاهر الحياة اليومية بشكلها ٠

اما الحركة الثالثة التى سنتحدث عنها الآن ـ وهى الحركة المستقبلية ـ فقد سارت على نهج يتعارض تماما مع نهج التكعيبية ولهذا السبب فشلت ولم تترك أثرا يذكر فى عالم فن التصوير . أصحاب هذه الحركة جماعة من الشعراء والمصورين الايطاليين بزعامة الشاعر مارينتى الذى نشر نداءه الملتهب فى عام ١٩٠٩ على صفحات جريدة الفيجارو فى باريس . فهو يقول : سنتغنى بحب المخاطرة ، سنمجد القوة والشجاعة والجرأة والثورة والحب . ان روعة العالم قد ازدادت بجمال جديد هو جمال السرعة . أحرقوا المكتبات ، اغمروا المتاحف بالحياة حتى تطفو على سطحها لوحات الماضى ، اننا نتحدى نجوم السماء ! . وقد تعاقبت النداءات والتصريحات منادية باغفال الماضى وبتمجيد المستقبل وبتأليه الحاضر الذى يتميز بالقوة الجبارة والحركة المتدفقة والسرعة الجامحة ، يجب التخلص من نير بعض الألفاظ التى تفيد الانسجام والذوق السليم ، يجب القضاء على النقد الفنى لأنه عقيم ، بل لأنه صار يعرقل سير التقدم .

والمستقبليون يستلهمون السرعة والحياة لصاخبة كما تبدو فى المصانع وفى الشوارع المزدحمة بالسيارات والمارة ولكن الوسيلة التى لجأوا اليها لتمثيل الحركة والسرعة وسيلة طفلية ساذجة للغاية ، فهم يمثلون الجواد الذى يعدو لا بأربعة أطراف بل بالعشرات وذلك بالاشارة الى الأوضاع المتتالية التى تتخذها رجل الجواد أثناء جريه . ألم يتأمل هؤلاء المستقبليون فى لوحات جيريكو التى تمثل سباق الخيل فى ابسوم ، الم يشاهدوا تمثال رودان « الرجل الذى يمشى » وهو يوحى بالحركة بصورة فنية رائعة على الرغم من انه تمثال لا يتحرك .

ان خطأ المستقبليين انهم قدموا النظرية على احساسهم الفنى ، اعتقدوا ان الفن يجب أن يعبر مباشرة عن قطاعات من الحياة وأن يكون صورة صادقة عارية عما يدور حولنا . ولكن كيف يمكن ان يقوم فن بدون رمز وايحاء ، بدون ايهام وتلبيس ؟ وكيف يمكن أن يحقق الفن رسالته فى هذا الجو الصاخب من النداءات العدوانية الهدامة ؟ نعم ان الحركة المستقبلية كانت صدى وانعكاسا لعصرها ولكنها لم تكن حركة فنية لانها بدأت فى صورة حركة فكرية وظلت محصورة فى دائرة الألفاظ والنظريات وعند نشوب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ تفرق اتباعها فتحول أحدهم الى الأسلوب التكعيبى وارتد غيره الى الواقعية الأكاديمية على حين حاول ثالث تحقيق مبادىء المستقبلية فى مجال الموسيقى فقبال بالضوضائية .

وان لم يترك المستقبليون تراثا غنيـا فانهم أثروا فى حسـاسية معاصريهم باسترعاء انتباههم الى مظاهر المدنية الحديثة ، كما انهم اثروا فى حركة الشعر المرسل ووضعوا بعض البذور التى ستنمو بعد انتهـاء الحرب فى الحركة الفوضوية المعروفة بالدادائية والتى تمخضت عن التيار السريالى فى الأدب والفنون التشكيلية وهذا ما سـنعالجه بالتفصيل فى حديثنا المقبل ٠

فى النقـــد الأدبى

هل من جديد فى فن القصة ؟ (*)

ما أكثر أساليب فن القصة ! الأسلوب الواقعى ، المثالى ، الرمزى ، الوجودى القصة التاريخية التى تروى الأحداث فى جو فاتن من الخيـــال والشعر ؟ القصة الخيالية التى تخشى أن تتبخر حوادثها فتتجه خيوطهـــا نحو أسفل نحو عالم الواقع الملموس القصة الاجتماعية التى يكافح أبطالها فى سبيل المساواة والعدالة ؟ القصة الفلسفية الهادئة التى تصف بتهكم عادات الناس وأخلاقهم ، القصـــــة التحليلية التى تســـبر أغوار النفس الانسانية فتتصـــــور لنا العواطف والاهواء من غرام وحب وبغض وغيرة فتفسر نشأتها وتطورها بل تصادمها وتفجيرها .

عالم شـاسع تمتد اطرافه من الـكوميديا الالهية الى الـكوميديا البشرية ! هل ترك القصصى ركنا واحدا من أركان الحياة ، مهما كان خفيا منزويا ، دون أن يسلط عليه أضواءه التحليلية ؟

هل من جديد فى فن القصة ، فى موضوعها ، فى حبكتهـــا ، فى أسلوبها اللغوى ، فى سير أحداثها ؛ فى توقفاتها ومفاجاتها ، فى اثارة شتى الاحاسيس والانطباعات فى عقل القارىء وقلبه ، من اســـتحسان وتعجب ، من نفور وملل ؛ من غثيان واشمئزاز ، بل من يأس وقنوط أمام سخافة الانسان وحقارته ؟

نعم ، هناك جديد فى فن القصة ؛ ومن الذين يقررون ذلك سارتر نفسه الذى فتحت قصصه عهدا جديدا فى هذا الفن ، فتجســـده المذهب الوجودى فى أبطاله الحائرين بين الوجود والعدم ؛ الذين طحنهم القلق وهدهم الغثيان وحصرتهم الحرية المطلقة داخل جدران العزلة المظلمة . أين المفر من سخافة الآخرين اذا كان الشخص نفسه مغمورا فى سخافته الذاتية !

فلابد من الرجوع الى الحياة النابضة ، الى جذور هذه الحياة قبل أن نفرغ صورها فى قوالب اللغة المألوفة ، الى هذه الهمسات الخافتة التى

(*) جريدة «وطنى» ، ١٩٥٩

لم ترتق بعد الى مستوى الكلام الملفوظ والعبارة المسموعة • أليست الحياة التي لاتزال قريبة من ينبوعها أكثر نقاوة وأشد تدفقا وأعمق اصالة قبل ان تركد وتستوى فى أسفل الوادى ؟

هذا ما حاولته أديبة ناشئة ، روسية المولد فرنسية الثقافة اسمها ناتالى ساروت تجرى فى عروقها دماء دوستويفسكى وتتردد بين صدغيها اصداء مرسيل بروست • يغوص الأول فى أعماق النفس البشرية فيسلط على مكنونات اللاشعور انواره الكاشفة ، ويعود الثانى الى أقاصى الماضى ليعيد نبضة الحياة الى الزمن المفقود ، وكلاهما ، دون أن يشعر ، يقف موقف العالم الذى يحلل لكى يفسر ويبرر ، فيبدو الغريب فى ضوء منطق العاطفة عاديا ومألوفا وتتضح شبكة الروابط والعلاقات فتضيق حلقاتها رويدا رويدا حتى لا تفلت حركة واحدة من حركات النفس دون أن تستقر فى مكانها داخل النظام الذى يضمها ، والحبكة التى تطويها •

اما ناتالى ساروت ، فهى لا تدعى العلم بأسرار النفس البشرية ولا تحاول ان تفسر أو أن تبرر ، كما انها لا تدعى انها تقص قصة بمفهومها المألوف ، فلا تسعى الى الربط والحبك • فليست هناك حوادث تتسلسل فتتعقد حينا وتنفك حينا آخر • ان المياه لا تزال تغلى حول ينبوعها ، فلم تنحدر بعد نحو الوادى ولم تلتزم بعد شكل المنحنيات والمنخفضات ولم تستو بعد هادئة رزينة تنعكس عليها دون أن يتعرج سطحها الاشياء التى تحيط بها •

فقصص ناتالى ساروت تتحدى القصة ، فالحبكة تكاد تكون معدومة، والموضوع — اذ لابد من أن يكون هناك موضوع للقصة — لا يتكون من حوادث تتابع فى الزمن ، بل من حوادث قليلة تافهة تقع فى آن واحد أو تكاد كما انه لا يتكون من سلسلة احاديث تعبر عن افكار مترابطة ، وان كان لابد من سيل من الألفاظ والكلمات لملء الثلاثمائة صفحة التى تتكون منها القصة ، من الفاظ مستمدة من اللغة التى نستعملها لتوصيل المعانى الى الآخرين • ولابد من أن تعبر هذه الالفاظ عن شيء ما ولكنه ليس شيئا مألوفا يجد قوالب اللغة وصيغها مهيأة تمام التهيؤ للتعبير عنها ان ناتالى ساروت لا تتناول فى قصصها — مثل « صورة مجهول » ، « مارترو » ، «انتماءات» — هذه الموضوعات الخالدة التى الهمت كبار الكتاب . فهى لا تتحدث عن الحب والبغضاء والغيرة والجشع والطموح والجحود والخيانة والبطولة وما اليها ، بل تتناول هذه العواطف فى طورها الجنينى ، فى شكلها الرخو المائع وقبل أن تكون قابلة أن تسمى بهذا الاسم أو ذاك •

ومع ذلك فان أشخاص القصة لا يلبثون طويلا حتى تدب فيهم الحياة وعلى الرغم من انهم نكرة وغفل من الاوصاف الاجتماعية الدقيقة فانهم يمثلون نماذج حية واقعية من بنى الانسان ٠

القصة عند تتالى ساروت أشبه ما تكون بلوحة المصور ، وأسلوبها فى العمل الفنى شبيه بأسلوب المصور ٠ فالصورة فى مراحلها الاولى تكون غامضة المعالم ، هى عبارة عن بقع ملونة متناثرة من هنا وهناك ، ثم تتكرر اللمسات فيبدأ الشكل الكلى يتضح تدريجا ، ثم يزداد وضوحا كلما ازداد تعانق الخطوط بعضها مع بعض ، وسرت العدوى اللونية من بقعة الى البقع التى تجاورها وانبعث من اللوحة كلها جو متحرك من الاضواء والظلال٠ وتذوق اللوحة لا يتم جزءا جزءا وان كان يتم على مراحل ، فهو انتقال من كل غامض الى كل أكثر وضوحا ولا تكتسب الاجزاء سحرها الفنى الا بفضل اندماجها فى الكل فيقوم بينها حوار ، يبدأ همسا خفيفا ثم يعلو ثم يتضخم ثم يهبط فجأة ، لا لأن القيم الفنية استنفدت جاذبيتها ودلالاتهـا بل لأن المتذوق قد وصل الى درجة التشبع ، الى قمة قدرته على التأثر ، وليس من الغريب ان يعقب هذا التشبع احساس بالوحشة والفراغ ٠ ثم ماذا ؟ لاشيء ٠ ان الاوتار قد شدت الى اقصى مداها فانعدم اللحن وماتت النغمة ودوت صرخة حادة ، بل صرخة صامتة من شدة حدتها ، صرخة استفهام !

ثم ماذا ؟ لا شيء سوى عودة الحياة المألوفة الرتيبة ، والكلام المتداول المتواتر ، فقد التحمت القشرة وسمكت وزال الدوار ورسخت الاقدام على الأرض الصلبة وعاد القناع الى سكونه وجمدت الابتسامة وخبت النار فى اعماق العينين ٠

هيا أيها الخادعون المخدوعون البسوا اقنعتكم وعودوا الى عملكم اليومى الرتيب ، ان عجلة الحياة يجب ان تدور ! ٠

ان القصة عند ناتالى ساروت تدور على لسان الراوى ٠ ويحـاول الراوى أن يتقمص شخصية بطل الرواية والشخصيات القليلة التى تدور فى فلكه ، يتقمص الشخصية لا فى صورتها الظاهرية بل هـذا الجانب الغامض منها الذى لم يتبلور بعد والتى تتكون عنده الفقاقيع التى سـوف تنفجر عند السطح ناشرة سمومها وروائحها الكريهة ٠

وللراوى حاسة مرهفة تسـمح له بأن يلتقط الهمسـات الخافتة واللفتات السريعة والايماءات الخاطفة التى تعبر عما يعجز الكلام عن التعبير عنه ٠

فيبدأ تحليل الراوى ينخر ببطء فى عظام الآخر ، فيتسلل نحو الداخل فتكرر اللمسات الخفيفة فتزداد الكوة الفاضحة اتساعا داعية القارىء لولوج هذا العالم المظلم من الشك والتردد ، من الرياء والمكر ، مكر الضعفاء المذلين ٠

ثم ماذا ؟ لا شيء ٠ ان الراوى نفسه يصـــاب بالدوار فيسرع الى الخارج ، فيلتئم الجرح الدامى من جديد ، ويهبط الجميع الى الوادى حيث تتباطأ المياه فى سيرها عاكسة توافه الحياة اليومية .

ان قراءة قصص ناتالى ساروت مشوقة للغاية على الرغم من اسراف الراوى فى التحليل من تكرار لمساته وترديد النغمة الاساسية التى تثير من حولها شتى التنويعات ، كأن القارىء يصاب بما يشبه الهلوسة الذاتية ٠ يقرأ القصة من جديد من شكلها الرخو المائع الى شكلها الواضح الثابت فيعود القناع الى الوجه وتعود الابتسامة الزائفة الجامدة ولا يسع القارىء الا أن يصرخ بدوره ، هل أنا كل هذا العالم من المتناقضات ؟

محنة النقد الأدبي (*)

هل كان في مقدور شخص آخر غير فرويد أن ينشىء التحليل النفسي؟ هذا مثال من الأسئلة السخيفة التي ترد أحيانا للذهن عندما يسترسل في تيار من التفكير المفكك • والاجابة عن الاسئلة السخيفة تكون دائما بالنفي والايجاب معا • ولكن هناك سؤالا آخر ، سؤالا أوليا أساسيا ، يجب أن يطرح قبل المضي في حركة التساؤل وهذا السؤال الجوهري معقول جدا وبعيد كل البعد عن السخافة والحماقة ، وهو سؤال يفرض نفسه فرضا عندما نلقي نظرة ، ولو سريعة ، لا على الحركات الادبية والفنية فحسب ، بل على الحركات العلمية ذاتها ، سؤال أجاب عنه من قبل العالم داروين عندما قال « لو درى الناس كيف نبدأ بحثنا العلمي واطلعوا على ما يدور في خلدنا من أفكار عندما نشرع في حل أي مشكلة علمية لرمونا بالبله والسخف » هذا السؤال هو : هل توجد أسئلة سخيفة ؟

لا توجد أسئلة سخيفة ، وهذه ميزة العقل الكبرى ! ان الخطأ هو الطريق الموصل الى الحقيقة ، وان لم يوصل الخطأ دائما صاحبه الى الحقيقة فانه كفيل بأن يوصل غيره • ولكن ما صلة كل هذا بموضوع النقد الادبي ، واذا كان كل هذا صحيحا فكيف يحق لنا ان نتحدث عن محنة النقد الادبي ؟ واذا كان يحق للعالم ان يطرح ما شاء من الاسئلة السخيفة فانه أولى بالأديب أو بالفنان ان يسلك هذا الطريق وان يسير فيه الى أي مدى دون قيد ولاشرط ، تاركا لنفسه العنان في الخلق والتعبير !

اني اسمع زئيرا وأرى انيابا تنكشف وترسل بريقها ، وأكاد أحس بالضربة التي ستنزلها على هـذه العضلات المشدودة المتحفزة للوثب والهجوم ، ثم تهدأ الثورة ، ويختفي تقوس الظهر وترتخي عضلات المنكبين وينفرج الفم عن ابتسامة ساخرة وتنطلق العبارات اللاذعة ويحل التهكم الرفيق محل التهجم العنيف • ثم يرتفع الزئير مرة ثانية ••

هذا ما يحس به القارىء عندما يسير في صحبة آتيامبل أستاذ الأدب

(*) جريدة «وطني» ، ١٩٥٩

بجامعة باريس ، وهو يقوده فى دهاليز ومتاهات الأدب المعاصر • فقد نشر المؤلف مجموعة من المقالات ظهرت فى عدة مجلات فى فرنسا ، والارجنتين والولايات المتحدة ومصر ، اذ ان اتيامبل كان أستاذ الادب الفرنسى بجامعة الاسكندرية بعد الحرب العالمية الثانية • جمع هذه المقالات فى مجلدين بعنوان طريف هو «علم الصحة الادبية» كما نقول مثلا «علم الصحة البدنية» أو «علم الصحة النفسية» وخصص المجلد الأول للمعلومات الاولية وافتتحه بفصل فى النقد • واطلق على المجلد الثانى « الادب الذى حطم أغلاله » ، وفيه يشن اتيامبل حملة شنعاء على الادب •• لا أدرى كيف أنعته ، هـل أقول الادب الهادف ، أو المقيد ، أو الملتزم ، أو المتعهد ؛ أو الخاضع ؟ أعتقد أن هذه التسمية الأخيرة هى أنسبها ؛ نعم الأدب الذى يسير فى ركب غير ركب الأدب ؛ الأدب الخاضع للاستالينية ، وللتعاون مع العـــدو الذى احتل أرض الوطن ، أوالخاضع للاستعمار ، أى الادب الخاضع الخادع • وربما أروع ما ورد فى هذا المجلد الثانى الخطاب المفتوح الذى وجهه اتيامبل الى الخادع الاكبر سارتر ، يعلن فيه عن أسباب انقطاعه عن الاشتراك فى تحرير مجلة « الازمنة الحديثة » التى يديرها سارتر •

تلك هى الامراض التى يريد صاحب كتاب «علم الصحة الادبية» ان يقينا منها • ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا اخترت لهذه الكلمة عنوان «محنة النقد الادبى» • ألم يكن من الانسب ان اقول «محنة الادب» أو ان أقول ، تلميحا الى قصة هركل ، «يجب تطهير اسطبل الآداب» • خاصـة وان اتيامبل لم يقصر هجومه على الادب الخاضع بل تناول أيضاً كل هذه الحركات الغريبة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى مثـــل الدادائية والسريالية والصـــوتية فى الشـــعر ، حركات قامت بزعامة اثنين من الرومانيين هن ترستان زارا وايزيدور ايزو ، ومما يثير غضب اتيامبـل وحدته ان هذين المجددين ادعيا لانفسهما الحق فى اصلاح اللغة الفرنسية والشعر الفرنسى !

نعم كان يجب على ما يبدو أن أعنون مقالى « محنة الأدب » لولا الفصل الذى صدر به المؤلف كتابه وهو يتحدث فيه عن النقد • أليس كتاب اتيامبل كتابا فى النقد ، ألم يسلك فيه مسلك الفارس دون خيتشوت الذى قام يهاجم ؟ الم يحاول ان يهزا بالنقاد الذين سرت فى دمائهم سموم التحليل النفسى فأصبحوا ينظرون الى العمل الأدبى كأنه ضرب من التعويض عن الكبت الجنسى فحسب ، أو يعدون القصيدة بديلا عن الاحتلام ويقلبون معايير النقد والتذوق رأسا على عقب ! ألم يهاجم النقاد الذين لاينظرون الا من زاوية السوسيولوجيا الماركسية أو التحررية الوجودية ! كل هذا

صحيح ولكن ما هى المعايير التى اصطنعها لنفسه اتيابل لينقد باسمها اعمال الآخرى ؟ هل هو من انصار النقد الدجماتيكى ، أو النقد الانطباعى ؟ انه يبحث فى هذا الفصل عن معايير النقد الادبى ، ثم ينتهى الى آن هذه المعايير لا وجود لها نعم انه يقول • بامكان نقد بعض التفاصيل ويكون هذا المعيار هو اما سلامة اللغة أو وضوح الفكرة وحسن اختيار الألفاظ التى تناسب المقام ، ولكن أين المعيار الذى يسمح لنا بأن نصدر حكمنا على العمل فى مجموعه ؟ • نعم انه يعود فيقول انه يجب على الناقد أن يستغل كل امكانياته الفكرية والحسية ولكن عمومية هـذا الحكم تفقد قيمته كمعيار للنقد وتترك الباب مفتوحا لشتى التأويلات فتظل السخافات قائمة تسخر بالهازئين بها ، بل تسخر بنفسها هذا هو أيضا منتهى العقل !

واذا كانت هناك محنة أصابت الادب فلا عجب ان تصيب ايضا النقد الأدبى • أليس النقد الأدبى فى نهاية الأمر لونا من ألوان الأدب ؟

فى الفلسفة

علم النفس الوجودى *

ان لفظ الوجودية يجذب الفكر توا الى مجـــال الفلسفة ، ومن حق القارىء أن يتساءل ما اذا كان الحـــديث عن علم نفس وجودى سيتناول تأملات فلسفية تخرج علم النفس من دائرة العلم ٠

ليس من اليسير أن نجيب جوابا قاطعا على هذا السؤال وأن نقرر أن البحث فى طبيعة علم النفس وموقفه من سائر العــلوم يقتضى تجنب أى نظرة ميتافيزيقية ــ ولا أقول نظرة فلسفية لانه من شأن المنطق وفلسفة العلوم أن يتناولا بالبحث والمناقشة طبيعة العــلم وعلاقة العـــلوم بعضها ببعض ٠ كما أنه ليس من الممكن أن نقرر أن علم النفس ليس بعلم ٠ وان كان من حقنا أن نتســاءل ما اذا كان علم النفس من حيث منهجه ويقينية حقائقه وقدرته على التنبؤ شبيها بعلم الفيزياء مثلا أو مختلفا عنه

يتضح من هذا أن التعرض لأية مدرسة من مدارس علم النفس أو لأية وجهة من وجهات النظر المختلفة يثير عددا من المشكلات الأساسية التى تتناول مفهوم الفلسفة والعلم والواقع والموضوعية ، وأن كل حكم تصدره عن قيمة التجريب والقانون العلمى يقوم ان صريحا أو ضمنيا على مصادرات ومسلمات توحى بها فلسفة من الفلسفات ٠

فمن الطبيعى أن يتجه ذهن القـــارىء الى الربـــط بين الفلسفات الوجودية المعاصرة وبين وجهـــة النظر الوجودية فى علم النفس ، غير أن النقطة الاســـاسية التى يجب تجليتها هى معرفة ما اذا كان علم النفس الوجودى يمكن اعتبـــاره علما ، وما اذا كان يبدأ من الواقع ويعتمد على الخبرة والتجربة ، وان الحقائق التى يقول بهـا ليست من نسج الخيال بل انها لا تقل واقعية عن حقائق علم الطبيعة وانها تمدنا بوسائل فعالة للتأثير فى شبكة العلاقات القائمة بين الشخص وما يحيط به من مواقف٠

(*) «المجلة» ، اكتوبر ١٩٦١ ٠

ان بعض الباحثين فى علم النفس وبعض من يتنـــاولون موضوعاته بالعرض والتأليف يشعرون بالحاجة الملحة الى تصدير كتاباتهم بالقول بأن علم النفس قد تحرر نهائيا من القيـــود التى كانت تربطه بالفلسفة وأن أقوى دليل على ارتقاء السيكولوجيا الى مرتبة العلوم التجريبية هذه المعامل وما تحويه من أجهزة وآلات وهذه الجداول الحسابية والمعادلات الاحصائية والرموز الرياضية التى يســـتخدمها الســيكولوجى لمعـــالجة مادة بحوثه واستخلاص نتائجها ٠

ولكن هناك ظاهرة غريبة جديرة بأن تسترعى انتباهنا وهى أن الازمة التى انتابت العلم بوجه عام والعلوم الانسانية بوجه خاص فى مطلع هذا القرن هى التى دفعت الفيلسوف الألمانى «هوسرل» (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) الى انشاء الفنومنولوجيا ، وهى فلسفة غير مذهبية ، أو بالاحرى أسلوب فى التفكير يرمى الى طرح المستبقات الذهنية جانبا للـكشف عن دعامة أولية للعلوم النفسية والاجتماعية والتاريخية ، وللقضاء على هذه الثنائية المفتعلة التى تقابل بين الذاتية والموضوعية والتى كانت ولا تزال فى بعض المدارس «فضيحة» علم النفس ٠

ان علم النفس الوجودى المعـــاصر نشأ فى أحضـــان الفنومنولوجيا وترعرع فى كنف الفلسفات الوجودية(١) فهو بحكم نشأته الاولى من حقه أن يعد نفسه علما خالصا ما دامت الفنومنولوجيا تحـــاول وضع الدعامة الاولى للمعرفة العلمية اليقينية ، وبحكم اندماجه فى تيار التفكير الوجودى له أن يفاخر بأنه ألصق من غيره بالواقع الفردى وبالخبرات المعيشية فكأنه ارتقى فوق الثنائية وحل النزاع القائم بين الذاتية والموضـــوعية دون أن يفوته شىء من ثراء الواقع ودون اغفال دلالاته المتعددة ٠

واذا اعترض أنصار علم النفس التجريبى المعملى على ادعاء علم النفس الوجودى بأنه حل مشكلة التقابل بين الموضوعية والذاتية بالتعالى عليهما ، واعتبروا هذا الحل ، وهما من الأوهام وأصروا على القول بأن كل مايقرره علم النفس الوجودى تشوبه الذاتية المفرطة ، فحسبنا أن نذكر هنا رأى عالمين من كبار علماء الفيزياء الحديثة هما « بور » و « هيزنبرج » فانهما يقرران أن التفرقة التى أقامها العالم الفلكى الشهير «كوبرنك» بين الانسان الذاتى والطبيعـــة الموضـــوعية لا يمكن قبولها بعد الآن ٠ وانه من الوهم

---

(١) انظر كتاب الدكتور زكريا ابراهيم : «الفلسفة الوجودية» وكتاب فؤاد كامل عبد العزيز : «فلاسفة وجوديون» ٠ وكتاب جان فال «الفلسفة الوجودية» ، ترجمة تيسير شيخ الارض (بيروت) ٠

والخداع أن نتصور أن المثل الأعلى للعـــلم أن يكون مستقلا تمـاما عن الانسان ، أى أن يكون موضوعيا تماما ٠

نجد فى قاموس «انجلش» لمصطلحات علم النفس والتحليل النفسى تصنيفا لمدارس علم النفس وأقسامه من وجهات نظر متعددة ، ويربو عدد هذه المدارس والاقسام على المائة ٠ ومن بين هـذه المدارس الفنومنولوجية والوجودية والفنومنولوجية الحديثة ويقول لنا المؤلف انعلم النفسالوجودى يطلق عليه أيضا علم النفس البنائى ، وان مدرسة علم النفس الجشطلتى تنتمى الى الحركة الفنومنولوجية ويبدو أن المقصود بالفنومنولوجيا الحديثة الدراسات النفسية المستأثرة بالفلســفات الوجودية كفلسفة « هيدجر » و « سارتر » و « يسبرز » ٠

واذا عدنا الى كتاب «بورنج» فى تاريخ علم النفس التجريبى (الطبعة الثـانية عـام ١٩٥٠) فاننا نجد دراسة مفصلة لعلم النفس البنائى أو الوجودى كما قال به «تتشنر» (١٨٦٧ ــ ١٩٢٧) فى أمريكا ٠ ولعلم النفس الجشطلتى الذى نشأ فى ألمانيا ٠ كما أننا نجـد عدة اشارات الى مذهب هوسرل (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) فى الفنومنولوجيا وتأثيره فى مدارس علم النفس الالمانية ، فى حين أنه لم يرد أى ذكر لعلم النفس الوجودى المعاصر هل معنى هذا الاغفال أن علم النفس الوجـودى الحـديث لا يدخل فى نطاق كتاب لتاريخ علم النفس التجريبى ؟ ولكن اذا كان الامر كذلك فكيف نفسر ورود ما يقرب من عشر صفحات عن التحليل النفسى مع العـلم بأن علماء النفس التجريبيين أمثال « أيزنك » وأعضـاء مدرسته فى لندن ، يعدون التحليل النفسى ضربا من الثرثرة والهتر والتركيبات الأسطورية ٠

اننا نلتقى من جديد بالمشكلة التى سبق الاشارة اليها وهى هل علم النفس الوجودى المعاصر يدخل فى نطاق علم النفس أم هو مجمـوعة من التأملات الفلسفية أو التحليلات التى تنتمى الى الأدب أكثر من انتمائها الى العلم ٠

وقد أجبنا باختصار على هذا السؤال عنـد حديثنـا عن نشأة علم النفس الوجودى الحديث فى أحضان الفنومنولوجيا ، ويبقى لنا أن نتناول بالتفصيل فى مقال آخر مضمون هذا العلم ٠ سنعرض الآن ــ تمشيا مع الترتيب التاريخى ــ للصورة الاولى لعلم النفس الوجودى أو البنائى كما يتمثل بصفة خاصة فى بحوث السيكولوجى التجريبى « تتشنر » الذى كان أستاذا لعلم النفس فى جامعة «كورنل» الامريكية لمدة خمس وثلاثين سنة من عام ١٨٩٢ حتى وفاته عام ١٩٢٧ ٠

ترمى سيكولوجية «تتشنر» الى دراسة مضمون الشعور الى تحليل الحالات الشعورية وردها الى عناصرها الأولية أو الى موجوداتها البسيطة . فهو يبحث أولا عن بناء الشعور لا عن وظائفه ولهذا السبب سمى مذهبه بالمذهب البنائى . ان الدراسات السيكولوجية التى كان السيكولوجيون الامريكيون يقومون بها تتناول بصفة خاصة الوظائف النفسية فكانت النزعة الوظيفية هى السائدة ، وهى نزعة متأثرة بدون شك بالفلسفة البرجماتية وبطابع الثقافة الامريكية التى كانت تنزع الى العمل المفيد الناجح . ان «تتشنر» لم ينكر ضرورة البحث فى الوظائف ولكنه كان يرى ان مثل هذا البحث لا يمكن أن يكون مجديا الا اذا عرفنا أولا ماهو الشىء الذى ندرسه قبل أن نعرف فائدة هذا الشىء أو غايته أو نتيجة تنشيطه. فالموضوع الاساسى لعلم النفس هو اذن هذه الموجودات البسيطة التى تتكون منها الحالات الشعورية التى يتضمنها الشعور فى لحظة ما . وهذه الموجودات البسيطة هى الاحساسات والصور الذهنية والوجدانات والمنهج الوحيد الذى يمكن استخدامه لتحليل الحالات الشعورية وردها الى مكوناتها الأولية هو بطبيعة الحال الاستبطان أو الملاحظة الذاتية .

ولكن أليست معطيات العلوم الطبيعية كلها مضمونات شعورية أو خبرات شعورية ؟ أن عالم الفيزياء فى معمله عندما يلاحظ ظاهرة مالا بد له من الرجوع الى ما يتضمنه شعوره من احساسات وصور ذهنية فكأن معطيات علم الفيزياء لا تختلف البتة عن معطيات علم النفس وكأن موضوع العلمين هو معالجة الخبرة بصورة مباشرة .

يقول « تتشنر » ان مايميز علم النفس عن علم الفيزياء هو وجهة نظر كل منهما الى الخبرة الشعورية فعلم الفيزياء ينظر الى الخبرة من حيث هى مستقلة عن الشخص الذى يحياها فى حين ان علم النفس ينظر اليها من حيث هى تابعة له . غير مستقلة عنه فالفرق هو فرق فى وجهة النظر . العالم الفيزيائى يجعل من المنبه اطارا للدلالة ومرجعا فى حين ان اطار الدلالة للسيكولوجى هو ما يحس به لا المنبه الحسى . وقد اطلق «تتشنر» عبارة «خطأ المنبه» على انزلاق السيكولوجى من اطار الاحساس الى اطار المنبه الحسى ويكون هذا الانزلاق بتأثير الارتباطات السابقة أو بتأثير عوامل أخرى مجاورة للمنبه الحسى أو بتأثير ما يقوم به الشخص من تأويلات متعديا بذلك مضمون الخبرة التى يعانيها فى لحظة معاناتها . فاذا أدركت مثلا انكسار العصا فى الماء وقررت أن العصا غير مستقيمة فهذا الحكم صحيح سيكولوجيا وان كان خاطئا فى نظر الفيزيائى .

غير ان هـــذه التفرقة التى أقامهـا « تتشنر » بين وجهـــة النظر السيكولوجية ووجهة النظر الفيزيائية لم تلق تأييد معظم علمـــاء النفس فعدوها ضربا من السفسطة الغامضة • ثم جاء الجشطلتيون وهم أصحاب سيكولوجية الصيغة فنفوا الخطأ عن «خطأ المنبه» وأكدوا ان مضمون الخبرة الادراكية لا يتكون من هذه الاحســـاسات أو من هذه الموجودات البسيطة التى يزعم التحليل الاستبطانى كشفها بل من صيغ وأشياء •

ان مدرسة « تتشنر » وتلاميذه فى جامعة كورنل لم تتمـــكن من الرسوخ أمام التيارات الجديدة التى أخذت تتكون أو تقوى فى العقد الثانى من القرن العشرين فأخذت تتلاشى تاركة المجـــال لعـلم النفس الوظيفى وللمدرسة السلوكية فى أمريكا ثم لمدرسة الجشطلت فى ألمانيا •

أما علم النفس الوجودى المعاصر فانه يختلف كثيرا عمـا ذهب اليه تتشنر على الرغم من أن الاتجاهين يشتركان فى اعتبـــار الخبرة النفسية نقطة بدء وفى الاعتماد على الاستبطان أو انعكاس الشعور على نفسه•غير ان مفهوم الخبرة النفسية لدى المعاصرين أكثر ثراء من مفهومها لدى «تتشنر» فهى تخص الانســان الفرد بأكمله وفى زمن ما وعـلاقته بالآخرين فى آن واحد • فبينما يقيم «تتشنر» فاصلا واضحا بين الذاتى والموضوعى ويرفض وجهـة نظر الجشطلتين المتأثرة بالاتجـــاه الفنومنولوجى نرى علم النفس الوجودى المعاصر يعد ثنائية الذاتى والموضوعى وجهـة نظر تأملية مفتعلة ترجع الى الثنائية التى أقامها « ديكارت » بين الفكر والامتداد • ان ادراك الانسان لنفسه هو فى الوقت عينه ادراكه للعالم الخارجى وادراكه للآخر والعلاقة بين الانا والآخر سابقة على ادراك طرفيهـا كل على حدة • ولعله يكون من الأوفق أن نقول عن علم النفس الوجودى المعاصر انه سيكولوجية الوجود الانسانى أو سيكولوجية هـــذا الفرد أو ذلك الفرد الموجـود فى موقف ما ، فى زمن ما •

ثم أن « تتشنر » رفض أن يعتبر المريض العقلى مصـــدرا للمعرفة السيكولوجية لعجزه عن الاستبطان وعن أن يتجنب الوقوع فيما سماه خطأ المنبه ولان معظم أقواله هذيان لا معنى له فى حين ان من أنصار علم النفس الوجودى أطباء عقليون أمثـــال «منكوفسكى» و «بنسفنجر» يذهبون الى ما ذهب اليه من قبـــل «بلولر» عنـــدما قرر أن أقوال المريض بالفصام وهذياناته ليست عديمة المعنى بل لها دلالتها الخاصة داخل العالم الحيوى الذى يعيش فيه •

ليست المدارس الأدبية والفنية هي وحدها التي تعكس روح عصرها ، بل النظريات العلمية تكون هي أيضا مندمجة في التيــار الثقافي السائد في وقتها ان علم النفس الوجودي كما قال به « تتشنر » مصطبغ بالصبغة الفكرية والثقافية التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر وهي الفلسفة الارتباطية العنصرية الحسية من جهة ، والتقــدم السريع الذي أحرزته العلوم الفيزيائية والكيميائية من جهة أخرى ، وذلك بفضل تقدم وسائل التحليل مما جعل الكشف عن العناصر الأولى لأية ظاهرة طبيعية هو الهدف العلمي الرئيسي • ثم تغير الجو الفكري والثقافي بعد الحرب العالمية الأولى واكتشف الانسان مذهولا ان العلم وحده عاجز عن أن يحقق له السعادة والاطمئنان فانتابه القلق وزادت حدة شعوره بتهــديد الفناء والموت ، ولم تكن موجة اللهو التي اجتاحت الانسانية بعد الحرب العالمية الثانية الا فراراً من المصير المظلم وهذا يفسر لنا ما تتميز به الفلســـفات الوجودية من تطرف سواء في التشاؤم أو التفاؤل ولم تظل روح الوجودية مقصورة على الفلسفة بل أخذت تنتشر في العــلوم الانسانية وفي الفن والادب •

معرفة الآخر (*)

لايمكن ان يوجد «أنا» بدون «انت» ، ولايصبح
«الأنت» ممكنا الا بفضل معادلة يكون فيهـا
«الأنا» مساويا للأنت ومع ذلك مختلفا عنه ٠

كولريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤)

مقدمة

ان الحركة التى تواجه سير الفكر فى أى ميدان من ميادين البحث الفلسفى والعلمى تنتقل من النظرة الاجمالية الغامضة الى طور التحليل لتصل الى النظرة التأليفية الواضحة نسبيا ٠ غير أن محاولات الفكر لاستكناه الوجود لا يمكن أن تتوقف لأن الحلول التى يظفر بها الفكر فى وقت ما لا تلبث طويلا ، يتـأثر تطـور الظـروف والكشف عن وقائع جديدة ، أن تبدو جزئية ناقصة ٠ فتبعث المشكلة فى جو جديد وفى اضـاءة جديدة ، بل يمكن القول بأن هناك مشكلات جديدة لم يعرفها الأقدمون ٠ ولابد من أن يؤدى بزوغ هذه المشـكلات الى تغيير يكاد يكون شاملا فى منهج بحثها وأسلوب صياغتها ، ومن ثم يؤدى الى نحت مصطلحات جديدة للتعبير عن معان لم تكن مألوفة من قبل ٠

واذا قسـمنا تاريخ الفكر فى الفلسفة والعلم والأدب الى مراحل فان هذه المراحل لا تكون خطا متصلا يسير فى اتجاه واحد ٠ وان كانت هذه المراحل مترابطة بشكل من الأشكال وتبدو متصلة اذا نظرنا اليها نظرة خلفية تاريخية ، فهى فى الواقع بمثابة طفرات تتجدد فى كل منها زاوية النظر وتظهر خلالها كيفيـات جديدة تؤدى الى اصطناع علاقات كمية جديدة تزداد بعدا عن الادراك الحسى العام ، بل عن الادراك العقلى المنطقى الشائع حتى تصل الى حدود اللامعقول ٠ ومعنى هذا أن العقل

(*) «المجلة» نوفمبر ١٩٦٢ ٠

نفسه ليس بالأمر الثابت ، بل مثل كل أداة يتطور تبعا لمضمون المشاكل الجديدة . فالتطور سواء في عالم الأحياء أو في عالم الحضارة والثقافة لا يسير وفقا لتغير بطيء ذى اتجاه واحد بفعل تغيرات فجائية طفرية .

واذا صح هـذا الرأى فانه يترتب عليه تغيير جوهرى فى منهج البحث وفى طرق الاستدلال . فمعرفة الحاضر لا يمكن أن تكتمل بمعرفة الماضى فحسب ، والمنهج التكوينى أو النشوئى الذى يسير من الخلف الى الأمام لا يكفى لتفسير ظواهر الطبيعة وبصورة خاصة ظواهر السلوك الانسانى الفردى والجماعى . فلا بد من استخدام منهج تكوينى عكسى يسير من الأمام الى الخلف ، أى يهبط من الحاضر نحو الماضى استكمالا لمعرفة الماضى فى ضـوء ما أصبح عليه ؛ لأن كل الامكانيات فى وقت ما لا تتكشف الا بعد تحقيقها . واذا حصرنا نظرنا فى الانسان أمكن القول بأن تفسير أية مرحلة من مراحل نموه لا يمكن أن تتم الا فى ضوء المراحل اللاحقة ، كأن هناك علية غائية تجذب الكائن الحى الى الأمام ، بجانب الدافعة التى تدفعه من الخلف .

وهذا هو جانب من المنهج التكاملى الذى نادينا به منذ حوالى ربع قرن والذى أخذ ينتشر تطبيقه لا فى العلوم الانسانية فحسب بل فى بحوث الفيزياء النووية حيث لم يعد الزمن مجرد اطار كالمكان بل أصبح من معينات الظاهرة مما أدى الى الحد من قيمة التقدير الكمى وقرب بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية لا برد الثانية الى الأولى كما قد يظن أنصار المذهب السلوكى المادى بل بصورة أكثر عمقا لا تتضح الا عنـد مستوى المماثلة والتجاوب .

وكان لا بد من هذه المقدمة لوضع مشكلة معرفتنا للآخر فى جوها الفلسـفى والعلمى الملائم لها . فهل طريقتنـا فى معرفة الآخرين هى الطريقة نفسها التى ننتهجها لمعرفة الأشياء التى تقع تحت حواسنا وما هى أوجه الشبه والاختلاف بينهما ؟

هل نفهم من المقدمة السابقة أننا نريد القول بأن مشكلة معرفتنا للآخرين مشكلة جديدة لم يتناولها الأقدمون ولم يبحثها المحدثون الا فى القرن العشرين ؟ الواقع أن هذه المشكلة ظلت فى تأملات الفلاسفة وبحوث علمـاء النفس مشـكلة ثانوية والحلول التى افترضت كانت اما سلبية أو سطحية ، فرعية أو قائمة على نظريات ميتافيزيقية بحتة . ولم تحتل

هذه المشكلة مركز الصدارة الا منذ ظهور الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية • فبفضل هذه الفلسفات وبفضل علم النفس الوجودى وبصورة خاصة الطب العقلى الوجودى ، يدخل الفكر الانسانى فى مرحلة جديدة • وكانت المرحلة الأولى تنتهى عند سقراط حيث كان حكماء اليونان يهتمون بدراسة العالم الطبيعى ثم بدأت المرحلة الثانية مع سقراط الذى أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض أى الذى وجه اهتمام المفكرين الى معرفة الذات ، الى أن يعرف الانسان نفسه • ثم جاء الفيلسوف الألمانى هسرل Husserl ومن بعده الفينومينولوجيون والوجوديون فوجهوا التفكير نحو معرفة الآخرين •

فتلك هى المراحل الثلاث : اعرف الطبيعة ، اعرف نفسك ، اعرف غيرك •

ان الفرق بين العلوم الرياضية وعلوم الوقائع أن قضايا الأولى تتسلسل بصورة يقينية فى خط منتظم إبتداء من البديهيات والمسلمات حتى ما لا نهاية له من النتائج ، فى حين أن قوانين الثانية ، وهى قوانين احتمالية تكون بناء ذا فجوات ، غير منتظم تماما ، تتفاوت الروابط بين أجزائه قوة ووضوحا • وبينما تستخدم العلوم الرياضية مجموعة من الرموز المجردة الشفافة التى تحول دون الوقوع فى اللبس والتناقض وتمتاز تعريفاتها بالاجرائية التامة التى تسمح بخلق المعرف فى صورته الكاملة ؛ لا تزال الثانية مضطرة الى صقل مفاهيمها واعادة النظر فى تعريفها واعادة بناء نظام العلاقات التى تربط بين وقائعها • ويزداد الغموض واللبس فى دائرة العلوم الانسانية من نفسية واجتماعية •

فلا يمكن القول بأن هناك نقطة واضحة يبدأ عندها التفكير فى العلوم الانسانية ، كما ان كل حقيقة قابلة باستمرار للتعديل ولاعادة صياغتها وبنائها ، مما يؤدى الى تعديل ما يربط بها من حقائق أخرى • ونظرا لغموض المفاهيم وتعدد المفاهيم المتشابهة فان اثارة أى موضوع من شأنه أن يثير عدة موضوعات فى آن واحد بحيث لا يمكن معالجة أى مشكلة دون التعرض لمجموعة من المشكلات المترابطة ودون الاستعانة بمجموع العلوم الفرعية التى تكون علم الانسان ••

ان موضوع « معرفة الآخر » يثير عدة أسئلة نذكر منها : هل معرفتى لنفسى سابقة على معرفتى لغيرى أو الأمر على عكس ذلك ، أم أن المعرفتين متعاصرتان ؟ هل ادراكى للآخر ادراك مباشر أو غير مباشر ؟

هل معرفتي اياه تبزغ من الداخل أم هي مفروضة من الخارج ؟ ما هي أنواع الأدوات التي يقوم بها كل من الانا والآخر ؟ واذا كان تكوين المجتمع يتطلب على الأقل وجود اثنين فان الاجابة على الأسئلة السابقة قد تضيء الطريق الى معرفة نشأة المجتمع وأنماط العلاقات الاجتماعية في اشكالها السوية والمنحرفة ·

ان الحركة التي خلقتها الفلسفة السقراطية وصلت الى أبعد مداها في فلسفة ديكارت حيث اتخذ التفكير الفلسفي نقطة بدئه في الذات المفكرة · ان الكوجيتو الديكارتي ، أي « أنا أفكر » هو المعطى المباشر الوحيد الذي ستستنبط منه جميع المعارف · فالمشاهدة الذاتية وتحليل مضمونات الشعور هي الطريقة الوحيدة المؤدية الى المعرفة اليقينية · وقد ورث علم النفس منهجه الأول ، أي الاستبطان ، من الفلسفة الديكارتية ·

ولكن اذا سلمنا بأن العقل لا يمكنه أن يعرف مباشرة سوى نشاطه الذاتي فانه يصبح من المحال منطقيا الخروج من دائرة الفكر الذاتي · فالموجود الوحيد هو الفكر ، بل هو فكري أنا وحدي ، والنتيجة الحتمية لهذه الحقيقة الأولى والوحيدة هي اما مذهب « الأنا وحدية » solipsisme أو المذهب التصوري البحت Idéalisme ، أوبعبارة أخرى ، يصبح من المحال أثبات وجود أي شيء خارج ذاتي المفكرة ، وبالتالي أثبات وجود الآخر ، وأن كل ما يبدو لي خارج ذاتي ليس سوى خداع ووهم وهلوسة ·

طبعا ، لا ينكر ديكارت وجود العالم الخارجي غير أنه لا يثبت وجوده ، أو بعبارة أصح ، لا يسلم بوجوده ، الا بطريقة غير مباشرة · فانه بعد أن يثبت وجود الله اعتمادا على تحليل تصوري بحت يقول ان الله وضع فينا ميلا كبيرا الى الاعتقاد بوجود العالم الخارجي ، وحيث أن الله صادق فان العالم الخارجي موجود (١) ·

وقد أثرت فلسفة ديكارت ، بصدد هذا الموضوع ، في مالبرانش وليبنتز وباركلي · فنفى الأول العلية عن الانسان وحصرها في الله ، وقال

(١) الواقع أن منهج ديكارت التصوري لم يفض به الى اثبات وجود الله بل الى اثبات وجود فكرة الله · وليس من المحتم أن يتطابق الوجودان الواقعي والفكري · وعلى ذلك فقد ترك ديكارت مشكلة وجود الآخر معلقة ·

الثانى ان كل انسان وحدة نفسية مغلقة على نفسها لا صلة لها بالخارج وان الاتصالات والتبادلات التى تحدث بين الوحدات النفسية لا تتم الا بفضل انسجام وضعه الله منذ الأزل • ويقول الثالث أن ما نسميه بالعالم الخارجى — وهو غير موجود — ليس سوى اللغة التى يستخدمها الله لمخاطبتى •

وحتى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نجد أن مجال الدراسات النفسية صدى للمذهب الديكارتى اذ يقرر تين Taine فى كتابه « فى العقل » ان ادراك العالم الخارجى هلوسة صادقة •

ان الاعتبارات السابقة فلسفية بحتة ، غير أنها أثرت فى علم النفس فى طوره العلمى الأول عندما كان المنهج المعتمد هو الاستبطان • فان كان السيكولوجى من حيث هو انسان وعالم لا يشك على الاطلاق فى وجود الآخر ، لكنه يسلم بأنه لا يعرف مباشرة سوى حالاته الشعورية وأنه عليه أن يستدل على حالات الآخر الشعورية عن طريق اما المماثلة أو الاسقاط وذلك بأن يفترض أولا بأن الآخر شبيه به وأنه والآخرون ينتمون كلهم الى طبيعة بشرية واحدة • وسوف نرى نقائص هذا المنهج فى الاستدلال دون رفضه كلية •

وفى مقابل المنهج الاستبطانى يقابلنا منهج الملاحظة الخارجية أو الموضوعى كما تطبقه بصورة صارمة المدرسة السلوكية (بافلوف ووطسن) والسيكولوجيا السلوكية هى سيكولوجيا بدون نفس ، بل بدون شعور وموضوعها دراسة الاستجابات الحركية للمنبهات الحسية ، والعامل الذى يتوسط بين المنبه والحركة ليس النفس ولا الشعور بل الميكانزمات العصبية والعضلية •

و « الآخر » فى نظر السلوكى موجود غير أن وجوده لا يختلف عن وجود أى شىء آخر يقع تحت الحواس ، فالآخر هو بمثابة شىء بين الأشياء ويجب دراسة سلوكه كما يدرس العالم الظواهر الطبيعية كما يجب ألا تحمل المصطلحات المستخدمة فى وصف السلوك وتفسيره أى رائحة استبطانية ، بل أية رائحة نفسية • فالدهشة التى قد يثيرها الآخر عند رؤيته لا تختلف عن الدهشة التى تدفع العالم الطبيعى الى البحث •

واذن يمكننا أن نطلق على علم النفس الاستبطانى انه علم نفس

في صيغة المتكلم ، فعلم النفس السلوكي هو علم نفس في صيغة الغائب .

وترجح علم النفس بين هذين المنهجين المتضادين هو السبب الرئيسي في تعثر علم النفس الاجتماعي وتخلفه بالقياس الى فروع علم النفس الأخرى ، وذلك لأن مشكلة معرفة الآخر وفهمه هي النواة المركزية لنشأة علم النفس الاجتماعي وتنميته .

ثم جاءت الفينومينولوجيا مع هسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٩) وما تبعها من الفلسفات الوجودية فحاولت القضاء على التقابل بين الذاتية البحتة والموضوعية البحتة . فالمنهج الاستبطاني المحصور في الأنا ينتهي الى ذاتية بحتة والمنهج الموضوعي الذي ينظر الى الشخص الآخر نظرته الى أي شيء في الطبيعة يؤكد وجود موضوعية بحتة . أما الحركة الفينومينولوجية فتنكر امكان تحقيق هذين الموقفين المتضادين فتقول أن الشعور يتصف دائما بالقصدية أي انه دائما شعور بموضوع ما ، شعور موجه نحو الموضوع بحيث يمكن القول بأن الموضوعية حالة في الذاتية ، أو ان المخاطب حال في المتكلم . وعلى ذلك تكون المعرفة في جوهرها علاقة بين ذات وموضوع ولا يمكن تصور أحدهما بصورة مطلقة خارج هذه العلاقة .

وعلينا الآن أن نوضح كيف تنتقل هذه العلاقة من حالة الاضمار والتضمين الى حالة الافصاح والتمييز ، أي كيف يتم التمييز بين الأنا والآخر ، ثم كيف يتحول الآخر الى انت وأخيرا الأنا والأنت الى نحن .

لا يمكن أن تبدأ الحياة الاجتماعية الا بوجود شخصين على الأقل وبشرط أن يقول الاتصال بينهما بأية وسيلة من وسائل التعبير المحمل بمعنى . ويمكن أن نطلق على هذا الاتصال لفظ « المؤانسة » (١) communication والمؤانسة تتضمن ادراك الأنا للآخر من حيث هو شخص لا من حيث هو شيء . والسؤال الذي يواجهنا هو معرفة ما اذا كانت المؤانسة تتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وفيما يلي صورة للحوار القائم بين النظريات المختلفة .

---

(١) انني مدين لصديقي الدكتور بشر فارس بهذا اللفظ وبلفظ الممازجة الذي سيأتي ذكره فيما بعد .

١ ـ يقول أنصار نظرية المماثلة analogie انى أعرف بخبرتى اليومية أننى شعور مرتبط بجسم ، وعندما أدرك أجساما شبيهة بجسمى أحـكم بالمماثلة ان هذه الأجسام مرتبطة بشـعور ٠ وعلى ذلك شعورى بالآخر من حيث هو جوهر أصيل ليس بالأمر المباشر ٠

سبق أن أشرنا الى النتيجـة التى يصل اليها كل من علم النفس الاستبطانى وعلم النفس السلوكى ٠ فالأول يتخذ من الشعور بالذات نقطة البدء للوصول الى الظواهر الذهنية ، وينظر الى الانسان من حيث هو « وجود لذاته » (١) être pour soi ولابد من أن ينتهى منطقيا الى «الأنا وحدية» مقررا أننى أنا وحدى موجود وأن سائر الموجودات ليست سوى صور متقلبة تقذفها الذات نحو الخارج ٠ أما علم النفس السلوكى فانه يقذف بالانسان فى عالم الموضوعية ولا يستبقى من ملاحظته للفرد سوى ما يظل ثابتا خلال سلوك ما ٠ فهو ينظر الى الانسان من حيث هو « وجود فى ذاته » ، فالانسـان جسم من بين الأجسـام ومن نفس طبيعتها ، هو شىء لا شعور له ٠ وبهذه الكيفية ينكر كل من علم النفس الاستبطانى وعلم النفس السلوكى وجود مشكلة نوعية للعلاقات المشتركة بين الأشخاص ، ففى نظرهما لا تعدو أن تكون هذه العلاقات شـبيهة بالعلاقات القائمة بين الأفكار وبعضها ، أو بين الأشياء وبعضها ٠

فمعرفتى للآخر قائمة على حكم بالمماثلة سواء كان هذا الحكم صريحا أو متضـمنا فى أحكام ، فهى معرفة غير مبـاشرة ٠ والواقع أن معرفتى للآخر وادراكى له كشخص معرفة مبـاشرة وفوريـة وموقفى منه نابع مباشرة من هذا الادراك فاما أن يكون تقبلا أو تجنبا أو هجوما ، وانتظر منه أن يبادلنى هذا الموقف وهذا ما لا أتوقعه من شىء كالحجر ٠

ويمكن تلخيص الاعتراضات التى توجه الى نظرية المماثلة فيما يلى :

(أ) اننى لا أخلع الشـعور على الأجسام البشرية فقط ، بل على الحيوانات التى أخالطهـا ، على كلبى مثلا ٠ ان نظـرية ديكارت فى أن الحيوانات آلات ميكانيكية عديمة الشعور نظرية فلسفية لا يقبلها الفهم

(١) الوجود لذاته أو الموجود لذاته هو الشعور ٠ ويعرف سارتر الموجود لذاته «بأنه الموجود الذى يعين وجوده بذاته من حيث هو عاجز عن أن يحقق تطابق نفسه مع نفسه »٠ أى أن وجود الشعور يتضمن عدمه ، فى حين أن الموجود فى ذاته être en soi هو وجود لا يحتمل العدم ٠

العام • وقد أنشر شبكة اسقاطاتى على الطبيعة كلها أو على كائنات غيبية وفى مثل هذه الحالات لست بصدد عملية مماثلة • ولا يمكن أن أثق بكل خبرة نفسـية فهناك خبرات أصيلة وخبرات زائفة مضللة • وغرض الوصف الفينومينولوجى هو الكشف عن الخبرات الأصيلة •

(ب) للتعرف (١) الى المماثلة لا بد من حكم ولا بد من امكان التصريح به • ولا يمكن أن نفترض مثل هذا الحكم لدى الحيوان أو لدى الطفل الرضيع ، مع وجود الخبرة الضمنية للآخر لديهما • فالحيـوان يدرك ما يحمله صوت عدوه من تهديد دون سابق معرفة به ، بضرب من ضروب الفراسة كما بين ذلك علماء النفس الجشطلتيون ، وبالأحرى الطفل الصغير الذى يستجيب باستجابة نوعية ، هي الابتسامة ، لوجه أمه خلال الشهر الثانى ، والذى يدرك دون سابق خبرة ما يضمره شخص غريب ازاءه من عواطف •

(جـ) ان نظرية المماثلة تفترض أسـبقية شعور الشخص بذاته وشعوره بالأشياء الخارجية قبل شعوره بالآخر • غير أن علم نفس الطفل قد بين بوضوح أن الطفل يتعرف أولا الأشخاص الذين يحيطون به ، ثم الأشياء ولن يصل الى الشعور بذاته الا فى نهاية السنة الثالثة بعد أن يبدأ يستعمل ضمير المتكلم (٢) •

(د) اننا ندرك لدى الآخر انفعالات وعواطف لم نختبرها قط فى الماضى • فالشرير يعرف كيف يستخدم الشفقة فى حين أنه لا يتأثر بها ، مثل شخصية ريتشارد الثالث فى مسرحية شكسبير • وهـذا يتعارض مع نظرية المماثلة •

(هـ) اننـا ندرك جسم الآخر ادراكا بصريا فى حين أننـا ندرك جسمنا عن طريق الاحساسـات الحشـوية والعضلية • فالمماثلة هنا معدومة أيضا •

---

(١) الفرق بين تعرف الشيء والتعرف اليه هو ان الأول فورى والثانى على مراحل •

(٢) راجع مقال الدكتور هنرى فالون •

فى مجلة علم النفس المصرية عدد يونيو سنة ١٩٤٦ والترجمة العربية مع التعليق بقلم: يوسف مراد ، أثر الآخر فى تكوين الشعور بالذات عدد اكتوبر ١٩٤٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٦٧ •
الناشر دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ١٩٦٠ •
راجع أيضا الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى للدكتور مصطفى سويف الفصل الثالث•

ان بعض هــذه الاعتراضـــات تنصب أيضــا على نظرية التقمص الوجدانى أو الاستشعار Einfuhlung التى قال بها فيلسوف الجمال الألمانى ليبس Lipps ونظرية يونج Jung فى الاسقاط · كيف يمكن أن نستشعر فى الآخر ما لم نشعر به من قبل ؟ لماذا تسقط بعض العواطف على فئة من الأشـياء دون غيرها ؟ لماذا يكون موضــوع هذا الاسقاط الانســـان ؟ ان يونج يفسر لنا فى ضــوء نظريته فى الانبساط والانطواء ، لماذا يكون موضوع الاسقاط هذا الشخص بعينه دون غيره · فيقول ان هذا المنبسط شعوريا منطو لا شعوريا فهو عما يكمله باسقاط ميوله اللاشعورية على شخص آخر · ولكن السؤال الرئيسى لا يزال قائما :

لماذا يكون موضوع الاسقاط هو الانسان ؟

ننتقل الآن شـــطر الفينومينولوجيين والمفكرين الذين يفلســفون الوجود ·

يحــاول المذهب الفينومينولوجي وصف الخبرة لشعورية وتحليلها لادراك ماهياتها ادراكا حدسيا : ماهية الادراك ، التذكر ، الفعل الارادى، وذلك بابعاد كل ما هو زائف ومضلل فى الخبرة الشـعورية للوصول الى خبرة حقة أصيلة بينة ·

تشعبت من هـــذا المذهب الحركة الوجوديـــة ، مصطنعـــة بجانب الأسلوب الفلسفى ، الأسلوب الأدبى والفنى ، لتحليل مختلف المواقف الانسانية وشتى ضروب الاتصال المشترك بين الناس من أقدام وقبول وترحيب ، من مؤانســـة وممازجة فى الصـــداقة والحب ، أو من احجام ونفور وصراع وعداوة ·

ومن الوجوديين المتشائم الذى يقول بأن الجحيم هو الآخرون ، وأن الآخر عندما يثبت نظره فى يحولنى من موجود لذاته الى موجود فى ذاته، أى من شخص ذى شعور الى شيء جامد (١) · ومنهم المتفائل الذى يقدم الحب على الكراهية ويقول بذاتية مشتركة بين شخصين ·

واذا تركنا التفاصيل والاختلافات جانبا ، فهناك قضية أساسية

---

(١) يقول سارتر فى كتابه : الوجود والعدم ص ٥٠٢ : ان ماهية العلاقات بين النفوس ليست الوجود معا Mitsein أو «المعية» بل الصراع ·

مشتركة بين جميع هؤلاء المفكرين وهى أن الأنا وحدية خداع ووهم وأن هناك علاقة « باطنيـة » بين الأنا والأنت سابقة على ادراك الأنا لذاته ، كما أنها سابقة على ادراك العالم الخارجى • وابتداء من هذا المزيج الأولى الغامض الذى يضم الأنا والأنت يحدث التغاير والتمايز بينهما ، ويبزغ الأنا فى مواجهة الأنت دون أن ينفصل عنه تماما •

ومن أبرز المفكرين الفينومينولوجيين الذين تناولوا موضوع معرفة الآخر ماكس شيلر Max Scheler فى كتابه « طبيعة المشاركة الوجدانية وأشكالها » • يذهب شيلر مع هسرل الى فورية معرفتنا للآخـر • يبدأ بالتمييز بين العدوى الانفعالية والمشاركة الوجدانية sympathie لا يوجد فى الأولى أى قصد وجدانى ازاء غبطة الآخر أو تألمه ، ولا مشاركة لخبراته الداخلية فهى مجرد محاكاة لاشعورية لتعبيرات الآخرين ، كما فى حالة الذعر الذى ينتشر فى أفراد جماعة تحت تهديد فجائى • ويقول شيلر أن أقصى درجة العدوى الوجدانية الانصهار الوجدانى حيث يتم التوحد التام بين شخص وآخر • كما فى حالة توحد الأم بطفلها ، أو توحد الطفل بشخصيات ألعابه ، أو توحد البدائى بطوطمه totem أو حالات التوحد المرضى فى بعض الأمراض العقلية •

أما المشاركة الوجدانية الأصيلة فهى فعل قصـدى يتجه نحو الآخر من حيث هو موجود لذاته • ويذكر شـيلر ثلاثة أشـكال للمشـاركة الوجدانية :

أولا ــ الانفعال معا Miteinanderfuhlen كما فى حالة الأب والأم أمام جثة طفلهما •

ثانيا ــ مشـاركة الآخر فى حالاته الوجدانية من حيث هى حالات الآخر Mitgefuhl ، وهذه المشاركة بمثابة صدى وجدانى بين الشعورين مع احتفاظ كل شعور بتميزه عن الآخر •

ثالثا ــ الفهم الوجدانى Mach Fuhlen دون مشاركة تامة كما فى حالة الشخص الذى يفهم ما يشعر به الغريق من حصر وخوف دون أن يعانى حالته الانفعـالية • ثم هناك الحب الذى يتجاوز حدود المشاركة الوجدانية لأنه يتخذ من القيم موضوعه ومرماه •

فهذه الأشكال المختلفة من المشاركة الوجدانية ، وكذلك الحب ،

تصل الأنا بالآخر بصورة فورية مباشرة • فالآخر هو موضـوع حدس لا استدلال • وفهمنا للآخر هو مشاركته فى حياته الروحية •

غير أن لهذه الخبرة المباشرة بالآخر حدودا • وشيلر نفســه يسلم بأن مثل هذه الخبرة قد تكون خادعة ومضللة ولابد من الاستعانة بطرق الاتصال غير المباشرة من محادثة وملاحظة الايماءات والتعبيرات الانفعالية ودراسة الموقف لاستكمال معرفتنا للآخر • وحتى تأويل هذه الرموز الانفعالية والحركية واللفظية فى حاجة الى النقد للكشف عن دلالتها الحقة •

وعلى الرغم من الاعتراضات التى توجه الى رأى الفينومينولوجيين والوجوديين فى مشكلة معرفتنا الحدسية للآخر من حيث هو شعور فان هؤلاء الفلاسفة قد وضعوا هذه المشكلة فى جو يتناسب مع العصر الذى نعيش فيــه وهو عصر يسوده الصراع والقلق من جهـة وبذل محاولات يائسة للتغلب على هذا الصراع وهذا القلق •

اللغز الأكبر (*)

قصدني أخيرا أحد طلبة الدراسات العليـا يستشيرني في موضوع يجمع بين الأدب والتيارات الفكرية والفلسفية • كان غرضه التقاط ملامح الانسان العصري كما رسمها وحللها الأدب الفرنسي المعاصر ، ســـواء في القصة أو في المسرحية • وكان من رأيه أن الأدب منذ الحرب العالمية الأولى تعددت وجوهه ومسالكه ، وأخذ الأدباء يتساءلون ، بعد انهيار بعض القيم، عن موقف الانسان ومصيره وذلك في جو من التشاؤم والقلق حينا ، أو من الايمان بقوة الدوافع اللاشعورية والرغبة الجامحة والفعل المنطلق حينـــا آخر • وقد نشأت تيارات أدبية جديدة متأثرة بعضها بفكرة الالتزام ، في حين أن بعضها الآخر كانت تمثـــل اتجاهات متطرفة من عدم الاكتراث والتهكم والسخرية وما اليها من أساليب حتى كادت بعض الحركات تصل الى ما يشبه المأزق ، الى أدب اللا معقول واليأس •

لا شك في أن الأديب لا يعيش في فراغ ، ومهما حاول الابتعاد عن بيئته والانطواء على نفسه والاعتزاز بفرديته فانه لا يبرح يستمد الوحي والالهام من هذه البيئة ، حتى في حالة ثورته عليها ومناهضتها ، فلا بد اذن من أن يصبح فنه ، اذا كان أصيلا عميقا ، مرآة تنعكس عليها من ثنايا التبدلات الفنية الملامح والسمات التي تكون صورة المجتمع وصورة الانسان بوجوهه المتباينة وأقنعته المتعددة صورة نزاعه المستمر بين ما يدعم وحدة شخصيته وما يهددها بالتفكك والتشتت • فالأدب كأي فن من الفنـــون محاولة للتعبير عن واقع ما لوصفه وتأويله والايحاء بما قد يفسره •

واذا اختلفت الوســـائل والمناهج بين الفنون والعلوم باختـــلاف موضوعاتها وأغراضها المباشرة فان الغاية القصوى التي يرمي اليها الفكر الانساني هو حل الغاز الكون ، حل اللغز الأكبر : الانسان •

(*) «المجلة» ، مايو ١٩٦٣ •

ان الموضوع الذى اختاره الطالب مشوق للغاية وجدير بالبحث وقد دفعه التفكير فيه الى أن يتساءل : هل صورة الانسان كما يصفها الأديب المعاصر صورة وافية أمينة ، وهل ما يوحى به التحليل الأدبى من تأويل وتفسير يكفى لفهم نفسية الانسان وتحديد موقفه من نفسه ومن مجتمعه المتطور ؟ هل فى الحاضر ما يكفى لتفسيره ، أم يجب اسقاط صورة الحاضر على ستار الماضى للكشف عن أوجه الشبه والاختلاف وتتبع الأطوار التى مر بها الانسان منذ فجر الانسانية ووضعه فى اطاره التاريخى ٠٠ ؟

ان فى هذه الأسئلة دليلا واضحا على شعور الباحث بتشـــعب أى مشكلة انسانية وارتباطها بعدد كبير من المشكلات ٠ والواقع أن الانسان فى أى عصر من عصور التاريخ ليس وليد عصره فحسب ، بل هو محصلة التفاعل بين ما هو جديد وما هو قديم ٠ ولا شك فى أن معرفة الماضى تلقى ضوءا كبيرا على الحاضر وتساعد على فهمه بصورة أدق وأشمل ، كما أنهـا تسمح بالكشف عن العوامل التى تكون أكثر ثباتا وتكرارا من غيرها ، أى العوامل التى تكون القاعدة الأساسية الثابتة نسبيا والتى يبنى فوقها كل عصر من العصور صورة انسان هذا العصر ٠

وكانت رغبة الطالب أن يطلع بقدر المستطاع على تطور الانســـانية وعلى نمو الفكر والحضارة بقصد الكشف عن الصور المختلفة التى اتخذتها شخصية الانسان فى كل عصر من العصور بحيث تزداد صورة الانســـان العصرى دقة ووضوحا ٠ وعند هذه المرحلة من المناقشة التى كانت تدور بيننا أثار الطالب مشكلة جديدة ملخصـــها ، أن الباحث لا يمكنه الاكتفاء بجميع الحقائق والمعلومات بل لابد له من الربط بينها وتنظيمها لاكتشاف دلالتها بالنسبة الى بعضها بعضا ، ولمعرفة ما اذا كان تطور التاريخ يسـير بطريقة عشوائية أو هو تطور موجه ، وفى هذه الحالة الأخـــيرة ماهو عامل التوجيه الأساسى ؟ وبهذا السؤال الأخـير انتقل الحديث من دائرة تاريخ الحضارة الى دائرة الفلسفة اذ أن التفكير الفلسفى من طبيعته أن يصل الى تفسير شامل والى رد الظواهر المتغيرة الى علتها الجوهرية والى وضع عدد قليل من المبادىء بل مبدأ واحد اذا أمكن ، لتفسير المتغير والمتطور ٠

فلابد اذن من فلسفة تنظر من زاويتها الى الوجود ٠ ولكن لابد أيضا من أن يحاول كل انسان أن يختار موقفه الفلسفى فى جو من الحرية ومن الاخلاص فى التفكير بقدر المستطاع ، لا أن يفرض عليه هذا الموقف فرضا وأن يجبر على اتباعه ، فالقـــدرة على التفكير لا تنمو الا بفضـــل حرية الاختيار ، كما أن هذه الحرية لا يمكن أن تتطهر من شوائب النزوة بفضل

التفكير القويم النزيه • وربمـــا يكون التأنى وعدم الاسراع فى الحكم من أجمل فضائل المفكر المخلص • وعلى هذا كانت نصيحتى للطالب ألا يتقيد منذ البداية بمذهب فلسفى واحد يعتقد أنه المذهب الوحيد الذى سيعينه فى ربط مراحل تطور الفكر الانسانى ، بل أن يعلق حكمه الى حين ، لكى يظل فى حالة تعاطف مع الوجود ومع المحاولات التى بذلت لفهمه فربما سيؤدى به مثل هـــذا الاتجاه الرحب فى التفكير الى التقريب بين ما كان يبدو لأول وهلة متناقضا متنافرا ، والى خلق تيار من التجاوب بين تفكيره وتفكير الآخرين •

وما قلناه عن محاولة الأدب رسم صورة الانسان العصرى ، ينطبق أيضا ، على علم النفس عند محاولته فهم الانسان وتفسير مظاهر سـلوكه المختلفة • لاشك انه من واجب الباحث النفسى أن يدرس الانســـان فى بيئته الراهنة وان يكتشف أساليبه الاسـتجابية فى المواقف الجديدة التى خلقتها حضارة القرن العشرين • ولكن مهما قيل عن تأثير البيئة فى تكوين شخصيته وفى طبعها بطابع معين فليس الانسان وليد بيئته فحسب ، بل انه يحمل فى ثنايا نفسه وفى تركيبه الجسمى والمزاجى تراثا ضـخما من الاستعدادات والميول التى ستتفاعل بدورها مع عوامل البيئة فتسـاعدها حينا وتعوقها حينا آخر • ثم ان مدلول البيئة ليس من اليسير تحديده • فكما أن الانسان يتكون من عدة طبقات ، بعضها قديمة وبعضها حديثة ، فكذلك تحوى البيئة الاجتماعية بجانب مظاهرها الجديدة المتطورة كثيرا من رواسب الماضى ، لافى النظم فحسب ، بل أيضا وبصفة خاصة فى الاتجاهات العاطفية والفكرية • ويمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقول أن البيئة الجغرافية المادية تكتسب دلالات مختلفة تبعا لكيفية ادراك الشخص لها • فالانسان ، مهما حاول أن يتجرد من بعض ميوله الذاتية ويتخذ موقفـا موضوعيا ازاء الآخرين وازاء العالم الخارجى ، يظل الى حد كبير مركزا حول نفسه وجاعلا من نفسه المركز الذى يدور من حوله العالم الخارجى بمشاهده وحوادثه سواء كانت طبيعية أو اجتماعية •

ولذلك لا يمكن أن يقتصر بحثنا فى طبيعة الانسان المعاصر على دراسة بيئته الراهنة وماتضمه من نظم وتقاليد ، فان الحاضر ، كما سبق أن قلنا لايمكنه أن يفسر نفسه بنفسه ، بل يجب تحديد موقفه من العهود التى سبقته ومقارنته بالماضى لمحاولة التمييز بين الأنظمة القديمة وما استجد منها أثنـــاء مراحل التطور الاجتماعى والفكرى ومعرفة صور هذا التطور وتحديد درجته ، اذ أن نظرة سريعة الى تطور الحضارة والثقافة تكفى لتبين

لنا أن التطور لم يشمل جميع مقومات المجتمع بدرجة واحدة من السرعة والسعة • واذا كان في وسعنا أن نرسم صورة المجتمع المتطور المثالى فمن المرجح أن نحكم على أى مجتمع فاز بأكبر قسط من التقدم في مختلف ميادين الحضارة أنه لايزال مشوها لأن نموه لم يتم بصورة متسقة منسجمة اذ أن بعض جوانبه قد نمت الى حد التضخم في حين أن بعضها الآخر ظل ضامراً • ولدينا في الحضارات المختلفة القائمة الآن والمتفاوتة من حيث درجة تقدمها صورة توحى الى حد ما بالمراحل التى قطعتها الانسانية منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا •

فعلينا اذن أن نتجه ، في بدء رحلتنا الى أعماق النفس البشرية ، الى الدراسات التاريخية التى ترسم معالم صورة الانسانية في عهودها الأولى وكذلك الى الدراسات الانثروبولوجية التى تتناول بالبحث المجتمعات البدائية وذلك للكشف عن المعتقدات الخاصة بطبيعة الكون الذى يضمه • وستسمح لنا هذه الدراسة بتتبع الجهود التى بذلها العلم للكشف عن المجهول وللقضاء على المعتقدات الخرافية والجهود التى لا يزال يبذلها لمحاربة ماظل متعلقا في أذهان الناس من الخرافات والأباطيل •

❋ ❋ ❋

أعتقد أنه ليس من العبث أن نلقى نظرة على الانسانية البدائية وأن نحاول أن نتصور حالة الانسان في كفاحه الأول مع قوى الطبيعة لاخضاع بعضها لكي يضمن بقاءه • وخلال هذا الصراع الجبار بين العقل الانسانى في نشأته الأولى وقوى الطبيعة القاسية الغامضة بزغت تدريجيا بوادر المعرفة العلمية التى أدت الى صنع الأدوات البدائية والى الكشف عن الوسائل التى بها حافظ الانسان على نواة حضارته الناشئة • ولاشك في أن تفكير الانسان البدائى — كتفكير الطفل الصغير — كان مندمجا بصورة تكاد تكون كلية في الحركة والفعل • فقد لزمه حقبات طويلة من الزمن — منذ أن كان يعيش في الكهوف — لكى ينمى لغته ابتداء من الأصوات التى كان يطلقها تحت تأثير الوجدانات المصاحبة لحالاته العضوية من جوع أو شبع أو الانفعالات التى كانت تبعثها في نفسه بعض المشاهدات المرعبة من حوله أو زئير الحيوانات المفترسة التى كانت تهدد حياته • فهو لم يعرف عن نفسه سوى انه مجموعة من الحركات والانتفاضات والأصوات التى كانت تتعاقب حتى يدفعه التعب الى السكون والنوم • ولما ظفر بقسط نسبى من الطمأنينة وأحكم دفاعه ضد غوائل الطبيعة أتيحت له الفرصة من حين الى آخر لكى يتوقف فترة عن الحركة والعمل من حين الى آخر لكى

يتوقف فترة عن الحركة والعمل وينظر الى الطبيعة نظرة جديدة • فكان في بادىء الأمر يحاول أن يميز بين الضار والنافع وكان عقله مجرد أداة للبحث عن النافع ودفع الضار ، أما في هذه المرحلة الأولى من تقدمه بدأ يتساءل لماذا هذا الشيء ضار وذلك الشيء نافع ؟ وكان جوابه لا يزال محصورا في دائرة خبرته اليومية وكان معيار حكمه ماكان يشعر به من ألم أو لذة •

فاستثارة المشاهد والأحداث الخارجية لتفكير الانسان الأول كانت ترده الى نفسه ولم تكن معرفته لنفسه في هذه الأثناء سوى الأحاسيس الوجدانية المصاحبة لنشاطه الحركي • وبتتالي خبراته اليومية وباصطدامه من حين الى آخر بمشكلات جديدة وبفضل هذه الحركة التي كانت تدفعه حينا نحو العالم الخارجي وحينا آخر نحو نفسه أخذ ينسلخ من العالم الخارجي ويتميز عنه بالتدريج • غير أن الانسان لم يصل الى الشعور الواضح بفرديته وباستقلاله الذاتي الا بعد مراحل طويلة من التطور اذ انه ظل في بادىء الأمر مندمجا الى حد كبير في الجماعة التي كانت تضمه والتي كان فيها بمثابة العضو بالنسبة الى الجسم • فالروح الجماعية مسيطرة عليه وهي التي تنظم حركاته وتوجه سلوكه وتطبع تفكيره بطابعها الخاص • فكما كان يظن أنه يشارك الطبيعة في أحداثها وظواهرها فهو يعتقد أيضا أنه يشارك جماعته في نشاطها ويتلقى التأثير من أي عضو من أعضائها وخاصة ممن يفرضون أنفسهم على الآخرين بخبرتهم ومهاراتهم أو بما يبدونه من قدرة خفية سحرية • والفكر لديه لا يختلف عن أية أداة مادية يعالجها ، فله من الآثار والفاعلية ما للأشياء المادية التي يستخدمها في تدبير شئونه اليومية ، بل ربما كان للفكر أثر أقوى وأمضى من أثر الأدوات المادية • فهو لايزال يعيش على سطح نفسه ولم تكن شخصيته سوى هذه المجموعة من العلاقات التي تربط بين أعضاء الجماعة وتنظم حياتهم حتى في أدق تفاصيلها • فالصفة الاجمالية للجماعة هي التي تطبع نشاط الأفراد وتفكيرهم وطريقة ادراكهم لأنفسهم وللآخرين • وهذا النظام الجماعي الاجمالي هو نظام نفسي ومادي في آن واحد • والتمايز داخل هذه الصيغة الاجمالية ضئيل بالقياس الى التمايز الذي نشاهده في النظام الادراكي للمتحضرين • فلدى الانسان البدائي يكون التمايز ضئيلا بين الذات والموضوع ، بين الوجدان والادراك ، بين الفكر والفعل • فجميع هذه النواحي مندمجة بعضها في بعض أثناء القيام بالأفعال التي ترمي معظمها الى تحقيق التكيف بين الانسان وبيئته •

فالأشياء لا تدرك بشكل تحليلي لعزل خصائصها - من شكل وحجم ولون ووضع الخ - بعضها عن بعض بل تدرك كاشـــارة للقيام بعمل ما أو بالتوقف عن العمل • ومانسميه بالتفكير ليس سوى دعوة لبدء العمل أو مواصلته أو الامتناع عنه • فالنشاط الحركي هو المهيمن في بادىء الأمر ولم ينفصل التفكير عن الفعل ليفوز بقسط من الاستقلال الذاتي الا بعد أن يكون النشاط الحركي قد أرضى - الى حين - حاجات الانسان الملحة •

وبوادر هذا النشاط الفكري الذي أخذ ينسلخ تدريجيا عن النشاط الحركي النفعي المباشر نلمسها في محاولة انسان الكهوف اضافة نوع جديد من النشاط الى نشاطه السابق ، وهو التعبير الرمزي الذي يعد النواة الأولى للنشاط الجمالي فمن الآثار الأولى التي تركتها انسانية ماقبل التاريخ الرسومات التي كان يزين بها الانسان جدران كهفه وهي تمثل في العادة صور الحيوانات التي كان يطاردها عندما يخرج بحثا عن قوته • ولهـــذه الرسومات قيمة فنية واضحة اذ أنها تمتاز بقدر كبير من التجريد وتدل على قدرة الفنان على التقاط الشكل الجوهري والتعبير عن الحركة برشاقة وانطلاق •

غير أن هذا النشاط الفني لم يكن مجردا تماما من النزعة النفعية • فان رسم صورة الحيوان يعني سيطرة الانسان لاعلى الصورة فحسب بل على الحيوان نفسه • فالنشاط الفني هنا بمثابة عمل ســـحري يرمي الى التغلب على الفريسة بصورة رمزية تمهيدا للتغلب عليها واقعيا أثنـــاء القنص • فآثار الفعل ليست متوقعة مباشرة بعد القيام به ، كما هو الحال في الأفعال التي يعالج بها الانسان الأشـــياء التي تقع مباشرة في دائرة نشاطه ، بل هي آثار مرجأة ستقع بعد حين بعد انقضاء الفترة التي تفصل بين الاعداد الرمزي للفعل وبين القيام بتنفيذه • ومن خلال هذا النشاط الرمزي ، ذي الآثار الواقعية المرجأة ، بدأ الفكر يتركز على نفسه وبدأ التأمل يتجاوز حدود الواقع الملموس أو المرئي للبحث عما قد يكون وراء المحسوس من قوى كامنة شبيهة بالقوى التي يختبرها الانسان عندما يبذل الجهد لاحداث أثر من الآثار • وينم هذا الاتجاه الجديد في التفكير ، عندما يستقل بعض الشيء عن تيار النشاط الحركي ، عن حاجة الانسان الى أن يفسر مايدور حوله ، الى أن يفهم الأحداث الطارئة • فهو يشعر شعورا غامضا بأن هناك نظاما يسيطر على بعض الأحـداث كتتالي النهار والليل وتتابع فصول السنة ، ولكن هناك عددا كبيرا من الظواهر تبدو كأنها غير

خاضعة لنظام معين أشبه ماتكون بنزوات الطفل ، غير أن هـذه الفوضى الظاهرة لم تقض على نزعته الى التفسير والفهم ٠

وسيطول بنا المقام لو أردنا أن نتتبع المراحل التى مرت بها محاولات الانسان لتفسير ظواهر الطبيعة وحسبنا أن نقول بأن هذه المحاولات كانت مطبوعة بالطابع السـحرى الذى يتنافى فى كثير من وجوهه مع التفكير المنطقي ٠ وبما أن الانسان كان يفسر العالم الخارجي في ضوء خبرته بنفسه فقد أسقط على الكون ماكان يعتلج فى نفسه من انفعالات وتخيلات وبدا له الكون فى صورة كائن حى ضخم ملىء بالأحياء والارواح ، يحس ويرغب وينفعل ولكن على نطاق أوسع وبصورة يصعب أحيانا توقعها وعلى الرغم من هذه المحاوله الأولى لتفسير أحداث العالم الخارجى فلم ينفك الانسان يشعر بأنه محاط بألغاز محيرة كما أنه لم يلبث طويلا حتى شعر أنه هو نفسه لغز بين هذه الألغاز ٠

* * *

وقد مرت آلاف القرون بين فجر الانسانية والحضارات القديمة التى يحدثنا عنها التاريخ ٠ ونشاهد فى هذه الحضارات القديمـة ، فى مصر والصين وبابل ، تقدما كبيرا فى النظم الاجتماعية والتشريعية والاقتصادية وفى الفنون الصناعية والفنون الزخرفية وفى بعض العلوم كالفلك والطب وكانت المحاولات الفكرية لتفسير الكون مطبوعة بطابع دينى واضح وكانت المعتقدات الدينية تعيش جنبا الى جنب مع المعتقدات السحرية ولم يشعر الانسان بأى تعارض بين معتقداته الدينية والسـحرية والمعارف العملية التى كان يجمعها من خبراته اليومية أثناء مزاولة عمله وتدبير شـئون حيـاته ، فهو لايزال يفكر كمـا يعمل ، أى بجميع جوارحه ، بفكره ؛ ووجدانه ، بعواطفه ومزاجه البدني ، لايفصل بين الفكر والفعل ، كما أنه لايفصل بين نفسه وبين الكون الذى يحيط به ٠

وكان القدماء ينظرون الى الانسان بوصفه عالما أصغر مناظر للعالم الأكبر يحوى جميع أسرار الكون ويحمل فى ثناياه معالم هذا الكون بصورة ملموسة وان كانت رمزية ٠ فمعرفة الانسان لنفسه هى أيضـا معرفته للعالم الخارجي ، ومعرفته للعالم الخارجي تساعده على معرفة نفسـه ٠ فالكل بالنسبة الى اجزائه يتلخص بصورة رمزية فى كل جزء من هـذه الأجزاء ، غير ان الانسان جزء من الكون يمتاز عن بقية الأجزاء لأنه سيصبح

قادرا على أن يميز بينه وبين ما يحيط به وسوف يطمع فى السيطرة على العالم الخارجى واخضاعه وذلك ببزوغ التفكير العلمى .

ولا يختلف التفكير العلمى فى عهوده الأولى عن التفكير الفلسفى الذى أشرقت ضياؤه الأولى فى بلاد اليونان منذ عهد قريب أى منذ حوالى سبعة وعشرين قرنا وهى حقبة صغيرة من الزمن اذا قيست بماضى الانســـانية السحيق ، ويمتاز التفكير العلمى باعتماده على العقل وحده وعلى ماتمده به المشاهدات الحسية من معطيات أولية . والعقل بفضل شعوره بنفســـه واكتشاف امكانياته ينزع الى أن يطرح شـبكة من العلاقات المنطقية على العالم المحسوس ، فهو يحاول أن يفسر بـرد المتغير الى الثابت ، والمركب الى البسيط ، والمتنوع الى أصل واحد ، ولذلك ســـعى الى الكشف عن العناصر الأولية والأصـــول الأســـاسية التى يتكون منها العالم الخارجى وتتابعت النظريات ، وكانت تختلف احداها عن الأخـــرى غير أن الروح التى كانت توحى بها هى هى لم تتغير وهى الروح العلمية كمـا وصفناها سابقا . غير أن طموح العقل الى التفسير كان يدفع به الى التعميم السريع ، كما أن عجز وسائل الملاحظة والتجريب أدى بالضرورة الى اغفال الكثير من خصائص الظواهر الطبيعية .

وظل فلاسفة اليونان يتأملون فى الطبيعة وظواهرها المتعددة المتغيرة ويقولون بنظرياتهم المختلفة المتضاربة حتى جاء سقراط لينقذ التفكير من تخبطه فنبه الى ضرورة دراسة العقل قبل مواصلة البحث فى الكشف عن أسرار الطبيعة ، اذ أن العقل هو أداة هذا الكشف ولابد من معرفة خصائص هذه الأداة للحكم على قيمة انتاجها . ومن هنا جاء تأكيد سقراط بضرورة معرفة الانسان نفسه اذ أن معرفته لغيره وللعالم الخارجى مرهونة بمعرفته لنفسه .

ومعرفة الانسان لنفسه هى حجر الزاوية لجميع المعارف وهى الأساس الذى يبنى عليه التوافق والانسجام فى السلوك ، توافق الانسان مع بيئته الاجتماعية والثقافية ، وانسجامه مع نفسه .

غير أنه يجدر أن نشير هنا الى الخطأ الشائع فى تأويل النصـــيحة الســـقراطية . فهو لايقول لنا اعرف نفسك بنفسك ، بل يقول اعرف نفسك أنت . ولا يعتقد سقراط أن فى امكان الانسان أن يعرف نفســـه بنفسه دون الاستعانة بتوجيه ممن أدرى منه بشئون النفس الانسانية ، وطريقة سقراط فى « توليد الأفكار » لدى المستمع ، بطرح السؤال تلو

السؤال دليل على الانســـان فى حاجة الى غيره ـ أى فى حاجة الى الحكيم أو الفيلسوف ار العالم ـ لكى يكشف أسرار نفسه • ولكن لايكفى لمن يريد أن يعرف نفسه أن يتخذ موقفا سلبيا ، بل عليه بمعونة الموجه أن يبذل جهدا ذاتيا متواصلا لفهم نفسه وتملك زمامها حتى يصبح قادرا على أن يوجه نفسه بنفسه ويحقق السعادة التى ينشدها فى حياته الفردية وفى نشاطه الاجتماعى :

الواجب الأكبر (*)

ان محاولة الانسان فهم العالم من حوله تضطره الى أن يتجه بتفكيره نحو نفســه لكي يستقصي قدراته العقلية ويحللها للحكم على قيمة المعرفة التي يحصـلها بواسطتها (١) بل ان ضرورة التكيف مع الواقع الخارجي أجبرته على أن يزداد علما بامكانياته وأن يكتشف دوافعه وأن يحدد مدى ملاءمة هذه الامكانيات لارضاء هذه الدوافع ·

ومحاولة الانسان تحقيق التكيف مع بيئته ، سواء كانت مادية أو معنوية ، تجعله يحدد موقفه من العالم الخارجي وموقفه من نفسه ، فكلما زادت مطالب البيئة أو تغيرت الظروف المعيشية التي سبق له أن ألفها ، اضطر لكي يحافظ على نفسه ، الى أن يصطنع وسائل جديدة لمواجهة المطالب التي تخلقها الأحداث الطارئة أو تبعثها حركة التطور في مختلف ميادين النشاط · فهو من جهة يسعى الى تغيير الموقف الخارجي ومعالجته بشـتى الوسائل الحركية والفـكرية التي يملكها ، ويسعى من جهة أخرى الى أن يكتسب مهارات جديدة وينمي ما لديه من قدرات عقلية ، بل يجد نفسه مضطرا الى الحد من رغباته والى ضبط بعض اندفاعاته لكي يحقق التوافق الذي ينشده ، وفي أثناء هذا التفاعل بينه وبين العالم الخارجي وبينه وبين نفسه يزداد شعوره بذاته حدة ومعرفته لنفسه سعة وعمقا · فكل دائرة من دائرة نشاطه تضمه هو والموقف الخارجي الذي يدعوه الى أن يعمل بل ويدعوه الى أن يتبصر ويفكر قبل أن يعمل · وهذه الدائرة ليست ساكنة بل تتفاعل في داخلها مجموعة من القوى بعضها يصدر عن الموقف وبعضها الآخر عن الشخص الذي يواجه هـذا الموقف · ويقوم تكييف الموقف في نهاية الأمر على كيفية ادراكه ، أي على كيفية فهمه في ضوء ما لدى الشخص من معلومات وخبرات وتبعا لما لديه من اتجاهات عقلية ووجدانية ·

(*) «المجلة» ، يونيو ١٩٦٣ ·

(١) انظر مقالنا «اللغز الأكبر» في عدد مايو من «المجلة» ·

فالتكيف الناجح يقتضى فى آن واحد معرفة الانسان نفسه ومعرفة الموقف الذى يحيط به ، وهو مهمة شاقة تتطلب جهدا مستمرا ، ومما يزيد من صعوبة هذه المهمة أن الانسان خلال حياته يتطور مارا بمراحل متباينة وان كانت متصلة الى حد كبير ، كما ان المواقف السلوكية تتغير وتتعدد كلما انتقل المرء من مرحلة الى مرحلة جديدة أو كلما انتقل من دائرة نشاط الى دائرة أخرى ، فالتكيف لا يتم أبدا بصورة واحدة نهائية وفى اتجاه واحد • بل يجب على الانسان أن يصطنع باستمرار أساليب جديدة من التكيف لمسايرة حركة التغير والتطور •

وان كان الطفل الوليد يكاد يكون مجردا فى بادىء حياته من وسائل التكيف التى تحظى بها الأنواع الحيوانية الأخرى ، غير أنه ينشأ فى كنف مجتمع يرعاه ويوفر له أسباب المحافظة على بقائه ويمهد له سبل التعليم ، ويساعده على اكتساب مجموعة من العادات الحركية واللفظية وبعض الاتجاهات العاطفية التى ستشكل فيما بعد استجاباته السلوكية وتؤثر تأثيرا عميقا فى أساليب تفكيره • ولكن كثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه التأثيرات التى يتلقاها الطفل من بيئته العائلية غير حميدة مما يؤدى الى انحراف سلوك الطفل وبالتالى الى جعل عملية التكيف أكثر عسرا ومشقة •

غير أنه لابد من تحقيق التكيف بصورة ما ، سواء كانت هذه الصورة سوية أو منحرفة ، لأن ضغط الظروف الخارجية وما ينشأ عنه من صراع نفسى يدفع الكائن الحى الى البحث عن أقرب وسيلة لخفض الضغط والتوتر ، وقد تنجح هذه الوسائل لفترة من الزمن فى تخفيف وطأة الصراع النفسى، ثم يبعث هذا الصراع مرة أخرى كلما واجه الطفل تغييرا جديدا فى مجال سلوكه ونشاطه • فعملية التوافق النفسى والاجتماعى عملية شاقة للغاية وتزداد مشقتها فى حالة ما يكون المهيمنون على تربية الطفل يعانون بدورهم ألوانا من الصراع النفسى ويتخذون من بعض تصرفات الطفل الطائشة ذريعة لهم لاسقاط ما يتنازعهم من اتجاهات عاطفية متضاربة •

ولكن مهما كانت عملية التوافق النفسى والاجتماعى عملية شاقة فهى ضرورية لأن سعادة الأفراد والمجتمعات مرهونة فى نهاية الأمر بنجاح هذه العملية • فمعرفة الانسان نفسه أمر واجب لا مناص منه وليس منشأ هذا الواجب مقصورا فقط فى الضغوط التى يفرضها المجتمع على أفراده ، اذ هناك مصدر آخر لهذا الواجب ، مصدر ترجع جذوره الى كون الطبيعة البشرية طبيعة عاقلة لا مجرد طبيعة حيوانية •

فالضغط الاجتماعى أو الالزام الاجتماعى أمر خارجى كثيرا مايفرض قسرا ، وارضاء هـذا الالزام قد يكتفى بالمظهر دون اللب ، أى يكفى أن يطـابق المرء ، فى تصرفاته الظـاهرة ، بين سلوكه وما يتطلبه الالزام الاجتماعى من حركات وألفاظ وأنماط سلوكية • واللغة التى يتعلمها المرء وسائر الحركات التعبيرية والايماءات والأوضاع التى تحاكى فى الظاهر النماذج الغفل التى يفرضها المجتمع ليست فى نهاية الأمر سـوى أدوات للاتصال بالآخرين أو لمنع الاتصال بهم أو لتشويه هذا الاتصال ، أى أن هذه الأدوات اللغوية والحركية كغيرها من الأدوات يمكن استخدامها للخير أو الشر ، لمناصرة الحق أو لازهاقه بحجة أنه باطل •

فهناك الزام آخر لا يصدر عن الضغوط المفروضة من الخارج ، بل يصدر عن الضمير الخلقى المنبعث من طبيعة الانسان العقلية • قد يذهب بعض علماء الاجتماع الى جعل الضمير الخلقى الفردى مجرد صدى للنواهى والأوامر الاجتماعية بل يذهب أنصار مدرسة فرويد للتحليل النفسى الى أن الأنا الأعلى ـ وهو يقوم فى نظرهم مقام الضمير الخلقى ـ ليس سـوى تبلور داخلى للنواهى والأوامر الاجتماعية أو على حـد تعبيرهم ، نتيجـة امتصاص نفسى لهذه النواهى والأوامر • ونظرة هؤلاء وأولئك نظرة ناقصة لا تفسر الا تكوين الضمير الخلقى الفج الذى يقوم على التخويف والارهاب ، ويكفى أن يكون المرء ممثلا بارعا لكى يشكل سلوكه الظاهرى بالأشكال التى يفرضها المجتمع •

فلابد من تطوير هذا الضـمير الخلقى الفج البدائى وعامل التطوير الذى يؤدى الى تكوين الضمير الخلقى المستنير المخلص هو عقل الانســان الذى يعلو بشكل من الأشكال على ما يسمى بالعقل الجمعى ، وهذا العقل الجمعى أسطورة من الأساطير التى لا يزال يرددها بعض علماء الاجتمـاع الميتافيزيقيين ، أى الذين يديرون ظهورهم للحقائق الواقعية للارتماء فى أحضان التأملات الفلسـفية الجوفاء • واذا كان المجتمع قد خطا خطوات واسعة فى طريق التقـدم الروحى والعلمى ، فليس هـذا العقل الجمعى المزعوم هو أداة هذا التطور ، بل العامل الأساسى هو بعض العقول الفردية الجبـارة ، عقول الفلاسفة والعلماء ورجال الفكر والأدب والفن ، عقول الأبطال ، سواء الذين شيدنا لهم التماثيل فى ساحاتنا الشعبية ، أو الذين ظلوا مجهولين فى حياتهم ومماتهم •

فمهما كان العقل الفردى مدينا للمجتمع فهو يعلو عليه لأنه قادر على أن يجعل من هذا المجتمع موضوعا لتفكيره ، لأنه يظل محتفظا ، الى حد قد

يصغر أو يكبر بالقدرة على الاختيار ، أى على القبول أو الرفض ، والا يصبح تطور المجتمع معجزة من المعجزات • نعم ان للمجتمع ؛ وبخاصة المجتمع المتمثل فى نظمه الثقافية والحضارية ، فضلا كبيرا على تنشيط العقول الفردية ، غير أنه ليس سوى منشط ولا يمكنه أن يخلق شيئا ، فهو ينمى البذور الأولى ويسمح لبعض امكانيات الانسان بأن تظهر وترتقى وتزدهر ، غير ان هناك من الامكانيات الانسانية التى لا تظهر بفضل المجتمع فحسب بل على الرغم منه ، ومن بين هذه الامكانيات الضمير الخلقى الحر الذى لايكتفى بأن يكون الانسان ممثلا بارعا ، ومستودعا من الحجج السوفسطائية الملتوية التى ترمى الى التبرير على حساب الكرامة الانسانية والشهامة الخلقية ، بل يطالبه بأن يحيا دائما حياة الأبطال الذين يخلصون لمثلهم العليا ولو أدى هذا الاخلاص الى التضحية الشاملة فى سبيل الواجب • ويكفى أن توجد حالة واحدة لمثل هذه البطولة ، لكى نقرر انها ممكنة وقابلة للتعميم مبدئيا •

فهناك اذن واجب خلقى أصيل منبعث من الطبيعة العقلية للانسان يحتم عليه أن يعرف نفسه لكى تساعده هذه المعرفة ، لا فقط على تحقيق التكيف الاجتماعى الظاهرى للفرار من العقاب ، بل على تحقيق التوازن النفسى الداخلى على أساس سليم وتنمية جميع الامكانيات الفائقة الكامنة فى الطبيعة البشرية ، امكانيات الفكر ، بل امكانيات المحبة والتضحية التى قد تفتح لبصيرة الانسان وقلبه آفاقا جديدة تسمو على مجرد المعرفة النفعية ، وتجعله يحس فى أعماق نفسه بهذه النبضات الخفية التى تجعل من الكون الأعظم الذى يحيط به سمفونية رائعة من الجمال والانسجام •

ربما قد يعترض علينا بأننا نقحم معنى الواجب فى دراسة علمية للسلوك الانسانى اذ من المسلم به أن مهمة العلم مقصورة على تقرير الواقع كما هو لا على تقرير ما يجب أن يكون • اننا نوافق المعترضين على اعتراضهم ، بل نقرر بدورنا أن الحقائق العلمية مهما كانت مدعمة ومنسقة لا يمكن أن ينتج عنها أمر مطلق يوجب القيام بعمل دون غيره ، وأن كل ما يمكن انشاؤه من أوامر خاصة بالأفعال الانسانية لا يتجاوز دائرة الشرط الى دائرة الاطلاق • فالعلوم الطبية لا يمكنها أن تقرر بصورة مطلقة :

يجب تعقيم الماء قبل شربه عند ظهور وباء الكوليرا ، بل كل مايمكنها أن تقوله : اذا أردت المحافظة على حياتك فيجب تعقيم الماء •• الخ ، أى ان

الواجب هنا مشروط بارادة الشخص (١) وهو ليس واجبا مطلقا • فالعلم يقدم لنا نصائح عملية تطبيقية ، ولكنها غير ملزمة من الناحية الأخلاقية البحتة •

غير أن موقف علم النفس بالنسبة الى الأخلاق يختلف عن موقف العلوم الطبيعية فالعلاقة التى تربط بينهما علاقة جوهرية ، فاذا كان الهدف الرئيسى لعلم النفس معرفة الشخص نفسه ومعرفة الآخرين فان هذه المعرفة لا تكتمل الا بفضل الجهد الذى يلتزمه تحقيق القيم الخلقية • فكما أن تنظيم السلوك من وجهة نظر الأخلاق يقتضى معرفة الأسس السيكولوجية التى يقوم عليها وصف السلوك وتعليله بشروطه الداخلية والخارجية فكذلك اكتمال معرفة الانسان نفسه والآخرين لاتتم الا بفضل تحقيق القيم الخلقية التى تسمو بالانسان الى مستويات تفوق مستوى الحيوانية البحتة •

وأعتقد أن هذه النقطة جديرة بالتوضيح قبل المضى فى دراسة السلوك من الناحية السيكولوجية ، فقد سبق أن ذكرنا أن المعلومات التى تمدنا بها العلوم يمكن استخدامها للخير أو للشر على السواء • فمعرفتى للخصائص الفيزيائية والكيميائية للقوة الهائلة الكامنة فى الذرة ولوسائل اطلاق هذه القوة قد تفيدنى فى زيادة رفاهية الجنس البشرى أو فى تدميره والقضاء عليه • ولكن ليس حب الانسانية أو كراهيتها من العوامل الأساسية التى تدفع العالم من حيث هو عالم الى البحث والدراسة • فالنظم الرياضية البحتة التى تقوم عليها اليوم نظرية النسبية ونظرية القوى النووية لم تخلق فى ذهن الرياضى الا بدافع عقلى بحت وهو ان يثبت العقل لنفسه قدرته على ابداع عوالم من الرموز لا تمت الى الواقع الحسى الظاهرى بأية صلة من الصلات ، ثم ان الآثار العملية لتطبيق النظريات العلمية فى ميادين الميكانيكا والفيزياء والكيمياء لاتضيف شيئا جديدا الى المعرفة النظرية بل يقتصر أثرها على دفع العالم الى اعادة النظر فى معادلاته

---

(١) أوحى الينا بهذا المثل حادث وفاة المؤلف الموسيقى الشهير تشايكوفسكى صاحب السمفونية الحزينة ، فقد كان وباء الكوليرا منتشرا فى روسيا سنة ١٨٩٣ وهى السنة نفسها التى ألف فيها السمفونية الحزينة وقاد عزفها فى سانت بترسبورج فى ٢٨ اكتوبر فقوبلت بفتور كبير ووافته المنية بعد بضعة أيام فى ٦ نوفمبر ، اثر شربه كوبا من الماء غير المعقم على الرغم من علمه بضرورة تعقيم الماء قبل شربه ، كأنه صمم على الموت بعد فشل سمفونيته الحزينة ، خاصة بعدما عانى من آلام الصدمة العنيفة التى سببها له انقطاع العلاقة الروحية التى كانت تربطه بمدام فون مك منذ عام ١٨٧٧ •

الرياضية لتعديلها أو استيفائها ، ولكنها لا تكون فى حد ذاتها معرفة نظرية جديدة تضاف الى ماسبقها من معارف .

ولكن الأمر مختلف فيما يختص بالعلاقة بين المعرفة السيكولوجية والخبرة الاخلاقية ، أى بين الشعور والضمير ، ولتوضيح هذه العلاقة يتحتم علينا ان نقوم بتحليل هذين المفهومين الأساسيين ، والغرض النهائى لهذا التحليل هو اثبات **أن الخبرة الأخلاقية هى فى صميمها معرفة سيكولوجية ، بل هى العامل الأساسى الذى تقوم عليه فى نهاية الأمر معرفة الانسان لنفسه .**

اننا نعلم كل لغة من اللغات هى محصل التجارب التى اكتسبها الناطقون بهذه اللغة ، هى المرآة التى تنعكس عليها أساليب التفكير والاتجاهات العقلية والعاطفية الموجهة للسلوك ، أى المرآة التى تنعكس عليها سيكولوجية الشعوب وثقافتهم وعلى ذلك فانه من الطريف أن نقوم بتحليل مفهومى الشعور والضمير عند مستوى الاستخدام اليومى للغة ، قبل محاولة التحليل عند مستوى الاصطلاح العلمى أو الفلسفى .

فمعنى الشعور لايختلف كثيرا عن معنى الاحساس والاثنان يشيران الى نشاط ذاتى ، أى نشاط باطنى لا يمكن مشاهدته من الخارج ، بل لا يمكن لشخص آخر أن يشاركنى فيه ، غير أن آثار الشعور والاحساس قد تظهر فى صورة حركات أو ايماءات أو تعبيرات ، ويمكن للآخر أن يستدل بهذه الآثار على نوع الشعور أو الاحساس الذى يعانيه الشخص ، ويكون الاستدلال عن طريق الحكم بالمماثلة ، حكم لا يرتقى الى مستوى اليقين بل يظل حكما احتماليا .

فعندما أقول أننى أشعر بألم أو أحس بألم معنى هذا القول اننى أعرف ما يعترى حالتى النفسية من تغير كيفى . فالألم كيفية نفسية وقد نصف هذه الحالة الكيفية بأنها وجدانية . والوجدان فى أصله لايختلف عن الشعور أو الاحساس غير انه متعين عادة بكيفية ما من كيفيات اللذة أو الألم على اختلاف درجاتها ان صح لنا أن نتحدث عن درجات فى الكيف ، نظرا لأن مانعتبره تغيرا فى الدرجة هو فى الواقع تغير فى الكيف ، ولا توجد وحدة قياسية ثابتة للمقارنة بين هذه الدرجات المزعومة .

ويستخدم بعضهم لفظ « الوعى » للتعبير عن معنى الشعور . والواقع ان الوعى النفسى يتضمن معنى الشعور ، بل يضيف اليه معنى

جديدا هو معنى الاحتفاظ بأثر الشعور ، أو معنى معرفة هـــذا الأثر . لتطبيقها على الحياة النفسية التى هى ليست مجموعة من أشياء بل سيلا من النشاط .

ولفظ « الضمير » يشير كذلك الى أمر باطني ، الى أمر خفي ، هـــو أيضا نوع من الحس ، غير أن العرف سرعان ماخصص هذا الحس لنوع معين من النشاط النفسى ، هو الحس الخلقى الذى يصدر حكمه لاعلى وجود أمر من الأمور ، بل على قيمة هذا الأمر بالقياس الى معيار ما ، هو في هـــذه الحالة معيار خلقي .

وعلى ذلك يمكن القول ان الشعور من الوجهـة السيكولوجية شرط ضرورى لوجود الضمير ، هو أشمل من الضمير . فاذا انعدم الشعور انعدم الضمير ولا وجود لأى مشكلة أخلاقية اذا لم يرتق النشاط الى مستوى الشعور ومن المعلوم ان المسئولية الاخـــلاقية تتوقف درجاتها على مدى تمتع الشخص بنشاطه الشعورى . غير ان المقصود هنا بالنشاط الشعورى ليس فقط النشاط التلقائى ، بل النشاط الذى يوجهه تصور الهـــدف واختيار النشاط الذى يوجهه تصور الهدف واختيار الوسائل المؤدية اليه .. فاذا كان الشعور من الناحية السيكولوجية هو شرط جوهرى لوجود الضمير فهو أيضا شرط أساسى لقيام التفكير الموجه نحو هدف .

فأمام الشعور طريقان للتقدم والرقي ، طريق يوصـــل الى تكوين الضمير الخلقى وطريق يوصـــل الى ارتقاء النشـــاط الفكرى . الى ارتقاء المعرفة وهذان الطريقان سيلتقيان عند قمة واحدة هي معرفة الانســـان لطبيعته النوعية ، أي هـــذه الطبيعـــة التى تميزه تمييزا جوهريا عن الحيوان .

فالانتقال من الشعور الى الضمير هو ارتقاء من مستوى الى مستوى أعلى ، ارتقاء من مستوى الانطلاق الى مستوى الضبط ، أو من مستوى الأفعـــال المنعكسة والتلقائية الى مستوى الأفعـــال الارادية . والواقع أن أساس الحياة الخلقية هو القدرة على توجيه التفكير وضبطه ، القدرة على تركيز الانتباه في الهدف الذى يكون الفكر قد قرر من قبل أنه الهدف الأعلى الذى يجب تنفيذه . وبالارتقاءالى المستوى الأخلاقى تكتمل نظرة الانسان الى طبيعته وتصبح معرفته لنفسه أشمل وأعمق .

وهذا هو في الواقع الدرس الذى أراد أن يلقنه ايانا الفيلســـوف اليونانى سقراط عندما حث الانسان على أن يعرف نفسه . فهو لايقصـــد

فقط أن يعرف الانسان ميوله ونزعاته وقدراته المختلفة ومايعانيه من نقص وقصور ، بل هو يدعو الانسان الى معرفة جوهره ، أى الى معرفة مثـــال الكمال الذى يحمله فى طيات نفسه والى السعى فى تحقيق هذا المثال فى تفكيره وسلوكه • فغرض المعرفة الذاتية هو فى الواقع استكمال الطبيعة البشرية بتحقيق الخير ، هذا الخير الذى يتحد مع الحق اتحاداً كلياً •

وهذا ايضا مادعى اليه افلاطون بعد استاذه سقراط فعند المستوى السيكولوجى البحت لا يعدو الانســان أن يكون الا مجمــوعة من القوى المتنافرة • فبدون الجهد الذى يجب بذله للوصــول الى قمة الخير يظـــل الانســان جاهلا لنقائصه ، أى لما يحتاج اليه لكى يحقق بصـــورة أكمل طبيعته البشرية ، فلابد من وثبة الارادة نحو قمة الخير ولابد من بذل الجهد لتركيز الانتباه فى هذا المثل الأعلى لكى تكتمل معرفة الانسان لنفسه •

أردنا بما سبق ان نبين أن واجب معرفة الانسان لنفسه لاتدعو اليه فقط الفائدة العملية التى يجنيها المرء فى تحقيق التكيف ، بل أيضـــا ماتلقيه الجهود التى يتطلبها تنفيذ هذا الواجب من أضواء تكشف عما فى الطبيعة البشرية من أصــالة جوهرية • وكما أن الواجبات الأخــلاقية على اختلاف تشعبها من شخصية وعائلية واجتماعية واجبات مترابطة متضامنة، فتحقيق الحياة الاخلاقية الشـــاملة المتكاملة يتطلب معرفة جميع مقومات الشخصية ومعرفة الشروط المثلى التى يجب أن تتوافر لتحقيق التوافق فى مختلف ميادين النشاط الانسانى • فعندما نتأمل فى الشروط التى يجب تحقيقها لضمان رقى الفرد من حيث هو فرد يدفعنا هذا التأمل بالضرورة الى توسيع دائرة الفردية والى تناول العلاقات العديدة التى تربط الفــرد بالآخرين وبشتى الدوائر الاجتماعية المتداخلة التى تضم الفرد فى حلقاتها وعندئذ يتبين لنا أن الواجبات الاجتماعية الملقاة على عاتق الفرد تنقذه من العزلة ومما تسببه العزلة من تعطيل النمو النفسى أو من اضعاف الجهـاز النفسى وتعرضه لشتى الانحرافات فى السلوك والتفكير بل لشتى الأمراض النفسية والعقلية •

وكذلك ومن جهة أخرى ، عندما نركز تفكيرنا فى العلاقات الاجتماعية التى يعيش الفرد فى شبكتها المعقدة ، وعندما نلمس الآثار القوية العميقة التى تحدثها فى نفســـية الأفراد وعقليتهم الثقــافة السائدة والتقاليد الراسخة ، نلمس الى أى مدى قد تطغى أحيانا الانماط الاجتماعية للتفكير والسلوك على تلقائية الفرد وحريته متجردة من طابعه الشخصى الفريد

وتدفعه الى أن يتطابق مع الآخرين تطابقا أعمى وعندئذ نضطر الى أن نتجه شطر الفردية ونحاول تنمية مميزاتها الخاصة من حيث أساليب التفكير والسلوك والتأثر الوجداني لكى نحقق ازدهار ما تنطوى عليه الشخصية من امكانيات عميقة أصيلة وبناء نظام العلاقات مع الآخرين على أساس من التفاهم والتبادل الحر ٠

فالانسان يترجح خلال نموه النفسى والاجتماعى بين قطبين متطرفين متضادين كلاهما شر ، أحدهمـا هو الانعزال عن المجتمـع والانطواء على النفس ، والآخر هو التطابق الأعمى مع المجموعة الصماء وسـيطرة روح القطيع والاكتفاء بالقشور دون اللب (١) فالقطب الأول يؤدى الى تضخم الأنانية وتقوية النزعة الى التركز حول الذات، بل يؤدى الى عبادة الذات، وعبادة الذات لا تعدو أن تكون عبودية ثقيلة الوطأة ٠ ان البرج العاجى لا يختلف كثيرا عن زنزانة السجن أو حجرة المجنون ٠ أما القطب الثانى فهو يؤدى الى تلاشى الشخصية الحية والاستعاضة عنها بشخصية مزيفة مصطنعة مستعارة ، والى افناء الفرد داخل الجماعة ، بل الى عبادة الجماعة وهذه العبادة كعبادة الذات لاتعدو أيضا أن تكون عبودية ثقيلة الوطأة ٠

لابد اذن من تحقيق التوازن بين القوى التى تدفع الى الانطواء والعزلة والقوى التى تدفع الى الخضوع الأعمى للتصورات ولا يتحقق هذا التوازن الا بالتعاون بين الشعور والضمير ، بين معرفة الشخص لنفسه ومعرفته لواجباته ٠ معرفته للقوانين التى تسيطر على نموه الجسمى ونموه النفسى نمو قدراته على الادراك والتفكير ، نمو حياته الوجدانية والعاطفية ، نمو قدراته على العمل والتنفيذ الارادى ، وكذلك معرفته لواجباته نحو نفسه وقيامه بأداء هذه الواجبات ليحقق بشكل تكاملى نمو هذه القدرات الجسمية والنفسية ٠ واداء الفرد لجميع هذه الواجبات نحو نفسه هو أحسن تمهيد لأداء واجباته نحو الآخرين ونحو المجتمع الانسانى وبذلك يتحقق التكامل النفسى الاجتماعى الروحى الذى ينشـده علم الاخـلاق والذى تمهد له المعلومات التى يمدنا بها علم النفس ٠ فعلم الاخلاق يضـع الغاية وعلم النفس يقدم الوسائل المؤدية الى هذه الغاية وليس من الغريب أن يعتمد علم الأخلاق فى تحقيق غايته على الوسائل السيكولوجية ، كما انه ليس من الغريب أن يتفق علما الأخلاق والنفس فى نهاية الأمر على غاية واحدة هى تحقيق الخير والسعادة ٠

---

(١) راجع مقالنا : «الواجب الاكبر» فى عدد يونيو ١٩٦٣ من «المجلة» ٠

عقبات فى الطريق (*)

عندما يقوم الرحالة بوضع خطة سفره الى بلد مجهول لاستكشاف معالمه ودراسة أحواله فانه يحاول فى بادىء الأمر أن يجمع ما يتيسر له من معلومات عن الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه وعن العقبات التى قد تعترض سيره وذلك لاتخاذ الاحتياطات اللازمة لتذليل هذه العقبات وتمهيد السبيل المؤدى الى الهدف . وكذلك يجب على من يريد أن يكتشف أسرار النفس الانسانية (١) أن يكون على دراية بما قد يعوقه عن الوصول الى المعرفة الحقة للطبيعة البشرية وللدوافع والعوامل التى تعين سلوك الانسان وتشكله فى مختلف سبل الحياة وشتى ميادين النشاط .

والعقبات التى تعترض معرفتنا لأنفسنا عديدة متنوعة ، ويجدر بنا ، أن نحاول حصر هذه العقبات قدر المستطاع .

قد يكون من سخف القول أن نقرر أن الجهل هو العقبة الأولى التى تعترضنا وأن من شأن نور المعرفة تبديد ظلمات الجهل . غير أن المشكلة ليست بهذه البساطة التى تبدو عليها لأن هناك أنواعا من الجهل والخطوة الأولى التى يجب أن نخطوها فى سبيل التغلب عليه هى معرفة طبيعة الجاهل قبل محاولة معرفة طبيعة المجهول . واذا كان الأمر كذلك فان مشكلة الجاهل من حيث هو جاهل تدخل بالضرورة فى دائرة المجهول على الاطلاق . وعندئذ يصبح السير الى الأمام ولو خطوة واحدة ، فى سبيل المعرفة ، أمرا محالا .

هل معنى هذا أنه مقضى علينا ألا نخرج أبدا من دائرة الشك الذى لا سبيل الى قهره . وان كل ما نقوله هو موضع شك ، حتى هذا التقرير الذى نحن بصدده الآن وهو أن كل قول أو كل تقرير أو كل حكم نصدره غير قابل للبرهنة على صحته أو خطئه .

(*) «المجلة» ، يوليو ١٩٦٣ .

(١) راجع مقالنا : « الواجب الأكبر » فى عدد يونيو ١٩٦٣ من « المجلة » .

واذا واصلنا السير في هذا الطريق من التفكير المجرد البحت فاننا سنحبس أنفسنا داخل دائرة سحرية من المحال فك حصارها وسنصاب بدوار فكرى يجرنا الى العدم اذ سيعطل هذا الدوار لا الفكر فقط بل الفعل نفســه • ولكن مهما كان الدوار قهريا فانه في واقع الأمر خداع ، لأن الفكر مهما كانت صفته التجريدية كبيرة ينطوى على عامل ايجابى أصيل هو القصد ، والذى نعنيه بالقصد ليس الشيء المقصــود أو تصــور هذا الشيء المقصود بل هذا النشاط الخلاق الذى يوجه العناصر الفكرية نحو هدف لا يتضح الا بفضل محاولة الاقتراب منه وتحقيقه • فالقصد هو من قبيل الفعل لا من قبيل الفكرة سواء كانت مجردة أو مجسمة ، هو القدرة التى تأخذ فى ادراك نفسها عندما تبدأ تعمل ، أى عندما تنشط ، هو الحركة فى صميمها وفى وثبتها قبل أن ندرك ما هو الشيء الذى يتحرك ، والخلط بين الحركة والمتحرك يؤدى الى جعل الحركة شــيئا فى حين أنها ليست بشيء •

وتتمثل هذه القدرة على القصد وعلى بذه الحركة فى اتجــاه ما دون غيره فى القدرة على مواصلة التفكير أو كفه وعلى استئنافه اذا شئنا • وفى هــذه الحالة تكون أدوات التفكير ، أى اللغة ، مهمــا كانت اشــاراتها ورموزهـا ، خاضعة لهــذا النشاط القصــــدى • أما اذا طغت الارادة على النشاط وقع هذا الأخير أسيرا داخل الدائرة السحرية التى أشرنا اليها من قبل وأصيب بالدوار •

والأخطار التى تهدد التفكير المجرد البحت تهدد أيضا الفعل المحض الذى لا يرتكز خلال وثباته المتتابعة على تحقيقات واقعية ، فلابد ، لكى يتجنب الفعل الدوار ، الدوار الذى تخلقه التكرارات الرتيبة أو الحركة الفوضوية على حد سواء ، لا بد له من أن يثبت اتجاهه نحو المقصود كلما اتضحت معالم هذا المقصود •

فالقصد هو النشاط الكامن خلف التفكير وخلف الفعل ، هو يقوم بالربط بينهما بتنظيمهما فيقيد التفكير بالواقع ويوجه الفعل نحو تحقيق الصورة المثلى التى يتوقعها الفاعل • وهذا النشاط القصدى الذى نتحدث عنه هو الغزوة الأولى فى عالم مجهول والدعامة الأولى التى تقوم عليهــا ثقة الانسان فى قدرته على التفكير والفعل ، أى قدرته على المعرفة ، لأن المعرفة هى ثمرة التفكير والفعل متضامنين •

فالشك المطلق خداع لفظى ، والجهل المطبق أمر يتنافى مع الوجود

لأن العدم والوجود متناقضان ينفي أحدهما الآخر بالضرورة . غير ان الطريق الموصل بين هذا الوميض الخفيف الذى يبشر بالمعرفة وبين نور المعرفة الساطع طريق طويل وعر . الا أننا بدأنا نتحرك ومهما تعددت العقبات فحركتنا المقصـودة كفيلة بتذليل هذه العقبات أو هى على اقـل تقدير كفيلة ببعث الأمل المطرد فى تذليلها .

، قبل المضى فى ذكر العقبات التى تعترض طريق معرفة الانسـان نفسه نود أن نوضح ما سبق بذكر الأعراض الرئيسية لمرضين خطيرين من الأمراض العقلية هما مرض الفصام ومرض الهوس . فهذان المرضان يمثلان بوضـوح نوعين متقابلين من الاضطراب الذى يصيب العلاقة بين التفكير والفعل والتشويه الذى يلحق بتصور المريض للواقع . فالمرض بوجه عام ، من حيث هو اختلال للتوازن أو الانسجام الذى تحققه الوظائف عندما تعمل بصورة سوية ، يفكك النظام الطبيعى فيضخم بعض العوامل ويسبب ضـمور العـوامل الأخرى ممـا يؤدى الى انحراف الوظائف عن سيرها السليم . فالمرض اذن بمثابة التجربة التى يقيمها العالم لتحليل ظاهرة من الظواهر للكشف عن جميع مقوماتهـا وعن طبيعـة العلاقات القائمة بينها .

فمرض الفصام ، كما يتبين ذلك من اسمه (١) يفيد معنى القطع والتصـدع . ولهذا المرض مجموعة من الأعراض الرئيسية الثابتة التى تظهر فى جميع حالات المرض ومجموعة أخرى غير ثابتة لا تظهر الا فى بعض الحالات دون غيرها وسـنقصر القول هنـا على الأعراض الثابتـة المشتركة .

فالسمة الأساسية للفصام هي التفكك . ويظهر التفكك فى مجالين ،

---

(١) وضعت لفظ «الفصام» منذ عام ١٩٤٣ ترجمة للفظ Schizophrenia الذى وضعه طبيب الأمراض العقلية السويسرى بلولر Bleuler عام ١٩١١ ليشير الى الأعراض الرئيسية لمرض الجنون المبكر Dementia praecox ويتركب لفظ Schizophrenia من Schizein . وهو فعل يونانى معناه قصم ، قطع ، ، شق ومن Phrene عقل

وقد شاع استخدام لفظ «الفصام» مع غيره من المصطلحات التى اقترحتها كالعصاب والذهان ، والحصار والهذاء والهجاس ، وهى على وزن فعال الذى يفيد معنى المرض كالزكام والجذام والصراع والسبات الخ .. (انظر الطبعة الاولى من كتاب «شفاء النفس» للمؤلف نشر دار المعارف بمصر عام ١٩٤٣) .

المجال الداخلي والمجال الخارجي . والمقصود بالمجال الداخلي مجال العلاقات القائمة بين الوظائف النفسية من حيث هي عمليات ذهنية ، أما المجال الخارجي فهو علاقة الشخص بالعالم الخارجي . والمجال الخارجي تابع للمجال الداخلي وهو ثانوي بالنسبة اليه ، أي أن العالم النفسي الداخلي هو الذي يعين نمط الاستجابة للعالم الخارجي .

والتفكك بين الوظائف النفسية يؤدي الى تحطيم الوحدة والانسجام والاتصال في النشاط النفسي في جميع ميادينه : الفكر واللغة والوجدان والميول والارادة . والصفات الرئيسية لاضطراب هذه الوظائف هي : أولا : الكف والتعطيل والاعاقة والعناد والخلفة . ثانيا : يكون نشاط المريض اما اندفاعا انفجاريا أو متصلبا ومتحجرا تغلب عليه الآلية ، أي انه يسير على وتيرة واحدة ووفقا لنمط واحد كثيرا ما يكون متصنعا . ثالثا : السلبية والقابلية للايحاء والمحاكاة عمياء للحركات التي يشاهدها المريض .

والسمة الرئيسية لجميع هذه العمليات المرضية هي التناقض : التناقض بين ما يشعر به المريض وبين ما يقوله ، فهو يؤكد وينفي في آن واحد نفس الفكرة أو العاطفة أو الميل (١) وهو عاجز عن أن يتجاوز في الخبرات التي يعانيها حدود ذاته ، وينتهي به الأمر الى أن يعيش في عالم من الأخيلة الوهمية ومن الاجترار الفكري ويصبح فريسة للهذيان غير المنظم المليء بالتناقض والتفكك .

ويؤدي هذا الاضطراب البالغ في النشاط النفسي الداخلي الى قطع الصلة تدريجا بين المريض والعالم الخارجي . فيفقد المريض الاتصال الحي بما يحدث حوله فيضعف اهتمامه بالعالم الخارجي ويصاب بالبلادة الوجدانية ويصبح عاجزا عن ادراك القيم المادية والخلقية والاجتماعية

---

(١) تشير هنا الى ما سماه بلولر Ambivalence ومعناه ازدواج قيمتين متضادتين . وقد اقترحت ترجمة هذا اللفظ المركب بلفظ عربي مركب من «أيس» ومعناها الاثبات من «ليس» ومعناها النفي ، فنقول «ايسليسية» ترجمة Ambivalence و «أيسليس» ترجمة Ambivalent وتقدمت بهذا الاقتراح الى مؤتمر مصطلحات علم النفس والتربية الذي نظمه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في مجلس الامة من ١٥ الى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٣ . وقد وافقت عليه لجنة مصطلحات علم النفس في بادىء الامر ثم عدلت عنه لغرابته ، وأقرت بالأغلبية ترجمته «تناقض وجداني» مع العلم بأن التناقض غير مقصود على الجانب الوجداني .

مما يؤدى فى نهـــاية الأمر الى انهيار جميع مقـــومات الشخصـــية ٠

فالحالة الفصـــامية تمثل لنا مدى الاضطراب الذى يصيب عمليات التفكير والتصور والتمثيل عندما تنطلق هذه العمليات وتتحرر من الآثار الضابطة التى يفرضها الواقع على العالم الذهنى ، ويؤدى هذا التحرر ، لا الى زيادة الفاعلية والكفاية ، بل الى الاضطراب والفوضى فى مجالى النشاط الذهنى والسلوك الخارجى على السواء ٠

وقبل المضى فى ذكر أعراض مرض الهوس نود أن نســـتخلص من وصفنا لأعراض الفصام ما يمكن الاستفادة منه فى مجال معرفة الانسان نفسه ٠

لابد للوصول الى المعرفة من القيام بعملية تحليل المعطيات والحقائق التى تقع فى نطاق المشاهدة والملاحظة ٠ فتحليل الانسان لحالاته الشعورية ولخبراته النفسية أمر ضرورى ، وتعرف عملية التحليل هذه بالاستنباط ، ولا تقتصر هذه العملية على مجرد الادراك المباشر لمضمون الحالات النفسية وتعاقب أطوارها وأشكالها ، بل ترمى أيضا الى تفسير حدوثها وتطورها بالربط بينهـــا بشـــتى العلاقات التى يســـتخدمها العالم لتفسير ظواهر الطبيعة الخارجية وربما بأنواع أخرى من العلاقات تقتضيها طبيعة الحالات النفسية بقدر مالها من نوعية تميزها عن الظواهر الخارجية ٠

وهناك عقبات كثيرة تعترض سير التحليل النفسى الذاتى ســـيأتى ذكرها فيما بعد ، وكل ما نريد توضيحه الآن هو الخطر الذى ينطوى عليه الاسراف فى التحليل الذاتى ، أى أن نبين ما هو فى ظاهر الأمر قدرة فائقة هو فى الواقع نقص وانحراف ٠

فى قدرة الانسان أن ينتقل من عالم الواقع الخارجى الى عالم الخيال ثم يعود من عالم الخيال الى الواقع ٠ وفى امكانه كذلك أن يتناول الواقع بالنشاط الحركى الفعال أو بالتفكير فيه ، وقد يصبح التفكير غاية لذاته بدلا من أن يكون وسيلة تمهد سبل النجاح والتوافق للفعل ٠ كما أن التفكير بما يصاحبه من مواكب الأخيلة والتصورات قد ينفصل عن الواقع الراهن فيتجه اما نحو الماضى أو نحو المســـتقبل ٠ والنشاط الســـوى يتوقف على تحقيق التوازن بين جميع هذه العوامل التى ذكرناها أو على تضامن الفعل والفكر ، وعلى تحقيق التوافق بين الوسائل والغاية ٠ فاذا كانت الغاية اجترار ذكريات الماضى أو الاستغراق فى أحلام اليقظة التى تصور للمتأمل مستقبل خياليا محال التحقيق فعندئذ تهدد صلة الشخص بالواقع الحى بالانفصام والتفكك ويصبح سلوك الشخص سلوكا نكوصيا

أو انسحابيا سواء كان الانسحاب نحو الماضى أو المستقبل • والدافع الى الانسحاب هو فى آن واحد الفرار من الواقع الخارجى الذى يطـالب المرء بالعزم والتنفيذ ، والرغبة فى خلق عالم ذاتى يكون بمثابة ملجأ يجد فيه اللاجىء تخفيفا لمخاوفه وقسطا من الاطمئنان والأمان •

فمواجهة الشخص لذاته بعد اضعاف صلته بالواقع الخارجى تؤدى الى تضخم الذات ، واذا كانت الغاية من هـذه المواجهـة معرفة الشخص لذاته فان مثل هذه المعرفة مهددة بالانحراف والغرور نتيجة للذة التى يجنيها المتأمل من تحليل ذاته نتيجـة لتأثير العمليات اللاشعورية التى يسميها علماء النفس بالميكانزمات الدفاعية كالتعويض والاسقاط والتقمص والازاحة وغيرها من العمليات اللاشعورية •

وقد يخيل للمتأمل الذى يتمـادى فى تأمل نفسـه وتحليلها أنه فياض الوجدان ومرهف الحساسية ، والواقع ان الوجدان الذى يغذى نفسه بنفسه ولا يستمد قوته من الواقع الخارجى الحى أقرب الى المرض منه الى الصحة ، لأنه سرعان ما يصـبح فارغا مزيفا فينتهى الى البلادة العاطفية • وذلك لأن وظيفة القوى الوجدانية أن تعبر عن نفسـها خارج حدود التأمل الاجترارى وأن تصب شحناتها على العالم الواقعى لتشكيله والتأثير فيه (١) بحيث لا تفقد هذا الضابط الخارجى الذى يزيد من فاعلية هذه الشحنات بتوجيهها وتركيزها •

رأينا ما هو مصير التفكير عندما يصبح غاية لذاته بعد أن تضـعف صـلته بالواقع الخارجى وسـنتناول الآن مصير الفعل عندما يقتصر على نشاط لغوى وحركى تتعاقب مظاهره دون ربط وتوجيه ، ويظل خاضعا للمثيرات المختلفة الصادرة عن المحيط الخارجى ، كما هو الحال لدى المريض بالهوس • فاذا كان الفصامى لا يرى الواقع بما فيه الكفاية فان المهووس على العكس منه يرى الواقع أكثر مما يجب • وكما أن الاتجاه الفصامى نحو التحليل الذاتى المسرف يؤدى الى انحراف معرفة الانسـان لنفسه فكذلك يؤدى الاتجاه الهوسى نحو النشاط غير الموجه والهياج الحركى الى الاحالة دون هذه المعرفة • وسنلخص هنا أهم أعراض الهوس مشيرين الى دلالتها السيكولوجية بالنسبة الى الموضوع الذى نحن بصدده •

مرض الهوس يسمى باللغات الأجنبية « مانيا » Mania و « مانيا »

---

(١) نشير هنا الى العملية التى يطلق عليها فى اللغات الأجنبية لفظ Cathexis •

لفظ يوناني أطلقه أطباء اليونان على جنون الهياج المفرط - وللهوس مجموعة من الأعراض تتلخص سماتها الرئيسية في الافراط والتقلب • وتوزع هذه الأعراض في ثلاثة ميادين هي الوجدان والنشاط الفكرى والنشاط الحركى ، والتمييز بين هذه الميادين لا يعني انفصامها فهناك تأثيرات متبادلة بينها •

فالمهووس صاحب مزاج منبسط يتناغم بسهولة وبسرعة مع العالم الخارجي فيفرح مع الفرح ويحزن مع الحزين ولكن كثيرا مايحدث الا تتناسب استجاباته العاطفية مع الموقف الخارجي فيقع في الاسراف والتقلب • ونظرا لهياجه النفسي فانه يتنبه بسرعة الى نقائص الآخرين فيهاجمهم بالتهكم والنكات اللاذعة • واذا اصطدمت نزواته بأية مقاومة فانه يغضب ويكون غضبه عنيفا مدمرا •

وفي ميدان العمليات العقلية يكون تفكير المهووس في حالة استثارة قوية والعامل الأساسي للاستثارة المدركات الخارجية من أشياء وأشخاص ومواقف ، ويؤثر العامل الوجداني بطبيعة الحال في تلوين النشاط الادراكي والفكرى • ويلاحظ على المهووس عجزه عن تركيز الانتباه Aprosexia فهو مشتت بين التفاصيل الدقيقة التي تجذب انتباهه التلقائي العابر • ونظرا لعجزه عن تركيز الانتباه وعن نقد مدركاته التي تظل سطحية يقع المهووس ضحية الخداع الادراكي وخطأ التصرف وكذلك تكون عملية تداعي المعاني واسترجاع الذكريات متسمة بالسطحية والتناقض • فجميع آلياته تكون منطلقة متحررة من قيود النقد والاختيار والتوجيه ، فيتأثر أثناء تفكيره وكلامه بأوجه الشبه السطحية الجزئية أو بأوجه الشبه الصوتية دون ادراك للعلاقات القائمة بين المعاني • ويؤدى هذا السيل الجارف من التصورات والأفكار التي تخضع خاصة للجناس الصوتي الى ما يعرف « بهروب الأفكار » ونظرا لعجز المهووس عن الاختيار والنقد ونظرا لسرعة تتابع الارتباطات الفكرية وقصور لغة الكلام عن التعبير عن جميع هذه الارتباطات يغلب على كلام المهووس التناقض والتفكك والهتر • فقد يواصل الحديث ساعة بأكملها دون توقف ، متنقلا من موضوع الى موضوع دون مبرر واضح ، مغيرا من نبرات صوته كأنه يمثل دورا على المسرح ، مسرفا في حركاته الجسمية وفي ايماءات عينيه وملامح وجهه المحتقن بالدم ، منكتا حينا ومهددا بالضرب حينا آخر ، ومعقبا على نكاته وتهديداته بضحكات عالية صاخبة ، منوها بعظمته وطموحه ومجده بعبارات ضخمة ، وحركات مسرحية •

وهذا الوصف لمشهد نموذجي من مشاهد المهووس يوضح لنا الجانب الثالث من أعراض الهوس وهو جانب النشاط الحركي المفرط الذي يتميز بالتقلب وعدم الاستقرار • وهذا الهياج الحركي هو المنفس الوحيد للتعبير عن الاضطرابات الوجدانية التي يعانيها المهووس ، وخاصة في دائرة الميول الجنسية والميول العدوانية • وهو كأي مريض عقلي ضحية العمليات الدفاعية اللاشعورية ولا يندر أن يعتقد المهووس انه مضطهد ومعرض لأخطار وهمية •

ان التقلب المزاجي وعدم الاستقرار والعجز عن تركيز الانتباه وعن النقد والحكم السليم وانطلاق الآلية في التفكير والنشاط الحركي ، كل هذه العوامل تحول دون تأمل الشخص نفسه لمحاولة معرفتها • وأن التفكير الموجه المركز لا يمكن أن يتم خلال فيض لا ينقطع من الكلام والنشاط الحركي ، انه يقتضي كف الكلام والحركة لكي يتمكن المرء من الاصغاء الى نفسه ومراجعة نفسه وهما شرطان أساسيان لمعرفة الانسان نفسه •

والحياة العصرية في المدن الكبيرة تلقى اعباء جسيمة على عاتق الانسان • هي تجذبه باستمرار نحو الخارج وتخلق فيه ميلا قويا الى الفرار والهروب وتجاهل شئون نفسه الخاصة • والفرار قد يكون نحو داخل الذات كما في حالة الفصامي أو خارج الذات نحو العالم الواقعي كما في حالة المهووس • وعندما ينحرف السلوك الى حد الاجرام فنكون أيضا بصدد ضرب من ضروب الفرار : نحو الداخل عن طريق الانتحار سواء كان جزئيا أو كليا ، ونحو الخارج عن طريق الاعتداء الجنائي على الآخرين •

يتضح لنا من تحليل سلوك الفصامي والمهووس ان الشرط الأساسي لمعرفة الانسان لنفسه هو تحقيق التوازن والتعاون بين عالم الذات وعالم الآخر أي أنه لا يمكن أن نفهم أنفسنا الا اذا حاولنا أيضا فهم الآخرين (١)، أي اذا تحررنا من النزعة الى التركيز حول الذات وحاولنا أن نضع أنفسنا موضع الآخرين وأن نأخذ بوجهة نظرهم لفهمها قبل الحكم عليها •

وكذلك يمكن عكس القضية السابقة بأن نقول : اذا أردت ان تفهم الآخرين فعليك ان تفهم نفسك ، أي عليك ان تتحرر من الايحاءات الصادرة من محيطك الخارجي ،سواء كانت هذه الايحاءات بالمدح او بالذم ، والا تتقبل أحكام الآخرين عليك الا بعد تمحيصها ونقدها والاقتناع بها ، كما عليك أن تتحرر من الغرور ومن الأفكار السابقة

---

(١) سبق أن عالجنا موضوع «معرفة الآخر» في عدد نوفمبر ١٩٦٢ من «المجلة» ص ١١ — ١٦ •

المبتسرة وان تذكر دائما ان في أثناء تحليلك لنفسك وتفسيرك لسلوكك كثيرا ما يكون الاستدلال المنطقي ستارا للتبرير العاطفي فتكون النتيجة التي تظن انك وصلت اليها بفضل تفكيرك المنطقي قد سلمت بها من قبل دون ان تشعر وان كل ما قدمته من براهين وأدلة ليس سوى تبرير لهذه النتيجة التي فرضتها عليك نزعات اللاشعورية ٠

يتبين مما سبق أن لعقبة الكبرى التي تحد من قيمة الاستبطان تنحصر في نهاية الأمر في تأثير العوامل اللاشعورية من دوافع ورغبات مكبوتة واتجاهات عقلية وعاطفية تأصلت في النفس بحكم العادة أو بتأثير الايحاء والمحاكاة ٠ والاستبطان بطبيعة الحال لا يتناول سوى مضمون الشعور ولا يمكنه النفوذ الى اللاشعور ٠ واذا كانت المعرفة الشعورية معرفة مباشرة وحدسية ، فان الحقائق الخاصة باللاشعور حقائق مستنتجه بالاستدلال التجريبي بفضل ملاحظة سلوك الآخرين ، سواء كان هذا السلوك سويا أو مرضيا ٠ واذا سلمنا مبدئيا ان كل ما هو لاشعوري قابل لأن يصبح شعوريا ، فان الواقع يبين لنا أن تحويل كل ما هو لاشعوري الى شعوري امر متعذر ، وربما لا يستحسن تحقيقه خوفاً من أن يشل التفكير الواضح الشامل قوة الدوافع ٠ اننا باستمرار مدفوعون الى أعتبار التوازن الحالة المثلى سواء للصحة الجسمية أو للصحة النفسية ، التوازن بين مختلف القوى المتقابلة التي يدور في فلكها سلوك الانسان أنه من الضروري الجمع بين النقيضين والتأليف بينهما ، ويبدو لنا أن مثل هذا التأليف هو سنة الوجود وسنة الحياة والطريق الوحيد المؤدي الى سعادة الانسان ، بل قد يكون المجهود الذي يبذله الانسان لتحقيق السعادة هو السعادة بعينها ٠

وعندما نقرر ان المعرفة الشعورية معرفة مباشرة وحدسية لا نقرر بالضرورة انها يقينية لأن العارف يجهل هذا الجانب من دوافعه اللاشعورية التي توجه ادراكه وتفسيره لما يدرك ٠ وكذلك عندما نقول ان الحقائق الخاصة باللاشعور مستنتجة بالاستدلال التجريبي لا نعني أنها يقينية بالضرورة ، لأن عملية الاستدلال ، حتى عندما تعتمد على معطيات تجريبية لا تعدو ان تكون في نهاية الأمر عملية شعورية فتتعرض للأخطار التي تقع فيها المعرفة الشعورية ٠ فكأننا وقعنا في حلقة مفرغة شبيهة بتلك التي ذكرناها في مستهل هذا المقال ، غير أنها أقل اشكالا منها ٠ ويكفي أن نقرر هنا ان المعرفة العلمية ، التي نبغي الوصول اليها في ميدان الحياة النفسية تظل تقريبية على الرغم من الاحتياطات التي تحتم اتخاذها مناهج البحث العلمي الدقيق وان العلم يتقدم بازالة الأخطاء أكثر منه باضافة حقائق جديدة الى مجموعة من حقائق سابقة ثابتة ٠

المذهب فى فلسفة برجسون (*)

تقديم كتاب

للدكتور مراد وهبة

تقدم لنا دار المعارف كتابا جديدا فى « مكتبة الدراسات الفلسفية » عدد صفحاته ١٧٤ من القطع الكبير وعنوانه : «المذهب فى فلسفة برجسون» للدكتور مراد وهبة ٠

وأول شيء يستوقفنا فى هذا الكتاب هو عنوانه : «المذهب فى فلسفة برجسون» ٠ يبدو لأول وهلة أن المؤلف أراد أن يقدم لنا عرضا لفلسفة برجسون وأن يربط بين أطراف هذه الفلسفة فى بناء مترابط الاجزاء هو المذهب البرجسونى ٠ واذا كان هذا هدفه فلماذا لا يكون اسم الكتاب «فلسفة برجسون» أو مذهب برجسون ؟ ٠ الواقع أن الدكتور مراد وهبة لا يهدف الى تلخيص فلسفة برجسون أو الى أن يقوم بعمل المؤرخ الذى يضيف كتابا جديدا الى مجموعة الكتب التى تناولت فلسفة برجسون بالعرض والتحليل والنقد ٠ انه لا يقف موقف المؤرخ فحسب بل يتعداه الى موقف الفيلسوف الذى يتخذ من فلسفة الآخرين مادة للبحث والتأمل٠ وقد أدى هذا التأمل الى اثارة مشكلة جديدة : هل تتسم فلسفة برجسون بسمة المذهبية ؟ واذا كان الامر كذلك فما هى صفات المذهب البرجسونى من حيث هو مذهب ، وهل يحق لنا أن نعد جميع الفلسفات مذاهب ؟ وللرد على هذه الاسئلة يجب أولا أن نفهم ما هو المقصود بكلمة مذهب وما هى السمة الرئيسية التى تجعل من أية فلسفة مذهبا ؟

المذهب هو محاولة تجميع المعرفة فى كل موحد بحيث يكون البناء قائما على مسلمات وبحيث يلتزم الفيلسوف عدم التناقض مع نفسه أثناء

(*) حديث اذاعى فى ١١ مارس ١٩٦١ ٠

استنباط النتــائج المتضمنة فى المسلمات ، وعلى ذلك يكون المثل الأعلى للمذهب هو نظام الفكر الرياضى ، والسمة الرئيسية للمذهب هى الغلق ·

وعندما نستعرض بعض الفلسفات الكبرى عبر التاريخ نجد ان هناك حركتين متضــايفتين : حركة غلق المذهب وحركة تفكيك ما هو مغلق ، وتتكرر هاتان الحركتان فى كل فترة من فترات تاريخ الفلسفة فنجد من جهة فلسفات مغلقة كما لدى بارمنيــدس وأفلاطون وديكارت وكنت وهى فلسفات تنهــج منهجا رياضيا يغلب الكم على الكيف ، ومن جهة أخرى فلسفات ترمى الى تفكيك ما هو مغلق كما لدى هرقليطس وأرسطو وهيوم، وهى فلسفات لا تستوحى التفكير الرياضى فى منهجها ·

والسؤال الذى يطرحه الدكتــور مراد وهبة هو : الى أى الحركتين تنتمى فلسفة برجسون ؟ هل هى مذهب مغلق ؟ أم ترمى الى تفكيك مذهب سابق ، وخاصة مذهب العقليين ؟ والجواب هو أنهــا ليست مذهبا مغلقا ولا محاولة تفكيك ، بل هى مذهب مفتوح ، وهنا تكمن المشكلة الضخمة التى يثيرها الدكتور مراد وهبة ويحاول حلها فى كتابه · وترجع المشكلة الى التناقض القائم بين فكرة المذهب وفكرة الفتح ، فالمذهب من سمته ان يكون مغلقا فكيف يمكن التحدث عن مذهب مفتوح ؟

والطريق الذى سلكه الدكتــور مراد وهبة لحل المشكلة التى أثارها طريق طويل شاق ، يتطلب منهجا خاصا يتلاءم مــع طبيعة الفلسفة التى يدرسها ، فهو ليس تحليلا ولا تركيبا ؛ انه لا يتناول قضــايا الفلسفة البرجسونية الواحدة بعد الاخرى ليحللها ويردها الى مكوناتها الاولية ثم يعود فيؤلف بينها ليعيد لنا البناء فى شكله الكلى العام · ان منهجه هو منهج التعميق وهو المنهج نفسه الذى اتبعه برجسون فى تفكيره · وذلك لأن مفهوم المذهب عند برجسون يختلف كل الاختلاف عن مفهومه الرياضى فبرجسون يترجح فى نظرياته الفلسفية بين الفكر والوجود ، بين التفكير والتجربة بحيث أن كلا منهما يحدد الآخر ، فلا يمــكن الوقوف عند حد معين ولكن يمكن مواصلة عملية الاثراء لمصدر النبع وهو رؤية الديمومة ، واثراء الديمومة يكون بفضل التجربة والتفكير فى التجربة ·

فهناك اذن نقطة ارتكاز يبدأ منها الفيلسوف ولهذا السبب يحق لنا أن نقول ان فلسفة برجسون مذهب ، غير أن برجسون يعــود الى نقطة الارتكاز هذه لاثرائها ، وهذا ما يجعل مذهبه مفتــوحا · وهنا يتساءل المؤلف كيف تتم عملية اثراء الديمومة او بعبارة أدق «رؤية الديمومة» ، لأن العقل عند برجسون عنــدما يتقبــل سيولة الواقع ومرونته ويندمج

التصورات الجامدة الساكنة يتحول الى رؤية ، وبرجسون نفسه يقرر انه لا يمكن فهم مذهبه الا اذا نفذنا ببصيرتنا الى النقطة المركزية التى يقوم عليها مذهبه وهذا المركز هو رؤية الديمومة ·

كيف اذن تتم عملية اثراء الديمـومة ؟ يلجأ هنـا المؤلف الى مفهوم المجال وهو مفهوم ثبتت خصوبته فى ميادين البحث العلمى المختلفة ، فى العلوم الطبيعية والنفسية والاجتماعية · وفكرة المجال فى المذهب الفلسفى تستبعد الاهابة بالمصادرات والتصورات العقلية الجامدة · وعندئذ لا يتكون المذهب بالارتكاز على مقولات ثابتة يفرضها الفيلسوف فرضا وانما بفضل الاحتكاك بالوقائع التجريبية ، ومن شأن هـــذه الوقائع أن توجه الرؤية وتعدلها ان لزم الامر · والوقائع التجريبية لدى برجسون تمتد من المجال السيكولوجى الى المجال الانطولوجى ثم الى المجال الثيولوجى · فبرجسون يحتك أولا بالوقائع السيكولوجية لأنهـــا أقرب الوقائع الينا فنشعر أننا احرار وأن هناك ذاكرة خالصة فى مقابل العادة المنبثة جذورها فى الجهاز العصبى ، وتلك هى النتائج التى عرضها برجســون فى كتاب « معطيات الشعور المباشرة » وكتاب «المادة والذاكرة» ثم يحتك بالوقائع البيولوجية ويعرض نتيجة تفكيره فى كتـــاب «التطور الخـــالق» فيكشف فى المجال الانطولوجى عن طبيعة التطور والحركة والزمان ، وفى نهاية المطاف يحتك برجسون فى كتابه « منبعا الأخلاق والدين » بتجربة الصوفيين ، منتقلا الى المجال الثيولوجى فيجد الذات فى تماس مع السورة الحيوية ، أى مع روح الكون نفسه ؛ والسورة الحيوية هى من الله ان لم تكن الله ذاته ·

فكأن فلسفة برجسون تمر بالمراحل نفسها التى مرت بهـــا فلسفة ديكارت : من الأنا ، الى الكون ، الى الله · وهنا يدرك الدكتور مراد وهبة أن القضية التى يحـــاول جاهدا الدفاع عنها ، وهى أن مذهب برجسون مذهب مفتوح مهددة بالانهيار · ألم يقـــل لنا أن مذهب ديكارت مذهب مغلق ، وهل صنع برجسون شيئا آخر غير ما صنعه ديكارت ؟ ألم يبدأ برجسون من رؤية الديمومة فى المجال النفسى ثم ينتقل بهـــا الى مجال الطبيعيات ثم الى مجال الالهيات ؟ بأى شكل اذن يكون المذهب فى فلسفة برجسون مذهبا مفتوحا ؟

وهنا نترك الكلمة للدكتور مراد وهبة لكى يذلل لنا هذه الصعوبة الجوهرية : فهو يقول : «انه يصعب القـول بأن ما عرضه برجسون فى مجال من هذه المجالات نتيجة حتمية لما عرضه فى مجال آخر ، وانما هو تقدم ديناميكى ، واثراء لما سبق ـ ومن هذه الوجهة نقول ان فى مذهب

برجسون اتساقا بين المجالات ، ومع ذلك فان هـذا الاتساق ذاته لا يبدو متدرجا الا اذا اعتبرنا كل حركة الى أمام كأنها تناقص للمسافة بين نقطة البداية الموجودة فعـلا ونقطة النهـاية التى لا توجد كمحطه الا اذا بدا للمتحرك ، وهو هنا الفيلسوف ، أن يتوقف عندها • وهذا وهم ، فمسافة ليس لها الا طرف واحد لا يمكن أن تتناقص بالتدريج لانها ليست مسافة • وانما هى تتناقص عندما يوجد المتحرك نقطة النهاية ، أو عندما ننظر نحن الى مذهب ما ، بعـد أن يتم بناؤه ، نظرة ارتدادية فنعين نقطة النهاية ثم ننزلق الى نقطة البداية • وهـذا وهم كذلك لأننا فى هذه الحالة نتصـور الحركة الفكرية للفيلسوف على أنها خط مكانى •• ان برجسون يقفز من مجال الى آخر ، من طبيعـة القفزة البرجسونية أنها فجـائية ليس فى المقدور التنبؤ بها •• فلا المستقبل يستنبط من الحاضر بالحساب ولا هو مرسوم فيه فى شكل صورة أو فكرة • فالمذهب البرجسونى دائرة مركزها «رؤية الديمومة» وبين المركز والمحيط غير المحدد والقابل للانتشار قد اصطفت دوائر ذات مركز واحد آخذة فى الاتساع تمثل مجالات الفلسفة المتباينة ، وهذا هو معنى الفتح فى مذهب برجسون •

وهكذا يتقدم الدكتور مراد وهبه فى تدعيم قضيته معتمدا على معرفة عميقة للفلسفة التى يدرسها ، مقتفيا أثر الفيلسوف فى محاولاته وتأملاته متحدا به إتحادا فكريا ووجدانيا • فكأنه يدعونا الى مشاركة الفيلسـوف جهده الخلاق فى تعمق الواقع فى صوره المختلفة • وبفضل هذه البراعة فى التفكير والعرض يقدم لنا الدكتور مراد وهبة كتابا أصيلا ينبض بالحياة ، ويدفع القارىء دفعا قويا الى أن يعود الى نصوص برجسون نفسها ليحيا من جديد حياة فيلسوف لا تزال آراؤه ونظراته تغذى الفكر المعاصر •

شخصيات

قصة مايكل أنجلو (*)

بقلم : أجنس ألن

قصة مايكل أنجلو قصة فنـــان عبقرى ترك آثارا رائعة فى النحت والتصوير والمعمار والشعر بل هى قصة عهد من أعظم عهـــود التاريخ ، عهد نهضة الفنون والآداب فى ايطاليا فى القرن السادس عشر ٠

وتثير حياة مايكل أنجلو مشـــكلة لا تزال موضع مناقشة بين علم الجمال وعلم النفس : الى أى حد اطلاعنا على حياة الفنان ونشأته والظروف التى أحاطت به ، ثم الكشف عن مزاجه وطباعه وسمات شخصيته واتجاهاته الفكرية وميـــوله الوجدانية ، الى أى حد يلقى كل هذا الضوء على أعماله الفنية ويساعدنا على فهمها وتذوقها ؟

يذهب فريق الى أن معيار الحكم على العمل الفنى ينبثق من القوانين الجمالية التى يخضع لها الفن وأن كل ما يمدنا به تحليل شخصية الفنان هو تفسير اختياره بعض الموضوعات دون غــيرها ٠ وعلى ذلك لا تضيف الدراسات النفسية شيئا جوهريا الى تحليل الاسلوب الفنى ٠

ويرى فريق آخر أن علم الجمال عندما يحصر نفسه فى دائرة قوانينه المجردة ومبادئه الشكلية عاجز عن ابراز ما يتسم به أسلوب الفنـــان من سمات أصيلة ، فريدة ، وفردية خاصة اذا كنا بصـــدد عبقرى حطم اطار الفن التقليدى ليخلق أسلوبا جديدا يجسم فيه كل هذه التيارات المتضاربة من التصورات والوجدانيات التى تضطرم فى أعماق شخصيته المتمزقة ٠

ان حياة مايكل أنجلو ، الانسان والمواطن والفنــان والمؤمن ، ترجح كفة الفريق الثانى ٠ ان الصورة التى ترسمها حيـــاته وأعماله للعبقرية

(*) «المجلة» ، يونيو ١٩٦٢ ٠

لا تطابق الصورة الشائعة للعبقرى الذى يثب من نصر الى نصر محققا فى شيخوخته ما كانت تصبو اليه نفسه الجامحة . عبقرية مايكل أنجلو هى صرخة الألم التى ما فتىء يرددها طوال حياته لأنه لم ينجز ما كان يريد انجازه ، والتماثيل التى يعجب بها محبو الفن عندما يزورون المتاحف والكنائس التى تضمها ، فى روما وفلورنسا وباريس ، ليست سوى أجزاء لتصميمات لم تنفذ . وقد ظل عدد كبير من تماثيل مايكل أنجلو ولوحاته ناقصا ، كما لو كان عدم الاتمام هو الطابع السائد على حياته وأعماله ، كان تصوره للجمال كان أبعد من أن يحققه انســان مهما توافرت لديه القدرات والمواهب .

فلكى نفهم فن مايكل آنجلو ونتذوقه لا بد من أن نشــاطره خلجات نفسه المعذبة القلقة ، نفسه الأبية الطموحة ، لا بد من أن نشــاركه هذا الصراع المرير بين طموح وثاب وارادة يمزقها الشك ويضعفها من حين الى آخر عدم الثقة بالنفس ، لا بد من أن نتسلل الى هذه العزلة الموحشة التى كان يعيش فى كنفها على الرغم من اشتراكه فى حوادث عصره السياسية والفكرية ، عزلة القوى المنتصر الذى يثير من حوله الغيرة والحسد ، عزلة من ذاق طعم الهزيمة فى محاولاته الجبارة لتجسيم الجمال .

ولنتامل لحظة صورة مايكل أنجلو ، فى متحف آوفيتزى بفلورنسا ، وتتلخص كلها فى ظهر أحناه الزمن وفى وجه ويد . والملامح نفسها التى نقرأها على الوجه هى التى تعبر عنها اليد : عضــلات متــوترة تحت ضغط القوة الروحية التى تتدفق موجاتها من الاعمــاق والتى تتجمع حائرة فى تقلصات الوجه واليد قبل أن تنطلق لتبعث من الرخام الأصم صورة تنبض بالحياة والجمــال . ثم ينطفىء بريق العينين وراء ســـحابة من التشاؤم وتعود اليد الى وضعها السابق وتعلو الشفتين ابتسامة كلها حزن وأسى ، ثم نسمع همسا خفيفا : شــتان ما بين رؤيا الفنــان وما تقوى اليد على تنفيذه ! .

ولنستمع الى شعره وهو يعبر فيه عن مرارة الفرح التى يتذوقها فى غمرة آلامه :

لا يحلو لى شىء الا بمقدار ما يسبب لى من أذى

ويقول أيضا :

غبطتى فى حزنى

لا تعادل ألف فرحة عذابا واحدا .

ان فن مايكل أنجلو تعبير صادق عن نفسه المعذبة ، عبر عنهـا فى نحته وتصويره وشعره وفى رســائله الى أسرته وأصدقائه ، وفى أحاديثه الروحية مع فيتوريا كولونا Vittoria Colonna ، المرأة الوحيدة التى أحبته وأحبها حبا أفلاطونيا ، وكان قد جاوز الستين ، وهى التى فتحت له آفاقا جديدة فى عالم الايمان والتأملات الدينية .

فلا بد اذن من أن نتتبع خلال تسعين سنة حياة هذا الفنان لكى نفهم فنه ونتذوقه ، لكى ندرك أن العبقرى الحق هو الذى يخلق أسلوبا فنيا جديدا نابعا من دمه ولحمه ، متجاوزا حدود القواعد والمبـادىء التقليدية ، فنا يتحدى التقليد لأنه ثمرة حياة فريدة لا يمكن أن يحياها غيره بنفس الدرجة من الثراء الروحى ، مهما أوتى من قدرة على التوحد والتقمص .

والكتاب الذى نحن بصدده يروى لنا فى واحد وعشرين فصلا قصة هذه الحياة ، بل قصة هذه المأساة التى عاشـــها مايكل انجلو ، والمؤلفة «اجنس الن» حريصة على أن تحدثنا عن أعمـــاله الفنية خـلال الظروف والملابسات التى صاحبت انشاءها ، وأن ترسم لنا صـــورة قوية للحياة الفنية والسياسية والدينية فى فلورنسا وروما وان تحـدثنا عن الحروب والمنازعات التى كانت تقوم من حين الى آخر بين حكام روما من البـابوات وحكام فلورنسا من أسرة المديتشى وعن غزو الفرنسيين لميلانو وفلورنسا ونابولى وغير هذا وذاك من الحركات الشعبية التى كانت تقاوم الاستبداد وتحطم عرش الطغاة .

ولد مايكل انجلو فى اليوم السادس من شهر مارس عام ١٤٧٥ فى بلدة كابريزيه بالقرب من فلورنســا حيث كان والده قاضى المدينة وتوفى فى روما فى الثامن عشر من فبراير عــام ١٥٦٤ نشأ فى أحضان مرضعة زوجها حجار ، فكبر مغمورا بأصوات المطـارق والازاميل كأنها موسيقى تشجى اذانه باعذب النغمات .

فمنذ طفولته الاولى والفن يجذبه ويناديه ولـــكن الاب اعترض ميل الصبى وأراد أن يجعل منه أديبا ومفكرا ليعيد الى الاسرة مجدها السابق فأرسله الى مدرسة أحد الفقهاء المشهورين ، غير أن دروس الادب لم تستهو التلميذ الصغير فكان يقضى معظم وقته وهو يملأ دفاتره وكتبه بالرسومات والاشكال كما كان يؤثر صحبة الشبان الذين يعملون فى مراسم المصورين ومناحت النحاتين . وحدث له أن زار مرسم الفنان جيرلندايو ففتن وسحر وقرر منذ هذه اللحظة أن يصبح فنانا ولم يثن عزمه تعذيب والده له فالتحق بمرسم جيرلندايو عام ١٤٨٨ وهو فى سن الثالثة عشرة .

ولم يلبث الغلام طويلا حتى بزغت مواهبه الخارقة وفرض شخصيته القوية لا على رفاقه فحسب بل على استاذه أيضا • وكانت دراساته الاولى في الرسم تشهد له بصدق الرؤية وثبات القصد والحركة وبدرجة كبيرة من النضج الفني مما أثار حسد زملائه وغيرتهم • كان صارما في حكمه على أعمالهم • ساخرا في نقده دون أن يباهي بأعماله اذ كان الى التواضع اميل يتركها تتحدث عن نفسها بنفسها • غير انه كان حار المزاج عصبيا سريع الغضب سليط اللسان • وقد حدث له مرة ان اكتشف عيبا في أحد رسوم استاذه فاصلحه بخط عريض واضح فاستاء الاســـتاذ من تصرف تلميذه وعندما طلب منه حاكم فلورنسا لورنزو دي ميديتشي أن يرسل اليه بعض تلاميذه المتفوقين ليمارسوا النحت في الاكاديمية الحرة التي أنشأها في حديقة قصره ، انتهز الفرصة للتخلص من تلميذ مزعج وابعاد منافس له في الرسم والتصوير •

قضى مايكل انجلو ثلاث سنوات من أسعد سنوات حيـاته في ظل أمير كريم محب للفن جمـــع في حدائقه وقصره روائـــع من تصوير كبار الفنانين ومن التماثيل اليونانية الرومانية • ولما شاهد الامير براعة الفتى في النحت ورأى في بريق عينيه وحذق اناملة مطالع العبقرية خصص له غرفة في قصره ودعاه لتناول الطعام معه وفي صحبة كبار مفـكري العصر وشعرائه • فاستمع الى الفيلســـوف المتصـــوف فتشينو وهو يتحدث عن أفلاطون فعشق الأفلاطونية وعشق الجمال المثالي ، وكشف له بيكوديللا ميرندولا عن أسرار الثقـافة الشرقية وقرأ شعر دانتي مع الشـــاعر بوليزيانو وتعلم الغنــاء والقـــاء الشـــعر مع القوال لويجي بولتش

غير ان كل هذه الفنون الرقيقة لم تضعف عبقرية الفتى كما ان البيئة المترفة التي خالطها مدة سنتين لم تغير كثيرا من طباعه الغليظة العنيفة فظل صلبا كالرخام حادا كالازميل قويا كالمطرقة وكان الشرر يتطاير عندما يهوى بمطرقته على ازميله ليبث الحياة في الحجر الصلد تزكي لهيب حبه لفنه الأعظم ، فن النحت •

وتعكس أعمال مايكل انجلو الاولى نظرته الافلاطونية الى الوجود • فهو يعبر بتقشف عمـا تضـــمه النفس من معان أبدية كلية نذكر منها « مادونا ديللا سكالا» و «صراع هرقل مع السنتور» وهما الآن في فلورنسا في المتحف الذي يحمل اسم الفنان •

بعد وفاة لورنزو وفرار ابنه من فلورنســـا اثر الاضطرابات التي سببتها مواعظ الراهب ســـافونارولا لجــأ مايكل انجلو الى مدينـــة

بولونيا ثم فى منتصف عام ١٤٩٦ ذهب الى روما حيث مكث فيها حتى منتصف عام ١٥٠١ ثم عاد الى فلورنسا • ومن أعماله فى روما تمثال « باكوس » الذى يضارع فى كماله روائع النحت اليونانى القديم ، وتمثال بيتاPieta «تسليم جسم المسيح الى أمه مريم» • وأثنـاء اقامته فى فلورنسا من عام ١٥٠١ الى عام ١٥٠٥ نحت تمثال النبى داود David وهو تمثال ضخم مقام الآن عند مدخل قصر السينيوريا فى فلورنسا ، وتمثال «المادونا مع الطفل» الموجود الآن فى احدى كنائس مدينة بروج فى بلجيكا • ثم تمثال القديس متى ، وهو غير تام ، يعبر فيه عن محـاولة الصورة البزوغ من ثنايا الحجر • ومن النحت البارز على سطح مستدير نذكر عدة أعمال تمثل العذراء مع الطفل يسوع ، أحدها فى متحف لندن والآخر فى فلورنسا •

ومن أهم اللوحات التى رسمها أثناء هذه الفترة « العائلة المقدسة » ، ثم موقعة «بيزا» ولم تنفذ اللوحة الثـانية بالفريسـكو على جدران قاعة المجلس الأعلى فى فلورنسا وظلت فى صورة رسم • ولم يبق من هذا الرسم الا أجزاء تكفى مع ذلك لكى نلمس قـوة مايكل أنجلو فى التعبير عن قوة الجسم وعن امكانيـاته الحركية وعن الصـلة بين الحركة المعبرة والبناء العضوى •

وفى عام ١٥٠٥ عاد الى روما بدعوة من البابا يوليوس الثانى الذى كلفه بمشروعين عظيمين أولهما أن يشيد للبابا ضريحه لوضعه داخل كنيسة القديس بطرس الجديدة والثانى أن يزخرف سـقف كنيسة السيكستين sixtine بالتصوير بالفرسكو(١) fresco painting • وقبل مايكل أنجلو بحماس تنفيذ المشروع الاول ووضع له تصميما رائعا فاز باعجاب البابا ، غير أن هذا المشروع الجبار لم ينجز منه الفنـان الا بعض أجزائه مثل تمثـال «موسى» وتماثيل «العبيد» وظل طول حياته وهو فى صراع عنيف مع البابا ومع ورثته لأنه فشل فى تحقيق ما كان قد تخيله فى ساعة من الحماس الجامح •

أما المشروع الثانى فاعتذر مايكل أنجـلو عن تنفيذه قائلا أنه نحات لا مصور ، وانه لم يزاول التصوير بالفرسكو منذ كان يدرس فى مرسم جرلاندايو من سبع عشرة سنة مضت ، واقترح على البابا أن يكلف الفنان رافاييل Raphael بهذا العمل خاصة وأنه سبق له أن برع فى هذا اللون

---

(١) فن خاص من فنون التصوير يقتضى أن تظل طبقة الجبس المفروشة على مساحة معينة من السقف رطبة لينة بينما يقوم الفنان برسم الاشكال بالالوان وبسرعة قبل ان يجف الجبس •

من التصوير • غير ان البابا أصر بعناد على أن يقوم هو بهذا العمل ولم يسمح مايكل أنجلو الا الخضوع رغم آنفه لارادة البابا الصارمة •

واستغرق منه هذا العمل أكثر من أربع سنوات من الجهود الجبارة تتخللها فترات من الفشل واليأس • طلب فى بادىء الأمر بعض المعاونين ثم طردهم وآثر أن يعمل بمفرده • كانت المساحة المطلوب تغطيتها عشرة آلاف قدم مربع ، رسم عليها مايكل أنجلو ثلاثمائة وثلاثا وأربعين صورة لشخصيات العهد القديم ، وبعض الشخصيات الخرافية ، ويبلغ طول بعض هذه الصورة حوالى ستة أمتار • وتمثل المشاهد خلق العالم وخلق الانسان ثم طرد آدم وحواء من الفردوس ، ثم الطوفان وغير ذلك مما جاء ذكره فى العهد القديم •

نجح مايكل أنجلو فى تذليـــل كل الصعوبات التى اعترضته وفى التغلب على المؤامرات التى دبرها أعداؤه لكى يتخلى عن انجاز المشروع حتى جاء يوم الافتتاح فى أكتوبر ١٥١٢ ، وكان يوم انتصار عظيم للفنان ولفن الفريسكو حتى ان رافاييل نفسه بعد أن شاهد هذا العالم وهو يتـحرك فوق رأسه غير أسلوبه وحاول أن يحاكى فن زميله •

ثم تعاقبت السنوات والاحداث ومايكل أنجلو يواصل جهوده الجبارة أحيانا فى فلورنسا وأحيانا فى روما • ومن أعماله العظيمة فى فلورنسا زخرفة جزء من كنيسة القـــديس لوران واقامة ضريح جوليـــان ولوران دى مديتشى حيث يشاهد الزائر تماثيل الفجر والغسق والنهار والليل • ومن أعماله الجبارة فى روما رسم « يوم القيـــامة » فى السيكستين وقد عرض على الجمهور فى ٣١ أكتوبر عام ١٥٤١ بعد عمل متواصل استغرق ثمانى سنوات •

وفى هذا العمل العظيم وصل مايكل أنجلو الى قمة التعبير المؤثر عن الحركة والقوة ، عن جمال جسم الانسان الذى هو شعاع من الجمال الالهى• فالعالم الذى رسمه هو فى وقت واحد عالم علمى يقـوم فى توزيع أجزائه على دقة المبادىء الهندسية ومبادىء المنظور وقواعد توزيع الضوء والظلال والمعرفة الدقيقة لتشريح جسم الانسان ، وعالم ينبض بالعواطف الانسانية وبصفات الرجولة والقـوة بوجه خاص • ومن أقوال مايكل أنجـــلو بهذا الصدد : « ان الانسان هو أرفع موضوع فنى بالنسبة للمفكرين » •

أوجين ديلاكروا
والحركة الرومانتيكية

في صباح ١٣ أغسطس ١٨٦٣ ، بينما كانت أجراس كنيسة سان سولبيس ترسل دقاتها الفضية مع أشعة الشروق الوردية ، كان الفنان ديلاكروا يلفظ أنفاسه الأخيرة • لم يعد يقوى على الكلام بعد أن أوصى خادمته العجوز جيني ، بالا يقام تمثال على قبره بل يكتفى بزرع الأزهار ذات الألوان الحارة الزاهية بحيث تصبح مقبرته لوحة أخيرة تردد أنشودة اللون التي كثيرا ما هزت نغماتهـا القـوية نفسه الطموحـــة الى الحب والجمال •

وعندما شعر الفنان وهو يحتضر أن سحابة مظلمـة بدأت تغشى عينيه وأن ملامح وجه جيني أخذت تختلط وتتلاشى أغلق جفنيه وأطلق الفنان مرة أخيرة لمخيلته الفياضة فانبعثت من جديد تلك الأشباح والاطياف التي كانت تطارده في مطلع الشـباب وتلح عليـه بأن يمنحها الحيـاة بلمسات فرشاته السحرية • ما أجمل هذه الساعات التي كان يقضـيها في قراءة دانتي وشيكسبير وجوتيه وولتر سـكوت وبيرون باحثا عن موضوع للوحاته بل باحثا عن صورة لنفسه المترجحة بين بين الطموح واليأس ، بين النشوة والحزن،ها همـا دانتيه وفرجيل في الجحيـم ، اســتمع الى حـديث هاملت وهوراســيو في المقبرة ، الا يؤلمك منظر أوفيليـــا وهي تنتحر لتتحد أخـيرا بصـــورتها الطاهرة • الا تهـز مشاعرك مشاهد البطولة في حرب تحرير اليونان من طغيان الأتراك ، انها الحرية التي تقود الشعوب لتحطيم قيود الاستعباد •

وهاهي النيران تندلع والدماء تسفك في جو من الرعب والعنف والاضطراب : مذابح خيو ، موت سردنيبال ، موقعة تايبورج • هل كانت نفسك لايهزها الا اللون الأحمر ، لون النيران والدماء ، ولكن انظر هاهي

ارض المغرب وسماؤها الصافية : ما أنبل الفارس العربي ممتطيا صهوة جواده الأصيل ! ولكن سرعان ماتتفوق نفسك الى المشاهد الدامية ، الى مطاردة السباع واقتناصها .. وشعر بموجة طاغية من الحرارة تدب والجزائر .

وأخذت صور الماضي تتابع وتتلاحق وكلما كان المرض يزيد هـذا الجسم نحولا كانت نفسه تزداد طموحا وتطلعـا الى آفاق جديدة .. وأخيرا بينما كانت أجراس كنيسة سان سوبليس القريبة من مرسمه في عروقه فتحركت أنامله تخط بالقلم انطباعاته في طنجة واشبيلية ترسل دقاتها الفضية مع أشعة الشروق الوردية توقف موكب الذكريات أحد جدران الكنيسة ، صورة الصراع بين يعقوب والملاك ، صراع الفنان مع حارس معبد الجمال بل مع من يمتلك سر الجمال ، هي في الواقع صورة صراعه الطويل المرير مع الأشباح والاطياف التي ظلت تطـارده حتى اللحظة الأخيرة والتي وهبها الحياة من لحمه ودمه ، من نبضات قلبه ووحي خياله ، وعندما فتح عينيه للمرة الأخيرة رأى صورته التي رسمها لنفسه ، وتقول له انك كنت حقا جديرا بمصارعة ملاك الجمال .

واليوم بعد مرور مائة عام على وفاة ديلاكروا تحتفل الأوساط الفنية بذكرى هـذا الفنان العبقري الذي كاد يحمـل وحده راية الحـركة الرومانتيكية في التصوير ، وظل يدافع عن فنه طوال أربعين عاما منذ أن عرض لوحته الأولى دانتيه وفرجيل في الجحيم سنة ١٨٢٢ وهو فى الرابعة والعشرين حتى وفاته سنة ١٨٦٣ . انه قاوم بشجاعة الهجمات العنيفة التي شنها عليه النقاد الرسميون والمصورون اتباع المـدرسـة الاكاديمية مدافعا باصرار وإباء عن حرية الفنـان في التعبير عن رؤيته الخاصة وعن شخصيته الحميمة . وكان رده الوحيد على هجوم أعدائه مواصلة انتاجه الفني بصدق وعزم واهبا حياته كلها لرسالته الفنية .

ولم يقتصر نشاطه على التصوير بل تعداه الى الأدب ، كان شغوفا بمطالعة روائع الفكر والأدب والاستماع الى الموسيقى ، ودفعه ميله الى الانطواء الى تدوين تأمـلاته وانطباعاته عن معـاصريه وتعد مـذكرات ديلاكروا اليومية من الروائع التي يعتز بهـا الأدب الفرنسي . كان ديلاكروا من القلائل الذين جمعوا بين جمال فن التصوير وروعة الكتابة

(١) بعد وفاة ديلاكروا أهدت جيني هذه الصورة الى متحف اللوفر .

الأدبية وعمق التفكير النقدى ، أى بين قوة الانطلاق فى التعبير واندفاع التلقائية الوثابه وبين القدرة على ضبط هذا الانطلاق وأضاع هذه التلقائية لمنهج دقيق محكم . ولهذا السبب فانه يتجاوز وحده حدود الرومانتيكية ليلتقى مع كبار فنانى عصر النهضة والقرن السابع عشر أمثال ميكل انجلو وفيرونيز وروبنس .

كان اذن ديلاكروا فنانا وأديبا فى آن واحد وكانت ثقافته التاريخية والأدبية واسعة عميقة ، غير أنه لم يلجأ الى الماضى يحتمى فيه بعيدا عن أحداث عصره ، بل كان أيضا حريصا على أن يعيش فى عصره وان يستوحى الأحداث الاجتماعية والسياسية التى كانت تملأ بضجيجها النصف الأول من القرن التاسع عشر . فقد استجاب للحركات الثورية التى كانت تهز فرنسا وبلاد اليونان ، وهذا يفسر لنا تنوع مصادر الهامه ، هذا فضلا عن الانطباعات التى جمعها أثناء اقامته فى انجلترا عام ١٨٢٥ وخلال رحلته الى أسبانيا والمغرب والجزائر عام ١٨٣٢ حيث عاد بذخيرة من الرسوم استخدمها فى تصوير عشرات من لوحاته الخالدة ، ابتداء من نساء الجزائر عام ١٨٣٤ حتى لوحاته عن صيد النمور والسباع عام ١٨٥٤ والخيول العربية عام ١٨٦٠ .

ان فن ديلاكروا وان كان يعد نهاية عهد فى تاريخ التصوير المنحدر من عصر النهضة فانه من جهة أخرى يمهد السبيل للمدارس التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . والاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته مناسبة طيبة لمحاولة الربط بين الحركات الفنية التى تعاقبت فى القرن التاسع عشر حتى عصرنا هذا . ولاستخلاص مضمون رسالته الفنية والفكرية ، وقبل التحدث عن شخصية الفنان وخصائص فنه ، يجدر بنا أن نوضح معالم الحركة الرومانتيكية فى الأدب والفن وأن نشير الى ما تميزت به الحساسية فى عهد ديلاكروا .

خصائص الحركة الرومانتيكية

ان ثورة ١٧٨٩ فى فرنسا لم تكن الا ثورة سياسية واجتماعية ولم تؤد الى تغيير عميق فى الأدب والفن نعم انها أعلنت أن الفن لم يعد فى خدمة الأمير بل فى خدمة جميع المواطنين ، غير أن المدرسة الكلاسيكية التى كان يتزعمها مويس دافيد لم تزد الا قوة ورسوخا وظلت مسيطرة وحدها على ميدان الفن .

ان بذور الثورة على الكلاسيكية والتى وضعها روسو وأندريه شينييه ومدام دى ستال وشاتوبريان فى الأدب ، وفنان أسبانيا الكبير جويا فى التصوير ، لم تنبت الا بعد سقوط امبراطورية نابليون ، وهذه الثورة التى ترمى الى تحرير الفرد والفنان والشاعر تعرف بالحركة الرومانتيكية . ومن الظريف أن نقرر أن رد الفعل الرومانتيكى فى التصوير سبق بحوالى عشر سنوات أنفجار الرومانتيكية فى الادب .

أن المقدمة التى كتبها فكتور هوجو لمسرحيته « كرومويل » نشرت عام ١٨٢٧ وفى عام ١٨٣٠ وقعت ماسمى فى تاريخ الأدب بمعركة هرنانى ، فى حين أن المعركة بدأت تحتدم بين المدافعين عن كلاسيكية دافيد وانصار الحركة الجديدة منذ أن عرض الفنان جيريكو فى صالون ١٨١٩ لوحته الشهيرة « عوامة الميدوزا » .

وهنا يجب أن تطرح السؤال الآتى : هل مفهوم الرومانتيكية فى الأدب هو هو فى التصوير ؟ وقبل الرد على هذا السؤال يجدر بنا ان نبحث فى أصل كلمة رومانتيكية

يقول لويس ريو (١) Louis Réau ان كلمة romantic وردت أولا فى الأدب الانجليزى فى منتصف القرن الثامن عشر وانها كانت تطلق أولا على فن تنسيق الحدائق وان معناها : ما هو جدير بأن يصور ، بأن يوحى فرشاة مصور المناظر الطبيعية التى تتسم بالهدوء والوحشة بحيث تسمح للنفس بأن تستسلم لاحلام اليقظة وأن تتمتع بما تثيره الذكريات من عواطف عميقة فياضة ، من أشجان وآمال . ثم أطلق اللفظ بعد ذلك على الآثار الأدبية من شعر ومسرح (١) .

---

(١) Louis Réau : L'Ere Romantique. Les arts plastiques. Ed. Albin Michel, Paris, 1949.

واذا عدنا الى اشتقاق الكلمة فاننا نجد الآتى : ان romantique و romanesque لهمـا اصـل واحـد هو كلمة romanus التى جاءت منها فى اللغة الفرنسية القديمة كلمة romans ومعناها أولا : لغـة الشعب فى مقابل اللغة اللاتينية التى كانت لغة الفلسفة والعلم · ثانيا : كتابة شعرية باللغة العامية · ومن romans جاءت romance ومن جهة أخرى نجد فى لغة منشدى الشعر المتجولين كلمة romant التى جاءت منها romantique, romantisme ·

يتبين لنا من دراسة اشتقاق اللفظ أن الحركة الرومانتيكية أنشأها رجال من الشعب فى مقابل المتعلمين والعلماء واتبـاع الكلاسـيكية · فالشعبى يطلق العنان لغرائزه وعواطفه محاولا تحطيم القيود التى يفرضها العقل الجامد ·

وباستعراض التعريفات العديدة التى قيلت فى الرومانتيكية يتبين لنا آن هذه الحركة تضع فى المقام الأول الحسـاسية والخيـال والتعبير الشخصى واثبات الذات وتمجيد الغريزة ، وانها تميل فى تعبيراتها الى المبالغة والتضخيم ·

ويقول ديلاكروا فى يومياته متحدثا عن نفسه :

« اذا كان المقصود من الرومانتيكيـة التعبير الحر عن انطبـاعاتى الشخصية وابتعادى عن الانماط والنماذج التى يعاد نسخها فى المدارس دون أدنى تغيير ونفورى من المواصفات الأكاديمية يجب أن أعترف لا فقط اننى رومانتيكى ، بل اننى كنت رومانتيكيا منذ الخامسة عشرة » ·

ويمـكن تلخيص مميزات الحـركة الرومانتيـكية فى الأدب والفن فيما يلى :

١ ــ روح الثورة على القيود والقـواعد الكلاسيـكية مثل قاعـدة الوحدات الثلاث ، الترتيب التصاعدى للانواع الأدبية والفنية والتى كانت تعتبر عوائق فى سبيل نمو الشخصية الحرة وازدهارها ·

٢ ــ انتصار النزعة الفردية والمطالبة الحماسية بحقوق الفرد ، مع تقوية النزعات القومية التى هى بمثابة فردية جماعية ·

٣ ــ سيطرة الحساسية والعواطف على العقل · واذا كان العقل هو القاسم المشترك بين الجميع فان ما يميز كل شخصـية فى صميمهـا وحميمها هو الجانب الوجدانى وبخاصة اللا شعورى منه · ان الرومانتيكى

تغمره باستمرار موجات من الحزن والحنين الى السعادة المفقودة ، ان حساسيته مريضة متقبلة تسكنها أشباح الموتى ويمزقها القلق والهيلة ، وغالبا ما يكون مآله الجنون والانتحار .

٤ ــ ولكن ليس من الضرورى أن تكون الحساسية الرومانتيكية دائما مريضة ، فقد أشاد الرومانتيكيون بجمال الطبيعة وسحرها خاصة تحت ضوء القمر ولأول مرة أصبح المنظر الطبيعي الذى يعكس انفعالات الفنان موضوعا لذاته ودون وجود أشخاص فيه ، وكذلك أشادوا بالليل الساحر الذى يهيىء الجو المناسب للتأملات والأحلام ، والليليات nocturnes في الشعر والموسيقى والتصوير تتجاوب نغماتها واشعتها وظلالها فى جو ساحر حالم . وكما أن الرومانتيكى يؤثر الليل على النهار فانه يجد متعته فى ذكر الخريف والشتاء والتحول ليلا بين الانقاض والاكواخ .

ومن جهة أخرى وجدت حساسية الرومانتيكى غذاء جديدا بفضل بعث الشعور الدينى بعد الموجة الالحادية فى القرن الثامن عشر . فقد فتحت الكنائس التى أغلقتها الثورة وطلب من الفنانين رسم الصور الدينية ، غير أن عددا قليلا منها يعد من روائع الفن . وقد أسهم ديلاكروا فى اثراء التصوير الدينى مثل لوحته المؤثرة : عذراء الشفقة فى كنيسة سان دينى للسر المقدس والصور الحائطية لهيكل الملائكة فى كنيسة سان سولبيس .

٥ ــ وأخيرا لجأ الرومانتيكيون الى مصادر الهام جديدة فبينما كان الكلاسيكيون يطالبون بالعودة الى فنون العصور القديمة توجهت الأنظار الى القرون الوسطى والى العالم الاسلامى فى الشرق وشمال أفريقيا والى الصين فى الشرق الأقصى . والمؤلفات الأدبية التى استوحت الاستشراق عديدة مشهورة ، وجزء كبير من أعمال ديلاكروا استمدت موضوعاته من الشرق ، مناظره وعاداته وأحداثه التاريخية .

أما مميزات الحركة الرومانتيكية فى التصوير بصفة خاصة انها تتلخص فيما يلى :

١ ــ الغاء الترتيب التصاعدى للوحات حسب موضوعها . فاللوحة التى تمثل حدثا أسطوريا لم تعد تعلو على لوحة تمثل منظرا طبيعيا أو طبيعة صامتة . ان العبرة فى كيفية تعبير الفنان عن حسه وانفعاله أصبح كل موضوع مهما كان متواضعا جديرا بالهام فرشاة المصور ، حتى القبح

قد يصبح حسنا بفضل سحر الفن . وليس من المحتم على الفنان أن يصور مناظر الريف الروماني بل عليه أن يستوحي مناظر الريف في بلاده .

٢ ـ احياء الكاريكاتور والأشكال المشوهة واستخدام الرسم كوسيلة من وسائل الهجو والنقد الاجتماعي . ان معيار الجمال المثالي لم يعد له أي وزن ، فالمصور غرضه الاول ابراز الطابع الذي يميز موضوعه ، سواء كان هذا الموضوع جميلا أو قبيحا ، جادا أو هزليا . ألم يرسم جريكو Géricault مجموعته الشهيرة عن نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية ، الم يرسم ديلاكروا صورة الشاعر الايطالي توركواتوتاسو وهو يعاني من هلوسات الجنون ؟ وفي عالم الكاريكاتور السياسي والاجتماعي لابد من ذكر الفنان دوميبه Daumier

٣ ـ أما من ناحية صنعة التصوير بالزيت فلم تؤثر فيهما الحركة الرومانتيكية . ان الألوان يتم مزجها على الباليت، غير ان العجينة أصبحت أكثر سمكا من ذي قبل . ونرى ديكام Descamps يستخدم السكينه لهذا الغرض . غير أن ديلاكروا تحت تأثير المصور الانجليزي كونستبل Constable يمهد السبيل لفن الانطباعيين والتنقيطيين فيما يختص بتجزيء القيم اللونية ووضعها جنبا الى جنب على اللوحة دون مزجها على الباليت بحيث يتم المزج والاحساس بالألوان المركبة في شبكية العين مباشرة وتتميز الحركة الرومانتيكية بتقديم اللون على الرسم أي بتقديم العنصر الحسي على العنصر العقلي . وأخيرا يجب أن نذكر انتشار التصوير بالالوان المائية ـ أكواريل وجواش ـ وذلك تحت تأثير الفنانين الانجليزيين، وكذلك التقدم الكبير الذي حققته فنون الحفر . الحفر البارز على الخشب والحفر على النحاس ، وأخيرا الليتوجرافيا التي ظهرت في بافاريا عام ١٧٩٨ . وقد استفاد فن الكاريكاتور وفن تصوير الكتب من الليتوجرافيا ، لما يشهد على ذلك أعمال دوميبه والصور التي رسمها ديلاكروا لكتاب فوست لجيته .

تلك هي أهم خصائص الحركة الرومانتيكية في الادب والتصوير ، وصلت هذه الحركة الى ذروتها في عام ١٨٣٠ وقد تزعم الحركة في الادب فيكتور هوجو وفي الموسيقى برليوز وفي التصوير ديلاكروا ، ثم تلاشت في عام ١٨٤٣ عند سقوط مسرحية هوجو البورجراف . أما الحركة التي بدأها ديلاكروا فقد ظلت محتفظة بروحها القوية الجذابة حتى وفاته في حين انحرفت لدى الآخرين وغرقت في موجة من الحساسية المريضة .

ويكمن سر نجاح ديلاكروا فى شخصيته التى جمعت صفات الفنان والمفكر والأديب ٠

شخصية ديلاكروا :

من المحال ارجاع العبقرية الى منطوق واحد ٠ ألم يكن ديلاكروا نفسه يقول لاستندال Stendhal

« اننا مزيج غريب من الأضداد لا يمكن تفسيره ، ان الشخص الواحد يحوى عشرة أشخاص وقد يحدث فى بعض الاحيان أن هؤلاء العشرة يظهرون جميعهم دفعة واحدة » ٠

ان شخصية ديلاكروا ذات قطبين رئيسيين : لدينا من جهة الشخص الجامح الحساس الذى تجرفه سيول الانفعال والخيال ، ومن جهة أخرى الناقد الصارم المتزن والذى ينتابه الشك من حين الى آخر ٠ انه رومانتيكى بفطرته وغريزته ، بقلقه وحساسيته المرهفة ، بسرعة قابليته للاستثارة الانفعالية وبهذه الدرجة البسيطة من الحمى التى لازمته طوال حياته غير أنه كلاسيكى بحبه للنظام والاتزان ، وبمحاولة ضبط نفسه ٠ انه فى الوقت نفسه ينتمى الى زمنه ولا ينتمى اليه ٠ انه متيقظ لكل ما يحدث حوله ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، حديثه شائق جذاب ، قاس أحيانا فى حكمه على زمنه وعصره ، غير أنه يدافع بحرارة عن حرية الفنان ٠ هو يحب أيضا أن ينظر الى الماضى ، وأن يقضى ساعات طويلة فى قراءة القدماء، وربما كان يحلو له أن يعيش فى القرن السادس عشر ، قرن ذروة الفنون الجميلة ، انه بميله الى التأمل والتحليل الذاتى ينتمى الى طائفة كبار مفكرى فرنسا الذين حللوا بعمق الطبيعة البشرية أمثال مونتنى ولاروشفوكو انه معجب براسين ، بموتزرت وبيتهوفن ٠ وفولتير أنه فى فنه قريب جدا من ميكل انجلو وفيرونيز وروبنسن وذلك بفضل احساسه بالعظمة والروعة وحبه للاشكال والالوان الجميلة ، ومحاولته احياء التصوير الحائطى كما فى عهد النهضة ٠ وهو من جهة أخرى رائد الفن الحديث بفضل حساسيته القلقة وتعبيره عن الحركة ولمسات فرشاته الجامحة وجرأته فى تقابل الالوان ٠

اننا بصدد شخصية معقدة تتصارع فيها الاضواء والمتناقضات ، شخصية حوت جميع الاسرار وجميع المواهب كما يقول جول رومان ، شخصية تستعصى على التحليل والتفسير ٠ ان اعمال ديلاكروا تفسر عصره أكثر من أن يكون عصره هو الذى يفسره ومنهج تين Taine يبدو بهذا

الصدد ناقصا • واذا كانت أعماله تفسر شخصيته فان هذا التفسير يظل قاصرا فاعمـــالة هي أكثر من مجرد انعكاس ذاته أو نتيجة اعلاء دوافعه اللاشعورية • فالتفسير في ضـــوء التحليل النفسي ـ وان كان يلقي بعض الأضواء على الشخصية ـ يميل الى خفض بعض قيمتها بالقول بأن الأثر الفني ليس سوى اعلاء الليبيدو المعاقة غيرالمشبعة ـ الواقع أنه من المحالالوصول الى تفسير شامل لشخصـــــية ثرية معقدة مثل شخصية ديلاكروا ، ان العبقرية تستعصى على التعريف ، ويمكن أن نقول عن ديلاكروا ما كان يقوله عن قيمة اللوحة الفنية : أن قيمة اللوحة لا يمكن التعبير عنهـــا هى في الواقع ما يفلت من حدود التعبير الدقيق ، هى ما تضيفه روح الفنان الى الألوان والخطوط لمخاطبة روح المشاهد •

ولا يوجد فنان مثل ديلاكروا برع في محـــادثة الروح ، سواء في لوحاته أو في مذكراته اليومية ، انه كان المصور الشاعر الذى عشق فنه وآلمه عدم فهم معـــاصريه فيما عدا القليـــل منهم أمثـال بودلير وجوته وبالزاك ، ان روح معاصريه لم تتجـــاوب معه ، ورغم علاقاته بالاوساط الأدبية فانه ظل طوال حياته يعانى من شهور العزلة المريرة • ولذلك كان يلجأ الى مخاطبة نفسه في مذكراته اليومية التي بدأها في عام ١٨٢٢ والتى دون فيها تأملاته الفلسفية وآراءه في الفنون التشكيلية •

تأثير ديلاكروا في الفن الحديث :

ان فن ديلاكروا وان كان يعتبر نهاية عهد في تاريخ التصوير المنحدر من عصر النهضة فانه من جهة أخرى يمهد السبيل للمدارس التي ظهرت في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين • ولكى نقـــدر مدى تأثيره في الفن الحديث نبدأ بذكر الخصــــائص التي تميز أعماله •

أولا : ثراء المخيلة وانطلاقها في الزمان والمكان ، مما أدى الى تنوع الموضوعات التي عالجها • ومن جهة أخرى يجب الاشارة الى الطابع الفكرى الذى يطبع الكثير من أعماله حيث يستخدم الاسلوب الرمزى والتشبيهى ، فانه ليس من أنصار الفن للفن •

ثانيا : ان فن التصوير يفتح أمام الفنان وأمام المتذوق آفاقا جديدة نحو الماضى ، نحو البلاد النـــائية ، مواطن الشـــهامة والشجاعة والسحر والالوان الزاهية والاضواء الساطعة فالتصوير كالشعر والادب من وسائل الانطلاق والتحرر من كل ماهو رتيب وممل •

ثالثا : ان التصوير مصدر سرور ومتعة للعين بفضل اللون وانسجام الألوان وحركة الكتل الملونة ٠

رابعا : يتميز أسلوب ديلاكروا من حيث الصنعة باللمسات العريضة الفياضة ويتغلب اللون على الرسم بمعنى انه لا يحصر اللون داخل خطوط مرسومة بدقة ، بل هو يرسم باللون مباشرة دون التدقيق فى التفاصيل الصغيرة تاركا للعين عندما تنظر من مسافة مناسبة أن تقوم بادماج التفاصيل فى كتل كثيرة متحركة تحقق بترابطها الديناميكى وحدة اللوحة كلها ٠

وفى ضوء هذه الخصائص نستطيع أن نتبين تأثير ديلاكروا على المدرسة الانطباعية التى اهتمت بتحليل الضوء والتقاط انعكاساته على سطح الأشياء وتأثيره على الانطباعية الحديثة التى حاولت أن تبقى لألوان الطبيعة واقعيتها ونصوعها وذلك باستخدام بقع من الالوان الأولية غير المزوجة بحيث يتم المزج فى شبكية العين ، وقد استخدم ديلاكروا هذا الاسلوب فى تقسيم درجات اللون وفى وضع بقع الالوان المكملة بعضها لبعض جنبا الى جنب بحيث يحدث تجاورها وانعكاس بعضها على بعض لونا جديدا كالاحساس بالأخضر الناتج عن وضع بقع زرقاء جنبا الى جنب مع بقع صفراء ٠ وهذا واضح خاصة فى لوحته الشهيرة «نساء الجزائر» ٠

ولا شك فى أن انطلاق اللون وتمجيده وتفخيمه وعده من أقوى ما يعبر عن الانفعالات كان له أكبر الأثر فى تصوير رينوار وفان جوخ وفى بعث حركة الوحشيين أمثال ماتيس وديران وفلامنك ٠

ونلاحظ فى بعض اللوحات عدم التزام ديلاكروا بقواعد المنظور التقليدية مما أدى أحيانا الى قلب المنظور ، وهذا الاسلوب فى عكس اتجاهات المنظور نشاهده لدى المصورين التكعيبيين أمثال بيكاسو وبراك ٠ ولم تفت هذه النقطة نقاد الفن المعاصرين لديلاكروا فقالوا عنه انه لا يتقن الرسم ولا يراعى كما يجب قواعد المنظور ٠

وأخيرا يمكن القول بأن ديلاكروا باحترامه للقيم التشكيلية قبل كل شىء وبدفاعه عن لغة الالوان ولغة التكوين والتوزيع للخطوط والسطوح ولغة الانسجام والتناظر والتقابل قد تنبأ بالفن التجريدى ٠ ومن أقواله المأثورة انه كان ينصح الناظر الى اللوحة بأن يقف بعيدا عنها بحيث يعجز عن تعرف موضوع اللوحة مكتفيا فى بادىء الامر بأن يشاهد توزيع البقع اللونية فى التكوين العام للوحة ، كما يستمع المتذوق الى سيمفونية

الموسيقى البحتة وأن يحكم على اللوحة من حيث هي قطعة تصوير ملون وأن يستجيب للوحة بلغتها التشكيلية أولا ، ولا ضرر طبعا من أن يقترب بعد ذلك لكي يتعرف الموضوع ولكي يستشعر بالاضافة الى الاحساس التشكيلي البحت شتى الانفعالات والعواطف التي يمكن أن تترجم الى لغة الكلام • فجمال اللوحة لا يكمن في ترجمتها الادبية بل فيما تثيره لدى المتذوق الاصيل من انفعال خالص •

ولوحات ديلاكروا بغض النظر عن موضوعاتها ، تتميز بشاعريتها التشكيلية وبقدرتها على بعث هذا الانفعال الجمالي الخالص • وفي الصفحات التي كتبها عن ديلاكروا عام ١٨٥٥ ، يقول الشاعر والناقد الفنى العظيم بودلير :

« يبدو أن هذا التصوير يرسل مضمونه النفسى الى بعيد كما يصنع السحرة والمشعوذون • وترجع هذه الظاهرة العجيبة الى القدرة على استخدام الألوان ، الى هذا التوافق الكامل بين درجات اللون وقيمه ، الى التناغم — القائم من قبل في عقل الفنان المصور — بين اللون والموضوع • ويبدو أن هذا اللون — وليسمح لى في استخدام هذه الحيل اللغوية للتعبير عن أفكار غاية في الدقة — يفكر بذاته مستقلا عن الأشياء التي يكسوها • ثم ان هذه التوافقات الرائعة بين الألوان غالبا ما توحى الينا بتناغمات الميلوديا والانطباع الذى تتركه هذه اللوحات في نفوسنا يكاد يكون انطباعا موسيقيا » •

واذا كان ديلاكروا يطلب من اللوحة أن تكون أولا متعة للعين ، فهو يضيف انها يجب أن تخاطب أيضا الروح حتى تتم المؤانسة بين اللوحة والمتذوق ، يجب أن تبعث هذا الانفعال الجمالي الخاص بفن التصوير والذى تعجز لغة الكلام عن التعبير عنه •

بشر فارس (*)

فجعت الأوساط الأدبية فى أديب كبير وعالم جليل بوفاة الدكتور بشر فارس فى يوم ٢١ من فبراير الماضى عن ٥٦ عاما ٠

ولد فى مصر عام ١٩٠٦ من أسرة لبنانية الأصل وأتم دراسته الثانوية فى مدرسة الآباء اليسوعيين فى القاهرة وحصل على البكالوريا عام ١٩٢٤ ٠ وكان شديد الاهتمام بدراسة اللغة العربية وقد أطلعنى فى مساء يوم الثلاثاء ١٩ من فبراير أثناء زيارتي الأخيرة له على كتاب قواعد اللغة العربية الذى كان مقررا عليه فى المدرسة فلاحظت أن النص المطبوع يكاد يختفى تحت الشروحات والتعليقات التى كان يدونها ، وقد ازداد شغفه بدراسة اللغة فواصل البحث والاطلاع ، وقد عشق بصفة خاصة ديوان ابن الفارض فحفظه كله ، ولا شك فى أن ما تركه شعر ابن الفارض من انطباعات عميقة فى نفسه الناشئة الوثابة يفسر لنا هذا الطابع الصوفى الذى يميز تأملاته وانعطافاته فى عالم الفن والجمال ٠

سافر الى باريس وحصل على ليسانس الآداب ثم الدكتوراه فى عام ١٩٣٢ وكان موضوع رسالته العرض عند عرب الجاهلية ، وقد قص على ، كيف تعرف فى عام ١٩٢٨ بالمستشرق وليم مارسيه ٠ فكان يحضر عليه دروسه فى الكوليج دى فرانس ، وفى أثناء احدى المحاضرات طرح الأستاذ سؤالا على مستمعيه ٠٠ طالبا الترجمة الفرنسية لعبارة « حصن منيع » فلم يتقدم أحد بالجواب ، وكان الشاب العربى ، يعرف الترجمة غير أنه تهيب الموقف فلم يجرؤ على الكلام ٠ وعند الحاح الأستاذ رفع يده وتكلم فكانت اجابته موضع استحسان الأستاذ وزاد تعجبه عندما علم أن الطالب عربى وأن اتقانه اللغة الفرنسية لا يقل عن اتقانه لغته الأصلية ٠

والواقع أن بشر فارس من القلائل الذين جمعوا فى مرتبة واحدة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية والشاهد على ذلك أعماله ، بعضها

(*) «المجلة» ، ابريل ١٩٦٣ ٠

باللغة العربية والبعض الآخر باللغة الفرنسية ، وكان يضمن البحوث المنشورة باللغة الفرنسية موجزا باللغة العربية نذكر منها :

«منمنمة دينية» تمثل الرسول من أسلوب التصوير العربي البغدادي. من منشورات المجمع العلمي المصري ، الثالث ١٩٤٨ .

« **كتاب الترياق** » مخطوط عربي مزوق خاتمة القرن ١٢ ، من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٥٣ .

« **الفن القدسي في التصوير الاسلامي الأول** » من منشورات المجمع العلمي المصري . القاهرة « كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه » من منشورات المعهد الفرنسي بدمشق بيروت ١٩٥٧ « سوانح مسيحية وملامح اسلامية » في مخطوط عربي مزوق في القرن السابع . من منشورات المجمع العلمي المصري تحت الطبع . كما أنه ترجم الى اللغة الفرنسية كتابه المشهور : « سر الزخرفة الاسلامية » من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٢ ومسرحية « مفرق الطريق » وطبعت الترجمة الفرنسية في مطبعة مصر عام ١٩٥٢ ، كما أنه ترجم مسرحيته الثانية « جبهة الغيب » وسجل نصها الفرنسي عام ١٩٥٢ في جمعية المؤلفين والملحنين المسرحيين في باريس .

وعندما تقرأ النص الفرنسي لمسرحية « مفرق الطريق » لا تشعر بأنك بصدد نص مترجم بل بصدد نص يحمل في ثناياه سر اللغة الفرنسية ، كما أن نصوص بشر فارس العربية تحمل الطابع الأصيل لسر اللغة وسحرها وثرائها ، وذلك لأن وراء النص روحا أمينا صادقا ولأن وراء النص روحا أمينا صادقا ولأن اللغة عندما يمتلك الكاتب من ناصيتها وتصبح بين يديه أداة طيعة تزيد من جلاء الفكر وعمقه ، كما أن أصالة الفكر وتعدد وجوه لطائفه تزيد من رونق الألفاظ وبعد تأثيرها في النفس .

ولبشر فارس أيضا مجموعة قصص نشرها في القاهرة ١٩٤٢ بعنوان « سوء تفاهم » (ومباحث عربية في اللغة والاجتماع) القاهرة ١٩٣٩ و « اصطلاحات عربية لفن التصوير » من منشورات المجمع العلمي المصري القاهرة ١٩٤٨ . ومن الجدير هنا أن ننوه بمجهوده الموفق في تحديد مفاهيم المفردات الخاصة بالفنون التشكيلية والزخرفية . ويجد القارىء أيضا في كتابه « منمنمة دينية » الذي سبق ذكره مجموعة من الاصطلاحات مع تعريفها والتعليق عليها .

هـذا خلاف مقالات نشرها في عدة مجلات عربيـة وغربيـة ومن مقـالاته الأخيرة ما نشره في مجلة آخر ساعة ١٩ من ديسمبر ١٩٦٢ عن الفن التجريدي بعنوان « رسالة مفتوحة من فنان عربي الى خروشوف » ثم في المجلة نفسها ٦ من مارس ١٩٦٣ مقاله الأخير : « مسرح الجيب في خطر » وكان شـديد الاهتمام بالحركة المسرحية العالمية وتحوى مكتبته كنوزا في الأدب المسرحي وفي البحـوث التي تدور حوله • ومسرحية مفرق الطريق التي مثلت في باريس في مسرح الجيب عـام ١٩٥٠ كان يعيد النظـر في نصها العربي ليعدها لمسرح الجيب أو كمـا كان يقول لينقلها أكثر فأكثر من طور التلاوة الى طور المشاهدة ويرجو المعجبون بفن بشر فارس أن يشـاهدوا قريبا على خشـبة مسرح الجيب « مفرق الطريق » أسوة بمن شاهدوها في نصها الفرنسي في باريس وفي نصها الألماني في سالزبورج وفينا ومونستر فستفالن • وفيما يلي بعض خواطر حول أعمال بشر فارس المسرحية ورأيه في فن التأليف المسرحي •

بشر فارس ••• بين الحيرة واليقين

ليس حال الانسـان في سـعيه وراء النجم الذي تلألأ في مطلع الشباب سوى ترجح بين الحيرة واليقين • يعيش الانسان في عالم غير متناه من الممكنات ، وعليه باسـتمرار أن يختـار وأن يضع حـدا لتردده لكي يواصل السعي الى الأمام • انه يجد في العمل الذي ينجزه ملجأ يستقر فيه لحظة قبل أن تعود الحيرة تطـارده فتدفعه الى اختيـار جديد • انه لا يلبث أن يخرج من (مفرق طريق) حتى يجد نفسه في مفرق طريق آخر • ولكن أليس لهذا السير من حد أخير يقف الطريق عنده ؟

هناك جبل شامخ تختفي قمته بين السحاب وعند أسفله ينتهي الطريق وتضيع معالمه فيتوقف القوم عن المسير ويستقر كل واحد في زاويته ، راضيا بالفتات الذي جمعه بعد طول عناء غير مصغ الى أصداء الحيرة التي لا تفتأ تتردد بين جوانبه • أما اليقين فمن العبث محـاولة ادراكه ، أنه سراب وخداع فقد انطفأ النجم وخبا الشعاع • ولكن هب من بين القوم فتى ليصعد في الجبل ملبيا نداء « جبهة الغيب » •

هذا الفتى هو بشر فارس الذي ظل طوال حياته يصعد في جبال المعرفة والجمال حتى غاب عنا وراء جبهة الغيب • هل ظفر أخيرا باليقين الذي كان ينشده ؟ وهل هناك يقين آخر غير يقين الموت ؟ •

« مفرق الطريق » و « جبهة الغيب » مسرحيتـان لبشر فارس ،

كتب الأولى في عام ١٩٣٨ والثانية في عام ١٩٦٠ ، والمعرج الذي يصل بينهما يرسم لنا خط السير الذي نهجه الكاتب في أسلوب التأليف المسرحي ، ويصور أعمق جانب من جوانب شخصيته ٠

حيرة الباحث الذي لا يرضى بالمألوف المتواتر ، بما يطفو على السطح بعيدا عن اللب والجوهر ، فيواصل المطاردة والتنقيب كي يعمق الفكرة حتى جذورها وينحت لها القالب اللغوي الذي يضمن حيويتها ويزيدها ثراء ، فينتهي به هذا العناء المضني الى ما يوسع دائرة اشعاعها بالايحاء والتلويح ٠

هذه الهالة من الاشعاع الايحائي من مقتضيات الكتابة الأدبية ، فبدونهـا لا يستمر الاتصـال بين الكاتب والقارىء ٠ ان المحرك الأول للكتابة ليس فكرة هامدة ولا فكرة واضحة المعالم ، بل خبرة نفسية ومعاناة عاطفية ٠ وهذه المعاناة تخلق في الشاعر حاجة ملحة الى التعبير وأول لغة للتعبير خلجات القلب واضطراب التنفس وارتعاد العضلات ، ثم تبحث هذه الاختلاجات الجسمية عما يهدئها وينظمها ، فتتكاثف سحب الفكر ويزداد شكلها تحديدا عندما تبدأ الأصوات ، والألفاظ تناوئها وتحاول محاصرتها ٠ وقلما يرضى الفكر أن ينحصر في شكل ثابت وأن ينصب في قالب صلد ، كما أن اللفظ قلما يصبح شفافا تماما كما هو الحال في الرموز الرياضية ، وحتى في حالة وصوله الى درجة كبيرة من الشفافية والمرونة فان الفكر يظل يضن بكثير من مكنوناته فيبقى وتره مشدودا كما يبقى مضرما شوق القارىء الى استكناه المزيد من المعنى ٠

بغيـة الأديب الشاعر أن يشاركه قارؤه في خبرته النفسـية وفي معاناته للتعبير عن هذه الخبرة وكلما كانت الخبرة غنية كان التعبير عنها أشق ٠ وتزداد المشقة توترا عندما تظل الأفكار والتصورات ضـاربة جذورها في لحم الشاعر ودمه ، غارقة في لج الانفعالات والعواطف ٠ وهذا كان حال بشر فارس الأديب الشاعر في معاناته للكتابة والتعبير ٠ وقد شاهدته في زيارتي الأخيرة له كيف كان يتألم وهو يبحث عن التعبير الموائم لمعنى من المعـاني وكنا بصدد الحديث عن مسرح اللامعقول وكان غير راض تماما عن هـذه التسميـة ٠ وكان يؤكد لي مرارا ان الأفكار والمعاني والتخيلات والتصـورات مهما تتنوع وتتشعب ، ومهمـا تدق وتلطف فان اللغة العربية تعي من الألفاظ والتعبيرات ما يسمح للأديب بأن يعبر عن أدق الخبرات الانسانية وأعمقها ٠ وموقف الذين يأخذون على لغة بشر فارس تأنقها وغرابتها يرجع اما الى جهلهم لكثير من مفردات اللغة أو الى ضحالة خبرتهم الانسانية وسطحية تفكيرهم ٠

ان أديبنا الراحل كان ألد عدو لما يسميه المحدثون بالكليشيهات اللغوية . لم يكن يستعمل هذا اللفظ الدخيل الأعجمى ، بل كان يقول « الرواسم » .. لنتخذ هذا اللفظ مثالا لنبين الى أى حد كان بشر فارس محقا فى دعوته الى احيـاء لغتنا التى نحلت وضمرت تحت أقلام ـ كدت أقول تحت معاول ـ أنصاف المتعلمين . فالرواسم ، جمع روسـم وهو الخاتم وما يطبع به الطين ونحوه على رأس الخابيـة ونحوها ، أو خشبة مكتوبة بالنقر تستخدم كالخاتم . ان معنى « روسم » يصدق تماما على مفهـوم « كليشيه » ولكن كان من الضرورى أن يأتى بشر فارس لكى يبعث من سباتها مئات الألفاظ التى غشيها غبار الاهمال والنسيان ويرى بشر فارس أن الرواسم هى مقبرة الفكر ، فهو يقول « أف » للرواسم التى صارت وساوس يصبها الأديب اليابس فى وجه القلم الغض ، فتحرم الانشاء أن يدل على صاحبه دلالة حافلة .

أسلوبه المسرحى الرمزى :

فى التوطئة التى كتبهـا بشر فارس فى صـدر مسرحيته «مفرق الطريق » يبسط لنا أسلوبه فى التأليف المسرحى . انه يتبع الطريقة الرمزية ، غير أنه يحرص على أن يوضح لنا ما يقصـده بالرمزية فهى ليست اقامة شىء بدل شىء آخـر من باب التخييل أو التكتيم ، وليس الرمز مجرد لـون من ألـوان التشـبيه أو الكناية الى غير ذلك من ضروب المجاز التى يكون للعقل الحظ الأكبر فى وضـعها وتذوقها . الرمزية هى استنباط ما وراء الحس من المحسوس واستنشاق المضمر فى صـورته البريئة قبل أن تنتظمها الأفكار المتواضـع عليها والتى يكد الذهن فى تنسيقها . ورمزية بشر فارس تقترب من السريالية دون أن تستسلم لها كليـة ، فهى رؤية جديدة منزهة تنصرف عن المبتذل والمألوف والرتيب ليستوقفها الغريب والمدهش والمروع . والرمزية بعيدة كل البعد عن التعليم والخطابة والحسـاسية الزائفة والوصف الموضوعى ، واذا كان الأسلوب الرمزى يخلع على الفكرة شكلا محسوسا فليس هذا الشكل غاية فى ذاته ولكنه يظل خاضعا للفكرة . غير أن التعبير الرمزى لا يرمى الى تركيز الفكرة فى ذاتها فهى تظـل محاطة بهالة براقة من الصـور والتلميحات . يقول بشر فارس فى حديثه عن طبيعة الرموز :

ليست رموز آراء تنصرح مصادرها وتطرد مسايلها : ولكن رموز نزعات ملتبسة وممكنات نافرة ؟ رموز ممتنعات استسلمت لبدوات الهمة ،

ساعة يغلغل الظلام فتغيب رجفات العاصفة عن بصر الراصد ، واذنه الساهرة تسترق هزيز الريح وصفق الموج ، فتنتبه بهما فؤاده تحت ستر الابهام ، فكأن نشاط الراصد أخذه دوار فجمد ، ودون الجمود كنز من الرجات الصامتة (مفرق الطريق - ص١٥) .

وتمثيلا لرأيه في الكتابة الرمزية يصف لنا بشر فارس موقف المصور الملهم من النموذج الذى يعبر عنه بالأشغال والألوان على لوحته ، مستوحيا الطبيعة الصادقة التي تنكر القياس في التخطيط والفتور في التعبير ، وهو لا يكاد يحفل بالمنطق لأن المنطق ينشأ عنه تدبير يعوزه لهب الحياة .

ثم يقابل بشر فارس بين الرقص الجامد ، المضبوط نهجه ، المأموم خطوه والرقص المبدع المعبر عن عطفات احساس الراقصة الموسيقى عندما ينقلب السماع حركة .

« .. فاذا بها ترقص على خفقان قلب وضربان عرق ، اذعانا لاشراق الساعة وانقيادا لهواجسها ؟ فتخلص الغريزة من الكبت وتنصر الاضطراب النفساني من الاختلاج العضوى فترد الرقصة وثبة حرة ، وثبة النفس اللطيفة نحو الغبطة المضنية » (مفرق الطريق - ص١٨)

ثم يتجه صوب الموسيقى فيشبه كتابه المنشىء المبدع باللحن الذى يغلب فيه الارتجال الملهم على الصناعة الموقوفة .

« كأنما اللحن حديث يشققه فتية انس بعضهم الى بعض ، فيحتفل وينتثر ويقر ويفر وينشط وينكسر . واللحن يحدوه طائفة من المدات والهمسات ، تلائمه مرة وتنافره مرة . طائفة من الأصوات المفردة بين حادة وثقيلة ومصفحة ومرخمة ؟ معها النقلات المنفصلة بين مقلقلة ومضغوطة ، وجالسة وطافرة ، كأنها جميعا على هامش اللحن ، تحكى تلون نسجه ، وتراسل تعرج قصده ، فتساوق أنفاسه حتى ينقضى . » (مفرق الطريق - ص١٨) .

الرمزية اذن هي وسيلة التخلص من المألوف المبذول ، من المنطق الجامد والعقل المجرد ، من الأفكار المتواترة والرواسم الهامدة ، لاستشفاف الوجود عند ينابيعه الأصيلة واستكناه عالم الروح في نبضاته العميقة . والرمزية في شمولها تركيب وتداخل بين طبقات من الرموز : رمزية اللفظ ، ثم رمزية العبارة ، ثم رمزية الموقف والحدث ثم رمزية البناء بأجمعه مع ما يحيط كل طبقة من هالات وهوامش ، من أضواء وظلال . من ايهام

وتلميح . وقد ينظر بعضهم الى هذا البناء المركب على أنه غامض مجاوز لحدود المعقول . ويرجع هذا الاحساس بالغموض الى اعتياد التفكير السريع المتقطع الذى يطالب اللفظ بالشفافية الكاملة وبتكافئه التام مع المعنى وهذا أمر محال ، فأصحاب هذا الرأى يحرمون أنفسهم من لذة الكشف ومن متعة المجاذبة والمؤانسة . وبهذا الصدد يقول بشر فارس :

وعندى أنه قد حان الزمن الذى فيه يصبح الايجاز والايماء فى الانشاء الرفيع أحب الى القارىء أو الناظر العربى المرهف من التطويل والتذييل ، فيمتد له من اقتصاد البيان سبب المساهمة فيشاطر المنشىء فنه . بذلك تدرك غاية الأدب العالى » (مفرق الطريق ص٢١) .

مسرحية (مفرق الطريق) :

الاحساس الدفين الذى ارتسمت على نسجه معالم هذه المسرحية الصراع بين العقل والعاطفة ، التقابل بين الهضبة الصخرة والروضة الزاكية ، حرج النفس عند مفرق الطريق قبل أن يتم الاختيار وتستأنف الخطى نحو مفرق طريق آخر ..

والمسرحية فى مبناها وفحواها تصدق عليها الرمزية المركبة التى تحدثنا عنها سابقا . حوادثها قليلة ضئيلة ولكن ايحائيتها بعيدة الأثر عميقة التغلغل . هى شبيهة باللوحة الفنية التى تتعانق فيها الأشكال على نمط غير مألوف ولكنه جميل وتهتز على سطحها ومضات من الضياء تتخللها ظلال هامسة . وعبثا يحاول المتأمل ترجمة هذه السيمفونية اللونية الى ألفاظ لغة الكلام لوصل تأثره الى الآخرين . واذا حاول الانتقال من لغة الى لغة أخرى فان كل ما سيتبقى بين يديه مجرد هيكل فارقته الحياة .

لا تستكمل المسرحية وجودها الا اذا مثلت ، الا اذا عايشها الناظر فى الجو السحرى الغريب الذى يلفها ويغمرها وأحس بخلجات قلبه مع حركاتها وسكناتها يتلمس بفكره وشوقه معالمها الغامضة مستضيئا باللاحق حتى يبصر السابق متحدا من حين الى آخر مع شخصياتها لأنها فى مجموعها تمثل العالم الداخلى لكل من أراد أن يحيا ملء حياته بكل مافيها من تعارض وتناقض ، من مخالف ومحال ، من معقول ولا معقول ، من اطمئنان وقلق .

أشخاص مسرحية « مفرق الطريق » أربعة : امرأة فتية ، سميرة ، تتنازعها حلاوة الماضى الموجع وراحة الحاضر المقفر . أبله ، لا يقوى على الكلام ولكنه يدرك الشىء الكثير .

منصور ، شاب في الثلاثين ، عنوان الانسان العادى ، المنشأ في حلقة المواضعات الاجتماعية . وأخيرا الناى الذى تراسل ترنيماته مواقف نفسانية معلومة ، هو نفس رائق يتردد فى شقاوة البشرية . لا يمهل المؤلف الشاهد فيفاجئه منذ اللحظة الأولى بسؤال غريب :

« هل الكلاب تمص القصب ؟! ان الأبله لا يعرف الا الضحك وتريد سميرة أن توقظ احساسه لكى تسيل دموعه . وهى تتحسر لأن هذا لا يمكن حصوله ، كما أن الكلاب لا يمكنها مص القصب . سيبكى الأبله فى ختام المسرحية وسيراسله الناى فى البكاء ، وتصرخ سميرة فى الأبله : أصبحت تبكى ؟ انت .. ان الكلاب تمص القصب اذن : مستحيل صار ممكنا .. » .

ان بعض النقاد الذين تناولوا المسرحية وأسلوب صاحبها فى التفكير والأسلوب لم يفتهم أن يذكروا من أدباء اللامعقول والعبث ألبركامو وفرانز كافكا وعدوا هذه المسرحية من طلائع هذا اللون من الأدب واذا كانت حركة « مفرق الطريق » حركة داخلية تنبع من أعماق النفس المعذبة فان السؤال الذى يصدم ويدهش الآخر لا يبدو غريبا لصاحبه . قلما يطرح وجدان سميرة على عقل منصور هذا السؤال الغريب : هل الكلاب تمص القصب فان منصور يتعجب فى صمت فتقول له سميرة فى بطء .

« رب عبارة يستغربها السامع هى معقولة عند من صاغها . سؤالى يدهشك ، ولو جالت أفكارى فى ذهنك وتجاوبت على نحو ما تجول فى ذهنى وتتجاوب لزال دهشك . ان الأشياء لا وجود لها الا بنا ، وكل واحد منا عالم خلا بنفسه » .

وبعد حوار قصير بين سميرة ومنصور يقول منصور وهو يهم بالانصراف :

ـ « اف لهذا الكلام المعقد ! » .

« تريدون الأمور واضحة خشية على سلامة أفهامكم . أينبغى لكل أمر يحصل أن ينساق على الفور الى زاوية فى رءوسكم ، كأنها تنتظره على اطمئنان ؟ متاع يتدرج فى خزانة .. لا شىء أبغض الى الحياة من اطار يعد لمجراها . ان الروح والفكر ينكران السد والحد . وأنتم يحلوا لكم أن تقهروا مايفور .. أن ترجعوا من يهيم » (١) .

---

(١) ص ٣٧ . يختلف النص هنا عما جاء فى النسخة المطبوعة للمسرحية، فيه التعديل الذى أدخله بشر فارس فى النسخة التى كان يعدها للمسرح . فقال زاوية بدلا من خلايا قريبة ، وتقهروا بدلا من تضغطوا .

وعندما يصرخ منصور ضجرا : كفى ! يعود الماضى ويذكر أنه أحب سميرة فى الماضى وتبادلا الحب ويعجب للتغير الذى طرأ عليها • فتقول له فى صوت خافت : الحب مرحلة الى الفناء • أمر آخر غريب ؟

أحبها منصور فى الماضى ثم قال لها كفى فأذلها واليوم يصرخ فيهـا مرة ثانيـة : كفى ! خوفا من أن تجره الى ما وراء المعقول • فتعرض عنه سميرة وتقول له أبعد ثم تلتفت الى الأبله وتصيح : اضحك فيضحك الأبله فى تراخ • وهذه الضحكة هى التى تثلج قلب سميرة وسبيلها الى الحيـاة ان ينفرش الثلج من حولها • ويجرى بينهما الحوار الآتى :

منصور : (مترفقا) ولكن ألا تهفو نفسك الى الدفء أحيانا ؟

سميرة : (تقرأ فى استسلام) تغالبنى فتهفو • « نتماسك » غير أن الدفء منحة الشمس ، ولذة الشمس ـ ويلى ! ـ فى حرقتها •

منصور : ولكن ، بشىء من التعقل نتجنب الحرقة •

سميرة : التعقل نصيب من تصنع الاحساس • مثلى لابد له من الاحتراق (ص ٤١) ••

منصور : ولكن ، قلبك ؟

الأبله : يضحك

سميرة : قلبى ؟ •• لفظ طالما أداه لسانى حتى ضاع معناه •

منصور : ولم الاطالة ؟

سميرة : الجريح لا يمل دغدغة جرحه •

منصور : سميرة !

سميرة : ألم أقل لك انى لست أنا •• ؟ هذا اسم تلف ••

منصور : ولكن ••

سميرة : كم تستعمل « ولكن » !

منصور : لو كان الأمر المطلق موجودا ، استدركت •

سميرة : انه لموجود ••

منصور : هل عندك دليل ؟

سميرة : تمام فرحتى بضياع ما ملكت يدى • (ص ٤٣ ـ ٤٤) •

يمثل لنا هـذا الحوار على قصره جانبـا هاما من آراء بشر فارس :

الاحساس الصادق أعلى مرتبة من التعقل ، ترديد اللفظ بعينه يضيع معناه فيصبح كالعملة الممسوحة ، في التألم لذة لأنه يقوى الشعور بالذات الأنا الاجتماعي قناع يخفى الأنا العميق ، أو كما يقول الشاعر رانبو .. Je suis un autre وأخيرا : الزهد الكامل هو السبيل الى المطلق .

وعلى هذا المنوال يسير الحوار ، عقد من الجواهر هي « طائفة من النظرات صبها الزمان في قوالبها ، وكل شيء موصول بهمة الفكر طال عهد نشأته واستوائه لاينقاد دفعة ، بل على المستطلع أن يتأتى له يستشفه ، وفي ذلك لذة الكشف » (ص ٢١) .

وبعد تردد ترفض سميرة أن تستسلم للحب فتقول مرتجة :

أما أنا .. أنا .. فنصيبي هوج العاصفة العليا — « لمنصور والأبله في هدوء وقد أشرق محياها » خذا هذا الطريق .. الذي لا نور فيه .. الذي ينحدر »

تلك هي بعض نواحي مسرحية « مفرق الطريق » ربما تدفع القارىء الى الاطلاع عليها الى أن تتاح فرصة مشاهدتها على مسرح الجيب ، فقد أشاد النقاد في الشرق والغرب بأسلوبها الشعري وبلمساتها المرهفة ونظراتها العميقة . فقد ذكرها بروكلمان في الجزء الثالث من كتابه تاريخ الآداب العربية طبعة ليدن ١٩٣٩ .

« عند هذه المسرحية البازغة في أسلوب شعري مبتكر ، .. نحن على أبواب تطور جدير بأن يحدث تجديدا في الحياة الأدبية أو أن يضيف اليها ثروة . ولن يكون هذا التجديد ولن تكون هذه الاضافة الا بعد نضال عنيف .

وعند تمثيلها بالألمانية في سالزبورج سنة ١٩٥١ كتب شور في جريدة الشعب الديمقراطية ما يلي :

« هذه قصيدة من الشعر تقبل الينا كشهادة للروحانية العربية الحاضرة . فلا يهم المؤلف سوى الحركة الداخلية ، لذلك جاءت معالجته أقرب الى الأسلوب الشعري منها الى أسلوب المأساة . فنراه يمتنع عن الافاضة في بسط النضال ليعوضنا عن ذلك بعرض أحوال نفسانية هي غاية في اليسر . مع أنها أبعد ما يكون عمقا .. لأول مرة اتصلنا بفن الشعر العربي مما كان أعظم نجاح الاتصال » (١)

---

(١) النص العربي لبروكلمان وشور من ترجمة الدكتور مراد كامل الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة .

مسرحية (جبهة الغيب) :

في هـذه المسرحية يرتقي فن بشر فارس الى أعلى مراتب التأليف المسرحي الى مرتبة المأساة ، هي مأساة بموضوعها ، بأشخاصها ببنائهـا بلغتها وحوارها بمواقفهـا التي يحتدم في شـبكتها الصراع بين الأرض والسماء بين الانسان والاله ، بين الحياة والموت ، بين الموت والحب ، بين ما يرهب منه الانسان وما هو راغب فيه •

انسان يتطلع الى العلياء ليختلس سرها فان ينتظره الموت في لفتة الطريق يصعد في جبل « طال طول تمني الفقير وسأم الغني » ليأكل من العشب الأبيض طلبا للحياة الأبدية ، عاشق يرفض الحب الموهوب له جهارة والذي يقف عثرة في تطلعه الى العليـاء ، ويقبل على حب يحجبه صـمت الحبيبة ثم « يترك الأشياء كلها حتى الحب تمجيدا للحب » •

انه لمن العبث محاولة تلخيص موضوع « جبهة الغيب » لأنه يعبر في سياق رائع من الأفكار والصور عن نضال الانسانية لتجاوز يقين الموت الى يقين الخلود ، أو لتحاول هذا • ان من طبيعة المأساة أن يظل السؤال معلقا وأن يبتعد الجواب كلما بدا لنا اننا اقتربنا منه كأنه سراب خادع •

لا أدري من هو بطل هذه المسرحية • هل هو الجبل الشاهق الوعر الذي يخفي وراء جبهته العالية سر الأبدية ؟ أم فدا الذي يتطلع اليه ويريد تسلقه لاختلاس السر الرهيب ؟ ان أشخاص المسرحية يرسمون بأسمائهم وصفاتهم حبكة المأساة : لدينا فدا وتلميذه هادي الامام الذي يهزأ بفدا ويحرم عليه التطلع الى الجبل المقـدس يؤيده لفيف من رجال ونساء في طائفتين • ثم القوال ، رئيس جماعة من الفلاحين يساند فدا في عزمه • ثم يأتي الكسـيح والأعمى اللذان حاولا من قبل صـعود الجبل فأخفقا • وأخيرا القيثاري الوافد من بلد بعيد والذي سيزيد بموسيقاه جو المسرحية سحرا وشاعرية •

أما المرأتان اللتان تمثل كل منهما لونا من الحب فاحداهما اسمها زينة والأخرى هنا • ومكان هذه الأحدوثة الشرقية المكونة من خمس مراحل غير محدود وكذلك الزمان • وعدم تحديد المكان والزمان دليل على ان بشر فارس أراد أن يقدم لنا صورة أصيلة لكفاح الانسانية في تطلعها الى المطلق وفي محاولتها تمزيق ستار الغيب • وفي « همسة » صدر بها مسرحيته يقول المؤلف :

« للخلق ، على تباينهم في الطباع دخيلة واحدة ، وان ترددت بين انقباض وانشراح وفقا للشوط المقطوع في مطالع الرهافة • فكيف يقوم جوهر المسرح اذا علق سره بأشباح جيل من الناس أو باعراض رقعة من الأرض لا تتم معهما حقيقة الانسان هذا الذى يلف تفاريقه مدار الأزمنة والأمكنة ؟ (ص ١٩) •

ولغة « جبهة الغيب » لغة شعرية رمزية كلغة « مفرق الطريق » بل هى أكثر ارهاقا وأعمق نفاذا لأنها لجلالة موضوعها وتوتر مواقعها معبـأة بشـحنة فياضة من الايحاء والتلميح تجر القارىء أو المستمع الى أعمـاق النفس البشرية فى نضالها مع القدر الى أعماق الوجود المحض •

ولكى تكون اللغة الشـعرية حقا لابد من أن تنجلى الألفاظ وتلبس لباسا جديدا بحيث توحى بمعنى بعيد وراء المعنى القريب الذى يمثل للذهن لأول وهلة والمعنى البعيد الذى يشار اليه همسا وتلميحا هو الذى يقصده الشـاعر :

« هيهات أن يكون المسرح مصنع ترديد : ألفاظ كلها محدودة قاصرة ، مطروقة ناحلة ، يلوكها النـاس ، على قدر ما تمرسـوا به من التعبير • المسرح منبت توليد : كلمات تحوم على نجوى الشاعر وهو يتقصى مسارب الكون ويتقرى مصاعبها رجاء أن يعرف • والعرفان يلوح فى لحظة القول ، لا فى صورة هيئة دارجة • ــ بعيد وادى الحقيقة : دوران ، موران ، هل يقر بهـا المتلطف الا اذا تمور ودار ؟ من هنـا مأتى « الرموز والخطفات » (ص ٢٢) •

تبدأ المسرحية بحوار قصير بين فدا وتلميذه هادى • يستحث فدا تلميذه ليرافقه فى صعود الجبل، ولكن هادى يهاب «الموت الذى يرصده فى شباك هذه المغامرة » فيرد عليه فدا :

ــ « حسبك أن تكون سلكت فى الطريق •• » ص ٣٣ •

فى نهاية المسرحية بعد أن سقط فدا يجرى الحوار الآتى ، مرددا هذا المعنى بعينه :

الامام ــ ذلك مغنم لا ثمر فيه • انه مات ، مات •• البطولة ليست من دأبنا • دمنا عصير الضآلة •

هادى ــ « يوافق ثم يستدرك » : عصير الضآلة • لكن البطولة من دأبنا •• القوة سهم من أفكار ، العنف قوس فى يدنا • حسـبنا الرمى ،

لا نبالى ، أصاب ، قصر ، جاوز ٠ قوتنا من ضعفنا تنبثق ٠ بطلنا هموم تحترق ٠ (ص ١٠٩) ٠

وزينة التى أرادت فى بادىء الأمر أن تحمل فدا على العدول عن ارتقاء الجبل لتستأثر بحبه تعود فتقول :

زينة ــ مضى الى العلياء يستطلع ، هل وجد ؟ ليس المهم أن يجد ٠ لا ، لا : يوم يلقى المرء ضالته فيلتجم بها فيأتى عليها نهما أو تأتى عليه ، تفتر السعادة ويرخص النصر ٠٠ الخير كله أن يتلمس الرب أثره فى عبده ، وأن ينقب العبد عن نصيبه من ربه : غوصة فعثرة فرجة ، فتضور فتجلد ثم صدمة ، يكون من ورائها الفوز ٠٠ (ص ١١١) ٠

بين البداية والنهاية ، بين تطلع البطل الى العالية واخفاقه ، يكشف لنا عن قلبه الذى يتنازعه حب زينة وحب هنا ٠ ومن خلال هـذا الموقف يقدم لنا بشر فارس نظرته الى الحب ٠ يجرى حوار طويل بين فدا وزينة ٠ فى بادىء الأمر تستجدى زينة وتهب نفسها :

فدا ــ انى صاعد ٠

زينة ــ « تسرع الى فدا ٠ فى صوت مجروح » : لا ٠

فدا ــ انى صاعد ٠

فدا ــ « يتصفح وجه زينة منعطفا اليها ثم يهم بالانصراف »

زينة ــ « تستوقف فدا بحركة مرتعدة » ها بين يديك الهبة كاملة صادقة ٠

فدا ــ يا ضيعة الهبة اذا تخلت نفس عن جوهرها فى سبيل نفس أخرى ٠ ما المطالبة بالتخلى سوى استجداء ، من ورائه ظلم وأثرة : ظلم رب ، ظلم عاشق ، أثرة ضعيف ٠ (ص ٦١) ٠

وعندما تخفق زينة فى جذب فدا اليها تقبل على الهجوم :

زينة ــ مخبول أنت ٠ ألا تفيق ؟ قم ! تلقط الثمر المطروح فى دربك ٠

فدا ــ فأسرقه من الأرض ٠

زينة ــ أنت جبان ٠

فدا : قد أكون جبانا ٠ على أنى غنى أى غنى ، لأن أعف عن غنيمة مبذولة مصيرها التلف ٠

زينة ــ بأى شىء ؟ قل لى بأى شىء أنت غنى ٠

فدا ــ بما شتت سدود قلبي ولم يشتت بعد سدود قلبك (ص ٧٢) ٠

أما الحوار الذى يدور بين فدا وهنا فهو حوار من نوع آخر ، لاتتكلم هنا بل تعبر عما يعتلج فى نفسها بالحركات والملامح والنظرات ٠ وعندما تقبل هنا على فدا يبادرها بقوله :

فدا ــ نعم ٠ يا حبيبتى ٠٠ آن أن تسمعى هذا النداء ٠٠ فلطالما أمسكت عنك لغط الضلوع ، مخافة أن يعطل لطافة حدسك ٠ الحدس ٠٠ أتدرين ما هو ؟ ــ سياحة السمع فى محراب المحجوب ، حومان الوهم على لهب العرفان ٠٠ الحب ، كالجمال ، هو البريق المواز فى الياقوت الرقيق ٠٠ الحب ، الجمال ؛ ماء الجواهر لا يفعل فعله الا اذا رعش من وراء حجاب ، نسجوه من أهداب حور ٠ يا حبيبتى ٠٠ يا غرة الرشائق ٠ (ص ٧٩)

يصعد فدا وكان قد وعد أن يلقى كل يوم بحجر ليعلم القوم أنه سالم ، وفى يوم لم يسقط حجر ٠ فماتت هنا ، قتلها الحجر الذى لم يسقط ٠٠

من العبث محاولة تلخيص « جبهة الغيب » ٠ سأكتفى بهذه النظرات العابرة راجيا أن تكون قد حركت شوق القارىء للرجوع الى المسرحية بكامل نصها ، ولكى لا يظن أحد أن بشر فارس ، فى هذه المسرحية ، قد قطع الصلة بين الأرض والسماء ، أود أن أذكر هنا رد فدا للقاول عندما سأله : هل وجه الأرض باطل ؟

فدا ــ باطل ؟ قد يكون ٠٠ من جراء الدم السمح تبذلونه فى غفلة ٠٠ آلام البشر تغدو غرور الطين ٠ الأرض ، كمثل السماء ، جدير بها أن تكتسب ، لكنها لا تمنح كنوزها حرة الا اذا استعرت بجمرات الأنفس الزكية ، فيعتز عليها كل هين ، وفيها يتأصل كل عارض ، حتى تفاهة الرمال تتبخر فى تماويج سراب ، سراب يرقرقه خاطر متشوف ٠٠ انما العدم نحن البشر اذا لم نمد حبالنا الى قبة الخيال ٠ (ص ١٠١) ٠

تلك هى وصية بشر فارس لنا ! نعم ، ان الأرض لا تمنح كنوزها حرة الا اذا استعرت بجمرات الأنفس الزكية !

تحليل ونقد
لمؤلفات عربية وأجنبية

النوم والأرق (*)

للأستاذ أبو مدين الشافعى

ما جستير فى الآداب ــ ٥٠ صفحة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٥

محاولة جديدة قيمة لبحث موضوع النوم فى ضوء منهج علم النفس التكاملى . لقد تضاربت الآراء حول نظريات النوم واختلف العلماء فى تعليله وتحديد أسسه وبواعثه . وقد تعصب البعض للناحية الفسيولوجية فحاول ارجاع عملية النوم الى العوامل الفسيولوجية المحضة ، وحاول البعض الآخر ارجاعها الى الناحية السيكولوجية البحتة ، منوها بما لعامل « عدم المبالاة » من أهمية كبرى وقد وجد الفريق الثانى فى اثر الايحاء دليلا كبيرا على أهمية العامل النفسى فى احداث النوم . وقد لاقت فكرة ارجاع النوم الى التعب قبولا كبيرا لدى كثير من البحاث وساعدت بعض التجارب الفسيولوجية على تأييد هذه النظرية ووصل الأمر ببعض البحاث الى الاعتقاد بوجود مراكز خاصة للنوم فى الدماغ ، الى أن جاء العلامة كلاباريد فحاول تعديل هذه النزعة الفسيولوجية البحتة وقال بنظريته البيولوجية التى تحاول أن تكشف عوامل النوم بالاعتماد على وظيفة النوم الحيوية « لا ننام لأننا نتعب ولكننا ننام لكيلا نتعب » وليست مسألة الصلة بين النوم والتعب بالبساطة التى تبدو لنا ، اذ ان ظاهرة التعب نفسها جد معقدة ويقتضى تحليلها معرفة شاملة لمختلف الوظائف الجسمية والعمليات النفسية وصلة الحيوان بالبيئة الخارجية . فالتعب نتيجة كفاح الكائن الحى مع الوسط الخارجى ولهذا السبب كان من الضرورى دراسة عامل الانفعال فى النوم ومن هنا جاء اعتناء كلاباريد بعاملى الاهتمام وعدم المبالاة فى انتقال النشاط النفسى من اليقظة الى النوم .

وأهم خطوة يخطوها المؤلف فى هذه الرسالة هى ايجاد أساس لنظرية كلاباريد وتوسيعها فقد حاول كلاباريد أن يشرح النوم كأنه فعل

(*) «مجلة علم النفس» ، يونيو ١٩٤٥.

مستقل ولم يوفق في شرح عملية التنويم المغناطيسى وبيان العلاقة الموجودة بين النوم والتنويم ففصل بينهما فصلا تاما ٠

ويوضح لنا المؤلف ان هذه الصعوبات تتلاشى اذا نظرنا الى النوم نظرة شاملة تكاملية لا كعملية خاصة يمكن دراستها مستقلة عن دراسة النشاط النفسى ٠ ويجد القارىء تخطيطا واسعا ومبادىء عامة لنظرية جديدة في فصل (النوم والانتباه) (ص١٤) ٠فنظرة شاملة للنشاط النفسى الممثل في الانتباه تجعلنا نفهم العلاقة بين النوم واليقظة كدرجتين مختلفتين لشدة الانتباه ٠ وقد استفاد كاتب الرسالة من بحثه «الانتباه الارادى(١)» وما انتهى اليه فيه من آن النوم ليس بالحالة السلبية وأن الانتباه غير منعدم أثناء النوم ٠ وبهذا نفهم تفاوت درجات العمق في أثناء النوم ، كما أننا نفهم حقيقة النوم الجزئى والنوم الصناعي والتنويم المغناطيسى ، اذ أن ربط دراسة النوم بدراسة الانتباه تجعلنا نفهم علاقة الحواس بالنوم ٠

ودراسة أسباب الأرق تلقى ضوءا جديدا على دراسة النوم وقد حاول صاحب الرسالة تدعيم نظريته وبيان صلة العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية بالنشاط النفسى٠وقد أضاف الى الفائدة العلمية بعض النتائج العملية التطبيقية فى علاج الأرق ٠

ولا شك أن هذه الرسالة ، على الرغم من بعض مواطن النقص جديرة بكل ثناء لأنها محاولة شخصية مبتكرة لمعالجة موضوع من أدق الموضوعات وأكثرها تعقدا ٠ وهى تنم على اطلاع واسع وبخاصة عن تفكير شخصى قوى وقدرة على الربط بين مختلف نواحى الموضوع ٠

---

(١) وهى الرسالة التى نال بها الأستاذ ابو مدين الشافعى درجة الماجستير فى الآداب من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٤ ٠

الزمان الوجودى (*)

تاليف الدكتور عبد الرحمن بدوى

٢٤٠ ص ٠ مكتبة النهضة المصرية (سنة ١٩٤٥)

كثيرا ما نسمع أن علم النفس انفصل عن الفلسفة وأصبح علما مستقلا ٠ ويبدو لنا هذا الحكم عجيبا فى الوقت الذى أخذت فيه جميع العلوم تدرك ما للمذهب الوضعى الذى أنشأه أوجست كونت من قصور عن فهم لب الواقع ٠ فان جميع المشكلات العلمية بلا استثناء تلتقى عند قمتها بالمشكلات الفلسفية الجوهرية التى ما فتىء العقل الانسانى يطيل فيها النظر والتأمل منذ نشأة الفلسفة فى بلاد اليونان ٠ وعلم النفس كسائر العلوم لايزال مرتبطا بالفلسفة الأولى فى كثير من مشكلاته الجوهرية كمشكلة التذكر والذات الشاعرة والشخصية وطبيعة المعرفة الخ ٠٠ وأقوى دليل على ارتباط علم النفس بالفلسفة تعدد المدارس السيكولوجية على الرغم من أن الوقائع هى هى لا تتغير ، بل يرجع الخلاف فى تأويلها الى ما ينطوى عليه كل مذهب فى علم النفس من مبادىء فلسفية كثيرا ماتكون ضمنية كامنة ٠

هذه هى بعض الاعتبارات التى خطرت لنا فى أثناء قراءة « الزمان الوجودى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ٠ وهو كتاب يعرض لنا الخطوط الأولى لمذهب فلسفى جديد تمتد جذوره الى أعماق علم النفس ، اذ أن مؤلفه يتخذ من الزمان الحى الخلاق محورا لبحثه الفلسفى ٠ والعبارة الأولى التى افتتح بها الفصل الأول وهى « وجود الانسان نسيج من الواقع والامكان ، يحاك على نول الزمان » جديرة بأن تتخذ شعارا لكل سيكولوجى يجعل من الذات الجاهدة فى تحقيق غايتها فى الوجود الموضوع المركزى لبحثه٠وفكرة الزمان الحى ، التى تختلف كل الاختلاف عن الزمان الرياضى ، تثير مشكلة الفاعلية فى الوجود وايجاد الجديد الذى لا يمكن التنبؤ به تماما

(*) « مجلة علم النفس » ، يونيو ١٩٤٥ ٠

كما أثبتته بطريقة قاطعة ، لا النظريات الفلسفية البحتة ، بل أحـــدث النظريات فى علم الطبيعة •

وبما ان المشكلة التى أثارتها جميع العلوم الطبيعية والتى يثيرها علم النفس فى كل خطوة من خطواته هى تعليل الجدة المطردة فى الكون وفى الذات الانسانية الفردية فيصبح من المحتم اعادة النظر فى المنطق الرياضى والبحث عن منطق جديد لا يدع لباب الوجود وما يمتاز به من خلق مطرد ينفذ خلال حلقات شبكته منطق يقوم على ما يقوم الوجود على الرغم من طفراته ويعترف بالتوتر الذى يشد آنات هذه الطفرات بعضها الى بعض •

والبحث عن هذا المنطق الجديد هو ما صنعه المؤلف بعـد استعراض مفصل دقيق لتطور فكرة الزمان فى الفلسفة والعلوم • فبعد أن بين عجز المنطق الرياضى الذى لا يخرج عن دائرة الامكان استبدل به منطق الوجدان وهو منطق التوتر لكى ننفذ بكليتنا الى صلب الواقع • وهنا قام المؤلف بمحاولة جريئة جمعت بين عمق الفيلسوف وذوق الفنان ، فقدم لنا لوحة لمقولات هذا المنطق الجديد الحى وقسمها الى قسمين مقولات العاطفة وهى الألم والحب والقلق ومقولات الارادة وهى الخطر والطفرة والتعالى ، كأنه يريد أن يشـــير الى هاتين النـــاحيتين الساعيتين نحو التكامل فى الذات الفردية ، ناحية التأثر والانفعال وناحية التأثير والفعل • ثم تتبع الحركة الديالكتيكية التوترية التى تدفع بالموجود نحو تحقيق غايته ليبين لنا كيف يتمخض الصراع القائم بين النقيضين عن خطوة جديدة فى خلق الجـديد وزيادة الوجود ثراء • وقد برع حقا فى محاولته تهيئة ذات القارىء لاختبار هذه الانات من الديمومة التى تكون نسيج الوجود ولتوجدها أقصد ادراكها بالوجدان • وقد استحق الدكتور عبد الرحمن بدوى عن جدارة ما لقبه به الدكتور طه حسين بك حينما قال ، فى أثناء مناقشة هذه الرسالة فى كلية الآداب لدرجة الماجستير : انه أول فيلسوف مصرى ويحق لمصر فعلا أن تفخر بفيلسوفها الشاب ••

هذا وقد قرأنا فى عدد مايو لاحدى المجلات الشهرية صفحة عن هذا الكتاب تعطينا صورة عجيبة عن النقد العلمى — فصاحبها — ومن أوحوا اليه بها — لم يشأ أو لم يستطع أن ينقد الكتاب وما فيه من مذهب وأفكار ، فراح يلفق أخبارا عن آراء اناس فيه لست أدرى كيف سولت له نفسه أن ينسب اليهم هذه المزاعم ، ثم حاول أن يدعى شيئا من العلم بالفلسفة فذهب يناقش « تصدير » الكتاب بعبارات هى أبلغ دليل على أن صاحبها بينه وبين الفلسفة وفهمها مراحل طويلة •

فقد زعم أول ما زعم أن أسلوب الكتاب كالرصاص الثقيل • وهذه شعور طبيعي بالنسبة الى من لم يشارك في الفلسفة بأى نصيب • واذا كان الكتاب يحتاج الى شدة تنبه وحشد للخاطر ، ومعرفة بآخر تطور للفلسفة ، فليس هذا مما يضير في شيء ، لأنه لم يقصد به الى العامة ومن اليهم ، انما هو عمل فلسفي رائع يحتاج في فهمه وتقديره الى جهد وملكة ، شأنه شأن أمثاله من الأعمال الفلسفية الانشائية التي تأتي بجديد في ميدان الفكر • لهذا فنحن نعد ذلك النعت الذي أضافه الكاتب الى أسلوب الكتاب واحدا من مفاخره •

ثم نسب الى الأستاذ المستشرق لويس ماسينيون رأيا في الكتاب عجبنا من الكاتب كل العجب أن يلجأ الى مثل هذه الأساليب في التضليل التي يجب أن تترفع عنها مجلة علمية محترمة • ولو علم الكاتب ما قاله فعلا الأستاذ ماسينيون لتمزق قلبه وقلوب جميع الحاسدين • فقد أشاد به اشادة كبرى نرجو أن يسجلها كتابة فلا يدع مجالا لمثل هذه المزاعم •

وأعجب ما في كلام ذلك الكاتب زعمه أن في الكتاب ثلاثين صفحة مأخوذة من كتاب « الوجود والزمان » لهيدجر Heidegger ، دون أن يشار اليها • ونحن نتحدى الكاتب أن يدلنا في هذا الكتاب على فقرة أو جملة واحدة أخذت من كتاب هيدجر هذا دون أن يشار اليها • ونعلم أن الكاتب لا يستطيع أن يقرأ كتاب هيدجر على الأقل لأنه باللغة الألمانية ، وهو لا يعرف منها حرفا واحدا هو ومن أوحوا اليه وأملوا عليه • والكتاب لم يترجم الى الفرنسية كمادعى الكاتب ، بل كل ما ترجم منه الى الفرنسية سبع وخمسون صفحة (صفحات من ٢٣٥ الى ٢٦٧ ومن ٣٧٢ الى ٣٩٧) — والكتاب في أربعمائة وثمان وثلاثين صفحة — ترجمها كوربان Corbin في المنتخبات التي انتخبها من مؤلفات هيدجر ونشرها بالفرنسية بعنوان « ما الميتافيزيقا » وقد أشار اليه الدكتور بدوى في رسالته • ولسوء حظ كاتب ذلك النقد — ومن أوحوا اليه به — ان هذه الصفحات الـ ٥٧ التي ترجمت الى الفرنسية لا تتصل اتصالا ظاهرا بموضوع كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ولهذا فان جميع المواضع التي اقتبسها وأشار اليها الدكتور بدوى في كتابه لم يكن منها واحد يدخل في هذه الصفحات التي ترجمت الى الفرنسية •

ألا ليت أحد الذين أوحوا الى هذا الكاتب ما كتب وأوقعوه في هذه الورطة أن يجرؤ على قبول ذلك التحدى !

أسس الصحة النفسية (*)

للدكتور عبد العزيز القوصي • مطبوعات معهد التربية للمعلمين

القاهرة ١٩٤٥ – الطبعة الثانية ١٩٤٦ ، ٥١١ ص .

يقدم لنا المؤلف في هذا السفر الضخم خلاصة البحوث والملاحظات التي قام بها منذ عشر سنوات في العيادة الطبية السيكولوجية الملحقة بمعهد التربية للمعلمين ، وفي مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة • وهذا ما يطبع الكتاب بطابع خاص ممتاز : طابع المجهود الشخصي الذي بذله عالم مصرى يستمد مواد كتابه من دراسته المتواصلة لجانب من جوانب البيئة المصرية • ولهذا يعتبر كتاب الدكتور القوصي بحق حدا يفصل بين عهدين في تاريخ الدراسات السيكولوجية التطبيقية في مصر : عهد كان المؤلفون في علم النفس يكتفون بنقل ما ورد في الكتب الأجنبية ، سواء فهموا ما ينقلون أم لم يفهموا ، وعهد تمصير علم النفس لا تعريبه فحسب وذلك بتدعيم النظريات وتوضيحها بتحليل الحالات التي يعرض لها الباحث المصرى في بيئته • ولا يسعنا الا أن نهنيء الدكتور القوصي بهذا الأثر العظيم – العظيم في قيمته العلمية كما أنه عظيم في فائدته التطبيقية – وأن نشكره على هذه التحفة الرائعة التي قدمها الى كل من يحرص على تقدم الدراسات السيكولوجية في مصر تقدما فعليا منتجا •

ويلخص لنا المؤلف في مقدمته مضمون الكتاب فيما يلى :

« وقد جمعت نتائج كل هذه الخبرة في هذا الكتاب الذى جاء مشتملا على ثلاثة أجزاء : يشمل الجزء الأول القواعد العامة للصحة النفسية ، وأغلبها قواعد نظرية مدعمة بالأمثلة العملية المشتقة من الحالات التي درسناها ، بما في ذلك أثر الناحية الصحية وأثر الوراثة ، كما يشمل نزعات الطفل الفطرية ، وتعدل هذه النزعات مما يؤدى الى تكوين خلقه وعواطفه •

(*) « مجلة علم النفس » ، يونيو ١٩٤٦ •

« أما الجزء الثانى فانه يشمل بيئة الطفل الاجتماعية ، وقد قسمنا هـذه الى جزءين : البيئة المنزلية بما فيهـا من والدين واخوة ، والبيئة المدرسية بما فيها من تلاميذ ومعلمين .

« والجزء الثالث يشمل بعض المشكلات التى تعرض للآباء والمعلمين والقائمين على تربية الأطفال ، وتدرجنا فى شرح كل هذا ، مبتدئين بالمشكلات الأولى من نوم وتغذية ، وبينا أسبابها وآثارها النفسية ، وأهميتها فى نشأة الفرد ، وتدرجنا الى مشكلات الطفولة المتأخرة ، ثم الى مشكلات المراهقة ، فعرضنا للمشكلات الجنسية ، ثم ختمنا الكتاب بفصل عن التربية الجنسية ، اكتفينا فيه بعرض عام لما يجب أن يعمل ، وببيان تفصيلى عما يعمل فى الخارج مما يمكن أن نسميه التربية الجنسية المقصودة . ولعل دراســة ما يعمل فى الخارج قد توحى بما يمكن عمله فى مصر » .

أما تفصيل المشـكلات فهو كالآتى : التغذية ، النوم ، التبــول اللاارادى ، الحركات العصــبية ؛ صعوبات النطق ، الخوف وضعف الثقة بالنفس ، الكذب ؛ السرقة ؛ الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب ، التخريب ، الغيرة ، التأخر الدراسى ، وأخيرا المشكلات الجنسية والتربية الجنسـية .

يكفى هذا السرد البسيط لأهم موضــوعات الكتاب لاعطاء فكرة اجمالية عن ثرائه وغزارة مادته . فضلا على أن الدكتــور القوصى تناول علاج المشكلات باعتداله الجميل وحكمته الهادئة وروحه الواقعية ، منتقيا من أهم النظريات السديدة فى العلاج النفسى ما يوافق كل حالة شاعرا من جهة بمدى تعقد الحالات النفسية ، وعالما من جهة أخرى ان كل نظرية فى علم النفس مهما بعد الشق بينها وبين النظريات الأخرى ليست سوى محاولة لسبر غور الحياة النفسية ووسيلة ناجحة لمعالجة بعض الحالات دون غيرها .

واذا أضفنا الى توفيق المؤلف فى عرض المشكلات ما أتحفنا به من عرض شائق فى الجزء الأول النظرى لموضوعات الوراثة والبيئة وصلة الجسم بالنفس والغرائز والعواطف وتكامل الشخصية لجدر بنا أن نعتقد (ان الكتاب بهذه الصورة يفيد طلاب علم النفس على اختلاف أنواعهم وطلاب معاهد المعلمين والمعلمات ، ويفيد الآباء وكل من له صلة قريبة أو بعيدة بتربية الأطفال ومعاملتهم والاشراف على أمورهم) .

ومما يزيد من فائدة هذا الكتاب ثبت المصطلحات الواردة فيه • وقد بذل الدكتور القوصي في اختيارها مجهودا كبيرا وفق فيه الى حد بعيــد • غير أننا نرى من واجبنا العلمي وخدمة للقراء أن نصحح بعض الأخطاء التي وقعت سهوا بلا شك • وأن ندلي ببعض ملاحظات عابرة عن مصطلح أو اثنين من المصطلحات التي تتصل معانيها بحقائق علمية هامة •

أما الأخطاء التي وقعت سهوا والتي لم تصحح في الطبعة الثانية التي ظهرت أخيرا فهي الآتية :

ما يســـميه المؤلف التناقض الوجـداني ليس ambivalency بل ambivalence وان كان يقال في علم الكيمياء valence أو valency غير أن الكلمة الواردة في كتب التحليل النفسي هي ambivalence فقط •

وقع خلط بين anabolism و catabolism فالأولى تفيد عملية البناء الحيوى لا الهدم في حين أن الثانية تفيد على العكس عملية الهدم الحيوى لا البنـــاء •

وترجم لفظ lalling بلثغة (قلب الراء لاما) في حين أن هذا اللفظ لا يفيد القلب بل تكرار الصوت أو اللفظ عينه كما هو مشاهد خاصة في الرضيع وفي حالات العته •

وتفيد urethral inflammation التهاب مجرى البول في الذكور والاناث معـــــا • أما vulvo-vaginitis فلا تفيد التهاب مجرى البول في الاناث ، بل التهاب الشفرين والمهبل •

وفي صفحة ٧٣ من الطبعة الثانية ترجم لفظ asthma بسعال بدلا من ربو • وفي ص ٨١ suggestion بالقابلية للاستهواء بدلا من ايحاء ايحـــاء أو استهواء • وفي ص ١٥٥ diffidence بعدم الاهتمام بدلا من عدم الثقة •

ونقترح في ص ٤٧ استعمال « مؤثرات » أو « تنبيهات » بدلا من « احساسات » لأن الاحساس عملية نفسية بحتة فلا يمكن أن تصـــــدر الاحساسات من الموقف • كما أنه يبدو لنا أن ما ورد في ص ١٢٧ عن عقـــدة النقص inferiority complex لا ينطبق على نظرية فرويد بل على نظرية أدلر وما قاله عن الشعور بالنقص • أما لدى فرويد فعقدة النقص لا تختلف عن عقدة الاخصاء castration complex ثم تحدث المؤلف عن عقدة الأب وعقدة الأم ، ثم ذكر عقدة أديبوس وعقدة الكترا كأنهما مختلفتان

عن السابقتين ، مع العلم أن لا فرق بين عقدة أديبوس وعقدة الأم وبين عقدة الكترا وعقدة الأب ٠

وقـد ميز الدكتـور القـوصي بين neurosis و psycho-neurosis بان ترجم اللفظ الأول بمرض عصبي ، والثاني بعصاب نفسي ٠ والفرق بينهما في اللغة الانجليزية طفيف جدا اذ أنهما يشيران الى أمراض نفسية ناشئة عن صراع نفسي لا عن اصابة عضوية في الجهاز العصبي ، في حين أن الفرق عظيم بين مرض عصبي وعصاب نفسي فالأول ينتج عن اصابة عضوية في المراكز العصبية وهو من اختصاص طبيب الأمراض العصبية ، أما العصاب فهو من اختصاص طبيب الأمراض العقلية أو المحلل النفسي ٠

ولا ندري ما دفع الدكتـــور القوصي الى ترجمة neurosis بمرض عصبي ، بدلا من عصاب أو من مرض نفسي ، خاصة أنه صرح في هامش ثبت المصطلحات « أن من الخير أن يترجم المصطلح بحسب معناه لا بحسب تركيبه اللفظي الحرفي » ٠

وأدت ترجمة neurosis بمرض عصبي الى الخلط في عـدة مواضع في الـكتاب بين nourosis و nervousness عند تحدث المؤلف عن الحالات التي درسها (من ص ١٩٤ الى ٢٠٩) ٠

ويبدو جليا عدم توفيق المؤلف في ترجمة neurosis عنـــدما نقرأ في ص ١٢٥ وما بعدها ما كتبه عن احدى الحالات الأولى التي عالجها فرويد مع زميله بروبار : حالة الفتاة التي أصيبت بشلل ونسيت لغتها الأصلية وأصبحت تتقزز من شرب الماء ٠ فقد عرض الدكتور القوصي هذه الحالة عرضا جميلا ممتعا ، غير أننا نعتقد أنه شوه هذا العرض عندما اختتمه بقوله : « ٠٠٠ أصيبت الفتاة بمرض عصبي من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء راجع الى عامل نفسي ، هو الكبت ، لا الى شلل في عضلات الفم والبلعوم اذ أن الفتاة كانت تروى عطشها بأكل الفواكه وبلع عصارتها ٠

ويزداد ضيق القارىء بقراءة « مرض عصبي » في هذا الموضع بالذات عندما يذكر أن فرويد نفسه صرح بعد أن زاول التحليل النفسي بقليل أنه لم يبـدأ يفقه شيئا في الأمراض النفســية الا يوم نسي كل ما تعلمه عن الأمراض العصبية ٠

ربما يوجد هناك ما يبرر في نظر الدكتور القوصي ترجمة neurosis بمرض عصبي ، وهو أن هذه الترجمة أقرب الى فهم عامة الجمهور من مرض نفسي أو عصـــاب ٠ ولكن الواقع أن الجمهور قلما يذعن لقرار أخصـــائي

الأمراض العصبية عندما يشخص الشلل فى أحد المرضى كأنه شلل تشريحى لا وظيفى ، فلا يزال يعتقد أن الحالة حالة نفسية فيلجأ الى المنوم المغناطيسى أو الى محضر الأرواح راجيا الشفاء للمريض عن طريق الوسائل النفسية . هذا لا يمنع أن كثيرا ما يختلط فى ذهن الجمهور مدلولا عصبى ونفسى ، وفى هـذا ـ كمـا سبق أن قلنـا ـ ما يبرر ترجمة neurosis بمرض عصبى ، أو ترجمة nervous disease بمرض نفسى .

ومهما يكن من أمـر ، فاننا نعتقد أن هذه الأخطاء الصغيرة لا تقلل مطلقا من قيمة هذا الكتاب النفيس ، فهى تتلاشى تماما اذا نظرنا الى المجهود العظيم الذى بذله الدكتور القوصى فى كتابه أسس الصحة النفسية .

من الفعل الى الفكر (*)

بحث في علم النفس المقارن · تأليف هنرى فالون
باريس ١٩٤٢ ، ٢٥١ صفحة

لعلم النفس العام ركنان متينان يعتمد عليهما ليجدد مادته وليزداد تعمقا ودقة في دراسة الوظائف النفسية : علم نفس الطفل من جهة ، وعلم النفس المرضى من جهة أخرى · فالأول يسمح بترقب بزوغ الوظائف النفسية وتتبع نشأتها وتطورها بحيث يشاهد العالم عمليات التأليف والتكامل فى أثناء سيرها الحى · أما الثانى فانه يمكن من تحليل الوظائف خلال انحلالها البطىء أو فى أثناء تفككها السريع · وللدكتور هنرى فالون، أستاذ علم نفس الطفل فى الكوليج دى فرانس ، كتابان حديثان يتناولان جانبا هاما من حياة الطفل العقلية وهو جانب نشأة العقل ونمو القدرة على التفكير والاستدلال ·

ويتناول الكتاب الأول (١) المراحل المؤدية من الفعل الى الفكر أو بعبارة أخرى من الذكاء العملى الى الذكاء التأملى · ويقصد بالذكاء العملى القدرة على التكيف أو على حل مشكلة عملية بدون استخدام التفكير أو التصورات الذهنية ، بل بالاعتماد فقط على ادراك الموقف وفهمه فهما عمليا ، اما مباشرة أو بعد محاولات تؤدى الى تنظيم الموقف فى الادراك تنظيما جديدا · ويطلق فالون على هذا الضرب من الذكاء اسم «الذكاء المكانى» قاصدا بهذه التسمية أن الشخص بدوافعه ورغباته يكون مع المجال الادراكى كلا واحدا ، وفى هذه الحالة يكون السلوك ،الذى يرمى فى العادة الى ارضاء رغبة عاجلة ، مقيدا بالظروف الراهنة ·

ويكون ذكاء الحيوان ذكاء عمليا بحتا وكذلك الطفل قبل أن تقوى لديه ملكة التصور الذهنى والتفكير وقبل أن يتعلم استخدام رموز اللغة.

(*) «مجلة علم النفس» ، يونيو ١٩٤٦ ·

(١) الكتاب الثانى هو « نشأة الفكر فى الطفل » وسيرد ذكره فى هذا الباب ص ١٧٨·

أما الذكاء التأملي فهو الذى يعتمد فى خطواته على استخدام التصورات الذهنية والرموز اللغوية .

وينقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام . فالقسم الأول يعرف لأصلح منهج لدراسة الذكاء العملي في الحيوانات والأطفال وهو بدون شك المنهج الموضوعى . غير أن الدكتور فالون يتجنب الأخطاء التى وقعت فيها المدرسة السلوكية فلايفسر السلوك بارجاعه الى عوامل فسيولوجية بل يعتبر أن الظاهرة السيكولوجية يجب أن تفسر بمدلولات سيكولوجية . وهو يقرر وجود مراتب تصاعدية تنتظم الظواهر الطبيعية المختلفة ، كما يقرر أن كل مرتبة لايمكن استقصاء تفسيرها الا فى ضوء المرتبة التى تكون اعلى منها . وعلى ذلك يقول بان مظاهر الذكاء فى الحيوانات العليا تنطوى على مايشير الى ماسيكون عليه ذكاء الطفل والانسان ، وفى الوقت نفسه يعتبر أن ذكاء الانسان يختلف اختلافا جوهريا عن ذكاء الحيوان فلا يمكن ارجاعه اليه ، كما أن المجتمع لايكفى أيضا لتفسير خصائص العقل الانسانى . ويمكن تلخيص موقف الدكتور فالون فى تفسير الظواهر السيكولوجية بالقول بأن التطور الذى يصل بين الفعل والفكر يجب أن يفسر فى نفس الآن بوساطة «المقابل» و «المثل» أى بما يشبه الظاهرة وبما يقابلها فى الآن نفسه .

ويوضح لنا الدكتور فالون نظريته فى القسم الثانى والثالث من كتابه حيث يعرض الى المقدمات الحسية والحركية للفكر والى أصول الفكر الأولية . ففى القسم الثانى يتحدث عن المراحل الأولى التى ستبزغ خلالها قدرة الطفل على التصور الذهنى ، كما يحدثنا عن أثر المحاكاة فى بزوغ هذه القدرة ، وبما أن المظاهر الاجتماعية تفيد فى فهم طبيعة العقل ، كما تفيد معرفة طبيعة العقل فى تفسير المظاهر الاجتماعية ، يعرض المؤلف لأوجه الشبه الموجودة بين الطقوس والعادات الاجتماعية ــ وهى الى حد ما بمثابة تفكير جمعى ــ وبين التصورات الذهنية الصادرة عن نشاط العقل الفردى .

فأما القسم الثالث فانه يوضح العلاقة الموجودة بين المدلول به والمدلول اى بين الأثر أو الأمارة أو العلامة أو الرمز أو الكلمة وبين معنى كل منها . ثم بعد التحدث عن التفكير «الاجمالى» السابق على التحليل ، كما هى الحال فى تفكير الطفل ، يختتم كتابه بتفصيل القول فى شروط الفكر الأولية .

قد يبدو لقارىء الكتاب أن الدكتور فالون ــ وهو دكتور فى الآداب

ودكتور فى الطب ــ فيلسوف أكثر منه عالم . الواقع أن الدكتور فالون عــالم ، بكل معنى الكلمة ، أى انه يعتقــد ــ كما يجب أن نعتقد ــ أن التفسير العلمى لايتم ولايكمل الا اذا ارتقى الى مســتوى النظــرية التى تفسر أكبر عدد ممكن من الوقائع باقل عدد ممكن من القضايا والقوانين . واذا شاء بعضهم أن يعتبر النظرية العلمية ضربا من التفكير الفلســفى «النظرى» فليس فى هذا مايعيب العلم وخادمه ، اذ أن من طبيعة العلم أن تنصب روافده فى جدول الفلسفة التى ترمى الى توحيد المعرفة عمقــا ومدى . واذا كان يحق لأمثال آينشتين وجينس وادنجتون من علمــاء الطبيعة أن «يفلسفوا» علمهم ، أليس علماء النفس أحق من غيرهم بأن يفلسفوا علمهم الذى يتناول دراســة العقل ، أى الأداة التى تمكننا من معرفة الطبيعة ومن معرفة أنفسنا ؟

مصير الذكاء (*)

تاليف رينيه زازو ـ باريس ١٩٤٦ ـ ١٦٠ صفحة

من العلوم الحديثة التى تمخضت عنها الحركة العلمية فى علم النفس منــذ نصف قرن ، علم الأقيســة الســيكولوجية psychométrie الذى اتخذ فى مرحلته الأخيرة الرياضيات كوسيلة لتحليل الوظـائف العقلية • وكان هذا الاتجاه الجديد يعتبر ـ ولايزال يعتبر فى نظر بعضهم ـ ضربا من الصــناعة التى تشـوه الواقع النفسى وتحطمــه • وكانت المعارضة قوية فى صف علماء النفس الميتافيزيقيين الذين يعتبرون طبيعة النفسيات منافية لكل تقدير كمى . والواقع أن الوســائل الاحصـائية طبقت بنجاح فى دراسة الوظائف العقلية أو بعبارة أدق عوامل العقل . غير ان الاتفاق لم يتم بعد بين علماء هذا العلم الحديث ولايقتصر الخلاف على الوسائل الرياضية التى يجب تطبيقها فى تحليل عوامل العقــل . بل يتناول أيضا طبيعة العقل بوجه عام وطبيعة الذكاء بوجه خاص • فلابد من حين الى آخر القاء نظرة شاملة على النظريات المختلفة ، والتحرر من قيود التخصص الضيق للكشف عن الاتجاه الرئيسى الذى قد يؤدى الى توحيد النتائج الجزئية فى نظام تاليفى جديد . وهــذا ماحاول تحقيقه رينيــه زازو فى كتــابه (مصير الذكاء) والمؤلف ممن جمعوا بين الثقافة الفلسفية والثقافة العلمية كما أنه زاول تطبيق اختبارات الذكاء فى أمريكا وفرنسا .

وينقسم الكتاب الى قســمين : الاول فى نشوء الذكاء والثــانى فى قياسه .

والمنهج الوحيد المجدى لحل المشكلة الاولى هــو المنهج التكوينى المقارن . ولذلك نرى المؤلف يناقش مختلف النظريات التى قيلت فى تطور الذكاء من الحيوان الى الطفل ، ومن الطفل الى البالغ ومن الرجل البدائى الى المتحضر . ويلاحظ فى القسم الاول أن مدلول الذكاء لايختلف كثيرا

(*) «مجلة علم النفس» ، يونيو ١٩٤٦ .

عن مدلول العقل . فعندما يتحدث عن بحوث علماء نفس الحيوان والطفل يكون لفظ Intelligence أقرب الى معنى الذكاء منه الى معنى العقل وعندما يتحدث عن علماء الاجتماع تقترب دلالة اللفظ من معنى العقل كما يفهمه الفلاسفة والنتيجة النهائية التى يصل اليها المؤلف هى أن الذكاء الانسانى لا يخرج من الذكاء الحيوانى كامتداد له بل هناك فروق جوهرية بينهما وان مايميز الذكاء الانسانى القدرة على استخدام الرموز والمعانى وتكوينها وخلقها ، والتحرر من قيود الحاضر ومن قيود المكان المادى المحدود . وكذلك لايمكن ارجاع العقل الانسانى ومبادئه الى النظام الاجتماعى . وقد اثبت المؤلف فى كتابه بعض نصوص العالم الاجتماعى دوركهيم تدل على أن دوركهيم كان يسلم بأن التصورات الفردية سابقة على التصورات الاجتماعية . فلا العامل البيولوجى الحيوانى ولا العامل الاجتماعى كاف كل منهما لتفسير العقل فلابد اذن من مواجهة هذه الحقيقة السيكولوجية وهى العقل واعتبارها متميزة عن شروطها البيولوجية والاجتماعية ودراستها دراسة علمية تجريبية باستقصاء جميع شروطها وعواملها منها الذاتية الخاصة بها ومنها المعاونة لها كالشروط البيولوجية والاجتماعية . أما ارجاع العقل الانسانى الى ماهو أدنى منه وأبسط كالعقل الحيوانى ، أو الى مايعتبره بعضهم أعلى منه وأسبق كالعقل الجمعى فهو حل عن طريق التبسيط ، فى حين أنه من واجب العالم ألا يجهل الفوارق فى سبيل ابراز أوجه الشبه فحسب .

أما القسم الثانى من الكتاب فيتناول موضوعا هاما لايزال مثارا لمناقشات علماء النفس ، هو موضوع قياس الذكاء . ويميز المؤلف ثلاث نواحى للذكاء وهى المستوى والقدرة والأسلوب . وتبدو الاختبارات المستعملة لقياس الذكاء كوسيلة ناجحة لدراسة الذكاء من الوجهة التجريبية ــ تحديد المستوى والقدرة ــ ومن الوجهة الاكلينيكية أى تحديد الأسلوب فلا يكفى لتقدير الذكاء اعتبار نتائج الاختبار دون الوقوف على شخصية المختبر ومحاولة فهمها كنظام ديناميكى تتفاعل داخله مختلف المقومات ومنها الذكاء . ولذلك لايمكن اعتبار الذكاء أمرا ثابتا أو وظيفة واحدة غير قابلة للتطور ، بل هو ضرب من السلوك بأكمله وهذا ماأبرزته بحوث سبيرمان وهولزنجر فى تحليل عوامل الذكاء تحليلا رياضيا .

ويلاحظ المؤلف أن تطور المناهج فى قياس الذكاء ساير تطور الذكاء فى الفرد ، فاذا كان من السهل قياس ذكاء الطفل الصغير بواسطة اختبار

واحد فهذا يرجع الى أن للعامل العام أثرا أقوى وأوضح من أثر العوامل الخاصة . ومع تقدم السن يفقد العامل العام شيئا من اهميته وتأخذ القدرات الخاصة فى الظهور ، أى أن الذكاء يأخذ فى التنوع والتمايز وأن نموه ينطوى على فوارق كيفية لا فوارق كمية فحسب . ويجب التفريق بين استقلال الوظائف العقلية النسبى كما يظهر فى الطفل الصغير أو فى ضعيف العقل وبين تخصص الوظائف . فالاستقلال النسبى يرجع الى نقص فى التكامل . أما التخصص فهو على العكس تنظيم وتكامل . ففى كل ضرب من ضروب نشاطه المختلفة وسلوكه الواقعى ، يعمل الانسان بكل وسائله وبكل قدراته ، بحيث لو وقع نقص فى ناحية ما ، عوض هذا النقص قبل ظهور آثاره . وترجع مرونة الذكاء الى عمليات التعويض ، وهذا مايميز البالغ عن الطفل والسوى عن ضعيف العقل .

وميزة الكتاب الرئيسية أنه يحمل على التفكير والتأمل ومراجعة بعض الآراء العلمية القاطعة لتقريبها من تعقد الواقع وثرائه .

الزواج التعس والطلاق (*)

تأليف الدكتور أدمند برجلر ، ١٦٧ صفحة ، ١٩٤٦

الدكتور برجلر طبيب مشهور ومحلل نفسي من المبرزين في هذا الميدان • وقد وقف سنوات طويلة على دراسة الدوافع اللاشعورية لاختيار الزوج ، كما أنه عنى بأسباب الفشل والخيبة في الزواج ، مما يؤدي الى تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال ، تشريدا معنويا وخلقيا على أقل تقدير • ومن بين بحوثه الحديثة الممتعة ما نشره في عدد أكتوبر سنة ١٩٤٥ للمجلة الامريكية للعلوم الطبية عن نوع التوافق الذى يتم بين أسلوبين من السلوك العصابى ، مما يدفع العصابى الى اختيار زوج عصابى مثله • ويبدو للدكتور برجلر أن الحياة الواقعية أشبه بكتاب في الأمراض النفسية : فالشخصان العصابيان يفتقدان بعضهما بعضا ، ويبحث الرجل العصابى عن المرأة العصابية التى تكمله • وتكون الصلة التى تربط بين الزوجين العصابيين قوية وثيقة على الرغم من الشجار والصراخ والشكاوى والدموع •• اذ يجد كل منهما المجال فسيحا لخلع دوافعه اللاشعورية على الآخر ، كما يجد الفرصة لانزال العقاب على نفسه من حيث لا يشعر ، ارضاء لشعوره بالاثم •

ذلك هو أسلوب المؤلف في تحليل العوامل الخفية التى تسير الانسان في اختياراته وميوله وتصرفاته . وفى هذا الكتاب الجديد يطبق هذا الأسلوب في الكشف عن أسباب الشقاء بين الزوجين • وليست الأسباب الحقيقية تلك التى يتذرع بها أحد الزوجين لطلب الطلاق ، كالسكر وسوق الأخلاق والخيانة وعدم التوافق الجنسى وما اليه ، بل أن جذور الخلاف تمتد الى أعمق من ذلك ، تمتد الى طفولة كل من الزوجين ، الى أساليب السلوك المنحرف العصابى التى تكونت في الطفل من حيث لايشعر •

(*) «مجلة علم النفس» ، يوليو ١٩٤٦ •

وهذه الاسـاليب المنحـرفة هى التى ادت الى اختيار الزوج . ويترتب على هذا الاختيار هذا الموكب التمس من المتاعب والشكاوى التى تكاد تصاحب كل لحظة من لحظات الحياة الزوجية . فيعرض المؤلف بكل لباقة الى تحليل الخيانة والغيرة والقسـوة وضروب الزواج التى تبعثها المنفعة المادية او الطموح الشخصى او العنـاد أحيانا أو شـتى المبررات .

ويتنـاول المؤلف أنواع الصراع الجنسى الذى ينشأ بين الزوجين ، محللا أسباب العنة وفتور الميل الجنسى وشتى الانحرافات الجنسية التى تقوم حائلا بين سعادة الزوجين ، مبينا كيف أن هذه الانحرافات تعبر عن أسلوب الشخص المريض فى معالجة امور حياته الخاصة والعامة .

ويرى الدكتور برجلر ان الطلاق لا يعتبر حلا للشقاء الزوجى ؛ اذ أن المطلق سيظل أسير أسلوبه المعوج وضحية عقدة اللاشعورية التى ما زالت قائمة ، هذا فضـلا عما يصيب الأطفال من صدمات نفسـية عميقة من جراء حرمانهم من عطف الأم او من رعاية الأب .

ويخلص المؤلف من بحثـه الى أن الزواج السـعيد يقـوم على اسـاسين اثنين لا غير : حب رومانتيكى ، أى حب لا تشـوبه شـائبة الاعتبارات المادية البحتة ، ثم علاقات جنسية سليمة تؤدى الى ارضاء كل من الزوجين بتحقيق الانسجام الجسمى والروحى معا . فالشخص العصابى عاجز عن أن يسـتشعر الحنـان والحب وعن ان يفهم معنى التعاون والتضحية المتبادلة . وان من أقوى أسـباب الشـقاء الذى تعانيه الانسانية المتحضرة زوال هذا الحب الشعرى الذى يعلو بالنفس البشرية على أجنحة الخيال والمثل العليا .

كمـا يقرر المؤلف فى خاتمة كتـابه أن الزواج وبالتالى تأسيس الأسرة على أواصر متينة دائمة من الحب والتفاهم لا يزال الركن المتين لاقامة المجتمع وتحقيق سعادة أفراده .

علم النفس وتطبيقه على التربية (*)

تأليف الأستاذ فاخر عاقل

٢٢١ صفحة . مكتبة العلوم والآداب بدمشق ، ١٩٤٥

يحتـــوى هذا الكتاب على برنامج علم النفس لطلاب المـــدارس التجهيزية ودور المعلمين فى سوريا ، وهو مجهود كبير جدير بكل ثنـــاء اذ وفق المؤلف فى كثير من فصوله الخمسة والعشرين الى عرض مسائل علم النفس بوضوح وعمق ، دون اغفال التفاصيل العلمية الحديثة مما يدل على سعة اطلاعه . ومما هو جـــدير بالذكر عنـــاية الأستاذ عاقل بتفصيل القول فى الوظائف العقلية العليا ، كما وقف ستة فصول من كتابه على دراسة الانفعـــالات ، فبعد أن عرض لمشـــكلة الانفعـــال ، أو الهيجـــان حسب تعبير المؤلف ، عرضا عاما تنـــاول بالتفصيل فى ثلاثة فصول متتالية انفعال الغضب ثم الخوف ثم الخجـــل . ولم يفته أن يشير الى الناحية العملية فى توجيه الانفعالات وعلاج مظاهرها المنحرفة أو العنيفة .

غير انه يبدو لنا أن بعض الموضوعات الهامة فى علم النفس التربوى لم يوفهـــا المؤلف حقهـــا من التفصيل أو الايضـــاح كموضـــوع الذكاء وموضـــــوع التعلم . ففيما يختص بالتعلم مثلا يكتفى صاحب الكتاب بعرض قوانين ثورنديك فى التعلم ودون الاشارة الى ما وجهته اليها من نقد مدرسة الجشطالت ، ودون أن يفطن الى أن ثورنديك نفسه أدخل على نظريته الأولى كثيرا من التعديل .

وبعد نريد أن نشير الى توفيق المؤلف فى ابراز عنـــاوين الفقرات والمواضيع الهامة باستخدام خط الرقعة مما يساعد الطالب على الوقوف على أهم النقط ومراجعتها بسهولة .

(*) «مجلة علم النفس» ، يونيو ١٩٤٧ .

مشكلة السلوك السيكوباتى (*)

بحث فى علم النفس الطبى الاجتماعى

تأليف الدكتور صبرى جرجس بكالوريوس فى الطب وماجستير فى الآداب وطبيب بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية • منشورات جماعة علم النفس التكامل
الناشر : دار المعارف بمصر ١٩٤٦ — (٣٠٩ ص)

الانتباه الارادى

بحث فى علم النفس التجريبى

تأليف الأستاذ أبو مدين الشافعى ، ماجستير فى الآداب •
الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز مصر ١٩٤٦ — (١٩٢ ص)

اذا كان الأديب والشاعر والفنان يتوقون الى طلب العزلة والانطواء على انفسهم فى برجهم العاجى ليستنزلوا الوحى من عالم الكشف والغيب .. فالعالم ، على العكس ، بحكم الموضوع الذى يدرسه وبحكم المنهج الذى يقتضى هذا الموضوع تطبيقه ، مضطر الى أن ينضم الى قافلة العلماء ، مقتفيا آثار الذين سبقوه فى مضمار البحث والتجريب ، متآزرا مع رفاقه الذين يعملون جاهدين فى استجواب الطبيعة للكشف عن أسرارها ..

والتأمل البسيط فى موضوعات هذين الكتابين كفيل بأن يبين لنا اننا بازاء بحوث علمية خالصة ترمى الى تجلية مسائل هامة فى علم النفس لا تزال بعض جوانبها غامضة معلقة . فلدينا من جهة بحث اكلينيكى قائم على دراسة حالات مرضية عرضت للدكتور صبرى جرجس فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية ، ومن جهة أخرى بحث تجريبى يعتمد على التجارب التى أجراها الأستاذ أبو مدين الشافعى فى معمل علم النفس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . وكل من هذين البحثين

(*) «مجلة علم النفس» ، اكتوبر ١٩٤٦ .

يتناول موضوعا خاصا محدودا لا يمكن ان يعالج بواسطة قضايا عامة وتأملات ذاتية تثيرها فقرة قرئت هنا أو هناك ، وتبعثها تجارب جزئية عرضية يذهب صاحبها فى تأويلها شتى المذاهب حسب مزاجه وجريا وراء اغراض ذاتية يريد تحقيقها بأى شكل كان .

ومطالع هذين الكتابين لا يلبث طويلا حتى يقف على قدر المجهود الذى بذل فى استقصاء المراجع وتحليل الآراء ونقدها ومقابلتها بالنتائج التى أسفرت عنها الملاحظات والتجارب التى قام بهما كل من المؤلفين للسير بموضوعهما خطوة الى الامام ، دون الادعاء بأنهما وجد حلولا نهائية حاسمة لجميع المشكلات صغيرها وكبيرها . فليس علم النفس شبيها بالعلوم الرياضية التى لا تنتقل من مسألة الى غيرها الا بعد حل المسألة الاولى . بل هو اشبه بكائن حى يتطور من الأنظمة البسيطة الى الأنظمة المركبة مع ازدياد مطرد فى توضيح مقوماتها وتمايز وحداتها البنائية . ويمكن القول بكل اطمئنان أن قيمة البحث العلمى ليست فى حل المشكلات فحسب ، بل فى اثارة مشكلات جديدة وتوسيع آفاق البحث والتفكير .

يتناول الكتاب الأول وهو كتاب مشكلة السلوك السيكوباتى مشكلة عويصة من مشكلات الطب العقلى وعلم النفس المرضى (١) عويصة فى تشخيص السيكوباتية وفى تعليلها من الوجهة السيكولوجية وأخيرا فى علاجها ، ولا تزال هذه المشكلة مثار بحث وجدل بين المتخصصين يختلف بعضهم فى تسميتها وتشخيصها وغيرهم فى تفسيرها وتعليلها ولكنهم متفقون جميعا فى انهم بصدد مرض لا يجدى فيه العلاج ولهذا السبب رأى الدكتور صبرى جرجس تركيز اهتمامه فى تشخيص السلوك السيكوباتى وتعليله والالحاح على اهمية التوجيه والوقاية دون العلاج .

بدأ المؤلف نشاطه فى ميدان علم النفس وبما له من صلة وثيقة بعلم النفس الاجتماعى منذ عام ١٩٣٤ عندما شرع فى نشر الترجمة العربية لكتاب الدكتور أوجست فوريل فى « المسألة الجنسية » وهو « بحث علمى نفسى صحى اجتماعى » والترجمة فى مجلدين كبيرين مجموع صفحاتهما ٥٣١ . وقد ظهر المجلد الثانى عام ١٩٣٦ كما انه نشر سنة ١٩٤٠ الترجمة العربية لكتاب مبادىء التحليل النفسى تأليف بوسفيلد .

---

(١) راجع فى باب التعريفات فى هذا العدد من المجلة الفرق بين الطب العقلى وعلم النفس المرضى .

وفى أثناء عمله فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية استرعى انتباهه بعض المحولين على المستشفى لشذوذ سلوكهم الاجتماعى على الرغم مما يبدو عليهم من علامات السواء والاتزان فى بعض الأحيان ، مما يحمل بعض الأطباء على اعتبارهم من ضحايا سوء التربية واخراجهم من نطاق المرض العقلى . وحتى فى الحالات الواضحة الشذوذ والانحراف قد يختلط الأمر على المشخص اذ قد تظهر بعض سمات السلوك السيكوباتى فى حالات مرضية لا ينطبق عليها « القالب » السيكوباتى الأصيل . وقد درس الدكتور صبرى جرجس فى ١٤٠ صفحة من كتابه خمس عشرة حالة لمرضى يشتركون فى بعض السمات السيكوباتية ، وبعد دراسة مستفيضة استغرقت ثلاث سنوات فى تتبع سلوك هؤلاء المرضى وصل الى تميز أربع فئات : ١ — ثمانى حالات سيكوباتية أصيلة ٢ — ثلاث حالات يغلب عليها الطابع العصابى . ٣ — حالتان يغلب عليهما طابع ذهانى خاص (فصام — هوس) (١) . ٤ — حالتان تتميزان خاصة بضيق النطاق الذهنى وبالانحطاط العقلى وما يترتب عليهما من جهل وحماقة ، أما « القالب » السيكوباتى الأصيل كما يظهر فى حالات الفئة الأولى فهو « القالب الذى يتميز بنشاط اندفاعى لا اجتماعى أو مضاد للمجتمع ، مستمر ومتكرر لكسب وهمى غير محسوس ، ليس فيهم من يقدر الجميل أو يكترث للعطف ، وليس فيهم من يعرف شعور التبعة ازاء الغير ، كلهم على تفاخر طفلى وتعاظم فج فى الذات أو غرور سطحى يضل بهم عن الاستبصار وصواب الحكم ، لا ينضجون من التجربة ولا يرتدعون من العقاب ولا يثبتون على هدف ولا يصلون الى قدر ما من التكيف مع المجتمع ، ولا يعرفون الندم ولا يحسون العار ولا يختبرون شعور الخطيئة » .. مما يجعل شعار السيكوباتى فى معاملته للآخرين « أن يأخذ كل ما يستطيع من أى انسان يستطيع ، وبأية وسيلة يستطيع » . (ص ١٤٧ و ١٤٨) .

واذا كان الدكتور صبرى جرجس ميز بين السيكوباتى والعصابى والفصامى والمهووس والضعيف العقلى — وذلك استنادا الى خبرته الواسعة ودراسته لمئات الحالات المرضية المختلفة — فهذا يعنى أن السيكوباتية لا تدخل فى نطاق العصاب كما أنها تختلف عن جميع أنواع الذهان المعروفة وحالات النقص العقلى ، وبما أنها ليست حالة سوية ،

---

(١) ورد فى باب التعريفات فى هذا العدد ذكر أهم المصطلحات الخاصة بأمراض العصاب والذهان .

وبما أن المريض فاقد الاستبصار لا يدرك حالتــه ، فلابد من أن تكون السيكوباتية ذهانا خاصــا من المشــخصات ما يميز من أنواع الذهان الاخرى . ويترتب على ذلك انه لا يمكن بحال من الأحوال اســتخدام التحليل النفسى فى علاج هذا المرض لأن الشروط اللازمة لا لنجاح هذا العلاج بل لمجرد الشروع فيه غير متوفرة أصلا . وقد أشار المؤلف الى هذا بالحاح وتأكيد على الرغم من أنه من أوليات التحليل النفسى .

ويعتبر الفصل الثانى من هذا الكتاب فى المظاهر الاكلينيكية للسلوك السيكوباتى من ص ٢٧ الى ١٦٧ نموذجا لدراسة الحالات ينم عن سعة الاطلاع وفهم عميق لجميع نواحى الموضوع الدقيقة كما انه يمثــل لنا أرقى منهج فى النقد العلمى الصحيح للآراء والنظريات المختلفة .

ولا يقل الفصل الثالث فى تعليل السلوك السيكوباتى عن الفصل الثــانى من حيث دقة العرض وترتيبــه فضــــلا على غزارة مادته . فقد تنــاول فيه من ص ١٦٨ الى ٢٤٨ تعليل الســلوك السيكوباتى فعرض ــ وفقــا للمنهج التكاملى المتبع فى هذا الكتاب ــ لجميع العوامل التعليلية من بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية . فكتب أبوابا وافية فى الوراثة والجبلة (العوامل الفسيولوجية المختلفة) وتكوين الاستجابات ومراحل الترقى الانفعــــالى الاجتماعى فى الطفل ثم الســمات السيكوباتية المميزة مشيرا فى كل ذلك الى احدث الآراء العلمية ثم معقبا عليها برأيه الخاص وبما يراه فى تعليل السيكوباتية فى ضوء المنهج التكاملى . فاســتعرض ما يصاب به من اضطراب كل من العوامل التكامل الثــلاثة : الجهــاز العصبى وهو عامل التكامل الفسيولوجى والذاكرة وهى عامل التكامل السيكولوجى واللغــة وهى عامل التــكامل الاجتمــاعى . والناحيــة الفسيولوجية لا تزال غامضة وقد اشار المؤلف الى اســتخدام الرسم الكهربائى للمخ لتجلية هذه الناحية . أما فى الذاكرة واللغة فالاختلال عميــق ولــكنه لا يظهر لأول وهــلة فالسيكوباتى لا يشكوا من ضــعف الذاكرة ولا من فقدان الذكريات كما انه يستخدم اللغة استخداما سليما ولكن الاختلال موجود فى لب وظيفتى التذكر واللغة وهو يتمثل :

أولا : فى عجز الســيكوباتى عن الشــعور بالديمومة وعن تمثــل الزمان كخبرة حية ، فكل ما لديه مجرد آليات وحالات نفسية سطحية متقطعة : (السيكوباتى لا يعرف من الزمن الا الحــاضر انه لا يتمثــل الماضى خبرة كانت ولا يسقط على المستقبل خبرة ســوف تكون . ان الحاضر عنده هو اللحظة التى يعيش فيها وحسب ، مقطوع الصلة بما

كان معدوم الارتباط بما سوف يكون انه اللحظة الراهنة لا يعرف سواها ولا يختبر غيرها ، وانها بعد لخبرة سطحية وقتية فجة لا تمتد معه الى حين ولا تنفذ فيه الى غور ، ولا تدنيه اتصالا بعالم الحقيقة الموضوعية (ص ٢٤٥ – ٢٤٦) ».

ثانيا : عجز السيكوباتي عن تمثيل معنى الألفاظ تمثيلا حيا صادقا ، وعجزه عن أن ينفعل لما يتفوه به من ألفاظ انفعالا عميقا يربط بين الماضي والحاضر وفي هذا يقول المؤلف : « وليس مما يدخل في نطاق السيكوباتي أن يعرف الصدق فهو يكذب دائما ولكنه اذ يكذب لا يفعل لأنه يريد الكذب ويهدف اليه ، ولكن لأنه لا يستطيع أن يختبر معنى الحقيقة في نفسه فضلا على اختبارها في الغير .. ولا تجيء الحقيقة على لسانه الا عرضا واتفاقا لأن اللغة عنده قلما تجاوز مجموعة الألفاظ التي يرددها دون أن ترتبط أو يرتبط هو بمدلولها (ص ٢٤٧) » .

وكما ان الدكتور صبري جرجس يقدم لنا تعليله الخاص كما استخلصه في ضوء المنهج التكاملي يقدم لنا أيضا ما يقترحه من تعريف وتصنيف . ويأتي التعريف في صفحة ٢٥٩ وفي كتاب علمي مثل كتاب الدكتور صبري جرجس لابد أن يأتي التعريف في العلوم الطبيعية بعد الفراغ من البحث ومناقشة الموضوع . فعلم النفس علم استقرائي المنهج لا رياضي المنهج حيث تأتي التعريفات في بدء العرض ، ثم ليس هذا الكتاب كتابا مدرسيا ، بل يريد فيه المؤلف أن يعطي للقارىء صورة للخطوات التي اجتازها أثناء البحث مرتبة ترتيبا طبيعيا واقعيا . وكذلك قد يؤخذ على المؤلف ، في أثناء عرضه للحالات ، عدم ترتيبها منذ البداية في الفئات الأربع التي ذكرها في آخر الفصل الثاني ، ولكن المؤلف أراد أيضا في هذا المجال أن يعطينا صورة لما يحدث فعلا للباحث عندما يواجه الواقع في تعقده واشتباك نواحيه ، قبل أن يصل الى ترتيب الواقع وتصنيفه . وكذلك أيضا لا يعيب الكتاب أن تذكر فيه آراء هذا العالم أو ذاك ما دام الغرض هو توضيح السبيل الذي سلكه الآخرون والعقبات التي اعترضتهم لتمهيد الطريق للرأي الجديد أو للتنظيم الجديد الذي يقترحه المؤلف . وقد سبق أن أشرنا الى رأي المؤلف الخاص في تعليل السيكوباتية في الفصل الثالث . وقد قدم رأيه أيضا في التعريف وفي تصنيف الشخصيات السيكوباتية .

وقد سبق أن نشر الدكتور صبري جرجس في هذه المجلة ملخصا بالانجليزية لآرائه في مشكلة السلوك السيكوباتي (عدد فبراير ١٩٤٦

20 — P.I.) لخصت مقالته فى عدد يوليو ١٩٤٦ من المجلة الأمريكية Psychological Abstracts ص ٢٥٣ ومما استرعى انتباه الملخص الأمريكى رأى الدكتور صبرى جرجس فى أن السيكوباتية مرض ذهانى Psychotic entity ثم رايه فى تعليلها .

ولا يعتبر هذا الكتاب خدمة لعلم النفس التكاملى فحسب ، بل هو خدمة كبيرة يقدمها المؤلف للطب الشرعى والقانون الجنائى والصحة العقلية . ولا شك فى أن علماء القانون ورؤساء النيابة والمحامين والقضاة سيفيدون كثيرا من مطالعة هذا الكتاب فانهم كثيرا ما يطلب منهم النظر فى حوادث ناتجة عن سلوك عدوانى نحو المجتمع والبت فى مدى مسئولية الجانى أو المعتدى ، فمن واجب المهنة أن يدرسوا الحالات المرضية التى يترتب عليها تخفيف المسئولية واتخاذ اجراءات وقاية لحماية المجتمع من اعتداء المنحرفين المختلين . والشخص السيكوباتى من أكثر الذهانيين خطرا لأنه مريض يلبس قناع الصحة .

* * *

والكتاب الثانى الذى نعرض له هنا وهو كتاب الانتباه الارادى للاستاذ أبو مدين الشافعى لا يقل عن كتاب الدكتور صبرى جرجس من حيث القيمة العلمية ومن حيث مساهمته فى بناء صرح علم النفس التكاملى فى مصر ، وكما أن دراسة الدكتور صبرى جرجس تعتبر الأولى فى ميدان علم النفس التكاملى الاكلينيكى ، كذلك يعتبر بحث الاستاذ أبو مدين الشافعى محاولة لدراسة تجريبية فى علم النفس التكاملى ، ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب : انه اختار لدراسته وظيفة نفسية يتجلى فيها النشاط النفسى متكاملا الا وهى وظيفة الانتباه الارادى . وتطبيقا للمنهج التكاملى نرى المؤلف يدرس هذه الوظيفة من جميع نواحى النشاط الانسانى: البيولوجية والنفسية والاجتماعية (١)

ويتصل موضوع الانتباه بموضوع الادراك فتعرض المؤلف لأبحاث مدرسة الجشطلط (الصيغة) وتجاربها فى الادراك مناقشا موقف علماء هذه المدرسة من العامل الذاتى ، اذ يضحون الى حد كبير بهذا العامل ويقللون من أثره بالقياس الى العامل الموضوعى المستمد من تركيب الشكل فى المجال المكانى . ويحاول الباحث أن ينقد نظرية الصيغ ليثبت

---

(١) نرجو الرجوع الى كتابنا « شفاء النفس » والى المقالة التى نشرناها فى عدد فبراير ١٩٤٦ من هذه المجلة : المنهج التكاملى وتصنيف الواقع النفسية (ص ٢٧٣ — ٣٠٤) .

أهمية العامل الذاتى فى الادراك ، وهو يستند فى نقده الى تجاربه الشخصية فى المعمل ، راجعا الى ظاهرة التحليل والتركيب فى ادراك الطفل ، وعندما نتتبع بدقة العوامل النفسية فى مختلف حالات الادراك نقف على نشاط نفسى مميز فى ادراك الصورة والحركة مما يؤدى الى القول بـ « بروز سيكولوجى » .

تستند وظيفة الادراك اذن الى نشاط نفسى عام ، وهذا النشاط هو أساس الانتباه الذى يدخل فى شتى العمليات النفسية ليقومها . فهناك ترابط متين بين جميع الحالات والوظائف النفسية ، واذا كانت هناك درجات مختلفة من النشاط النفسى أو مستويات مختلفة له فليس هناك انفصال وتمييز فى النوع . ولا يحدث الانفصال والتفكك الا فى حالات الشذوذ والمرض .

وبعد التحدث عن صلة الادراك بالانتباه يفصل المؤلف القول فى صلة الانتباه بالنشاط النفسى العام فيدرس على التوالى الموضوعات الآتية : الانتظار ، الانفعال ، والانتباه ، الغرض والاهتمام ، الاختيار الارادى وأخيرا الذكاء والانتباه .

وينتهى الى اثبات وظيفة نفسية جامعة لكل الوظائف تربط بينها وهى الانتباه من حيث هو اتجاه attitude وبين بتجارب عدة صلة الاتجاه بعملية الاتزان وهى عملية يقوم بها الجسم ككل ، وقد ثبت تجريبيا أن للنشاط النفسى صلة وثيقة باتزان الجسم كله . ومن أهم ما جاء فى فصل الاتجاه والانتباه هو الاتجاه وتبلور الشعور ويظهر من هذا الفصل أن النشاط العام يخضع لعامل الانتباه ليظهر فى صورة شعورية و « استمرار النشاط فى اتجاه معين راجع الى صلات أجزاء الجسم الداخلية وتكاملها » (ص ١٥٨) ويناقش المؤلف فى هذا الفصل الخطوط البيانية لتجارب التعب التى قام بها فى المعمل بواسطة جهاز الارجوجراف أو مسجل العمل .

ويلخص الاستاذ أبو مدين الشافعى رسالته فى الفصل الأخير وعنوانه التكامل النفسى والانتباه الارادى ، وبعد أن أشار الى الأسس البيولوجية والسيكلوجية والاجتماعية للانتباه أبرز سمات الانتباه الارادى فى قوله انه اتجاه النشاط النفسى الجسمى المتكامل فى بيئة اجتماعية ملائمة .

وفى الكتاب ٣٣ رسما لتجارب المؤلف كما انه ذيل بفهرس للاعلام وبآخر للموضوعات فضلا على فهرس للمراجع .

مبادىء التحليل النفسي وتطبيقاته (*)

تاليف الأستاذ محمد فؤاد جلال ، حائزدرجة الشرف في علم النفس من جامعة لندن والأستاذ المساعد بمعهد التربية للمعلمين • (منشورات معهد التربية للمعلمين) المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٦ (١٦٦ ص) •

سبق أن أصدر المؤلفون عدة كتب عربية فى التحليل النفسى وفقا لنظرية فرويد ، غير أن معظم هـذه الكتب كانت تنقصها دقة العـرض ووضوح الأسـلوب وترابط الموضـوعات فضلا على تشـويه المصطلحات وخطأ استعمالها • فأراد الأستاذ فؤاد جلال سـد هـذا النقص بنشر كتاب في مبـادىء التحليل النفسى وتطبيقـاته يعرض فيه للمبتدئين موضـوعات هذا العلم مرتبة منسـقة وبأسلوب واضح سـليم بحيث يتمكن القـارىء من فهم الأسس والقضايا الرئيسية فهما واضحا ومن الانتقال من فصل الى فصل دون الشعور بأى فراغ فى تتابع الموضوعات وقد وفق المؤلف في عرضـه توفيقا تاما • فان القارىء يلمس فى كل صفحة وفى كل فقرة يقرؤها عناية المؤلف بتوضيح المعنى دون الاطناب فى الشرح واهتمامه باختيار أدق المصطلحات والتمسك بها فى الكتـاب كله ليحول دون وقوع القـارىء فى اللبس والخلط ، هذا فضـلا على اعتماده على المراجع الأصلية لفرويد وتلامذته لكى يأتى عرضـه أمينا صحيحا • والواقع أن القارىء يمكنه أن يطمئن كل الاطمئنان الى عرض الأستاذ جلال من حيث الدقة والأمانة •

ويشعر القـارىء أن شخصية المؤلف كعالم لم تنفصـل أبدا عن شخصيته كمدرس ، فهو يكتب كتابه كأنه تحت رقابة طلابه فى المعهد يسـتوضحونه كل فكرة يعرضها أو يطلبون منـه شرح هـذا المصطلح أو ذاك • وهو حريص على أن يضرب المثل الملائم كلما اقتضاه الأمر وأن يذكر اللفظ الانجليزى لكل مصطلح علمى يأتى ذكره • ولا يسعنى بصدد هذا الموضوع الأخير الا أن أشكر الأستاذ جلال على الخطوة الطيبـة التى

(*) «مجلة علم النفس» ، اكتوبر ١٩٤٦ •

خطاما فى توحيـــد المصطلحات العربيـة فى علم النفس اذ اسـتخدم المصطلحات الجـديدة التى وضعناها لبعض الامراض النفســية والعقلية ومن هذه المصطلحات : عصاب وذهان وفصام وحصار . غير أن هناك شيئا من الاختلاف فى ترجمة بعض المصطلحات فقد آثر المؤلف ترجمة Projection بالتصاق بدلا من اسقاط وترجمة Identification باندماج بدلا من تقمص وترجمة Intuition الهـام بدلا من حدس . وفات المؤلف فى ص ٥١ وص ١٠٨ أن يضيف لفظ « وظيفى » الى اضطراب عصبى لكى تـكون العبـارة معادلة فى معنــاها للفظ عصــاب * ولدينا ملحوظـة عابرة بخصـــوص التفـــرقة بين النفس والعقـــل . فقد أصـــاب المؤلف فى ذكر التفـــرقة التى كانت قائمـــة بين اللفظين فى الكتب العربية القديمة « فالنفس كانت أكثر ما تذكر عندما يقصد الى ابراز ناحية الانفعال أو الرغبة أو الشـهوة .. وأما العقـل فيذكر عندما يقصد الكاتب الى المعرفة أو الذاكرة أو التفـكير الى غير ذلك من نواحى الفكر » (ص ٤) ثم يلاحظ المؤلف أن هـذين اللفظين أصبحا مترادفين فى كتابات المحـدثين باللغـة العربية وأنه سيستعمل اللفظين فى هذا الكتاب بمعنى واحد (ص ٥) . اننا لا نتفق مع الأستاذ جـلال على هـذا الخلط ، بل نحن فى حاجة الى لفظ عربى ثالث لـكى يمكننا أن نترجم المصطلحات الأجنبيـة الآتية التى لا تزال تنطوى على فوارق هامة والتى لا يمكن الاستغناء عنها اذا أردنا التعمق فى دراسـة طبيعة الانسان وهذه المصطلحات هى Psychic, mental, intellectual, rational فلا يمكننا أن نطلق على هـذه الألفـاظ الأربعـة لفـظ نفسى أو عقلى على السواء فلابد من التفرقة بينها فى اللغة العربية كمـا هى الحال فى اللغات الاجنبية . وكنا قد اقترحنا فى محاضراتنا فى كلية الآداب عام ١٩٤٢ ما يلى : « يستحسن قصر الحياة العقلية intellectual على العمليات الفكرية العليا كالتذكر والحـكم والاستدلال . والحيـاة الذهنية mental أعـم من الحيـاة العقليـة اذ أنهـا تشـمل جميع العوامل الشعورية التى تؤثر فى توجيه السلوك . أما الحياة النفســية psychic فهى أعم منهمـا اذ أنهـا تشمل جميع العوامل التى تكشف عنها الدراســة العلمية ومنها العوامل غير المشـعور بها عادة » . أما rational فلابد من ترجمته أيضا بعقلى مثل intellectual ولكن فى الحالة الأولى نكون بصدد العقل Reason من حيث هو الملكة التى تصدر عنها الأحكام الكلية الضرورية المطلقة وفى الحالة الثانية بصـدد العقل من حيث هو القـدرة على تطبيق مبـادىء العقل بمعنى Reason وفى هـذه

الحالة يقترب معنى intellect من معنى intelligence ذكاء وحبذا لو استعملنا لفظ نطق كما كان يستعمله ابن سينا أى بمعنى reason ومن هنا جاء تعريف الانسان بأنه حيوان ناطق أى قادر على تعقل المعقولات المجردة · ومهما يكن من حال . فاننا نرى العودة الى التفرقة القديمة كما ذكرها المؤلف فى ص٤ وستجنبنا مراعاة هذه التفرقة الوقوع فى اللبس . فمثلا فى ص ١٠٨ يتحدث المؤلف عما تمتاز به الحياة السليمة ، فهى الخالية من «التوتر، والشد والجذب القويين ، وغير ذلك من مظاهر الصراع النفسى ، فاذا وجدت هذه المظاهر فان النتيجة هى ان ينحرف العقل عن تأدية وظيفته انحرافا بينا ، ويقال فى هذه الحالة ان الشخص مصاب باضطراب عصبى (وظيفى) أو (عصاب) .. » لا شك أن انحراف العقل عن تأدية وظيفته انحرافا بينا يؤدى الى اضطراب عقلى أو ذهان . أما انحراف النفس فانه يؤدى الى عصاب ـ هذا اذا راعينا التفرقة القديمة بين النفس والعقل . والواقع أن المؤلف يشعر بالحاجة الى هذه التفرقة فيقول فى ص ٦٥ : « الاضطراب النفسى أو العصاب والاضطراب العقلى أو الذهان » ويقول فى ص ١٠٩ : « وتأتى بعد ذلك طائفة المصابين بأمراض (عقلية) (ذهانيين) ·· » · وعندما يتحدث المؤلف فى ص ٦٥ عن الفرق الأساسى بين الاضطراب النفسى أو العصاب والاضطراب العقلى أو الجنون يقول : « ان الشخص فى الأول عارف بحالته وساع فى اصلاحها بنفسه أو عن طريق العلاج، وقادر على الحكم على تصرفاته ومعرفة الخطأ والصواب فيها ، أما فى التالى فهو لا يرى فى نفسه شذوذا ، ويصبح فى حالة يفقد معها القدرة على الحكم على تصرفاته بالخطأ والصواب ، أى يفقد القدرة على نقد سلوكه فقدانا تاما » . فمن هذا النص يتبين أن المؤلف يعود الى التفرقة القديمة اذ يميز العقل بالمعرفة والحكم والنقد ·

❊ ❊ ❊

أما موضوعات الكتاب فهى موزعة فى سبعة عشر فصلا نذكر أهمها : منهج البحث فى التحليل النفسى ، اللاشعور والحيل اللاشعورية ، الصراع والكبت ، الغريزة الجنسية وتطور الحياة النفسية ، فترة الكمون والأحلام ، الانحراف فى وظائف العقل · ويختتم المؤلف كتابه بفصل شيق ممتع حقا فى تطبيقات التحليل النفسى فى الطب والتربية ورعاية الطفولة والتضامن الاجتماعى والفن والصحة العقلية .

اذا القينا نظرة على الكتب العربية التى ظهرت خلال هذا العــام والتى ورد ذكرها على صفحات هــذه المجلة وهى من تأليف الدكتــور القوصى (عدد يونيو ١٩٤٦) والدكتور صبرى جرجس والأســتاذ فؤاد جــلال والأستاذ اســحق رمزى والأستاذ أبو مدين الشافعى (فى هذا العدد) حق لنا القول أن علم النفس فى مصر أخذ يخطو بخطوات واسعة نحو الانتاج العلمى والبحث الجدى وطبع تفكيرنا فى المسائل السيكولوجية بالطابع المصرى ٠

مائة عام من الطب العقلى الأمريكى (*)

One hundred years of American Psychiatry, published for the American Psychiatric Association by Columbia University Press, New York, 1944, p. 649.

بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الجمعية الأمريكية للطب العقلى فى عام ١٨٤٤ قامت هذه الجمعية ، تعاونها الجمعية الأمريكية لتاريخ الطب بنشر هذا الكتاب لتاريخ حركة الطب العقلى والصحة العقلية فى أمريكا خلال مائة عام · ويشتمل الكتاب على تصدير ومقدمة وخمسة عشر فصلا قام بتحريرها ثلاثة عشر من العلماء تحت اشراف J.K. Hall أحد رؤساء الجمعية الأمريكية للطب العقلى و G. Zilboorg المتخصص فى تاريخ علم النفس الطبى و H.A. Bunker من معهد نيويورك للتحليل النفسى · ويتناول الكتاب الموضوعات الآتية : بدء حركة الطب العقلى فى الولايات المتحدة منذ أيام الاستعمار حتى تأسيس الجعمية الأمريكية للطب العقلى عام ١٨٤٤ ، حالة الطب العقلى فى أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر ، تأسيس الجمعية الأمريكية للطب العقلى وتاريخ مستشفيات الأمراض العقلية فى الولايات المتحدة ، البحوث التى نشرت فى الطب العقلى خلال مائة عـــام ، تاريخ وسائل العلاج فى أثناء الحرب الأهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) والحرب العالمية الأولى (١٩١٧ ـ ١٩١٨) والحرب العالمية الثانية (١٩٤١ ـ ١٩٤٣) · وعدة بحوث أخرى عن التخصص فى علم الأمراض العقلية والطب العقلى الشرعى وتأثير الطب العقلى فى علم الأنثروبولوجيا فى الولايات المتحدة منذ مائة عام · ويجدر بنا أن نشير بشىء من التفصيل الى الفصل الذى كتبه توماس فرنر مور Thomas Verner Moore عن صلة علم النفس بعلم الأمراض العقلية فى الولايات المتحدة منذ مائة عام · يلاحظ المؤلف أنه فى القرن التـاسع عشر لم يســتفد واضعو كتب الأمراض العقلية من الدراسات السيكولوجية الجديدة وخاصة من دراسات التربية التى أجريت فى معمل فونت وفى معامل تلامذته · وكان تأثير المدارس الجديدة مثل

(*) «مجلة علم النفس» ، اكتوبر ١٩٤٦ ·

المدرسة السلوكية ومدرسة الصيغ (جشطلط) ضعيفا جدا • غير أن الطب العقلي في الولايات المتحدة تأثر الى حد غير قليل بآراء أدولف ماير Adolf Meyer الذي وجه انتباه تلامذته الى ضرورة تركيز الاهتمام لا في الأعراض المرضية بل في الشخصية المريضة وفي جميع وظائف الشخص من حيث هو كل لا يتجزأ • كما أنه حاول أن يزيل التباين المطلق الذي قالت به الفلسفة الديكارتية بين النفس والجسم ، مقتربا من رأى أرسطو الذي كان يقول بوحدة الانسان الجوهرية •

وهناك حركة أخرى أثرت الى مدى بعيد في الطب العقلي وهي حركة التحليل النفسي • وقد اتخذت هذه الحركة في الولايات المتحدة صورة جديدة في الاتجاه السيكوسوماتي • فالطب السيكوسوماتي (أي النفسي الجسمي) يقلل من الفوارق القائمة في ذهن الأغلبية من الأطباء بين الأعراض النفسية والأعراض الجسمية ، محاولا الربط بينها بطريقة عملية بجعل العلاج لفئة كبيرة من الأمراض العضوية علاجا نفسيا قبل أن يكون جسميا •

غير أن الطب العقلي لا يزال يقاوم بعض الاتجاهات الجديدة في علم النفس مثل تطبيق مختلف الاختبارات في عيادات توجيه الطفولة • فكثيرا ماتكون الهيئة العاملة في هذه العيادات مقصورة على الطبيب العقلي والعمال الاجتماعيين المكلفين بدراسة حالة الأسرة في حين أن الطبيب يكتفي بتشخيص نوع الانحراف الذي يشكو منه الطفل دون الوقوف على مستواه العقلي ومستواه التعليمي بطريقة علمية منظمة كما تسمح به الاختبارات • ويرى موز Moore أنه من المحال أن يستغنى في مراكز توجيه الطفل عن الأقيسة السيكولوجية والتعليمية كما أنه من المحال أن يستغنى مستشفى حديث عن معمل الباتولوجيا الاكلينيكية •

وبصدد موضوع صلة علم الأمراض العقلية بعلم النفس نرى Bunker في الفصل الذي عقده عن الطب العقلي من حيث هو مادة تخصص ، ينكر امكان اقامة الطب العقلي الصحيح المجدي على أساس ضيق من التخصص ، بل يلح على ضرورة الجمع بين علم الأمراض العصبية وعلم النفس في وقائعه السوية والمنحرفة وبين كثير من العلوم الاجتماعية • ويلخص Bunker رأيه بذكر ما قاله الطبيب الفرنسي Bunker (١٧٤٥ ـ ١٨٢٦) : ان الصعاب لتزداد أمام المرء عندما يشرع في القيام بمهام مهنة طبية سيكولوجية لأنه يصبح من الضروري الالمام بقدر كبير من المعلومات المتنوعة الاضافية •

الفعل الارادى (*)

تأليف الدكتور أبو مدين الشـافعى

الناشر دار الفكر العربى ١٩٤٨ ـ ١٦٨ صفحة

قام مؤلف « الانتباه الارادى » ببحث « الفعل الارادى » ليواصـل دراسة موضوع الارادة • وقد شعر سائر البحاث فى الارادة بصعوبة هذا الموضوع • ولعل الصعوبة راجعة الى طريقة البحث والى المنهج الذى تتطلبه مشكلة الارادة المعقدة •

انتهى الدكتور أبو مدين الشافعى فى بحث الانتباه الارادى الى ضرورة ربط موضوع النشاط النفسى بالتكامل النفسى ـ وان كان الانتباه المرحلة الأولى للتصميم فلا يمكن أن يعتبر حالة نفسية مجردة وملكة مستقلة بل هو عملية متصلة بالناحية الجسمية والاجتماعية •

وسهلت دراسة الانتباه الارادى بحث الفعل الارادى ، وهو أهم مظهر من مظاهر الارادة ـ وتقسيم موضوع الارادة الى انتباه ارادى وفعل ارادى ساعد على ابعاد مشكلة الارادة عن الاتجاه الميتافيزيقى الذى ينفى الارادة تارة ويثبتها تارة أخرى •

وأهم ما جاء من تجديد فى هذا البحث هو منهج النزول من المعقد الى المبسط • وذكر المؤلف اتجـاه جلدشتين الذى يعتبر الفعل كلا يكون وحدة تقوم على تكامل جسمى ، ويعارض هذا الاتجاه موقف بافلوف الذى قال بوجود عناصر جزئية للفعل أهمها الفعل المنعكس الشرطى ـ ويقول الباحث « اننا لا نستطيع عزل الفعل لنحلله » وربط بين الناحية البيولوجية ولناحية النفسية بالحديث عن صلة الوسائل والغايات بالفعل •

وصل الباحث الى فكرة المجالات الحيوية ، مجال الجسم ومجال البيئة الطبيعية ومجال المجتمع والمجال النفسى ليشرح العوامل المؤثرة فى نجاح الفعل • « وشرح لنا فكرة المجالات هذه وتأثيرها فى الفعل الارادى يؤدى الى بعض الأمراض النفسية وأهمها الكذب المرضى • وعندما يكون الشخص

(*) « مجـلة علم النفس » ، يونيـو ١٩٤٨ •

ذا مجال حسي ضيق ويحاول أن يقوم بأفعال خارجة عن نطاق هذا المجال فانه يصاب باضطراب نفسي قد يتعقد وقد يحدث لديه أشد حالة من القلق ونراه يعوض بكثرة الكذب والخيال » •

وتعرض الباحث لصلة الفعل بالانفعال ووصل الى فكرة هامة فى صلة الانفعال بالتعبير العضلى ــ وقد تعرض و• جيمز ولانجى لهذا الموضوع وقالا بنظريتهما الشهيرة التى أثارت ضجة فى علم النفس ، قال جيمز : ان التعبير العضلى سابق للشعور وسبب لظهوره نجرى فنخاف ونبكى فنحزن • واستغرب الناس هذا القول واعتمدوا على « العقل السليم » فى نقده ونفيه •

ولكنا نجد مؤلف الفعل الارادى يحاول اثبات صحة نظرية جيمز فيما يختص بسلوك المستويات الدنيا • يعتقد الدكتور الشافعى أن الطفل يبكى فيخاف • ويعمم هذا السلوك على كل الوظائف النفسية اذ تكون الحالة الجسمية سابقة للحالة النفسية فى المراحل الأولى يتعب الطفل ثم يشعر بالتعب ، ينطق ثم يفهم ، يحس ثم يدرك ، وكلما تكامل الكائن استطاع أن يقدم الشعور على الفعل ويظهر ذلك جيدا فى عملية الاختيار التى تكون عند الطفل فى بادىء الأمر متصلة بالحركة اليدوية أى أن الطفل ينقل يده من موضوع الى آخر وعندما ينمو ويتكامل فان عملية الاختيار تتم فى الذهن قبل أن يقوم الشخص بالحركة المتجهة اتجاها واحدا نحو الشىء المختار • وكذلك فى التعب نجد الطفل لا يشعر بالتعب الا بعد الوقوع فيه بالفعل وبعد التكامل يشعر الشخص بالتعب قبل الوصول الى حالة التعب الحقيقية ولذلك نجد الشخص يستطيع القيام بمجهود بعد اعلانه الشعور بالتعب اذا جاءت عوامل مشجعة •

وتوضح لنا الأمراض النفسية وآثارها فى الفعل الارادى أهمية عامل التكامل النفسى • وتوسع المؤلف فى أثر الجسم والنفس والمجتمع فى الفعل الارادى ثم تناول فى باب رابع أثر المرض فى الفعل الارادى • ووجد أن اضطراب الفعل الارادى • وظهور الأفعال الشاذة مرتبط أيضا بعوامل جسمية ونفسية واجتماعية •

وكل ذلك يؤدى بالباحث الى اثبات صلة النشاط النفسى بالفعل الارادى • ويمكننا بذلك أن نجد صورة مجسمة للتكامل النفسى فى الفعل ويمكننا عن طريقه قياس النشاط النفسى والتأثير فيه • وبذلك يمكننا اثبات وضعية النشاط النفسى ويمكننا أن نتكلم عن ارتفاعه وهبوطه •

وعلى أساس فكرة التكامل ينتهى المؤلف الى رد يعارض به موقف برجسن فى « ابعاده الحالات النفسية عن التقدير الكلى » • وهذا الموقف الفلسفى مختلف عن النظرة العلمية الحديثة التى تقوم على التكامل التام فى الانسان •• وأنه ليتعذر فهم الحالات النفسية مفصولة عن الفعل والفاعل ومجال الفعل ، ولابد من اعتبار الديمومة من أعتبار المكانية ليسوغ لنا أن نكتنه الفعل الارادى » •

ويمتاز كتاب الفعل الارادى بأسلوبه التجريبى وبمـــا حواه من الملاحظات الدقيقة المستمدة من صلب الحياة وهذا الكتاب تكملة قيمة لكتاب الانتباه الارادى الذى نشره المؤلف منذ عامين •

الكتاب السنوى فى التحليل النفسى (*)

المجلد الثانى ـ سنة ١٩٤٦ ـ ٢٨٠ ص ٠ والمجلد الثالث ـ سنة ١٩٤٧ ـ ٣٠٩ ص ٠

The Yearbook of Psychoanalysis. Managing Editor : Sandor Lorand. International Universities Press, New York, Volume II, 1946, p 280 and Volume III, 1947, p. 309.

سبق أن أشارت المجلة فى عدد أكتوبر ١٩٤٥ ص ٢١٥ الى ظهور المجلد الأول من « الكتاب السنوى فى التحليل النفسى » والى أهمية هذه المجموعة التى تقدم كل سنة الى القراء أهم البحوث التى نشرت خلال عام فى مختلف المجلات والدوريات المختصة بالتحليل النفسى ٠ ويحرص المشرفون على هذه المجموعة على نشر البحوث كاملة دون نقص أو تلخيص ٠

والمجلد الثانى الذى ظهر سنة ١٩٤٦ يحوى أربعة عشر بحثا منها بحث لفرويد نشر لأول مرة باللغة الانجليزية سنة ١٩٢٩ ٠ فى هذا البحث يحلل منشىء التحليل النفسى شخصية الروائى الروسى دستيوفسكى ٠ أما أهم البحوث الأخرى فهى لأساطين التحليل النفسى أمثال أرنست جونز وأوتو فينكل وفلوجل وتوماس فرنش وهلين دوتش وهى تتناول الموضوعات الآتية : علم النفس وظروف الحرب ـ مشكلة الحرب والسلم ـ سيكولوجية العقاب ـ شكل خاص فى العقاب الذاتى ـ البكاء المرضى ـ الشروط السيكولوجية للحمل ٠

أما المجلد الثالث لبحوث عام ١٩٤٧ فقد ظهر حديثا وهو يحوى عشرين بحثا ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أن بعض هذه البحوث لم تنشرها مجلات خاصة بالتحليل النفسى بل مجلات أخرى فى الطب العقلى مما يدل على اتساع دائرة الاهتمام بما يقدمه التحليل النفسى من حقائق أو من منهج فى العلاج ٠

(*) « مجلة علم النفس » ، أكتوبر ١٩٤٨ ٠

ويفتتح المجلد الثالث بثلاثة بحوث عن فرويد : الأول لأوتوفينكل عن مقام فرويد فى تاريخ العلم والثانى لبرنفلد يثبت فيه المؤلف أن فرويد فى البحث الذى نشره عام ١٨٩٩ عن « حجاب الذكريات » يستعير شخصية أحد مرضاه لكى يتحدث عن ذكريات طفولته مع تغيير بعض تفاصيل غير جوهرية . ويلاحظ برنفلد أن فرويد أخذ يحلل نفسه بنفسه بين عام ١٨٩٦ وعام ١٨٩٩ وبعد هذا التاريخ أخذ يذكر فى مؤلفاته بعض ذكريات طفولته الأولى تدعيما لنظريته .

أما البحث الثالث فهو لولتر برنارد عن أوجه الشبه العديدة بين آراء فرويد وآراء الفيلسوف سبينوزا خاصة فى النقط الآتية : حتمية الحياة النفسية وضرورة دراستها كأى ظاهرة طبيعية خاضعة لقوانين صارمة ـ الرغبة عند سبينوزا والغريزة الجنسية عند فرويد ـ اللاشعور والكبت ـ القيمة العلاجية للمعرفة العقلية الواضحة . وأخيرا يشير المؤلف الى الفائدة الكبرى التى قد يجنيها الباحث لو تعمق فى دراسته لكتاب سبينوزا فى الأخلاق للكشف عما يحويه هذا الكتاب عن حقائق نفسية ومن ملاحظات دقيقة عن الطبيعة البشرية .

أما البحوث الأخرى فهى فى غاية فى التنوع نذكر منها بحثا للمحلل الأرجنتينى « أنجل جرما » فى الملانخوليا وحالات الهبوط وبحثا لجكبسون فى أثر الخيبة فى تكوين الأنا والأنا الأعلى وبحث لشونبرج فى تحليل « الكابوس » وآخر لأدريان فى أصول السلوك العقلية والجسمية ، ثم عدة مقالات لمؤلفين مختلفين عن طرق العلاج بالتحليل النفسى .

علم طباع الأطفال والمراهقين فى خدمة الآباء والمربين

تأليف أندريه لى جال · باريس ١٩٥٠ — ٤٥٩ صفحة

André Le Gall : Caractérologie des Enfants et des Adolescents à l'usage des parents et des éducateurs. Presses Universitaires de France, Paris, 1950, p. 459.

صدر هذا الكتاب ضمن مجموعة جديدة اسمها « الطباع » « Caractères » باشراف الأستاذ ليسين R. Le Senne صاحب كتاب «علم الطباع» Traité de Caractérologie الصادر فى عام ١٩٤٥ · ويحاول ليسين فى هذا الكتاب انشاء علم جديد للطباع معتمدا على البحوث التى قام بهـا فى أواخر هذا القرن عالمان هولنديان هما هيمنز وفيرزما Heymans and Wiersma ويعد ليسين بحوث هذين العالمين الدعامة الأولى لانشاء علم الطباع على أسس موضوعية فى نطاق علم النفس البحت ، أى باستخدام المعانى والمنطوقات السيكولوجية لتفسير الطبع من حيث هو بناء عقلى · وقد أدى التحليل السيكولوجى الى ابراز ثلاثة عوامل أساسية تعين الطبع هى : الانفعالية والفاعلية أو النشاط ثم مدى تأثير التصورات الذهنية وصداها فى الشعور · ويجب أن ينظر الى هذه العوامل على أنها عوامل جبلية أصلية متميزة بعضها عن بعض · وبناء على وجود هذه العوامل أو عدم وجودها بقياس كل واحد منها الى الآخرين يمكن توزيع الطباع فى ثمانية نماذج هى : الجامح ، الغضبى ، العاطفى ، العصبى ، الدموى ، اللمفاوى ، المائع ، البليد · وقد أفاض ليسين فى وصف كل نموذج دون اغفال الأنواع الفرعية الموجودة داخل كل نموذج تبعا لتأثير مجموعة من العوامل الاضافية بدرجات متفاوتة ·

ومما هو جدير بالذكر أن ليسين لا يذهب الى أنه من الممكن توزيع جميع الناس فى هذه النماذج الثمانية بصورة قاطعة ، بل يقول بوجود مجموعات متوسطة تربط بين الأطراف ، فهو ينتقل فى دراسته من العام

(*) « مجلة علم النفس » ، مايو ١٩٥١ ·

الى النوعى الى الخاص بطريقة تدرجية ولكن دون ازالة الحدود التى تفصل بين كل نموذج والآخر ٠

ويطبق ليسين بأسلوبه الرائع هذه النظرية الجديدة فى وصف شخصية الفريد دى فينيى وتحليلها وتفسيرها ، مقدما لنا فى ستين صفحة مثلا طيبا لتطبيق علم النفس فى دراسة شخصية الأديب والشاعر ٠

وقد قام أحد تلامذة ليسين بتطبيق نظرية أستاذه فى دراسة طباع الاطفال والمراهقين ٠ فيحاول أندريه لى جال أن يقيم الدليل على أن أساليب التربية الخلقية يجب أن تتكيف وفقا لطباع كل شخص أى وفقا لما يتصف به كل شخص من انفعالية وفاعلية وصدى للتصورات الذهنية ٠ وعلى ذلك لا يمكننا أن نقول بوجود قواعد شاملة للتربية الخلقية ، بل هناك قواعد خاصة بكل طبع ، فلا يجدى اللين مثلا مع جميع الأطفال ، كما لا تجدى القسوة مع جميعهم ٠

وتمتاز تحليلات المؤلف بواقعيتها وبقربها من الحياة اليومية ولا يفوت المؤلف أن يوضح ما يقوله بذكر الحالات الاكلينيكية التى درسها وعددها ثلاث وثلاثون حالة تمثل مختلف النماذج ٠ ويضم الكتاب فصلين اضافيين أحدهما يتناول الصعوبات الجنسية وكيفية علاجها والثانى تشخيص الانحرافات الخلقية وعلاجها ٠ كما يجب أن نشير الى فصل هام يتناول موضوعا ذا خطر كبير فى التربية هو موضوع الكسل وأنواعه وطريقة علاجه ٠

عصاب الهجر (*)

تأليف جرمين جكس ـ باريس ١٩٥٠ ـ ١٤٠ صفحة

Germaine Guex : La Névrose d'Abandon, Presses Universitaires de France, Paris, 1950, p. 145.

يجتــاز علم النفس أزمة جــديدة من أزمات نموه منذ أن خرج من دائرة الملاحظات الذاتية وأخذ يستخدم الأساليب التجريبية التى تعتمد خاصة على المشاهدة الخارجية لدراسة سلوك الانسان فى بيئاته المختلفة • وقد أدى هذا الاتجاه الجديد فى المنهج والبحث الى تعدد فروع علم النفس ، بل الى قيام مدارس مختلفة تنشد كل منها أســلوبا خاصا فى التأويل والتفسير • وكان التيار السائد تيار البحوث التجريبية التى تجرى فى المعمل لتحليل الحالات الشعورية والوظائف العقلية ، ويمثــل هذا التيار ما يسمى عادة بعلم النفس الأكاديمى ، أى علم النفس الذى يدرس بصفة رسمية أو شبه رسمية فى المعاهد والجامعات •

وبجانب هذه البحوث التجريبية بحوث أخرى تجرى فى المستشفيات والعيادات باشراف أطباء الأمراض النفســية والعقلية ؛ ومن أهم هذه البحوث الاكلينيــكية دراسات فرويد وتلامذته فى التحليل النفسى • وأخذت دراسات التحليل النفسى تتسع وتتشعب حتى تكونت منها نظرية شاملة بدت فى عهدها الأول بعيدة كل البعد عن الدراسات الأكاديمية وذلك بمصطلحاتها الخاصة وتأويلاتها التى كانت ترمى الى ابراز الدور الهام الذى تقوم به النزعات الوجدانية اللاشعورية وبخاصة الدوافع الجنسية فى تشكيل السلوك الانسانى فى صوره السوية والشاذة على السواء • غير أن حالة التنــافر التى كانت قائمة بين التحليل النفسى وعلم النفس الأكاديمى ما لبثت أن ضعفت وحاول بعض الباحثين الربط بين علم النفس

(*) «مجلة علم النفس» ، مايو ١٩٥١ •

التجريبي والتحليل النفسي . ويلاحظ أن حركة التقارب بينهما آخذة في النمو ولنا أحسن شاهد على هذا ما جاء في المحاضرة(١) التي افتتح بها الدكتور لاجاش D. Lagache دروسه في السربون عام ١٩٤٧ والدكتور لاجاش طبيب ومحلل نفسي وأستاذ علم النفس بجامعة باريس في الكرسي نفسه الذي شغله من قبل ديلاكروا وجيبوم وبرادين ، ولأول مرة في فرنسا يغزو التحليل النفسي بصفة رسمية أقوى معقل من معاقل علم النفس الأكاديمي ومما هو جدير بالذكر أن يهدي لاجاش كتابه الى الأستاذ هنري بيرن Henri Piéron وهو من أساطين علم النفس الفسيولوجي والتجريبي في العالم .

ولكن يجب أيضا أن نقرر أيضا أن التحليل النفسي بدوره أخذ يتأثر ببحوث علماء النفس الأكاديميين وحسبنا أن نذكر هنا تأثير الأستاذ بياجيه Piaget ، أستاذ علم نفس الطفل بجامعة جنيف ، في البحوث التي ينشرها علماء نفس التحليل النفسي في سويسرا والولايات المتحدة . والكتاب الذي نحن بصدده « عصاب الهجر » لمؤلفته جرمين جكس من أعضاء الجمعية السويسرية للتحليل النفسي ، يحاول توضيح بعض آراء فرويد في ضوء التحليلات التي قدمها لنا بياجيه في دراساته لعقلية الطفل وأساليب تفكيره وكيفية تصوره للعالم الخارجي .

وترمي المؤلفة في هذا الكتاب الى وصف نوع جديد من العصاب لم يسترع بعد انتباه علماء التحليل النفسي وتطلق عليه اسم « عصاب الهجر » أو الهجار ، وفي وصفها لهذا العصاب وتفسير نشأته تختلف جرمين جكس مع فرويد في بعض النقط أو بعبارة أدق تبرز بعض النواحي في تكوين النفسية في الطفولة الأولى لم يعن بها فرويد العناية الكافية . وعندما نقول أن عصاب الهجر هو نوع جديد من العصاب لا نريد القول بأن أعراضه جديدة ، بل أن هذه الأعراض لم تشخص في مجموعها التشخيص الصحيح وكانت تعالج داخل أنواع أخرى من العصاب مثل عصاب الحصر Anxiety neurosis أو عصاب الحصار obsession وربما ترجع بعض حالات الفشل في العلاج التحليل النفسي الى خطأ التشخيص .

---

(١) نشرت هذه المحاضرة بعد تسميتها بعنوان « وحدة علم النفس عام ١٩٤٩ — ٦٢ صفحة .

L'Unité de la Psychologie : Psychologie Expérimentale et Psychologie Clinique. Presses Universitaires de France, Paris, 1949, p. 62.

وتتلخص أعراض الهجار فى عوامل ثلاثة هى : الحصر (١) الذى يوقظه الهجر ، ثم ما تثيره حالة الهجر من عدوان ، وأخيرا ما يترتب على ذلك من ميل المريض الى عدم التقدير الذاتى وميله الى تعذيب نفسه ٠

وتتوسع المؤلفة فى وصف هذه الأعراض ومختلف المخاوف التى يعانيها المريض وما يبذله من جهد مضن فى الفوز بحب الآخرين وعطفهم ثم الامتناع عن تقبل الحب والعطف مؤثرا تدمير ذاته كأنه يريد معاقبة الآخرين عن طريق معاقبة نفسه ٠

ولا يتسع المقام لتتبع تحليلات المؤلفة وسنكتفى بالاشارة الى النقط التى تختلف فيها جرمين جكس عن تعاليم فرويد ٠ فعصاب الهجر يرجع تكوينه الى عهد فى الطفولة الأولى سابق على المرحلة الأوديبية ٠ ان معظم العصابات يرجعها المحللون الى عقدة أوديب مع العلم أنهم يشيرون الى تكوين عصاب الحصار فى المرحلة الشرجية السابقة على المرحلة الأوديبية ، غير أن أعراض الحصار تختلف عن أعراض عصاب الهجر ، فبينما نرى النزعة العدوانية التدميرية السادية متغلبة فى الحصار نجدها خفيفة الوطأة فى عصاب الهجر ، بل تكون النزعة المازوخية هى البارزة ، ويبدو أن عصاب الهجر يرجع الى المرحلة الفمية اذ أن من أعراضه الشره الوجدانى والبحث الملح عن دلائل العطف والمحبة الصادرة عن الآخرين ٠

ومن جهة أخرى ، يميل فرويد الى الحد من أهمية الجبلة Constitution أى من أهمية الاستعدادات البيولوجية النفسية الفطرية ويميل الى الالحاح بصفة خاصة أولا على الدور الهام الذى تقوم به البيئة العائلية فى مساعدة النمو النفسى الطبيعى أو اعاقته وثانيا على أثر الصدمات ٠ ولكن على العكس من ذلك نرى المؤلفة تشير الى أهمية العوامل الجبلية الاستعدادية الفطرية فى نشأة عصاب الهجر وان كان للأبوين وللصدمات أثر ما فى نشأة هذا العصاب ؛ فقد لاحظت فى كثير من الحالات التى حللتها أن حسن رعاية الأبوين واتزانها وروح العدالة والانصاف فى معاملة الصغار لاتحول دون ظهور هذا العصاب فى الأشخاص المعرضين له بحكم تركيبهم الفطرى ٠

---

(١) مازلنا نؤثر استعمال لفظ « حصر » لترجمة Angoisse الفرنسية و Anxiety الانجليزية ونرى أن لفظ القلق أو الجزع او الوله الخ ٠٠ لايعبر تماما عن المأساة الصامتة المظلمة الخانقة التى يعانيها المصاب بالحصر ٠

أضف الى ما سبق أن أثر العوامل اللاشعورية ضئيل جدا فى هذا العصاب ، فليس هناك كبت نظرا لعدم تكوين الأنا الأعلى ، فالصراع ليس بين الهـو Id والأنا الأعلى Super-ego ، بل ينشأ الصراع فى مجال الأنا Ego يدور فى عالم المعاناة الشعورية •

أما فيما يختص بالعلاج ، فتستـخدم المؤلفة الطريقة الايجابية ، خصوصا عندما يشرف المريض على الشفاء ، ولكن ليس المقصود من الطريقة الايجابية تزويد المريض بالنصـائح العملية بل مسـاعدته على اكتشاف ما يتوق اليه وعلى مواجهة الواقع وتوجيه قواه النفسية نحو ميادين جديدة للنشاط مع احترام حريته فى اختيار هذه الميادين الجديدة •

التحليل النفسي والبيولوجيا (*)

تأليف مارى بونابرت

Psychanalyse et Biologie, par Marie Bonaparte, Presses Universitaires de France, Paris, 1952, p. 190.

هذا الكتاب ظهر فى مجموعة « مكتبة التحليل النفسى وعلم النفس الاكلينيكى » وهى احدى المجموعات الحديثة التى تنشرها دار المطابع الجامعية بفرنسا .

جمعت مارى بونابرت فى هذا الكتاب ست عشرة مقالة من المقالات العديدة التى نشرتها فى المجلات العلمية . تتناول الفصول الأربعة الأولى دراسات فى سيكولوجية المراهقة وفى بعض مظاهر الغريزة الجنسية عند المرأة كدراسة ما قد يعترى هذه الغريزة من فتور ورفض أو ما تتصف به طبيعة المرأة من نزعة الى الخضوع والسلبية والمازوخية ، وتربط المؤلفة بين هذه المظاهر والخصائص وبين ما تتصف به أعضاء المرأة من تركيب وشكل، وهى تنتقل من دراسة موضوع الفتور الجنسى الى موضوع المازوخية بعقد فصل عما تشعر به المرأة من خوف وجزع بل من قلق وحصر نفسى أمام مطالب الغريزة الجنسية وظروف تنشيطها .

ولتوضيح هذه المواقف التى تقفها المرأة من الأمور الجنسية تتجه مارى بونابرت فى الفصل الخامس الى دراسة الكائنات الحية فى صورها الوضيعة مبينة كيف يقاوم الكائن الحى كل محاولة للاعتداء عليه وتمزيقه وتنتهى من دراساتها المقارنة الى تقرير وجود عقدة ثانية تصاحب عقدة الخصاء وهى **عقدة الثقب** .

أما الفصل السادس فهو نص المحاضرة التى ألقتها مارى بونابرت فى السربون فى مايو بمناسبة احتفال فرويد ببلوغه الثمانين . والغرض من هذه المحاضرة بيان أن التحليل النفسى هو فى آن واحد طريقة للعلاج وطريقة للوقاية من الامراض النفسية وأخيرا فانه أصبح علما قائما على

(*) « مجلة علم النفس » ، يناير ١٩٥٣ .

بحوث جماعة دولية من العلماء في مشارق الأرض ومغاربها • وفي خاتمة هذه المحاضرة دعوة الى الأمل والتفاؤل : لا يمكننا أن نوجه غرائزنا ونسيطر عليها الا بعد الوقوف على طبيعتها ، فالمهندس لا يمكنه أن يبنى السد الا اذا عرف أولا شدة ضغط المياه فالعقل لا يسيطر الا على ما يعرفه معرفة دقيقة مستقصاة • وهذا يذكرنا بقول الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون : لا يمكن السيطرة على الطبيعة الا بعد الخضوع لها ، أى بعد الكشف عن القوانين التى تكشف عن كنه ظواهرها •

ويلى هذا الفصل عشرة فصول قصيرة فى موضوعات متنوعة مستوحاة معظمها من الطبيعة • وتبرز المؤلفة فى هذه المقالات سعة ثقافتها ودقة حسها الأدبى وعمق تفكيرها العلمى • ويؤدى هذا الكتاب كأمثاله من الكتب التى تضم مجموعة من المقالات المنشورة فى عدة مجلات خدمة جليلة للقراء • فقد تضخم اليوم الانتاج العلمى فى ميادين علم النفس المتعددة بحيث أصبح من المحال على القارىء بل على الباحث المتخصص الاطلاع على كل ما ينشر من بحوث فى مجال تخصصه • وقد عمت هذه الطريقة فى الجمع والنشر فى الولايات المتحدة حيث تنشر الحوليات فى مختلف فروع التحليل النفسى وما يتصل به من علوم انسانية أخرى •

مصطلحات علم النفس (*)

نشره هنرى بيرون بمعاونة « جماعة المشتغلين بالعلم » باريس ١٩٥١ — ٣٥٧ صفحة

Vocabulaire de la Psychologie. Publié avec la collaboration de l'Association des Travailleurs Scientifiques. Presses Universitaires de France, Paris, 1951, p. 357.

هذا هو أول قاموس لمصطلحات علم النفس ينشر باللغة الفرنسية. ويرجع الفضل فى نشره الى عميد علم النفس التجريبى فى فرنسا الأستاذ هنرى بيرون وأربعة عشر من المشتغلين بمختلف فروع علم النفس . ويسد هذا الكتاب فراغا كان ملحوظا فى المكتبة الفرنسية ، فمنذ عام ١٩٢٢ كونت جمعية علم النفس الفرنسية لجنة لوضع قاموس المصطلحات السيكولوجية ولكن كان مصير هذه اللجنة ككثير من اللجان الرسمية الاكتفاء بوضع البرنامج دون الشروع فى تنفيذه .

ان اشراف هنرى بيرون على اصدار هذا القاموس يتفق مع منطق الأشياء اذ أنه يعمل فى حقل العلوم السيكولوجية منذ بداية هذا القرن وربما هو السيكولوجى الوحيد فى العالم الذى يحق له أن يدعى الاطلاع على معظم ما يكتب فى علم النفس وذلك بفضل اشرافه على اصدار السنة السيكولوجية L'Année Psychologique منذ عام ١٩١٣ ، والواقع أن بيرون ساهم بالقسط الأكبر فى وضع التعريفات خاصة لمصطلحات علم النفس الفسيولوجى وعلم النفس التجريبى وعلم النفس التطبيقى . أما مصطلحات علم النفس المرضى فقد عرفها الدكتور سيفادون فى حين قام الدكتور لاجاش بتعريف مصطلحات التحليل النفسى . ويلاحظ بهذا الصدد أن الاتفاق لم يكن تاما بين سيفادون ولاجاش ، فالأول ينتمى الى المدرسة القديمة فى الطب العقلى متجاهلا

(*) «مجلة علم النفس» ، اكتوبر ١٩٥٢ .

الى حد كبير ما أدخله التحليل النفسي من تجـــديد فى نظرتنا الى بعض الأمراض العقلية . وربما لا يعد هذا الاختلاف فى المنهج عيبا اذ أن من وظيفة القـاموس أن يعرف المصطلحات طبقا للمعنى الذى يقصـــــده واضعوها غير أن بعض تعليقات الدكتور ســــيفادون توحى بأنه يؤثر مدرسة على مدرسة أخرى وليس من وظيفة القاموس العلمى أن يكون مذهبى النزعة . ويبدو لنا أن مساهمة الدكتور سيفادون لم تكن دائما موفقة كما يجب أن تكون فهو يخطىء فى تعريف Amentia ومعناها أن يولد الشخص بدون عقل ويعتبرها ضربا من ال dementia أى فقدان المريض لعقله بعد أن كان يتمتع به . وكذلك نجده يعرف السيكوباتية على انها مجرد مرض عقلى ولا يفطن الى المعنى الجديد الذى اكتسبه هذا اللفظ فى المؤلفات الانجليزية وكان من المفيد الاشارة الى معنى اللفظ بالانجليزية لأن بعض المؤلفين الفرنسيين يتأثرون بالمعنى الفرنسى وهو المعنى الاشتقاقى للكلمة عند قراءتهم للنصوص الانجليزية .

أما تعريفات الدكتور لاجاش فى التحليل النفسى فهى جـــديرة بثقتنا ، غير ان لفظ cathexis الذى كثر استعماله فى مؤلفات المحللين الفرنســيين لم يرد ذكره فى القـاموس كما أن لاجاش عند تعريفه عقـــدة النقص complexe d'infériorité لم يشر الى الفرق بين مداول العبـــارة عند فرويد ومدلولها الآخر عند ادلر . ووردت كلمة cathexis فى القاموس وهى من الألفاظ الشائعة فى التحليل النفسى ومعناها شحن موضوع ما بشحنة وجدانية جديدة تزيد فى قيمته . وقد عرف هذا اللفظ بيرون على انه من وضع تولمان الأمريكى فى عام ١٩٤٩ والمقصود منه العلاقة القائمة بين الغرض وأشـبـاع النزعة التى ترمى الى هذا الغرض وكان من المنتظر أن يذكر لاجاش معنى هذا اللفظ كما استخدمه فرويد قبل تولمان بنصف قرن .

ومن الملاحظ أن بعض المصطلحات التى ما زلنا نقابلها فى الـكتب الحديثة لم يرد ذكرها فى القاموس مثل anaglyptoscope (*) الذى ورد فى صفحة ٧١٥ من الطبعة الثانية لكتاب تاريخ علم النفس التجريبى لبورنج المنشور سنة ١٩٥٠ والمعرف فى قاموس علم النفس لوران warren ولفظ antonomasie الذى يشــير الى نوع فى الافيزيا وورد ذكره فى كتاب حـــديث (١٩٥٠) لاومبردان Ombredane عن الافيزيا (صفحة ١٢٧) .

(*) هو جهاز مستخدم منذ حوالى قرن لاحداث خداع فى اتجاه ظل الاجزاء البارزة.

غير أن هذا القاموس فى مجموعه جدير بالاعجاب وليس من أقل مزاياه أن يكون متقن الطبع الى أقصى حد من حيث جودة الورق ووضوح الحروف وحسن اختيار أحجامها وأشكالها ومما يزيد من فائدة هذا المجهود العلمى الكبير الجداول الواردة فى آخر الـكتاب للمنطوقات الاحصائية ومختلف الرموز المستخدمة فى الاختبـارات السيكولوجية وتحليل العوامل النفسية والعلوم الرياضية .

مناهج التطبيقات السيكولوجية (*)

تأليف بيرون وبيشو وفافرج واشتزل .
باريس ١٩٥٢ ــ من ص ١٢٣ الى ص ٣٣٩

MÉTHODOLOGIE PSYCHOTECHIQUE

par

H. Pieron, P. Pichop, J.M. Saverge et J. Stodtzel

P.U.S., Paris, 1931, pp. 123-339

هذا هو الجزء الثانى من كتاب علم النفس التطبيقى الذى صدر باشراف الأستاذ هنرى بيرون . وقد سبق أن عرضت المجلة فى عدد أكتوبر ١٩٤٩ للجزء الأول فى سيكولوجية الفروق الفردية بعد أن ذكرت اسماء الأجزاء السبعة التى سيتكون منها الكتاب عند اكتماله .

يعالج هذا الجزء منـــاهج البحث فى علم النفس التطبيقى وهو ينقسم الى اربعة فصول اطولها الفصل الأول (١١٩ صفحة) الذى كتبه هنرى بيرون فى علم الأقيسة السيكولوجية Psychométrie . ويشتمل هذا الفصل على خمسة أقسام . يمهد القسم الأول لدراسة طرق الاختبار فى علم النفس بالاشارة الى مختلف وســـائل تقــدير الامتحانات العادية وما بها من عيوب . ويتناول القسم الثانى الشروط التى يجب أن تتوافر فى الاختبارات لكى تكون ثابتة صادقة . ثم يعرض المؤلف فى القسم الثـــالث لدلالة الأقيسة الســــيكولوجية وطرق استخدامها . وبعد الاشارة الى كبرى فئات الاختبارات يأتى فى القسم الخامس عرض استقصائى لجميع أنواع الاختبارات من حسية وادراكية وحركية وذهنية الخ ... ويشتمل هذا الفصل على ٣٥ شكلا .

وقد خصص الفصل الثانى لاختبـــارات الشخصية وقد اهتم المؤلف الدكتور بيشو بالاختبارات الاسقاطية بوجه خاص .

أما الفصل الثالث فموضوعه الطرق الاحصائية وكيفية استخدامها

(*) «مجلة علم النفس» ، أكتوبر ١٩٥٢ .

فى البحوث السيكولوجية . وقد أشار فافرج مؤلف هذا الفصل الى طرق تحليل العوامل بعد أن استعرض طرق الاحصاء البسيطة .

وينتهى الكتاب بالفصل الرابع وموضوعه وسائل دراسة الرأى العام وطرق تطبيق هذه الوسائل فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى والدور الذى تؤديه معاهد الرأى العام وما تعقده هذه المعاهد من مؤتمرات دولية .

فرويد والقرن العشرون (*)

مجموعة مقالات لفريق من علماء النفس والفلسفة والأدب والفن والدين

أشرف على اختيارها ونشرها : بنيامين نلسون

يضم هذا الكتاب ست عشرة مقالة لمؤلفين مختلفين أشرف على اختيارها ونشرها « بنيامين نلســـون » بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد سيجموند فرويد (٦ من مايو ١٨٥٦) . بعض هذه المقالات كتبت خصـيصا لهذا الكتاب وبعضها الآخر سـبق نشرها فى مجلات مختلفة . والموضوع الأساسى الذى ينتظم هذه المجموعة من البحوث هو مدى تأثير مذهب التحـــليل النفسى لا فى علم النفس والطب العقلى فحسب ، بل أيضا فى العلوم الاجتماعية والسياسية فى الأدب والفن ، فى الفلســفة والدين ، أو بعبـــارة أخرى ، مدى تأثير « فرويد » فى صياغة صورة انسان القرن العشرين .

شاهد مطلع هذا القرن حدثين كبيرين فى مجال العلم ، أولهما نشر « فرويد » عام ١٩٠٠ لكتابه العظيم فى تفسير الأحلام ، وثانيهما عرض « أينشتين » عام ١٩٠٥ لنظريته فى النسبية ، كشف « تفسير الاحلام » عن اعماق النفس ، وحطم وحدتها الشعورية الظاهرة ، وزود الباحث بأنجع الوسائل لسبر غور اللاشعور وحل رموزه ، فزاد وعى الانسان بالقوى الهائلة التى تتنازعه ، واحتد شـــعوره بقدرته وضعفه فى آن واحد . أما البحوث التى أثارتها نظرية النسبية فقد أدت الى تغيير نظرتنا الى العالم المادى والى تحطيم الذرة وانطلاق الطاقة الهائلة الكامنة فى النواة . تفجير النفس من جهة وانطلاق القوى اللاشعورية ، وتفجير الذرة من جهة أخرى وانطلاق الطاقة النووية ، والمشكلة الكبرى التى تواجه الانسان اليوم هى التنبؤ بقدرته على أن يسيطر على هذه القوى المنطلقة . هل سينجح فى التغلب على نفسه لكى يضـــمن الغلبة على

(*) «المجلة» ديسمبر ١٩٦١ .

القوى المادية التى حررها ؟ وهل معرفته بأعماق نفسه واعترافه بنزعاته العدوانية ستزيده قدرة على ضبط النفس وتهذيبها وتساعده على أن يحقق قدرا أكبر من النضج ، أم سيصبح عملاق القرن العشرين فريسة نفسه وضحية الأسلحة الرهيبة التى وضعها العلم فى يده الهزيلة ؟ تلك هى بعض التأملات التى تثيرها نظريات « فرويد » فى طبيعة الانسان وطبيعة الحضارة البشرية .

وزعت مقالات الكتاب فى ستة أقسام :

١ ــ وقفات عند منتصف القرن ، وهى ثلاث مقالات تتناول التحليل النفسى بنظرة شاملة لتقدير مدى تأثير الثورة الفرويدية فى أساليب التفكير والسلوك ، ثم تقدير شخصية « فرويد » العالم ومعرفة ما اذا كانت الثورة التى أحدثها جديرة بأن تشبه بالثورة الكوبرنيكية ، واخيرا تطور مفهوم الانسان فى الطب العقلى المعاصر .

٢ ــ يشتمل القسم الثانى على مقدمة كتبها « فرويد » عام ١٩١٧ لكتاب « تيودور ريك Theodor Reik فى دراساته التحليلية النفسية للدين ، ثم ذكريات عن « فرويد » ، الرجل والعالم ، وعن علاقة « فرويد » « بيونج C. Jung » كتبها اثنان من تلامذة فرويد واصدقائه .

٣ ــ ويتناول القسم الثالث المراحل الأولى للتحليل النفسى بقلم « اركسون Erikson » ثم تأثير التحليل النفسى فى علم النفس فى الولايات المتحدة بقلم « جاردنر مورفى G. Murphy » .

٤ ــ وموضوع القسم الرابع : « المجتمع والسياسة » ويشتمل على فصلين ، يعقد فى أحدهما « فردريك هاكر F. Hacker المقارنة بين « فرويد » و « ماركس » و « كيركجارد » ، ويتناول فى ثانيهما « ول هربرج W. Herberg موقف « فرويد » وموقف بعض المحللين المحدثين من الواقع الاجتماعى .

أما القسم الخامس والسادس فتعالج فصولهما الستة ، علاقة التحليل النفسى بالآداب والفنون والفلسفة والدين .

وحيث ان جميع مقالات الكتاب لم تكتب خصيصا له ، ولم يتم أى اتفاق سابق بين المؤلفين ، فهناك كثير من التكرار فيما يتعلق بعرض نظريات التحليل النفسى وبتتبع تطورها . غير أن هناك أيضا وجهات نظر متعارضة فيما يختص بتقدير اهمية بعض هذه النظريات وفوائدها

التطبيقية فى مجال النقد الأدبى والفنى وفى مجال تفسير الشـــعور الدينى . وسنشير بصفة خاصة الى اوجه الاختلاف لما تنطوى عليه من قوة دافعة الى التفكير والتأمل ومواصلة البحث فى هذا المجـال الحيوى الخطير : طبيعة الانسان ومصير الحضارة .

* * *

يرى « الفرد كازين A. Kazin أن أكبر دليل على عظمة « فرويد » أن اسمه لم يعد اسم رجل ، بل أصبح مرادفا لجزء من الطبيعة . فان عددا كبيرا من الناس ، وبخاصـــة فى أمريكا ، لا يمكنهم أن ينســـوا اسما أو يزل لسـانهم أو يشـــعروا بانهباط دون أن يتساءلوا عن العلة الفرويدية لما حدث لهم . وعلى الرغم من أن التحليل النفسى لا يزال ساحة قتال بين أنصاره والمعارضين له من علماء النفس التجريبيين ، بل على الرغم من أن بعض المحللين النفسيين لا يأخذون بكل ما قاله فرويد من آراء ونظريات فان للتحليل النفسى ، فى صورته الشـــعبية المبسطة تاثيرا عميقا فى تفكير العامة وفى موقفهم من الأخلاق التقليدية التى كثيرا ما تنطوى على التعسف والقســـوة والرياء ، وفى اعترافهم الأعمى بالدور الكبير الذى يؤديه الدافع الجنسى فى أحـلام الانســـان وتخيلاته ، وفى علاقاته بالآخرين ، وفى الدلالة الرمزية للغة .

ومن الواضح أن هذا التاثير قد تضخم فى بعض الأوساط الى حد الانحراف : فلا يمكن أن يفلت أى تصرف من أن يؤول تأويلا فرويديا بالعقد والكبت والصراع والتعويض وما الى ذلك من حيل اللاشـــعور وعملياته الرمزية الغامضة . أضف الى ذلك نزعة بعضهم الى تفســـير شتى المشكلات الاجتماعية والسياسية تفسيرا سيكولوجيا وارجاعها الى حالات فردية من العصاب أى من المرض النفسى . وليس من العســـير أن نتبين اثر مفاهيم التحليل النفسى وتصوراته فى أســاليب الاعلان والدعاية ، فى السينما والمسرح .

ولا شك أن المجال الذى تأثر أكثر من غيره بالتحليل النفسى هو مجال الطفولة وأساليب تربية الطفل فى السنوات الأولى من حياته ، وضرورة مراعاة ما يتميز به كل جنس بالقياس الى الآخر والنظر الى الجنسين بوصفهما مكملين أحدهما للآخر مما أدى الى رفع شـــأن البنت وحملهـــا على قبول جنســــها حتى تتجنب الانحراف والمرض النفسى .

لا شك فى أن بعض آراء « فرويد » وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية ـ قد شوهت . ان « فرويد » بكشفه عن الدور الكبير الذى تؤديه الغريزة الجنسية فى دفع السلوك وتعيين كثير من صوره لم يقصد الى تمجيد الغريزة ، ولم يدع الى اطلاقها وتحريرها ، انه لم يقل ان المرض النفسى ينتج عن كبت الغريزة الجنسية ، بل قال عكس ذلك . ان المرض النفسى ينشأ عن نقص الكبت وفشله . أن المدنية لم تقم الا بفضل تضحية الانسان بغرائزه وبفضل تحويل طاقتها نحو أغراض سامية . ان النضج الذى يجب أن يحققه الراشد ، بأن يتجاوز مراحل الطفولة وما تتميز به من اندفاعية ، لم يمكن أن يتم الا بفضل تقوية الأنا أمام ضغط الدوافع اللاشعورية . والغرض الذى يرمى اليه العلاج هو تحقيق النضج وتدعيم الأنا بحيث يصبح الشخص قادرا على أن يختار بنفسه أهدافه والوسائل المؤدية الى تحقيقها ، بحيث يتشبه « بفرويد » العالم الذى يظل يبحث محاولا تنمية أفكاره الى أبعد مدى ممكن .

ان عبقرية « فرويد » تكمن فى ايمانه بالعلم وبالعقل ، وفى جرأته فى افتراض الفروض الجديدة التى يوحى بها الواقع اليومى . لم يكن « فرويد » جامدا فى تفكيره ، والخطر الكبير الذى يهدد التحليل النفسى اليوم هو جمود كثير من الفرويديين الذين شغلتهم مهنة العلاج عن مواصلة الرسالة العلمية التى دعا اليها منشىء التحليل النفسى .

كثيرا ما يشبه فرويد بمؤسس علم الفلك الحديث «كوبرنيكوس» و « بدارون » صاحب نظرية النشوء والارتقاء وأحد أوجه الشبه بين الثلاثة أنهم حطموا كبرياء الانسان وحددوا موقفه المتواضع من الكون . فلم تعد الأرض مركز الكون كما كانت فى نظرية « بطليموس » ولم يعد الانسان سيد الخليقة ومن جوهر متعال ، ولم يعد العقل هو صاحب السيطرة على سلوك الانسان . ولكن أليس هناك وجه شبه آخر بين الثلاثة من حيث ان كلا منهم وضع نظرية جديدة غيرت تغييرا شاملا نظرة الانسان الى الكون والى نفسه ؟ هل اكتسح التحليل النفسى مجال علم النفس كله وهل سيقضى فى يوم من الأيام على سائر النظريات السيكولوجية وعلى مختلف المدارس التى تحاول كل من وجهة نظرها الخاصة تفسير سلوك الانسان ؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه « نيجل ووكر » Nigel Walker فى مقاله القيم (هل فرويد كوبرنيكوس جديد ؟) .

يسلم المؤلف بأنه يصعب تقدير فضل « فرويد » العالم المفكر لأنه لا يزال قريبا منا اذ ان « فرويد » ظل حتى وفاته عام ١٩٣٩ يقدم آراء جديدة ، ومن جهةأخرىلا يزال علم النفس ميدان قتال وصراع ولايمكن اقامة تمثال لفرويد الا بعد انتهاء المعركة ٠

أن « ووكر » بالاضـــافة الى كونه سيكولوجيا اكلينيكيا يهتم بفلسفة العلوم وبالمشكلات المنطقية التى يثيرها علم النفس والعلاج النفسى٠ فهو يبدأ باستعراض ما أضافه فرويد من جـديد الى الدراســـات النفسية ، ان « فرويد » لم يكتشف اللاشعور ، بل أبدع طريقة لتخفيف بعض الاضطرابات النفسية بجعل المريض يتحدث .

كان العلاج النفسى قبـل « فرويد » بأن يتحـــدث الطبيب الى مريضه مستخدما معه شتى وسائل الايحاء ٠ أما « فرويد » فانه حمل المريض على أن يتكلم ٠ ولكن هناك مقـــاومات وعقبـــات توقف المريض عن الكلام ، فالمجال النفسى اذن ليس كله شعوريا ، هناك بعد ثالث هو اللاشعور . ولغة اللاشعور لغة غامضة رمزية مقنعة مضللة ، فـكان لابد من توضيح هذه اللغة وترجمة رموزها وهذا ما صنعه «فرويد» بتحليل نفسه وبتحليل الآخرين فى آن واحد ٠

وليس « فرويد » كذلك هو أول من ميز بين الهو والأنا ، فقـد سبقه الى هذا التمييز « نيتشه » Nietzsche وجرودك Groddeck . انما ما فعله « فرويد » هو رسم مخطوطة للنفس البشرية تبين العـــلاقات القائمة بين الهو والأنا والأنا الأعلى ٠ وقد أفادت هذه المخطوطة بصـــفة خاصة فى مجال الطب العقلى ٠

وقد يكون تفسير فرويد لنجوع منهجه العـلاجى تفسيرا ناقصا ، فهو يرجع أثر الشفاء الى عملية « التطهير catharsis أكثر من ارجاعها الى طبيعة العلاقة بين المحلل والمريض ، أى عملية « التحويل transference

ولم يكن « فرويد » أول من أكد دور الدافع الجنسى فى الســـلوك وخاصة لدى الطفل ، فقد سبقه فى هذا الميدان « شاركو Charcot و « هافلوك اليسHavelock Ellis » غير أن نظرة « فرويد » الى دوافع السلوك كانت أعمق ، فهو يتحدث عن قوة نفســية جسمية « الليبيدو Libido » واشتراكها مع غريزة العــــدوان ، وفى هذا تمثيل للنزعة العلمية السليمة التى ترجع تنوع الظواهر الى أقل عــدد ممكن من العــوامل .

وجولات « فرويد » وأتباعه فى مجـــال الانثروبولوجيا والآداب والفنون لم تكن دائما موفقة غير أنها ألقت بعض الأضواء الكاشفة .

اما الكشـف الأكبر لفرويد فى رأى « ووكر » فهو رأيه فى عملية الكبت وفى الوظيفة الارضائية للاحلام . ان « فرويد » بهذا الكشـف الجديد قد سبق بحوالى اربعين عاما المبدأ الأساسى الذى يقـــوم عليه علم حـــديث يعرف بالسيبرنتيكا cybernetics هو المبدأ الذى يقـوم بمقتضاه جهاز بطريقة آلية باصلاح أى انحراف يطرأ عليه أو بتعويض هـــذا الانحراف ، كالجهاز المعروف بالدماغ الآلكترونى ، وجهاز تصويب المدفع نحو هدف متحرك . من المعروف أن استجابة الانسان للمنبـــه قد تكون بالاقدام أو بالاحجام ، كالبحث عن الطعام مثلا أو تجنب منبـــه مؤذ . يرى « فرويد » أنه من الممكن ارجاع جميع الاستجابات الى النوع التجنبى أو الاحجامى : البحث عن الطعام هو تجنب آلام الجـــوع . فوظائف الجهاز العصبى هى حمايته من المنبهات ، والكبت وســـيلة لتجنب المنبهات المؤذية ، والحلم كذلك وسيلة لحماية الجهاز العصبى من اليقظة السابقة على أوانها ، فالحلم كما يقول « فرويد » هو حارس النـــوم .

وهنا يتساءل « ووكر » هل هنـــاك ما يبرر تشبيه « فرويد » «بكوبرنيكوس» أو «بدارون» ..

ويجيب « ووكر » بالنفى وفيما يلى حجته .. ان التقدم العلمى يتم بوجه عام بطرق ثلاث :

أما أن يكون الكشف تكنيكيا ، أى الكشف عن سيلة جديدة للأداء وأما كشف ظاهرة جديدة ، أو قانون جديد . وهنـــاك نوع رابع للتقدم العلمى لا يحدث الا مرة واحدة كل قرنين أو ثلاثة قرون ، وهو تغيـــير كلى للنظرة التى ينظر بها علم ما الى موضوعه .

فمثلا نظرية « دالتون Dalton » فى الطبيعة الذرية للمـــادة هى التى سمحت باقامة علم الكيمياء . ونظرية « دارون » غيرت نظرة علم الأحياء الى موضوعه ، وكذلك نظرية «نيوتن» Newton ثم نظرية « اينشـــتين Einstein » فيما يختص بعلم الطبيعـــة . فكل هؤلاء كوبرنيكوس ، أما « فرويد » فهل أدت نظريته الى تغيير نظرة علم النفس الى موضوعه ؟ .

يرى « ووكر » ان « فرويد » ليس كوبرنيكيا ، لأن كشفه من النوع الأول ، أى كشف طريقة جديدة لعلاج الأمراض النفسية ، أى اختراع التحليل النفسى كمنهج علاجى .

ان هذه النتيجة لاتمس بطبيعة الحال عبقرية « فرويد » العالم، وهى تتفق الى حد كبير مع ما وصل اليه « جاك ماريتان » فى الفصل الرابع عشر من الكتاب وعنوانه : « الفرويدية والتحليل النفسى من وجهة نظر فلسفة توماس الاكوينى » ان ماريتان أشهر فيلسوف فرنسى ينتمى الى الفلسفة التوماسية الحديثة . بدأ حياته الفكرية بنقد لاذع لفلسفة « برجسون » ومن كتبه الرئيسية « مدارج المعرفة » « الحدس المبدع فى الفن والشعر » « الفن والفلسفة المدرسية » ويرى « ماريتان » أنه عند التحدث عن فرويد من الضرورى التمييز بين ثلاثة جوانب من أعماله :

أولا : منهج التحليل النفسى العلاجى .

ثانيا : علم النفس الفرويدى

ثالثا : الفلسفة الفرويدية

وهذا هو التقسيم الذى يتبعه « ماريتان » فى بحثه .

ان فرويد متفق مع تعليم القديس « توماس الأكوينى » فى القول بوجود اللاشعور وبالأثر الفعال الذى يقوم به الشعور أثناء العلاج. ولكن وجه الاختلاف يكمن فى انكار « فرويد » لحياة الشعور الخاصة ولطاقته الخاصة أى ما يتمثل فى الجانب العقلى للنفس البشرية فى احكام العقل فى اختبارات الارادة الحرة . فالمشكلة هى مشكلة اختصاص كل من اللاشعور والشعور .

فاللاشعور قائم ، لا جدال فى ذلك ، ولكن كيف نستطلع هذا العالم الغامض ؟ الوسيلة حسب « فرويد » هى فك الكبت أو التحرر الوظيفى . لتحقيق ذلك قد يلجأ بعضهم للعقاقير المخدرة أو التنويم الصناعى « النوام » ولكن « ضربة العبقرى » كما يقول « ماريتان » هى عندما طلب « فرويد » من مريضه أن يتوقف اراديا عن النقد الذاتى أو الضبط الذاتى ، تلك هى طريقة التداعى الحر . وفى أثناء عرضه لخطوات العلاج يقف « ماريتان » عند بعض النقط التى يراها أساسية وهى :

اولا : التعبير النفسى .

ثانيا : قيمة التحليل النفسى من الوجهة العلاجية .

ثالثا : طبيعة العلاقة بين الطبيب والمريض .

١ ـ والمقصود بالتعبير النفسى ان كل ظاهرة نفسية مزدوجة التعين ، فهى معينة من الأمام أى عندما أفهمها خلال الموضوع الذى ترتبط به ، وهى أيضا معينة من الخلف أى عندما أفهمها خلال غيرها من حالات الشخص وميوله النفسية بحيث تكون هذه الظاهرة فى الوقت نفسه اثرا ورمزا لهذه الحالات والميول .

٢ ـ اما فيما يختص بالقيمة العلاجية للتحليل النفسى فانها قد تكون معدومة فى بعض الحالات ، لأن البحث التحليلى النفسى ينصب على معرفة الفردى شارحا حاضر الفرد بماضيه . فالتحليل النفسى لا ينتمى الى مجال العلم النظرى ، بل الى الطب وقد صرح « فرويد » نفسه « بان عملية العلاج بالتحليل النفسى ليست من قبيل البحث العلمى الموضوعى ؛ بل هى فعل علاجى » وهى لا ترمى بجوهرها الى اثبات حقيقة ما ، بل الى تغيير شىء وتعديله .

ويعتقد « ماريتان » ان هناك ما يثبت أن طريقة العلاج بالتحليل النفسى قد تؤدى الى كشف حقائق واستخلاص نتائج صحيحة كما انها قد تؤدى الى شفاء حالات من العصاب . غير أن التحليل النفسى ليس هو المنهج الوحيد للعلاج ، بل أحد المناهج لشفاء بعض أنواع من العصاب . ويترتب على هذا الرأى الأخير أن التحليل النفسى فى بعض الحالات قد يؤدى الى تفاقم المرض بدلا من شفائه .

وقد ينطوى الموقف العلاجى على تهديد موجه لا نحو المريض فقط بل أيضا نحو الطبيب نفسه .

٣ ـ وهنا ينتقل « ماريتان » الى مناقشة طبيعة العلاقة بين الطبيب والمريض وأهمية عملية التحويل ، فيقول أن المفروض فى الموقف العلاجى أن تتوارى شخصية الطبيب كانسان وراء ممثل فن العلاج بالتحليل النفسى . ولكن هذا الموقف الحيادى مهدد باستمرار ، وعلى الرغم من أن المحلل النفسى لم يسمح له بمزاولة فنه الا بعد تحليله هو على يد أستاذه ، فكثيرا ما ينشأ صراع صامت بين المعالج والمريض ،

كما ان تغيير العلاقات القائمة من قبل بين الشعور واللاشعور ينطوى على خطر كبير ، خاصة لدى المريض الذى طلب منه المعالج أن يتخلى عن نقده لذاته وان يستسلم لتيارات أفكاره وتصوراته .

وخلاصة رأى « ماريتان » أن « فرويد » اكتشف فعلا وسائل جديدة لاستطلاع أعماق اللاشعور ولعلاج الاضطرابات النفسية ، غير أن التحليل النفسى كغيره من الاكتشافات العلمية الحديثة ـ مثل الطاقة الاشعاعية ، القنبلة الذرية ، الخ . . ـ سلاح ذو حدين يجب استخدامه بحذق وحذر وبهدى من الضمير الخلقى الرفيع .

ويتناول « ماريتان » بعد ذلك علم النفس الفرويدى ويشيد بنزعته الديناميكية ، ويبرز مساهمة « فرويد » فى تفسير نشاط اللاشعور أثناء الأحلام وخلال الأعراض المرضية المصاحبة للأمراض النفسية كما أنه يؤكد خصوبة مفهوم الصراع النفسى ، ولا يفوته أن يذكر البحوث التجريبية ـ وبخاصة بحوث « بافلوف Pavlov » ومدرسته فى الفعل المنعكس الشرطى ـ التى جاءت مؤيدة لعدد من المفاهيم الفرويدية فى علم النفس وان اختلفت العبارات بين « فرويد » وبين علماء النفس التجريبيين .

غير أن « ماريتان » يأخذ على « فرويد » عجزه عن التمييز بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل ويحل الثانى محل الأول دون برهان كاف . وهذا يفسر لنا مبالغات « فرويد » فى مجال الجنسية الطفلية ، وعقدة أوديب ، واعتبار الطفل الصغير ذى فساد متعدد الوجوه ، فى حين كان فى امكانه أن يتجنب هذا الخطأ بقوله بأن الطفل قابل لأن تتعدد وجوه فساده .

كما يأخذ « ماريتان » على « فرويد » نظرته الضيقة الى مفهوم الاعلاء ، لأن «فرويد» ينكر استقلال الروحى
antonomy of the spiritual
ويعد الحالات النفسية العليا كالالهام الشعرى ، والحب الصوفى مجرد تحويلات وأقنعة للغريزة الجنسية . ان حالات التجلى والنشوة لدى الشاعر أو المتصوف من طبيعة روحية نوعية ، وهى على ذلك متميزة نوعيا من الغريزة . ولكن « ماريتان » يستطرد فى الحال ويقول أليس معنى هذا أنها منفصلة تماما عن الغريزة ، فاذا كان من غير المعقول ارجاع

الأعلى الى الأسفل فان فصلهما بعضهما عن بعض يتنافى والطبيعة البشرية .

وهذا يؤدى «بماريتان» الى أن يتحدث أخيرا عن فلسفة «فرويد» غير أنه يرى من عدم اللياقة التحدث عن فلسفة لا تدعى لنفسها هذه الصفة .. طبعا ان « ماريتان » ـ وهو الفيلسوف الروحى ـ يعارض فلسفة «فرويد » من أساسها ، لأنها تنكر الروحانية والحرية . فالمعين الأول للحياة النفسية هو اللاشعور ، هذا الجحيم الداخلى الذى يتصف بالكبت والبهيمية ، والطفلية والجنسية واللامنطقية ، غير أن فلسفة « فرويد » لا تخلو من طابع العظمة . ان « فرويد » قد نجح فى تمزيق القناع الذى كان يخفى الانسان وراءه غيه وضلاله ورياءه ، انه فضح الكذب الكامن فى الشعور الزائف .

وبفضل « فرويد » أصبح من المحال اليوم اصطناع بعض أساليب المكر والرياء .. فعلى الانسان اليوم لكى يعيد بناء وحدته ان يحقق لونا جديدا من البراءة والنضارة النفسية .

ولهذه الفلسفة التى تبرز الجانب البشع من وجه الانسان جانب آخر هو ما يشع منها من عطف وشفقة ، نحو المريض ، نحو الطفل الضعيف ، نحو الانسان عامة الذى وقع فريسة لعدد من الشياطين والذى يشعر بضياعه وتعاسته . ان فلسفة فرويد تذكرنا حقا بشعراء اليونان الذين صوروا ببراعة مأساة الانسان وهو يصارع القدر الذى لا يرحم .

* * *

ان هذه اللمحة الأخيرة تذكر القارىء بما جاء فى الفصل الحادى عشر وعنوانه « التحليل النفسى وجو المأساة بقلم « استانلى هيمان Stanley Hyman » الناقد الأدبى الشهير .

ان جو المأساة هو جو الصراع بين الانسان والقدر مع انتصار الأخير ، وهو يتمثل أحسن تمثل فى مسرحيات « ايسكيلوس » و « سوفوكليس » ، و « يوريبيديس » فى « اثينا » فى القرن الخامس قبل المسيح .

وقد قضت المسيحية على الأدب الماسوى لأن عذاب المسيح قد كفل الخلاص وأتى بالغفران . وكلما لاحت فى المسيحية بوادر المأساة

عدت خروجا على الدين كالزندقة المانوية مثلا ، التى تنكر انتصار المسيح ، أى انتصار مبدأ الخير على مبدأ الشر ، أو كالزندقة البلاجية، التى تنكر الخطيئة الأولى ، ومن القصص التى تدور حوادثها فى جو المأساة الاخوة كرامازوف « لديستويفسكى » و « موبى ديك » للكاتب الأمريكى « هومان ملفيل » . ولا يتفق جو هاتين القصتين مع الجو الفكرى للقرن التاسع عشر وهو جو انتصار النزعات العقلية والعلمية والايمان المتفائل باطراد تقدم الانسانية .

ويعتقد « هيمان » ان كتابات فرويد بعثت من جديد جو المأساة فى تفكير الانسان المعاصر ، وعلى الرغم من أن التحليل النفسى يرمى الى تحسين حال المريض فان « فرويد » كان حتى فى هذا المجال أميل الى التشاؤم منه الى التفاؤل ، فهو يصرح بعدم وجود الدليل الكافى للحكم على ضرورة انهاء العلاج بالتحليل . أما رأيه فى قصور الانسان دون الوصول الى الكمال فلم يستمده من المسيحية بل من « داروين » فتطور الانسان ابتداء من الحيوان ذى الخلية الواحدة هو الذى قضى عليه بالموت .

وقد استعار « فرويد » من المأساة اليونانية المواقف والتشبيهات للتحدث عما يعترى النمو النفسى من عقبات وحسبنا أن نذكر هنا عقدة أوديب ، والصراع القائم بين « ايروس » اله الحب والحياة و « ثاناتوس » اله الموت ، والتنبؤ بانتصار الموت فى نهاية الأمر .

ويحمل « هيمان » على اتباع « فرويد » امثال « فروم » و « سولليفان » الذين أذابوا نظريات فرويد الرائعة المروعة فيما يشبه ماء الورد ، وهم فرحون بأن يضحوا بالفن فى سبيل تحقيق مجتمع سليم من الناحية التحليلية النفسية . والواقع انهم أخطأوا فى ادعائهم فالمجتمع لايزال مريضا عليلا وقد طردوا من المجتمع الطبيب الوحيد الذى فى امكانه وحده أن يقول لهم الحقيقة وهذا الطبيب هو الفن .

ويتناول جومبريج Gombrick فى مقاله « التحليل النفسى وتاريخ الفن » نوع الخدمة التى يقدمها التحليل النفسى فى مجال النشاط الفنى . فيقرر أن معرفة شخصية الفنان وتاريخ خبراته السابقة قد تلقى بعض الضوء على اتجاهاته الفنية وعلى اختياره بعض الموضوعات دون غيرها، ولكنها لا تفيد فى الحكم على القيمة الفنية لعمله .. فاللوحة الفنية

تستمد قيمتها لا من شخصية هذا الفنان أو ذاك بل من انتمائها أولا الى عالم الفن .

وعالم الفن هو عالم رموز ، ولذة المتذوق فى كشف هـذه الرموز تدريجيا . اللوحة التى تفتننا بسرعة وعنف عديمة القيمة الفنيـــة لأنها تدفع المتأمل الى حالة من الارتداد والنكوص .

وهناك بعض الأخطاء الشائعة عن علاقة المرض النفسى بالفن . لم يقل « فرويد » بأن المرض النفسي هو المحرك الأول للنشاط الفنى ، كأن الفنان المريض يحاول التنفيس أو التعويض عن طريق التعبير الرمزى عن عقده وصراعاته ، بل على العكس من ذلك يرى « فرويد » أن المرض النفسي يعوق الدافع الابداعى . واذا كان العصابى عاجزا عن أن يسيطر على انفعالاته فان عجزه يزداد عندما يحاول ضبط الشحنة الوجدانية التى سينفثها فى رموز فنـه .

غير أن الفنان المعاصر قد اقترب من هاوية اللاشعور دون أن يقع فيها ودون أن يفقد وعيه . ان هناك توازيا بين تقدم التحليل النفسى نحو الأعماق الغامضـة للنفس وتطور الفن الحديث نحو الرمزية المفرطة كما فى السيريالية مثلا ، ولا شك فى أن التحليل النفسى قد هيأ الجو لقبول مثل هذه الألوان من الأساليب الفنية .

ومن أطرف البحوث الواردة فى الكتاب مقالة « جاردنر مورفى » عن تأثير فرويد فى علم النفس الأمريكى . فقد استعرض المؤلف مختلف فروع علم النفس وموضوعاته الرئيسية ، وحاول أن يقدر فى كل حالة مدى تأثير التحليل النفسى من صفر الى ستة . وفيما يلى ملخص هذا التقـــدير :

علم النفس الفسيولوجى	صفر
الذكاء	صفر
التعلم	١
التفكير	١
الادراك	١
علم النفس المقـارن	١

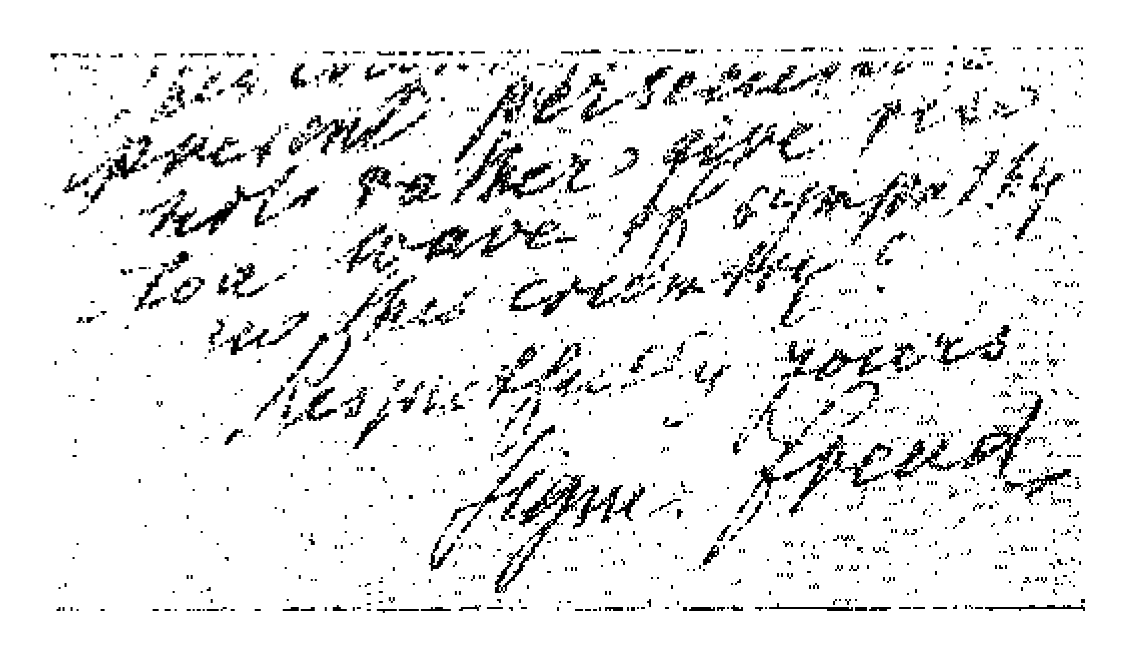
علم النفس المهنى	١
الدوافع ، الوجدان ، الانفعال والذاكرة	٢
علم نفس الطفل والمراهق	٢
علم النفس الاجتمـاعى	٣
علم النفس الصـناعى	٣
التخيـــل	٤
علم النفس المرضى	٥
علم النفس الاكلينيكى	٦
الشخصية	٦

أن الموضوعات التى قدرت من صفر الى ٣ لا تزال تعالج من وجهة نظر المدرسة السلوكية او المدرسة الجشطلتية . وقد يدهش القارىء عندما يلاحظ أن اثر التحليل النفسى فى علم نفس الطفل اثر ضعيف. والسبب فى ذلك أن عددا كبيرا من فصول اى كتاب فى علم نفس الطفل يتناول موضوعات بعيدة عن اهتمامات التحليل النفسى ، كالنمو الحسى والنمو الحركى ، وادراك العالم الخارجى ، وتعلم اللغة ، ونمو الذكاء وقياسه ، وحتى فصل الشخصية قد يخلو من الاشارة الى « فرويد » اذا كان المؤلف لا يميل الى التفسير بالمفاهيم الفرويدية .

ومن الطبيعى أن يزداد تأثير التحليـــل النفسى فى دائرة علم النفس الاكلينيكى ودراسة الشخصية ، اى فى دائرة يكون فيها عالم النفس أمام شخص آخر له فرديته المميزة له ، لا أمام رقم غفـــل من الصفات الشخصية . نعم ان كثيرا من المعـانى التحليلية قد استخـــدمت فى اختبارات جماعية للشخصية ، كالاختبارات الاسقاطية مثلا ، ولكن منهج تطبيق اختبارات على عدد كبير من الأشخاص دفعة واحدة يتنافى مــع الروح الاكلينيكية للتحليل النفسى ، روح المواجهة بين شخصين .

وقد أكد هذا الاتجاه الانسانى للتحليل النفسى كل من « زيلبورج Zilbvorg و « اريكسون » Erikson الأول فى مقاله عن تغيير مفهوم الانسان فى الطب العقلى المعاصر ، والثانى فى حديثه عن المحلل الأول، فقد اتفقا فى أن ما يميز التحليل النفسى هو هــذه الروح الانسانية التى تحترم شخصية الفرد وحريته وحاجته الى تحقيق ذاته .

ان تحقيق مثل هذه الرسالة يضع بدون شك التحليل النفسى فى مرتبة الأعمال الجليلة التى يحق للانسانية الاعتزاز بها .



Respectfully yours
Sigm. Freud

« نموذج من خط فرويد »

تاريخ علم النفس
في مصر

الخيالات والأوهام والهلوسات وعمليات الايحاء الذاتي والايحاء الجماعي وما اليها من الظواهر الذاتية (١) ٠

يرى بعض مؤرخي علم النفس الحديث ان الدراسات السيكولوجية لم تدخل طورها العلمي التجريبي الا منذ عام ١٨٦٠ عند ما نشر فخنر في مدينة ليبزج في ألمانيا كتابه « مبادىء السيكوفيزيقا » أي دراسة العلاقة الكمية بين المنبه والاحساس أو كما يقول المؤلف « العلم الدقيق للعلاقات الوظيفية أو علاقات التبعية بين الجسم والعقل » (٢) وكان فيبر Weber قد سبقه في دراسة العلاقة بين المنبه والاحساس ، غير أن فخنر هو الذي صاغ قوانين فيبر صياغة رياضية والخطوة التالية في تدعيم الأسس التجريبية للدراسة النفسية حققها عالم وفيلسوف ألماني آخر هو فوندت Wundt « ١٨٣٢ — ١٩٢٠ » عندما أنشأ في جامعة ليبزج أول معمل لعلم النفس التجريبي عام ١٨٧٩ ٠ وقد أشار منذ عام ١٨٦٢ في كتابه عن نظرية الادراك الى منهجه في دراسة علم النفس اذ يقول ، ان علم النفس يبدأ بالاستبطان ولكنه يستعين بمنهجين مساعدين وهما اجراء التجارب والتاريخ الطبيعي للجنس البشري (٣) ٠ وهو أول من تحدث عن علم النفس التجريبي وأكد بعكس ما كان يذهب اليه هربارت ان المنهج التجريبي قابل للتطبيق في الدراسات السيكولوجية ٠ وقد أقام الدليل على ذلك في كتابه « علم النفس الفسيولوجي » (١٨٧٤) ٠ ثم في سلسلة البحوث التجريبية التي أجراها هو وتلامذته في معمله والتي نشرت في مجلة « الدراسات الفلسفية Philosophische Studien التي أنشأها فوندت عام ١٨٨٣ وهي أول مجلة مخصصة لنشر البحوث السيكولوجية ٠

ذلك هو الاطار التاريخي الأول لنشأة علم النفس من حيث هو علم اخضاع دراسة الاحساس والادراك للمنهج التجريبي والتعبير عن النتائج بطريقة كمية ، ثم جاءت الدراسة التجربية لعمليات الحفظ والتذكر مع

---

(١) انظر مجلة علم النفس ، المجلد الاول ، العدد الأول يونيو ١٩٤٥ ، ص ٩٨ — ٩٩ « علم النفس برىء من ٠٠ » ٠

(٢) مما هو جدير بالذكر ان فخنر (١٨٠٠ — ١٨٨٧) لم يكن نشاطه مقصورا على علم النفس التجريبي ٠ فقد بدأ حياته العلمية بدراسة الطب وأصبح استاذا لعلم الفيزياء، وله مؤلفات في الفلسفة وعلم الجمال ٠

(٣) تناول فوندت هذا الموضوع في كتابه سيكولوجية الشعوب Volker psychologie الطبعة الاولى سنة ١٩٠٠ والطبعة الخامسة سنة ١٩٢٠ في عشرة مجلدات ٠

ابنجهاوس (١٨٥٠ ـ ١٩٠٩) وتطبيق منهج الاستبطان التجريبي على العمليات العقلية العليا في جامعة فرزبورج بألمانيا باشراف كولبيه (١٨٦٢ ـ ١٩١٦) . وقد قام بينيه في فرنسا وودورث في الولايات المتحدة الأمريكية ببحوث مماثلة . ونشطت في فرنسا الدراسات في ميدان علم النفس المرضي مع شاركو وريبو وجانيه ؛ وفي انكلترا في مجال الفروق الفردية مع جولتن هذا فضلا عن الدراسات التي تناولت سيكولوجية الحيوان والطفل . وعند انتهاء القرن التاسع عشر يكون علم النفس قد دعم أسسه العلمية التجريبية بانشاء المجلات والمعامل وأصبح يدرس في الجامعات الأوروبية والأمريكية بوصفه علما بحتا كسائر العلوم الأخرى ولم تبدأ حركة التطبيقات السيكولوجية الا في القرن العشرين (١) .

اما في مصر فالمحاولات التي بذلت في عهد محمد علي لنقل العلوم الحديثة ونشرها كانت معظمها محصورة في دائرة التعليم المتخصص لخدمة الجيش ، فتعددت المدارس العسكرية . وكان الغرض الأساسي من انشاء مدارس الطب والصيدلة والولادة والطب البيطري والزراعة والهندسة تخريج الفنيين الذين تحتاج اليهم الآلة العسكرية التي أنشأها محمد علي (٢) وباستعراض الكتب التي ترجمها الشيخ رفاعة بك الطهطاوي وتلاميذه الذين تخرجوا في مدرسة الألسن ، يتضح لنا أن معظمها في الفنون الحربية والهندسية والطبية وبعض كتب الجغرافيا والتاريخ . أما العلوم الانسانية والفلسفية فكان حظها ضئيلا ، نذكر منها : (٣) .

كتاب قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر ؛ تأليف ديبنيج وترجمة رفاعة بك ـ طبع سنة ١٢٤٩ هـ .

كتاب تاريخ قدماء الفلاسفة ، ترجمة رفاعة بك ؛ طبع سنة ١٢٥٤ هـ .

---

(١) لم يرد ذكر « علم النفس التطبيقي » في طبعة ١٩٠١ لقاموس بولدوين في الفلسفة وعلم النفس .

(٢) انظر ، اضواء على تاريخ التعليم في مصر ، الباب الثاني ، ص ٣٠ ، اعداد محمد توفيق خفاجي ، اشراف ومراجعة الدكتور ابراهيم حافظ ، مركز الوثائق والبحوث التربوية بوزارة التعليم ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٣) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، تأليف جاك تاجر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٦ ، ص ٥٥ و ٦٧ .

ويؤكد رفاعة بك ضرورة قيام الأم نفسها بتربية أولادها وينصح بأن تكون تربية الأولاد على حسب أحوال البلاد ، أى اذا كانت زراعية أو تجارية أو بحرية ولكن بالاضافة الى هذه الخصوصيات « يجب أن تلاحظ المعارف العمومية التى تشترك فيها الأمم والملل » (ص ٧) ٠

ويبدى المؤلف اعجابه بنظام التربية لدى اليونان فيصف تربية الأطفال عندهم ويقول بلزوم تعميم التربية كما كان يفعله حكماء اليونان قديما ويرى ان «السبب الأعظم فى كثرة فحول الرجال وكبراء الأبطال فى بلاد اليونان فى أيام جاهليتهم انما هو كان بعد احسانهم تربية الأطفال » (ص ١٦) ٠

والواقع أن قراءة هذا الكتاب ممتعة حقا فموضوعاته متنوعة وهى ليست محصورة فى دائرة التربية ؛ فبعضها يدخل فى نطاق علم النفس العـــام عندما يميز المؤلف بين « حقيقة الانسان من حيث ناطقيته وسائر الحيوانات ؛ ثم فى علم النفس الفارق فى دراسته للفروق بين الذكور والاناث ، ثم علم النفس التعليمى وهو موضوع الباب الثالث فى التعلم والتعليم ؛ ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أن رفاعة بك هو أول من دعا الى العناية بتعليم البنات وقد عالج هذا الموضوع فى الفصل الثالث وهو « فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » ٠

ويميز فى الفصل السابع من هذا الباب الثالث بين الروح والعقل والقريحة ٠ والروح هى أصل الحياة والحركة والاحساسات والادراكات والشهوات ؛ و « كنهها مغيب عن البشر لا يعرفون حقيقته » ٠٠٠ وهى مشـــتملة على أصـــل فعال يحملها على العمل أو الترك تبعا لمـا تدركه من الملايمة وهذا أصل الفعال هو الارادة التى تحمل على الاختيار فتختار ما يليق لها من أسباب السعادة ما تظنه كذلك » ٠ أما العقل والقريحة فهما من « متعلقات الروح » ٠ وتعريف رفاعة بك للعقل يذكرنا بتعريف سبيرمان للعامل العام فى حديثه عن الذكاء ٠ العقل قوة تدرك جميع العلاقات والمباينات ، « وبقدر ادراك الانسان النسب والعلائق بين الكائنات التى حوله تكون جودة عقله على حسب قوة هذا الادراك » (ص ٨٤) ٠ واذا كان العقل حادا ذكيا متوقدا يخترع ويبتدع كان قريحة ٠٠٠ وقد يتصف الانســان بسعة العقل ولا يكون متصفا بالقريحة اذ كل منهما ممتاز عن الآخر لأن القريحة دائما نشطة شغالة فعالة ولادة متصورة بخلاف العقل ولو متسعا » (ص ٨٥) « فالقريحة اذا هى القدرة على الخلق والابداع

و « الجمع بين أطراف التصورات والتصديقات المتفرقة » . ويؤكد المؤلف أن نتايـج القريحة تكون عن ارادة واختيار لا بالصدفة والاتفاق ٠

وبقية أبواب الكتاب تتناول التربية الوطنية ثم سيكولوجية التوافق فى الزواج والحياة داخل الأسرة ٠

* * *

والكتاب الثـــانى الجدير بالذكر خاص أيضا بالتربية ، وهو كتاب البيداجوجيا العلمية أى هداية الأطفال تأليف الشيخ حسن توفيق ، مدرس اللغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين ، جزءان ، ٦٦ ، ١٥٤ ص ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٨٩١ ، ١٨٩٢ ، وقد أعيد طبعه وظهرت الطبعة السادسة فى سنة ١٩٢٥ ٠

وموضوع الجزء الأول فى التربية العلمية ، وينقسم ثلاثة أقسام : علم الجسم ، علم النفس ، علم الأخلاق ٠ ويشمل القسم الثانى الخاص بعلم النفس أربعة أبواب :

١ ـ فى النفس ونسبتها الى الجسم ٠

٢ ـ فى التصور النفسانى ، التفكير ، التذكر ، التخيل ، التنبه ـ تذييل فى الأنا والنحن ٠

٣ ـ فى الاحساس النفسانى ، الاحساسات الصورية ، الاحساسات المـــادية ٠

٤ فى الطمح والارادة النفسانيين ٠

خاتمة ، فى ملحوظات فى نشأة الطفل من حيث الجسم والنفس ٠

يلاحظ أن بعض المصطلحات غير دقيقة ، فلا وجود لاحساس صورى بحت أو لاحساس مادى بحت ، والمقصـــود هو التفرقة بين « عاطفة » و « احساس » ، اذ ان مثير العاطفة المباشر ليس المنبه الحسى الخارجى بل تصور ذهنى فى حين أن المثير المباشر للاحساس هو المنبه المادى ٠ ومما هو جدير بالذكر اننا نجد نواة لموضـــوع هام من موضـــوعات علم النفس الاجتماعى عندما يتحدث المؤلف عن الأنا والنحن ، كما انه يجب الاشارة الى الملحوظات فى نشأة الطفل من حيث الجسم والنفس ابتداء من سن السادسة وهى سن دخول المدرسة ٠

أما موضوع الجزء الثانى فهو فى فن التربية العملية ، فيتحدث أولا فى طرق التعليم العام ثم يتناول طرق التعليم الخاصة بكل علم من العلوم

وعددها ٣٥ ، كما ذكرها منشىء الفرينولوجيا ، الدكتور جال • أما المقال الثانى فعنوانه « فساد الفرينولوجيا » يوجه فيه الكاتب سبعة اعتراضات لعلم الفرينولوجيا المزعوم وذلك بالرجوع الى حقائق فى تشريح الدماغ ودراسة وظائفه وعلاقة القوى النفسية بوزن الدماغ •

ويقف منشئا المقتطف موقفا نقديا صارما بصدد بعض الظواهر الغريبة التى عادة ما تدفع العامة الى تأويلها تأويلا خرافيا يتنافى مع الروح العلمية ونعنى ما يدور حول التنويم المغناطيسى وجولان النائم ومناجاة الأرواح • فقد جاء ذكر التنويم المغناطيسى أى الهبنوتيزم فى عدة مقالات نذكر منها الهبنوتسم وذهول الادياك ـ اكتوبر ١٨٨٤ ، ص ١٧ ـ ١٩ •

جولان النائم ـ سبتمبر ١٨٨٦ ، ص ٧٠٥ ـ ٧١٠ •

النوم المغناطيسى ـ صحيحه وفاسده ـ فبراير ١٨٩٢ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٤ •

وهذه المقالة الأخيرة جديرة بأن تستوقفنا قليلا لأهميتها العلمية سواء من ناحية منهج العرض أو النتائج • وقد جاء فى مستهل المقالة ما يلى ، « وقد كان من نصيب المقتطف من حين نشأته أن يقرر الحقائق وينفى الأباطيل ، وكان فى جملة الأباطيل التى اقترح عليه نفيها ما ينسب الى التنويم المغناطيسى من الخوارق والى أهله من معرفة الغيب » • ثم يعرض الكاتب ملخصا لمقالة الدكتور هارت الذى مارس التنويم المغنطيسى أكثر من أربعين سنة وقد أثبت الدكتور هارت الحقائق الآتية :

أولا ـ لا يوجد سائل مغنطيسى (١) •

ثانيا ـ لا يوجد اتصال روحى خفى بين عقل المنوم وارادة المنوم ، فيكفى المنوم أن يعتقد بأن المنوم يريد تنويمه سواء كان المنوم مريدا لذلك أو غير مريده •

ثالثا ـ اذا وقع المنوم تحت سلطة المنوم وضعفت ارادته فقد ينفذ أوامر المنوم فى الوقت الذى حدده وقد يرتكب الجرائم التى يوحى بها اليه •

---

(١) لاستبعاد فكرة السيال المغنطيسى استخدم المقتطف لفظة «استهواء» ترجمة لهبنوتزم فى مقالة عنوانها «الشفاء بالاستهواء» فى عدد يوليو ١٩٠٩ (٦١٧ ـ ٦١٩) • وقد اقترح كاتب هذا المقال لفظة «نوام» بدلا من «التنويم المغنطيسى» •

وجاء في عدد ابريل ١٨٩٢ في باب المناظرة والمراسلة ، رسالة من مرقص حنا بالارسالية المصرية بباريس موضوعها ، « التنويم المغناطيسى وعلاقته بالقوانين والمحاكم » (ص ٤٧٣ ــ ٤٧٥) ، يتحدث فيها عن تأثير التنويم المغنطيسى فى الدعاوى المدنيـة وتأثيره فى الدعاوى الجنـائية ، فيتساءل هل يجوز للمحاكم أن تستعمل التنويم لاكتشاف الحقيقة من المتهم أو مشاركيه ، والجواب كلا ... لأن قانون العقوبات يمنع استعمال الطرق التى تكون سببا فى نزع حرية المتهم التى تخوله الدفاع التام ، فلا يحق للمحاكم أن تنزع من المتهم حرية المدافعة عن نفســه (ص ٤٧٤) ... فليس من العدل الاعتماد على التنويم لتحقيق الجنايات لأنه قد يبرىء المذنب ويذنب البرىء ... ولا بد من مقاومته لأنه يسهل الغش وشهادة الزور وارتكاب الجرائم ويزيد اتعاب المحاكم وقضاة التحقيق (٤٧٥) .

ومن الأباطيل التى حاربها المقتطف ما يعرف باستخدام الأرواح . فقد نشر فى عدد مارس سنة ١٩٠٦ مقالة بعنوان « منـاجاة الأرواح » (ص ٢١٣ ــ ٢١٥) لتفنيد ادعاء مستحضرى الأرواح وبيان حيلهم فى خداع الناس ، ومن الحقائق التى قررها « ان الوهم يتسـلط على بعض الناس ولو كانوا من كبار العلماء حتى يصيروا ينخدعون بما لا ينخدع به غيرهم » .

وسنختتم كلامنا عن المقتطف وعن الدور الهام الذى قام به فى نشر أساليب التفكير العلمى وتوصيل كثير من المعلومات السيكولوجية التجريبية الى القـارىء العربى بذكر المقالة التى نشرت فى عدد فبراير ١٩٠٦ عن ادراك الحيوان (ص ١٣٦ ــ ١٣٩) ، ففى هذه المقالة وصف دقيق لتجارب العـــالم الأميركى ادورد ثورنديك (١٨٧٤ ــ ١٩٤٩) على مجموعات من القطط والكلاب والدجاج توضع فى قفص بعد تجويعها ٢٤ ساعة والطعام فى خارج القفص ويلاحظ سلوك الحيوان للخروج من القفص بفتح بابه اما بســقاطة أو رز أو خيط أو بهـا كلها معا . وفيما يختص بالدجاج كان يضعها فى مكان محصور ويقيم حولها الحواجز . ومن الفروق بين الحيوان والانســان « ان الحيوان لا يستطيع أن يحضر الماضى فى مخيلته ولا أن ينظر الى المستقبل » .

ومن المحاولات التى بذلت لمحاربة الأباطيل والمعتقدات الخرافية فى مجال العلاج الطبى كتاب « طب الركة » تأليف عبد الرحمن اسماعيل ، أحد المتخرجين فى مدرسة القصر العينى ، الجزء الأول ١١٢ ص ، طبعة أولى ١٣١٠ هـ ١٨٨٣ م والجزء الثـانى ، ٤٥ ص ، « طبع باسم مؤتمر

وفى حديثه عن الأسباب على العموم يميز بين رتبتين ، أسباب مهيئة وأسباب متممة • ثم يستعرض خطوات عمل الطبيب ، التشخيص ، المدة ، الانتهاء ، الانذار ، ثم المعالجة • والمعالجة تكون واقية أو شافية • وتكون واقية باتباع شروط صحية من حيث التربية والمعاملة والتعود والتهذيب بالنسبة الى الأطفال • ومن أنواع المعالجات الشافية المعالجة الأدبية أو المعنوية منها العزلة ، حسن المعاملة ، تشغيل المرضى بأشغال متنوعة غير متعبة •

وعندما يتناول تصنيف أنواع الجنون فانه يقسمها أربعة أقسام •

القسم الأول : الجنون الغير معروف التغيرات المرضية لحد الآن وتحته الجنون الدائرى وأنواع الهذيان الجزئى (مثل التعذيب ، الجنون الديانى ، جنون الشك ، مانيا المشروبات الروحية) والماليخوليا •

القسم الثانى : الجنون النفروزى وتحته الاستيرى والصرعى والخورى •

القسم الثالث : الجنون الدياتيزى ، الجنون النقرسى ، والروماتيزمى ، والدرنى ، والسرطانى ، والزهرى •

والقسم الرابع : الجنون الخلقى ، بساطة العقل أو ضعفه وسخافته والبله والكريتينسم والجنون الغوترى •

يلاحظ على هـذا التصنيف أن المؤلف لم يشر فى أمراض القسم الأول الخاص بما نسميه اليوم حالات الذهان الوظيفى ، الى الجنون المبكر dementia praecox وهذا أمر طبيعى ، اذ ان تاريخ نشر الكتاب سابق على البحوث التى قام بها كريبلين فيما بين ١٨٩٣ ، ١٨٩٩ والتى أدت الى تقديم صورة تأليفية لمختلف البحوث التى دارت حول أهم أعراض هذا المرض والتى أشار اليها فى كتابه الأول فى الطب العقلى المنشور عام ١٨٨٣ ومن المرجح ان الدكتور سليمان نجاتى لم يطلع على كتاب كريبلين وان كان مطلعا على أهم المحاولات التى بذلت قبل كريبلين لتوضيح معالم الجنون المبكر مثل بحوث اسكيرول وموريل وكالبوم •

ويلاحظ كذلك أنه يذكر ضمن ما يسميه الجنون النفروزى الجنون الصرعى وهذا فعلا ما كان متبعا فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم فصل الصرع عن مجموعة أمراض العصاب عندما تبين ان الصرع عضوى النشأة لا نفسيها • والمقصـــود بالجنون الخورى هو على الأرجح النوريستانيا neurasthenie لا السيكستانيا psychasthenie وهو العصاب الذى شخصه بيرد جانيه لأن اللفظ الجـديد لم ينتشر اسـتعماله الا فى أوائل القرن

العشرين ٠ والمحاولة التى قام بها الدكتور سليمان نجاتى لتقديم مادة الطب العقلى الحديث باللغة العربية جديرة بكل ثناء لأنها كانت المحاولة الأولى والأخيرة حتى اليوم وذلك لالغاء التدريس باللغة العربية فى مدرسة الطب ، فأصبح التعليم باللغة الانكليزية منذ عام ١٨٩٨ ٠ وكل ما نشر فى الطب العقلى حتى اليوم بحوث جزئية فى الأمراض النفسية والعقلية وفى وسائل الوقاية والصحة النفسية كما سنرى فيما بعد ٠

وقد ظل تدريس علم النفس فى مدرسة المعلمين الخديوية ودار العلوم ومدرسة المعلمات السنية مجرد تمهيد لتدريس أصول التربية العلمية والعملية ٠ وهذا واضح من الكتب التى ظهرت فى الربع الأول من هـذا القرن ٠ وكان يقوم بتدريس علم النفس مع التربية مدرسـون مصريون غير متخصصين يحملون شهادة مدرس ابتدائى من انكلترا ، أمثال على عمر صـاحب كتاب « هداية المدرس » والشيخ محمد شريف سليم ، مؤلف كتاب « علم النفس » الذى سبق ذكره والشيخ محمد حسنين الغمراوى ، صاحب كتاب « الغرائز وعلاقاتها بالتربية » ٠ ثم تولى التدريس بعدئذ فى مدرسة المعلمين الخديوية والمعلمات السنية أساتذة انكليز غير متخصصين وكان الكتاب المقرر :

Talks to Teachers on Psychology, by Stanley Hall

وتولاه فى دار العلوم أسـاتذة من خريجى الدار الحاصلين على دبلوم فى التربية من كلية Exeter بانكلترا أمثال مصطفى أمين وعلى الجارم مؤلفى كتاب « علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم » ثم تولى التدريس فى المعلمين العليا أساتذة من خريجيها الذين حصلوا على درجة بكالوريوس من انكلترا كاسماعيل محمود القبانى وأمين مرسى قنـديل مؤلف كتاب « أصول علم النفس وأثره فى التربية والتعليم » ٠

ونلاحظ فى هذه الكتب ظهور نظرية الغرائز كما قال بها مكدوجل غير ان عرضها جاء سطحيا وأحيانا مشوها ٠ فكتاب الغمراوى فى الغرائز وعلاقتها بالتربية (٢٤٣ ص ، ط ٤ ، ١٩٢٥) يحتوى على أربعة مباحث :

المبحث الأول : الغريزة والعقـل ــ المبحث الثانى : المخ وخلاياه وعلاقتها بالتعليم ــ المبحث الثالث فى موضوعات شتى فى علم النفس مثل التعليم والملاحظة ، والحفظ والذكر والخيال والعقل والوجـدان وتداعى المعانى والميول والعوامل المؤثرة فى الأخلاق ٠ أما المبحث الرابع فيبحث فى الغرائز وأنواعها ، ونلاحظ فى هذا المبحث خلطا بين الغرائز والانفعالات فيتحدث المؤلف عن غريزة الغضـب مثلا ٠ والكتـاب بوجه عـام خليط

الاختبارات سنضعها ثم نشرح طريقة استكمال كل اختبار على حدة مع كيفية تقدير الدرجة حتى يتمكن المدرسون والنظار من استخدامها والانتفاع بها » .

اننا وصلنا الآن الى أبواب مرحلة جديدة وهى التى تبدأ سنة ١٩٢٩ بانشاء معهد التربية وتخرج الدفعة الأولى من طلبة كلية الآداب ـ قسم الفلسفة . ولكن لا بد أولا من الاشارة الى انشاء الجامعة المصرية الأهلية فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ وقد استمرت حتى انشاء جامعة فؤاد الأول فى سنة ١٩٢٥ . وكانت الدراسة فى الجامعة المصرية القديمة مقصورة على الآداب والتاريخ والفلسفة ، كما ألقيت فيها محاضرات فى التربية وعلم النفس . فقد ألقت لبيبة هاشم ، صاحبة ومحررة مجلة فتاة الشرق ، فى عام ١٩١١ عشر محاضرات فى التربية ، كما ألقى فى عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ الأستاذ حسين رمزى « محاضرات نفسية تتضمن أبحاثا أولية لدراسة علم النفس » .

والأستاذ حسين رمزى وهو خريج مدرسة الحقوق الخديوية قد أوفدته الجامعة المصرية الى أوروبا سنة ١٩٠٩ الى جامعة فورينو بايطاليا . فتلقى فيها علم النفس وعلوم الأمراض العقلية ، أسبابها وتشخيصها ومعالجتها وعلوما أخرى مرتبطة بها من الوجهة القضائية ثم تطبيق هذه العلوم على أنواع المجرمين والجرائم . وبعد عودته من أوروبا قام بتدريس علم طبائع الانسان الجنائية فى قسم العلوم الجنائية .

وقد نشرت مجلة القضاء الشرعى المحاضرات التى ألقاها فى علم النفس خلال السنة الدراسية ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ (٧٤ ص) وفى قائمة الكتاب يتحدث المؤلف عن حرية الفكر وعن التعصب ويعد التعصب دليلا على وجود مرض عقلى خفى لدى المتعصب « فالمتعصب(١) أسير فكرة أو عاطفة استبدت بسائر الأفكار والعواطف ولا تتحمل المناقشة والبحث

---

(١) ثلاثون سنة بعد كتابة هذا الكلام ألقى الدكتور مصطفى زيور فى ١٠ من فبراير ١٩٥٢ بدار الحكمة تحت اشراف الجمعية المصرية للصحة العقلية محاضرة عالج فيها باسهاب وتعمق وفى ضوء التحليل النفسى موضوع التعصب واعتبر التعصب ضربا من الأمراض النفسية فهو يقول «فالمتعصب اذن يجنى من موقفه كسبا ، غير أن هذا الكسب لا يختلف عما يجنيه العصابى من سلوكه الشاذ ، أى أنه كسب وهمى ناقص يفوت على صاحبه فرصة حل اشكاله حلا رشيدا واقعيا مجديا . انظر ص ٣٠٠ من مجلة علم النفس، المجلد السابع فبراير ١٩٥٢ ، نص محاضرة الدكتور مصطفى زيور : سيكولوجية التعصب ، (ص ٢٨٥ ـ ٣٠٠) .

ولا تطيق أن تعيش بجانبها لحظة ما عاطفة أو فكرة أخرى تخالفها خطأ كانت أم صوابا » ٠

ومحاضرات الأستاذ حسين رمزي هي بمثابة مدخل الى دراسة علم النفس اذ ان موضوعاتها تتلخص في النقط الأربع التالية :

١ ــ علم النفس والفلسفة (ص ١٠ ــ ١٦) ٠
٢ ــ الروح والنفس (ص ١٧ ــ ٤٣) ٠
٣ ــ تطور علم النفس (ص ٤٤ ــ ٥٦) ٠
٤ ــ تعريف علم النفس وموضوعه ومفاهيمه (٥٦ ــ ٧٤) ٠

والمراجع التي يذكرها المؤلف فرنسية وايطالية وكتابين ألمانيين مترجمين الى اللغة الفرنسية هما كتاب لوب Loeb ديناميكية ظواهر الحياة وكتاب ابنجهاوس Ebbinghaus في علم النفس ٠ ومعالجته لموضوعات الكتاب قريبة جدا مما نجده في الكتب المدرسية الفرنسية في الفلسفة وعلم النفس ٠

ولم ينهض تدريس علم النفس بحيث يدفع بدارسيه الى البحث والتأليف فيه بصورة شخصية أصيلة الا بعد انشاء معهد التربية وايفاد البعثات الى الخارج من خريجي مدرسة المعلمين العليا وما حل محلها بعد الغائها من معهد التربية وكلية الآداب للتخصص في علم النفس ٠

في ١٩ من سبتمبر ١٩٢٩ صدر مرسوم بقانون يقضي بانشاء معهد التربية ــ للمعلمين وذلك بناء على التقرير الذي قدمه العالم السيكولوجي السويسري والخبير في التربية كلاباريد في مارس عن انشاء معهد لعلوم التربية (١) ٠

واشترك اسماعيل القباني (١٨٩٨ ــ ١٩٦٣) في البحوث التي قام بها كلاباريد وعند انشاء المعهد عين أستاذا للتربية التجريبية كما عين الأستاذ محمد مظهر سعيد أستاذا لعلم النفس وكان قد عاد من انكلترا حيث كان موفدا منذ عام ١٩٢٥ للتخصص في الدراسة الجامعية لعلم النفس ٠ وقد اهتم اسماعيل القباني بصفة خاصة باعداد الاختبارات لقياس

---

(١) راجع ص ٤٨ ــ ٥٦ من التقرير العام الذي رفعه كلاباريد الى وزارة المعارف العمومية المطبعة الأميرية ١٩٣١ ، ٧٢ ص زائد جدول ورسمان بيانيان ٠ للوقوف على تاريخ معهد التربية ثم كلية التربية والأقسام والمناهج راجع دليل كلية التربية جامعة عين شمس ــ طبعة سنة ١٩٥٩ ، دليل عام ١٩٦٣ تحت الطبع عند كتابة هذا التقرير ٠

وأنشأ فى يونيو ١٩٤٨ مجلة « صحيفة التربية » وهى تصدر عن رابطة خريجى معــاهد التربية بالقاهرة ويتولى الآن رئاســة تحريرها الدكتور عبد العزيز القوصى ٠

واسماعيل القبانى هو صاحب فكرة الفصول التجريبية التى قامت على أساسها المدارس النموذجية ، كما أنه حارب نظم التعليم التلقينية التى تهتم فقط بتدريس المعلومات دون تثقيف عقل التلميذ وتنحيه قوة الابتكار وروح النقد فيه ، كما أنه أخذ على نظـام الامتحانات العــامة جمودها واقتصارها على اختبار قدرة الطالب على الاستظهار فحسب ٠ وقد تحدث الدكتور محمد عبد السلام أحمد عن بحث اسماعيل القبانى لهذه المشكلة فى كتابه « القياس النفسى والتربوى » المجلد الأول ، ١٩٦٠ من ص ٦٠٠ الى ٦١٠ ٠

بعثات الخارج للتخصص فى علم النفس :

سبق أن ذكرنا أول طالب أوفد الى الخارج للتخصص فى علم النفس هو محمد مظهر سعيد فى يناير ١٩٢٥ ، وكانت الجامعة التى تخرج فيها هى جامعة برمنجهام بانكلترا ٠

ويلاحظ أن كل الذين أوفدوا من خريجى المعلمين العليا ثم من معهد التربية وعادوا للتدريس فى معهد التربية ، كانوا من قســم الرياضــة وأوفدوا الى انكلترا ، اتجهوا فى رسائلهم وأغلبها فى علم النفس التربوى ـ الى استخدام الطرق الاحصائية والتحليل العاملى بصفة خاصة ٠

اما بعثات كلية الآداب بجامعة القاهرة ثم بجامعة الاسكندرية وجامعة عين شمس للدراسة السيكولوجية فكانت ترسل الى جامعــة باريس حيث يختلف نظام الليسانس والدكتوراة عما هو فى انكلترا وسوف نرى أوجه الاختلاف بين التيار الانكليزى والتيار الفرنسى فى ميدان السيكولوجية ٠ ثم أوفدت بعثات الى الجامعات الأمريكية حيث يمثل الدراسة الى الجانب المهنى أكثر منه الى الجانب الأكاديمى وسنستعرض الآن الرســائل الجامعية مع اشارة وجيزة الى موضوعها ونتائجها العلمية كلما أمكن ذلك ٠ (١)

---

(١) اعتمدنا فى الحديث على الرسائل عن البيانات التى وصلتنا ردا على الخطاب الذى أرسلناه الى المشتغلين بعلم النفس فى ج٠م٠ع هذا بالاضافة الى اطلاعنا الشخصى على بعض الرسائل كلما تيسر لنا ذلك ٠

محمد مظهر سعيد

١ ـ رسالة درجة البكالوريوس فى الآداب (فلسفة وتربية) سنة ١٩٢٦ وموضوعها عرض لمفهوم افلاطون للنفس البشرية كما ورد فى كتاب الجمهورية ٠

٢ ـ رسالة درجة بكالوريوس فى العلوم (علم نفس ورياضيات عالية) سنة ١٩٢٦ وموضوعها : طريقة دائرية جديدة لتعلم الشعر « تجمع بين الطريقتين التقليديتين الكلية والجزئية ٠

٣ ـ رسالة درجة ماجستير فى العلوم (علم نفس وتربية سنة ١٩٢٨) وموضوعها : « مذهب سيكولوجية الملكات » وتتضمن آراء فلاسفة اليونان والعرب وعلماء النفس المحدثين فى الملكات العقلية وتفند مزاعم الأقدمين فى أن الملكة قوة طبيعية تعمل بصفة عامة ٠

٤ ـ رسالة أعدت للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة (علم النفس سنة ١٩٢٩) موضوعها : « الطبيعة النوعية لذاكرة الألوان والأشكال » ٠ والبحث طويل يقع فى ٢١٥ صفحة وفيما يلى بعض النتائج الخاصة بذاكرة الألوان كما جاءت فى البحث الذى قدم فى المؤتمر الدولى الحادى عشر لعلم النفس الذى عقد فى باريس عام ١٩٣٧ وكان وقتئذ الاستاذ محمد مظهر سعيد رئيس قسم علم النفس المساعد بجامعة الازهر ٠ يقدم الباحث نظرية العاملين لتذكر الالوان، فهناك عامل عام يشترك فى جميع العمليات التى بها تدرك الالوان وتتعرفها وتتذكرها وهو مستقل عن العامل العام ، لدى سبيرمان ، وعوامل خاصة يعمل كل واحد منها مستقلا عن الآخر ، ولا يتم الربط بينها جميعا الا بفضل العامل العام ٠

ان نظرية العاملين فى تذكر الألوان كان مصيرها مصير نظرية العاملين لسبيرمان التى لم يبق من شكلها الأعلى الشىء الكثير ٠ ومع ذلك فان بحث محمد مظهر سعيد جدير بالذكر من الناحية التاريخية خاصة وأن البحوث التى تتناول موضوع تذكر الألوان نادرة للغاية ٠ هذا ولا يفوتنا أن ننوه بالجهود الحميدة الموفقة التى يبذلها الأستاذ محمد مظهر سعيد لادخال تدريس علم النفس فى كثير من المعاهد ولتنبيه الأذهان لأهمية علم النفس وهو يقول فى تقريره : وبعد جهد شاق وكفاح مرير نجحت فى ادخال علم النفس فى أصول كلية الدين بالجامعة الأزهرية سنة ١٩٣٠ ، والمعهد العالى للفنون المسرحية سنة ١٩٤٥ ٠ والمعهد الصحى العالى سنة ١٩٤٦ وقسم

وحيث ان القوصي استخدم في تحليل نتائج الاختبارات طريقة سبيرمان فانه يوافق سبيرمان موافقة جزئية في أن الاختبارات المكانية تقيس أيضا صورة أولية للعامل العام .

ويعرض الدكتور القوصي مراحل بحثه والنتائج التي وصل اليها وما استتبعت هذه النتائج من بحوث أخرى قام بها علماء أجانب وعلماء عرب أمثال محمد عبد السلام وفؤاد البهي ومختار حمزة وبركات وخيري مرسي وذلك في البحث الذي ألقاه في باريس في يوليو ١٩٥٥ أثناء انعقاد الحلقة الدراسية الدولية عن التحليل العاملي وتطبيقاته ، وعنوان البحث « اتجاهات الأبحاث في القدرات المكانية (١) » وقد جاء ذكر اكتشاف القوصي في كثير من المراجع الأجنبية مثل كتب فرنون وترتستون وأوليرون (١٩٥٧) ، وجليفورد (١٩٦٠) .

ومن الوجهة التطبيقية فقد أثار العامل المكاني اهتماما كبيرا ، اذ أن الاختبارات التي تقيسه لها قيمة تنبؤية في مجال التربية والمهن الصناعية . وفيما يلي بعض النتائج العملية التي توصل اليها القوصي بالاشتراك مع سلامة وهنا :

١ ـ ان العامل K يظهر بصورة واضحة ومميزة فيما بعد سن الحادية عشرة .

٢ ـ لدى تلاميذ المدارس الصناعية التطبيقية اختبارات ثبات الرد والتآزر اليدوي لا تقل أهمية عن الاختبارات التي تقيس القدرة على النجاح المدرسي .

٣ ـ ان القدرة على التصور المكاني (عامل K) لها أهمية بالغة في الرسم .

٤ ـ ان العوامل المكانية الميكانيكية أكثر تنظيما وتأكيدا لدى مجموعة طلبة الهندسة الجامعيين المدربين منها لدى مجموعة غير المدربين .

٥ ـ ان أفضل الاختبارات المكانية لقياس القدرة الهندسية لدى المجموعة المدرسية هي الاختبارات المكانية ذات البعد الثالث واختبارات تذكر الأشكال الهندسية (٢) .

---

(١) (٢) El Koussy, A.A.H., Les directions de recherches dans le domaine des aptitudes spatiales. Collogue International sur l'Analyse Factorielle, Paris, 1955, C.N.R.S., 327-51.

ومن البحوث التى تدخل فى هذا النطاق والتى تدعم وجود القدرة المكانية ، بحث الدكتور محمد خليفة بركات والذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن تحت اشراف سيرل بيرت وموضوع البحث : تحليل القدرات الرياضية عند تلاميذ المدارس الثانوية (١٩٥١)

وقد قام بتطبيق ١٣ اختبارا على ١٦٠ تلميذا و ١٦٠ تلميذة وتوصل الى أن النجاح فى الرياضيات يتطلب العوامل الآتية : العامل العام ، العامل العددى ، العامل اللفظى ، العامل المكانى · وقد اتضح أن للقدرة العددية ناحيتين : تتعلق الأولى بالعمليات الرياضية التى تتطلب الاتفاق والسرعة وتعتمد على الذاكرة والاتزان الانفعالى ، والثانية تتعلق بالتفكير الرياضى وحل المسائل ، وهى تعتمد على الاستدلال (١) ·

ونتناول الآن بحثا قيما للدكتور مختار حمزة فى التأخر الدراسى فى الرياضة فى المدارس الثانوية وهو البحث الذى نال به درجة الدكتوراة فى الفلســـفة عـام ١٩٥١ من جامعة ليدز بانكلترا (٢) ، وكانت العينة مكونة من طلبة المدارس الثانوية اختير منهم ١٣٦ تلميذا عاديا و ١٣٦ تلميذا متخلفا فى الرياضيات بين سن ١٢ و ١٤ عاما ، وكانت بطاريته تتكون من ٢٢ اختبارا ، منها ١٩ اختبارا فى القـــدرة الرياضية صمم منها ١١ وثلاثة اختبارات تحصيلية واختبارا للذكاء ·

وتتلخص النتائج فيما يلى :

١ ـ انخفاض مستوى الذكاء لدى مجموعة المتأخرين بشكل جوهرى ·

٢ ـ كانت مجموعة المتأخرين أضعف من العاديين فى القدرة الرياضية فيما يختص باستخدام الأرقام وفهمها والتصور البصرى ·

٣ ـ اتضح أن بعض الأفراد فى مجموعة المتأخرين يتمتعون بذكاء عـال وقدرة رياضية جيدة ·

٤ ـ ان أعلى نسبة مئوية للتأخر كانت فى مادتى الحســاب والجبر ممـا يوحى بأن هاتين المادتين تتطلبان بعض القدرات الخاصة التى تختلف

---

(١) نشر البحث فى مجلة علم النفس الاحصائى التى تصدرها الجمعية البريطانية لعلم النفس عام ١٩٥١ · وتوجد خلاصة باللغة العربية فى مجلة «صحيفة التربية» عدد مايو ١٩٦٠ ·

(٢) نشر ملخص الرسالة فى : The British Y. Educ. Psychol., Nov. 1952.
بعنوان : Retardation in Mathematics amongst Grammar School Pupils, by Mukhtar Hamza.

من حيث النوع ودرجة التعقيد ، وقد أجرى لذلك بحث تجريبي على ١٦٦ ولدا بين العاشرة والحادية عشرة واستعمل فيه عشرون اختبارا لعمليات عقلية تدل الملاحظة النفسية على أن كلا منها ينتمي الى مستوى من المستويات العقلية تحت الاختبار ؛ وقد حللت النتائج التجريبية بالطرق الأساسية في التحليل العاملي ، واتضح أن التقسيم الذي رجحه هذا التحليل يتم في خطوتين : في الخطوة الأولى تنقسم العمليات الى طائفتين هما المجموعة التفكيرية والمجموعة العملية ؛ وفي الخطوة الثانية تنقسم العمليات الى طائفتين هما المجموعة التفكيرية والمجموعة العملية ، وفي الخطوة الثانية تنقسم الأولى الى العمليات العلاقية والعمليات الارتباطية وتنقسم الثانية الى العمليات الادراكية والعمليات الحسية الحركية • وقد اتفقت جميع الطرق على وجود عامل مشترك هو أن القدرة المعرفية العامة تدخل في كل هذه العمليات التي تنتمي الى المستويات المختلفة • »

في الرسائل التي سبق ذكرها كان يقوم بالاشراف ، أما سبيرمان أو سيرل بيرت ؛ والآن تنتقل الى ادينبورا في اسكتلندا حيث يقوم بتدريس التربية أستاذ اشتهر في ميدان التحليل العاملي هو جود فري توسون الذي أشرف على الرسالة المقدمة من رمزية الغريب للحصول على الدكتوراه في الفلسفة في ديسمبر سنة ١٩٤٩ • وكان موضوع رسالتها « التحليل العاملي للقدرة العملية وعلاقتها بالاستعداد العقلي العام والسمات المزاجية والتحصيل الدراسي » • وهو أول بحث من نوعه يحاول تحديد طبيعة القدرة العملية وتحليلها الى مكوناتها ، فمنذ أن اكتشف الكسندر العامل العملي F باستخدام اختبارات اوائية غير لفظية والبحوث التي تجرى لمعرفة ما اذ كان لهذا العامل أصالة تميزه عن العامل الميكانيكي M أو عامل الدكتور القوصي أي العامل المكاني K • فاتضح ضعف العلاقة بين F و S M ؛ في حين أن برايس Price في بحثه عام ١٩٤٠ ارجع العامل F الى العامل المكاني K • وفي عام ١٩٤٩ نشر ايمث Emmeth بحثا ينتهي فيه الى القدرة العملية تتضمن العامل العام والعامل المكاني •

وفي نفس السنة توصلت الدكتورة رمزية الغريب الى نتائج هامة تؤيد بعضها ما توصل اليه ايمث Emmeth • فقد طبقت على عينات من تلاميذ وتلميذات المدارس الثانوية والصناعية حوالي ٢٠ اختبارا منها سبعة اختبارات عملية غير لفظية ، ثم طبقت هذه الاختبارات العملية على عينة عشوائية من الفلاحين والعمال •

وقد أسفر التحليل العاملى لمجموعة الارتباطات لعينات التلاميذ عن النتائج الآتية :

أ - ان القدرة العلمية معقدة يمكن تحليلها الى القدرات الآتية :

١ - قدرة عقلية عامة G .

٢ - قدرة على ادراك العلاقات المكانية K .

٣ - قدرة على سرعة الادراك (شبيه بعامل P لترستون) .

٤ - قدرة تحصيلية معرفية .

ب - ان هناك علاقة كبيرة بين القدرة العلمية والاستعداد العقلى العام ، وليس من الصحيح أن هذه القدرة لا تتطلب قدرا لا بأس به من هذا الاستعداد العام .

جـ - لم يؤد التحليل الى عزل قدرة خاصة متعلقة بالسمات المزاجية .

وقد اهتمت الدكتورة رمزية الغريب ببحث النواحى التطبيقية للقدرة العلمية في التوجيه الدراسى لمختلف أنواع التعليم الثانوى ؛ ويتضح ذلك من مجموعة الاختبارات التى أعدتها منذ عام ١٩٥٩ . وقد أعدت فى عام ١٩٦٢ اختبار الاستعداد العقلى للمرحلة الثانوية والجامعية .

* * *

أشرنا فى عرضنا لبحث الدكتورة رمزية الغريب الى المشكلات التى أثارها العامل العملى F لا لكسندر ومدى علاقته بالعامل الميكانيكى والعامل المكانى . ونود الآن أن نشير الى بحث حديث جدا (مايو سنة ١٩٦٣) يتناول بالدراسة التجريبية والعاملية القدرة الميكانيكية وما تتضمنه من عوامل ، قدمه محمود عبد القادر لكلية الآداب - جامعة عين شمس (قسم الدراسات النفسية والاجتماعية) . لنيل درجة الماجستير فى علم النفس ؛ تحت الاشراف العلمى للدكتور السيد محمد خيرى مرسى الذى سبقت الاشارة الى بحثه . وهذا البحث الذى يرتبط بأكثر من صلة ببحوث الدكتور القوصى عن العامل المكانى والدكتور محمد عبد السلام عن عامل المعالجة الذهنية ، جدير بكل ثناء كما انه مبعث فخر للدراسة الجامعية فى جمهورية مصر العربية لأنه لا يكتفى بأن يكون فى مستوى أقوى البحوث السيكولوجية التى تجرى فى الخارج؛ بل فى نظرى يفوق الكثير منها ، وذلك للأسباب الآتية : اتساع ثقافة الباحث مع تعمقه فى موضوع تخصصه ؛ ووضوحه فى عرض الابحاث السابقة التى تناولت الذكاء الميكانيكى وما يتعلق به من قدرات طائفية

أو خاصة واتخاذه موقف الناقد المنصف ، المجهود الضخم الذى بذله فى اعداد أدوات البحث من اختبارات وتحليلات للأعمال الميكانيكية المختلفة ، مناقشته العميقة لمفهوم الصدق وقيمته النسبية ؛ وبالاضافة الى براعته فى صياغة الأفكار العلمية والمعالجة الذهنية العقلية للمشكلات يجب أن نذكر اتقانه فى استخدام أدق الطرق فى التحليل العاملى وحسبنا أن نذكر أن تطبيق الاختبارات ، وعددها ١٩ على ٢١٢ تلميذا أدى الى استخراج ١٧١ من معاملات الارتباط عولجت عامليا وتتطلب بعد عدة مراحل اجراء ٣٧ عملية تدوير أدت الى الكشف عن تسعة عوامل متعامدة بيانها فيما يلى : (ص ٢٢٥ - ٢٢٦ من الرسالة) .

١ - الاستدلال الميكانيكى . ٢ - المهارة (للأصابع واليدين والذراعين) .

٣ - السرعة الحركية (التآزر بين حركات اليدين والذراعين وحركات العينين) .

٤ - السرعة الادراكية للعلاقات المكانية . ٥ - العامل المكانى الأول وهو التصور البصرى ثلاثى البعد أى القدرة على لف أو نقل المجسمات والأشكال تصوريا من مكانها أو وضعها الأصلى الى مكان أو وضع جديد بناء على تعليمات محددة بذلك .

٦ - ذاكرة الأوضاع المكانية . ٧ - العامل المكانى الثانى (التصور البصرى الدينامى) ويمثل المعالجة أو الحركة البصرية فى تنظيم أو ترتيب عنصر المشكلة ؛ أو اعادة تنظيمها من زاوية جديدة حتى يسهل فهمها . ٨ - عامل الاتزان ويمثل القدرة على دقة وثبات حركات اليد مع تحريك الأصابع واليد حركات ارادية بسرعة ودقة الى أهداف معينة حسب تعليمات محددة . ٩ - البقايا .

ويجب هنا التعليق على العامل السادس وهو عامل ذاكرة الأوضاع المكانية فان استخلاص هذا العامل يعتبر تحقيقا عامليا خاصا بالغرض الذى توصل اليه الباحث من تحليل العمل الذى اتضح منه أن معظم الأعمال الميكانيكية تتطلب قدرا معينا من تذكر الأوضاع المكانية ، هذا بالاضافة الى ان هذا العامل لم يظهر فى أى دراسة سابقة ويعتبر بحق اضافة جديدة لمكونات القدرات الميكانيكية .

ولا يتسع المقام للاشارة الى جميع نتائج هذا البحث القيم ؛ وحسبنا أن نشير فى النهاية الى الجانب التطبيقى ، فقد تمكن الباحث من تكوين بطارية كاملة لاختبار القدرات الميكانيكية لمن تتراوح سنهم بين ١١ و ١٤

سنة من الذكور تتمتع بخصائص البطارية الجيدة وتتكون من ٩ اختبارات تقيس القدرات السابقة بصور نقية فى ١١ دقيقة ؛ وتستخدم فى مجال الاختبار والتوجيه المهنى بالنسبة لجميع الحرف الميكانيكية التى توجد على مستوى الجمهورية ، كما يمكن تشخيص جوانب الاضطراب التى تحدث فى مرحلة بعينها من العمل أو التدريب بناء على المفهوم الجديد للصدق كما وصفه الباحث • وكذلك يمكن تحديد الدرجات الفاصلة التى يمكن أن نقبل أو نرفض على أساسها العمال فى عمليات الاختبار بناء على مستوى الكفاية المطلوبة للعمال المختارين •

❊ ❊ ❊

قدمنا فيما سبق عرضا سريعا لاحدى الحركات العلمية الهامة التى قام بها علماؤنا ؛ وهى الدراسة التحليلية العاملية لبعض القدرات العقلية (١) ، وقد دفعنا الى تقديم هذا الموضوع حركة البعثات العلمية التى أوفدت الى انكلترا حيث كان الاتجاه السائد فى الدراسات السيكولوجية التحليل العاملى للقدرات العقلية وما يترتب على نتائج هذه الدراسات من تطبيقات عملية فى وضع الاختبارات •

---

(١) هناك بحوث عاملية أخرى تتناول التفكير الابداعى وسمات الشخصية وابعادها سيأتى ذكرها • وكان بودنا أن نعرض للبحث* الطريف المبتكر الذى قام به الدكتور فؤاد البهى السيد فى محاولته البرهنة على ان القدرة العددية ليست وحدة متماسكة لاتنقسم الى قدرات ابسط منها • وقد توصل فى بحثه الى تقسيم القدرة العددية الى ثلاث قدرات عددية بسيطة هى :

١ ــ القدرة على ادراك العلاقات العددية •
٢ ــ القدرة على ادراك المتعلقات العددية •
٣ ــ القدرة على الاضافة العددية •

والبحث مثال نموذجى فى عرض خطوات المشكلة ومراحل حلها • ولكن هناك سؤال تثيره القدرة الخاصة بادراك العلاقات والمتعلقات العددية وهو خاص بالتمييز بين الشكل (أى عملية ادراك العلاقات والمتعلقات مهما كانت طبيعة الأطراف ، والمضمون ، (وهنا هو العدد وقد يكون غير العدد مثل رموز واشكال او غيرها من المعطيات الحسية أو العقلية)• وحبذا لو اسهب المؤلف فى توضيح هذه المشكلة اكثر من الاشارة البسيطة التى وردت فى ص ١٧٤ من كتابه الى احتمال الشبه بين التكوين العاملى للقدرة العددية كما اسفر عنه البحث ونظرية العاملين لاسبيرمان •

❊ الدكتور فؤاد البهى السيد «القدرة العددية» من سلسلة «ابحاث تجريبية مصرية فى علم النفس» ١٧٦ ص دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨ •

وسنتناول الآن عرض أهم البحوث السيكولوجية تبعا لمختلف ميادين علم النفس بعد أن نصف بايجاز وضع الدراسات النفسية فى كليات الآداب الجامعية ٠

* * *

عند انشاء كلية الآداب عام ١٩٢٥ تضمن برنامج الدراسة فى قسم الفلسفة مادة علم النفس وكان يقوم بتدريسها أساتذة فرنسيون وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٤٠ عند عودة يوسف مراد من البعثة بعد حصوله على ليسانس التعليم فى الآداب سنة ١٩٢٣ ودبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٣٤ ودكتوراه الدولة فى الآداب مع التخصص فى علم النفس يناير سنة ١٩٤٠ من جامعة باريس (*)

وكانت كلية الآداب قد أوفدت ضمن بعثاتها الى باريس للتخصص فى علم النفس مصطفى زيور الذى نجح فى الجمع بين دكتوراه الطب والتحليل النفسى والذى سيقوم كما سنرى بدور رئيسى هو وتلاميذه فى اقامة حركة التحليل النفسى على أسس متينة وفى انشاء أول قسم متخصص للدراسات النفسية فى جامعة عين شمس عام ١٩٥٢ ٠

وفى هذه الفترة أيضا كان يدرس فى باريس عزت راجح الذى قدم لجامعة باريس أول رسالة فى علم النفس الصناعى للحصول على درجة الدكتوراه ، والذى خلف الدكتور زيور فى تدريس علم النفس بجامعة الاسكندرية بعد أن تولى الدكتور مصطفى زيور رئاسة قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بجامعة عين شمس ٠

فبينما كان تدريس علم النفس فى معهد التربية متأثرا بالاتجاه الانكليزى ومرتبطا بالاهتمامات التعليمية والتربوية كان الاتجاه الفرنسى هو السائد فى التدريس الجامعى ؛ ثم انضم الى هذين الفريقين فريق ثالث مكون ممن أتموا دراستهم العليا فى الجامعات الأميركية فانضم بعضهم الى كلية التربية وكلية البنات وكلية الآداب بجامعة عين شمس وعين أحدهم فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ٠

ولا بد هنا من الاشارة الى ما يميز الاتجاه الفرنسى فى علم النفس عن الاتجاهين الانكليزى والأميركى ٠ ان تدريس علم النفس فى الجامعة الفرنسية تغلب عليه النزعة الأكاديمية التى تهتم بعرض النظريات ونتائج التجارب ومناقشتها وربطها بالتيارات الفكرية والفلسفية وهى تهدف الى اعداد مدرسين لا الى تكوين مهنيين ، أما الجانب التطبيقى والمهنى فهو من

اختصاص معهد خاص هو المعهد القومي للعمل والتوجيه المهنى ٠ أما تدريس علم النفس فى الجامعات الامريكية فانه ، وان كان لا يهمل الجانب الأكاديمى ، يتجه بصفة خاصة نحو الاعداد المهنى سواء فى مجال تطبيق الاختبارات أو الارشاد والتوجيه والعلاج النفسى ٠ والدراسة الانجليزية وسط بين الفرنسية والامريكية وهى أكثر اهتماما بتطبيق الطرق الاحصائية وبمحاولة اقامة الدراسات الخاصة بالشخصية وبالسلوك الشاذ على أسس موضوعية ودقيقة ٠

لا شك ان فى هذا التميز شيئا من التصنع لأنه من السهل أن نبين كيف ان الاتجاهات الكبرى فى الدراسات السيكولوجية ممثلة جميعها فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ؛ غير أن التمييز الذى نقترحه تؤيده الى حد كبير التيارات المختلفة فى البحوث النفسية وبصفة خاصة فى رسائل الماجستير والدكتوراه التى قدمت للجامعات فى العشرين سنة الأخيرة ٠

❋ ❋ ❋

والآن نعود الى حديثنا عن أهم الرسائل الجامعية التى قدمت للجامعات الفرنسية :

فى عام ١٩٣٨ قدم عزت راجح وهو من خريجى مدرسة المعلمين العليا رسالة عنوانها « المهارة اليدوية فى مجال التوجيه المهنى » (١) للحصول على دكتوراة جامعة باريس باشراف الأستاذ الدكتور هنرى فالون ، ومضمون الرسالة بحث تجريبى احصائى يقوم على اجراء اختبارات للمهارة اليدوية ويحلل النتائج تحليلا عامليا ٠ وقد استهدف البحث هدفين أولهما اعداد بطارية من الاختبارات المنوعة للتأكد من العوامل المختلفة التى يحتمل أن تنطوى عليها المهارة اليدوية ؛ ثم استخدام هذه البطارية لأغراض التوجيه المهنى ٠ أما الهدف الثانى فهو الاستعانة بهذه البطارية لمعالجة بعض المشكلات المعلقة والتى لا تزال موضع خلاف بين علماء القياس السيكولوجى فيما يتصل بموضوع المهارة اليدوية ٠ وقد أسفر البحث عما يأتى :

١ ــ عدم وجود مهارة يدوية عامة ٠

٢ ــ وجود خمسة عوامل طائفية مستقلة هى :

---

(١) Ragch, Ezzat : L'habileté manuelle. Etude expérimentale en vue de l'Orientation professionnelle. Baghdad. The Royal Press, 1939, p. 135.

(أ) سرعة الأصابع والرسغ ·

(ب) سرعة حركة الذراع ·

(ج) ثبات اليد والذراع ·

(د) الدقة في التصويب الى هدف ·

(هـ) التآزر بين حركة اليدين ·

٣ ــ ان قياس المهارة اليدوية في مجال معين يجب أن يتم باختبارات اجمالية وليس باختبارات تحليلية ·

٤ ــ ان الاختبارات اليدوية المركبة أصدق في التمييز بين الأفراد من الاختبارات البسيطة ·

٥ ــ ان العسر ــ وهو استخدام اليد اليسرى ــ يزداد بنمو الطفل ، وان الطفل البطيء لا السريع هو الطفل الاضبط في أغلب الأحوال؛ أي الذي يستخدم كلتا يديه بنفس السهولة ·

وقد اهتم الدكتور عزت راجح منذ عام ١٩٦٠ بتدريس علم النفس الصناعي بجامعة الاسكندرية فأنشأ في عام ١٩٦٠ معملا لتدريب تلاميذ السنة الرابعة الذين يدرسون مادة علم النفس الصناعي · والمعمل مزود بطائفة من الأجهزة والاختبارات المستوردة من الخارج وبمكتبة خاصة · كما انه نشر في عام ١٩٦١ ، كتابا في علم النفس الصناعي من ٥٠٤ صفحات · وفي عام ١٩٥٤ نشر بحثا في الكتاب السنوي في علم النفس موضوعه :

« الاختبارات السيكولوجية في انتقاء طلبة الجامعة » (ص ٨١ ــ ٩٦) ·

***

وفي يناير ١٩٤٠ حصل يوسف مراد على دكتوراه الدولة في الآداب من السربون · ويقضي الحصول على دكتوراه الدولة في الآداب الحصول أولا على ليسانس التعليم في الآداب وعلى دبلوم الدراسات العليا ثم تقديم رسالتين للدكتوراه احداهما رئيسية والثانية مكملة ·

وكان موضوع رسالة الدبلوم « سيكولوجية الجهد من عهد الفلاسفة اليونان حتى الدارسات التجريبية في القرن العشرين » ، وهي غير منشورة وتقع في ١٧٠ صفحة وتحتوي على سبعة فصول : ويتناول الفصل الأول مفهوم الجهد effort في الفكر اليوناني واللاتيني وتعتمد الدراسة

بوجه خاص على تحليل شتى المصطلحات اليونانية واللاتينية التي يدور معناها حول مفهوم الجهد والمشقة والرياضة الروحية والتقشف والجلد وما اليها · ويعالج الفصل الثاني مفهوم الجهد في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ثم يخصص الباحث الفصل الثالث لعرض رأى الفيلسوف مين دى بيران في الجهد اذ ان مفهوم الجهد هو المحور الذى تدور من حوله نظرية مين دى بيران في الشخصية وفي نشأة الشعور بالأنا · ثم يستعرض الفصل الرابع التفسيرات المختلفة التي تناولت الشعور بالجهد في القرن التاسع عشر · ثم يعود فيخصص فصلين احدهما لعرض نظرية برجسون في الجهد العقلي والثاني لشرح نظرية بيير جانيه فيما يسميه بسلوك الجهد (١) أما الفصل الأخير فيدرس العلاقة بين الجهد والعمل ·

أما رسالتا دكتوراه الدولة في الآداب فقد استغرق اعدادهما وطبعهما اربع سنوات ونصف · ورأى الباحث أن يخصص الرسالة الكبرى لموضوع في علم النفس الحديث والرسالة الصغرى لاحياء جانب من التراث العربي في الدراسات النفسية · ومن الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمامه دراسة الشروط العضوية الجسمية للنشاط النفسي أو للسلوك كما يحاول علم النفس وصفه وتفسيره ·

وموضوع الرسالة الكبرى وعنوانها « بزوغ الذكاء » (٢) دراسة مقارنة بين السلوك الحيواني وسلوك الطفل الرضيع مع الافتراض بأن القوانين ذاتها التي تفسر سلوك الحيوان تفسر أيضا سلوك الطفل الرضيع ، ثم محاولة الذهاب بهذا الفرض الى أقصى حدوده حتى يتفجر الاختلاف الجوهري بين السلوكين وهذا الاختلاف يتمثل في اللغة وما يتضمنه اكتساب اللغة من قدرات عقلية تنقص الحيوان ·

وكان الفرض الثاني الذى حاول الباحث التحقق من صحته هو التوازن القائم بين تطور الجهاز العصبي وتطور السلوك الذكي وتشمل هذه الدراسة مراحل الترقي في المجالين العصبي والسيكولوجي من الأميبا الى الشامبانزيه الى الانسان وقد تبين خلال هذه المرحلة الطويلة كيف كان مدلول الذكاء يتطور ويرتقي من مجال التكيف البيولوجي

---

(١) نشر هذا الفصل في مجلة علم النفس ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، فبراير ١٩٥٠ ·

Mourad, Youssef : La conduite de l'effort d'après Pierre Janet, The Egyptian Journal of Psychology, Vol. V, No. 3, February 1950, pp. 1-13.

(٢) Mourad, Youssef : L'Eveil de l'Intelligence. Etude de psychologie comparée, 2e éd., Paris, 1955, p. 348. Presses Universitaires de France, Bibliothèque Scientifique Internationale.

الى مجال التعلم الحسى الحركى ثم الى مجال السلوك الرمزى ثم العقلى المجـرد .

وسمة الذكاء التى نطلقها على فعل من الأفعال لا تتضح الا بالقياس الى السلوك الكلى . ويتميز هذا السلوك بأنه قصدى ؛ موجه نحو غاية ، وهى الغاية التى تعين وسائل تنفيذها . ومبدأ كل نشاط موجود فى الكائن الحى ذاته والمنبه الخارجى ليس الا وسيطا يسمح للنزعات بأن تعبر عن نفسها ولهذا السبب يمكن التحدث عن تعدد الدلالة لدى المنبه الواحـد .

وحيث ان ارتقـاء الذكاء مرتبط بدرجة التماين والتفاضـل التى تكون قد وصلت اليها الوظيفة الاستطلاعية لأعضاء الاسـتقبال فان أول بادرة للذكاء تظهـر عند ما يكتسب المنبه الخـارجى صـفة الاشـارة عند ما يكون غير ملائم للتفريغ المباشر للتوتر الذى أحدثه تنشيط الحاجة أو النزعة أو الميل أو الدافع على وجه العموم ؛ وفى هذا الكف المؤقت للدافع وفى هذه الصفة الاستباقية proleptique للمنبه ما يميز الفعل الذكى . والشعور من الوجهة الوظيفية هو توقع اتمام خبرة اعتمادا على ما يحويه الموقف الراهن من امارات . وكلما كان تبأور النزعة مبكرا ، أى عندما لا تزال بعد غامضة وغير متعينة ، أو بعبارة أخرى كلما كانت درجة عدم اتمام الخبرة عالية فى اللحظة التى يصبح فيها الشخص شاعرا بالمشكلة التى عليه أن يحلها ، زاد مدى تنوع وتعين التفاصيل فى مجال سلوكى أكثر امتدادا ، كما تثرى مجموعة أنماط التوافق الممكنة . وفى الذكاء الحيوانى تكون درجة عدم اتمام الخبرة صغيرة فى اللحظة التى يواجه فيهـا الحيوان العقبة أو الصعوبة . وكلما صغرت هـذه الدرجة ضاق مجال الذكاء وانحصرت القدرة على التجريد فى حدود ضـيقة والتعيين وتترك المكنة التى تعرض للحيوان تتميز بدرجة كبيرة من التنظيم والتعيين وتترك مجالا صغيرا ضيقا لاختيار جديد لاحق .

ويتميز ذكاء الطفل عن ذكاء الحيوان فى ان تبأور النزعة يتم تمهيدا لاختيار عن طريق المحاولة والخطأ وذلك فى غيبة المنبه الخارجى . ففى امكان الطفل أن يستبعد الخبرة قبل أن توجد فى مجال الادراك .

ويتوقف السلوك الذكى على مرونة الادراك وقابلية مجاله للتشكل ولاعادة بنائه بحيث تتاح فرصة الاستبصار السريع . وما يقال عن مجال الادراك يقال عن مجال المعالجة الذهنية ؛ فكلما كان الفشل موضع تفكير بدلا من أن يكون موضع معاناة تكون درجة الذكاء أكبر .

وأخيرا يسير تقدم الذكاء وارتقاؤه نحو درجات أكبر فأكبر لعدم تعين الاشارات والرموز التي يميزها الشخص أو يتفقدها أو يخلقهـــا أو يستخدمها ، نحو تحرير أكبر فأكبر من القيود المكانية والزمانية ، نحو تدعيم القدرة على الكف والتوقيع والالتفاف والاستباق والاختيار ٠

ومن خلال تتبعه لارتقاء الجهاز العصبي في الأنواع الحيوانية من اللافقريات الى الفقريات ودراسته للمراحل التي يمر بها النمو الحسي والحركي والانفعالي والادراكي لدى الطفل اتضح للباحث مدلول عملية التكامل كما أشار اليها هوجلنج ـ جاكســون وشرنجتون في انجلترا ثم موناكوف ومورج في فرنسا وسيتخذ يوسف مراد من عملية التكامل المحور الذي سيبني حوله نظريته الشاملة في الحياة النفسية ويصيغ القوانين العامة التي تفسر ارتقاء الحياة النفسية ٠ ان نقطة البداية عنده هي دائما دراسة الشروط البيولوجية والفسيولوجية للســلوك الفردي ومن رأيه انه لا يمكن فهم الانسان الا اذا فهمنا أولا طبيعته الحيوانية ؛ كما انه لا يمكن فهم المجتمع الا اذا فهمنا أولا طبيعة الانسان الفرد ٠ ولا يعني هذا ان يوسف مراد ينزع في تفكيره نزعة تخفيضية بارجاع الانسان الى الحيوان والاجتماعي الى الفردي ، بل على العكس من ذلك فان منهجه التكاملي ؛ طفروي في نزعته يسلم بوجود مراتب تصاعدية من الوجود بحيث تحتفظ كل مرتبة حيوانية كانت أو نفسية أو اجتماعية بنوعيتها واستقلالها الذاتي ٠

طبعت هذه الرســالة عام ١٩٣٩ ونوقشت في يناير ١٩٤٠ وقد أشرف على البحث الأستاذ هنري ديلاكروا ثم بعد وفاته الأستاذ جيوم وقد قال عن الرسالة في تقريره ان من بين مميزاتها انها تقدم لعلماء النفس الفرنسيين حقائق ونتائج تجريبية هم للأسف يجهلونها وقد أعيد طبع الرسالة في عام ١٩٥٥ ونشرت في مجموعة يشرف عليها الأستاذ هنري بيرون هي « المكتبة العلمية الدولية ، قسم العلوم الانسانية فرع علم النفس » ٠ وقد أصبح كتاب الدكتور يوسف مراد « بزوغ الذكاء » من الــكتب التي تذكر في المراجع الأســاسية لكتب علم النفس للطلبة الجامعيين ٠ وقد استشهد ببعض ما جاء فيه الأستاذ هنري بيرون (١) ٠

---

(1) Piéron, Henri : Psychologie Zoologique, in Nouveau Traité de Psychologie, Tome VIII, 1941, p. 255, P.U.F.

« Une excellente analyse des processus complexes de l'apprentissage avec anticipation des organisations intelligentes, à côté des reflexes conditionnés, a été donnée par MOURAD (1939), dans la deuxième partie de son livre : « L'Eveil de l'Intelligence ».

في موسوعة علم النفس (فصل سيكولوجية الحيوان) وجان فييو في كتابه عن سيكولوجية الحيوانات وكذلك العالم الهولندي بويتنديك ٠ وفي كتابه عن ذكاء الطفل وتفكيره عدل جان بورجاد رأيه في طبيعة الذكاء في الطبعة الثانية من كتابه عام ١٩٤٢ (ص ١٥٤) (١) ٠

ويشير فييو في ص ٦٧ الى التمييز الذى اقامه يوسف مراد بين السلوك المكتسب الذكي ، أى العلاقة بين التعلم والذكاء وهو موضوع الفصل الرابع من كتاب بزوغ الذكاء ٠ كما أن فيو في حديثه عن تعلم الفأر اجتياز المتاهة يرجع القارىء الى الفصل السادس ٠ وفي خاتمة كتابه يذكر فيو ص ١٢٥ ـ ١٢٦ نصا مقتبسا من كتاب الدكتور يوسف مراد في التمييز بين ذكاء الحيوان وذكاء الانسان ٠

وكان الغرض من الرسالة الثانية لدرجة الدكتوراه الدولية في الآداب احياء جانب من التراث العربي في الدراسات السيكولوجية ٠ وكان أقرب موضوع للدراسات الواقعية المرتبطة بالعلاقة بين الجسم والنفس ما يتصل بعلم الأمزجة أو الطباع وما تفرع عنه من تأويلات وتكهنات فيما سمي بعلم الفراسة وهو علم الفيزيوجنومونيا لدى اليونان٠ وقد وفق الباحث الى الكشف عن نص لم ينشر للامام فخر الدين الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) في علم الفراسة ؛ فوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة كمبردج ونسخة ثانية في قسم المخطوطات في مكتبة لندن كما انه اعتمد على صورة فوتوغرافية لنسخة ثالثة موجودة في مكتبة ايا صوفيا في اسطنبول ، وقد حقق النص العربي وشرح التعليقات على النص ٠وقدم للنص والترجمة بدراسة وافية عن تطور علم الفراسة منذ عهد اليونان حتى يومنا هذا في أربعة فصول من ص ٧ الى ٦٧ ٠ ويتناول الفصل الأول موضوع الفيزيوجنومونيا وتطورها في القرون الوسطى ، وفي العصر الحديث مع الاشارة الى العلاقة بين القضايا في علم الفراسة ومبادىء نظرية الجشطلت من جهة ومبادىء السلوكية الحديثة من جهة أخرى ٠

ويعالج الفصل الثاني موقف علم الفراسة من سائر العلوم في

---

(١) Filloux, Jean-C. : Psychologie des Animaux, 1950, Paris, P.U.F., p. 121.
انظر صفحة ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٥ ـ ١٢٦ ص ١٥٤ ٠
Buytendijk, F.J.J. : Traité de Psychologie Animale 1952, Paris, P.U.F.
Bourjade, Jean : L'Intelligence et la Pensée de l'Enfant, 2e éd., 1942.
راجع أيضا ما جاء في عدد أغسطس ١٩٤٠ من مجلة Psychological Abstracts
والمقالة التي نشرها الأستاذ اندريه لالند Lalande في عدد يناير من مجلة Philosophical Review

تصنيف العلوم كما نجده لدى الفارابي وابن سـينا والغزالى وابن رشد والاكفاني وطاشكوبرو زاده والحاج خليفة ٠

أما موضـوع الفصـلين الثالث والرابع فهو عرض لكل ما كتبه اليونان والعرب فى علم الفراسة وقد تطلب العثور على كل ما كتبه العرب فى هذا الموضـوع زيارة المـكتبات الغنية بالمخطوطات العربية فقد قضى الباحث أكثر من سنة فى التنقيب والبحث فى مكتبات باريس ثم لندن وكمبردج وأكسفورد فى أنجلترا وليدن فى هولندا وبرلين وميونخ وجوطا فى المـانيا ٠

وقد وفق أثناء بحثه في المكتبة البودليانية فى اكسفورد الى الكشف عن مفقود كان مسـتترا تحت اسـم غريب هـو « مذاهب الـكلدانيين لابن وحشية » ٠وهذا الكتاب المفقود هو الجزء الثانى من كتاب مطالع الأنوار فى الحـكمة لسراج الدين محمـود ابن أبى بـكر الارمـوى (٦٨٢/١٢٨٣) ٠ أما الجزء الأول فهـو فى المنطق وكان من الـكتب المأثورة وتناوله بالتعليق والتوضيح تسعة وعشرون من الشراح منهم قطب الدين الرازى التمتانى (٧٦٦/١٣٦٥) والجرجانى (٨١٦ / ١٤١٣) وقد طبع على الحجر فى طهران عام ١٢٩٤ هـ ٠

أما الجزء الثانى وموضـوعه فى الحكمة فظل مخيفـا ولم يذكره الحاج خليفة فى كتابه « كشف الظنون : من أسامى الكتب والفنون » اذ أن النسخة الوحيدة منه انتقلت الى أوروبا قبل أن يبدأ الحاج خليفة رحلته فى المكتبات العامة والخاصة ٠

وهذا الـكتاب الذى يعالج موضـوعات الفلسفة الأولى والفلسـفة الطبيعية والالهية جدير بالنشر لأنه يقارن آراء ابن سينا وردود فخر الدين الرازى ٠ غير أن النسخة الموجودة فى اكسفورد ، وهى النسخة الوحيدة حسب علمنا : نسخة ناقصة ومكونة من جزء قديم (عشر ورقات) يحمل على هوامشه تعليقات بعضها لمحمود بن عبد الرحمن بن محمد الاصفهانى الشافعى (٧٤٩/١٣٤٨) ، والجزء الثانى حديث الكتابة لا توجد شروح على هوامشه ورقم المخطوط Bodl, I, 494 (١) ٠

وقد رحب المستشرقون ومؤرخو العلوم ببحث الدكتور يوسـف مراد فى علم الفراسة عند العرب وقد تلقى المؤلف من مؤرخ العلم جورج

(١) راجع هامش ص ٦٤ ، ٦٥ من : Mourad, Youssef : La Physiognomonie arabe et le Kitab al-Firasa de Fakhr al-Din al-Razi. Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1939, pp. 162+88 de texte arabe.

سارطون خطابا يثنى فيه على قيمة الرســالة وقد جاء ذكر الرسالة فى مجلة ايزيس لتاريخ العلم والفلسفة فى عام ١٩٤١ وفى الجزء الثالث من كتاب جورج سارون « مدخل الى تاريخ العلم » ·

وقد ظل الدكتور يوســف مراد معنيا بالتراث العربى وكتابه فى مبادىء علم النفس العام هو الكتاب العربى الوحيد الذى يستشهد فيه المؤلف بنصوص عربية اما قديمة لابن سينا اولغزالى وكبار أطباء العرب أو حديثة لكبار أدبائنا أمثال طه حسين والعقاد وتيمور · وسنرى فيما بعد كيف ان مفهوم التكامل وجه بحوث الدكتور يوسف مراد سواء فى المقالات التى نشرها فى مجلة علم النفس التى أنشــأها عام ١٩٤٥ وفى الكتاب السنوى لعلم النفس عام ١٩٥٤ بعد توقف المجلة عن الصــدور ، أو فى دراساته لسيكولوجية الفنان والفنون الجميلة ·

* * *

وننتقل الآن الى رسالة الدكتوراه التى حصل عليها مصــطفى زيور من جامعة ليون عام ١٤٩١ وموضوعها الافازيا والعسر الدماغى (١) · وقد نشأت فكرة هذه الرسالة ـ بوصفها تتويجا للدراسات الطبية التى قـام بها الباحث كاساس لما يهدف اليه من التخصص فى الدراسات النفسـية ـ من الرغبة فى دراسة مشكلة يلتقى فيها بوضوح العضوى والنفسى أى مشكلة الافازيا ، أى فقدان القدرة على استخدام اللغة وفهمها ، ومايكتنفها عادة من اعراض الأجنوزيا والابراكسيا · ويكون الدكتور مصطفى زيور فى اتجاهه هذا مخلصا للتقاليد الفرنسية فى الجمع بين الثقافة الطبية والثقافة السيكولوجية كما أن الأمر مع أساتذتنا بيير جانيه وجورج ديما وهنرى فالون وجورج بواييه واندريه اومبردان كمــا هو الأمر كذلك اليوم مع أندريه لاجاش وجولييت بوتونيه أساتذة علم النفس فى السربون ·

ورغبة تضييق نطاق البحث حتى يتاح تعمق المشكلة اختار الباحث مشكلة الافازيا الصليبية Aphasie croisée التى يبرز فيهــا خطل النظرية الميكانيكية عن المراكز اللحائية فى تفسير اضطرابات اللغـة بوجه خاص واضطرابات التفكير بوجه عام ·

وقد استفاد الباحث بدراسته الفلسفية السابقة من ناحية ودراساته فى علم النفس الفسيولوجى من ناحية أخرى (تجارب فى الادراك البصرى وظاهرة Phi بوجه خاص) لاقامة الدليل على وجوب النظرة الدينامية

(١) Ziwar, Mostapha : Aphasie et Gaucherie cérébrale, Thèse de Médecine, Lyon, 1941.

فى هذه المشكلة ، تلك النظرة التى سبقه فيها فى مشكلات أخرى من ميدان الافازيا كل من فرويد ، بيير مارى ، الاجوانين ، هنرى ، هيد ، ج· فرومان وغيرهم · وقد انجز الباحث هذه الرسالة تحت اشراف احـــد أساتذة النيورولوجيا البارزين وهو ج · فرومان Y. Froment ، تلميذ بابنسكى Babinski وأحد رواد التفكير النقدى الدينامى فى الطب العصبى ـ النفسى ·

وسنعود الى الحديث عن أعمال الدكتور مصـــطفى زيور فى بعثه حركة التحليل النفسى فى الشرق وتنظيمها وتنميتها ·

ومن الحاصلين على دكتوراه الدولة فى الآداب من السربون (فرع علم النفس) الدكتور صلاح مخيمر ، أستاذ علم النفس بكلية التربية بالقاهرة ، والدكتور سامى محمود على مدرس علم النفس بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية والاثنان من تلاميذ الدكتور دانييـــل لاجاش المحلل النفسى وأستاذ علم النفس المرضى بالسربون ·

كان صلاح مخيمر ضابطا بالجيش واشترك فى موقعة العلمين وكان من ابطالها واضطر الى ترك الخدمة العسكرية بعد أن فقد بصره واحدى ذراعيه فالتحق طالبا بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة وكان من المتفوقين ثم سافر الى باريس والتحق بالسربون وحصل على دكتوراه الدولة فى الآداب (فرع علم النفس) عـام ١٩٥٧ وتعد رسائله اســهاما قيما فى الدراسات الخاصة بعميان الحرب وفيما يلى تلخيص موجز عن أعماله ·

فى عام ١٩٥٣ قدم رسالة للحصـــول على دبلوم الدراسات العليا باشراف الدكتور لاجاش وموضوعها : « نظرية الجشـــطلت وعلم النفس الاجتماعى » (١) وهى محاولة للامتداد بالتصورات الجشطلتية الى مجال الحقيقة النفس اجتماعية · ومن النقط الهامة التى ناقشها الباحث اوجه الاختلاف بين نظرية الجشطلت ونظرية المجال كما قال بها كيرت ليفين Kurt Lewin وانتهى الى اثبات عكس ما هو شائع وهو ان ليفين ليس من الجشطلتيين· وقد وصف الدكتور لاجاش هذه الرســـالة بانها « عمل جد جاد ، دسم ، منهجى وشخصى » ·

وفى عام ١٩٥٧ قدم صـــلاح مخيمر رسالتى دكتوراه الدولة فى الآداب وكان موضوع الرسالة الرئيسية : « التكيف الانفعـــالى لعميان

---

(١) قام المؤلف بالاشتراك مع الأستاذ عبده ميخائيل رزق بترجمة الرسالة الى اللغة العربية ونشرت عام ١٩٦١ ، ٢٢٤ ص ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ·

الحرب » وهي تقع في ٣٠٠ ص تقريبا وكان المشرف الدكتور لاجاش ٠ ويحاول الباحث في هذه الرسالة رسم المنحنى الانفعالي الذى يسلكه العمى في سيره من العصاب الصدمي الذى يستثيره الى هذه الصورة أو تلك من صور الاستقرار الانفعالي التى ينتهى اليها ٠ ولكن هذا الرسم لا يقدم صورة نمطية جامدة دائما هي علاقة مثالية تعتبر الحالات الفردية العيانية مجرد تجسيدات متباينة وتشكيلية منوعة لها ٠ وهكذا فأن وحدة العلاقة المثالية تتكثر في الحالات العيانية ٠ ولقد استعرضت الرسالة من الناحيتين التاريخية والفنية مختلف الطرائق التى استخدمت لتأهيل عميان الحرب وخاصة منذ الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب العالمية الثانية في المعسكرين الغربي والشرقي ٠ والفكرة الأساسية في هذه الرسالة انما تنحصر في استجلاء الطبيعة الخاصة لعملية التكيف ، ثم ما كان من خروج على هذه الطبيعة أو اغفال لها في جميع المحاولات التأهيلية التي تمت حتى هذه السنوات الأخيرة ٠ فالوحدة الكلية لعملية التكيف غالبا ما فهمت من زاوية ميكانيكية وكأنها مجرد حاصل لسلسلة من التوافقات الجسمية والمهنية بوجه خاص والعاطفية والجنسية الخ ٠٠ والى هذا التمزيق التعسفي لوحدة العملية الكلية انضاف خطر العمل ، « من الخارج » مع ان عملية التكيف شأنها شأن كل تربية أو اعادة تربية لابد وان تنطلق من الداخل ، وحين يبلغ منحنى التطور الانفعالي نقطة بعينها ، عندها وعندها فقط يستطيع الكائن ان يفيد من الامكانيات الخارجية أو يستخدمها أو يستعيض عنها ببدائل لها ٠ وفي هذا كله تظل القدرات aptitudes مجرد وسائل يفيد منها أولا الشخص وفقا لاتجاهه attitude من نفسه ومن ثم من الحياة بأحيائها وأشيائها ٠

اما الرسالة المكملة أو الصغرى فموضوعها « المشكلات الجنسية لاعمى الحرب » وتقع في ٢٥٠ ص تقريبا ، تحت اشراف الدكتورة بوتونيه، أستاذة علم النفس بالسربون ٠ وهذه الرسالة تعد بحق محاولة جديدة في الفرض الذى وجهها وفي الوقائع التى استندت اليها ٠ ويرسم الباب الأول الخطوط الرئيسية العامة للمجال الجنسي وقت الحرب ٠ اما الباب الثاني فيتتبع التغيرات التى يستثيرها العمى في المجال الجنسي ويسير معها الى نهاية مختلف مساربها الممكنة ٠ ولقد كشفت الدراسة عن الأهمية البالغة لدور التجنيس sexualisation في عملية الابصار ٠ ذلك أن العمى يستمد أغلب ثقله وينهل أمر احباطاته من افتقاده الأشكال والألوان والأضواء بعد ما تكون قد اصطبغت ابان البلوغ بالصبغة الجنسية التى تحيل عالم المراهق شيئا يختلف تماما عما كان عليه ٠ ويقدم هذا الباب

أيضا صورة للانتظام الجديد الذى يتحقق فى عالم الجمال الجنسى عند النخبة من المكفوفين وذلك عندما يتحقق لهم من الاتزان ما تتيح لهم أن ينفتحوا للامكانيات الجديدة التى هى فى معظمها لمسية حركية اما الباب الثالث والأخير فينصب على المجال الزوجى والاسرى ويستند الى مفاهيم التحليل النفسى فى رسمه لنمط الفتاة التى تنجذب الى الاعمى بصورة عامة والى أعمى الحرب بصفة خاصة . وهذا النمط ، نمط المرأة المنافحة، يفرض على المجال صراعات بعينها قد تجعل من الحياة الأسرية جشطلتا اجتماعيا مقلوب القيادة أو متناوب القيادة قبل ان تبلغ صورتها الثقافية السوية .

وقد واصل الدكتور صلاح مخيمر جهوده فى سبيل رعاية المكفوفين وتأهيلهم فأنشأ عام ١٩٥٨ مجلة « الكفيف العربى يتحدث » ونشر الكتب الآتية :

المجـال الفيزيائى والمهنى للكفيف ، ٢٠٠ ص ، ١٩٥٩ ، ومذيل بقاموس المصطلحات الخاصة بالتأهيل .

تاريخ تأهيل المكفوفين ، ١١٠ ص ، ١٩٦٠ .

الانماط الانفعالية للمكفوفين ٢٧٤ ص ، ١٩٦١ . والناشر للكتب الثلاثة مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة .

وحصـل الدكتور سامى محمود على على درجة دكتوراه الدولة فى الآداب ، فرع علم النفس من السربون عام ١٩٥٨ . وكان موضوع الرسالة الرئيسية « الاسقاط والطرق الاسقاطية » وقد اشرف على اعداد الرسالة الأستاذ الدكتور دانييل لاجاش وهى تتناول مشكلة الاسقاط فى مستواها النظرى وفى علاقتها بالطرق الاسقاطية المختلفة ، وركز الباحث اهتمامه حول اختبار بقع الحبر لروورشاخ واختبار تفهم الموضوع وانتهى الى عرض نظرية فى الاسقاط أساسها التحليل النفسى والمنهج الفينومينولوجى وعلم النفس التجريبى تحقيقا لفكرة لاجاش فى « وحدة علم النفس (١) » .

اما الرسالة الصغرى فكانت باشراف الأسـتاذ جان بياجيه وهى عرض نقدى منظم للدراسات التى بدأها « برونر وبوستمان فى العلاقة بين الادراك والدوافع ، وهى تضع فى النهاية خطوطا عامة لتفسير نتائج البحث التجريبى تفسيرا نظريا شاملا .

---

(١) Ghoneim, Sayed : Les déformations perceptives du losange de l'enfant à l'adulte. Archives de Psychologie, Vol. 37, No. 145, Genève, 1950.

والدكتور سامي محمود علي عضـــو الجمعية الباريســـية للتحليل النفسي والرابطة الدولية للتحليل النفسي ، وســـنعود الى ذكر أعماله التعليمية الأخرى عند الحديث عن حـركة التحليل النفسي في جمهورية مصر العربية ٠

وبقي لنا ان نشير الى رسالة دكتوراه في علوم التربية (فرع علم النفس) قدمت الى جامعة جنيف في سويسرا ، هي الرسالة التي أعدها الدكتور سيد غنيم تحت اشراف الأستاذ جان بياجيه Jean Piaget عام ١٩٥٩ وموضوع الدراسة التجريبية تتبع ســـير الخداع البصري الهندسي في مراحل النمو المختلفة ٠

انتهينا الآن من ذكر علماء النفس الذين يمثلون الاتجاه الفرنسي وهو يمثلهم بصفة خاصة في مجال علم النفس التكويني والمقارن الدكتور يوسف مراد وفي مجال التحليل النفسي والتفكير الفينومينولوجي الدكتور مصطفى زيور والدكتور سامي محمود علي ٠ ونود الآن استكمالا لعرض الاتجاهات المختلفة الاشارة الى أهم رســـائل الدكتوراه التي قدمت للجامعـــات الأميركية ، وقد سبق ان ذكرنا احداها عند حديثنا عن التحليل العاملي للقدرات العقلية وهي رسالة الدكتور محمد عبد السلام أحمد (ص ٥١٠ ـ ٥١١) ٠ كما أننا سنستوفي الحديث عن بقية رسائل الدكتوراه التي قدمت للجامعات الانكليزية وذلك عنـد حديثنـــا عن الانتاج العلمي في العشرين السنة الأخيرة في مختلف ميادين علم النفس ٠

ملحق رقم (١)

عن نشاط مراقبة الاختبارات النفسية والاشراف الاجتماعى بمصلحة الكفاية الانتاجية والتدريب المهنى

بوزارة الصناعة

لما كان من الأهداف الأساسية لوزارة الصناعة رفع الكفاية الانتاجية لكافة مصادر الانتاج على مستوى الجمهورية كلها ، أنشأت الوزارة مصلحة الكفاية الانتاجية لتحقيق هذا الهدف ، ثم أنشأت المصلحة مراكز خاصة بالاختبارات النفسية عام ١٩٥٦ وكان عملهـــا قاصرا على اختيار أصلح العمال والتلاميذ الصناعيين المتقـــدمين للتدريب فى المؤسسات الصناعية المختلفة وغير الصناعية التى توجد فى جميع أنحاء البلاد . ثم اتسع نطاق عملها بعد افتتاح مراكز التدريب المهنى للمهن المختلفة .

وعلى هذا كان لا بد للمراقبة الجديدة أن تواجه كل هذه الاعباء عن طريق تحليل جميع الحرف التى تتضـمنها كل هذه المراكز . ثم تصميم بطاريات الاختبارات المختلفة التى تقيس هذه المهن . ويرجع الفضل فى تطوير هذه البطاريات ، بل فى تصميمها وتقنيتها الى مجهودات الدكتور السيد محمد خيرى أستاذ علم النفس المساعد بجامعة عين شمس والخبير الفنى فى المصلحة والى الاخصائيين النفسيين الذين كانوا يعملون معه . وقد اتسع نشاط المراقبة فى ابريل ســـنة ١٩٦٠ ليشـــمل الاشراف الاجتماعى .

وكان لزاما على المراقبة بنــــاء على التوسع الكبير فى افتتاح مراكز التدريب المهنى سواء أكان للتلمذة الصناعية أو للتدريب السريع ـ كان لزاما عليها أن تقوم بالأبحاث السيكولوجية والاجتماعية المختفلة لتطوير وسائل الاختبار والتوجيه النفسى والاجتماعى . بيد ان الاهتمام الاكبر فى هذه البحوث كان قاصرا فى بادىء الامر على الاختيار المهنى من حيث هو الوسيلة العلمية الدقيقة لانتقاء أصلح التلاميذ والصناع للمراكز المختلفة ،

التى تتفق مع استعداداتهم ومهارتهم المختلفة ، كذلك تتفق وسماتهم المهنية والشخصية ٠

ولقد ابتدىء بالدراسات الخاصة بتحليل العمل ، فترجمت كثير من استمارات تحليل العمل الأجنبية واستخلص منها استمارة تتفق وطبيعة الظروف والبيئة المحلية ٠

وكان لاستمرار تحليل العمل فى المراكز المختلفة والمؤسسات الصناعية أيضا الفضل فى تطوير استمارة تحليل العمل ٠ حتى وصلت لصورتها الحالية ، وهى تعادل تقريبا نفس استمارة مكتب التوظيف الاميركى USES من حيث أن لها كتيب تعليمات خاصة بخطوات التحليل وتعريف بمفاهيم الاستمارة وأجزائها المختلفة ، كما أرفق بها أيضا قائمة بتعريف السمات أو الخصائص الجسمية وشروط العمل وظروفه بناء على أحدث الدراسات التى تمت فى مجال القدرات العقلية والسمات النفسية فى الخارج حتى تكون عملية التحليل موضوعية ومقننة ٠

ويمكن أن نقول الآن بأن لدى المراقبة تحليل شبه مفصل لمعظم الاعمال والحرف التى يتدرب عليها التلاميذ فى مراكز التدريب المختلفة وأهم هذه الاعمال هى :

١ ـ الحرف الخاصة بصناعة واصلاح السيارات
٢ ـ الحرف الخاصة بالمعادن
٣ ـ الحرف الخاصة بالكهرباء
٤ ـ الحرف الخاصة بالنسيج
٥ ـ الحرف الخاصة بالزجاج
٦ ـ الحرف الخاصة بالجلود
٧ ـ الحرف الخاصة بالبناء
٨ ـ الحرف الخاصة بالطباعة ٠

وبناء على التحليل السابق لهذه الاعمال ، أمكن للمراقبة من تصميم مجموعات متعددة عن بطاريات اختبارات الحرف المختلفة ، على أساس ان كل اختبار منها يقيس قدرة أو مهارة مهنية كشف عنها التحليل ، وبين ان العمل يتطلبها أو انها أساسية للنجاح فى هذا العمل ٠ وأول هذه الاختبارات وأهمها هى بطارية اختبارات حرف المعادن ـ وهى تعتبر من أقدم البطاريات المستخدمة فى المراقبة وأكثرها تقنينا ، حيث ان المراقبة

تجرى عليها بحوثها الاحصائية والتجريبية من سنة ١٩٥٧ حتى الآن حتى تستكمل تقنينها النهائي · ولقد مرت هذه البطارية وغيرها من بطاريات الحرف المختلفة بعمليات التقنين والتجريب المختلفة من تحليــل وحدات الاختبارات التي تتضمنها ، وترتيب أسئلتها حسـب مستوى صعوبتها ، وتقدير ثبات كل فقرة وصدقها ، وحذف الفقرات غـير المميزة من كل اختبار وتقدير الزمن النهائي للاختبار في صورته الجـديدة ، ثم تقدير ثباته وصدقه بالطرق المختلفة ٠٠٠الخ ·

بعد كل هذا ضمت بعض الاختبارات التي تقيس قدرات معينة مع بعضها على انهـا بطارية واحدة تقيس القدرات والسمات المهنية المتطلبة لحرف معينة ، أو لعمل معين ·

وعلى سبيل المثال تتكون بطـارية اختبـارات حرف المعادن من الاختبارات الآتية :

١ ـ الاستدلال اللفظي
٢ ـ اختبار الذكاء الاعدادى
٣ ـ اختبار الاستدلال الميكانيكي
٤ ـ اختبار تذكر الاشكال
٥ ـ اختبار التصور المكاني
٦ ـ اختبار تكميل الاشكال
٧ ـ اختبار المعلومات الميكانيكية
٨ ـ اختبار العمليات الحسابية
٩ ـ اختبار التجميع الميكانيكي
١٠ـ اختبار ثبات اليد

أما الجزء المكمل لهذه البطـارية وللبطاريات الاخرى ، فهو تقدير الجانب الانفعالي أو الشخصي في عملية الاختبار · وتستخدم المراقبة في الوقت الحالي أسلوب المقابلة الشخصية Interview للتعرف على هذه الجوانب لتتيح للاخصائي فرصة أكبر للتعرف على المفحـوص عن كثب وتقدير مدى ثباته الانفعالي وقدرته العامة على التوافق في مراكز التدريب، وفي العمل بصفة عامة · وللمقـابلة استمارة خاصة تقيد فيهـا ظروف الطالب الاجتماعية ونشاطه الدراسي والمهني وميوله المختلفة ، كما ان هناك استمارة أخرى تقدر فيها السمات الشخصية بأوزان معينة ·

ولدى المراقبة اختبارات شخصية أخرى أهمها اختبار زازلو الجمعى وجارى البحث الآن لتطبيقه بشكل جمعى لتقدير سمات المرونة والجمود لدى الطلبة ، كما ان هناك اختبارا «خاصا» بالتوافق المهنى ، بيد ان هذين الاختبارين مازالا فى تطور الاعداد والتقنين ، ومن المعتقد أن نتائجها سوف تساعد فى التعرف على الجوانب المختلفة للشخصية بالاضافة الى نتائج المقابلة ٠

وثمة بطاريات من الاختبارات لكل حرفة من الحرف المذكورة قبلا٠

وجميع البطاريات السابقة خاصة بالتلمذة الصناعية ــ وهو نظام مراكز التدريب التى تقبل خريجى المدارس الاعدادية العامة ، والذى لايزيد سنه عن ١٨ سنة ــ ويستمر برنامج الدراسة ٣ سنوات بالنسبة لأى مركز ٠

كما توجد لدى المراقبة مجموعة أخرى من البطاريات المختلفة التى لم يكتمل تقنينها بعد مثل بطارية حرف البناء وبطارية حرف الطباعة وبطارية حرف التعدين ــ هذا بالاضافة الى بطاريات التدريب السريع الذى طبقته المصلحة منذ سنة ١٩٦١ ، وهذا النظام لا يشترط فى المتقدم أن يكون حاصلا على الاعدادية العامة ــ كما هو الحال بالنسبة لنظام التلمذة الصناعية التى تشترط فى المتقدم أن يكون حاصلا على الاعدادية العامة ولاتزيد سنه عن ١٨ سنة ، ويستمر التدريب فى نظام (التدريب السريع) من ثلاثة أشهر حتى ثمانية وذلك حسب نوع الحرفة وهو يشمل التدريب على حرف النسيج ويمكن قبول الصانع الذى سنه أكثر من ١٥ سنة ، وحرف المعادن ، ويمكن قبول الصانع الذى يزيد سنه عن ١٩ سنة ، وحرف الكهرباء أيضا وحرف البناء ٠ وجميع هذه المراكز تشترط فى المتقدم أن يجيد القراءة والكتابة ــ وتهدف من هذا النظام الى رفع مستوى الكفاية الانتاجية للعمال الحاليين أو للعمال الجدد لتؤهلهم لأن يكونوا عمالا ممتازين ٠

وبطارية التدريب السريع لا تقيس القدرات بالمعنى المعروف ، انما تقيس القدرة على القراءة والكتابة والعمليات الحسابية والذكاء العام (القدرة على الفهم أو الاستدلال اللفظى) هذا بالاضافة الى الاختبارات العملية المختلفة التى سبق عرضها فى بطاريات التلمذة الصناعية وذلك على حسب نوع الحرفة ٠

وبعد نجاح المتقدم فى الاختبارات السابقة يتقدم الصانع للمقابلة الشخصية ٠

وتعمل المراقبة على عمل صور لاختبارات البطاريات المختلفة واستخراج معايير جديدة لها لتتفق مع التغيرات الدائمة التى تحدث فى طبيعة العينة والمستويات الثقافية لها ، كما تقوم الوحدة الاحصائية بالمراقبة باستخراج معاملات الارتباط بين اختبارات كل بطارية وتقوم ادارة البحوث بالدراسات العاملية المختلفة لاستخراج العوامل التى تتضمنها كل بطارية واختصار عدد الاختبارات ، والاقتصار على أكثر الاختبارات تشبعا ونقاء .

وفيما يلى احصائية كلية شاملة بعدد المتقدمين لمراكز التدريب التى تم اختيارهم عن طريق بطاريات الاختبارات المختلفة بالنسبة لجميع المراكز من سنة ١٩٥٧ حتى سنة ١٩٦٢ .

احصائية تبين مدى نشاط مراقبة الاختبارات النفسية

فى القيام بعمليات الاختبار المهنى

من سنة ١٩٥٧ الى سنة ١٩٦٢

سنة	عدد	ملاحظات
١٩٥٧	٢٣٠	مركز المعادن – مركز الزجاج
١٩٥٨	١٤٨٢	مركز المعادن – مركز الزجاج – مركز البناء
١٩٥٩	٤٩٢٣	مركز المعادن – مركز الزجاج – مركز البناء
١٩٦٠	٢٣٨٢	مركز المعادن – مركز الزجاج – مركز البناء ومركز الجلود
١٩٦١	٧٥٣١	مركز المعادن – زجاج – جلود – نسيج – تدريب سريع
١٩٦٢	٩٠٠٤	مركز المعادن – زجاج – جلود – نسيج – كهرباء – تدريب سريع .

خطة الاختبار التى تقوم بها مراقبة الاختبارات النفسية :

لما كان الاختيار المهنى عملية منظمة تعتمد على مبـــادىء أساسية ، لذلك كان لا بد أن يكون هناك برنامجا محددا يتبع أسلوب المنهج العلمى فى كل من خطواته ، ويستوحى برنامج الاختيار خطواته من الهدف الذى يسعى اليه • ولما كان أول ما يهدف اليه هو المطابقة بين العامل وعمله ، وهو بالنسبة لمراكز التدريب المهنى اختبـــار أصلح التلاميذ الذى يتوقع نجـــاحهم فى برنامج التـــدريب ، وبالتالى صلاحيتهم لأن يكونوا عمالا ممتازين فى المستقبل •

لذلك يعتبر تحليل كل من العمل ، الاساس الاول لبرنامج الاختيار فى المراقبة •

ولقد تناولنا فى بداية هذا التقرير تحليل العمل والفرد ، وذكرنا ان المراقبة قامت بتصميم استمارة حديثة لتحليل العمل مع تعريف شامل دقيق لجميع متطلبات المهنة ، بالاضافة الى تحليل معظم الاعمال التى توجد فى مراكز التدريب المختلفة • ثم ذكرنا أيضا أن تحليل الفرد يعتمد على بطاريات الاختبارات المختلفة (حسب كل حرفة) ـ وان البـحث جارى الآن لتقنين معظم بقية هذه البطاريات على عينات حديثة •

بيد ان تحليل الفرد بالاضـافة الى اهتــمامه بالنواحى العقلية أو المعرفية (الاختبارات العقلية) يهتم أيضا بالنواحى الانفعـالية والمزاجية والشخصية المختلفة ، ويكشف عنها بواسطة المقابلة الشخصية ، اذ يعمل فى المراقبة أكثر من عشرة اخصائيين نفسيين درب معظمهم على فن المقابلة وطريقة اجرائها وتقييم الفرد عن طريقها •

ويقع معظم التركيز فى المقابلة المهنية على السمات الخاصة والسمات العامة ، وهو ما يعرف بالانفعالية العامة والثبات الانفعالى والواقعية فى مجابهة مشاكل الحيـــاة ومدى تحمل المســـئولية ، بالاضافة الى حسن التصرف وتقبل الذات واحترامها •

وتوجد استمارات معينـــة لتقييم هذه النواحى بأوزان خاصـــة ، (استمارة المقابلة الشخصية) •

كما نؤكد على عملية الاختبار على العوامل الاجتماعية أو (البيئية) ، لأنها تلقى الضوء على كثير من ظروف التربية التى مر بها الفرد وتساعد فى التنبؤ بمدى نجاحه مستقبلا فى مهنته وتؤكد فيها العوامل داخـــل

المنزل مثل الحالة الاقتصادية والظروف والمعاملة المنزلية ومشكلات المنزل وتوافق الفــرد فيه ، والعوامل التى توجد خارج المنزل كالعمــل أو المدرسة والنشـاط الاجتماعى وتقضية أوقات الفراغ ... الخ . وتوجد استمارة خاصة بذلك تعرف باستمارة الحالة الاجتماعية .

وأكثر ما نهتم به فى عملية الاختبار ، هو تكامل جميع البيانات عن الفرد فى كل متحد من الناحية الكمية والكيفية ، بحيث تتضح لنا طبيعة شخصية الفــرد من جميع الجوانب المختلفة حتى يتسنى مطابقتها للمهنة المناسبة .

ويبتدىء برنامج الاختبار بما يعرف « بكشف الهيئة » للتعرف على مدى الصـــلاحية واللياقة البدنية للمتقدمين للحرف المختلفة (طول ـ نظر ـ سن ...) ، وبعد النجاح فى كشف الهيئة تجـرى الاختبارات العقلية (على نوع الحرفة) ويبدأ عادة باختبارات الورقـــة والقلم ، فاذا نجح فيها بنسبة معينـــة حسب تقدير النسبة الحرفية وحاجة المراكز ـ يسمح له بتطبيق الاختبارات العملية والشخصية ، فاذا نجح فى كل منها قبل فى المركز المتقدم له .

نشاط المراقبة فى غير عمليات الاختبار المهنى :

تنقسم المراقبة الى ثلاثة أقسام رئيسية ، القسم الأول ، ويعـرف بقسم الاختبارات النفسية ، وهو يقوم أســاسا بعمليـات الاختبار المهنى وتحليل العمل ، القسم الثانى ، وهو قسم البحوث النفسية يقوم أساسا بتصميم الاختبارات وتقنينها واجراء البحوث المختلفة عليها وعقد الندوات الخارجية والاشتراك فيها وحضور المؤتمرات العلمية والقيام بجميع الابحاث الميدانية المختلفة . والقسم الثالث ، خاص بالاشراف الاجتماعى ، ويتضمن الاشراف الاجتماعى والرياضى فى مراكز التدريب المهنى وفى المؤسسات المختلفة التى يتدرب فيها طلبة السنوات النهائية فى هذه المراكز هــذا بالاضافة الى تنظيم النشاط الترفيهى ، وتتبع الحالات الاجتماعية وتحويلها اذا استدعى الأمر الى الاخصائيين النفسيين فى المراقبة . ويقوم القســم ايضا بصرف المعونات المالية والقيــام بالتوجيه الاجتماعى اللازم لبعض التلاميذ واولياء أمورهم . وتقوم الاقســـــام المختلفة جميعها فى بعض الاحيـــــان متعاونة فى عملية التوجيه الفنى والاجتماعى بالنسبة لبعض الحالات أو لبعض المراكز التى يظهر فيها اى مشاكل اجتماعية أو تربوية .

وبالاضافة الى ذلك تقوم المراقبة باختيار التلاميذ والصناع المتقدمين الى المؤسسات المختلفة فى القطاع العام ومراكز التدريب فيها .

أهم البحوث التى قامت بها المراقبة :

قامت المراقبة منذ انشائها بتنفيذ كثير من البحوث السيكولوجية والاجتماعية . اذ بالاضافة الى بحوث تحليل العمل وتصميم الاختبارات المختلفة واستخراج معاييرها المختلفة وتقدير معاملات ثباتها بالطرق الاحصائية المعروفة ، قامت ادارة البحوث باجراء دراسات مختلفة على هذه الاختبارات لتقدير مدى صدقها التجريبى سواء اكان ذلك بالطريقة التتبعية أو بطريقة العمال الحاليين .

كما بذلت كثيرا من المحاولات لتحديد محكات مناسبة نرجع اليها فى دراسات الصدق المختلفة ، كان اهمها ، النجاح فى برامج التدريب المختلفة سواء اكانت نظرية أو عملية . ولقد اكدت هذه الدراسات صدق بعض اختبارات البطاريات المختلفة ، وعدم صدق البعض الآخر — وهو الذى تقوم بتعديله أو تغييره ليرفع من الصدق الكلى بطاريات الحرف المختلفة .

كذلك يقوم قسم البحوث بعمل البحوث العاملية المختلفة على البطاريات المتنوعة ، وقد ركز اساساً على بطارية المعادن وامكن استخراج مجموعة عوامل مستقلة بطريقة الجمع لسيرت ، وأهم هذه العوامل بالذكاء الميكانيكى العام ، والقدرة العملية . ولقد اكدت هذه الدراسات ان معظم اختبارات بطارية المعادن تقيس قدرات مستقلة نوعاً وغير متداخلة مع بعضها الا فى حدود ضيقة .

كما تم اجراء أكثر من بحث على المقابلة الشخصية لتطويرها ومحاولة توحيد أساليب اجرائها وقيادتها ، ولقد أكد البحث الأول ان نتائج المقابلة الشخصية تتعلق بسن المقابل وخصائصه السيكولوجية ، كما تتوقف على مدى ما حصله من تدريب وخبرة وقراءات مختلفة ، وان كل مقابل له نمط معين فى التقدير يختلف عن غيره من المقابلين اختلافاً كميا . وبعد اجراء برامج التدريب موحدة للمقابلين ، امكن فى البحث الثانى اثبات تقارب المقابلين مع بعضهم فى كل من أساليبهم ونمط تقييمهم للافراد .

هذا بالاضافة الى البحوث الأخرى المتعلقة باختبارات الشخصية ، مثل اختبار زازو واختبار التوافق المهنى وبعض الاختبارات الفردية .

وفيما عدا ذلك تقــوم المراقبة باعــداد برامج لتدريب المشرفين والمدرسين من الوجهة السيكولوجية وتعرفهم بعلم النفس وأصول التربية والتعليم ومبادئه الأساسية ، وهذه البرامج قاصرة على مصــلحة الكفاية الانتاجية فقط ، وهي دورية منتظمة ، خصــوصاً بالنسبة لمعهد تدريب المدربين التابع للمصلحة ٠

كما قامت ايضاً بالاشــتراك فى المؤتمرات الدولية ــ مثل مؤتمر التلمذة الصناعية الدولى (لدى حوض البحر الابيض المتوسط) ، وقدمت فيه بحوثا خاصة بالاختيار والتوجيه المهنى فى مراكز التدريب العربية ٠ واشتركت ايضاً فى مؤتمر تنمية الانتـاج البشرى الذى عقـد فى شــهر اغسطس الماضى فى الاســكندرية وقدمت فيه بحوثاً عن علاقة الاختيار والتوجيه المهنى بزيادة الانتاج البشرى وتطويره ٠

مشروع قاموس

لمصطلحات علم النفس والطب العقلي

آلى automatic, — que (١) شبيه بالآلة من حيث دقة الحركة •

(٢) ما يصدر تلقائياً عن الجسم ، لا استجابة لمنبه خارجى •

(٣) ما يتم فورا وبدون توجيه شعورى أو روية •

تستعمل المدرسة السلوكية Behaviorism ، التى تنكر وجود الذات الشاعرة ، لفظ ميكانيكى mechanical بمعنى آلى • ويقصد به mechanistic نسبة الى النظرية التى تريد تفسير الظواهر البيولوجية والسيكولوجية بارجاعها الى العوامل الفيزيائية والكيميائية كما يتصورها علم الطبيعة التقليدى أى بارجاعها الى عوامل مادية لا تؤثر فيها العوامل الغائية • وفى هــذه الحالة تكون النظرية الميكانيكية فى مقابل النظرية الغائية Finalism أو Teleology • ويجب أن يلاحظ أنه ليس هناك تقابل بين الديناميكية والميكانيكية ، بل تعرف النظرية الميكانيكية بأنهــا التأويل الديناميكى للكون من حيث هو نظام من الأجسام تحركها قوى حالة فيها •

اتجاه Attitude ـ تهيؤ الذات لمعالجة تجربة ما أو مواجهة موقف ما مع الاحتفاظ بالتوتر العضلى والعقلى الى أن تنتهى التجربة أو يتغير الموقف شبيه بالاستعداد العقلى الراهن mental set

احساس sensation ـ (١) حالة شعورية نوعية بسيطة ، غير قابلة للتحليل بالاستبطان ، وتنتج عن تأثير الأطراف العصبية ومراكز الحس فى الدماغ بمنبه ما •

(٢) عملية نفسجسمية مركبة من جانبين ، جانب موضوعى خارجى هو المحسوس وأثره فى عضو الحس ، وجانب ذاتى داخلى هو الاحســاس من حيث هو حالة نفسـية • وتميل بعض مدارس علم النفس الحديث ، متأثرة فى ذلك بالفلسفة المثالية idealism الى الخلط بين الجانبين الموضوعى والذاتى ويظهر هذا الاتجاه فى استخدام لفظ sensation للتعبير عن المحسوس *sensatum* والاحساس *sensatio* على السواء •

٣ ـ العنصر النفسى الذى تتركب منــه العمليات العقلية من ادراك وتذكر وتخيل وتعقل ، تبعا لعلم النفس الارتباطى Associationism المعروف أيضاً بالمذهب الحسى Sensationism •

٤ ـ عنصر مجرد يفترضه التحليل افتراضاً • وهذا التحليل فى نظر مدرسة الصيغ (الجشطلت Gestalt) مشوه لطبيعة الحياة النفسية ،

فلا وجود للاحساس من حيث هو عنصر ، كمـــا أنه لا يمكن أن يصـــل التحليل السيكولوجي الواقعي الى وجود عناصر ، بل هو دائماً بصـــدد صيغ ومجموعات وأبنية ٠

٥ ـ ميز فلاســـفة العرب بين الحس وهو ملكة الاحســـاس وبين الاحساس وهو فعل الحس٠ ويعبر المحدثون عن ملكة الاحساس بحساسية أو القابلية للاحساس ٠ أنظر حساسية ٠

وللاحســاس من حيث هو حالة نفســـية ثلاثة جوانب ، الادراكي والوجداني والنزوعي أو الحركي ٠ والجانب الادراكي أهمها ، اذ لا تحصل معرفة الصفات الحسية من شكل ولون وصوت الخ ٠٠٠ الا بوســـاطة الاحساس ٠ وهذه المعرفة هي بمثابة مشاهدة الصفات الحسية فحسب أو ادراك مباشر لها ، لا للأشياء من حيث هي موضوعات Objects ، وعلى هذا الأساس وجب التمييز بين الاحساس والادراك ٠

أما الجانب الوجداني فهو الشعور بالسار والمكدر ، أو كما يقـــول القدماء بالملائم agréable والمنافر désagréable ، أو باللذة والألم ٠ ويكون الجانب الوجداني واضحاً فيما يســمى بالاحساسات الباطنية أو الاحساسات الحشوية ، بينما يكون الجانب الادراكي فيها ضعيفاً جداً ٠

أما الجانب النزوعي أو الحركي فهو أن يتبع الاحساس دائماً رجــع حركي ، في صورة حركة منعكسة في معظم الأحيان ٠

ويرجع تضامن هذه النواحي الثلاث الى ما يمتاز به سلوك الانسان من تكامل مقدماته ويمكن القول ان مايحس ليس النفس ولا الجســـم بل المركب النفسجسمي ، أو كما يقول أرســـطو العضـــــو ذو النفس l'organe animé أو العضو الحي ٠

اختبار Test ـ ما يقاس به سمة من الســمات أو قدرة من القدرات سواء كانت عامة أو خاصة ، قبل التدريب أو بعده (أنظر قدرة) ٠

توجد اختبارات لفظية verbal واختبارات عملية performance سواء تناولت الحركات أشياء وأشكالا كما في لوحة الأشكال form-board (أنظر الشكل في مجلة علم النفس عدد أكتوبر ١٩٤٧ ص ٣١٧ ـ ٣١٨) أو كانت مقصورة على الرسم أو التأشــير بالقلم ، غير أن في الاختبارات العملية تستخدم الألفاظ عادة في اعطاء التعليمات ، وقد يقتصر فيها على

الاشارات اليدوية أو تمثيل ما يجب أن يقوم به الشخص لتأدية الاختبار كما فى حالات الأطفال الصم البكم ·

وتوجد اختبارات فردية تجرى على كل فرد على حـــدة واختبارات جمعية يجرى على عدد الأشخاص فى وقت واحـد · ويميز بين اختبارات الذكاء واختبارات الشخصية والأولى أدق من الثانية ·

ثبات (الاختبار) Fidélité, reliability

صدق (الاختبار) validity

لكي يكون الاختبار مقياسا موضوعيا يجب أن يتوافر فيه شرطان :

أولا ــ أن يقيس بدقة ما يراد قياسه وأن تكون التقديرات القائمـة عليه ثابتة أى لا تختلف كثيرا فيمـــا بينها اذا أعيد الاختبـــار على نفس الشـــخص أو اختبار آخر مماثل للأول · وهـــذا الشرط يعرف بثبات الاختبار reliability · فالمتر المصنوع من مادة صلبة لا تتأثر بالحرارة أو الرطوبة أكثر ثباتا ودقة من متر مصنوع من القماش مثلا · والاختبار الذى تكون تعليماته غامضة أو قابلة لتأويلات مختلفة متناقضة أقـل ثباتا من الاختبار الذى يمتاز بوضوح التعليمات ·

ثانياً : أن يقيس فعلا القـدرة التى يراد قياسها لا قدرة أخرى أو عدة قدرات متداخلة · وهذا الشرط الثانى يعرف بصدق الاختبار validity

ادراك perception (١) عملية تصور ذهنى للأشياء أو الموضوعات الخارجية بتأثير المنبهات الحسية مباشرة · أحس مثلا بشـكل البرتقالة وحجمها ولونها ولكنى أدركها كثمرة لذيذة الطعم فالادراك عملية مركبة يشترك فى أحداثها ، فضلا على الاحساسات الراهنة ، التذكر والتخيل والحكم العقلى الضمنى ·

تذهب مدرسة الصيغ Gestalt Psychologie الى أن تنظيم العـــالم الخارجى فى مجال الادراك وتصنيفه الى موضوعات لا يرجعان الى النشاط العقلى الذى يركب بين العناصر الحسية ، بل ان هناك انظمة أولية أو أبنية أولية structures أو صيغا يدركها الحيوان والانسان مباشرة بدون سابق معرفة أو تمرين · تميل اذن هذه المدرسة الى التقليل من أهمية التذكر والتخيل والحـكم العقلى فى عملية الادراك والى ابراز أهمية ما تســميه بالتنظيم النفسفزيائى organisation psycho-physique زاعمة أن تنظيم قوانين العالم الخارجى هى نفسها التى تفسر تنظيم الحياة العقلية وأن فى

العالم الخارجي صيغا وأشكالا أولية تناسب صيغ العقل وأشكاله (نظرية تمثيل الشكل Isomorphisme) ٠

(٢) تمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو اثبات ويسمى تصورا ٠ ومع الحكم بأحدهما يسمى تصديقا (تعريفات الجرجاني) ويقصد هنا الجرجاني الادراك العقلي أما لفظ ادراك perception كما يستخدمه المحدثون فانه يفيد الادراك الحسي فحسب ٠

ارادة will ; volonté (١) الوظيفة أو مجموعة الوظائف الخاصة بالاستجابة الشعورية المرجأة ٠ ويتضمن الفعل الارادى اختيار غاية من غايتين أو عدة غايات متصارعة بحيث تكون المقاومة المشعور بها أثناء الموازنة بين الغايات أقوى في جانب الغاية التي سيختارها الشخص نهائيا ليحاول تحقيقها ٠

(٢) نشاط الذات الشاعرة المفكرة عندما تعمل فى ضوء الاعتبارات العقلية البحتة بقدر المستطاع ، جاهدة لتغليب ميل يحكم العقل بأنه أسمى عقليا وخلقيا من الميول الأخرى التى تكون أكثر اغراء وفتنة حسية من الميل الذى يرمى الفعل الارادى الى ارضائه ٠

(٣) نشاط يرمى الى حل صراع بين عدة غايات بتغليب الغاية التى يلازمها الشعور بالواجب والالزام على سواها من الغايات التى تبعثها الشهوة ٠

(٤) فى فلسفة شوبنهور Schopenhauer **خاصة** و « الاراديين » Volontaristes عامة مجموعة الدوافع الانفعالية اللاعقلية المسيطرة على العقل فى تنظيم الوجود وتعيين مظاهره وتوجيهها ٠

يتضمن لفظ الارادة معان فلسفية أكثر منها علمية ٠ فهو يتضمن معانى القيمة والمعيار والمفاضلة فى ضوء الاعتبارات الاجتماعية والخلقية ٠ لذلك نرى أن بعض المدارس الحديثة فى علم النفس تغفل دراسة الارادة ، مكتفية بدراسة صراع الدوافع وبيان عملية تغلب أحد الدوافع على غيره من الدوافع المتصارعة ٠ وفى هذه الحالة يقصد بالارادى معناه الفسيولوجى فحسب ، فيميز ، كما هو الحال فى علم وظائف الأعضاء ، بين الحركات المنعكسة والحركات اللاارادية ، بأن الأولى هى التى تنشأ عن تنبيه المراكز الدماغية السفلى والمراكز الشوكية ٠ والثالثة عن تنبيه مراكز الجهاز العصبى السمبثاوى الذى يشرف على حركات الغدد والاحشاء وبصفة عامة

على العضلات الملساء ، فى حين أن العضــلات المخططة هى التى تتحــرك حركة ارادية أو انعكاسية تبعا للمركز العصبى المنبه •

أما اذا نظرنا الى الانســــان كوحدة بيولوجية ونفسية واجتماعية متكاملة فلا بد من اعتبار الفعل الارادى كأسمى صورة من صور نشــاط الذات الجاهدة لتحقيق غايتها القصوى •

استبصار insight ; intuition

١ ـ أن يدرك المريض نفسيا أو عقليا حالته المرضية على حقيقتها ، كأن يدرك من يشكو من تسلط فكرة عليه أنه ليس لهذه الفكرة أســـاس معقول • ويدل زوال الاستبصار على تفاقم حالة المريض فى حين أن عودته دليل فى الغالب على تحسن الحالة •

٢ ـ وتستعمل مدرسة الجشطلت Gastalt لفظ insight بالمعنى الآتى : الادراك الفجائى لما ينطوى عليه الموقف من دلالة ، بدون الاعتماد على الخبرة السابقة • ويظهر الاستبصار فى أثنـــاء التعلم عند ما يهبط الخط البيانى للتعلم دفعة واحدة ، أى عندما يدرك الشخص طبيعة الموقف على حقيقته بعد فترة ، طويلة أو قصيرة ، من المحاولات الفاشلة • ويقـــول أبو الهلال العســـكرى فى الفروق اللغوية ص ٦٤ : الاستبصار هو أن يتضح له الأمر حتى كأنه يبصره •

وترجمنا اللفظ الانجليزى insight باللفظ الفرنسى intuition لأن اللفظين مطابقان من حيث التركيب اللغوى intuere, to see in وهو لفظ لاتينى معناه أيضا « نظر فى » • وتوضيحا لمعنى هذين اللفظين سنورد أهم التعريفـــات التى وردت فى قاموس Warren وقاموس English فى علم النفس وقاموس Lalande وقاموس Runes فى الفلسفة •

يشترك اللفظان فى معنى الادراك العقلى المباشر الفجائى ، غــير أن intuition يفيد لدى بعضهم معنى الادراك العقلى الفطرى •

يذكر لالند خمسة معان ل intuition • وينصح بعدم استعماله على حدة الا عندما يقصد به الادراك العقلى المباشر السريع لموضوع فى حقيقته الفردية ، أى الادراك المباشر للعينيات ، وفى هذا المعنى يقترح اســتعمال « استبصار » أما المعانى الأخرى فينصح لالند باستخدام évidence بداهة ، كما فى فلسفة ديكارت ، أو instinct غريزة ، أو divination حدس أو فراسة •

ويعرف Runes ال intuition ادراك الشخص لذاته ادراكا مباشرا أو لحالاته الشعورية أو لغيره من العقول ، أو للعالم الخارجي ، أو للكليات، او للقيم والحقائق العقلية .

ويعرف Warren ال intuition بأنه حكم بدون تفكير سابق معروف من الشخص . ويعرفه English بأنه المعرفة التي لا يمكن التعبير عنهـــا بواسطة ألفاظ وهي معرفة المتصوف للذات الالهية وبهـــذا المعنى يترجم بذوق . وللفظ insight في قاموس English هذا المعنى أيضا. ويميز هذا المؤلف بين الادراك الحسي المباشر وهو ما يسميه ابن سينا بالحدس ويقصد جودة الحدس :

استبطان Introspection ـ العملية التي بها تشــاهد الذات ما يجري في الذهن من شعوريات بقصد وصفها لا تأويلها . وما هي في الواقع الا عملية تذكر اما للماضي القريب أو البعيد Retrospection

استجابة reaction, response ; réaction, réponse ـ كل ما يرد به الكائن الحي على تنبيه أعضاء الحس :

والأجهزة التي تقوم بالاستجابة أربعة : العضلات المخططة والعضلات الملساء ، والغدد القناة كالغدد اللعابية والعرقية والدمعية ، والغــدد الغير القناة أو الصماء التي تفرز مختلف الهرمونات كالأدرينالين والأنسولين.

وتكون الاستجابة اما لفظية واما انفعالية أو بالاحتفاظ بوضــع الجسم أو أحــد أطرافه ، وقد تكون بالكف عن الحركة بدلا من القيــام بحركة .

ويؤثر علم النفس الحديث استخدام response بدلا من reaction منعا للبس الناشيء عن تعدد معــاني reaction اذ يفيد هذا اللفظ « رد الفعــل » كما في الميكانيكا ، والتفاعل كما في الــكيمياء ، والحركة المنعكسة كما في الفسيولوجيا ، والرجع كما في علم النفس الفسيولوجي عندما يكون المنبه بسيطا (قياس زمن الرجع مثلا reaction time بواسطة الكرونوسكوب Chronoscope)

أما الاستجابة فهي عادة السلوك الحركي والذهني الذي يثيره موقف ما . أنظر منبه .

استشفاف : Clairvoyance

١ ـ القدرة على رؤية الأشياء المستترة بدون استخدام البصر • يجب تمييز الاستشفاف عن التخاطر الذى يتم بين عقلين •

٢ ـ الوصل وهو ادراك الغائب فى الماضى والحاضر والمستقبل •

الاستشفاف والتخاطر من ضروب الاحساس الخارق الخفى Metagnomy أو Cryptesthesia الذى قد يكون للبصريات وهو الاستشفاف أو للمسموعات وهو الاستسماع clairaudience ، أو للوقائع عامة التى تحدث عن بعد وهو الاستحساس telesthesia •

ولا تزال جميع هذه الظواهر الخارقة على هامش العلم ، ويرد ذكرها فى الكتب التى تتناول ما يعرف بالبحوث الروحانية psychic (al) researches أو بما بعد علم النفس metapsychics كتحضير الأرواح مثلا •

استعداد Aptitude (أنظر قدرة) •

استقاط projection

١ ـ عملية ادراك المدركات كموضوعات حالة فى المكان خارج عضو الحس لا فيه •

٢ ـ عزو ما نشعر به من خبرات نفسية الى الآخرين •

٣ ـ ميل الشخص الى أن يعزو الى العالم الخارجى العمليات النفسية المكبوتة ، جهلا منه بأنها خاصة به ، أو تهربا من الاعتراف بها ، أو تخفيضا لما يشعر به من الادانة الذاتية (مدرسة التحليل النفسى) • والاسقاط فى هذه الحالة من أساليب التبرير والدفاع عن الذات •

الأنا ego ـ انظر ذات

انتباه Attention

١ ـ عملية تركيز الطاقة العقلية لابراز جانب من التجربة الشعورية بحيث يحل هذا الجانب بؤرة الشعور • وهو على نوعين : تلقائى (عفوى ـ لا ارادى) spontanée, spontaneous ، أو ارادى volontaire, voluntary

٢ ـ وظيفة عامة تشمل كل العمليات النفسية التى تتطلب مجهودا نفسيا ، وتتميز هذه العمليات بظروف ظهورها • ويكون تلقائيا عندما يكون المجهود غير مشعور به تماما ، وإراديا عندما يحدث بمجهود ذاتى لترجيح غرض عقلى آجل على غرض حسى قائم •

٣ ـ وتميز مدرسة الجشطلت Gestalt بين الانتباه التلقائى والارادى بأن الأول رد فعل لمنبه حسى موضوعى والثانى استجابة لمنبه عقلى ذاتى •

انتحاء أ ـ ز torpism

استجابة النبات والحيوانات الدنيا استجابة قهرية لمنبه فيزيقى خارجى يستمر حتى يصير تأثير المنبه على جانبى الجسم تأثرا متساويا ويكون الانتحاء موجبا اذا كانت الحركة اتجاها نحو المنبه ، سلبيا اذا كانت ابتعادا عنه •

يفسر لوب Loeb حركة الحيوانات ذات الخلية الواحدة والحيوانات الدنيا كالحشرات بأنها حركة انتحائية ، فى حين أن جيننجز H.S. Jennings يفسر سلوك الكائنات الحية الدنيا على أساس المحاولة والخطأ trial and error . ويشار الى أنواع الانتحاءات بذكر طبيعة المنبه كأن يقال فى الانتحاء الضوئى phototropism والكيميائى thermotropism والحرارى thermotropism واللمسى thigmotropism والأرضى geotropism والمائى hydrotropism والكهربائى galvanotropism

انحياز Préjugé ; bias

اتجاه عقلى للحكم على الأمور قبل الوقوف تماما على حقيقتها ، تحت تأثير التجارب السابقة أو بعض العوامل الانفعالية الذاتية من أسباب الخطأ فى الحكم •

انفعال emotion ; émotion

١ ـ حالة نفسية ذات صبغة وجدانية قوية مصحوبة بتغييرات فسيولوجية سريعة وبحركات تعبيرية كثيرا ما تكون جلية أو عنيفة ، وينشأ الانفعال عادة عن اعاقة فجائية لميول أو رغبات قوية ، أو عن ارضاء غير منتظر لهذه الميول والرغبات •

٢ – الحاله الشعورية المصـــاحبة لفعل الدوافع الغريزية (مكدوجل (McDougall

٣ – ما يعبر ديناميكيا عن الغرائز سواء كانت شعورية أو لاشعورية (مدرسة التحليل النفسى)

يستعمل أحيانا لفظا الانفعال والغريزة للتعبير عن نفس الظاهرة ، ولكن يجب قصر الانفعال على وصف الاستجابات من حيث هى مصبوغة بصبغة وجدانية خاصة٠ والغريزة على مجموعة من الاستجابات المتسلسلة بغض النظر عما يصاحبها من بطانة وجدانية ٠ فلا يصح أن يقال غريزة الخوف، بل انفعال الخوف وغريزة الهرب٠ (راجع تعريف الغريزة ص٥٦٢)٠

يميز عادة بين الصدمة الانفعالية émotion-choc التى لا تدوم ، وبين الاتجاه الانفعالى أو العاطفة émotion-sentiment التى تدوم آثارها غير أن الفرق بينهما ليس جوهريا بل كميا ٠

اهتمام Interest ; Intérêt

١ – التأثر الوجدانى المصاحب للانتباه ٠

٢ – اتجاه نفسى الى تركيز الانتباه حول موضوع معين ٠

ايحاء suggestion

محاولة التأثير فى تفكير الشـــخص واتجاهاته الوجدانية وسـلوكه الحركى بدون استخدام أساليب الاقناع المنطقية أو أساليب الأمر والنهى٠ وكل انســان ، ان كثيرا أو قليلا ، قابل للايحاء ٠ وتزداد القابلية للايحاء suggestibility فى حالات ضعف الذكاء والنقص العقلى عادة وضعف القدرة على التمييز والنقد والتأمل ، انظر (**خلفة**) كما تزداد فى حالات النـوم الصناعى ٠

ومن القابلية للايحاء تتفرع ثلاثة فروع تبعا للمجالات النفسية الثلاثة الحركة والوجدان والفكر، فالمحاكاة imitation هى القابلية للايحاء الحركى والمشاركة الوجدانية sympathy القابلية للايحاء الوجدانى والانفعال ، ثم

القابلية لسرعة التصديق (١) credulity في المجال الفكرى (٢) ٠

برانويا paranoia أنظر **الذهان الهذائى**

بنائى structural نسبة الى الخلايا والأنسجة والأعضاء التى يبنى منها جسم الكائن الحى ٠ أنظر **عضوى**

بوليميا ، سعار ، سحت bulimia ; boulimie ــ جوع مرضى ٠ جاء فى كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٦٣٣ ، ورجل مسحوت اذا كان جائعا لا يشبع ، ومسعور وبه سعار ، أنظر **خلفة** anorexia

تخاطر Telepathy,-ie ــ الانتقال عن بعد للخواطر والوجدانيات وغيرها من التجارب الشعورية المعقدة من عقل الى عقل ، على سبيل الوهلة ، مع الزعم بأن هذا الانتقال يتم بغير الوسائل الحسية المعروفة ٠

يجب تمييز التخاطر عن قراءة الأفكار mind-reading التى يستخدم فيها القارىء وسائل حسية شعورية أو غير شعورية لمعرفة ما يجـول فى خاطر شخص آخر موجود معه ، وذلك بالاستعانة ببعض الدلائل والأمارات وباستنطاق شـواهد الحال ، وعن القراءة العضلية muscular-reading لخواطر شخص آخر عن ريق القبض على يده ، مهتديا بالاختلاجات العضلية وبغيرها من الحركات العضلية المصاحبة للتفكير ٠ وتسمى أيضا نقل الأفكار transference thought ــ انظر استشفاف ٠

تذكر ، استرجاع remembering, recall ; évoaction rappel ــ الاستعادة الذهنية لخبرات ماضية ٠

التغير الغذائى فى الخلايا ، ميتابوليزم metabolism ; métabolisme مجموعة التغيرات الكيميائية التى تحدث فى المواد الغذائية داخل الجسم وفى افرازات الأعضاء وافرازات الأنسجة نفسها ٠ وهو يشتمل على عمليتين : عملية بناء anabolism وعملية هدم catobolism

---

(١) يمكن ترجمة credulity بأمعية (الأمع والأمعة) : التابع لكل أحد على رأيه ٠

(٢) يختلف هذا التقسيم عن تقسيم مكدوجل McDougall الذى يرى أن هناك ثلاث نزعات فطرية اجتماعية : المشاركة الوجدانية والمحاكاة والقابلية للايحاء ، دون أن يحاول ارجاعها الى أصل واحد على الرغم مما بينها من تشابه من حيث عملية انتقال الأثر من شخص الى شخص ٠ وقد حاولنا فى محاضراتنا فى علم النفس التكاملى ابراز الصلة بين المحاكاة والمشاركة الوجدانية والقابلية لسرعة التصديق وارجاعها الى مصدر واحد هو القابلية للايحاء التى هى من قبيل المرونة التى تمتاز بها الحياة عامة ٠ ويلاحظ أن ترتيبنا لهذه النزعات الثلاث مطابق لترتيب ظهورها فى الفرد فى أثناء نموه ٠

التغير الغذائى القاعدى basal metabolism ـ الكمية الصغرى من الحرارة التى ينتجها الجسم فى شخص صائم منذ حوالى ١٥ ساعة وملتزم الراحة التامة مدة تتراوح بين ثلث ساعة وساعة • ومتوسط الكمية الصغرى من الحرارة هى ٣٩٫٧ سعرة فى الرجل و ٣٦٫٩ سعرة فى المرأة• والسعرة أو الوحدة الحرارية مقدار الحرارة اللازم لرفع حرارة كيلو جرام ماء درجة واحدة • ويستعان بالتغير الغذائى لتشخيص بعض الأمراض وخاصة أمراض الغدة الدرقية • فالتغير الغذائى يزداد مثلا فى حالة جحوظ العينين الناشئة عن اختلال الوظيفة الدرقية ، اختلالا يؤدى الى زيادة افراز الهرمون الدرقى • أنظر مرض بارداو •

تفكير thinking ; pensée, réflexion

١ ــ مجرى معين من المعانى والصور الذهنية •

٢ ــ مجرى معين من المعانى والرموز العقلية التى تثيرها مشكلة أو يقتضيها موقف للوصول الى نتيجة ما • وعمليات الحكم والتجريد والتصور العقلى والاستدلال من مظاهر التفكير باضيق معانيه ، ويشمل التصور الحسى والتخيل والتذكر اذا قصدنا المعنى الأوسع • انظر فكر وفكرة •

تكوين genesis ; genèse ـ عملية نشوء ونمو •

تكيف adaptation : (فى علم الحياة) أى تغير فى الكائن الحى ، سواء كان فى الشكل أو الوظيفة ، يجعله أكثر قدرة على المحافظة على حياته أو على بقاء جنسه •

(فى علم النفس) التغير الذى يطرأ على الخبرة الجنسية ، سواء من حيث الكيف أو الشدة أو الوضوح ، عندما يظل التنبيه ثابتا ، كالتكيف فى حالات البصر واللمس والشم والذوق والألم ؛ كالرائحة العطرية اذا استمر الشخص فى استعمالها يقل تأثره بها •

تكيف اجتماعى social adaptation : وهو تغير سلوك الفرد كى ينسجم مع غيره من الأفراد ، خاصة باتباع التقاليد والخضوع للالتزامات الاجتماعية ، أما عندما يواجه الفرد مشكلة خلقية أو يعانى صراعا نفسيا تقتضى معالجتهما أن يغير الفرد من عاداته واتجاهاته ليوائم

الجماعة التي يعيش في كنفها ، في هـــذه الحالة يؤثر بعضهم استخدام social adjustment أى التوافق الاجتماعى •

التنويم المغناطيسى hypnotism ; e ـ دراســة ظواهر النوم الصناعى الذى يحدث بواسطة الايحاء والسأم الناتج من تكرار منبه معين لا بواســطة مــواد مخدرة • وكان يطلق عليه animal magnetism أو المغناطيسية الحيوانية ومن هنا جاءت التسمية العربية •

ومع أن النوم المغناطيسى hypnosis ـ هو نوم جزئى فقد يشبه أحيانا النوم الطبيعى فى بعض مظاهره •

توافق adjustment ; ajustement ; adaptation يستخدم هذا اللفظ عادة بمعنى التكيف adaptation ؛ غير أن بعضهم يميل الى قصر استخدامه على التكيف الاجتماعى بوجه عام •

جنون insanity ;folie ـ زوال العقل أو فساده • يستعمل هذا اللفظ فى الطب الشرعى خاصة دون تحديد دقيق لمعناه ، فهو يشمل اما النقص العقـلى الولادى أو زوال القـوى العقلية بعد وجودها بحيث يكون الشخص فـــى الحالتين غير مسئول عن أعماله • وتسمى حالات النقص العقلى الولادى (منذ الولادة) amentia وحالات فساد القوى العقلية بعد وجودها dementia أنظر ذهان •

حساسية sensibility, sensitivity, sensitiveness : sensibilité

١ ـ قدرة الكائن الحى على التأثر بالمنبهات الحسية •

٢ ـ القابلية لسرعة التأثر والانفعال affectivity, sensitiveness

وتنقسم الحســـاسية حسب شرنجتون Sherrington ، تبعـــا لطبيعة المنبه وموضع التنبيه ، الى ثلاثة أنواع :

١ ـ الحســاسية الخارجية أو المســتقبلة للتنبيهــــات الخــارجية exteroceptive

٢ ـ الحســـاسية الداخلية أو المستقبلة للتنبيهـــات الداخلية interoceptive وتسمى أيضا بالحساسية الحشوية visceral أو العامة coenesthesia

٣ ـ الحساسية الخاصة أو المستقبلة للتنبيهات الخاصة proprioceptive ويقصد بها تنبيه العضلات والأوتار والمفاصل وجهاز الأذن الباطنية (الدهليز والقنوات الهلالية) الخاص بوظيفة الاتزان ، فالحساسية الخاصة قسمان : الحاسة العضلية kinesthesia وحاسة الاتزان • وقد أضاف بعضهم نوعا رابعا وهو حاسة الألم أو الحساسية المستقبلة للتنبهات المؤذية nociceptive

وتبعا لوظيفتها السيكولوجية تنقسم الحساسية ، حسب هنرى هد Henry Head الى نوعين :

١ ـ الحساسية التأثرية الأولية (اللذة والألم) protopathic ومراكزها فى السرير البصرى أو التلاموس thalamus ، وهو مجموعة من النوى العصبية الموجودة تحت قشرة المخ •

٢ ـ والحساسية الحاكمة epicritic المميزة للتنبيهات الخارجية الدقيقة ومراكزها فى قشرة المخ • انظر احساس ومنبه •

حلم dream ; rêve ـ ما يراه النائم من صور ذهنية حسية تتتابع عادة بدون ربط ولا نظام منطقى •

مضمون الحلم contenu du rêve ; content of dream
تميز مدرسة التحليل النفسى psycho-analysis, psychanalyse بين المضمون الصريح manifest content ; contenu manifeste كما يراه النائم وبين المضمون الكامن latent الذى يكشف تأويل الأحلام عن دلالته والأول رمز للثانى • وينطوى المضمون الكامن على الرغبات المكبوتة •

خبرة experience ; expérience, état conscient vécu

١ ـ الحالة الشعورية كما يعانيها الشخص• والخبرة هى نشاط أكثر منها حالة •

٢ ـ تكامل جميع الأحداث النفسية لفرد ما فى لحظة معينة أو أثناء فترة معينة من الزمان •

٣ ـ ما يكتسبه الشخص من تجاربه اليومية لحسن تدبير الحياة •

يفيد اللفظ الفرنسى expérience معنى experience خبرة و experiment تجربة علمية •

خلفة negativism ; négativisme ـ قيام المريض بعكس ما يطلب اليه أو ما ينتظر منه أن يقوم به من استجابات للمنبهات الخارجية • وتعرف الخلفة أيضا بالقابلية للايحاء المضاد contrasuggestibility • تكون الخلفة ايجابية عندما يقوم المريض بعكس المطلوب كأن يقفل يده عندما يطلب منه بسطها ، أو يقاوم الحركة المفروضة عليه • والخلفة الايجابية كثيرا ما تشاهد في حالات الفصام الكتاتوني (أنظر **فصام**) • وتكون الخلفة سلبية عنـــد ما يقوم المريض بالاستجابة التى يقتضيها الموقف فلا يلبى نداء حاجاته العضوية كرفض الطعام مثلا (أنظر **خلفة**) •

وذكر بعضهم الخلفة العقلية وهى حالة الشخص الذى يعقب على فكرة تخطر له بفكرة مضادة لها : « أنا رجل ، لا أنا لست رجلا » ، أنا برىء ، لا أنا لست بريئا » •

خلفة anorexia ذهاب شهوة الطعام من المرض (القاموس) •

ذات ego ; self ; le moi ; subject ; sujet

١ ـ الفرد من حيث هو شاعر بهويته الثابتة المتصلة وبصلته بالبيئة الخارجية •

٢ ـ ويستعمل ego الأنا le moi ! عندما يقابل بينه وما سواه ، أى الغير ، اللا أنا alter, non-ego, le non-moi • والأنا ego, le moi, das ich تبعا لمدرســـة التحليل النفسى هو الجانب الشـــعورى من الشخصية ، ويقابله اللاشعورى منها ، وهو من جهة **الهو** id, le ca, Es ومن جهـــة أخـــرى الأنا الأعلى أو الضـــمير اللاشـــعورى super-ego, le surmoi, Ueberich

والهو هو الجزء اللاشعورى العميق من النفس والذى يضـــم الدوافع الغريزية ومختلف الرغبـــات المكبوتة ، وتسيطر عليه الميول الاندفاعيه العمياء وهو خاضع لمبدأ اللذة •

والأنا هو الجزء السطحى من الهو الذى تعدل بتأثير العالم الخارجى فى الحواس تأثيرا مباشرا والذى أصـــبح متشبعا بالشعور ، ووظائفه أن يفحص الواقع وأن يتقبل ، عن طريق الاختيـــار والضبط ، بعض المطالب والرغبات التى تمليها الدوافع الصادرة عن **الهو** • وهو خاضـــع لمبـــدأ الواقع •

والأنا الأعلى أو الأنا المثالى هو ذلك الجزء من الجهاز العقلى الذى ينقد الأنا ، والذى يسبب الحزن أو القلق أو العقاب حالما يميل الأنا الى قبـول الدوافع الصادره عن محيط الدوافع الغريزية البدائية ، أى عن **الهو** ، كما لو كان رقيبا داخليا ، أى ضميرا لا شعوريا ، ويطلق الأنا المثالى على مستوى من مستويات الكمال ، يتكون فى الطفولة عن طريق تقمص identification الذات لأشخاص هو موضع اعجابها ، أى لموضوعات حبها كالوالدين ومن يقوم مقام كل منهما •

ذاتى subjective, subjectif ـ نسبة الى ذات •

ذكاء intelligence ـ القدرة على مواجهة المواقف الجديدة بنجاح أو حل المشكلات الجديدة بابتكار الوسائل الملائمـة لها • ويميز بين أنواع الذكاء ، بالقياس الى طبيعة المشكلة وطبيعة الوسائل المستخدمة لحلها • فالذكاء النظرى هو القـدرة على معالجة المعانى والرموز ، والذكاء العملى القدرة على معالجة الأشياء ، والذكاء الاجتماعى القدرة على معالجة الأشخاص فى مواقف اجتماعية • ولم يقم بعد الدليل على أن هذه الأنواع الثلاثة من الذكاء متميزة بعضها من بعض تمام التمييز •

وباستعراض التعريفات المختلفة التى قيلت عن الذكاء يتضـح أن الذكاء ليس وظيفة بسيطة أو ملكة مستقلة • بل هو وظيفة تأليفية تتكامل فيها عـدة مقومات عقلية وارادية واجتماعية • فنرى مثلا اسـتدارد G.D. Stoddard فى كتابه الأخير The Meaning of Intelligence, 1943 يعرف الذكاء بأنه القدرة على القيام بأعمال تميزها الصفات السبع الآتية :

الصعوبة ـ التعقد ـ التجريد ـ الاقتصاد ـ ملاءمة الهدف ـ القيمة الاجتماعية ـ الابتكار ، بشرط مواصلة النشاط فى ظروف تقتضى تركيز الطاقة ومقاومة العوامل الانفعالية المضادة •

ذهان ـ مرض عقلى psychosis, psychose ـ اختلال بليغ فى القوى العقلية يؤدى الى اختلال جميع وسـائل التكيف والتوافق العقلى والاجتماعى والمهنى والدينى الخ •• والى اضطراب كلى فى الشخصية مع فقد القدرة على الاستبصار insight • وتطلق كلمة ذهان على الحالات النفسية المنشأ psychogenic (أنظر **فصام ، الذهان الهذائى ، الذهان الدورى** • أما المرض العقلى الناشىء عن اصابات عضوية فيستحسن تسميته بالذهان العضوى organic psychosis (**انظر الشـلل الجنونى التام**)

الذهان الدورى أو ذهان الهوس والاكتئاب circular psychosis manic psychosis ; psychose périodique ou maniaque dépressive ذهان يتميز بتناوب حالات الهوس والاكتئـــاب • (أنظـــر **ملانخوليا ، مانيا**)

الذهان الهذائى ـ برانويا paranoia ـ ذهان مزمن من أعراضــه الرئيسية **الهذاء** الثابت المنظم ، وقد يبدو المريض سليما من حيث القدرة على الاستدلال والمحاجاة غير أنه يبنى استدلاله على اعتقادات فاسدة وهمية ومقدمات باطلة • وقد قصر بعضهم هذا الذهان على نوعين من الهذاء : هذاء التأويل وهذاء المطالبة •

ذهن mind, esprit

١ ـ مجموع نواحى النشـــاط التى عن طريقها يســـتجيب الفرد ـ باعتباره نظاما system ديناميكيا متكاملا ـ للقوى الخارجية دون اغفال لماضيه ومستقبله •

٢ ـ يجرى استعماله عادة بمعنى عقل intellect

ذهنى mental ـ ما يجول فى الخاطر ، فى مقابل الظواهر الجسمية والفيزيقية •

ربط ـ ترابط ـ تداعى Association : العملية التى بها تتكون علاقات وظيفية بين ضروب مختلفة من النشاط النفسى أو بين شتى الحالات النفسية خلال التجارب الشخصية • يستخدم لفظ تداعى عند التحدث عن ارتباط معنى بمعنى آخر أو عندما يثير معنى ما معنى آخر سبق أن ارتبط بالأول فى أثناء التجارب السابقة •

المذهب الترابطى Associationism : النظرية التى تفسر الحياة العقلية على أنها نتيجة الترابطات التى حدثت بين الاحساسات والمعانى التى هى بمثابة آثار للاحساسات •

الرسم الكهربائى للمخelectro-encephalogram ـ تسجيل النشاط الكهربائى الطبيعى للخلايا العصبية فى المخ فى صـــورة ذبذبات تختلف أشكالها باختلاف سن الشخص ونشاطه الحسى والحركى والذهنى ، كمـــا قد تختلف اختلافا نوعيا فى بعض الأمراض العصبية (عضوية أو وظيفية • وبعض الأمراض العقلية • وقد بدىء باستخدام هذا الرسم فى تشـــخيص بعض الأمراض كالصرع وأورام المخ •

رمز أ ـ ز symbol

١ ـ الموضوع أو التعبير أو النشاط الاستجابى ، الذى يحل محل غيره ويصبح بديلا ممثلا له ·

٢ ـ علامة اصطلاحية تستخدم استخداما مضطردا لتمثل مجموعة من الأشياء أو نوعا من أنواع العلاقات · (رياضة). مثلا المنطق الرياضى symbolic logic

٣ ـ تمثيل مقنع لأمر جنسى لاشعورى ، وله دلالة ثابتة ، وغير مرتبط بالنشاط الجنسى ارتباطا شعوريا · (تحليل نفسى) ·

رمزية أ ـ ز symbolism

١ ـ الاستخدام المنظم للرموز أو نظرية الرموز ·

٢ ـ التعبير عن التفكير اللاشعورى ، الجنسى منه عادة ، عندما تتحول دلالة الفكرة بحيث يصبح الشعور عاجزا عن معرفة حقيقتها · وتعتبر الرمزية أساسا للأساطير والأحلام والفكاهة وخاصية مميزة للأعراض العصابية (أمراض نفسية) (تحليل نفسى) ·

٣ ـ ذلك النوع من الفن الذى يجعل من الاستخدام المنظم للرموز منهجه الأساسى (علم الجمال) ·

سلوك behaviour, conduct ; comportement, conduite

١ ـ أى فعل استجابى يمكن مشاهدته من الخارج ، وهو عادة اما استجابة غددية أو عضلية ·

٢ ـ أى فعل يستجيب به الكائن الحى برمته لموقف ما استجابة واضحة للعيان ، وتكون عضلية أو غددية أو هما معا ·

وقد يستخدم لفظ السلوك للدلالة ، علاوة على هذه الاستجابات الظاهرة ، على العمليات النفسية الداخلية ، فيميز بين السلوك الصريح explicit والسلوك الضمنى implicit أو المضمر ·

وعندما يتخذ السلوك صفة خلقية أو يتسم بالتوجيه والتبصر يستحسن أن يطلق عليه لفظ conduct ; conduite

سوى normai

١ — كل ما كان في حالة اعتدال طبيعية تتوسط طرفي الافراط والتفريط وهي حالة غير مطلقة .

٢ — ما انعقد الاجماع على أنه يطابق أو يمثل نموذجا أو معيارا أو مستوى ، يستخدم أحيانا بمعنى سليم أو عادى ، وفى الحالة الأولى يقابله المرضى ، وفى الثانية الشاذ أو الخارق العادة .

شاذ abnormal ; anormal غير سوى .

ويجب أن يلاحظ أن الشذوذ لاينطوى بالضرورة على معنى الشر أو المرض ، فالعبقرى ، مع كونه متفوقا يعتبر شاذا ، وكذلك الأبله والمجرم والمجنون كل منهم شاذ . فالشذوذ من حيث امكان تفسيره تفسيرا علميا يعتبر ظاهرة طبيعية .

الشخصية personality نظام متكامل من مجموعة الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والادراكية التى تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تميزا بينا .

وللشخصية جانبان : جانب ذاتى وآخر موضوعى . أما الجانب الذاتى فهو مايعبر عنه بالانية (self, le moi) أى شعور الشخص بذاته ، على أن هذا الشعور ليس أوليا بل يتكون بالتدريج ويمر بعدة مراحل مبتدئا بالشعور بالذات الجسمية ثم بالذات النفسية واخيرا بالذات الاجتماعية ، على أن المرحلتين الاخيرتين مندمجتان الى حد كبير ولذا يطلق عليهما مجتمعتين الذات المعنوية فى مقابل الذات الجسمية .

أما الجانب الموضوعى فهو مايعرف بالخلق character, caractère والخلق انما هو نظام متكامل من السمات أو الميول النزوعية التى تتيح للفرد أن يسلك ازاء المواقف الخلقية وأوضاع العرف سلوكا متفقا مع ذاته على الرغم مما قد يواجه من عقبات وقد أمكن دراسة الخلق دراسة موضوعية بما يسمى باختبارات الشخصية . وكثيرا ماتستخدم كلمات الشخصية personality والخلق character والفردية individuality بمعنى واحد .

شعور consciousness ; conscience psychologique — من اكثر مصطلحات علم النفس غموضا . معناه الأصلى معرفة النفس لذاتها التى

لا تتم الا بمعرفتها لموضـوع خارجى ، ثم معـرفة النفس لما تختبره ثم الخبرات نفسها . ويستعمل أيضا بمعنى الفكر فى مقابل المادة .

ـ مايميز الظواهر النفسية عن غيرها من الظـواهر الطبيعية . مانفقده رويدا رويدا عندما ننتقل من الصحو الى النوم ومانسـترجعه رويدا رويدا عندما ننتقل من النوم الى الصحـو . صلة الذات بالعـالم الخارجى أو قدرة الشخص على معرفة الأشياء الخارجية والتأثير فيها . مجموع الخبرات لفرد ما فى وقت ما .

ويعلل بعضهم الشعور بأنه الأثر المركزى للتنبيه العصبى أو الجانب الذاتى لنشاط الدماغ .

ويعرف يونج Jung (١) الشـعور بأنه صـلة المضمون النفسى بالذات بقدر ماتحس الذات بأن هذا المضـمون نفسى ، ويقول أيضـا ان الشعور هو النشاط الذى يحقق صلة المضمون النفسى بالذات . والشعور ليس النفس كلها اذ أن النفس تمثل المضمون النفسى بأكمله وقد يكون بعض هذا المضمون غير متصل بالذات ، أى فى هذه الحالة غير متصل بالأنا الشاعر .

ويميز علماء النفس بين درجتين من الشعور : الشعور التلقائى أو المباشر spontaneous, spontanée والشـعور التأملى أو المنعكس على نفسه المؤدى الى معرفة reflexive, réfléchie ويقصـد بالشعور التلقائى مجرد الاحساس ، فى حين يكون الشعور المنعكس على نفسـه الاحساس بالاحساس على حد تعبير أرسطو .

الشلل الجنونى العام general paralysis of the insane, general paresis, dementia paralytica ; paralysie générale progressive, démence paralytique ـ التهاب الدماغ نتيجة اصابة بالزهرى يؤدى بعد فترة تتراوح بين خمس سنوات وعشرين سنة الى ضعف تدريجى فى القوى العقلية ينتهى بالجنون ، ومن اعراضه النفسية الشعور الشاذ بالفرح والارتياح وهذيان العظمة والتقلبات الانفعالية .

ضبـط (بفتح البـاء) Ambidexirality : القـدرة على اجادة الأعمال الحركية باليد اليمنى أو اليد اليسرى على السواء . قدرة كل

(١) C.G., Jung. Psychological Types, 1938, pp. 535-6.

يد على السواء على أن تكون اليد الموجهة عند القيام بعمل حركى يقتضى أستخدام اليدين معا . ويقال أيضا عسر يسر . ومن يملك هذه القدرة يسمى أضبط Ambidextrous أو أعسر أيسر .

وعند تغلب اليد اليمنى تسمى الحالة right-handedness, dextrality يسر والشخص أيسر ، واليد اليسرى left-handedness, sinistrality عسر والشخص أعسر .

الطب العقلى psychiatry,ie — فرع من الطب يتناول دراسة جميع الاضطرابات العقلية والنفسية وعلاجها وتوضيح وسائل الوقاية والصحة العقلية . وهو يستند من جهة الى علم النفس المرضى ومن جهة أخرى الى الطب العام .

عدوان Aggressiveness : ميل الى الاعتداء .

اعتداء Aggression : سلوك يرمى الى ايذاء الغير أو الذات أو ما يحل محلهـا من الرموز . يعتبر السلوك الاعتـدائى تعويضا عن الحرمان Frustration الذى يصيب الشخص المعتدى .

عصاب ، مرض نفسى ؛ مرض عصبى وظيفى neurosis, psychoneurosis, functional nervous disease ; névrose, psychonévrose maladie nerveuse fonctionnelle — مرض نفسى أو مجموعة أعراض نفسـية تصحبها أحيانا مظاهر جسمية شاذة ناشئة عن عوامل نفسـية كالانفعالات المكبوتة والصدمات والصراع بين الدوافع المتناقضة الخ .. والمظاهر الجسمية الشاذة (كالأعراض الجسمية فى الهستيريا) تعود تؤثر بدورها فى الحالة النفسية . فالأعراض الجسمية غير ناتجة عن اصـابة عضوية ، ولهذا السبب تعرف بالأعراض الوظيفية ، غير أنه قـد تكون هناك عوامل فيزيائية (اضطرابات المجالات الكهربائية فى الخلايا والأنسجة) وعوامل كيميائية تفيد معرفتها فى تفسير الاختلال الوظيفى العام الذى يصيب الجهاز العصبى .وتعرف الأمراض النفسيةأو العصابية بالأمراض العصـبية الوظيفيـة ، غير أنه يستحسن عدم استعمال هذه التسـمية الأخيرة نظرا لصعوبة تحديد الفرق بين ماهو عضـوى وماهـو وظيفى تحديدا واضحا ، كما أنه يكون من الخطأ تسمية المرض النفسى بالمرض العصبى اذ أن المرض العصبى عضوى المنشأ دائما وعلاجه من اختصـاص طبيب الأمراض العصبية neurologist فى حين ان علاج الأمراض النفسـية من اختصـاص طبيب الأمراض العقـلية psychiatrist

أو المحلل النفسي psycho analyst ومنعا للبس اقترحنا منذ سنة ١٩٤٣ في كتاب « شفاء النفس » ترجمة neurosis أو psychoneurosis بعصاب (١) .

ومن أهم الاعراض العصابية النفسية المخاوف المرضية والحصر النفسي (قلق مرضي) والافكار الثابتة والشك المرضي والحصار (أفكار متسلطة واندفاعات قهرية) أنظر هستيريا . ويكون العصابي شاعرا بشذوذ حالته محتفظا بقدرته على الاستبصار بخلاف الذهاني أي المصاب بمرض عقلي . انظر ذهان psychosis

ولايوجد فرق جوهري بين neurosis أو psychoneurosis غير أن المقصود من اللفظ الثاني تأكيد المنشأ النفسي للأمراض النفسية .

وقد فرقت مدرسة التحليل النفسي بين عصاب نفسي المنشأ وعصاب جسمي المنشأ أو عضوي المنشأ وأطلقت على الثاني لفظ actual neurosis أي مسبب عن عوامل جسمية راهنة ، لا عن كبت الانفعالات في الطفولة . وهذه العوامل الجسمية الراهنة هي في العادة الافراط الجنسي وخاصة الاستمناء . وتعتبر مدرسة التحليل النفسي النورستانية وعصاب القلق والهجاس (اعتقاد الشخص خطأ أنه مريض) من العصابات العضوية . ولكن يجب أن يلاحظ أن التمييز بين العصاب النفسي المنشأ والعصاب العضوي المنشأ لايزال موضع نقاش بين العلماء .

عضوي organic-que — خاص بتركيب العضو أو بما يفرزه من مواد كيميائية . والمرض العضوي هو الناشيء عن اصابة العضو اصابة تشريحية أو بنائية كالتهاب أغشية الدماغ مثلا .

العلاج الفيزيائي physiotherapy ; physiothérapie — وسيلة علاجية قائمة على استخدام العوامل الطبيعية كالهواء والماء والحرارة والضوء والكهرباء والراحة والرياضة البدنية وتغيير المناخ .

---

(١) أخذ هذا اللفظ يشيع في الأوساط العلمية مما يدل على فائدته العملية فضلا على كونه يزيل اللبس بين المرض العصبي والمرض النفسي . فقد استخدمه الأستاذ محمد فؤاد جلال ، الأستاذ المساعد بمعهد التربية للمعلمين في كتابه الأخير : مبادىء التحليل النفسي وتطبيقاته (١٩٤٦) كما استخدم غيره من الألفاظ الجديدة الواردة في بحوث أعضاء جماعة علم النفس التكاملي مثل فصام وذهان وحصار . وهذه خطوة طيبة نحو توحيد ألفاظ علم النفس باللغة العربية .

العلاج النفسى psychotherapy ;-thérapie — عـلاج الأمراض سواء كانت نفسية أو جسمية بوسائل نفسية كالايحاء فى أثناء اليقظة أو النوم الصناعى ، وتقـوية الارادة والروح المعنوية والاقناع ، والتحليل النفسى .

علم النفس المرضى psychopathology ; -ie — دراسـة العوامل والوظائف والعمليات العقلية فى حالات المرض وتفسير جميع الاضطرابات النفسية تفسيرا سيكولوجيا ، والطب العقلى تطبيق لعلم النفس المرضى فى مجال الوقاية والعلاج .

غائية finality, teleology ;-é,-ie

١ ــ المذهب الذى يرى أن بعض المجموعات من الحوادث المتسلسلة موجهة نحو غرض أو غاية ، أى أن طبيعة الغاية الى حد ما تؤدى دورا فى تعيين سير هذه الحوادث وتوجيهها .

٢ ــ النظرية التى تقول بأن عمليات الكائن الحى العضوية تقوم على قوة مصورة وموجهة نحو غاية هى تحقيق نموذج الكائن الحى أو صورته . انظر غرضية

غرض ، قصد purpose ; intention مايتصـوره المرء نتيجة لافعال يصمم على القيام بها تحقيقا لما يتصوره .

غرضية purposivism ; intentionnalisme : النظرية السيكولوجية التى ترى أن الاغراض ــ مفهومة على نحو ما ــ علاوة على المنبهات ، تعين السلوك تعيينا حاسما ، أنظر هورمية ، علم النفس الهورمى ، غائية

غريزة instinct اختلف علماء النفس فيما بينهم على تعريف الغريزة . ولما كان بعضهم يستخدم هـذا اللفظ دون أن يحـدد معناه تحديدا دقيقا أصبح لفظ الغريزة عديم الفائدة تقريبا فى البحوث العلمية التى تتوخى التحليل العلمى واستقصاء جميع الشروط . أما اذا اقتضى الحال استخدام هذا اللفظ وجب التمييز بين معنيين .

١ ــ الدافع الحيوى الأصلى لنشاط الكائن الحى حفظا لبقائه وذلك بالاقبال على الملائم والأحجام عن المنافى .

٢ ــ ضرب من السلوك يعينه التركيب العضوى الفطرى . ونلخص فيما يلى رأى كلاباريد (١) Claparède العالم السويسرى : يرجع

(١) Ed. Claparède. Esquisse d'une théorie biologique du sommeil, 1905, p. 151. De l'intelligence animale à l'intelligence humaine, in Le mystère animal, 1938, pp. 141-190.

الابهام واللبس اللذان يحيطان بكلمة « instinct » «غريزة» الى ان هذا اللفظ يفيد معنيين جد مختلفين . فلدينا من جهة الدافع الطبيعى او الميل الفطرى الذى يعبر عنه الالمان بكلمة Trieb ومن جهة اخرى الأفعال الغريزية . او السلوك الغريزى . أما الدافع أو الميل فهو المحرك الذى يدفع الحيوان الى العمل فى اتجاه ما . أو الذى يدفع الحيوان نحو هدف معين ويظهر على صورة حاجة need, besoin أما الفعل الغريزى أو السلوك الغريزى فهو مجموع المحاولات أو الوسائل التى تستخدم لتحقيق الهدف ولارضاء هذه الحاجة . وهذا السلوك هو ضرب من المعرفة العملية Savoir-faire أو الفن العملى .

والدافع الغريزى Trieb أو الميل الغريزى الى حفظ البقاء والدفاع والتغذية والتناسل هو المحرك اللازم لنشاط الحيوان أو الانسان أيا كان هذا النشاط :

المحرك		انواع السلوك
الميل الغريزى Trieb	⎫	السلوك الغريزى = غرائز
	⎬	السلوك المكتسب = عادات
	⎭	السلوك المبتكر = ذكاء

ويعرف Claparède السلوك الغريزى بأنه عمل ملائم ، يؤديه على نحو مطرد وبدون سابق تعلم أفراد الجنس الواحد جميعا ، دون معرفة للغاية منه وبدون معرفة لما بين هذه الغاية ووسائل تحقيقها من صلة .

ونذكر على سبيل المثال تعريفا آخر يقرب بين الغريزة وبين ماقاله ابن سينا عن القوة الواهمة يقول برينان (١) A.E. Brennan يمكن تعريف الغريزة بأنها نظام فطرى من قوى نفسية عضوية تتيح لصاحبها أن يتعرف توا نفع أشياء ما أو ضررها ، وأن ينفعل تبعا لهذا التعرف . وأن يعمل — أو يحس الحافز الى أن يعمل — على نحو معين حسب ما للأشياء المدركة من قيمة بيولوجية .

فسيولوجيا physiology — علم وظائف الأعضاء . كان يسمى قديما بعلم منافع الأجزاء أو الأعضاء . فرع من فروع علم الحياة

---

(٢) A.E. Brennan. General Psychology, 1937, p. 225.

biology ، يبحث فى وظائف الكائن الحى من تغذية وتنفس واخراج وافراز واحساس وحركة وتناسل .

فصام ، (الجنون المبكر ، جنون المراهقة) schizophrenia schizophrénie ; *dementia praecox* ــ ذهان من أهم أعراضه انطواء المريض على نفسه والنكوص والتجول الذهنى فى عالم الخيال والوهم ، عدم الاتساق بين المزاج والفكر ، البلادة الوجدانية وفساد الحياة الانفعالية ، اعتقادات باطلة وهلوسة وأفكار الاضطهاد والعظمة والخلود والقدرة الخارقة وتقمص الكون ، انحرافات جنسية ، شبقية ذاتية ، جنسية مثلية ، تفكك عام فى الوظائف العقلية .

وأول من استعمل لفظ الجنون المبكر démence précoce الطبيب الفرنسى Morel سنة ١٨٥٧ ، ثم رأى العالم السويسرى بلولر Bleuler (١٩٣٩ ــ ١٩٥٧) استبدال schizophrenia (العقل المفصوم) «فصام» بالجنون المبكر ، اذ لاحظ أن هذه الحالة المرضية لاتنتهى دائما بزوال العقل تماما dementia وأنها لاتظهر دائما فى سن المراهقة .

وللفصام أربعة أشكال اكلينيكية :

١ ــ الفصام البسيط simplex وعرضه الرئيسى الفرار من الواقع .

٢ ــ فصام المراهقة hebephrenic وأعراضه الرئيسية تقمص الكون وأفكار العظمة .

٣ ــ الفصام الهذائى paranoid وعرضه الرئيسى هذيان الاضطهاد .

٤ ــ الفصام الكتاتونى catatonic وأعراضه الرئيسية الجمود stupor والصمت والمقاومة السلبية أو الايجابية (انظر خلفة) والقابلية الزائدة للايحاء فى محاكاة الأصوات echolalia والحركات echopraxia والتزام أوضاع الجسم الثابتة مدة طويلة بدون الاحساس بالتعب ، وعندما تحل مظاهر النشاط محل الجمود والصمت يقوم المريض بحركات نمطية stereotypy فعلا وقولا وكتابة .

الفعل acting ; action ـــ السلوك من حيث هو مجموعة حركات منظمة تتجه الى التأثير فى العالم الخارجى وتستهدف غاية ما .

الفكر acting ; action ـــ (١) مايقابل الامتداد (٢) ترتيب أمور معلومة للتأدى الى مجهول (الجرجانى) (٣) مجموع العمليات العقلية التى تؤدى الى المعرفة والحكم ، فى مقابل الحالات الوجدانية والنزوعية .

فكرة idea ـــ معنى بارز فى مجرى التفكير .

الفهم understanding ; entendement, compréhension
(١) تصور المعنى من لفظ المخاطب (الجرجانى) (٢) ادراك المعنى . من الوجهة التاريخية : القوة الذهنية أو الملكة التى تدرك العلاقات المنطقية وتقابل هذه القوة الملكات التى لاتتطلب الحكم والاستدلال كالحس والتذكر والتخيل .

قدرة capacité ; ability : المقدرة ، فطرية كانت أو مكتسبة على القيام بأفعال استجابية ، حركية أو ذهنية .

ويميز بين القدرات الخاصة special abilities والقدرة العامة general ability والقدرات الخاصة تتميز بعضها من بعض بالقياس الى المجال الذى تعمل فيه أو بالقياس الى نوع العمل ، مثل القدرة الميكانيكية والقدرة الموسيقية والقدرة الحسابية والقدرة اللفظية والقدرة على ادراك المكان . ومن المفروض نظريا أن التحديد لم يتم بعد .

وتستخدم طرق احصائية ورياضية خاصة لتحليل القدرات والكشف عن قدرات جديدة . وفى مثل هذه البحوث يميل العلماء الى استخدام لفظ «عامل» Factor بدلا من قدرة .

ويميز بعضهم بين قدرة الشخص على التعلم وعلى الاستفادة بالتعلم وفى هذه الحالة يستخدمون لفظ capacity أو aptitude والاختبارات المستخدمة تسمى اختبارات الاستعداد aptitude tests ـــ وبين القدرة على انجاز عمل من الاعمال بعد التعلم والتدريب والاختبارات المستخدمة فى هذه الحالة تسمى اختبارات الانجاز أو التحصيل achievement tests ، أى أنهم يميزون بين القدرة بالقوة والقدرة بالفعل .

لاشعورى unconscious (n) ; inconscient (n) ــ يطلق على العوامل التى تؤثر فى السلوك على الرغم من عدم شعور الشخص بها .

اللاشعور unconscious (n) ; inconscient (n) ــ (١) مجموعة العوامل النفسية والفسيولوجية غير المشعور بها ،(٢) فى مدرسة التحليل النفسى (فرويد Freud) هذا الجانب من النفس أو من الشخصية الذى لايمكن أن يصبح شعوريا الا بالتحليل النفسى . ويتكون من «المعانى البدائية» التى لم تكن قط شعورية ومن الميول والرغبات والخبرات المكبوتة ولايمكن معرفة مضمونه بطريقة مباشرة بل بواسطة تأويل الترابطات الحرة والأحلام .

مانيا (١) ، هوس mania ; manie ــ ذهان من أهم أعراضه تضخم الأفكار وتهيجها وانتقالها السريع من موضوع الى آخر دون التمييز بين قيم المعانى ، سرعة تداعى المعانى مع الميل الى النكتة اللاذعة والتفوه بالألفاظ البذيئة ، أفكار العظمة والاستعلاء ، الاحساس المفرط بالانبساط والمرح وازدياد النشاط الحركى والاندفاع الى تحقيق كل فكرة تخطر فينتقل المريض من عمل الى عمل دون راحة ولا هوادة ويكون تفكك نشاطه الحركى العنيف موازيا لتفكك نشاطه الذهنى الهائج . والهوس أحد جانبى الذهان الدورى المعروف بذهان الهوس والاكتئاب circular or manic depressive psychosis وتعرف حالة المانيا الخفيفة بالهيبومانيا hypomania

مرض بازداو Basedow's disease ; maladie de Basedow يتميز بتضخم الغدة الدرقية وازدياد افرازها وجحوظ العينين وخفقان القلب ورجفات سريعة وقصيرة فى اليدين . وتصحب الحالة الجسمية اضطرابات نفسية كتقلب المزاج وتهيجه السريع والاكتئاب ويعرف هذا المرض أيضا بمرض جريف Grave .

ملانخوليا ، المرض السوداوى melancholia ; mélancolie ــ ذهان من أهم أعراضه الاكتئاب وهبوط النشاط الحركى وانعدام الاهتمام بالعالم الخارجى والارق ورفض الغذاء وطلب الانتحار . يعتبر أحد جانبى

---

(١) استعمل اطباء العرب مثل أبو بكر الرازى فى «الحاوى» و «الطب المنصورى» ، وابن سينا فى «القانون» اللفظ اليونانى مانيا، كما استعملوا ملنخوليا وليثارخوس (سبات) وقرينيطس (مرض شبيه بالمانيا) والقطرب (ليقانتروبيا أى اعتقاد المريض بأنه تحول الى ذئب) .

الذهان الدورى المعروف بذهان الهوس والاكتئاب Circular or manic depressive psychosis

ملل boredom ; ennui — حالة ضيق يصحبها تشتت الانتباه وهى ناتجة اما عن تحول النشاط الى حركات آلية أو عن تتابع عوائق تحول دون اطراد النشاط فى سيره نحو الهدف الأساسى . ويعرف الجرجانى الملل بأنه فتور يعرض للانسان من كثرة مزاولة شيء فيوجب الكلال أو الاعراض عنه .

منبه ، مؤثر stimulus - excitant — (١) العامل الذى يحدث تأثيرا ما (ميكانيكيا أو كيميائيا) فى أعضاء الاستقبال الحسى ، أنظر حساسية .

٢ — كل ما من شأنه أن يحدث تغييرا فى نشاط الكائن الحى أو فى مضمون الخبرة الشعورية .

منعكس reflex ; réflexe — يعرف الفعل المنعكس عادة بأنه حركة بسيطة غير مكتسبة يقوم بها عضو حركى أو غددى بطريقة ثابتة وبدون اختيار ، ردا على تنبيه عضو حسى ، ويصل قوس عصبى بسيط عضو الحس بعضو الحركة أو الافراز . ويشمل هذا القوس (١) خلية حسية (٢) عصب حسى مؤد الى خلية حركية وهو العصب المورد efferent (٣) عصب حركى مؤد الى عضو الاستجابة ، عضلة كانت أو غدة ، وهو العصب المصدر afferent

لايمكن أن نشاهد فى أى كائن حى ذى جهاز عصبى فعلا منعكسا ينطبق عليه هذا التعريف تماما ، ولا يمكن تحقيقه الا فى المعمل بطريقة صناعية على جزء مستأصل من جسم الكائن الحى . والواقع أن الفعل المنعكس استجابة معقدة يشترك فيها أكثر من مركز حركى واحد . وعلى ذلك فلايكون الفعل المنعكس عنصرا قائما بذاته ولكنه يندمج عادة مع أفعال أخرى تؤدى جميعا وظيفة مشتركة ، اى الفعل المنعكس ليس وحدة تشريحية مستقلة ، ولكنه عنصر وظيفى .

ويسمى الفعل المنعكس شرطيا أو مشروطا conditioned reflex réflexe conditionnel ou conditionné عندما يكوناستجابة، لا للمنبه الطبيعى ، بل لمنبه جديد ليس من خصائصه أن يثير مثل هذه الاستجابة ، غير أنه اكتسب هذه الخاصية باقترانه بالمنبه الطبيعى عدة مرات ولكن بشرط أن يحدث المنبه الجديد بضعة ثوان قبل حدوث المنبه

الطبيعى . فمسحوق اللحم المجفف مثلا ، اذا وضع فى فـم الكلب يثير افراز اللعاب ، فهو فى هذه الحالة المنبه الطبيعى . واذا أسمعنا الحيوان صوتا ما قبل استخدام المنبه الطبيعى وكررنا التجربة عدة مرات فسيكتسب الصوت خاصية اثارة اللعاب بدون اقترانه بالمنبه الطبيعى ويصبح افراز اللعاب فى هذه الحالة فعلا منعكسا شرطيا أو مشروطا .

وأول من درس الفعل المنعكس الشرطى دراسة منظمة هو العـالم الفسيولوجى الروسى بافلوف Pavlov . وكان غرضه دراسة وظيفة المراكز العصبية فى الدماغ وخاصة فى اللحاء cortex .

وقد اعتبر واطسن Watson ، مؤسس المدرسة السلوكية فى علم النفس Behaviorism الفعل المنعكس الشرطى أسـاس الاكتساب والتعلم ، فهو يرجع جميع العمليات السلوكية الى أفعـال منعكسة مركبة . وعلم النفس السلوكى ، كما يتصوره واطسن ، لايخرج عن كونه فرعا من علم الفسيولوجيا .

موضوعى objective (١) نسـبة الى موضوع وهو الأمر أو الشىء فى حقيقته الواقعية ، أى كما هو عليه مستقلا عن الأحكام الذاتية العاطفية .

٢ ـ كل ماينتمى الى البيئة الخارجية فى مقابل الخبرة الذاتية .

٣ ـ كل ما له وجود فى العالم الخارجى ويمكن أن يبحثه أكثر من واحد .

ملحوظة ـ حسب التعريف (١) تعتبر موضوعات التفكير موضوعية من حيث هى مادة التفكير والتعقل والمعرفة ، وان كانت من جهة أخرى ذاتية أو خاصة بالذات المفكرة ـ أنظر ذات ، خبرة ، واقعة .

موقف situation

١ ـ التنبيهات المنتظمة فى كل واحد ، مؤثرة فى الفرد فى لحظة معينة ، أو فى حالة فترة القابلية للاستجابة .

٢ ـ البيئة بما فيها الكائن الحى فى لحظة معينة : فالموقف اذن أوسع دلالة من البيئة اذ يتضمن المنبهات الداخلية والخارجية معا .

ميتومانيا ، جنون الكذب ، تسطير (هوس : mania اسطورة ، كذب mythos mythomania, manie) ـ ميل مرضى الى المبالغة فى الحديث والكذب فيه والافتراء على الآخرين .

نسبة الذكاء (I.Q.) Intelligence quotient : طريقة لتقدير الذكاء بالقياس الى المتوسط . وتقدر نسبة الذكاء بقسمة العمر العقلى ـ كما تحدده الاختبارات الشبيهة باختبار بينيه وسيمون Binet and Simon ـ على العمر الزمنى

ولازالة الكسور يضرب خارج القسمة فى ١٠٠ . فالطفل الذىعمره العقلى ١٢ وعمرهالزمنى ١٢ أيضا تكوننسبة ذكائه $\frac{١٢}{١٢}$ × ١٠٠ = ١٠٠ ، واذا كان عمره الزمنى ١٠ تكون نسبة ذكائه $\frac{١٢}{١٠}$ × ١٠٠ = ١٢٠ ، واذا كان عمره الزمنى ١٤ تكون نسبة ذكائه $\frac{١٢}{١٤}$ × ١٠٠ = ٨٥ . وفى الكبار يعتبر العمر الزمنى ١٤ أو ١٦ وفقا للاختبار المستخدم .

نسيان forgetting ; oubli فقدان طبيعى مؤقت أو نهائى لبعض مااكتسب سابقا من ذكريات ومهارات حركية ـ يجب تمييزه عن الأمنيزيا amnesia اى النسيان المرضى كما فى حالات نوبات الصرع أو عقب صدمة عنيفة . ويمكن اقتراح كلمة «تدليه» لترجمة amnesla فقد ورد فى كتاب تهذيب الالفاظ لابن اسحاق السكيت ص ١٩٢ طبعة بيروت ، مايلى : «والمدله تدليها الذى لايحتفظ مافعل ولا ما فعل به» .

نفس soul, spirit, âme ـ جوهر حال فى الجسم مغاير له.
أنظر : ذهن ـ الشخصية الذاتية ـ الشعور .

نظرية الظواهر المضافة ، ابيفينومناليزم epiphenomenalism épiphénoménisme ـ احدى النظريات المفسرة لصلة النفس بالجسم وهى تعتبر الظواهر الشعورية آثارا ثانوية لنشاط الجهاز العصبى وهى عديمة الفاعلية لا تؤثر فى عمليات الجهاز العصبى ولا فى العمليات الذهنية نفسها ؛ تؤدى هذه النظرية الى انكار علم النفس والى رد تعليل الظواهر الموسومة بالنفسية الى التعليل الفسيولوجى . يميز بينها وبين نظرية التوازى النفسى الجسمى parallelism

نظرية التوازى النفسى الجسمى parallelism ; parallélisme ـ احدى النظريات المفسرة لصلة النفس بالجسم وهى تعتبر أن للظواهر النفسية وجودا مستقلا عن الظواهر الجسمية ، غير أن لكل نشاط نفسى

مايوازيه من نشاط جسمى فى الجهاز العصبى دون أن تكون هناك صلة علية بين النشاطين • انظر نظرية الفاعلية المتبادلة interactionism

نظرية الفاعلية المتبادلة interactionism ; interactionisme

احدى النظريات المفسرة لصلة النفس بالجسم وهى تقول بالتأثير المتبادل بين النفس والجسم المتحدين فى التركيب الانسانى •

نموذج ، نمط type, model : — modèle

١ ـ الشكل الذى يحمل أخص الصفات التى يتميز بها معظم أفراد فئة ما ، ويعتبر «عينة» مختارة من هذه الفئة ، وهى بمثابة مثال لها فى مجموعها •

٢ ـ حسب مدرسة يونج C. Jung فى علم النفس التحليلى ، الفئة التى تتميز بالاسلوب الرئيسى الذى تصطنعه لتوجيه الطاقة النفسية . فيميز يونج بين نموذجين كبيرين هما المنطوى introvert والمنبسط extravert وكل منهما ينقسم بدوره الى أربعة أقسام تبعا لاحدى الوظائف الأربع التى تتخذها الطاقة النفسية وسيلة للتعبير عن ذاتها ، وهذه الوظائف هى التفكير ويقابله الوجدان ثم الحدس ويقابله الاحساس •

هتر delirium, délire toxique ـ مجموعة أعراض أهمها فقدان القدرة على التوجه فى الزمان والمكان ، الهلوسة ، اضطراب انفعالى مصبوغ بصبغة الخوف والرعب . وينشأ الهتر عادة عن تسمم (المسكرات، توكسينات ميكروبية) كما فى هتر السكير أو المريض بالتيفود .

هذاء delusion ; délire ـ اعتقاد خاطىء غير مطابق للواقع ولايمكن اقناع الشخص الهاذى بفساد اعتقاده ، ويمتاز أيضا بعدم اتساقه مع تربية الشخص ، وثقافته وبيئته . والنزعة الى الارتياب والتشكك والمجادلة مما يساعد على ظهور الحالات الهذائية . وتكون الهذاءات نظاما ثابتا متماسكا فى البرانويا خاصة ، (انظر الذهان الهذائى)

ويذكر الطب العقلى أنواعا كثيرة من الهذاء مثل هذاء العظمة والاضطهاد والمرض والموت والغيرة والفقر والخطيئة والهذاء الجنسى .

يجب أن يلاحظ أن اللفظ الفرنسي délire يستعمل ايضا بمعنى delirium أنظر هتر

هستيريا hysteria ; hystérie ـ عصاب من سماته البارزة القابلية الشديدة للايحاء والتقلب الانفعالى وضعف الشحنة الوجدانية وتفكك محتوى الشعور . وينشأ عن صراع بين الذات الشاعرة والرغبات اللاشعورية بطريقة رمزية . ويعتبر العرض الهستيرى على الرغم من شذوذه ضربا من ضروب التكيف الناقص .

وعندما توجد أعراض جسمية يسمى المرض بالهستيريا التحولية conversion hysteria وقد يبدو المريض فى حالة من الفرح وعدم الاكتراث . أما اذا كانت الأعراض مقصورة على المخاوف الشاذة والقلق فيسمى المرض بالهستيريا الحصرية anxiety hysteria.

والأعراض الهستيرية عديدة ومتنوعة اذ يكاد كل عضو من أعضاء الجسم وكل جهاز من أجهزته يصاب بضرب ما من الاختلال الوظيفى .

وقد تكون الاعراض حسية كفقدان الحساسية اللمسية anesthesia او ازديادها hyperesthesia أو نقصانها hypoesthesia او انحرافها paresthesia ، والعمى والصمم وفقدان حاسة الشم anosmia وحاسة الذوق ageusia ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه الاضطرابات كلها من طبيعة وظيفية اى بدون أن يكون هناك اصابة عضوية فى العضو الحسى أو فى العصب الحسى أو فى المركز العصبى الحسى . انظر وظيفى .

وقد تكون الأعراض حركية كالشلل الوظيفى functional paralysis (اى بدون وجود اصابة فى المراكز العصبية الحركية فى النخاع أو فى المخ)، والحركات التشنجية وفقدان القدرة على اصدار الأصوات aphonia وتقلص العضلات المؤدى الى تشوهات وظهور أوضاع حركية شاذة ثابتة الخ . وقد تكون الاعراض خاصة بالدورة الدموية والجهاز التنفسى والجلد والأحشاء ، مثل برودة الأطراف أو سخونتها أو احتقان الدم فيها cyanosis وخفقان القلب tachycardia والربو وارتشاح الجلد بالعرق الغزير أو الدم وبعض الأمراض الجلدية الخ ..

أما الأعراض النفسية فأهمها فقدان الذاكرة amnesia والتجوال النومى somnambulism والتجوال اللاشعورى fugue والقلق ، والهلوسة أحيانا .

وقد عنيت مدرسة التحليل النفسي بدراسة الهستيريا عناية خاصة ، والمرضى بالهستيريا يجدى معهم العلاج السيكو تحليلى الى حد بعيد .

هورمية hormic;-que : لفظ اصطنعه مكدوجال McDougall ليصف به الطاقة العقلية ومذهبه فى علم النفس . وهو مشتق من كلمة يونانية ὁρμάω تفيد معنى اثارة الحركة set into motion, urge on ويعرف مكدوجال لفظ hormic بأنه مايدفع نحو هدف an urge or impulse towards a goal (The energies of man, p. 19) والطاقة الهورمية hormic energy هى الطاقة التى يفترض مكدوجال أنها خاصة بكل نشاط غرضى . ويسمى أيضا هذه الطاقة بالطاقة النفسية الفيزيقية psycho-physical energy كأنها خاصة بالنفس والجسم معا .

علم النفس الهورمى hormic psychology : احدى مدارس علم النفس وهى مدرسة مكدوجال . وعلم النفس الهورمى شكل من اشكال علم النفس الغرضى . purposive psychology ويميز مكدوجال بين مذهبه ومذهب غرضى آخر فى علم النفس ، هو مذهب اللذة ، بأن علم النفس الهورمى يعتبر أن النزوع نحو أمر هو أصلا نحو هذا الأمر لذاته ، لا لما قد يحققه من لذة . فما ننزع اليه ونرغب فيه هو غرض فى ذاته ، لا وسيلة للوصول الى غرض آخر هو اللذة . ووجه الشبه بين رأى مكدوجال ورأى أرسطو واضح . أنظر غرضية ، هورمية

واقعة fact ; fait ـ مايحدث بالفعل ، سواء كان موضوعيا أو ذاتيا ـ ويستخدم أيضا بمعنى الظاهرة phenomenon ; phénomène

وجدان feeling, affection ; affectivité ـ يشمل الحالات من حيث تأثرها باللذة أو الألم ، غير المؤدية الى المعرفة فى مقابل عمليات التصور والتفكير . يطلق على الانفعالات والعواطف والأهواء . يستعمله بعضهم بمعنى شبيه بالحدس البرجسونى intuition bergsonienne وفى هذه الحالة يعتبر وسيلة ممتازة من وسائل المعرفة (أنظر كتاب الزمان الوجودى للدكتور عبد الرحمن بدوى) .

وظيفة function ; fonction ـ مايقوم به العضو أو الجهاز العضوى من عمل . وكان يقال قديما منفعة العضو فعلم وظائف الأعضاء physiology كان يسمى قديما علم منافع الأجزاء (الترجمات العربية لكتاب جالينوس) .

وظيفى functional ; fonctionnel — خاص بما يؤديه العضو أو الجهاز العضوى من عمل لا ببنائه وتركيبه . والمرض الوظيفى هو اختلال الوظيفة دون ظهور اصابة تشريحية أو نسيجية فى العضو كالشلل وفقدان الحس فى الهستيريا .

يذهب بعضهم الى أن تسمية بعض الامراض بالوظيفية اعتراف بجهلنا أسباب المرض العضوية التى قد تكون طبيعتها دقيقة جدا لم يصل العلم بعد الى تحديدها . وقد يكون هذا صحيحا فى بعض الحالات فالصرع مثلا epilepsy والزفن chorea أو مرض الرقص السنجى كانا يعتبران من الأمراض النفسية أو الأمراض العصبية الوظيفية ، ثم ادخلا فى نطاق الأمراض العصبية بعد كشف عللها العضوية . ولذلك يعتقد عضويو النزعة أن جميع أنواع العصاب والذهان ستدخل يوما ، ان قريبا أو بعيدا ، فى نطاق الأمراض العصبية . اما الوظيفيو النزعة وعلماء النفس فيرون أن هناك بكل تأكيد مجموعات من الأمراض بل أمراضا تكون فيها الناحية النفسية جوهرية ومتغلبة يرجع منشؤها الى خبرات الشخص الانفعالية من كبت وغيره والى تأثير البيئة . وتكون آثارها ظاهرة واضحة فى سلوك الشخص نحو نفسه ونحو الآخرين وفى استجاباته الاجتماعية الشاذة .

والواقع أن الغموض والاضطراب فى محاولات بعض العلماء التفرقة بين المرض العضوى الخالص والمرض الوظيفى الخالص يرجعان اما الى الاعتقاد بأن الجسم هو الحقيقة الواحدة دون النفس أو الى أن الجسم والنفس حقيقتان لا متميزتان فحسب ، بل منفصلتان تمام الانفصال كما فى نظرية التوازن النفسى الجسمى .أما اذا أخذنا بالمذهب التكاملى ونظرنا الى المركب الانسانى كوحدة متكاملة نفسا وجسما لرأينا أن المرض — أيا كان — لايصيب الجسم فحسب أو النفس فحسب بل الانسان . ولذلك لابد من أن يوجد بجانب الطب البشرى (الذى يجب عليه الا يهمل الناحية النفسية) طب نفسى يستخدم اساليب نفسية للعلاج — كما يستخدم مدلولات سيكولوجية لتفسير الأمراض العصابية والذهانية ، فضلا على استخدام وسائل العلاج الفيزيائية والكيميائية كالصدمات الكهربائية مثلا وبعض العقاقير كلما اقتضت الحالة .

ويبدو من الاتجاهات الحديثة جدا فى الطب أن تقدم العلاج الطبى لايمكن أن يطرد — خاصة فى الحالة الاجتماعية الراهنة — الا باتجاهه

نحو العلاج السيكوسوماتي أو العلاج النفسى الجسمى معا . ومما هـو جدير بالملاحظة ازدياد عدد الامراض التى أخذت تدخل فى نطـاق الطب السيكوسوماتى psychosomatic medicine ، نذكر منها قرحة المعدة ، الربو ، ارتفاع الضغط الأساسى ، الجلوكوما ـ راجع مقـالات الدكتور مصطفى زيور فى مجلة علم النفس العدد الأول والعدد الثانى من السـنة الأولى .

القسم الفرنسى

DANS QUELLE MESURE L'ART EST-IL FACTEUR D'INTEGRATION SOCIALE

Communication au XVIIe Congrès de l'Institut International de Sociologie

Beyrouth, 23-29 Septembre 1957

Il va de soi que la réponse à une pareille question dépend de la conception que l'on se fait de l'art et du rôle que joue le développement du sentiment esthétique dans la formation de la personnalité.

Il faut, pour aborder ce problème, se placer dans une perspective historique. Cette perspective n'implique pas toujours la notion d'évolution et moins encore celle de progrès. Les manifestations artistiques au cours des âges n'ont pas suivi une marche ascentionnelle et progressive, et c'est souvent d'une manière fort arbitraire que certains historiens opposent au style dit archaïque ou primitif un style dénommé classique et considéré comme l'expression fidèle d'une certaine perfection idéale.

Il est vrai que tout cycle évolutif comprend des moments de regression ; mais précisément il s'agit de savoir si l'art dit décadent comprend moins de valeurs esthétiques ou non que celui de la période qui l'a précédé. L'issue d'un pareil débat dépendra du critérium adopté pour juger de la valeur des œuvres d'art.

Ce critérium doit être surtout fonctionnel : se demander quelle est la fonction remplie par l'art, sa fonction sociale et sa fonction individuelle. Cette attitude dénie à l'art la qualité d'être désintéressé, d'être « pur », d'avoir sa fin en lui-même, qualité que certains esthéticiens ont tendance à lui attribuer d'une manière exclusive.

Ici, une constatation s'impose et qui va nous placer au cœur même du sujet : il est curieux, en effet, de constater que c'est pendant les périodes de désintégration sociale, que prennent naissance les mouvements de l'art pur, de l'art pour l'art ; périodes déchirées par de puissants conflits qui dressent les uns contre les autres les individus et les groupes. L'art pur se trouve vidé de sa fonction sociale et regresse pour n'être plus qu'un simple moyen d'expression individuelle et les sentiments exprimés plongent leurs racines dans les frustrations dont souffre l'artiste et qui s'exhalent en cris d'hostilité et de révolte. Poussée à ses dernières limites, cette regression aboutit aux manifestations de l'art pathologique qui en dépit de son incohérence apparente n'en continue pas moins à exprimer sous une forme symbolique les conflits dont souffre l'individu malade.

Mais, même réduit à sa fonction individuelle, l'œuvre d'art n'en demeure pas moins rattaché par certains rapports cachés à un contexte social. Tout acte portant le cachet de la personnalité profonde, comme c'est le le cas de l'œuvre de l'artiste, se déroule dans une situation sociale et tend à la modifier. Cet acte, quel que soit son coefficient d'individualité, se trouve être le porte-parole d'un groupe par opposition à un autre. C'est dans la mesure où le non-conformisme répond à des aspirations latentes mais profondes et générales qu'il prépare la voie à une restructuration caractérisée par des liens plus forts d'une intégration sociale plus étendue.

Il suit de là que l'activité artistique dans son essence n'est point une activité de luxe ; elle ne peut être assimilée entièrement à une activité de jeu, et beaucoup moins à celle du rêve, bien qu'elle participe aux deux et y puise une partie de son dynamisme. Elle les dépasse sûrement, de la même façon que le langage de l'adulte est d'une nature tout autre que le babillage d'un bébé ou les élucubrations d'un fou.

L'activité artistique est une activité sérieuse. Elle est moins parure qu'ornement, en ce sens que l'ornement complète et achève l'objet alors que la parure le surcharge et l'alourdit. Elle est, entre autres, une manière de faire en

vue de découvrir une vérité, de réaliser une harmonie et enfin de communiquer cette vérité sous une forme harmonieuse et qui plaît.

L'art tend donc à devenir un instrument de communication, un langage chargé de significations constamment renouvelées. On a dit de l'art que c'est une imitation de la nature, ou bien une transfiguration de la nature, que c'est la création d'une symbolique au cours de métamorphoses précédemment insoupçonnées, de conversions inattendues. Il est aussi vrai de dire que l'art imite la nature que la nature imite l'art, dans la mesure où la nature et l'art sont chargés d'intention et manifeste un pouvoir de transformation et de création.

L'art est donc un langage et le message qu'il transmet, tout sensible qu'il soit, rejoint celui d'un univers transcendant, l'univers du religieux, du sacré, du magique, du mystérieux, de l'invisible. Ainsi, si le langage de l'art n'est point « utilitaire », il n'en est pas mons « utile » ; il répond à certains besoins foncièrement enracinés en nous et que l'homme cherche, dans ses moments de désarroi, à satisfaire au moyen de substituts inadéquats qui, tout en satisfaisant partiellement le besoin du merveilleux, ne procurent pas la joie ou la délectation que l'œuvre d'art est à même de dispenser.

Comme le langage est le facteur primordial de l'intégration sociale, c'est dans la mesure où l'art devient un langage qui exprime par ses formes propres ce que le langage courant ne peut exprimer qu'il devient facteur d'intégration sociale, c'est-à-dire dans la mesure où il permet à la communauté de prendre conscience de quelque chose qui tout en étant nouveau est pourtant commun à tous ses membres.

Mais tout langage pour être efficace doit être pressenti et compris. L'incompréhension du langage de l'art ruinerait sa fonction d'intégration sociale. Il semble à quelques-uns que ce serait déchoir si l'artiste se mettait à la portée de tous ; l'art qui s'abaisserait pour se mettre au niveau de la masse cesserait d'être un art véritable.

Il y a là un préjugé fort dangereux et qu'il faudrait dépister sans merci. Il ne s'agit certes pas de « fabriquer » un art à la mesure du peuple ; il ne s'agit pas non plus d'art hermétique à l'usage de chapelles secrètes. Ces deux formes sont des contre-façons, la première lamentable, la seconde ridicule. Il faudrait au contraire assurer les meilleures conditions pour d'une part l'épanouissement libre et spontané des artistes doués et d'autre part la compréhension des œuvres d'art par des publics de plus en plus vastes. Il s'agit en somme d'un problème d'éducation, d'éducation intégrale. On s'est intéressé à différentes formes d'éducation, intellectuelle, physique, technique, et on a négligé l'éducation esthétique, ou du moins on l'a limitée aux formes littéraires et on s'est à peine intéressé aux formes plastiques et musicales.

La société doit à ses membres de développer en eux le plus grand nombre de potentialités et le sentiment esthétique est un facteur de base dans la formation de la personnalité. Des études cliniques ont montré que de nombreux cas de désadaptation sociale sont dus à une éducation déficiente du sentiment esthétique pendant l'enfance. Les tendances artistiques de l'enfant n'ayant pas trouvé de climat favorable à leur développement chercheront plus tard à se satisfaire au moyen de substitut de valeur sociale inférieure.

Une éducation esthétique bien conçue et se prolongeant jusqu'à la mâturité contribuerait à un plus grand équilibre de la personnalité et à son enrichissement et par conséquent deviendrait indirectement un facteur d'intégration sociale. On sait déjà que l'on utilise l'activité artistique dans le diagnostic et le traitement des névroses et des troubles caractériels chez les enfants. Il s'agit d'étendre les bons effets de l'art du domaine curatif au domaine préventif. Donner aux enfants et aux adultes l'occasion de s'exprimer spontanément à travers les multiples manifestations artistiques : chant, danse, musiqu, peinture, modelage, sculpture, tapisserie, etc... c'est leur donner les moyens de canaliser certaines tendances, de les sublimer et de les purifier et partant de diminuer la tension de certains conflits psychiques dont ils pourraient souffrir. C'est en même temps créer de nou-

veaux terrains d'échange culturel et spirituel entre les membres d'un même groupe. Enfin une politique bien éclairée d'éducation esthétique contribuerait à résoudre un problème qui deviendra de plus en plus pressant à mesure que s'amélioreront les conditions matérielles de tous les travailleurs et se répandront dans la masse les bienfaits de plus en plus multiples de la technique moderne : il s'agti du problème des loisirs et de la nécessité de varier les moyens de les remplir pour combattre le grand ennemi qui guette nos sociétés évoluées : l'ennemi, la lassitude, l'angoisse.

Le problème des loisirs tend à acquérir de jour en jour une importance qui ne le cédera pas bientôt à celle du travail, d'ailleurs les deux problèmes doivent être envisagés de concert. Il est vrai qu'il existe de nombreux moyens pour occuper les loisirs : sport, lecture, radio, cinéma, télévision, etc... mais tous ces moyens n'ont pas le même efficacité dans la réalisation de l'équilibre moral et dans la formation d'une personnalité dont les multiples tendances doivent s'intégrer harmonieusement. L'activité esthétique, envisagée comme loisir, présente cet avantage capital de donner à celui qui l'exerce cette joie que prouve la création d'une œuvre, quelque modeste soit-elle. C'est par le développement de cette créativité que chaque individu peut combattre l'ennui et la lassitude qui le guettent. Cette vérité n'a pas échappé aux éducateurs et spécialement aux psychotechniciens industriels et l'appel de plus en plus grand que l'on fait à l'esprit d'initiative des élèves et des ouvriers en est la preuve. Mais ce qui importe c'est d'appliquer cette vérité à la plus large échelle possible et de se convaincre qu'un développement harmonieux de toutes les tendances fondamentales de l'individu est seul capable de réaliser l'intégration sociale grâce à l'intégration psycho-sociale de la personnalité.

Il est intéressant de noter à ce sujet que les autorités culturelles en Egypte ont pris conscience de la nécessité d'organiser sur une grande échelle l'éducation esthétique des élèves et des étudiants. Le Conseil Supérieur des Arts et des Lettres en Egypte a émis récemment le vœu de voir se développer parmi la jeunesse ce qu'on pourrait appeler la cons-

cience esthétique ou le sentiment du beau. Le Ministère de l'Education Nationale a souscrit sans réserve à ce vœu et a demandé aux Universités de le réaliser. L'Université du Caire a déjà pris ses mesures pour que soit institué dès le début de cette année académique 1957-58 un enseignement de l'histoire de l'art aux étudiants de la Faculté des Lettres, spécialement ceux d'histoire, de sociologie, de philosophie et de littérature. Ces étudiants étant appelés à occuper des postes d'enseignement dans les écoles et les lycées contribueront pour leur part au développement du sentiment esthétique chez leurs élèves ; ils parachèveront ainsi leur rôle d'éducateurs et deviendront par leur enseignement et surtout par l'esprit qui les animera de facteurs efficaces d'intégration sociale.

LA CONDUITE DE L'EFFORT D'APRES PIERRE JANET *

Parmi les divers points de vue sous lesquels la question de l'effort peut être envisagée, il en est un qui consiste non à rechercher la nature de l'effort ou à déterminer les phénomènes cérébraux ou viscéraux qui l'accompagnent, mais à étudier la conduite de l'effort telle qu'elle se déroule sous les yeux de l'observateur. C'est ce point de vue adopté par la psychologie du comportement et longuement étudié par Pierre Janet dans ses nombreux ouvrages et cours du Collège de France, que nous allons envisager.

1. — La notion d'action joue un rôle prédominant dans la psychologie de Pierre Janet. C'est au nom de la priorité de l'action sur la pensée que Janet critique la méthode introspective et sans lui dénier toute valeur, il fait appel à la méthode dite objective qui s'attache à étudier la pensée à travers le comportement et la conduite.

La psychologie subjective prend la réalité à rebours. Elle croit la pensée primitive et l'action secondaire. En fait c'est l'action qui est primitive et la pensée n'apparaît que tard dans l'évolution.

L'action peut bien finir par être une pensée extériorisée ; mais elle lui est antérieure et la conscience sous toutes ses formes est toujours une action intériorisée. Ainsi les fatis psychologiques doivent être considérés comme des actes et exposés en termes d'action.

C'est pourquoi la psychologie doit se placer essentiellement à un point de vue dynamique et tenir compte des no-

---

* The Egyptian Journal of Psychology, May, 1950.

tions de force et de tension psychologiques. De plus, toute action n'est pas une simple dépense d'énergie, elle a un rôle, elle vise un but, il est donc impossible de faire abstraction de la finalité des actes et de l'utilité des fonctions. Pour bien comprendre le rôle et la portée de l'effort, il faudrait tout d'abord dire comment P. Janet conçoit les sentiments en général. L'étude des sentiments ressortit ainsi à la psychologie du comportement. Les sentiments ne peuvent être considérés comme des passions, des reflets, d'images perçues dans le miroir de la conscience, reflets des états de l'âme, ou reflets des états organiques, ils sont des actions, des réalités efficientes et leur rôle apparaît non seulement dans la pensée, l'activité normale, mais aussi dans l'étiologie et la symptomatologie des psychoses.

Les sentiments, comme tout fait psychologique doivent être considérés dans leurs rapports avec la conduite générale : « Le fait psychologique n'est ni spirituel ni corporel, il se passe dans l'homme tout entier puisqu'il n'est que la conduite de cet homme prise dans son ensemble. Un sentiment n'est pas plus dans l'âme qu'il n'est dans le ventre ; il est une manifestation de l'ensemble de la conduite. Un phénomène local, la modification des battements du cœur n'est pas un fait psychologique, il ne le devient que s'il contribue à modifier la conduite dans son ensemble. Mais alors c'est cette modification de la conduite qu'il faut étudier sous le nom de sentiment. Les sentiments jouent donc un rôle utile dans l'adaptation et la régulation des fonctions, ils contribuent à régler la dépense des forces dans les actions ».

2. — L'activité psychologique débute par les réponses motrices aux stimulations extérieures. Les réponses motrices qui commencent par être des agitations diffuses deviennent de plus en plus coordonnées et adaptées. Il s'établit une hiérarchie de tendances depuis l'acte réflexe qui est une explosion instantanée d'énergie jusqu'aux conduites supérieures qui sont caractérisées par le phénomène de l'attente, de la mise en réserve des forces et de la régulation de la dépense de ces forces selon les circonstances et le but à atteindre. C'est en considérant les diverses tendances et leur degré d'ac-

tivation que l'on arrive à établir un rapport entre la force d'une tendance et sa tension. Plus la tendance est élémentaire, plus elle a de force et moins elle a besoin de tension. La force éclate d'une façon explosive. La réaction suit immédiatement la stimulation. Une tendance supérieure possède moins de force, il faut par conséquent suspendre pendant un certain temps la réaction pour élever les forces disponibles à un plus grand niveau et leur donner la tension voulue pour que l'acte s'accomplisse avec mesure. Le rôle des sentiments est précisément de régler les divers degrés de la tension, de l'abaisser ou de l'élever selon les circonstances, d'activer les tendances primaires et d'en contrôler le déroulement. Aux réactions primaires viennent donc s'ajouter une des réactions secondaires qui sont les sentiments.

Parmi les multiples régulations de l'action, il en est certaines qui sont remarquables par leur fréquence, et par leur régularité... Pierre Janet étudie surtout quatre régulations importantes qui correspondent à autant de sentiments fondamentaux (1). Tout d'abord la conduite de l'effort qui, grâce aux régulations d'activation et d'accélération perfectionnent l'action en lui donnant l'intensité, la rapidité et la durée nécessaires. (2) Vient ensuite la régulation de l'arrêt momentané, du repos, pour permettre aux tendances plus ou moins épuisées de se rechanger et de rentrer ensuite en action. C'est la conduite du freinage. (3) Mais il faut non seulement que l'action débute au moment voulu, puis reprenne, mais qu'elle aboutisse. Souvent il arrive que toutes les régulations d'accélération et de freinage se montrent insuffisantes. C'est alors que doit intervenir une nouvelle conduite, celle de l'échec. Cette régulation de l'échec a un double but : celui d'arrêter l'acte primitif qui ne peut réussir et celui de déclencher un nouvel acte, d'utiliser les forces mobilisées par les vaines tentatives antérieures en vue d'un autre acte et d'un autre résultat plus accessibles. C'est ainsi que la conduite de l'échec peut aboutir à l'acte du changement. (4)

(1) De l'angoisse à l'extase T. II P. 36.

Enfin, quand le but est atteint, apparaît une nouvelle régulation — celle du triomphe qui a pour but d'arrêter définitivement l'acte. Mais les forces qui deviennent ainsi disponibles peuvent se dépenser librement, se gaspiller en faveur des tendances en état de faible activation ou en état de besoin. La conduite du triomphe se définit donc par un arrêt de l'acte qui a réussi et par la conduite du gaspillage.

A ces quatre régulations fondamentales : accélération, freinage, échec, triomphe, correspondent quatre sentiments essentiels : le sentiment d'effort, le sentiment de fatigue, le sentiment de tristesse et le sentiment de joie.

Nous voyons d'après le tableau précédent que le premier acte secondaire qui intervient dans la régulation de l'acte primaire c'est l'effort. Etant premier parmi les actes secondaires, l'effort n'est pas pour cela indépendant des trois autres conduites Les quatre conduites fondamentales se pénètrent mutuellement, réagissant les unes sur les autres, s'enrichissant du fait de leurs incessantes interférences par l'adjonction d'autres conduites nouvelles telles que la croyance et le langage.

3. — Une fois que nous avons replacé la conduite de l'effort dans le tableau général des conduites, nous allons passer en revue les diverses questions qu'elle soulève.

Tout acte a un terme et il est plus ou moins efficient qu'il s'approche plus ou moins de ce terme. D'une façon générale, l'efficience de l'acte, qui n'est pas une simple réaction immédiate, dépend de l'élévation de la tension psychologique. On peut considérer soit l'acte qui se déroule à un même niveau, sur le même stade psychologique, soit l'acte plus difficile que le précédent, qui passe d'un state psychologique inférieur à un stade supérieur. Dans les deux cas, à une tendance primitive vient s'ajouter pour l'activer de nouvelles tendances. L'effort tout d'abord est une modification de l'acte en vue d'augmenter son efficience sans qu'il y ait passage d'un stade à l'autre. Quand une tendance définie est incapable par sa seule décharge d'assurer une adap-

tation toujours satisfaisante, un effort peut intervenir pour faire aboutir l'action. Il est indifférent que l'acte soit en lui-même faible ou fort; l'effort apparaît dans les deux cas, chaque fois qu'il y a addition de force. Dans un cas un faible effort suffit, dans l'autre il faut fournir un grand effort. Il ne suffit pas pour qu'on puisse parler d'effort que l'acte soit fort, il faut que l'acte devienne plus fort. D'autre part, l'effort n'est pas seulement un acte de renforcement, d'accélération, il peut être aussi un acte d'arrêt, un acte de suspension. D'une manière générale, on peut dire que ce sont les insuffisances ou les excès de l'action, les désordres et les irrégularités de son exécution qui nécessitent un ajustement et un contrôle et déterminent l'intervention de la régulation, de l'effort. Janet insiste sur cette addition de force qui caractérise l'effort. Il reproche à la description des modifications respiratoires et organiques de ne pas tenir compte de cette addition. Cette description répond simplement aux caractères des actes forts. En plus de ces attitudes qui accompagnent les actes forts, il faut tenir compte des grimaces irrégulières, accidentelles au cours d'une action ne les comportant pas d'ordinaire, et qui seraient l'indice d'un véritable effort, c'est-à-dire d'une addition de force. D'où il suit : « Que le diagnostic des modifications périphériques en rapport avec l'effort n'est pas aussi facile qu'on le croyait, quand on n'a pas d'abord étudié l'ensemble de la conduite de l'effort (1).

L'effort ne se borne pas à accroître l'efficience par l'augmentation de la force, dans certains cas l'effort est caractérisé par la prolongation, la répétition, la vitesse plus grande avec laquelle on répète l'acte. Dans d'autres cas l'efficience est augmentée non pas par l'accroissement de l'action mais par l'arrêt de l'action. Cet arrêt n'est pas définitif, il n'est ni le résultat de la fatigue ni celui de l'échec, c'est une suspension volontaire de l'acte jusqu'à ce qu'il puisse être exécuté dans de meilleures conditions. Dans ce cas, l'effort prend la forme de l'attente, acte d'une grande importance.

---

(1) P. Janet : Opus cité, p. 164.

Les actes différés sont pénibles à accomplir, car il faut maintenir la tendance en éveil et l'empêcher de retomber dans sa phase de latence. Ce phénomène de latence est visible chez l'animal qui guette sa proie. L'animal suspend l'action de sauter jusqu'à ce que la proie soit à sa portée.

L'attention elle aussi est une autre forme de l'acte suspensif ; alors que dans l'attente il s'agit d'une conduite future, dans l'attention l'effort se localise sur les actions actuelles. Ce qui caractérise l'attention, ce n'est pas tant les mouvements qui l'accompagnent que l'arrêt de l'action initiale, et son maintien à la phase de l'érection. Dans l'attention c'est l'acte secondaire qui inhile plus ou moins l'acte primaire et tire à lui, pour les ajouter aux siennes, les forces disponibles de l'acte primaire.

On peut dire que d'une manière générale l'arrêt de l'action initiale est déterminé par l'éveil d'une tendance opposée, par les souvenirs des échecs précédents.

L'effort ne se présente pas sous le même aspect chez les différents individus, de plus il change de forme suivant les actions auxquelles il s'applique. La douleur par exemple ne semble pas pouvoir être l'objet d'un effort, c'est un réflexe d'écartement. Pourtant on peut arriver à augmenter sa douleur et à la transformer en souffrance. Des malades devenus incapables d'effort deviennent incapables de souffrir, « ils ont perdu la souffrance, ce raffinement de la douleur, qui dépend de l'attention et de l'effort dans laquel toute la personnalité collabore pour rendre l'écartement fort et durable. « A côté de la souffrance, on pourrait citer d'autres phénomènes analogues, comme le dégout et la peur, et où l'on peut distinguer deux niveaux, un niveau qui se réduit à une simple réaction et un niveau plus compliqué où interviennent l'effort et le désir.

4. — Nombreuses sont les tendances qui déterminent les actes secondaires. Un très grand nombre d'efforts sont caractérisés par l'intervention des tendances alimentaires, des tendances à la recherche d'un abri ou d'une protection, des

tendances sexuelles. Mais la tendance la plus fréquente, est celle que Janet appelle la tendance personnelle : « Un acte impersonnel qui n'est en aucune manière en rapport avec les instincts personnels ne peut guère être un acte fait avec effort : « dès qu'il y a effort, il y a intérêt, il y a instinct personnel et personnification des actes primaires ».

La personnalité intervient fréquemment dans l'évolution de la réaction de l'effort et la rend plus complexe.

Parmi les facteurs qui rendent plus complexe l'effort il faut citer le langage ; l'expression de l'acte par le langage le modifie, l'expression de l'effort en particulier le perfectionne et le rend plus efficace. Après l'avoir exprimé aux autres, on l'exprime à soi-même ; c'est quand l'effort est accompagné de croyance qu'il peut devenir volontaire. Les efforts primitifs ne sont pas accompagnés de volonté ; ils sont des simples régulations des actions un peu plus élevées que les régulations de l'équilibre. Toute activité n'est pas volontaire, pour qu'elle le devienne il faut que l'acte à faire soit d'abord présenté sous forme verbale et c'est l'acte volontaire qui le rend effectif en rattachant par une activité spéciale la formule verbale de l'acte à son exécution motrice. La volonté de l'effort est une complication de l'effort. Au stade rationnel l'effort subit une métamorphose remarquable, il devient une fonction régulière, il s'organise comme une habitude et une tendance qui fonctionne régulièrement et qui donne sa note à presque tous les actes. Les tendances rationnelles font partie des tendances ergétiques qui règlent la conduite du travail. Les régulations de l'effort peuvent se présenter aussi sous la forme de conduites du hasard et de conduites de la liberté. Dans ces conduites du hasard et de la liberté, apparaissent les tendances progressives qui transforment en une action particulière et spéciale ce qu'il y a de nouveau et d'inattendu dans le mouvement d'un être vivant. Effort, progrès, adaptation, sont des notions solidaires et jusqu'à un certain point synonyme.

Toutes ces complications de l'effort interviennent plus ou moins pour donner au sentiment de l'effort sa tonalité

propre. Le sentiment de l'effort n'est pas autre chose que la prise de conscience de la conduite de l'effort avec toute la complexité que lui donnent les conduites du langage et de la croyance. Les notions de pouvoir, de volonté, de personnalité, joueront aussi un grand rôle. De plus, le sentiment de l'effort se ressentira de l'influence d'autres sentiments qui peuvent l'accompagner ou le suivre tels que les sentiments de fatigue, de tristesse, de joie.

Les conduites du hasard et de la liberté où apparait le caractère aléatoire et incertain de l'effort, son caractère d'être un risque et une gageure introduisent leur note mais seulement dans les formes supérieures. En un mot, le sentiment de l'effort n'est pas un simple reflet, c'est une conduite qui se superpose à une autre conduite et qui la complique. Il est d'autant plus complexe que l'est l'effort auquel il correspond : « Le sentiment de l'effort chez un homme supérieur qui contient des conduites de liberté et des conduites de risques n'est plus du tout le même que le sentiment du petit chien qui saute plus fort avec quelques attitudes de fatigue ou de satisfaction ».

5. — La réaction de l'effort, si elle évolue d'une façon normale et devient de plus en plus complexe et efficace, peut aussi présenter des troubles, insuffisance ou exagération. Les insuffisances présentent plutôt un caractère négatif et rentrent dans le cadre des études sur les états d'inaction morose et de fatigue ; quant aux exagérations, leur étude est plus significative pour le problème de l'effort en lui-même.

Janet groupe les exagérations de l'effort dans ce qu'il appelle l'état de pression. Cet état comprend : les agitations forcées, les tics, les manies, l'impulsion, l'obsession, la systématisation, l'inquiétude, l'ennui, l'entêtement, la colère, etc... Dans l'agitation forcée, caractérisée par la manie des efforts, les malades font des efforts absurdes, trop forts et trop répétés et à propos d'actions qui ne paraissent pas les justifier. Ils accomplissent ces efforts physiques exagérés pour lutter, disent-ils, contre des pensées obscènes, pour remplacer des efforts moraux qu'ils sont incapables d'accomplir ; ou

bien, comme dans l'obsession et la systématisation, pour se remonter, pour se sentir plus à l'aise et avoir la pensée plus ferme. Dans un grand nombre de manies apparaissent aussi des efforts exagérés : manie de perfectionnement, de délibération indéfinie, de la précision, des points sur les i, des calculs exagérés. Dans l'inquiétude, il y a un élément d'effort exagéré, celui de la précaution perpétuelle ; l'inquiet qui est une sorte d'obsédé, mais dont l'obsession est encore mal localisée, se livre à une surveillance exagérée, prend des précautions démesurées, soit pour fuir, soit pour se défendre.

L'ennui lui aussi est une manifestation de l'effort exagéré. Il est vrai que l'enneui prend diverses formes ; mais ce qui le caractérise c'est la recherche exagérée de la distraction. L'ennuyé n'est pas l'indifférent qui ne désire plus, au contraire, il peut avoir des désirs, peut se passionner et faire preuve d'effort, seulement il change sans cesse l'objet de ses efforts en constatant assez rapidement leur insuccès. De plus, le véritable ennuyé éprouve ce besoin de l'effort et cherche à le justifier et à l'alimenter, il est incapable de flânerie et de détente, il ne sait plus goûter le repos.

Dans tous ces troubles, qui caractèrise l'état de pression, l'effort peut être plus ou moins conscient, plus ou moins mêlé à d'aures sentiments, à ceux de la joie ou de la fatigue ou de la tristesse et ces sentiments peuvent dissimuler le sentiment de l'effort. En outre, les efforts sont plus ou moins systématisés, tantôt ils gardent toujours une certaine forme particulière, comme dans les entêtements et les obsersions, tantôt ils restent absolument vagues et généraux comme dans les ennuis et les agitations diffuses. Dans tous ces cas, la réaction de l'effort est déclenchée par des irrégularités, des insuffisances de l'exécution de l'acte primaire luimême et surtout par un ralentissement de la consommation.

Ce qui différencie l'homme normal de celui qui ne l'est pas, c'est que le premier sait prendre son parti des insuffisances de l'action et du sentiment ; il se rend compte des lacunes de sa conduite et s'il ne réussit pas à l'améliorer, il l'abandonne au lieu de se livrer à des recherches indéfinies

et à se plaire à rechercher les lacunes et à se battre contre des moulins à vent. Le malade ne sait ni améliorer l'action ni abandonner la lutte, il ne sait plus se reposer.

6. — Nous venons de passer en revue les caractéristiques de l'effort, les tendances qui le déclenchent et l'alimentent, ses diverses modalités normales et ses exagérations. Nous allons à présent dire un mot du rôle psychologique que Pierre Janet lui attribue.

Parmi les notions fondamentales de la conscience psychologique, celle de durée a source dans l'effort. Le commencement de la durée, le premier acte qui est fait relativement à la durée, c'est l'effort de continuité, l'effort de continuation. Pour qu'il y ait durée, il faut qu'il y ait un commencement, une continuation et une terminaison de l'action. Or ces trois temps sont marqués par trois sortes d'efforts, différents en force et en intensité.

1. — L'effort de démarrage qui demande une quantité de force immédiate.

2. — L'effort de continuation qui est un effort à peu près régulier et qui ne doit pas être très considérable.

3. — L'effort de terminaison, de freinage, qui est surtout une force qui se gaspille. Quand le gaspillage est profitable, il constitue la conduite du triomphe.

Le sentiment que les objets durent n'enveloppe pas seulement le passé mais surtout le présent. L'effort joue un rôle important dans le sentiment que nous avons de la réalité et de la présence des choses. Seulement, en ce qui concerne la présence, il faut joindre à l'effort, sinon la consommation complète de l'action, du moins la représentation du succès possible.

Tous les troubles du sentiment du réel et du présent, les phénomènes du déjà-vu ou de la fausse reconnaissance ou de dédoublement, le sentiment que la réalité est un rêve pro-

vient d'une déficience de l'effort de synthèse qui accompagne chaque perception normale (1).

Un acte est d'autant plus réel qu'il exige plus d'effort et plus les efforts deviennent efficaces plus la réalité et l'intérêt augmentent. On pourrait distnguer trois attitudes : réaliste, spectaculaire, cogitative, dans lesquelles le caractère de réalité et de présence s'affaiblit en passant de l'une à l'autre et dans la mesure où les efforts deviennent de moins en moins pénibles. Ainsi l'effort est d'autant plus pénible que l'action doit se dérouler dans le monde extérieur et s'accompagner de mouvements et de paroles. L'effort intellectuel est le plus facile et se rapproche de la rêverie et de l'imagination car dans un pareil effort « nous n'ajoutons plus à la représentation aucun acte extérieur, ni des membres, ni de la parole, les représentations ne sont plus que de la pensée, sans aucune présence réelle ».

7. — Pierre Janet, au cours de ses observations sur l'effort, rencontre certains problèmes que l'observation toute seule ne semble pas devoir résoudre complètement. L'un de ces problèmes est celui qui est relatif à la notion de force en psychologie. Janet remarque que ce qui a retardé l'étude des problèmes psychologiques de l'effort et de la régulation des actions en général, c'est qu'on craignait de voir renaître dans la force psychologique une des formes des forces métaphysiques tant redoutées.

De même que la physique a dû se résigner à parler de la force de l'électricité, et de la force de la vapeur sans savoir au fond de quoi il s'agit, la psychologie elle aussi doit se résoudre, afin d'exprimer les différences qu'il y a entre deux hommes dont l'un soulève cinquante kilos et l'autre deux kilos seulement, dont l'un peut parler une heure et l'autre cinq minutes seulement, dont l'un peut calculer avec attention, pendant des heures et dont l'autre est dans les nuages après cinq minutes d'attention, de faire appel à la notion de force. Seulement Janet semble oublier que la première no-

(1) Bergson lui aussi explique en partie la fausse reconnaissance par une insuffisance de l'élan de conscience, par un abaissement du ton de l'attention.

tion de force n'a pas sa source en dehors de nous, dans la force du vent et celle des vagues ; mais en nous à la suite d'une expérience personnelle, la notion de force physique est copiée sur celle de force psychologique, quelle que soit sa confusion, la notion de force nous est donnée uon par l'observation du monde extérieur, mais par introspection.

On juge de la quantité de force d'une action par ses effets : « une action est plus forte qu'une autre, quand elle est plus puissante, plus durable, plus rapide. La tendance qui n'est pas autre chose que la disposition de l'organisme à réagir à des stimulations déterminées par des mouvements déterminés, c'est-à-dire à faire certaines actions, aura une charge plus ou moins forte suivant que les actes auront plus de puissance, de durée, de rapidité ».

Il faut bien admettre qu'il existe dans tout organisme une réserve de force et d'énergie, qu'il y a un fond de tendances qui sont chargées de force et qu'une tendance suffisamment stimulée entre en activité. Mais il s'agit de savoir si toute la vie psychologique se réduit à ces jeux de tendances qui se déchargent et se rechargent, et s'il n'y a pas autre chose que du mouvement. Car il est de toute importance de savoir si vraiment il n'existe pas quelque chose d'indépendant du mouvement et qui serait la pensée ; si la pensée n'est pas autre chose qu'une action intériorisée, si elle n'est pas en somme la forme la plus élevée et la plus pleine de la force ? Le point fondamental de la psychologie de Janet, c'est que l'action est non seulement antérieure à la pensée et que la pensée n'est au fond qu'une forme d'action plus facile que les actions qui exigent du mouvement, mais ce point de vue fondamental peut-il être sérieusement défendu même en restant sur le terrain de la psychologie du comportement, telle que la conçoint Janet en ne faisant appel qu'à ses propres arguments ?

Nous ne le pensons pas et nous allons le montrer à propos du problème de l'effort. Janet reconnaît lui-même que dans la question des actes secondaires dont fait partie l'effort : « il ne s'agit pas du tout d'une simple association des idées. Les actes secondaires ne font pas partie intégrante

des actes primaires et n'apparaissent pas par une simple *restitutio-ad integrum,* ces actes sont amenés à ce moment, par une véritable évocation active. Le mouvement d'un être vivant n'est pas identique au mouvement d'un objet physique, au mouvement de la lune et du soleil ; personne n'a jamais dit que la vie fût absolument identique au phénomène de la pesanteur. Sans entrer dans les interprétations, disons simplement que l'acte vivant tient plus compte du temps et de l'évolution que le mouvement physique. Il y a dans tout acte deux parties, une partie stable toujours la même, qui se répète toujours la même à chaque stimulation et une partie, changeante essentiellement nouvelle et créatrice, susceptible de modifications en rapport avec les circonstances (1).

8. — Les actes secondaires diffèrent donc des actes primaires, ils n'ent sont pas un simple perfectionnement. Ce sont des actes qui sont amenés, par une véritable évocation active, de plus, ils ne se comportent pas comme les actes primaires, leurs effets ont un caractère d'imprévisibilité et de nouveauté, ils constituent la partie de l'acte vivant qui est « essentiellement nouvelle et créatrice ». Janet reconnaît que les lois de la dynamique psychologique ne peuvent être établis avec rigueur et présentent souvent des modalités qui déroutent. Dans l'influence exercée par une tendance secondaire sur une tendance primaire, il y a des phénomènes de drainage des forces qui s'effectuent tantôt en faveur de l'une, tantôt en faveur de l'autre, « le fait curieux et peu explicable c'est que ce drainage se fait tantôt dans un sens, tantôt dans un autre (2).

Comment comprendre cette évocation active, ce pouvoir créateur de la tendance secondaire, comment expliquer ce caractère d'imprévisibilité et d'indétermination que présente

(1) P. Janet, de l'Angoisse à l'Extasse, T. II p. 182.

(2) Ce fait curieux s'explique en partie si l'on fait intervenir l'influence des valeurs morales et sociales qui exercent une influence indubitable sur nos actions. W. James trouve que l'une des caractéristiques de l'effort c'est d'être une force originale, non assimilable aux forces physiques et qui va dans le sens de la plus grande résistance. L'apparition non déterminée de l'effort et ses effets imprévus l'ont amené à considérer l'effort comme une variable indépendante.

la tendance secondaire si l'on pose comme postulat fondamental que le mouvement est premier et que la pensée dérive du mouvement ? Janet n'esquive pas le problème, il en propose une solution, mais cette solution à notre avis reste incomplète.

Ce qui provoque l'éveil de la tendance secondaire qui va modifier l'acte primaire c'est une fonction particulière, la fonction de régulation de l'action. Cette fonction de régulation de l'action n'éveille pas seulement la tendance secondaire mais c'est elle qui l'utilise. « L'évocation des tendances secondaires à tel ou tel degré d'activation, et en particulier l'évocation de la tendance personnelle, puissante réserve de forces, est utilisée par cette fonction de régulation des actions » (1). Janet personnifie en quelque sorte cette fonction, il la considère à part, il l'a fait intervenir à certains moments et ses efforts sont nouveaux et créateurs. Cette fonction qui règle l'action, qui la transcende en quelques manières, ne serait-elle pas la pensée, puisqu'elle présente toutes les caractéristiques de la pensée : activité, nouveauté, imprévisibilité, et pouvoir créateur ? Elle ne peut l'être pour Janet, puisque la pensée est inférieure à l'action, puisqu'elle n'a pas comme l'action le caractère de la présence réelle (2).

Janet, pour expliquer cette fonction de la régulation de l'action, l'assimile aux fonctions régulatrices connues en physiologie : régulation de la circulation, régulation de la respiration (182). Mais cette assimilation n'est pas valable, pour la bonne raison que Janet trois pages plus haut la reprouve implicitement dans le passage suivant qui vaut d'être cité par sa grande portée au point de vue psychologique : « les mots « force d'un acte, charge d'une tendance » n'ont de sens que dans le langage psychologique et se rapportent à des faits qui n'ont été observés que psychologiquement. En donnant à ces mots un sens physiologique, nous faisons simplement une traduction et cela n'est pas sans inconvénients

(1) Op. Cit. p. 182.

(2) Si nous n'ajoutons plus à la représentation aucun acte extérieur ni des membres ni de la parole, les représentations ne sont plus que de la pensée sans aucune présence réelle. Op. cit., p. 198.

car les traductions sont souvent difficiles et elles exposent toujours à des contre-sens. Les observations psychologiques sur : la force, la faiblesse, les arrêts, les reprises des actes, etc..., sont beaucoup plus nombreuses et plus exactes que les connaissances physiologiques sur les forces nerveuses. Je crois donc que sur ce point le psychologue a tout avantage à rester chez lui et à exprimer les faits psychologiquement (3).

9. — Janet côtoie sans l'approfondir le problème essentiel qui nous occupe, à savoir comment expliquer l'apparition de l'effort, de cette force additionnelle, de cette fonction de régulation. A la page 183, il reprend ce problème sous une autre forme, mais l'explication tourne en rond et partis de l'action, nous sommes ramenés à l'action sans comprendre comment, en présence de l'insuffisance ou des irrégularités de la tendance primaire, naît l'effort qui régularise le déroulement de cette tendance. « Il est probable, dit-il, qu'il y a des intermédiaires entre cette insuffisance de la charge et le déclenchement de la réaction de l'effort. Mais Janet se

---

(3) Op. Cité p. 179 — A propos des résultats que la physiologie pourrait mettre au service de la psychologie pour éclairer cette origine de la force des tendances secondaires Janet se demande «où faut-il placer cette force, cette charge ? Les physiologistes répondent sans doute : «dans les centres nerveux correspondants à l'action». Cela n'est pas démontré ni même suffisant, car, remarque-t-il, il est probable que la force des actes ne dépend pas conséquemment de l'état d'un centre, mais de l'état de plusieurs organes, des muscles, des glandes, des vaisseaux etc. Cette restriction faite, Janet consacre à la fin du T. II De l'Angoisse à l'Extase (p. 598-604) quelques pages à la question de la localisation anatomique des sentiments. Il rappelle l'interprétation des sentiments par les fonctions du sympathique, puis les travaux de Spencer, Laycock, Tuke, Marshall Hall, Brown-Séquard, Meynert, Lange, qui ont cherché à localiser le sentiment dans le bulbe, enfin les auteurs qui soutiennent que les passions et l'intelligence sont des fonctions de même ordre et doivent être localisées également dans la couche corticale. Aucune de ces interprétations ne s'est imposé d'une manière intéressante... La région la plus intéressante pour la psychologie serait la région intermédiaire entre le bulbe et l'écorce. Les nouvelles recherches ont porté sur le noyau caudé (Pagano) sur les centres optiques (Rosenbach 1886, Nothnagel, Huguenin, A. Magnus, Bechterew), le thalamus en particulier (Head). Ce qui retient surtout l'attention de Janet, ce sont les travaux de J. Camus, continués par M. Lhermitte sur des centres spéciaux à la base de l'encéphale, au voisinage du troisième ventricule et de l'acqueduc. Cs centres qui seraient voisins de la région qui semble jouer un rôle important dans le mécanisme du sommeil et du réveil ont un rôle de régulation générale pour les fonctions cérébrales dans leur ensemble. Janet constate un accord entre la fonction régulatrice des centres et sa conception du sentiment comme régulation de l'action.

contente de montrer que ces intermédiaires... sont nécessaires sans dire quels sont ces intermédiaires ; « ce sont, dit-il, des choses qui font partie de l'organisation de la tendance ». Voici, en quels termes Janet signale ce qu'il appelle un dernier problème : « Toute tendance, puisqu'elle ne fonctionne pas perpétuellement est considérée non seulement par la nature de l'acte qu'elle produit, mais encore par la nature de la stimulation qui en provoque l'éviel et l'activation (183).

Quelle est donc la nature de la stimulation qui provoque l'effort ?

Voici la réponse de Janet : « Nous savons que l'effort n'est pas une conduite intérieure déterminée par une stimulation interne précise : il faut admettre que l'effort a son point de départ à l'intérieur de l'organisme ».

Il semble que nous nous éloignons de l'action externe qui est au sommet de la hiérarchie des actes psychologiques ; selon Janet, puisque l'effort n'est pas une conduite externe, que la stimulation non plus n'est pas externe et que le point de départ de l'effort est à l'intérieur de l'organisme. Janet va-t-il enfin nous donner la solution tant cherchée et tant attendue ?

Il se contente de conclure en disant : « L'effort a pour point de départ des phénomènes psychologiques, c'est-à-dire des actions, cela nous ramène à l'opinion courante, que l'effort se surajoute à l'action ».

On a l'impression de tourner dans un cercle vicieux qu'on ne veut pas rompre délibérément. A l'obscurité des choses faut-il encore ajouter la confusion amenée par des mots tels que externe et interne, qu'on prend tantôt l'un pour l'autre sans prendre la peine de les définir d'une façon exacte ? Certaines recherches psychologiques ne seraient-elles donc qu'un vain jeu de mots ou plutôt un jeu de mots dangereux ? Quoi qu'il en soit, si l'analyse de Pierre Janet ne va pas jusqu'à étudier la nature même de l'effort et la nâture de la force qui le sous-tend, elle présente d'un autre côté des aperçus très vivants et certaines notions fort utiles, comme celle de la fonction de la régulation de l'action.

STRUCTURE FONDAMENTALE
DE L'ORGANISME VIVANT *

Parmi les problèmes fondamentaux qui s'imposent à l'attention du psychologue, il en est un qui ne cesse de faire l'objet de nombreuses controverses : c'est celui de la méthode. L'idéal du savant et du philosophe a toujours été de formuler les règles d'une méthode universelle s'appliquant à l'étude de tous les faits naturels. Dans les sciences physiques et chimiques, les progrès réalisés militent d'une manière préremptoire en faveur de la méthode d'analyse expérimentale. Cette méthode a été appliquée à la biologie et à la psychologie et elle a donné de nombreux résultats partiels. Mais si la méthode expérimentale est indéniablement la seule méthode scientifique, son application à des domaines variés soulèvent de nombreuses difficultés. En passant des sciences physico-chimiques aux sciences biologiques, un nouveau phénomène apparaît, celui de la vie et de l'organisation de l'être vivant. Il s'agit alors de savoir dans quelle mesure les manifestations vitales sont réductibles à des phénomènes physico-chimiques (1) et si le mécanisme avec ses procédés analytiques suffit pour expliquer les faits biologiques et le comportement total de l'être vivant. Le vieux conflit entre le mécanisme d'une part et le vitalisme et le finalisme d'autre part est toujours pendant. Les tenants des deux doctrines opposées se réclament tous deux de la méthode expérimenale. Ce conflit ne tient pas seulement à une question de sentiment et d'appréciation subjective comme le soutient E. Rabaud (2). Nous estimons que le point de vue finaliste mérite d'être considéré et discuté. Il est vrai que les termes

---

* From the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. VII, July, 1944.

1. Un bon guide dans l'étude de ce problèmes est l'ouvrage magistral de J. Lefèvre, Manuel critique de Biologie, 1048 pages, Masson, Paris, 1938.

de mécanisme, vitalisme, finalisme, volontarisme, etc..., présentent des acceptions diverses et nuancées et leur emploi systématique contribue souvent a obscurcir le débat. Les deux thèses opposées, formulées brutalement sous la forme d'un dilemme, sont certainement inconciliables et l'acceptation de l'une entraîne forcément le rejet de l'autre.

Les mécanistes professent que le type achevé des sciences de la nature est la physique et que par conséquent les lois de la physique doivent être appliquées à tous les phénomènes de la nature, y compris les phénomènes vivants. La biologie et la psychologie ne seraient que des subdivisions de la physique. Beaucoup de biologistes, sans nier la valeur des lois physico-chimiques pour l'explication des faits organiques isolés, considèrent pourtant que l'analyse physicochimique ne suffit pas pour résoudre le problème fondamental de la nature des processus organiques. Cette méthode analytique est de même impuissante à expliquer d'une manière satisfaisante les réactions motrices qui s'intègrent dans un comportement qui se déroule dans un temps plus ou moins long et qui est marqué par des étapes successives qui se soutiennent et s'appellent mutuellement. L'apparition de la vie fait émerger de nouvelles qualités et de nouvelles organisations qui exigent une nouvelle méthode d'investigation. Cette nouvelle méthode demeure basée sur l'observation et l'expérimentation, mais sur le terrain biologique et celui du comportement l'observation et l'expérimentation n'ont plus affaire à des faits qui peuvent s'isoler et se fragmenter sans perdre leur qualification, mais à des touts organisés, et l'observation ainsi que l'expérimentation constatent des phénomènes étrangers en apparence au monde physico-chimique tels que les tendances, les besoins, la recherche, consciente ou non, peu importe, d'une fin. Alors que la physique étudie des phénomènes de masse par des procédés quantitatifs et statistiques, la biologie a pour objet d'étudier des individus organisés, des systèmes vivants partiellement autonomes et qui possèdent une histoire. Il est vrai que dans les faits

---

2. E. Rabaud : « Psychologie animale et finalité ». Journal de Psychologie, 34ème année, 1937, pp. 305-323.

physiques se rencontrent des unités qui ont leur organisation propre, mais ces unités échappent vu leur petitesse à l'analyse quantitative. Mais quand le physicien s'attache spécialement à l'étude de ces unités, il ne peut s'empêcher souvent d'élargir la terminologie mécaniste et de faire appel à des notions qui sont propres à l'étude de l'être vivant, telles que celles d'individualité, de tendance et d'autorégulation. Nous verrons plus loin que la notion de système avec ses qualités propres d'unité et d'organisation interne, trouve aussi place dans les conceptions physiques.

Le vitalisme, qui dénonce l'étroitesse de vue des explications mécanistes, se présente sous deux aspects différents dès qu'il s'agit de remplacer l'explication mécaniste par une autre plus adéquate aux phénomènes vivants. Ces deux aspects sont l'un positif et l'autre méthodologique. Le point de vue positif postule l'existence d'une entité extra-spatiale qui s'ajouterait à la causalité mécaniste pour la compléter et la diriger. Cette entité reçoit des noms différents selon les auteurs : élan vital pour Bergson, entéléchie pour Driesch, hormé pour Mac Dougall. Les vitalistes méthodologiques rejettent et critiquent vivement de pareilles entités et préfèrent laisser en suspens le problème de l'explication totale pour se contenter de décrire les faits vitaux en tenant compte de leur spécificité et de leurs qualités d'ensemble. Ils soutiennent que les faits d'autorégulation et d'adaptation ne peuvent être expliqués par les principes mécanistes et préfèrent considérer que le facteur essentiel des phénomènes vitaux est encore inconnu.

Cette attitude nous met sur la voie d'une véritable solution et le dilemme vitalisme-mécanisme sera levé si l'on assigne à chacune des sciences naturelles son objet propre d'étude. Le savant d'une manière générale cherche à décrire et à expliquer la nature en montrant les multiples relations que soutiennent entre elles les diverses conditions des phénomènes. Sa principale préoccupation est de prédire et de contrôler les faits et les processus naturels. Mais ces faits ne se présentent pas sous le même angle en physique, en chimie et en biologie. La science physique ne peut pas s'éri-

ger en science universelle sous prétexte que les composants des corps inertes et vivants sont en dernière analyse les mêmes. De même, toutes les lois physiques ne peuvent être appliquées telles quelles aux phénomènes chimiques et biologiques. Il y a des lois scientifiques d'une portée générale qui marquent l'interdépendance des trois grandes sciences qui constituent le groupe des sciences naturelles, mais à l'intérieur de ce groupe chaque science a droit à une certaine autonomie et peut faire appel à des concepts propres pour rendre raison de certains faits spécifiques. Les concepts d'individualité, d'organisation, d'autorégulation, d'adaptation et enfin d'intégration sont fondamentaux en biologie, alors qu'ils sont de moindre importance en physique ou en chimie. Le point important qui mérite d'être souligné et qui légitime l'autonomie dont doit jouir la biologie est que l'organisme vivant est un système dynamique qui tend à se maintenir dans un milieu. Une méthode saine pour une science compréhensive du comportement de l'être vivant, animal et homme, doit être établie d'après les caractéristiques propres du système vivant et ce sont ces caractéristiques qui doivent tout d'abord être mis en lumière.

Système et Forme. — Les notions d'organisme et d'organisation impliquent l'existence d'un certain ordre, d'un certain nombre de relations internes qui concourent à la réalisation du tout. Ce caractère d'organisation que possède l'être vivant a toujours été reconnu et n'a jamais fait l'objet d'un doute ; seulement certains savants ne lui ont pas accordé dans leurs études l'importance qu'il mérite, et sa signification profonde a échappé à une méthode exclusive et systématique d'analyse.

Pour ne pas maintenir une coupure trop tranchée entre le monde inorganique et le monde organique, on a cherché à établir plutôt les propriétés communes à ces deux mondes. L'observation courante a toujours constaté la communauté de certaines propriétés telles que l'inertie, la solidité, la pesanteur. Ces propriétés générales de la matière ont justifié aux yeux des mécanistes l'application universalisée des lois physico-chimiques, telles qu'elles ont été établies par la méthode

analytique, à tous les faits de la nature. Mais de bonne heure, la biologie a reconnu à l'organisme vivant des propriétés d'ensemble que l'analye faisait disparaître, mais qui ne s'imposaient pas moins à l'observation du savant. Les notions de système, de forme, de tension, de dynamisme auxquelles ont eu recours philosophes et savants exprimaient d'une manière plus ou moins claire l'existence de ces propriétés qui résistaient à toute analyse.

Mais l'observation de certains faits physiques a montré que l'organisation n'est pas une propriété des seuls êtres vivants, mais qu'elle se retrouve dans la nature entière, à diverses échelles et avec plus ou moins de complexité. Non seulement en chimie, mais en physique aussi on rencontre des systèmes qui présentent de grandes analogies avec les systèmes vivants. Mais il convient de faire remarquer que cette similitude qui rend plus grande la continuité entre le monde inorganique et le monde organique ne doit pas détruire l'autonomie relative de chacune des sciences de la nature ; elle contribuera tout au moins à donner un fondement plus large et plus stable aux recherches biologiques et psychologiques qui concurremment avec la méthode analytique tendront à donner une description aussi complète que possible et un commencement d'explication des manifestations de la vie et du comportement, prises dans leur ensemble.

Avant de traiter de l'organisme vivant et de ses propriétés intrinsèques, nous dirons quelques mots de la notion de système en général. Un système peut être défini comme une unité ou un tout, formé de plusieurs parties ; mais ces diverses parties considérés comme un tout ne constituent de véritable système qu'à la condition qu'il existe entre elles des relations internes et réciproques. Nous avons d'une part les éléments, puis les relations réciproques que soutiennent entre eux les éléments, enfin le tout ; un système présente ainsi le caractère de la pluralité dans l'unité. Ces relations internes peuvent présenter de nombreuses variétés, peuvent être plus ou moins complexes, plus ou moins stables. Des changements internes peuvent se produire, mais sous ces changements la permanence du tout doit être sauvegardée sinon le système

est détruit. Il faut que les relations fondamentales qui maintiennent l'unité du système ne soit pas altérées en dépit des changements internes, et c'est dans cette mesure qu'on peut parler d'un système qui reste le même dans le temps et dans l'espace. La nature inorganique présente des cas où les relations internes qui existent entre les parties du système soient telles que toute menace de changement est suivi automatiquement par des changements de compensation qui tendent à conserver constant le système menacé et ce dans certaines conditions de température et de pression.

Mais cette tendance à la conservation n'est pas la propriété fondamentale que présente un système, ce n'est qu'une propriété dérivée. Si grâce aux relations internes que soutiennent entre eux les éléments du système, celui-ci se maintient en équilibre avec le minimum de dépense d'énergie, les éléments à leur tour sont modifiés par leur position à l'intérieur du système. Si ces éléments sont isolables logiquement, ils ne peuvent l'être en fait, sinon l'intégrité du système est menacée. Non seulement la soustraction d'un ou de plusieurs éléments, détruit le système, mais certains déplacements partiels y suffisent. Le système ne peut donc être considéré comme une sommation de parties discrètes, il présente de nouvelles propriétés qui ne peuvent s'expliquer par la propriété de chacun de ses éléments et qui sont dues à l'organisation des éléments et à leur mode de connexion à l'intérieur du système. La notion de système se rapproche ainsi de celle de la forme telle que l'entendent les Gestaltistes. Köhler (1) a étudié de près la propriété des systèmes physiques qui présentent les caractères des formes telles qu'elles sont définies dans la psychologie de l'école. Ces systèmes physiques manifestent des propriétés d'ensemble qui contrastent avec les propriétés des parties. Ils sont plus que la somme de leurs parties et ne sont pas additifs. De plus, ils sont transposables, c'est-à-dire que les propriétés du tout sont indépendantes de

1. Cf. à ce sujet l'ouvrage de W. Köhler : Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationören Zustand, Eine naturphilosophische Untersuchung, Erlangen, 1920. Un résumé détaillé de cet ouvrage a paru en anglais dans l'ouvrage de W.D. Ellis, A source book of Gestalt Psychology, Kegan Paul, London, 1938.

la matière particulière qui les compose et des valeurs quantitatives qui sont en jeu, tant que les relations nécessaires à la formation du système subsistent.

Les formes physiques satisfont ainsi au double critère qu'Ehrenfels (1) avait établi pour les mélodies et les figures : 1) Une forme est autre chose ou quelque chose de plus que la somme de ses parties. 2) Elle est transposable. A ces deux critères d'Ehrenfels, Köhler ajoute un troisième : Ce qui caractérise une collection sommative d'éléments c'est que ces éléments restent identiques à eux-mêmes et ne subissent aucune altération ; tandis que dans une « Gestalt » les éléments qui la forment deviennent autres par leur intégration et par les relations qui découlent de cette intégration... Chaque élément est déterminé par sa place dans le tout et son déplacement modifie cet élément et les autres éléments du système.

Les propriétés que nous avons reconnues au système en général : propriétés de l'ensemble qui ne sont pas la somme des propriétés des parties, mais qui découlent des relations spéciales qui naissent de l'organisation de ces parties à l'intérieur du tout et ensuite la tendance que manifeste tout système à se conserver et à compenser les changements perturbateurs en vue du rétablissement de l'ancien équilibre ou d'un nouvel équilibre qui ne modifie pas l'aspect général du système dans le temps et dans l'espace, se retrouvent, mais avec une plus grande complexité, dans l'organisme vivant.

L'organisme vivant, son caractère d'unité et d'intégration. — L'organisme vivant présente par excellence la réalisation de la relation : pluralité dans l'unité. Les connexions qui existent entre les diverses parties de l'organisme, la subordination des parties au tout font qu'on a affaire à un individu, c'est-à-dire à un tout ou à une unité qui ne peut se fragmenter ni se diviser sans perdre son caractère spécifique. Ces connexions des diverses parties entre elles sont à la fois d'ordre structural et fonctionnel. Dans les organismes

1. Ch. v. Ehrenfels, Ueber Gestaltqualitäten. Viert. f. wiss Phil., 1890, pp. 249-292.

suffisamment évolués, la totalité est réalisée par le système nerveux. Ce point a été mis en lumière par les travaux de Sherrington (2) et mis à contribution par les théoriciens de l'école organiciste (3). Dans son étude sur le développement de l'amblystoma, Coghill (4) a montré l'étroite corrélation qui s'établit entre le développement du système nerveux et de ses parties et celui du comportement. Ce dernier avec ses caractères typiques ne se présente pas tout d'abord d'une manière fragmentaire et désordonnée pour s'intégrer ensuite, mais il est l'expansion progressive d'une forme totale parfaitement intégrée dès le début et c'est au cours du développement que se produit l'individuation des structures partielles qui deviennent peu à peu et à des degrés différents discrets. Même avant l'apparition du système nerveux l'embryon est parfaitement intégré. Avant l'intégration due au système nerveux il existe un processus non-nerveux d'intégration. Ce processus se retrouve chez les organismes inférieurs qui ne possèdent pas de système nerveux. Ces organismes comme les organismes supérieurs présentent une propriété de polarisation. L'activité glandulaire et musculaire se fait dans certaines directions marquées par des axes physiologiques, des lignes de clivage. Cette notion de « gradients physiologiques » a été développée particulièrement par C.M. Child dans son ouvrage sur les fondements physiologiques du comportement (1).

C'est ce principe de polarité que possède l'organisme et ses tissus qui rend l'animal capable de diriger ses forces de telle manière qu'il se place dans une relation appropriée avec son milieu. Cette polarité de l'animal, insiste Coghill, n'est pas simplement une affaire de différences structurales ou physiologiques ordinaires entre les parties ; elle est l'expression de forces en action, elle est, en un mot, dynamique.

---

2. Ch. Sherrington. The integrative action of the nervous system, 1911.

3. W.E. Ritter. The unity of the organism, 1919. — Une bibliographie étendue des travaux de l'école organiciste moderne est donnée par W.M. Wheeler dans son livre : « Emergent Evolution and the Development of Societies », 1928.

4. G.E. Coghill. Anatomy and the problem of behavior, 1929. Cf. Youssef Mourad, L'Eveil de l'Intelligence, Paris, 1939, pp. 90-98.

1. C.M. Child, Physiological Foundations of Behavior, New York, 1929.

C'est grâce à ce phénomène de polarisation axiale que les organismes inférieurs dépourvus de système nerveux présentent eux aussi le caractère d'unité et d'intégration des organismes vivants en général. C'est aussi ce phénomène qui préside au développement du système nerveux comme il a présidé à celui des cellules glandulaires et musculaires au cours de l'évolution de l'espèce.

Ainsi le développement est commandé par une totalité qui présente dès le début un caractère d'intégration : la partie est toujours en relations avec le tout de telle sorte qu'à chaque étape de la croissance de l'individu nous avons affaire non à une somme arithmétique de parties anatomiques, mais à une unité organisée. Coghill dénonce comme démesurée l'importance accordée au réflexe. Les travaux de Sherrington et de ses collaborateurs, par leur méthode d'étude analytique, ont contribué à mettre le réflexe tellement en relief, que sa distinction et son autonomie ont été surestimées relativement au comportement typique pris comme un tout. D'autre part, la méthode synthétique de Pavlov a eu aussi pour résultat d'exagérer le rôle des mécanismes réflexes dans les réactions motrices en les désintégrant du complexe total. Coghill insiste sur la prédominance du système total sur les parties qui le composent et se réfère aux travaux de R. Magnus (1) sur les réactions posturales de l'animal et où il démontre la subordination des réflexes à l'activité totale de l'organisme. Ce point a été aussi mis en lumière par M. Minkowski (2) dans ses études sur le développement des mouvements chez le foetus humain.

La subordination des parties au tout considéré dans son activité dynamique s'exprime aussi par la subordination des diverses fonctions à l'organisme pris dans son ensemble. H. Wallon (3)' discutant la notion de fonction formule un juge-

---

1. R. Magnus, Animal posture. Coronian Lectures, Proc. Roy. Soc. (B), 98 (B), 1925.

2. M. Minkowski, Sur les mouvements, les réflexes et les réactions musculaires du foetus humain de 2 à 5 mois et leurs relations avec le système nerveux foetal. Rev. Neur., Vol. 37, pp. 1105-1118, 1235-1250.

(3) H. Wallon, Le problème biologique de la conscience, in Nouveau Traité de Psychologie par G. Dumas. Tome I, pp. 293-329. Cf. aussi H. Wallon, L'évolution psychologique de l'enfant, Paris, 1941.

ment qui confirme et éclaire les résultats auxquels sont arrivés Coghill, Magnus et Minkowski. « .... La fonction est en elle-même une notion systématique et abstraite. Sans doute, elle offre en un sens plus de réalité que l'organe, puisqu'elle est sa raison d'être dynamique, son fondement et son explication biologiques. Par contre elle en a moins que l'organisme où elle se développe, car il répond à des nécessités particulières et à des formes déterminées d'existence, auxquelles elle reste subordonnée comme un élément dans l'ensemble. Le développement d'un être n'est pas celui de ses fonctions, mais celui de son type adulte » (p. 305).

Maintien de l'identité à travers le changement. — Un second caractère de l'organisme, étroitement lié à celui de l'individualité une et totale, est celui de son opposition au monde extérieur. L'organisme a un dedans et un dehors, le dehors étant formé par tout ce qui constitue le milieu matériel externe. Quoiqu'il soit difficile de tracer la ligne de séparation entre l'organisme et son milieu, il n'en demeure pas moins que cette distinction existe. Certes, entre l'organisme et le milieu extérieur, il y a un échange continuel de matière et d'énergie, mais en dépit de ces échanges l'organisme se développe suivant les caractéristiques de son type morphologique et fonctionnel et demeure plus ou moins le même, et dans certaines limites, indépendamment des variations du milieu extérieur.

Cette identité dans l'altération, cette perpétuation du type biologique à travers le changement, montrent la priorité de l'organisme sur les éléments qui le composent. Ces éléments acquièrent un mode spécial d'existence par leur intégration dans l'ensemble. Ce n'est pas la somme des éléments qui forme l'ensemble, mais c'est le tout qui organise les parties ; et ce sont les relations internes qui existent entre ces éléments pris un à un et entre eux et l'organisme pris dans son ensemble qui font que tel organisme est ce qu'il est. Un élément séparé n'est plus le même que quand il était intégré dans le tout. L'organisme qui est ainsi une véritable structure et non un agrégat d'éléments satisfait à un haut degré

aux critères de la Gestalt (1). Non seulement il est plus et autre chose que la somme de ses parties, mais il est aussi transposable en ce sens qu'il conserve ses propriétés caractéristiques et expressives tout au cours de son développement et qu'il est relativement indépendant vis-à-vis des variations du milieu extérieur. La matière extérieure ingérée n'est pas simplement juxtaposée, mais elle est assimiliée et modifiée non seulement en conformité avec sa nature propre, mais selon les besoins de l'organisme en vue du maintien de la structure et de la forme générale. Les moyens mis à contribution peuvent varier, mais la fin à réaliser reste la même et cette fin dépend strictement des besoins de l'organisme qui découlent de son organisation spécifique et des relations internes qui existent entre ses parties. Dans l'économie générale de l'organisme, le facteur final est un fait réel et il est agissant dans la mesure où l'on peut dire que les parties de l'organisme sont déterminées par l'ensemble. Si nous considérons, par exemple, le cas du développement embryonnaire et larvaire d'un animal jusqu'à l'étape de la reproduction, nous nous trouvons en présence d'une série d'étapes complètement différentes. L'état adulte se présente comme la fin vers laquelle tend le développement au moyen de ces diverses étapes successives. Ces moyens qui sont les étapes du développement sont en un sens déterminés par le tout qui est la formation de l'individu adulte. K. E. von Baer (2) comparaît déjà, il y a plus d'un siècle, le développement de l'individu à une mélodie. De même que dans une mélodie, la conception du tout par le créateur de la mélodie est antérieure à celle des parties et détermine le choix de ses parties et de leur agencement dans un système d'influences réciproques ; de même, l'état adulte d'un individu est un tout qui détermine les diverses phases du développement.

Cette tendance vers la réalisation d'un type, vers un équilibre dynamique optimum, n'est pas une cause extérieure qui s'ajouterait aux causes physiques, c'est une finalité immanente qui n'est que l'expression de ces causes physico-chimi-

1. R. Malthaei. Das Gestaltproblem, München, 1929.
2. Cité par F. Alverdes, The psychology of animals, p. 9, London, 1932.

ques mêmes, qui, à des degrés divers et avec des variations de complexité, se retrouvent à l'œuvre dans certains phénomènes physiques et chimiques qui présentent le caractère de système et de forme et qui se retrouvent pareillement dans l'organisme vivant qui présente le type de système le plus achevé.

La perpétuation du type biologique aux diverses étapes de son développement et au sein d'un milieu extérieur qui exerce des influences constantes, et le maintien d'un équilibre biologique à l'intérieur du système qu'est l'organisme vivant ne font pas que l'organisme puisse être considéré comme un système total et isolé. L'organisme fait partie d'un milieu plus large qui inclut le milieu extérieur avec lequel l'organisme a de constants échanges de manière et d'énergie. Considérer l'organisme comme un système isolé serait une abstraction qui sous prétexte de simplifier l'étude de son comportement aboutirait à des conclusions et à des résultats erronés. Ici, la méthode employée en physique et qui s'accommode d'une certaine simplification et fait abstraction de certains facteurs pour établir des lois mathématiques qui ne s'appliquent qu'à des cas théoriques et idéaux serait inadéquate. D'ailleurs les fonctions de l'organisme vivant, irritabilité, motilité et reproduction, le maintiennent en étroit rapport avec son milieu extérieur. Ces trois fonctions qui sont conditionnées dans une certaine mesure par le milieu extérieur, le sont surtout par un facteur d'ordre plus primitif qui se confond avec les besoins de l'organisme. Ces besoins organiques sont l'expression directe du milieu intérieur. Le rôle du milieu intérieur, sur lequel Claude Bernard avait déjà particulièrement insisté, est dans la majorité des cas premier et initial, car c'est lui qui sensibilise l'organisme à l'égard du milieu extérieur. Cette priorité du milieu intérieur, comme la priorité de l'organisme à l'égard de ses parties constitutives sont la véritable clef pour la compréhension du comportement animal et humain.

C'est à cause des caractéristiques propres que présentent les échanges constants entre les deux milieux : rôle initiateur ou perturbateur du milieu interne, modes d'action et

de réaction de l'organisme et des organes qui y sont intégrés, multiplicité d'aspects et variations du milieu extérieur, que les lois du comportement sont difficiles à établir. Il devient par conséquent malaisé, et dans bien des cas impossible, de prédire dans quelle direction se dérouleront les processus du comportement, contrairement aux processus physico-chimiques qui doivent nécessairement suivre une direction déterminée. Il est vrai que la physique du XXème siècle tend par ses conceptions générales à atténuer la rigidité d'un tel principe et dans la mesure où elle reconnaît que les lois physiques ne sont que des lois statistiques, elle substitue la probabilité à la certitude. Il n'en demeure pas moins, qu'à notre échelle spatio-temporelle, le déterminisme des processus physiques est mieux établi et plus simple en apparence que le déterminisme des processus biologiques.

Il est surtout malaisé de prévoir dans quel sens se produiront les manifestations du comportement, à cause du flux incessant des changements qui rompent à chaque instant un équilibre qui n'est jamais achevé. En effet, l'organisme vivant ne réalise jamais un état d'équilibre stable. Cet état d'équilibre stable, s'il existait, serait d'ordre purement physico-chimique et correspondrait à la mort. L'état d'équilibre réalisé par l'organisme vivant est un équilibre qui se qualifierait plutôt de dynamique et qui est caractérisé par la constance de certains facteurs qui maintiennent le système en l'adaptant à d'autres facteurs internes et externes qui changent rapidement.

En dépit ou plutôt en raison de ces ruptures d'équilibre et des rétablissements approchés et successifs de nouveaux équilibres, l'organisme se maintient tout au long de son développement jusqu'à ce que l'équilibre biologique soit rompu irrémédiablement et fasse place à un équilibre physico-chimique qui n'est plus celui d'un individu, mais d'un agrégat de particules matérielles dissociées. Tant que l'équilibre biologique avec ses mécanismes propres se maintient, l'organisme vivant conserve son identité individuelle et se comporte comme s'il tendait à maintenir cette identité ou en d'autres termes à persévérer dans son existence. Un système chimique

par exemple qui se trouve en équilibre stable se maintient tant que ses réserves internes d'énergie ne sont point épuisées. Il obéit à la loi de Le Châtelier qui dit que si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à annuler l'effet de ce changement. Ce même principe s'applique aussi au système vivant avec cette différence que l'organisme est un système qui ne peut être isolé du milieu extérieur alors que l'on peut réaliser expérimentalement des systèmes chimiques qui constituent, pendant un laps de temps plus ou moins grand, des touts indépendants. D'ailleurs cette dépendance étroite et continue à l'égard du milieu extérieur est une condition nécessaire de la fonction à la fois transformatrice d'énergie, réparatrice et légulatrice de l'organisme vivant. A l'intérieur de l'organisme vivant, se trouvent d'autres systèmes subsidiaires qui sont régis par la loi de Le Châtelier. Mais pour l'organisme pris dans son ensemble et en fonction du cycle qu'il parcourt, croissance, mâturité, vieillesse, le principe de Le Châtelier doit subir une légère modification et s'énoncer ainsi : « Si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre dynamique, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à atténuer l'effet de ce changement ».

La différence entre ce second principe et le principe de Le Châtelier est d'une importance capitale. Ce second principe, en effet, revient à dire que tout changement modifie l'organisme, et que le nouvel équilibre établi est différent de l'action. Cette modification dans la mesure où elle retentit sur le comportement extérieur, constitue pour l'individu une partie de son expérience. Cette modification, et partant ce que l'on appelle la plasticité de la matière vivante, n'est possible que grâce à la nature de l'équilibre dynamique propre à l'organisme vivant et qui est un équilibre tensionnel, non entre des

particules de matière, mais entre des processus qui se déroulent dans l'espace et dans le temps (1).

Mais cette modification de l'organisme va de pair avec sa conservation. Ces deux aspects sont complémentaires l'un de l'autre. Un organisme qui changerait au point d'être autre à chaque instant serait quelque chose d'aussi impensable qu'un organisme qui resterait immuable et qui ne subirait aucun changement. L'organisme se développe dans l'espace et dans le temps pour réaliser un type biologique propre. Une fois conçu, il se développe, se modifie, atteint sa mâturité, puis dégénère; mais au cours de ces étapes successives et jusqu'au moment de sa dissolution, il obéit à une loi de développement continu et en vertu de son organisation biologique propre il conserve une identité générale qui fait qu'on peut parler du même organisme en dépit des changements qu'il subit. Cette identité de l'individu biologique diffère de l'identité statique d'un objet inerte ou d'un système physique ou chimique clos. Ce n'est pas une identité de matière, ni une identité de forme stable, mais l'identité réalisée par une unité spatio-temporelle qui se développe dans une direction donnée, grâce à des modifications qui sont régies par un mécanisme régulateur et compensateur interne.

---

1. La plasticité de l'organisme vivant se manifeste sur le plan organique interne, sur le plan sensoriel et sur le plan moteur.

La constance et la régulation du milieu interne : sang, lymphe, liquides intestitiels, liquide céphalo-rachidien, sont assurées par de multiples mécanismes : chimiques, harmonaux et nerveux. Les limites dans lesquelles les variations du milieu interne peuvent s'accomplir sans entrainer de dérèglements graves sont variables. Les invertébrés supérieurs et les vertébré, poikilothermes (Poissons, Batraciens et Reptiles, appelés improprement animaux à sang froid) ont une résistance plus grande aux variations que les animaux homéothermes (Oiseaux et Mammifères). Chez ces derniers, un des phénomènes de régulation le plus délicat est le maintien de la composition chimique du sang et de son état physico-chimique (constance du pH). W.B. Cannon, The Wisdom of the Body, 1932.

Un exemple de plasticité sensorielle est la réorientation du champ de la vision chez des hémianopsiques. Une moitié du champ de la vision disparait et un nouveau centre du champ se forme dans l'autre moitié.

La plasticité motrice est manifeste dans les cas d'amputation. Un chien, amputé d'une ou de deux pattes, coordonne immédiatement, après la cicatrisation de ses blessures et sans aucun apprentissage le mouvement de ses autres membres moteurs. La coordination se fait toujours selon un rythme complètement nouveau. Il n'existe pas de centres rigides et fixes de la coordination des mouvements. La plasticité du système nerveux est surtout mise en lumière dans les cas pathologiques. (BETHE et WOITAS, 1930). Cf. D. Katz, Animals and Men, 1936.

Résumé. — Les considérations sommaires qui précèdent nous amènent à donner de l'organisme vivant la définition suivante : Un organisme vivant est un système dynamique tensionnel qui dans des conditions internes et externes qui changent constamment, tend à réaliser un type spécifique et à maintenir son identité fonctionnelle et biologique grâce à une organisation interne déterminée.

C'est un système dynamique, parce qu'il est agencé de telle sorte qu'à l'action de certains facteurs de changement, il oppose celle de certains facteurs de modération et de compensation en vue d'établir un équilibre proprement biologique qui se caractérise à la fois par son instabilité et son rétablissement rapide, et cela dans une direction progressive déterminée.

Il est tensionnel, en ce sens qu'il contient de grandes réserves d'énergie potentielle, et qu'il peut diriger, modérer ou inhiber ses dépenses énergétiques et réparer de lui-même ses pertes d'énergie.

La constance du type biologique est conditionnée surtout par la constance du milieu interne laquelle est réalisée par le fonctionnement de certains systèmes subsidiaires très complexes qui agissent comme des amortisseurs et des régulateurs. L'action de ces systèmes a pour but, en particulier, de maintenir constante la composition chimique du milieu vital.

Les besoins de l'organisme sont dans une grande mesure conditionnés par le milieu vital interne.

Le système biologique diffère de la majorité des systèmes physiques et chimiques en ce qu'il peut être composé de particules différentes de matière à des temps différents, le type total demeurant toutefois, mais dans certaines limites, indépendant d'une pareille variation.

L'identité de l'organisme vivant qui se maintient dans le temps et dans l'espace n'est ni une identité logique, ni une identité statique et inchangée, mais dynamique et progressive. Identité dynamique, car tout nouvel équilibre instauré

diffère de l'équilibre précédent en raison des modifications qui résultent de tout agent de perturbation et qui ne sont pas complètement annulées par les systèmes compensateurs partiels, mais plus ou moins atténuées. Ces modifications, dont l'effet plus ou moins durable subsiste toujours, constituent l'expérience individuelle de l'organisme et retentissent sur les dispositions innées, tout en étant conditionnées par elles, pour les modifier dans un sens ou dans un autre.

Ces possibilités de modification de l'organisme vivant tiennent à l'extrême complexité de la composition chimique de la matière vivante et de son organisation en un système individuel spatio-temporel. Cette plasticité de la matière vivante avec ce qu'elle comporte de variabilité et d'adaptation est une donnée en quelque sorte primitive pour l'étude du comportement.

فهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الايـداع بدار الكتب ١٩٧٤/٢٠٨٦

